

﴿ اهداء الكتاب ﴾

(نظام العالم)

(الحكمة والادب)

الادب سلم الحكمة وسبيل المودة وصلة التعارف ومستوى تسمع فيه صرير أقلام القلوب المتناجيه والحكمة هي الفن الباحث عن حقائق الموجودات علويها وسفليها وعن العمران والسياسة ورقى الأمم ونضالها فى معترك الحياة فالحكمة قلب والأدب لسانه وهي معنى وهو الكلم وهي روح وهو الجسم وهي شجر وهو الثمر . وشأن الامم فى أبان نشأتها أن تدرجها فى مدارج الحياة ان تبدأ بالادب ثم ترقي الى الحكمة وناهيك بالدولة العربية اذ ترى أمثال أبى تمام والبحترى والمتنبيء وأضرابهم فى نحو القرن الرابع مولعين بالادب فجاء القرن الخامس والسادس الاوفد نجم فيهم امثال ابن مسكويه والغزالى فولوا وجوهم شطر الحكمة ونظموها فى أسماط الادب فلم تظلم طرق استفادتهم بالعقد الاعجمية كما ... كتب العجم اذ عطل جيدها من جمان الحكمة بل جلوا تلك اللآلىء فى انماطه فتآخي لديهم الادب والحكمة .

أجمع جهابذة الانشاء انه لن يؤثر المنشيء الا متى أوحى اليه الوجدان وساعده الطبع وأملى عليه الضمير . هنالك يكون القول ناجعاً والقائل مبتهجاً والسامع هاشاً باشاً لان القول اذا خرج من القلب دخل القلب وان خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان .

لا معين على الانشاء أجمل من استجلاء الحقول ومشاهدة مباهج المناظر الطبيعية البهجة والارتياض بما تحادث به الازهار فى أكمامها والاثمار في أغصانها والغدران فى سهولها والنبات فى حقولها والنجوم فى أشراقها والشموس فى اضوائها . هنالك يتناجي القلب مع رسل العالم وجند الحكمة ويعلم مالم يكن يعلم ويؤتى ما لم يكن ليخطر على قلب من وقف على الالفاظ وقوف الفقيه فى حواشيه والنحوى فى مباديه فان ارتقى الناظر الى درس تلك العلوم وأبرزها فى قالب الادب كان ذلك نوراً على نور وأصبحت الحكمة حلى مصوغا وجوهراً منظوما وقراءة كتاب فى ذلك تمنح قوة فى الشعور وقدرة فى التفكر وسلامة فى الذوق وملكة فى الانشاء يضل دونها من لم يسلك هذه السبيل . الحكمة وان عطلت من الادب كما فى انشاء ابن رشد فهي أفضل منه فان نسجت على منواله وصيغت فى قالبه ورصعت ترصيعاً وجليت فى حبره فقد أضحت زينة فى لآلائها وبهجة فى أنوارها كما ترى فى ابن سينا وبعض كتاب هذا العصر والغزالى وفى كتابنا (نظام العالم والامم) أصبح الادب وحده أدنى منها بمراتب يتسلى به أقوام . فان كنت في شك مما شرحنا فاسمع ماقاله الغزالى رحمه الله تعالى فى كتاب جواهر القرآن .

قال فى صفحة ١٨ عند الكلام على عجائب النحل والبرهنة على أن تسديس بيوت النحل أنسب الى جسمه قال (فلا شكل من الاشكال يقرب من المستدير ويتراص غير المسدس وذلك يعرف بالبرهان الهندسى فانظر كيف هداه الله الى خاصية هذا الشكل وهذا نموذج من عجائب صنع الله ولطفه ورحمته بخلقه فان الادنى ينبئ على الاعلى وهذه الغرائب لايمكن أن تستقصى فى أعمار طويلة أعنى ما انكشف للآدميين منها وانه

ليسير بالاضافة الي ما ينكشف واستأثر هو والملائكة بعلمه وربما ترى تلويحات من هذا الجنس في كتاب الشكر وكتاب المحبة فاطلبه ان كنت أهلا له والا فغض بصرك عن آثار رحمة الله ولا تنظر اليها ولا تسرح فى ميدان معرفة الصنع ولا تتفرج فيه واشتغل باشعار المتنبي وغرائب النحو لسيبويه وفروع ابن الحداد في نوادر الطلاق وحيل المجادله فى الكلام فذلك المبق بك فان قيمتك على قدر همتك (ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلامرسل له من بعده) انتهي

وتأمل ماقاله العلامة السير جون لبك في كتاب مسرات الحياة صفحة ١١٨ ناقلا عن السير هكسلى اذقام خطيباً فى كلية العمال فى جنوب لندن

هب ان قوام حياة أحدنا على كسب دور فى لعب الشطرنج أفلا نحقر الوالد الذى أهمل ابنه فلم يعلمه الشطرنج أومبادئه وكذا الحكومة المهملة تعليم رعاياها . ذلك فلتعلموا أن حياة كل فرد منا تتوقف على لعبة أهم من لعب الشطرنج فرقعة الشطرنج العالم كله وقطعه ما ظهر من العالم أمامنا وقواعده القوانين العامة والنواميس المودعة والاسرار والحكم وخصمنا فى الملعب لا نراه ولا نعلم عنه الا أنه حليم منزه وعدل لايتجاوز عنا لجهلنا بالقواعد فاذا حذق أحدنا فى اللعب أفرغ عليه من جمال العالم جلبات وحلى عقله بأبهى زينة وأجملها

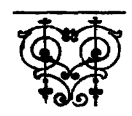
وقال فى صفحة ٢٢١ منه أن محبة النظر فى الطبيعة موهبة ثمينة فمن عرى عنها فقد باء بالخسران المبين

ثم قال بعد سطرين ان تلك المحبة أعظم مؤثر على العقول الانسانية وعلى هذا نوى علماء الشرق والغرب أجمعوا على هذه ونرى علماء

أوربا أخـذوا بالنش فى مبدإ أمرهم بالنظر فى الاشياء حتى فاقونا فى معترك الحياة ولقد وجدت فى الكتاب الحكيم نحو ١٦٠٠ آية فى هذه الحكمة فعجبت كيف تركناها ظهرياً ولقد وضعت كتبا مختلفة باختلاف طبقات الامة فى هذه الحكمة وأكبرها وأنفعها هذا الكتاب وأردت به أن أوجه وجهة النش والادباء الى الحكمة ومن طالع هذا الكتاب يعلم علم اليقين اننا مقصرون آثمون فى ترك هذا العلم كما فى كتابنا المقدس من الحث عليه وانظر كيف يكون الفقه كله من مائة وخمسين آية وهذا الفن يبلغ ١٦٠٠ ولا معنى للتوحيد فى الديانة الاسلامية الا هذا وحده

وهذا الكتاب مقتبس من آراء علمائنا الاقدمين وعلما الاوربيين ليجني كل من ثمره فيرى الشيخ أنه فى دينه وعلمه ويقرؤه سواه فيرى المدنية والعـلوم الحديثة ورقي الامة وسياسة الجمهور والاشراف على السياسة بأنواعها. كتاب يضم بين شفتيه كلمات التوحيد وملكة الانشا وعلم العمران وسياسة الامم ونموذج العلوم والتبصرة والذكرى أحرى أن أهديه لاذكياء الامة وعقلائها وأدبائها ويسرنى أن أرى كثيراً من النش يجلسون على أرائك الحكمة متقابلين فى رياض جنات العلم ولقد أجمع حكماء العرب أنه لن تنال درجة القرب من مبدع هذا العالم الا بالالمام بجميع هذه العلوم وفى ظني أن ما كتبناه الى الآن كاف لبلوغ هذا الشأو ولم يبق ريب في أن هذا العلم هو الحكمة وعلى ذلك وضعنا كتبنا مختلفة كل كتاب يخالف الآخر ولا تكرار فيها وأجلها كتاب نظام العالم والامم فقد جمعنا فيه بين النظر بأنفسنا وآراء علماء الشرق وبعض علماء الغرب ونسجناه بأملاء الوجدان وأهدينا الطبعة الاولى منه الى مدرسة المغفور لها والدة المرحوم عباس باشا الاول ليطبع فى مطبعتها

المرة الاولى مساعدة للتعليم بها وعهدت به الى صديقي الكامل سعادة يحيى بك قدرى لطبعه ونشره فأسأل الله أن يجعله مؤيداً مدنية الشرقيين وموقظ المسلمين ولعمرك ماحدابى الى هذا الاقول الغزالي رحمه الله فى تفسير قوله تعالى ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان فقال لايعرف معنى الميزان الا من درس العلوم حتى أدرك ان هذا العالم كله موزون ولقد حاولت فى غير هذا الكتاب ان أصل الى هذا السر حتى انى سميت أحدها كتاب ميزان الجواهر اشارة لذلك فلم أصل لتمام المقصود منه . أما فى هذا الكتاب فقد ظهر لى بالتبيان كالعيان ان العالم كله موزون بميزان واطمأن قلبي بالبرهان وأرجو أن يشاركني فيه الاخوان الاذكياء العاشقون للحكمة





يسرني أن أرى شعور الامة المصرية حياً قويا. فانى اذ اتجهت آمالى لبث ما أجده في النفس بغريزتها حباً فى رقى الناشئين ورغبة في ايقاظ الهمم وجدت اقبالا من رجال الامة على اختلاف طبقاتهم وتباين مشاربهم

ومما يبعث فى القلب روح الامل والرغبة في العمل ازدياد يقيني بتلك الحياة كلما جسست نبضاً لغرض التعضيد فى الطبع أو النشر وخير مثال لذلك مارأيته من صديقى الفاضل الكامل سعادة يحيي بك قدرى فانه اذ رأى وقتي يضيق عن الطبع والنشر مد يداً للمساعدة بطبعه وقبل الكتاب ليحييه بنشره فأحمد الله على قوة الحياة القومية المصرية وأشكر هذا الصديق شكر المخلصين

المؤلف

فهرس

صفحة

٤و٥ النظر فى النفس. التأمل فى العالم. مقام الحيرة. هل العالم موزون منظم
٦ مقارنة بين علماء المشرق والمغرب. الامام الغزالى واللورد أوف برى العالم الانكليزي الشهير المعاصر لنا. اتحادهما مع القرآن الشريف
١٠ سلف الافرنج نقلا عن ذاك اللورد
١٥ القرآن الحكيم والمسلمون. متأخروا الافرنج
١٩ مقاصد نظام العالم والامم
٢٢ الأزهار ونظامها. نظم جميل. لطيفة.
٢٦ معجزة للقرآن فى الزهر. لولا الحشرات ماجمل الزهر
٢٩ الزهر ذوا المفاتيح والاقفال والحراس
٣٢ الحشرات والنحل كالدول فى السياسة
٣٣ الزهر المنظم كالجند
٣٤ زهر عجيب محكم الترتيب
٣٥ نوم الزهر. اختلاف أوقاته صباحا ومساء. عجائب غريبة مدهشة
٣٧ اختلاف ألوان الزهر لاختلاف الارقات والحشرات. لطائف عجيبة
٣٨ معجزة للقرآن فى الزهر والنحل. اثبات ان هذا الفن هو لب التوحيد وغيره قشور
٣٩ بقية تقسيم الكتاب

صفحة

الباب الاول من نظام العالم والامم

٤٣ شوق النفوس الى العلوم . كون علم الحساب فيها . كونه مبدأ العلوم معنى القول بأن العالم موسيقى . خطاب للنفس

٤٩ سيدنا ابراهيم الخليل . نظره فى السموات والاوض . القول بوجوب تعلم الفلك من ذلك انتظر . فلسفة

٥٢ ذم المعرضين عن العلوم العصرية باسم الدين وتخطئتهم . نبوغ أولئك فى الجهل بحقيقة الدين

٥٣ اتفاق علماء الشرق والغرب على معرفه هذه العلوم . كلام حكيم للامام الغزالى . رأى للورد أوف بري الانكليزى . فكر لراسكين الرومانى . موافقة جميع ذلك لما فى محكم التنزيل

٦١ من أنذر فقد أعذر

٦٣ الكلام على النفس . استخراج الأعداد منها . علم الارتماطيقي أى خواص الأعداد

٧٧ خواص دقيقة فى الحساب « الارتماطيقي » . رسوخ الاعداد فى صميم النفس والاستدلال بذلك على وجود الخالق عزوجل مجرداً عن المادة . اثبات وجود النفس

٨٢ موضوع حديث الابتداع لم يحم حوله فكر ولم يمسه يراع . فلسفة فى أصل وضع الشطرنج والنرد . موافقة نظامهما نظام السموات والارض . كونهما سلما للعلوم . مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة ومناسبتهما لهما

٨٦ غفلة اللاعبين

صفحة

٨٨ قصة الشعبي وملك الروم
٩٠ على ذكر الشطرنج والنرد. قصة جميلة
٩٣ حكاية رقمت للمؤلف
٩٤ الواحد الحقيقي والواحد المجازي
٩٧ الموسيقى والعالم والنفس وفيثاغورس. وحدة الأمة ووحدة العالم
١٠٣ شوق النفس الى عالم الارواح
١٠٧ اتفاق غريب
١١٥ بدائع في الحساب. الاستشهاد بالقرآن الشريف
حساب الشطرنج باللوغارتم. وبطريقة أخرى توافقه
١٢٤ استشهاد من القرآن الشريف على أن الإيمان لا يكون يقينياً الا
بادراك هذه العلوم. قصة سيدنا الخليل ابراهيم والطير. الاستدلال
بها على وجوب معرفة علم الكيمياء
١٢٨ اثبات ان العلوم الحديثة من معجزات النبوة في هذا الزمان
الباب الثاني
١٤٠ الفلك وحسابه. عجائب الظلال. زينة السماء. فلسفة في الهندسة وأصولها
١٤٣ حيرة العقلاء في نظام الافلاك. عشق النجوم
١٤٩ شواهد من القرآن الشريف على نظام الكواكب وانتظام سيرها
١٥٧ ذم المعرضين عن التفكر في خلق السموات والارض
١٦٣ اختلاف الليل والنهار. آيات من القرآن الحكيم. معرفة الملون
في كل نقطة في الارض
١٦٧ الليل والنهار والنسبة بينهما. وبين الشرق والغرب زيادة ونقصانا

صفحة

١٦٩ حوادث عظيمة فى الارض بتقدم الاعتدالين
١٧٥ الأمة اليائسة جاهلة بنظام العالم والدين الحق
١٧٨ حكم السنة الشمسية والقمرية والفرق بينهما بحيث يستغنى بها الفلاح فى حقله . حاجة الاذكياء الى ذلك . الاستشهاد بالقرآن الشريف
١٩١ عجائب الظلال وشواخص المزاول . أبدع ما ابتكر فى الظلال من العجائب والغرائب . تصور حقيقة الظل
١٩٦ غفلة العقلاء عن النظر فى ظلال الاشجار والابنية
٢٣٢ تقويم السنة العربية وشهورها . كونها كالكسر الدائر وانها انما تكون بحساب محكم متقن . آيات كثيرة في ذلك . أولو العلم المرادون بقوله تعالى هم العارفون بذلك
٢٤٣ الكواكب (مترجمة من الانكليزية عن اللورد أوف برى)
٢٤٥ دورة القمر
٢٤٦ عجائب في المد والجزر . مناسبة ذلك لقوله تعالى (يتنزل الامر بينهن)
٢٤٨ جغرافية القمر
٢٥٠ عجائب القمر المجهولة
٢٥١ الشمس
٢٥٢ معجزة من معجزات القرآن في آخر الزمان
٢٥٣ حرارة الشمس . منافعها . عجائبها ومعجزة للقرآن الشريف في تركيبها . مقارنة تركيب الكواكب عند الافرنج به عند العرب . الفريقان على أن العلم موسيقى وهو جسم واحد منتظم . موافقة ذلك للذكر الحكيم

صفحة

٢٦٣ الكواكب السيارة. الأرض وحركاتها. بقية السيارات. الكواكب الثابتة . أعدادها . أبعادها . أضواؤها
٢٧٤ مسألة تشحذ أذهان الرياضيين في الفلك . بعد الكوكب يعرف بأحد أمرين
الباب الثالث
٢٧٦ الكلام على نظام الارض وما عليها . الجذر والتربيع في التبادل والاحجار الساقطة والاجسام المتجاذبة موضحاً . مناسبته لقوله تعالى « سريع الحساب »
٢٨٤ القطبان. عجائبهما. جبال من الثلج عائمة . منظر بهج جميل هناك قوله تعالى «من جبال فيها من برد»
٢٨٨ الكلام على دائرة الوجود ملخصاً من كلام العرب والافرنج . مذهب دروين غير مبتدع له
٣٠٣ الأمة كالفرد
الباب الرابع
٣٠٩ عجائب النبات. غرائب النخلة والعنب والتين. سبب كثرة عروق النخلة في الارض. لم يحزمها الليف. لماذا كان الغشاء الرقيق بين جرم البلحة ونواتها. غرائب الحكمة الآلهية. سؤالان في النخل
٣٢٢ اظهار أن القرآن الآن كالبذور سيظهر ثمرها فى هذه الايام
٣٢٦ تقسيم الامة الاسلامية الي ثلاث درجات في تاريخها — الصحابة عليهم الرضوان وآية الكرسي — زمن الملوك بعدهم كمحاجة ابراهيم للنمرود — الارتقاء المنتظر بالتحليل والتركيب فى الطبائع كمسألة

صفحة

سيدنا ابراهيم الخليل والطير — ومسألة العزير والحمار
٣٢٩ جدول منظم عجيب يرشد القارىء الى أن النبات مواده واحدة وانما كان هذا مطعماً أو ملبساً لاختلاف مقادير العناصر — الملبوس عين المأكول — قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون)
٣٤٠ عدد النبات على سطح الارض — نقص الانسان فى المعارف (مترجمة عن اللورد أوف برى)
٣٤٢ الغابات والحقول — اللورد أوف برى — تعقل النبات وتحركه قوله تعالى «قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»

(الباب الخامس)

٣٥٠ الكلام على نظام الحيوان
٣٥٦ حيوان يعيش ملايين من السنين (مترجمة عن اللورد أوف بري) عجائب الالوان فى الحيوان — كل لون وضع الحماية لحيوان وكذا الشكل والهيئة — سبب اسوداد ظهر السمك وأبيضاض بطنه — غرائب
٣٦٥ لم تلون الاغنام بالخضرة «اللورد ايف برى»
٣٦٧ الجمهوريات فى الحيوان — النمل — أممه — مدارسه — فرق تلاميذه عساكره — ضباطه — حروبه — أسراه — مواشيه — حلب بقره رعيه لمواشيه — جمعه بيض حيوانه — قصة سيدنا سليمان والنمل
٣٧٦ هل للحيوان حاسة غير الخمس
٣٧٨ بيان ان العلامة اللورد ايفبرى أقرب الى علماء الاسلام



نظام العالم والأمم

أو

الحكمة الاسلامية العليا

تأليف العلامة المفضال خلاصة الحكماء وصفوة العلماء حضرة

الشيخ طنطاوي جوهري

وهو الكتاب المستطاب الذي قدمه حضرة المؤلف هدية
لمدرسة ساكنة الجنان والدة المرحوم عباس باشا
الاول وأذن بطبعه لفائدة المدرسة المذكورة

طبع هذا الكتاب على نفقة وقف تلك المدرسة

(القاهرة :)

مطبعة مدرسة والدة عباس الأول

سنة ١٣٢٣ هجرية — ١٩٠٥ ميلادية

الزهرة

اليك قارئ كتابي نظام العالم والأمم أقدم زهرة إقتطفتها منه لتقف على مقاصده ولتشوقك جمال منظرها الى التأمل فيما أودع فيه من دقائق العلم وعجائب الحكمة ولتكون صلة بين الروحين ومحبة في الدارين .





نحمدك اللهم يا جميل الصنع على أبداعك فى مخلوقاتك . واتقانك فى مبدعاتك . ونصلي ونسلم على نبيك ونوجه اليك نفوساً مشوقة بغرائزها. الى ما يحيط بها من العالم وما يكتنفها من الامم وسياساتها. وما المناسبة بين العالم ونظامه والامم وسيرها، فكم من حسرة تعترى العقلاء حين تخطفهم المنون وهم يجهلون هذا الجمال والحسن والبهاء فى السماء وكواكبها، والارض وزينتها وذلك الاعتبار فى الامم وأحوالها،

أيها الانسان تأمل فى نفسك عند خلواتك فارغاً من الهموم . تجد قلبك يطالبك بالاحاطة بما تراه العيون. وتجسسه الظنون. ثم يناجيك هل هذا العالم الذي يحيط بي سائر على نواميس صحيحة وقوانين منتظمة ؟ وهل ما أسمعه فى الكتاب المجيد من قوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل) (وكل شيء عنده بمقدار) (والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون) هل هذا كله سائر على نواميس صحيحة بحيث يوقن الانسان

بذلك ايقاناً تاماً ثم تأمل الناس حولك تجدهم لا يخرجون عن ثلاث أحوال : قسم وهم السواد الاعظم بمعايشهم مشغولون من الضروريات والحاجيات والكماليات والزينة، وقسم يسترقون السمع عن تلك العجائب ولكنهم حائرون لا يدرون ما يقولون، وقسم ارتقت بصيرته عن السابقين فأدرك ما جهلوه وذكر ما نسوه وعلم ان هذا العالم من ناطق وصامت وجماد وحيوان وزرع ونبات وحدائق وجنات وانهار جاريات وعيون نابعات وجبال شامخات وثلوج متراكمات وبحار واسمات وأسماك سابحات وأنوار باهرات ورياح ذاريات وسحب سائرات كل ذلك على نواميس محدودة وحكم معقوله

ولقد بعثني على هذا النمط من العلم ما دعينا اليه من الآيات كقوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وأن عسى ان يكون قد اقترب أجلهم) (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا)

وقد أجمع العلماء ان الفكر فى مثل ما انتهجنا غاية عبادة العلماء ونهاية حكمة الحكماء . ومن العجيب امتزاج نهاية اللذات والسعادات بالعلوم والعبادات فترى ان هذا النهج من الحكم موجب لسعادة الدنيا بالماديات والآخرة بالادبيات . وأى سعادة أرقى من عقل حصل على يقين أن كل ما يراه محكم ومنتظم سائر على قوانين فهمها نفسه وألفها فكره ففى ذلك فليتنافس المتنافسون . فما أشد شوق الاذكيا الى اليقين

﴿ مقارنة ﴾

(بين آراء علماء المشرق والمغرب)

ومن العجيب أن يجد على هذا المبدإ الشرقي والغربي . فهل لك أن تعيرني التفاتة وتصغى الى ما أنقله لك عن العالم الشرقى المتوفى فى أوائل القرن السادس من الهجرة حجة الاسلام الغزالي وعن العالم الغربى السياسي الكبير جون لبك الذى يشاركنا فى الحياة ويتمتع معنا بضوء الشمس وهبوب النسيم وتأمل سيدى كيف اتفق الرجلان واصطحب العالمان واتحد الرأيان . أو ليس من العجب بل من أهنأ السعادة فى الحياة أن يحث كاتب هذه الرسالة عن هذا الاتحاد بين الشرقي والغربى فيعثر عليـه وها أنا أملى عليك أولا كلام حجة الاسلام الغزالي ثم نطابقه بكلام العـالم الغربى العصرى قال الغزالي رحمـه الله فى باب الحب (ان المدركات كلها التى هي شاهدة على الله انما يدركها الانسان فى الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم فى شهواته وقد أنس بمـدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها على قلبه بطول الانس ولذلك اذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا وأعضاؤه فقال « سبحان الله » وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد

قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الانس بها ، ولو فرض انه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره الى السماء والارض والاشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجاءة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها . فهذا وأمثاله من الاسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة . فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل اذا كان راكباً لحماره وهو يطلب حماره والجليات اذا صارت مطلوبة صارت معتاصة ، فهذا سر هذا الامر فليحقق ولذا قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ... فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

وقال العلامة جون لوبك (ما أسعد الناظر فى جمال الخليقة إذ تتزين له العوالم وتسفر عن أبهى جمالها وزينتها وما فصول السنة إلا أحباؤه القدماء وأصدقاؤه الندماء يجددون له اللذات ويعيدون له السعادات واذا مشى منفرداً تجلى له من الطبيعة ما تقر به عينه ويشعر منه باللذة والسعادة فتطل له الازهار من سياجها أو تخرج باسمة من أرضها وتغنى له الطيور على أشجارها محاطة بأوراقها النضرات وأزهارها الباسمات فاذا انقضت تلك السنون أعقبها الذكرى السارة وخلدت فى صحائف مخيلته وذاكرته ما يرتاح له ضميره . فهو إذن ما بين حاضر جميل وغابر لذيذ .

الناس فى هذه الدنيا فى غمرة ساهون منغمسون فى تيارها تحت

وحمة أمواجها فلا مناص لهم منها ولا قوة لهم على دفع حوادثها إلا فى أويقات قليلة . أقول فكأنه اقتبس من مشكاة قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ثم قال

وليس حب الطبيعة ما يعتاده كثير ممن لا يعلمون فيجمعون ماجمل من الازهار وينثرونه على الارض . ولعمرى كيف يهان هذا الجمال الباسم والحسن الباهر . أهذا حب الطبيعة وجمالها ساء ما يحكمون . إضاعة الجمال واهانته أشنع إضاعة وانحسها . اذا تصورنا ان هذه الدنيا طالت أيامها وقلت حوادث الشروق والغروب فلم يكد يسمع الرجل بالصباح والمساء إلا مرة واحدة فى عمره فانه يشتاق الى ذلك أشد الاشتياق وفرح بما يبدو له من ذهب أصفر فاقع جمال الشمس فى شروقها وغروبها سعادة فى نفسه يترقرق حسنه على بساط البسيطة فى الصباح والمساء لكننا لا نعير جمال الطبيعة التفاتاً لأنها حاضرة لدينا مشاهدة أمامنا صباحاً ومساء فهانت على النفس بتكرار المشاهـدة . قال سبكير عن ارسطاليس اذا تصورنا قوماً عاشوا تحت طباق الثرى فى منازل جميلة مزدانة بالتماثيل والصور قد أوتيت من كل شيء حتى يحسبهم من اطلع عليهم انهم أسعد العالم حظاً فى الحياة وارقاهم منزلة فاذا فرض ان الارض انشقت فخرجوا من تحتها ونظروا هذا العالم فلا جرم انهـم ينسون نعيم بيوتهم الأرضية ويهجرونها ويخرجون سراعاً . فياليت شعرى كيف يكون سرورهم وفرحهم وتأملهم اذا نظروا هذه الارض وجمالها

والبحار واتساعها والانهار وجريانها والرياح وهبوب عواصفها والسحاب الملقحات والشمس ونورها وإشراقها وجمالها وقدرة الخالق وعظمته في ابداعها وتأملوا القمر وهو يبدو دقيقاً ثم يتسق كما قيل

المرء مثل هلال حين تبصره يبدو دقيقاً ضئيلا ثم يتسق
يزداد حتى اذا ماتم أعقبه كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق

ثم تأملوا النجوم وهي تتلألأ في السماء مشرقة بهجة وعرفوا حسابها ونظامها البديع في شروقها وغروبها فاذا تأملوا ذلك كله ولاحظوه فلا جرم يستنتجون منه ان لهذه الكائنات صانعاً مدبراً قادراً مهيمناً عليها وان هذه العوالم مصنوعات له اه

أقول اليس هذا قبسة من مشكاة قوله وتعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الارض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون والذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون) وقوله عزوجل (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يؤفكون) أى الى أى مكان يصرفون اذلا محيص لهم عما أجمع عليه خواص نوع البشر وقوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق

ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون) ثم بعد ان ذكر هذه العجائب التي شغف بها الغربيون أفاد ان الامم المتمدنة المسيطرة على العالم هى التي عرفت هذه العلوم وان أى أمة خلت منها فانها تقع تحت سيطرة غيرها لامحالة فاشار لهذا كله بقوله تعالى عقبها (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون) فانظر كيف ذكر خلافة الأرض بعد ذكر هذه العجائب الجميلة ولقد ذكرت لك أيها الأخ مقارنة بين علمائنا السابقين وعلمائهم العصريين وآيات من القرآن فانظر كيف دلت على حكمة بالغة وعظة تامة وتأمل الآن فى آباء الأوروبيين وما كانوا يدرسونه أيام شباب الدول الاسلامية وكيف كانت تعاليمهم وخرافاتهم فاذا قارنت بين الآباء فارجع البصر وقارن بين الابناء لتقف على مراكز الاولين والآخرين

﴿ سلف الافرنج ﴾

(نقلا عن السير جون لبك)

ذكر آباء الافرنج انه كان لهم آلهة متعددون كاله الرحمة (يلدر) وإله الحسد (لكي) وغيرهما فاما إله الرحمة فانه لم يمنح البقاء السرمدى فاشفق عليه اخوانه الآلهة ورفعوا أكف الضراعة وابتهلوا الى إلههم

الأكبر (نور) فاجاب دعائهم وقبل أن يبقى أبداً سرمداً على شريطة
أن تؤخذ العهود والمواثيق على جميع النباتات والحيوانات أن لا يمسوه
بسوء فنزلت زوجة إله الرحمة من السماء مقر عظمتها وملكها وأخذت
على جميع الاشجار عهوداً ومواثيق فنزل ورائها اله الحسد (لكى)
وقال لابد من أن أدبر حيلة . فتشكل بشكل غراب وكانت الغربان كلها
اذ ذاك بيضا فسقط على شجرة فغطاها . فاما مرت زوجة يلدر وهى
تأخذ العهود على الشجر ولم تر تلك الشجرة المغطاة بالغراب الابيض
صاحت الشجرة من تحته قائلة « لاتنسانى لاتنسانى » فطار الغراب
الابيض إله الحسد الى شجرة أخرى وأما تلك الشجرة فأخذ عليها
العهد وسميت (لاتنسانى) من ذلك الوقت . ولما جاء الى شجرة أخرى
غطاها بجناحيه فلم ترها زوجة إله الرحمة ثم أخذت العهود وعرجت
الى السماء فقابلها الآلهة هناك وباركوا لآله الرحمة وشكروا زوجته
وعاشوا فى نعيم آمنين حتى اذا كان يوم عيد وقف الناس (وهم لا يشكون
فى أن إله الرحمة باق أبداً سرمداً) فأخذوا يلعبون ويفرحون بضرب
(يلدر) بالرماح والمزاريق وهو مستند الى شجرة (هلي) فجاء (لكى)
وغطى سهما بقطع من خشب (ميسليتس) وهى الشجرة التى لم يؤخذ
عليها العهد واعطى ذلك السهم لاخي (يلدر) إله الرحمة فضربه بها
فمزقت أحشاءه وخر صريعاً فأما الشجرة فانها أصابها رشاش من الدم
فأثر فى ثمارها حتى أضحت حبوبها ملوثة بالحمرة شعاراً بالحداد على ذلك
الاله القتيل ظلما وتبقى كذلك أمد الدهر .وهكذا الشجيرة التى لم يؤخذ

العهد عليها المسماة (ميسليتس) حزنت على ذلك الآله فخرجت حبوبها كدموع العين من ذلك الحين أما الغراب الذى تشكل بشكله إله الحسد فقد اسود ريشه وبقى هكذا الى يوم يبعثون اهـ

هذه هى الحكاية التي كان يدرسها الاوروبيون ويتلقاها كابر عن كابر وقد دلت على مبلغ علمهم فى النبات أو على نموذج منه ولعمرك انها لاتوازى الا علوم الاطفال . وهذه الحكاية تدل على ما كان عليه القوم من الهمجية والوحشية فقوم مات منهم إله الرحمة فى اعتقادهم أصبحوا ولاعمل لهم الا شن الغارات والفتك بالضعفاء واذا تباغض الآلهة أفلا يتباغض العباد ؟ .. شأن الحكايات والروايات انها تدل على عواطف الامم الموضوعة بينهم . وهذه دلت على مبلغ آراء القوم فى الاخلاق وعلى مالديهم من العلوم فهل لك ياسيدى بعد ذلك أن تقرأ الآيات القرآنية وتخيل الامة العربية اذ ذاك وهى تترنم بقوله تعالى: خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين . والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون : وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية

لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الارض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الارض رواسي أن تميد بكم وانهاراً وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم

فهذه وأمثالها معارف عند عامة العرب الاسلاميين فأدناهم من يقرأ هذه الآيات ويعلم ان الله عز وجل أظهر قدرته وامتن على عباده بخلق السموات والارض لأنها أعظم مشاهد للانسان ولما كان الانسان أعظم نتيجة لهما أردفهما بذكره وفى عجائب خلقه أبهر دليل حيث خلقه من نطفة قذرة ثم صار اكثر شيء جدلاً مع ان الأليق به أن ينظر الى مبدئه ويتفكر فى ملكوت السموات والارض ثم عدد عليه صنوفاً من نعمه وضروباً من آلائه فذكر ما ينتفع به من الحيوان والنبات والماء النازل من السماء النافع لهما وذكر كثيراً من أنواع القسمين مما ينتفعون به وعجائب السموات ومنافع الكواكب والليل والنهار لتوقف هذه الانواع عليها وذكر البحار ومنافعها والجبال وما يهتدى به من علامات الطرق وبعبارة أوضح أقول ان الله ذكر فى هذه الآية نعمه على عباده بخلق الحيوانات وان منها المآكل والملابس فتتخذ منها ملابس الشتاء

وملابس الصيف ويتخذ منها الاعراب خيامهم ثم منها ما يحملنا وأمتعتنا الى الامكنةالبعيدة ومع هذا كلهفهي زينة يتجمل بها فيتسم أربابهابالأبهة والجاه لما يرى عندهم من آثار نعم الله عز وجل وكم له من مخلوق فى الارض وفى السماء لا نعلمه فعلومنا قاصرة على ما ننتفع به فلو بحثنا عما لا نعرف لكان ذلك جوراً وظلماً وعبثاً كمسئلةالروح وحقائق الكواكب وغيرها ثم ذكر انه أنزل الماء من السماءفهو لشرابنا وطهورنا وسقينا زرعنا وانعامنا وانه ينبت به الزرع وهو الحب الذي نقتات به كالحنطة والشعير وما اشبههما وقدمه فى الذكر لأن به قوام أبداننا وثني بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهةوختم بذكر الاعناب لانهاشبه النخلةفى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر بقية الثمار اجمالا ولما كانت الاجرام العلوية لا بد منها لنمو هذه المخلوقات ولنهتدى بضوئها اعقب ما ذكر بذكر تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . فلعمر الحق ان من لم تدهشه هذه العجائب فيوقن برب البريات لأبعد عن العقل والفهم بعد ما بين المشرقين . فان فى بعض هذه فضلا عن جميعها دلالات واضحات على كمال بارئها وجمال مبدعها الحكيم وقدرته

وانظر رعاك الله الى ألوان الزرع كيف اختلفت مع اتحاد الاضواء السماوية والماء والعناصر والهواء والارض وما اغفلنا عما بين ايدينا وكيف جعل هذا احمر قانياً وهذا اصفر فاقعاً وهذا ازرق زاهراً وهذا اخضر ناضراً وهذا ابيض ناصعاً وهذا اسود قاتماً . وكل لون منها يتنوع انواعاً

شتى وأشكالا متخالفة فسبحانه وتعالى . ثم هذه البحار من أدل الدلائل وأعجب العجائب فقد جعل جل جلاله فى الماء جزءاً عظيماً من الملح لولاه لأنتن بطول المكث ففسد الهواء

ولا نطيل بشرح ما احتوته هذه الآيات من العجائب الخلقية والحكم الغريبة وانما شرحها وما ماثلها من آيات تبلغ نحو سدس القرآن جميع العلوم التي يفنى الزمان وهى تجدد وتزداد وضوحاً مصداقاً لقوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم) وقوله (سأريكم آياتى فلا تستعجلون)

هل لك أن تنظر فى هذه الآيات كيف ابتدأ فيها بالكلام على السموات ثم خلق الانسان فالحيوان فالنبات وأخذ يشرح العوالم كلها واحداً واحداً وانتهى بنتيجة استخلصها منها وهى ان لها صانعاً .

ثم انظر حكاية الآلهة المتشاكسين وكيف احتال بعضهم أن قتل إله الرحمة فانتزعت من بينهم . فانظر يارعاك الله كيف خلف من بعدهم خلف قبضوا على زمام الامم بالعلم ودرس الفنون التي يشير لها القرآن ويتفكرون ويعقلون وينظرون . أما نحن فما بقى لدينا منها إلا حثالات فكأننا ورثنا آباءهم وورثوا آباءنا فقلدنا قدماءهم وقلدوا قدماءنا ولم يبق لنا سوى الدعوى العمياء والتبجح بقولنا اتبعنا القرآن

﴿ القرآن والمسلمون ومتأخرو الافرنج ﴾

ثم تعجب يا أخي من هؤلاء الاقوام فى ديارهم فانك تراهم يعظمون الحكيم سنيكا الرومانى حتى انهم ليضعون حكمه فى أوائل كتبهم ويقدسونها

ويقتدون بأقواله ويعولون على آرائه ثم ترى آيات القرآت بين ظهرانينا ابدع وأجمل من حكمه وابهى وأبين وآنق فى النفوس وأروح للعقول ولأذكر لك طرفا من كلامه ثم أتبعه ببضع آيات من القرآن ثم أكل الامر لك فى حال قوم أضاعوا أجمل نفيس لديهم وآخرين خاضوا البحار وقطعوا الفيافى والقفار وركبوا المهارى واجتابوا الصحارى وأخذوا يستمدون من آيات البشر . قال سنيكا . اذا وهبك انسان ضيعة واسعة ذات أشجار وبساتين وحقول وأنعام أفلا تعد ذلك منه جزيلة . ومن ذا ينكر ان الأرض وسعتها وجبالها وأنهارها أعظم عطية وأجمل هبة من مدبر الكائنات، ولوأن رجلا حباك دراهم ودنانير فلا جرم تعدها هبة ومنة عظيمة . أو ليس الذى دفن المعادن تحت أطباق الصخور وكون في ظلمات الارض الذهب والفضة وغيرهما من المعادن أكبر اعطاء وأجمل هبة . ولو ان رجلا بنى لك منزلا من المرمر الجميل وزين سقفه بالالوان البديعة البهجة وزخرفه بالذهب والالماس واسداكه أفلا تعدها اليك تحفة جليلة . أليس الله بنى لنا قصراً مشيداً متين البنا ثابت الدعائم قوى الاركان آمناً من البوار بالنار والخراب بالامطار سقفه مزين بأجمل الالوان وأبهاها مرصع بالدرارى اللامعة والاقمار الساطعة والشموس المشرقة فضاء بالليل والنهار . وازدان بالانوار . فيه ما يحتاجه الانسان والحيوان . منه يخرج الهواء لأنفاس نرددها والضياء لاعمال نزاولها ونهتدى سواء السبيل . ويتولد الدم الذى عليه مدار حياتنا والغذاء المقيم لاجسامنا . الله عز وجل بث فى الارض من كل دابة وفرقها

فى أنحائها وأنبت فيها من كل زوج بهيج من أنواع النبات متاعاً لنا ولانعامنا. سخر الرياح تجرى متصرفة بأمره مختلفات فى الصيف والشتاء . الله عز وجل كرم بنى آدم وألهمهم الصنائع والعلوم وركب فيهم النغمات وجبلهم على الاصوات المختلفات ليشتقوا منها نغمات الموسيقا ويزنوا الالحان . وهل نحن غرسنا فى نفوسنا أصول العلوم والصناعات أم الله هو الذى ركب فينا تلك القوى الشريفة والملكات الفاضلة . الله سيدنا أخرج من ظلمات الطين نور العقل وأبرز هذه الصناعات والعلوم وجمال الموسيقا من ماء مهين اشتق من سلالة من طين (يخرج الحي من الميت) انتهى ما قاله الحكيم سنيكا[١]. وقال آخر من فحول كتابهم اكثر الناس فى هذه الدنيا لهم عيون ولكن لا يبصرون بها وآذان ولكن لا يسمعون بها وأعظم منة من الله أن يفاض على المرء منحة الفهم والاعتبار وان يعبر عما شاهده بعبارات تعقل عنه اه أليس صدر هذا القول قبسة من قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وعجزه قبسة من قوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان)

ولو علمت مقدار إعظامهم واجلالهم لمقام هؤلاء الحكماء لعجبت من أمة الاسلام كيف غفلت عما أبدع فى القرآن من نفائس الدرر وبدائع الحكم فى نفس هذه المناهج التي ينتهجها اكابر كتابهم

---

(١) من كتاب جمال الطبيعة للسير جون لبك

واذا كان علماء أوروبا وقادتهم يعظمون هؤلاء الكتاب فكيف بهم اذا تلوا من هذا المنهج قوله تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) أو ما هو أخصر منه لمن كان أذكى فقال فى موضع آخر (الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار) أو بما هو أوجز للخاصة فقال (هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) وخاطب أولي الالباب بما هو أوجز فجمعه فى خمس كلمات (وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة) ثم فى ثلاث فقال (بديع السموات والارض) ثم فى كلمة وهى اسمه (البديع) وهكذا مما فاض به القرآن وهجره المسلمون لما ظن كثير من أهل العلم ان الفقه وحده كاف فى السعادة والحياة والدين حتى قام الافرنج فسبقونا شوطاً بعيداً فى الماديات والادبيات على نحو ما ذكرنا فى تلك الآيات . أو لسنا نحن أولى بما حث عليه القرآن أن ندرسه ونسارع فيه ؟ ولذلك وضعت كتاب نظام العالم والأمم

مقاصد كتاب نظام العالم والأمم

ولقد جعلت هذا الكتاب تسعة أقسام القسم الاول في شوق النفوس الى العلم وكيف كانت الاعداد منطوية فيها كامنة وكيف ألفت من الواحد أعداد لا نهاية لها وحساب ببراهين تطابق عليها الاولون والآخرون وكيف بنى على هذه الاعداد وما يتبعها من المساحات والاشكال علم الفلك وكيف انتهجت النفوس نهج ملك الملوك فى أمورها العامة حتى مثلوا هذا الملك العظيم بالشطرنج والنرد واختاروا المترمقياساً . فالنفوس البشرية على اختلاف مللها ونحلها ميالة بفطرها الى الجنوح نحو ملك الملوك وتقليده ولكن أكثر الناس لا يعلمون

القسم الثانى فى الافلاك وحسابها وكيف تسير الشمس فى بروجها فى الفصول الاربعة وكيف اختلفت الفصول بطريقة جميلة وعبارة سهلة ولقد حاولت فى هذا المقام أن أقرب هذا العلم من أذهان الاذكياء وان لم ينظروا الكتب المرسومة ولم يزاولوا المدارس ولا درسوا هذا العلم حتى لقد أطمع أن يفهمها العامى فى حقله وتدرجت من السهل الى الاسهل حتى أوصلته الى أقصى ما يرومه الاذكياء من الحساب الدقيق فى سير الشمس والقمر والسنين الشمسية والقمرية والمقارنة بينهما بأوضح عبارة تقرب من المتناول، وشرحت الظلال ونسبها الهندسية وكيف كان حسابها وهندستها متقنين حتى وضحت آية (ألم تر الى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً)

(ولله يسجد ما فى السموات والارض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال)

القسم الثالث فى عجائب الجمادات وهنا ترى ما يظنه العامة منثوراً منتظماً فيصبح الحجر الساقط من أعلى الى أسفل بحساب معلوم مقدر كحساب الكواكب والشمس والقمر . ومن ذا يرى أعجب من ان الحجر اذا كانت سرعته فى الثانية الاولى أربعة أمتار ففى الثانية الثانية يكون ١٦ متراً وفى الثانية الثالثة تربع ثلاثة وتضربها فى أربعة تصير ٣٦ وفى الثانية الرابعة تربع اربعة وتضربها فى اربعة وهكذا تجد القاعدة بضرب مربع الزمن فى أمتار المسافة الاولى على هذا المنوال وليس قصدنا درس الطبيعة لذاتها وانما أردنا أن يعلم الاذكياء ان هذه الفنون الطبيعية والفلكية هى تفصيل لمجملات القرآن الكريم وبهذا يتضح قوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) (انا كل شيء خلقناه بقدر)

ولعمرى ان من طالع كتابنا هذا ظهر له ان العالم كله موزون وزناً حقيقياً . وهل بعد تساوى الاحجار والافلاك فى حسابها ونظامها مطلب لعاشق الحكمة ؟ وان العلوم الطبيعية كلها وما اكتشف منها معجزات للقرآن ومن عجب أن تدرك العقول التربيع فى الحساب مثل ٤ × ٤ = ١٦ ، ٥ × ٥ = ٢٥ ثم تراه بنفسه فى الاجسام المتجاذبة والاحجار الساقطة كما تراه وغيره فى نظام الافلاك وحسابها وكيف يظهر ما استخرجته العقول واستنبطه نوع الانسان فى الخارج ظهوراً واضحاً جلياً أليس هذا هو اليقين الاكبر والسعادة القصوى للحكماء ؟ وعلى

ذلك رجعت العلويات والسفليات الى منهج واحد وقانون منظم ومبدإ لا يتغيرولا يتبدل (ولن تجدلسنة الله تبديلا (ولن تجد لسنة الله تحويلا)

القسم الرابع فى النباتات وأنها موزونة بميزان محدد أدق مما ذكرناه فى جواهر العلوم وميزان الجواهر ولقد حاولت فى ذينك الكتابين أن أصل الى غاية السر فى معنى الميزان فلم تحتمله طاقتي أما الآن فقد وضح فى هذا الكتاب أجلى من الشمس بالفلسفة الحسية التي تكاد تلمس باليد وفصلنا تحليل النبات الكيماوى وقلنا هذا هو الميزان الحقيقى الذى وزن به النبات . وتعلم يا سيدى انى وقفت حياتى على الوصول لهذه الغاية حتى اطمأنت نفسى لهذا

ولقد رأيت علماء المتقدمين كانوا مغرمين بالبحث عن هذه النسب . ولنذكر لك مثالا واحداً وهو المقارنة بين القطن والقمح فالأول أثوابنا والثانى أقواتنا كيف كانت موادها واحدة واختلفت صورها باختلاف النسب ومقادير العناصر فترى البوتاسا فى القطن ٣٫٥ وفى القمح ٢٫٦٦ والصودا ٣٫٦٤٪ فى القطن و٢٫٦٦٪ فى القمح والجير ١٤٫٥٣ فى القطن و٣٫١٤ فى القمح

ولولا خوف الاطالة فى هذه العجالة لشرحت هذا المثال ووفيته ولكن أحيلك على الكتاب حتى تعلم كيف كان هذا النبات كله موزوناً وزناً حقيقياً وكيف يكون الجير مثلا فى القمح والقطن وبعبارة أخرى كيف آكل عين ما البس وألبس عين ما آكل وغاية الامر اختلفت المقادير . ما أجمل العلم وألذ الحكمة . وعليه فمواد القطن هى مواد

القمح ولو اختلفت المقادير بعينها لانقلب الثوب دقيقاً وأكل أو انقلب الخبز ثوباً قطنياًولبس . فالحير مثلا والصودا مأكولان كما هما ملبوسان واختلفافى دخولهما فى المآكل والملابس . ولاحتياج القطن للونالبياض وللحرارةأعطى من الحير اكثرفيضه واكسبه حرارة وخواصأخرى وهذه هى الرموز التي يشير لها القرآن . فما للناس لا يفطنون ؟وما للعامة لا يسألون ؟ وما للعلماء لا يفصحون ؟ . .

جمال النبات وبهجته

« فى الازهار ونظامها »

تأمل يا أخي معي ولعلك قد رأيت الامثلة الاخيرة التي شرحناها الآن فى تركيب النبات وكيف وزنت بميزان منظم لا تغيير له ولاتبديل وهكذا الجمادوالافلاك . وتأمل كيف ترى النظامبادياً على ظاهر الاوراق والازهار فى تركيبها وشكلها ولونها والحشرات الواردة عليها ونومها ويقظتها . ولنشرح لك ذلك كله فى هذه الرسالة الصغيرة لنعجل لك الفائدة قبل قراءة الكتاب الكبير ونقل لك ما قاله العلامة جون لبك الانكليزى فى هذا الموضوع لنقف على ما رآه الغربيون فى الزهرة

(شعر)

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما ... ترياوجوه الارض كيف تصور

تريا نهاراً مشمساً قد زانه ... زهر الربا فكانما هو مقمر

دنيـا معاش للورى حتى اذا حل الربيـع فانما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القـلوب تنوّر

قال العلامة ما ملخصه : كان العلماء فى غابر الازمان يذكرون في رواياتهم ان الارواح كانت تهدى الازهار الى من تحبهم اوتود مكافأتهم عطفاً عليهم وتلطفاً بهم وكان يظهر ذلك فى بادىء النظر أنه بضاعـة مزجاة لاقيمة لها وكيف تساوى هذه الزهرة الصغيرة الهـدايا الثمينة والتحف الغالية . ولـكنها عند أولى الالباب قد جمعت حسناً وبهاء من جمال الطبيعة يؤدى الى النفوس سعادة والى القلوب مسرة والى العيون بهجة والى الصدور انشراحا والى الافئدة انعطافا تفوق السعادة بها وبالتأمل فى جمالها سعادتنا بالذهب والفضة والاحجار النفيسة واللؤلؤ والمرجان

يقول كاتب هذه الرسالة وقد لمح تلك المعانى من خلال سطور الكائنات وملامح جمال المناظر الشيخ صفى الدين الحلي فقال :

ورد الربيع فمرحباً بوروده وبنور بهجته ونور وروده
فصل اذا افتخر الزمان فانه انسان مقلته وبيت قصيده
ياحبـذا أزهاره وثمـاره ونبات ناجمه وحب حصيده
فالورد فى أعلا الغصون كأنه ملك تحف به سراة جنوده
وانظر لنرجسه الجنيّ كانه طرف تنبه بعد طول هجوده
والسحب تعقد فى السما مآتماً والارض فى عرس الزمان وعيده

ولنرجع الي كلام العلامة جون لبك قال : فما ألذ أويقات تصرفها

فى الفلوات والخلوات ونتأمل جمال الطبيعة والذهب المنبعث من ضياء الشمس يكسو وجه الطبيعة حلة ذهبية تسر الناظرين ، وليس هذا نهاية ما ترتاح له النفوس من الازهار فهناك عقول ارتقت عرش العلم ولبست تاج الادب واستوت على ملك المعارف وتطلعت من شرفات الحكمة فنظرت فى بساتينها أزهار جمالها فأخذت تتأمل فيما وراء ذلك من اشكال وألوان وصور حتى وقفت على أسرارها . ولعمرى اننا اذا أدركنا سر الزهرات الصغيرات دخلنا منها الى معرفة كثير من أسرار الكائنات

ان الوقوف على أسرار الطبيعة لا يناله الا الذين صرفوا أوقاتهم فى تحصيله مع الصبر والعناية التامة والاحترام والمداومة أمد العمر. ومع ذلك فكل هذا لا يغني شيئاً ولو وهبنا مواهب قدسية وعقولا سامية كما وهب ارسطاطاليس وأفلاطون الا اذا وقفنا على كلام الأوائل وحادثنا التاريخ وناجينا ما وعته الدفاتر وقابلنا الرجال فهناك ننال من هذه العلوم حظاً وافراً فان الانسان وحده لا يستطيع أن يصل الى ما يريد الا بمشاركة غيره من ابناء جنسه . انتهى

لطيفة

جلست انا وصديق لي وأخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وكنا اذ ذاك نطل على أزهار باسمة . فاصغ اليها لتقف على جمال الازهار ومحاسنها وتعلم سيدى كيف حسن وضع تلك الصور الجميلة وانتظم شملها

ووزنت بميزان الحكمة والاعتدال لتفهم قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) وكيف وزن فى فروعه وأغصانه وأوراقه وأزهاره كما وزن فى تركيب أجزائه فيما ذكرناه . وهذا ماخص من كلام السير جون لبك وضعناه لك بلسان عربى مبين لتقف منه على ما نريد فى كتابنا نظام العالم والامم قال صديقي ونرمز له بحرف (ا) وانا (ب)

(ا) صديقى انظر الى شجر السنط والغار والصنوبر والصفصاف لم جردت أزهارها عن الزينة والجمال وجملت أزهار الاشجار المتوسطة فحسن منظرها وتأرج ريحها وابتسمت ثغورها واحتوت عسلا صافيا فى أسافلها تقتات منه الحشرات فهل تعلم لذلك من حكمة

(ب) سيدى قد جعل الله الاشجار الكبيرة لاتحتاج الى الرائحة الاريجة ولا جمال الهيئة ولا العسل بل هي غنية عن هذا كله أما غيرها من الاشجار فانها تحتاج لذلك بل لاحياة لها الا بعسلها وجمالها ورائحتها ولولا هذه المزايا الجميلة لانمحت من صحيفة الوجود كما يمحى وجود النوع الانسانى بانقراض سنة التناسل بينهم

(ا) أرجو ايضاح هذا المقام فان هذا القول غامض علىّ وكيف يكون جمال صورة الزهرة سبباً لبقاء النبات

(ب) اعلم أن الزهور على اختلاف أجناسها وتباين أشكالها وتنوع أصنافها يحتاج بعضها الى بعض فمنها ما خلق الله فيها الطلع ومنها مايقبله وكما أن النخل فيه ذكور واناث وطلع الأول يلقح الثانى فهكذا جميع الاشجار ذكرانها تلقح اناثها فمثل الورد والرمان تلقح بواسطة

الحشرات . والحشرات لن تتعب أجسامها وتطير فى الهواء بلا داع يدعوها الى ذلك وهل من باعث أقوى من العسل الذى تشربه من أسفل الزهرة والرائحة التي تدلها عليها وقت الغلس وجمال اللون وبهجته التي تهديها فى أوقات الضياء والنور. أما الاشجار الكبرى كالصنوبر والغار فانها اكتفت بتدبير آخر وهى الرياح التي سخرت تحمل اللقاح من ذكرها لاناثها . وقد دبر الله ذلك اللقاح فجعله كثيراً جداً حتى اذا حملته الرياح وتبعثر منه أهم أجزائه فما بقى كفى اناث الازهار من ذلك النوع. واذا كان بعض الزهر فيما لايحتاج الى الريح قد تخرج الواحدة منه ما بين ثلاثة وأربعة ملايين خردلة من اللقاح فما بالك بما يحتاج للريح فلا بد أن يكون أضعاف هذا بما لا يتناهى وبهذا التدبير فى الاولى والآخرة تخرج الأثمار والحبوب ويخلق شجر آخر وقد شوهد فى بلاد اسكتلنده غبار من طلع بعض الاشجار يمر فى الهواء كأنه سحب تزجيها الرياح ثم يؤلف بينها ثم تصير ركاماً ويراها الناس بأعينهم تلقح اناث تلك الاشجار كما ينزل المطر على الارض فتحيا بعد موتها مصداقا لقوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين) (ومن معانى هذه المادة الحمل فهاهى الرياح تحمل الماء واللقاح والاصوات لتصل الارض والازهار والآذان) وهذا كله يجرى ونحن ساهون لاهون والقوم فى بلادهم تبرز معانى كتابنا المقدس على أيديهم ونحن غافلون ومدبر الكائنات من فوقنا يلقح أشجارنا ويحكم أمرها ولا دخل لنا ولا حول ولاقو (أمن خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق

ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون

(ا) ها انت افهمتنى ظاهرة القاح الرياح للازهار ولكنى لا أعلم كيف تحمل الحشرات اللقاح وهل تقصد ذلك وهل عندها علم وادراك حتى تنقد اثمان العسل والتمتع بالازهار بان تنقل الطلع من شجرة الى اخرى

(ب) اعلم يا سيدى أن الزهرة مركبة من أوراق خضر تغلفها من الظاهر ويسميها علماء النبات بالكاس داخلها اخرى ملونة بالالوان الجميلة يسمونها التويج تصغير تاج تشبيها لها بتيجان الملوك المرصعة بالجواهر الثمينة وقد علمت مما ذكرناه آنفاً انها أرفع قيمة عنـد الحكماء وفى داخلها سوق تحمل الطلع فى حصن حصين بما أحاط بها من تلك الأوراق وفى أسافلها عسل فترى الحشرات تلك الالوان الجميلة فتسرع طيرانها اليها ليلا أو تشم رائحتها فى الظلام فتشرب العسل فتلمس ظهورها ذلك الطلع فيرش عليها كالدقيق فتذهب الى الزهرة الاخرى من ذلك النوع فيحصل تلقيحها ولا علم للزهرة بذلك ولا للنحلة وانما كانت تسعى لمنفعة انفسها وانما ذلك تدبيره تعالى (وما كنا عن الخلق غافلين) وهذا قد كنا أوضحناه فى كتابنا جواهر العلوم ولكن الامر المدهش هنا تركيب الزهرات لمناسبة الالقاح وترتيبها وتزيينها حتى قيل إن الازهار مدينة للحشرات فى جمالها وعسلها فلعمرك لولا طواف الحشرات عليها مامنحتها يد القدرة الالهية ذلك الجمال (وان من شيء الاعندنا خزائنه وماننزله الا بقدر معلوم) وما الحشرات الا كنواطير البستان (بستانيين) فان ناطور البستان يختار من أجمل الأشكال وأحسنها ليبدع في اتقانها ويزيد

فى تنظيمها وجمالها فكذلك هذه الحشرات بطوافها على هذه الاشجار زينت بتلك الزينة تشويقاً لها لكن الناطور يختار بتمييزه وهـذه بعناية الحكمةالالهيةوأعجب من هذا تدبيراشكال الازهار على وفق هذاالالقاح

(ا) وكيف ذلك

(ب) تعلم أن أوراق التويج قد تنظم فتصير كأنها انبوبة فى داخلها تلك الاعضاء التى ذكرناها آنفاً وقد يشاهـد فى بعض الزهر انابيب حولها شعرات قريبات من العسل فى أسفل الزهرة على جوانبها من الداخل وتلك الانبوبة مستطيلة ضيقة وما ذلك الا لتنبذ كل حشرة من الفراش تريد الدخول وذلك أن ضيق الانبوبة وبروز تلك الشعرات كافيان فى منع الحشرات من ذلك ما عدا النحل فانها أعطيت قوة بها تقتحم تلك الانبوبة ولا تبالي بأسنة الوبر.وماعدا النحل من الحشرات فلا قدرة له على حمل الطلع فى ذلك النبات . فلهذا منع من الدخول فالحـكمة الالهية قضت ان الغنم بالغرم واذاكان ما عدا النحل عاجزاً عن حمل الطلع فى شجر مخصوص فنعه أمر محتوم

أوماترى الازهار مامن زهرة	الا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها	تلقى فنون الشجو فى أسلوبها
تشدو وتهتز الغصون كأنما	حركاتها وزن على تطريبها

(القاضي أبو الحسن بن زنباع)

أبدت لنا الايام زهرة طيبها	وتسربلت بنضيرها وقشيبها
واهتزعطف الارض بعدخشوعها	وبدت بها النعماء بعد شحوبها

وتطلعت فى عنفوان شبابها ... من بعد ما بلغت عتيّ مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحم ... فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للازهار كيف تضاحكت ... ببكائها وتبشرت بقطوبها
وتسربلت حللاً تجر ذيولها ... من لدمها فيها وشق جيوبها
فلقد أجاد المزن في انجادها ... وأجاد حر الشمس في ترتيبها

﴿ الكلام على الزهر ذي الاقفال والمفاتيح ﴾

﴿ والزهر ذي الحراس . والزهر ذى الجند ﴾

(والزهر ذي السياسة الحقيقية والوهمية)

﴿ الزهر ذو المفاتيح والاقفال وذو الحراس ﴾

(ا) بلغنى أن في بلاد أوروبا زهراً له مفاتيح وآخر له حراس فهل لذلك من حقيقة ؟

(ب) هناك زهر يسمى (سلفس) وآخر يقال له زهر الاشراف والنساء . فالاول ذو المفاتيح . والثانى ذو الحراس

الاول وضع الله فيه على فم الانبوبة المكونة من أوراق التمويج ساقاً معرضاً على فمها كأنه مغلاق لذلك الباب فأى حشرة تريد الدخول عجزت عن ذلك فاذا جاء صاحب الامانة ألا وهو النحل أزال ذلك الساق من مكانه ودخل فشرب . وفى أثناء دخوله يكون هناك ساق آخر محكم الوضع على ظهره يحمل الطلع فينزل عليه منه مقدار فيحمله الى زهرة

أخرى . فتأمل سيدى كيف جعل أحد الساقين قفلاً لباب الزهرة والآخر كأنه يد ملأى بدقيق الطلع فتضعه على ظهر النحلة . والأمر الاعجب من هذ أن هذه النحلة عينها اذا ذهبت الى الزهرة الاتى رأيت أمراً عجيباً ، رأيت الاوراق العليا منها مرتفعة هى وعضو التأنيث حتى ان تلك النحلة اذا دخلت تشرب العسل لم يتيسر لها مس عضو التأنيث لارتفاعه جداً فانظر ماذا حصل . وضع فى نهاية عضو التأنيث ذراع طويل الى ان يلامس النحلة فيمسح ظهرها ويأخذ الطلع الذى التقطته (فتبارك الله أحسن الخالقين) (وفى الارض آيات للموقنين) أليس هذا مصداقا لقوله تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين) كأن وجود الزوجين من النبات داع حثيث للتأمل فى هذا العالم

كأنه يقول هذا أمر خفى فتذكروا وجدوا فيه ومتى عرفتموه قربتم من الله تعالى وهذا بعينه ماصرح به العلامة جون لوبك الانكليزى (ان من وقف على أسرار الأزهار أمكنه أن يفتح كنوزاً من الاسرار الخفية) فتأمل وانظر كيف جد القوم فى فتح كنوز مقفلة فى القرآن ونحن عنها غافلون . ولقد صرح به القرآن فى آية أخرى (والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فانظر كيف ذكر الازواج فى النبات وقال انه تبصرة وذكرى ولكن يا للاسف اننا تركنا التبصر فيه . وانى لفى غاية العجب من هذا السر الخفي كيف يذكر فى القرآن وكيف يحث

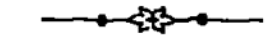
عنه علماء الغرب وكيف يقول عالمهم ان هذا سر به تفتح أسرار الطبيعة. ألا فليتأمل معى أهل العقل والعلم وليتفكروا ولينظروا . فانى أقول هذا وأنا محترق الفؤاد على ضياع العلم من بلادنا ورضائنا بالقشور ونبذ اللب (إنا لله وإنا اليه راجعون)

الزهر ذو الحارس

(ا) عرفت الزهر ذا المفاتيح والاقفال فما زهرة الخفراء

(ب) هذه الزهرة موضوعة على هيئة قارورة يحمل فمها شعرات واقفات فتأتى الحشرات الصغار اليها من الذباب والفراش الجاهلات ليقيها الحر والبرد ولا يدخلها النمل لعلمه بما فيها من الخطر فاذا دخل الذباب وقفت لها تلك الشعرات بالباب ومنعتها الخروج فأخذت تثب وتسقط فى وسط الزهرة وهناك الاعضاء الملحقة الذكور وتحتها الملحقة الاناث — وقد أينعت الاولى وحان قطافها ولم يأن للثانية أن تلقح — فاذا اضطرب ذلك الذباب سقط الغبار الذى فى أعضاء التذكير على ظهوره وفى الوقت عينه تذبل تلك الشعرات الخافرات على فم الزهرة فيخرج الذباب آمناً فى سربه طائراً فى الهواء ذاهباً الى زهرة أخرى قد فعل بها مثل هذا فيدخلها للاحتماء بها فيقع الطلع على الاثنى ويخرج آمناً مطمئناً . أليس هذا مما صدق عليه قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر) وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم

بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) هذا وبعض الزهر تفتحه النحل بأرجلها فتشرب العسل ثم يقفل على الطلع ليحفظ حتى تأتى نحلة أخرى والزهر ذو الحارس يسمى زهر الاشراف



عجيبة

(عن الحشرات والنحل وانها كالدول فى السياسة)

جعل الله تعالى فى الازهار سياسة تضارع سياسة الامم بايهام ضعفاء العقول لتنال غرضها منهم لقصر أنظارهم . فهكذا زهرة الاشراف قد خدعت الذباب بجهله فدخل فيها احتماء بها فلقى منها ما لقى مجير أم عامر . وكما ان النحل ذو ذكاء فلا يخدعه خادع فهكذا لا تراه يحوم نحو تلك الزهرة الجوفاء الخاوية بل تراه يحوم أنى يجد العسل ولم تبخل يد العناية الالهية ان تزوده العسل وتطعمه الشهد استحقاقاً وعدلاً (ويؤت كل ذي فضل فضله)

أما الذباب فترى العناية الالهية قد دبرت له ما يناسب جهله حتي انك ترى بعض الازهار يحمل انابيب قد توجت برؤس كقطرات من العسل فى شكلها ولونها . فاذا أسرعت اليها الحشرات لن تجدها شيئاً وحملت الطلع ولم تنل ثمناً . فأشبهت الأمم الجاهلة المغرورة بمجرد القول دون الفعل

فانظر كيف حوت الزهرة مجمل علم السياسة . وكيف ينطبق عليها قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)

الزهر المنظم كالجند

(ا) قد سمعت أن فى بلاد أوربا زهراً له ثلاث صفوف تقف بانتظام على ثلاثة أيام كل صف فى يوم . فهل عندك علم بذلك ؟

(ب) اعلم أن هناك زهراً أصفر ذا ثلاث صفوف كل صف خمس زهرات فترى أول صف فيها يظهر مساء مظهراً جمال صفرته فى غسق الليل لتأتى الحشرات اليه سراعا وترى رائحته تتأرج فتأخذ الحشرات منها حظها . فاذا انفلق عمود الصباح وأضاءت الشمس رأيتها ذبلت وأصبحت هشيما كأن لم تكن بالامس يظنها من رآها انها—أي الشجرة قد أدبر شبابها واقبل هرمها فاذا كان مساء اليوم الثانى رأيت الخمس الاخر التى كانت مغمضة الاجفان قد استيقظت من نومها وبعثت من مرقدها وقامت بالمظهر الذى فعلته ماقبلها ورجعت الشجرة كالعروس تجلى فى الظلمة حتى تتزود الحشرات من طلعها كما كانت فى اليوم الاول فاذا جاء صباح اليوم الثالث ذبلت . وفى المساء الثالث تظهر الاناث منتظرة الحشرات محضرة لها الطلع من زهر آخر كما حملته من ذكور هذه الشجرة فى اليومين السابقين . وهذا من فوائد تلقيح الحشرات بحيث ان الانثى من زهرة تلقح من ذكر الاخرى وبالعكس

زهر عجيب محكم الترتيب

(ا) من الورد نوع يشاهد الناس فى زهره انابيب التذكير مستطيلة تساوى اوراق الزهرة في الطول وانابيب التأنيث تصل الى نصف تلك المسافة وازهار أخرى من ذلك النوع بالعكس . فترى انابيب التأنيث تستطيل الى اطراف اوراق الزهرة واعضاء التذكير على النصف من ذلك ولو نظرنا مائة شجرة من هذا النوع لوجدنا النوعين من ذلك الزهر متساويين بحيث تكون ذات الاناث الطويلة تساوى في العدد ذات الذكور الطويلة فهل تعرف سيدي هذا ؟

(ب) إن هذا الزهر وضع مناسباً للنحل وذلك أن النحلة اذامدت خرطومها الطويل وصل الى أسفلها لشرب العسل ولامس عضو التذكير الطويل فحمل منه طلعاً فاذا راح الى ذات عضو التذكير القصير أخذت الانثى المستطيلة ذلك الطلع لمرور الخرطوم بحذائها لمساواتها الاوراق وهكذا فى الاعضاء القصيرة فيأخذ النحل بخرطومه من كل عضو الى ماينا سبه فى الزهرتين فتأمل كيف تساوى عدد النوعين من هذا الزهر وتعجب كيف كان طولها واحداً فى جميع الازهار اما للانصاف أو النهاية وكيف كان خرطوم النحلة اذا لامس عضواً فى زهرة يلامس نظيره فى الاخرى بحيث لايختل شعيرة في مقدار طولهما ولعمرى لو سئلت هذه الزهرة لقرأت بلسان الحال (انا كل شيء خلقناه بقدر) ولو سئلت تلك النحلة لقرأت (وما من دابة فى الارض الا على الله

رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين)ولقرأت (ومامن دابة فى الارض ولاطائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون) اذ أنه تعالى وضع مقداراً لكل شيء فى أم الكتاب عنده فلا يضيع حشرة ولادابة ولاحيوانا صغيراً ولا نباتا حقيراً ولازهرة ولا أصغر من ذلك ولااكبر الا فى كتاب مبين

﴿ نوم الزهر ﴾

(ا) رأيت فى بعض الكتب أن الزهر ينام فهل هــذا حقيقة واذا صح فلم ينام ؟ النوم فى الحيوان سببه معروف وليت شعرى ماسبب نوم النبات يجدّ الحيوان فى قوته ويتعب فى تحصيله فاذا جن الليل خارت قواه فتعب فنام . أما النبات فما سبب نومه ؟ وبعض النبات لاينام أبداً وآخر ينام صباحاً ويستيقظ مساء وآخر بالعكس ومن الاول ما يستيقظ فى الساعة الرابعة صباحاً أو السابعة أو الثامنة أوالتاسعة أوالعاشرة ثم تغمض اجفانها بعــد الظهر فى أوقات مختلفة إما فى الساعة الثانية أو الثالثة أو الرابعة وهكذا . ما الحكمة فى ذلك

(ب) يختلف نوم الزهر وانطباق أوراق الزهرات باختلاف الحشرات التي تأكل منها فالنحل يعتاد اليقظة نهاراً فترى الازهار التي خصصت له تفتح عيونها نهاراً حتى يشرب منها العسل رفقاً بالفريقين ومنفعة للطائفتين أما الازهار المخصصة للحشرات الاخرى فلا تفتح أوراق أزهارها غالباً

الامساء فى الغلس اذ لتلك الحشرات غدوات وروحات فى ذلك الحين فلا جرم تفتح لها ولعمرك لو عكس الامر فانفتح النهارى الصباحي بالمساء والمسائى بالصباح لسرق العسل فاخذه مالا يبذل له ثمناً ممن يخصص لذلك العمل ويعتدى كل فريق على ما للآخر فيتضرر الحيوان ولا يلقح النبات فتمت الحكمة فمفاتيح هذه الازهار بيد القدرة الالهية تفتحها وتقفلها لادخل للشمس ولا للقمر فيها والا فلماذا تنام الزهرة المسماة (حنا ذهب لينام) فى وقت الهجيرة حتى إن أولاد الفلاحين فى أوروبا يعرفون مواعيد الغذاء بنومها فلو كان للشمس دخل فى تفتيح الازهار لكان أولى الاوقات بانفتاحها وقت الظهيرة والحشرات تختلف أوقات قيامها لطلب معاشها فى ساعات النهار فكل زهرة تفتح فى الوقت المعين لحشراتها التي خصصت لها بالحكمة الالهية (ذلك تقدير العزيز العليم)

وكأن الشاعر العربى الاندلسى نظر لهذا المعنى فقال

وعلى سماء الياسمين كواكب ... ابدت ذكاء العجز عن تغييبها
زهر توقد ليلها ونهارها ... وتفوت شأوخسوفها وغروبها

(ذكاء) الشمس وهذا باعتبار المجموع لا الجميع

(ا) من الازهار ما هو أحمر وأصفر وأبيض وأزرق فهل لهذا من حكمة وبعضها ذو ريح طيبة دائماً والآخر لاتذكو رائحته الاوقت المساء

ينسب الى عنترة العبسي هذه الابيات من زهرية له

زار الربيع رياضنا وزهى بها ... فنباتها حليت بانواع الحلى
يزهو بأحمر كالعقيق وأصفر ... كالزعفران وأبيض كالسنجل

وبنفسج يزهو اذا عاينته　　　آثار نقش فى ذراع ممتلى

(ب) ان الزهرات الحمر والزرق خصصت غالبا بالنحل وهو مغرم بهذين اللونين عاشق لهما فكانا داعيين الى الافتتان بهما ولا جرم أن فى الاحمر والازرق من الجمال ماليس فى الابيض والاصفر أما الآخران فانما يكونان فى الازهار التى تمتص منها بقية الحشرات غالباً وقدمنا ان الحشرات أغلب ما يكون خروجها مساء (صنع الله الذى أتقن كل شىء) ولا ريب ان اللون الابيض والاصفر يناسبان وقت الغلس إذ تجلى فيه الصفرة والبياض أما الحمرة والزرقة فسلطانهما انما يكون بالنهار. فاقتضت حكمته جل جلاله أن يتناسب الزهر واللون والحشرات فى الصباح والمساء ويجلى البياض مساء والحمرة والزرقة نهاراً وهكذا تلك الزهرات الصفر والبيض تذكو رائحتها مساء لتهدى اليها حشراتها وتساعد الرائحة اللون على جذبها ولو أبدل البياض بالحمرة لم تعرفها الحشرة أو لم تذك الرائحة لضعف الداعي

تأمل فى رياض الارض وانظر　　　الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات　　　على ورق كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات　　　بأن الله ليس له شريك

﴿ نهاية ﴾

نقل السير (جون لبك) عن ارسطاليس اليونانى انه شاهد أن النحلة تذهب من زهرة الى أخرى من نفس ذلك النوع وقال انها منفعة للفريقين النبات والنحل ، أما النبات فان الطلع الذى من الذكر لا يضيع

بسقوطه على زهرة من نوع آخر .وأما منفعته للنحلة فانها تعرف طريقها ولا تغيره ولا تضيع الزمن فى أخذ دروس جديدة عن كل زهرة وتجارب حتى تضيع قوتها ويذهب زمانها سدى وهذا بعينه ماقاله تعالى (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرن) فقوله سبل ربك ذللا أى ان طرق ربك فى الازهار مسهلة لك من الله لا تلتبس عليك لأنها فى نوع واحد من الاشجار التي أرادتها فى الزمان المخصص لها والله أعلم

وإنى لموقن أن هـذا هو عين التوحيد وكيف يقول الله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) وترى جاهلا يقول هذا خارج عن الدين مع أنه لايقين ولا إيمان الا بمعرفة هذه البدائع. وهذا سر تأخر المسلمين اليوم عن مصاف الامم . وعندى أنه يجب على علماء الاسلام قاطبة أن يتعلموا ويعلموا هذه المعارف التى أجلها علم الكيمياء والطبيعة التي هى سر التوحيد . ويا ليت شعرى كيف انعكست الاحوال وأصبح ما هوأصل الدين خارجا عنه حتى ظن المسلمون أنها خاصة بالافرنج.وفى كتابنا هذا وكتبنا السالفة مافيه غنى للاذكياء.فمن أرادها للعلم فبها ونعمت ومن أرادها لليقين فهو أفضل ولقد أطلنا فى الزهر وعجائبه وغرائبه ووضعناه فى قسم النبات تعجيلا للفائدة وإحضاراً للمسرة فى الاذهان قبل الاطلاع على كتابنا « نظام العالم والأمم .» وإلى هنا تم القسم الرابع وهو قسم النبات

﴿ القسم الخامس ﴾

فى ترتيب الحيوانات ترتيباً إجماليا وكيف كانت درجات بعضها فوق بعض كترتيب اصناف النبات وشرح دائرة الوجود التي ذكرها الأقدمون وما المناسبة بينها وبين مذهب (داروين)

﴿ القسم السادس ﴾

فى الانسان . ولقد رتبناه ترتيباً طبيعياً فذكرنا هيكله الظاهرى بعبارة مختصرة ثم ذكرنا ما شرحه الرياضيون فى مقياسه وكيف كانت قامته ثمانية اشبار بشبره واذا مدّ يديه الى اعلى فهو عشرة اشبار واذا مدهما الى الجانبين فهو ثمانية اشبار فعرضه إذ ذاك كطوله وان طول قدمه كطول وجهه وهكذا ثم أذكر التشريح بشرح واف حتى يظهر للمتأمل بأجلى عبارة وإن لم يزاول هذا الفن

﴿ القسم السابع ﴾

فى علم النفس وإيضاح هذا الفن إيضاحا تاماً بحيث يفهمه المتوسطون فهماً واضحاً جلياً ظاهراً ويقفون على ما صعب من مرموزات الحكماء والعلماء بأسهل عبارة

﴿ القسم الثامن ﴾

فى علم سياسات الامم واحوالها وكيف يستند هذا على الاعتقاد والايمان وما وحدات الامم وهى ١٢ منها ٧ عامة و ٥ خاصة وما آراء اهل المدنية

الفاضلة وكيف كانت هذه السياسات المشاهدة الآن معروفة من قبل وكيف تكون الامة كالانسان الواحد وترتيب عمال الحكومة على مقتضى اعضاء الجسم التشريحي حتى يفهم قوله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وكيف اخطأ قوم من المحدثين فى العلم ان هـذا اكتشاف اوروبي. وها انا قد استخلصت زبدة آراء اهل المدنية الفاضلة للفارابى واستخرجت اللب من القشر ونبذت النوى في الاجزاء السادس والسابع والثامن من هذا الكتاب هنيئاً مريئاً لاولى الالباب

﴿ القسم التاسع ﴾

في العمران الاسلامى والسعادة والاختيار والعمل وكيفية توزيع الاعمال على الافراد وما حكم الشريعة فيها وفروض الكفايات ثم نذكر انواع العلوم والصنائع التي يجب تعلمها على الامم الاسلامية فى هذا الزمان وطرق التعليم ومايجب على العلماء ان يسلكوه وحكمة النسخ في الآيات والاحاديث وما مناسبتها للاحوال التي نحن عليها الآن وما حكمته بالنسبة لنا وما يجب على المسلمين ان يعملوه في سياساتهم واحوالهم الآن ثم نذكر وجوب استعمال العقول وترك الفضول وانتهاج خطة الشرع. ثم نذكر ماالواجب على ملوك الاسلام وامرائه من التعاون والمحبة. ثم نذكر قصص القرآن والروايات وتاريخها وما ثمراتها في الامة وما يجب علينا اتخاذه بالنسبة لها الآن. وكيف كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيها وما الغرض منها وما الذى طرأ عليها في الاسلام. ثم نذكر علو الهمم وتشويق الافراد

اليها وما خطة القرآن فى ذلك وما تنهجه الامم لعلوشأنها. ثم نذكر مايجب على كل طائفة من طوائف الناس من فهم آيات تناسب ماخلقوا له . ثم نذكر حكمة التكليف بماغاب عنا . ثم الخاتمة فى ذكر السياحات وفوائدها شرقاً وغرباً واستطلاع مافي البلدان الشرقية والغربية الى غيرذلك من المباحث النافعة العمرانية والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(تمت الزهرة ويليها كتاب نظام العالم والأمم)

الباب الاول

﴿ من نظام العالم والأمم ﴾

﴿ في شوق النفوس الى العلوم وكيف كمن فيها علم الحساب ﴾

﴿ وكان مبدأ العلوم ومعنى كون العالم موسيقيا ﴾

نبدأ اللهم بحمدك ونقدس لك ونصلي ونسلم على سيدنا محمد نبيك وآله وصحبه ونستعينك ونستهديك الى مناهج السعادة بصفاء نفوسنا وتحليتها بأنواع العلوم فان الخير بيديك والشر ليس اليك (أما بعد) فان أجمل شيء فى هذا الوجود الحادث الذي نحن فيه وأحسنه وأبهجه نفوسنا الانسانية فهي حور مقصورات فى الخيام أو ورد فى الأكمام بها هام أهل الجمال والكمال من العلماء والحكماء حتى صنفوا الكتب وألفوا الرسائل فى تهذيبها تارة وتحليتها بالاطلاع على عجائب الكون تارة أخرى ولعمري لولا المناسبة بين النفوس وبين هذه الآفاق المشاهدة ما عشقنا كل شيء رأيناه من عالم الجمال ولا همنا بكل

ما سمعناه من الحكم والابداع فياسبحان الله ما لهذه النفس ترتاد في طلب العلوم المسالك وتركب كل صعب وذلول وما أعجب المناسبة بينها وبين هذا العالم

حدق ببصرك قليلا وأجل نظرك لحظات فى خيالك العجيب واجلس مع نفسك وصافها ساعة وسلها عما فيها من الصور والعلوم ترأنها تتشكل في أشكال مختلفة وشؤون متباينة مما يقف القلم عن وصفه. فياليت شعرى كيف يسع هذا الخيال ذلك العالم الواسع مع انه أدنى مرتبة من العقل وأحط منه درجة وأدنى اعتباراً حتى سماه سيد الصوفية الشيخ الاكبر قدس سره من موالى العقل (أي من عبيده ومماليكه) فياأيتها النفس مالك لا تقفين عند حد في العلم والمعرفة ولعلك أجبت داعى الله فى كتابه الحكيم وألفيته ملائماً لغريزتك مناسباً لفطرتك إذ قال (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون) فحننت الى مركزك العالى وجنحت الى مقامك السامي ولم ترضى دركات الجهل مع من لم يجب داعي الله (أولئك الذين نسوا الله فأنساهم

أنفسهم أولئك هم الفاسقون) واذا همتك تلحظ الجوزاء وترقب السماء وأنفت (على قلة بضاعتك وعظم الأمر عليك وضعفك عن حمله) من قياس الشاعر العربى فى من عشق بقوله

هى الشمس مسكنها السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعودا ولن تستطيع اليك النزولا

وفهمت قوله تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض) يقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) فأنا أنزهك أن يكون خلقك باطلا إذ لا يليق بأصغر مخلوقاتك فكيف بك أنت. إذ كل من حرم مشاهدة هذه البدائع في صناعتك ومنع التلذذ بهذه الحكم فهو محروم من كل خير وذلك بلا ريب مبدأ نيران السعير التى تطلع على الافئدة (ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار) وقد نبهنا منادى النبوة والوجدان في الشوق والنظر فى كتاب الطبيعة المفتوح ببصائرنا وما شاهدنا في أبوابه وفصوله من أصناف النعم وبدائع الحكم وغرائب الصنع وعجائب الاتقان

ما أدهشنا (ربنا اننا سمعنا مناديًا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئآتنا وتوفنا مع الابرار)

فلذلك كله أيتها النفس العزيزة أوعزت الى أهل الفطر السليمة والعقول السامية وسجلت عليهم أمد الدهر أن ينصبوا فى طلابك ويهيموا في جمالك ويأنسوا بهائك وأمليت عليهم من عجائبك ما يزينهم ومن بدائعك ما يروقهم فكل حسن ورونق وبهجة وحلية وزينة وجمال وكمال فى هذا العالم لم تكن قط فيه إلا لمناسبته لنفوسنا وملاءمته لعقولنا . فالنفس لعمرك كلها جمال وكمال ولذلك برهن المحققون من أساطين الحكمة واكابر العلماء ان حبنا لآبائنا وابنائنا واخواننا وجميع ما في العالم لم يكن قط إلا لانه مسبب لوجودنا أو لكماله أو لمناسبته لنفوسنا

بحثنا عن هذا العالم انما هو للمناسبة التامة بينها وبينه حتى انها لتعشق العالم أجمعه عشقًا مفرطًا والعاشق انما يطلب اتحاده بالمعشوق اتحادًا حقيقيًا وهذا بلا ريب مستحيل على الاجسام كما حقق الاول الغزالى فى الاحياء والثانى الشيرازى فى الاسفار واطنبا فى المقامين بما لا يحتمله المقام. فمن نظر الى السماء وزرقتها

والارض وبهجتها والاشجار وخضرتها والغصون وميستها والازهار ونضرتها والفلك الدائر والنجم الزاهر والسحاب الماطر والرياح الذاريات والبحار الجاريات والشموس المشرقات ولم يجد فى النفس طرباً فليتخذ له فى السماء سلما أو فى الارض سرباً

ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج الى العلاج (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)

ينظر العالم فى السماء فيرى إحكامها العجيب وحسنها البهيج ويتأمل فلا يجد فى رأى العين لها فروجاً مفتوحة كما فى آية أخرى (فارجع البصر هل ترى من فطور) أى شقوق والمعنى انها مسواة مهندسة فى رأى العين لكل ناظر ولا جرم ان ظاهر كل شيء عنوان باطنه

فبحث الحكماء عن سير كواكبها واتقانها وشروقها وغروبها وأخذوا ينقبون عن أسرارها العالية من اختلاف

الليل والنهار والبروج والمنازل ولما وقفوا على حقائقها قالوا (سبحانك ما خلقت هذا باطلا) كذا فلتكن الحياة وهكذا فليكن الانسان فكم يفرح القلب وتنتعش النفس عند الوقوف على تلك العجائب المدهشة . أمر القرآن بالنظر بالعين المجردة الى تسوية السماء وهندستها الظاهرة للناس كافة فعرف العلماء والحكماء أن هناك سراً وراء هذا وقالوا أي فرق بيننا وبين من لم يتعلم مع أن الله عز وجل يقول (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فرجعوا الى علم الفلك والهيئة فرأوا ان مدارات الكواكب منها ماهو مستدير ومنها ما هو بيضاوي الشكل وما هو متعرج في سيره فدخلوا فى بحر لا ساحل له من حساب وهندسة وعلموا أن هذا الكتاب صريح للعامة ورمز للخاصة بل هو كالطبيعة فان العامة (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) من المأكل والمشرب (وهم عن الآخرة هم غافلون) فغاص العلماء في أسرارها ووقفوا على كنهها ونقبوا فى البلاد (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو التى السمع وهو شهيد) ولولا ما ذكرته لم يكن فرق بين الخاصة والعامة

ولم نفهم اذن قوله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال ابن عباس (بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض) ولا تظن أن عالم الفقه وأصوله هو المراد بالعالم لا بل هو من سنذكره وقال صلى الله عليه وسلم (فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم رجلا) كما فى أدب الدنيا والدين للماوردى فالعالم الذى يراد فى هذه النصوص انما هو الناظر فى العلوم كافة الجائل فكره فى ملكوت السموات والأرض والعبادة وجميع المخلوقات

توصل النفس الى هذه المنقبة الشريفة. نظر سيدنا ابراهيم الخليل في الأرض ليذكر قومه فكسر الأصنام ليريهم أن الأرض لا يصلح ما عليها للالوهية ثم نظر نظرة في النجوم ثم اتبعها بنظرات متتاليات فرأى الزهرة المسماة عند العامة فريحة لانها تفرح الناظر لجمالها باشراقها فلما رآها قال هذا ربى اذهو أجمل ماراه في السماء التى هى أجمل وأشرف وأعلى وأضوأ من الأرض فلما أفلت قال انا لا احب الآفلين فكيف اتخذهم آلهة اذ الرب يستحيل عليه الانتقال والذلة والخضوع وهذه ذليلة

خاضعة لناموس بحركات لها قوانين لا تتعداها فكيف اسجد لمن هو ساجد أو أعبد ما هو عابد فلما رأى القمر نظر اليه وقال ما قال فيها ولما رأى الشمس بازغة فضلها على الجميع ثم جردها من الالوهية حين أفلت اذ هى ساجدة مسخرة وهذه صفة لا تليق الا للعابد الذليل لا للمعبود الكبير العظيم وذلك قوله تعالى (وإذ قال ابراهيم لأبيه أزر اتتخذ اصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما افل قال لا احب الا فلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر فلما افلت قال ياقوم انى بريء مما تشركون انى وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وماانامن المشركين) فانظر ايها الأخ بعقلك اكان سيدنا ابراهيم ينظر الى مجرد جمال الزهرة والقمر والشمس اذن لا فرق بينه وبين رجل من اهل السواد والفلاحين وسكان البوادى واذن يكون

جميع الناس لخليل الله

ايمدحه الله بقوله (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض) وهو لم يمتز عن العامة والجاهلية وانما نظر فيما وراء ذلك من الحكم والابداع والاتقان مما ستقف على بعضه فى هذا الكتاب ومتى نظرت بنفسك عرفت ما ترمى له تلك النفوس الشريفة هكذا فليكن الناظرون (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وفى هذه العلوم فليجد المجدون . نظروا الى الكائنات فشاقتهم واجتذبت قواهم وحواسهم فنظموا الدول والممالك والطرق والمسالك وارتقت افكارهم . هنالك الحياة الطيبة والسرور والبهجة واللذة فأولئك ينظرون وينشدون

امر على الديار ديار سلمى ... اقبل ذا الجدار وذا الجدارا

اما اولئك المتقاعسون عن النظر والقواعد فيقال فيهم

تمرون الديار ولم تعوجوا ... كلامكم اذن على حرام

وايضاح القول ان الامم التى ارتقى نظرها الى ادراك سر هذا الكون ارتقت اوج المعالى فى العلم ونظام ملكها إذ بقدر ماينظر فى الكائنات علماؤها يجد فى التحليل والتركيب عمالها ويكفيك نظرة لتاريخ الاسلام فيما مضى والافرنج فى

الزمن الحاضر فيا قوم هذا القرآن يحثنا على النظر فيما لدينا من الحكم المودعة فى هذا العالم والتأمل فى عجائبه المدهشة (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحون ولا تبكون وانتم سامدون) فيا للعجب ما للقوم ساهين لاهين (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) ظن الجاهلون خطأ ان هذا الدين يأمر بالاعراض عن النظر في هذه العجائب (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) فجهلوا بالحقائق وافتروا على الله كذبا واجترحوا اثما (ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كان لم يسمعها كان فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب اليم)

أعرضنا عن النظر العقلى والعمل اليدوي بعد ان قرأنا هذا الكتاب فتأخرنا فى الماديات والعقليات مع أن الكتاب طلب منا النظر في هذه العوالم لتتحلى بها عقولنا ونتخذ منها مايلزم لمعاشنا ومعادنا فان بينهما ارتباطا وثيقا محكما لايفهمه الا الباحثون المدققون والا فما هذا الحث في آيات كثيرة منه (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من

الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) فاذا جدت الأمة وأقلعت عن اعراضها وأغراضها وبحثت فى اسرار هذا الكون مدها مدبره بالعلم والعمل والثروة والغنى لان هذه سنة فى الكون فان الارض تكون ميتة يابسة لا ماء فيها ولا مرعى فمتى نزل ماء المطر اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج فهكذا الامة متى رجعت الى فطرتها وجدّت فى أعمالها ارتقت كما ارتقى غيرها من الممالك الاخرى ولذلك اعقب الآية المتقدمة بقوله (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الايات لعلكم تعقلون)

يا قوم طال الامد على هذه الامة فنسيت حظا مما ذكرت به فخسرنا الماديات من الصناعات والادبيات من العلوم فاصطلينا نارين نار الجهل وتقهقر المدنية

﴿ اتفاق علماء الشرق والغرب على هذا المبدإ ﴾

ولندبج كلامنا بما قاله الشيخ الغزالى فى الاحياء في الربع

الثالث ربع المهلكات فى باب الغضب ونتبعه بما قاله العلامة جون لوبك الانكليزى فى كتابه مسرات الحياة ونقارن هذا وذاك بآية من القرآن الشريف لتعلم أن الغرض الذى نرمي اليه فى كتابنا هو الذى عليه اجماع حكماء الشرق والغرب المسيطر عليه كتابنا المقدس

قال الشيخ الغزالى وانما منال الآخرة نعمة العلم فلاجرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وانبيائه وملكوت سمائه لم يحسد غيره اذا عرف ذلك أيضاً لان المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعلمه ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الانس وثمرة الافادة والاستفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لان مقصدهم معرفة الله تعالى وهي بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضاً في ما عند الله تعالى لان أول ما عند الله تعالى من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الانس بكثرتهم . نعم اذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه

تحاسدوا. لان المال أعيان وأجسام اذا وقعت فى يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما أمتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لامحالة فيكون ذلك سبباً للمحاسدة واذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره بها وأن يفرح بذلك والفرق بين العلم والمال أن المال لايحل فى يد ما لم يرتحل عن اليد الاخرى والعلم فى قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه والمال أجسام واعيان ولها نهاية فلو ملك الانسان جميع مافى الارض لم يبق بعده ملك يتملكه غيره والعلم لانهاية له ولا يتصور استيعابه. فمن عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك الذى عنده أجل نعيم ولم يكن ممنوعا من لذته بل زادت لذته بمؤانسته فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر الى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة فان نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته يأمن زوالها وهو أبداً يجنى ثمارها فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة

علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية فهو
وان اغمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتع فى جنة عالية
ورياض زاهرة فان فرض كثرة فى العارفين لم يكونوا متحاسدين
بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ونزعنا مافى صدورهم من
غل اخوانا على سرر متقابلين فهذا حالهم وهم بعد فى الدنيا فما
يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب فى العقبى فاذا
لا يتصور أن يكون فى الجنة محاسدة ولا يكون بين أهل الجنة
فى الدنيا محاسدة لان الجنة لامضايقة فيها ولا مزاحمة ولا تنال
الا بمعرفة الله تعالى التي لامزاحمة فيها فى الدنيا أيضاً فأهل الجنة
بالضرورة برءاء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً بل الحسد
من صفات المبعدين عن سعة عليين الى مضيق سجين ولذلك
وسم به الشيطان اللعين وذكر من صفاته انه حسد آدم عليه
السلام على ما خص به من الاجتباء ولما دعي الى السجود
استكبر وابى وتمرد وعصى فقد عرفت انه لاحسد الا للتوارد
على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس
يتحاسدون على النظر الى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية

البساتين التي هي جزء يسير من جملة الارض وكل الارض
لاوزن لها بالاضافة الى السماء ولكن السماء لسعة الاقطار وافية
بجميع الابصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا فعليك
ان كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعمة لازحمة
فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا الا في معرفة الله
عز وجل ومعرفة صفاته وافعاله وعجائب ملكوت السموات
والارض ولا ينال ذلك في الآخرة الا بهذه المعرفة أيضاً فان
كنت لاتشتاق الى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفز عنك
رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور اذ العنين
لايشتاق الى لذة الوقاع والصبي لايشتاق الى لذة الملك فان
هذه لذات يختص بادراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين
فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها رجال لاتلهيهم تجارة ولا
بيع عن ذكر الله ولا يشتاق الى هذه اللذة غيرهم لان الشوق
بعد الذوق ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن
لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي
مع المحرومين في أسفل سافلين ومن يعش عن ذكر الرحمن

نقيض له شيطانا له فهو قرين انتهى ما قاله الشيخ الغزالى رحمه الله تعالى وقال العلامة جون لوبك العالم الانجليزى نقلا عن رسكن ان فى مراقبة النبات والشجر وانبلاج الصباح ونور الشمس والقمر ورؤية الازهار والاثمار والقراءة والكتابة واعمال الفكرة والحب والصلاة من اسباب السعادة للمرء مالا يبقى مجالا لطالب وقال ابيكتوتس من يرى الشمس مشرقة والقمر مضيئاً والافلاك سابحة ويمتع بصره بمشاهدة عظمة البحر فذلك لا يكون وحيداً

وقال آخر ماذا يطلب الناس من السعادة والهناء بعد مارزقهم الله من آيات الجمال والحكم والبدائع وأنعم عليهم بالشيء المفقود مما ترتاح اليه الحواس الا ترى الاشكال الجميلة والصور البديعة والالوان المفرحة المبهجة والروائح العجيبة المختلفة والاصوات المتنوعة فى كل حى وجماد تطرب الافئدة الشجية وتشرح الصدور وتفرح المحزون . أنعم عليهم بنور الشمس وبهجة القمر وزين الارض بالجبال الراسيات والبحيرات والغابات وقسم الارض مناطق فهذه حارة وهذه باردة وهذه

متوسطة وبث فيها من كل دابة ونبات اختلفت صفاتها باختلاف مناطقها وحرارتها وبرودتها ولو لاحظنا ما تبصره عيوننا كل آن من آيات الجمال في الشروق والغروب وما يحيط بنا من أسباب نعيم الحياة ما طلبنا مزيداً

خلق الله عز وجل حواسنا مستعدة للشعور بما تلاقي من أسباب الحبور فلم تخلق تلك الصور والاشكال والمناظر عبثاً وباطلا بل لنستعمل فيها حواسنا ونعتبر بما نراه من أشكالها . واعلم أننا لو أخذنا نتصور إلها يريد الخير ويجلب أساليب السرور وأنواع الحبور لعباده ما استطعنا أن نتصوره يفعل أكثر مما نشاهده فى هذا العالم » انتهى ما نقلته من كلام جون لوبك مع الاستعانة بترجمة بعض الكتاب

وأقول أليس ما ذكرهو ماقاله الامام الغزالى فى الحكمة المشهورة ليس في الامكان أبدع مما كان اليس ينطبق تمام الانطباق على قوله تعالى في سورة النحل «هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك

لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرأ لكم فى الارض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماطريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقى فى الارض رواسي أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم)

فياليت شعرى من لى بأن يعرف علماء اوروبا بأن هذه الحكم في كتابنا المقدس الذى خرت له اعناق فحول الحكماء سجدا وفيه هذه الجواهر الثمينة

اللهم ارزق أمتنا رجالا يخلصون فى أعمالهم ويرون الناشئة محاسن العلم والحكمة

ومن المدهشات ان القرآن مع انه طافح بهذه النصوص الصريحة والآيات والعبر يقول كثير ممن لم يمارسوه من

المسلمين وجل الغربيين انه لا يلائم العلوم العصرية . ولكن أنا أعذر الفريقين ولا ألومهما فمن جهل شيئاً عاداه ولكن ألوم من قرأ تفسير القرآن والعلوم الحديثة ولم يبين للناس ما نزل اليهم ولم يوقفهم على الحقيقة إذ الكتب القديمة هجرها أغاب الناس واني لأجد في نفسي باعثاً قوياً وقاهراً نفسياً على ذلك من قبل أن يطر شاربي حتى انني كنت أطير شوقاً وأنا في الجامع الازهر الى مدرسة دار العلوم رغبة في العلوم الكونية بها ثم ألفت جواهر العلوم .وكتاب ميزان الجواهر . والنظام والاسلام . وجمال العالم وجمعت فيها من العجائب والغرائب ما يسر الناظرين وكان ذلك بطلب وجداني وشوق قلبي وحب لهذه العجائب ولما طبعت وجدت اقبالا من أهل العلم عليها في جميع الاقطار الاسلامية فطلب مني بعض الاصدقاء ما هو أسمى من ذلك وأدق في الحكمة العاليـة على ذلك النمط من التطبيق على الآيات والاحاديث فأجبت داعيه

اذا ما صراح الحق قد وافق الهوى فذلك مثل الترسيان مع الزبد

وكيف لا أجيب هذا الداعي وقد قال سبحانه وتعالى

(ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وهذه الآية تلزمنا أن نبين ما وقر في نفوسنا من المطابقات العجيبة والمناسبات بين القرآن والعوالم حتى يتبين انه الحق وان الله على كل شيء شهيد قال تعالى لنبيه (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) لعمري ان السكوت على مثل هذه الوصمة مع تبين الحق انما هو الكتمان بعينه فهاك أيها الاخ فانذكر أولا ما نجده في نفوسنا من العجائب العالية ثم ما يلائمها من نواميس الكون ومناهج الطبيعة وما اشتق منها على الترتيب الوضعي في الجماد والنبات والحيوان والانسان ونذكر انه كيف اشتقت هذه العوالم كلها من العناصر الارضية وكيف كثرت أشكالها الى ما لا يتناهى مع ان العناصر في الارض محدودة محصورة وان هذا بعينه يشبه اللغات واشتقاقها من أصول قليلة وهي الحروف التي هي عبارة عن تنوع النفس ثم نذكر نظام الامم وان النسخ في شريعتنا من

مقتضى النظام في السموات والارض ونوقفك على ما لم تقف عليه في كتاب ان شاء الله تعالى وها نحن شارعون في المقصود بعونه تعالى فنقول :

السكلام على النفس

وقوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون)

النفس الانسانية سر مكنون وطلسم مكتوم لشدة ما اعتاصت مع اتجاه العقول اليها ولطالما تباعدت مع كثرة تطلبها حتى تشعبت فيها الآراء وظنت بها الظنون

هنالك ابتلى الحكماء فى الاعصر الغابرة والحاضرة وزلزلوا زلزالا شديداً

سر تنزل من سرادقات العظمة والجلال والكبرياء والجمال والبهاء والنور الى دركات هذا الهيكل الجثمانى لتعلم ما في هذا الكون الشاسع من الصور والحكم والبدائع ثم ترجع الى عالمها الاصلى (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)

فكيف يصل الانسان لسرها أو يكتنه كنهها وكم لها

من عجائب حار فيها أولوا النهي وما أشبهها بالملوك في رعاياها تأمر وتنهي وتقضي وتحكم فاذا رأيت ثم رأيت ملكا استوى على عرش هذا الهيكل الجثماني فنظر في العوالم المحيطة به واستخدمها فيما يراه ملائماً لطباعه وبعبارة أوضح ان الانسان اذا أراد الغلبة على عدوه مثلا تشكل العالم امامه فى نفسه على حسب طبعه فان رأى الحديد لم يخطر بباله إلا القتال به او الخيل تصور كرها وفرها اوالصديق ذكر اعانته وهكذا وهذا غير نظر ذوي الشهوات والنفوس البهيمية وكلاهما مغاير لنظر الحكماء والعلماء

من العجيب انك ترى كل ما تقع عليه حواسك يناجى ضميرك بماهو غالب فالعاشق يذكره كل شيء بمعشوقه حتى كأنه ارتسم شكله على صحائف الوجود والخائف يرتاع من كل ما يرى ويسمع كان عدوه حاضر فى كل مكان حتى قال الشاعر العربى للحجاج

فانك كالليل الذى هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

وما أحسن ما جاء في التنزيل الالهي (وعلى الثلاثة الذين

خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) فضيق الارض نشأ من ضيق النفوس بما استولى عليها من الاسف والغم قال الشاعر العربي :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقلت

اذا لم تسعك النفس فالكون كله وآفاقه للجسم أضيق من قبر
وفي الفكر نيران وفي الفكر جنة وما أكثر الآلام إلا من الفكر

فاذا سرت النفس رأيت العالم كله امامك كأنه باسم فانشرحت العوالم لانشراحك وهذا كله يشهد به الوجدان فكأن كل شيء خط عليه بقلم طبيعي

بشرى فقد انجز الاقبال ماوعدا وطالع السعد في أفق العلا صعدا

فياسبحان الله ما هذه الاعاجيب .ما هذا التشكل والنفس واحدة والعالم لم تتغير صوره مع سرعة هذا التبدل النفسي . فالعالم كأنه نموذجها ولوحها وموضوع سرها ومناط فهمها ومرمى سهامها.ألم تر كيف ذكرت بعد الشمس وماعطف عليها فى قوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وماطحاها

ونفس وما سواها) فتأمل كيف ذكرها بعد ذكر هذه العوالم السماوية والارضية والمضيئة والمظلمة والشريفة والخسيسة والعالية والسافلة إذ هى لها كافة الاشكال المضارعة لما قبلها (صنع الله الذي أتقن كل شيء) ولذلك أعقبها بقوله (فألهمها فجورها وتقواها) فالفجور يجمع كل طريق الى الشرور والرذائل والتقوى تجمع كل طريق الى الكمال قال تعالى (وهديناه النجدين) أي طريق الخير والشر ثم أعقب ما ذكر بما ينشأ عن الفجور والتقوى فقال (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) أي فاز من طهرها وخاب وخسر من دسسها ودنسها بالذنوب والشهوات التي تتبعها الجهالات فانظر فى هذه الآيات وغرابتها ونظامها وتركيبها وحسن نسقها وتأمل كيف كان القرآن يطابق ما فى الوجود والوجدان ولذلك كان هذا الدين دين الفطرة فقد قرر الحكماء ان النفس الانسانية نتيجة هذه العوالم كلها وسرها فذكرت فى هذه الصورة عقبها ومدح من اكرمها وذم من أنزلها فى الحضيض وأهانها بالجهل والذنوب

اذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه

ولذلك أجمعوا على ان الانسان لا يتم كماله في هذا الوجود إلا بتحسين أخلاقها أولا وتحليتها بالعلوم ثانياً فأما التهذيب فهو مستفيض فى القرآن لا سيما فى سورة الانفال والتوبة والاحزاب ولقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه يأمر بتلاوة وحفظ هذه السور الثلاث والعمل بها ومن تصفح القرآن وجد فيه نحو الف آية تعد المؤمنين وتوعد وتنذر الكافر والمنافق إذ الايمان صفة تجمع كل كمال اعتقاداً وعملا والكفر ضدها كما ذكره فى اخوان الصفا

وهكذا ترى التهذيب مستفيضاً فى الحديث وكتب علوم الاخلاق كالاحياء وتهذيب الاخلاق وبداية الهداية ومنهاج العابدين.

ونحن باحثون بعون الله على بعض ما فى هذه النفس من العلوم لنتحقق ما قاله اكابر الحكماء ونفهم رمزهم بأنها كالورد والعلوم كامنة فيها كامنة فلقد كنت أسمع هذا الكلام وأصدقه تقليداً أما الآن فاسمع البيان

فلقد علمت ان العلوم كامنة فى النفس حقيقة وان التعليم والتفهيم انما يخرج ما كمن فيها كما يستخرج ماء الورد منه والماء من الآبار فى الارض والكهرباء من كل معدن ونبات والنار من الحجر بالاحتكاك ومن الشجر اليابس بالعرك ومن الاخضر فى شجر المرخ والعفار المذكورين في التفسير من أشجار بلاد العرب قال تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) وقال (أفرأيتم النار التى تورون أءنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون)

وهانحن نبتدئ في شرح استخراج العلوم من نفوسنا فنقول

« كيف كمن علم الحساب في النفوس وعرفه الانسان »

كل منا يعرف الاعداد ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ وهكذا

هذا أمر مستقر فى فطرنا نعم وقوف العد عند حد مخصوص كعشرة ومائة والف وهكذا . انما جاء من اختراع البشر لمناسبات ظهرت لهم

ثم ان فطرنا شاهدة بأن العد لا يقف عند حد كالفراغ المحيط بنا فلا نهاية له وكالدائرة مهما صغرت أو كبرت فانك

مهما درت عليها أو دارت هى فلا نهاية لها اذا لم تعتبر منها محلا مبدأ ومن العجائب ان جميع الآلات البخارية التى عليها مدار حياتنا لها عجلات تدور الى ما لا يتناهى كأنها تمثل حركات الافلاك وكواكبها الى ما يتناهى وهكذا أرضنا التى نحن عليها فكما انه لا آخر لدورانها كذلك لا آخر لحركة من دار عليها فانه لو دار عليها الف سنة لم يجد لها آخراً والدوائر ليس لها أول ولا آخر وهذا هو السر في قول العامة الدنيا لا آخر لها ولعمرك كل هذا يدل على ان خالق هذا الكون لا نهاية لكماله إذ جعل عدم التناهى فى أبسط الاشياء لدينا فكان هذا جميعه ضرب أمثال لنا (ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) فانظر كيف ظهر عدم التناهى فى العدد الذي فى فطرنا ولما نظرنا هذه الكائنات وجدنا التكرار بلا نهاية معلومة فى كل شيء حيث جعل العالم كله دوائر تدور بلا نهاية واذا كان هذا العالم الحادث بهذا الوصف العجيب فما بالك بمن فطره أيكون مخلوقه بلا حد وهو له حد تعالى الله عن ذلك . ثم

اذا أخذنا نجزئ الواحد لنأخذ كسوره لم نجد له نهاية كما يجزئ الكيماويون الشيء الى أجزاء بعد أجزاء فالعقول لا تقف عند حد في القسمة وان وقفت قسمة الكيماويين فلا نهاية للاجزاء التي يجزأ منها الواحد كما لا نهاية لما تركب منه من الاعداد الصحيحة

وليلاحظ انه عند أخذ الكسور يكون الواحد المنقسم غير حقيقي بل هو مجازى وإلا لم ينقسم فهو مركب من أجزاء كل منها واحد وهو في الحقيقة غير واحد ولذلك نقول عند التجزئة واحد من اثنين واحد من ثلاثة واحد من الف فبهذا عرفنا ان الواحد تكون منه الاعداد صحيحها وكسورها أما الكسور فقد عرفتها وأما الاعداد الصحيحة فباضافة واحد الى واحد يصير اثنين وباضافة ثالث اليهما يصير ثلاثة وهكذا فالواحد يعد جميع الافراد زوجها وفردها وأما الاثنان فلا يعد إلا الازواج وهى نصف العد وثلاثة تعد الثلث وأربعة تعد الربع وهكذا فلكل واحد من الاعداد جميعها خاصة لا يشركه فيها سواه وخاصة الخمسة انها تبقى ظاهرة حافظة ما قبلها مهما

ضربت في نفسها وفى جميع مكرراتها وهكذا الستة إلا انها لا تحفظ مراتب ما قبلها فى جميع أدوات الضرب كالخمسة وانما تحفظ نفسها فقط أما قولنا ان الخمسة تحفظ مرتبتها ومراتب ما قبلها فانها بضربها في مكرراتها تكون هكذا

٢٥
١٢٥
٦٢٥
٣١٢٥
١٥٦٢٥
٧٨١٢٥
٣٩٠٦٢٥
١٩٥٣١٢٥

وهكذا نرى الآحاد والعشرات محفوظة دائماً والمئات تتغير بانتظام وتدور ما بين ١٠٠ و٦٠٠ كما هو واضح وأما الستة فانها هكذا

٣٦
٢١٦
١٢٩٦
٧٧٧٦

فنراها لم تحفظ الا نفسها وتركت ما قبلها فلكل عدد خاصة لايشاركه فيها سواه كما أن لكل جماد ومعدن وحيوان وانسان خاصة لايشركه فيها سواه بخواص تركيبه فلا فرق

بين تركيب فى ذهن الانسان وتركيب في خارج عنه . وهذا هو الذى دعانا الى الكلام على الاعداد وجعلها أس كتابنا هـذا فانك ستطلع إن شاء الله تعالى على عجائب مدهشة وتنظر فى الفلك وحسابه والنظام الكونى وعشق النفس للموسيقي وانتظام النبات والازهار وصفوف الجند والهندسة وتعلم كيف تفرح للاشكال الجميلة وتنقبض لضدها(وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وان ذلك منطوفي نفسك (وعلم آدم الاسماء كلها) فاصبر نفسك معي بالغداة والعشى فى هذا المقام ليسهل عليك ما يأتى وتطلع على حكم باهرة ويكون هذا تأسيساً لما يأتى من تفسير (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) فنحن فى هذا الكتاب انما نخاطب العالم لا العالم بفتح اللام اذ يكفيهم النظر الظاهر ولهم يقال (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت) ونذكرهم بذلك تذكيراً كما أوضحناه فى أول كتاب في هذا الشأن وهو جواهر العلوم .. أما أنت أيها العالم الذكي

فهاك وأصغ الى ما أقول . من خواص عدد ٦ انه يقال له تام أى ان اجزاءه تساويه فله نصف وثلث وسدس وهى عين الستة ومن خواص عدد ٨ انها أول عدد مكعب زوجى وأما أربعة فمربع لاغير فانظر ألهمك الله العلم كيف تتبع العلماء الاعداد المركوزة في فطرة الانسان ودونوا كل ماراأوه لها من الخواص فى فن الارتماطيقي أي علم خواص الاعداد على هذا النمط ومن خواص عدد ٩ انه أول عدد فردي مربع ولما كانت الاحاطة بخواص جميع الاعداد أو كثير منها لايمكن ولا يليق بهذا الكتاب الذى هو في الحكمة العالية فانذكر الخاصة المشتركة بين جميع الاعداد وهي ان العدد يساوى نصف مجموع حاشيتيه القريبتين أو البعيدتين مثلا ٥ يساوى نصف (٤+٦) أو (٣+٧) أو (٢+٨) أو (١+٩)

﴿ أقسام العدّ ﴾

ومن لطائف هذا العلم ان العدّ على (٥) أقسام الاول طبيعى فيقال (٩٨٧٦٥٤٣٢١) وهكذا الثانى على طريق الازواج فيقال ٨٦٤٢ وهكذا الثالث على طريق الافراد فيقال ٩٧٥٣١

وهكذا الرابع طريق الطرح والخامس طريق الضرب أما
الطرح والضرب أى التفريق والجمع فأمرهما مشهور في علم
الحساب ولكن لابدلنا من الماع يسير اليهما مما يناسب ما نحن
فيه فنقول

ما أفرح النفوس الانسانية بالحقائق وما أبهجها بها وما
أطربها اذا قارنت العالم ببعضه فرأته مطرداً على وتيرة واحدة
ونهج لايتغير فانظر كيف ترى أن أحوال هذا العالم إمااجتماع
أو افتراق حتى جعل لكل حيوان شهوتان احداهما للجمع وهي
الشهوة والثانية للتفريق وهي الغضب تدفع المنافر وهكذا في
الكون ظلام لجمع البصر وحبسه ونور لتفريقه وفيه الحار
والبارد والرطب واليابس والعالي والسافل والارض والسماء
والاملس والخشن والحسن والقبيح والذكر والانثى وهكذا
كل متقابلين فتأمل فى الحساب الذى كان مبدأ الاشياء كلها
كيف كانت جميع مسائله ترجع الى احد شيئين اما ضم أو
تفريق فالضم بالجمع والضرب إذ الضرب عبارة عن جمع تكرر
واخترع الانسان بفكره طريقا له لتسهله والتفريق بالطرح

والقسمة اذ القسمة طرح تكرر بطرق اخترعتها العقول جيلا
بعد جيل فالضم والتفريق فى الحساب قد اشبها الشهوة والغضب
والحسن والقبيح والظلام والنور وهكذا فكما اختلفت طرق
الحساب والمرجع الى هذين الاصلين اختلفت طرق المظاهر
الكونية ولم ترجع جميعها الا الى هذين الاصلين وهذا تشهد له
غرائز العقول فجاء الكون مطابقاً لها (تبارك الذى بيده الملك
وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة) فالموت
قبض الروح عن البدن والحياة جمعها وللكواكب افتراق واجتماع
وللعناصر كذلك فباجتماع الماء مع تراب الارض تخضر الاشجار
وتزهر وتمو وبالافتراق المعبر عنه بالذبول تتفرق الاجزاء
منها وتنحل روابطها وهكذا أما العد الطبيعي فيمكن جمعه
بطريقة بسيطة جداً وهي من لطائف الحساب فاذا قيل لك
اجمع من ١ الى ٢٠ مثلا تزيد على ٢٠ عدد(١) وتضرب الناتج
فى نصف العشرين وهو ١٠ يكون الناتج هكذا ٢١٠ وهذه
صورته ١+٢٠=٢١ و٢١×١٠=٢١٠

ولو قيل اجمع من واحد الى أربعة كان الناتج ١٠ والحل

هو ١+٤=٥ و ٥×٢=١٠

ولو قيل اجمع من ١ الى ١٠٠٠ فالحل هكذا ١+١٠٠٠ =١٠٠١ و١٠٠١×٥٠٠=٥٠٠٥٠٠ وهكذا فى باقى جميع ما يماثل ذلك وأما العد على طريق الازواج فقاعدته أن تأخذ النصف وتزيد عليه ١ ثم تضربه في النصف وتزيدعلى حاصل الضرب ١ مثال ذلك

اجمع من ١ الى ٦ على طريقة الازواج تقول نصف الستة ٣ زائدا ١ يكون الناتج ٤ و٤×٣ أي نصف الستة يكون الناتج ١٢و١٢+١=١٣ وهو العدد المطلوب

واذا قيل اجمع من ١ الى ٢٠٠ على هذه الطريقة وهي طريقة الازواج يكون الحل هكذا

١٠١×١٠٠=١٠١٠٠ و١٠١٠٠+١ = ١٠١٠١ وعلى هذا فقس

وأما جمع العوامل على طريقة الافراد هكذا ٩٧٥٣١ الخ فتضرب نصفه بعد جبره فى نفسه فحاصل الضرب هو المطلوب

مثال ذلك اجمع من ١ الى ٧ على طريقة الافراد
نخذ ٥و٣ واجبرها تصير ٤ واضربها فى نفسها هكذا
٤×٤=١٦ وهو العدد المطلوب

واذا قيل اجمع من ١ الى ٩٩٩ بالطريقة المذكورة تقول
(٥٠٠) أو ٥٠٠×٥٠٠=٢٥٠٠٠٠ وهكذا

اعلم ان العد على طريقة الازواج هي طريقة الشطرنج
فتقول ٨٦٤٢١ وهكذا الى ٦٤ وإن شئت فزده الى مالا يتناهى
ومن خواصه الغريبة ان حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل
ضرب الوسطين فضرب ١ × ٦٤ = ٦٤ يساوى ضرب
الوسطين وهما ٨×٨ أو ٤×١٦ أو ٢×٣٢ فان كان له وسطان
ضربا نحو العددين ١و١٢٨ فان ١×١٢٨ = ١٢٨ والوسطان
٨×١٦=١٢٨

﴿ دقائق من خواص علم الحساب والارتماطيقى غير ماتقدم ﴾
ولاذكر شذرات من الارتماطيقى فأقول منها الكسر الدورى وهو
الذى يتكرر فيه رقم ١ أو عدة ارقام نحو $\frac{١١}{٧٤}$=١٤٨٦٤٨٦٤٨٦ر٠
ونحو $\frac{٥}{٧}$ = ٧١٤٢٨٥٧١٤٢٨٥ر٠ وهكذا فالدور هو المتكون

من الارقام التي تتكرر والمثال الاول كسر دائر مركب والثانى بسيط . ومنها ان خواص العدد في التربيع هو ان الفرق بين مربعي عددين صحيحين متواليين يساوى ضعف أصغرهما زائدا واحداً فالفرق بين $٥^{٢}$ و $٦^{٢}$ هو ١١ تقول ٥×٥=٢٥ و٦×٦=٣٦ و ٥×٢=١٠ و ١٠+١=١١ وهو المطلوب والفرق بين $٤^{٢}$ و $٥^{٢}$ اللذين هما ١٦ و ٢٥ هو ٤×٢=٨ و٨+١=٩

ومربع مجموع عددين يساوي مجموع مربعي هذين العددين زائداً ضعف حاصل ضربهما فمربع مجموع ٤و٥ هو ٨١ يساوى مربع الاول وهو ١٦ زائداً مربع الثانى وهو ٢٥+٥×٤×٢ فالمجموع ٨١ وهو المطلوب

واذا قسم عدد الى قسمين فان ضرب أحد القسمين في نفسه ثم ضربه في القسم الآخر يساوى ضرب ذلك القسم فى العدد الكلي مثلا ١٠ فلنقسمه الى قسمين ٧و٣ فبضرب ٧ فى نفسها يكون ٤٩ وبضرب ٧ في ٣ يكون ٢١ فالجميع ٧٠ وبضرب ٧ × ١٠=٧٠ وهو المطلوب

فانظر رعاك الله كيف استخرج العلماء قديما وحديثاً

والحكماء بآرائهم الثاقبة ما استقر فى فطرة الانسان ودونوه فى كتبهم وماهم الا مترجمون عن الفطرة الانسانيـة التى فطر الله الناس عليها لاتبديل لخلق الله وهكذا وصلوا من صغار المسائل الى كبارها حتى اعتلوا الى نهاية ما يستغرب من الجبر الذى يستغنى فيه بالحروف عن الاعداد ووضعوا جداول اللوغارتمات ولست بمطيل الكلام فى إيراد مثل هذه المسائل الحسابية والقواعد فانها مستفيضة في الكتب شائعة وانما الذى يحق لى التنبيه عليه كما قدمنا ان لكل عدد خواص لايشاركه فيها سواه مهما كثرت أنواعه وتشعبت فروعه ووصل الى مالا يتناهى حتى كان هذا العالم كله مبنياً عليه

فكما كان هذا في فطرنا ثابتاً بخواصه واشكاله وأحواله هكذا رأينا خالق هذا العالم ابرز مصنوعاته فى قوالب لكل مصنوع منها شكل وخاصة لايشترك فيها معه سواه فكان ما نشاهده ملائما لما فى فطرنا فاذا رأينا مسألة غريبة حسابية طرنا بها فرحا كمسألة الشطرنج التي سنذكرها وهكذا اذا رأينا شيئاً بهجا من غرائب الصنع حصل لنا مثل ذلك الفرح ومثلهما

حسن النغمات الموزونة فما أتقن هذا الصنع ولذلك نرى آيات القرآن مشحونة بذكر الحساب حتى اذا قرأت سورة الرحمن رأيت أول تعداد النعم ذكر الحساب مع الشمس والقمر ثم اتبعها بذكر النعم فى الدنيا والآخرة اذ قال (الشمس والقمر بحسبان) أى يجريان بحساب (والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان) الى آخر السورة فياعجبا لهذه السورة كيف ابتدىء فيها بسير الشمس والقمر بحساب وذكرت جميع النعم بعدها وبين كل نعمتين يقول (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى بأى نعمة تكذبان أيها الانس والجن فذكر فيها عالم الكواكب والنبات والحيوان والانسان والجنان والنيران والنعيم والعذاب مع ذكر الميزان الذى قامت به السموات والارض وهو الذى ألفنا لاجله كتاب ميزان الجواهر

فانظر أيها الاخ معى فى ترتيب سورة الرحمن فانك لو تأملت هذا السر الغريب وهو تقديم الحساب مع النيرين لهالك ماتعلم فان حركة الشمس والقمر عليهما مدار عالمنا الارضى والسحاب والماء والهواء وكل مولد من المولدات وأن جميع

الاشياء الارضية وظلالها جارية على نسق تابع لهذا الكوكب الهائل العظيم ولذلك استدل بالمزاول والظلال فسبحان من هدى بالشمس وأضاء بها فيها الحياة والعلم ما أعظم هذه الحيرة وما أدهش هذه الحكمة ولذلك أقسم الله بها في القرآن فقال (والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها) الى آخر السورة وهذا الذى ذكرنا هو الذى حمل الأولين على تدوين علم الاحكام واخبارهم بالوقائع المستقبلة سواء صحت أم لم تصح إذ كل شيء فى العالم بمقدار (وكل شيء عنده بمقدار(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) والحق ان هذا أمر حق ولكن السبيل الى معرفة تلك الاحكام مقطوعة والقول فيها من باب الظن والرجم بالغيب فان صدق مرة كذب مراراً هذا وكأن الله عزوجل يرينا أن كل شيء مما ذكر فى العالم جرى بحساب منتظم واتقان غريب وسترد عليك آيات الحساب فى هذا الكتاب مفرقة فى مواضع شتى إن شاء الله تعالى مقرونة بالحساب السارى فى دوران الكواكب وانها جارية بنواميس لا تتعداها وانها كالكسر الدائر البسيط والمركب الذى ذكرناهما فيما تقدم فانظر كيف

دارت هذه الاعداد بحيث لم يكن لها حد تقف عنده وهذه
أمور ثابتة فى فطرنا سواء أوجد العالم المشاهد أم لم يوجد فهذا
نظام غريب من عالم الاعداد يدعو الى بذل الجهد فى الاستطلاع
حتى يقول الفطن اليس هذا كله قائما بنفسي وهو عرض ومعلوم
أنه ليس قائما بجسمى والا لكانت الاجسام متساوية فيه وانما
هو قائم بأمر مجرد وجودى الا وهو نفسى الباقية التى تخالف
عالم الاجسام بالتجرد إذ المدد لا يقوم بمعدود وإنما قام بجوهر
وهو روحى هذا ومن الحساب ما يعد من قبيل الغريب المدهش
الا ترى الى ذلك الحكيم صصه بن داهير الهندى الذى اخترع
الشطرنج الى الملك فقال له تمن فقال اتمنى أن تضع حبة قمح فى
البيت الاول و٢ فى الثانى و٤ فى الثالث و٨ فى الرابع وهكذا
الى ٦٤ فسخر الملك بهذا التمنى وظن ان هذا يكفيه قدح من
بر فلامه على ذلك وقال له اتسخر بى فقال الحكيم انى تفكرت
فلم اجد في منزلى برا فتمنيت هذا ولكن اتمنى على الملك ان
يأمر بضبط الحساب فأمر الملك بذلك فأخبر ان ما فى خزائنه
ولا ما على الارض كلها من القمح يكفي فقال له الملك تمنيك

اعجب من اختراعك واعلم ان هذه المسألة تحل بطرق اسهلها
اللوغارتمات ويليها ان يحسب الحب الى ان يصل الى جزء من
قدح مثلا ثم تضاعف الى اتمامه ولقد وضع حكيم الفرس النرد
(الطاولة) في مقابلة الشطرنج فجعله مثلا للدنيا واهلها فرتب
افتة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة والمهارك ثلاثين قطعة بعدد
ايام الشهر والفصوص (الزهر) مثل الافلاك ورميها مثل
تقلبها ودورانها والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين
منها سته الشيش ويقابله اليك والبنج ويقابله الدوه والجهار
ويقابله السيه وجعل ما يأتي اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر
تارة له وتارة عليه وهو يصرف المهارك على ما جاءت به النقوش لكن
اذا كان عنده حسن نظر عرف كيف يتحيل على الغلبة وقهر خصمه
مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص وهذا هو مذهب
الاشاعرة ثم ان للزهر ست جهات كالست الجهات في الدنيا
وله ٢٤ زاوية سطحية نظير ٢٤ ساعة بالليل والنهار و٨ زوايا
مجسمة وهي أول عدد مكعب وبالجملة فالنرد وضع وضعاً محكماً
كما وضع الشطرنج فترى صاحب الشطرنج كل أفعاله بفكره

وصاحب النرد تأتى له الاشياء بالقدر ثم يصرفها على حسب فكره فيشقى تارة ويسعد أخرى فتأمل أيها الأخ بعقلك معي فى أفعال النوع الانسانى من هند وفرس ثم قارن مذهبيهما بمذهبي أهل السنة والمعتزلة ثم أحيطك علماً بأن هذين المذهبين بعينهما ساريان الآن في أوربا كما ذكره فتحي بك زغلول في الكتاب الذى ترجمه عن هنرى الذي سماه خواطر وسوانح في الاسلام فانه أبان فيه ان هذين المذهبين قائمان الآن بين علماء أوروبا بل عندهم أيضاً المذهب الثالث مذهب الافراط وهو مذهب الجبرية فانظر كيف تشابهت الافكار فى النوع الانسانى وهذا وربى من عجائب صنع الله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) فالعقائد لا تزال متشابهة (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فما أجل العلم وما ألذه وما أجمله وانظر أيها الاخ بعقلك السليم وفكرك الوقاد وقل لى بالله كيف توصل نوع الانسان الى أن يمثل القضاء والقدر وفعل الله في السماء والارض فى هاتين اللعبتين وهما الشطرنج والنرد وكيف وضعا بأحسن وضع وأبهج شكل وحكمة واتقان

وكيف مثلت العقائد فيهما ولعمري كم من لاعب بهما وهو كالحمار يحمل أسفاراً (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) ثم كيف بنوا هذه الاعاجيب على حساب غريب سبحانك اللهم لم تذر شيئاً في ملكك إلا وجعلت فيه حكماً وأمثالا (وما يعقلها إلا العالمون) ولقد ذكرني هذا قوله تعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم) أراد الله أن يضرب لنا مثلا يوضح لنا به فعله فى ملكه واتقانه فى ابداعه فأبان لنا انه هو نور السموات والارض مزينها بالكواكب المشرقة والعقول والارواح والنفوس والنهار والنور والحكمة والنبوة والعلامات والالهامات وانه مرتب بأحسن ترتيب وأجمل ابداع كما توقد مصباحاً فى زجاجة تستمد من شجرة من الزيتون معتدلة وزيتها يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فكيف

اذا مسته النار فانه يكون نوراً على نور وتلك الزجاجة تكون في مشكاة أي كوة مقفلة من الخارج لينحصر الضوء بها واذا استوفيت هذه الشروط كان نورها قوياً جداً لاستيفاء جميع ما يقويه والاكثرون على ان قوله مثل نوره أي في قلب عبده المؤمن وقوله نور أى نور العلم على نور أى نور النفس الناطقة وقد فسر هذا المقام الرئيس ابن سينا في رسائله وفى اشاراته بتفسير يرجع جميعه الى الروح ودرجاتها في العلم من الهيولانية التى هي للاطفال الى القدسية النبوية التى هي نور على نور ولقد أجاد الغزالى بعده في ايضاح هذا المقام وبالجملة فهذا ضرب مثل من الله لنا وأفهمنا به بعده (انه بكل شيء عليم) ومنه ضرب الامثال فهكذا ترى ان النوع الانسانى حذا حذو خالقه فى ضرب الامثال تبصرة وتذكراً للعامة والخاصة لوقوفهم على الحقائق فى أبسط الاشياء لديهم وهي الالاعيب التى تقع في أيدى الخاصة والعامة

فياجهل قوم يلعبون ولا يفهمون ويقرؤن نتيجة حساب الايام والشهور والخسوف والكسوف الدالة على حكم عالية ولا

يشعرون (أولئك هم الفاسقون) (وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وهم الذين يقال لهم يوم القيامة وعند الموت حين ينادون من يعرفونهم (ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير)

ليس شيء إلا وفيه اذا ما قابلته عين البصير اعتبار

فطن حكماء الامم السالفة لحكم السموات والارض وقيام العدل في النظام فافهموا الناس في أوقات لعبهم رموز الكون وحكمه وهكذا نسج على منوالهم علماؤنا رحمهم الله تعالى ولألق على مسامعك حكاية عن الشعبي إذ ارسله عبد الملك بن مروان في وفد الى ملك الروم فسأله ملك الروم ان الله ليس قبله شيء فهل لهذا مثال في الدنيا فقال نعم الواحد أول الاعداد وليس قبله شيء فقال ملك الروم اهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون فهل لهذا نظير قال نعم الجنين في بطن أمه يتغذى من الدم بواسطة العرق المتصل بالسرة فلو

بال او تغوط لماتت أمه فقال الملك يقولون ان نعيم الجنان لا ينفد مع كثرة الاخذ منه فهل لهذا نظير في الدنيا فقال نعم السراج يوقد منه الف سراج ولا ينطفئ فقال عجبت كيف لم يجعلك المسلمون ملكا عليهم فلما رجع الشعبي الى عبد الملك وجد القصة عنده بتمامها ثم قال عبد الملك انه قال لك كيف لم يجعلك المسلمون ملكا عليهم فقال نعم لو رآك لاحتقرني قال الملك أفتدري لم قالها قال لا قال حسدني عليك فأراد ان اقتلك فبلغ ذلك ملك الروم فقال والله ما اخطأ ما في نفسي فانظر كيف ذكر مثال كون الله ليس قبله شيء بالواحد إذ ليس قبله شيء (ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) عدد الواحد لا يخفى على أحد حتى الذين يسكنون فى أطراف المعمورة من زنوج أفريقية وشمال الروسيا ومع ذلك ضرب المثل به لا يعرفه إلا اكابر العلماء ولا يخطر إلا لمن بلغوا النهاية في العلم ومن هنا نفهم ان العلم ظاهر فى الفطر وانما المانع عنه انصراف النفوس لا غير وغفلتها واحتجابها

بالشهوات واللذات والآلام والاكدار الدنيوية والذنوب لا غير (قال عليه الصلاة والسلام لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السموات) ولا يظن ان ملكوت السموات شيء يحس بالبصر وانما هو فهم ماغاب عن الابصار وخطر للمعقول بالتبصر ولو كان من عالم الارض فكل محسوس فهو سفلي ولو كان في أعلى وكل معقول فهو علوى ولو كان في أسفل فتأمل . وقد رمزوا لذلك بحكاية آدم وولده شيث وقول الاول لبنيه من برع في العبادة علمته الكيمياء فسبق الجميع فيها شيث فعلمها له في يوم واحد وقال قد علمت ان الذهب فيما ينبذه الناس في قماماتهم وما يدوسونه بأقدامهم ثم أعرض عن ذلك كله واستغنى بعبادة ربه فأريد بالكيمياء معرفة حقائق الموجودات ولما صفت النفس عرف ان أدق العلوم في أبسط المحسوسات وأقربها مثالا ولا ضرب لك مثالا بما هو أقرب من ذلك كلنا نرى البخار في قدور الطبخ كل يوم والكهرباء في أبي الرعاش (سمك بحري) وفى الكهرمان أيضاً فلم يعرف هذه الاعاجيب الناجمة عنهما الاقدمون قبلنا فالمدار

على الاستعداد للفهم أما العلم فهو فى كل شيء فكل ما وقعت عينك عليه ففيه آلاف من الحكمة (ولكن اكثر الناس لا يعلمون)

﴿ لطيفة لمناسبة الشطرنج والنرد ﴾

انى لأعجب جداً من هذه الحكم الباهرة التى ظهرت على يد الانسان حتى أظهرها فى ألاعيبه كما أظهر النحل هندسته وتنظيم بيوته المسدسة المشاكلة تمام المشاكلة لجسمه الذى يصير مسدساً عند انتشار أجنحته ولا يزال هكذا نوع الانسان إذ لا يرضى أن يكون أقل من الحيوان فى الاتقان ألا ترى رعاك الله الى القياس المشهور وهو المتر (مقياس فرنساوي) فاقد جعلوه جزءاً من ٤٠ مليوناً من محيط الكرة الارضية بعد أن قاسوه بواسطة دوران عجلة الركوب مع ملاحظة النجمة القطبية بأخذ ارتفاعها كما قاسها ذانك العالمان في صحراء سنجار ايام المأمون وانما فعل الفرنساويون ذلك ليكون أثبت وأدوم وبنوا عليه مضاعفاته وأجزاءه ورتبوا عليه الموازين والمكاييل وجميع ما

يتعامل به الناس وجاروا فى ذلك قدماء المصريين الذين بنوا الهرم الاكبر وجعلوا طول قاعدته الف شبر ليكون أساسا للمقاييس وله نسبة الى الارض أيضاً وقد جعلوا المكاييل تابعة لها حتى ان الاردب ذراع مكعب فانظر كيف رأيت الانسان يحذو بعضه بعضاً (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير) اذكر هنا ما قرأته فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى عن فيثاغورس انه كان يقول ما معناه ان الواحد ليس من الاعداد وكلها لا تتركب الا منه والوحدة لشرفها سرت في الكون كله ولو زالت منه لتلاشى الا ترى ان جسم الانسان والحيوان والنبات عبارة عن أجزاء تضامت وتلاصقت واكتسبت وحدة بها صارت هيكلا مخصوصاً فكل الافراد والامم وحدات وكلما كانت الوحدة أجمع كانت أتم وأكمل حتى اذا أراد الله أن يملك انسانا على الناس سخر له أشكاله والقى عليه محبة منه لتحصل الوحدة المطلوبة أقول وكلما كانت الامة اكثر اتحاداً واقوى كانت أشرف واقدر على قهر أمم سواها اذ الوحدة صفة شريفة عالية هى صفة الرب بل العالم

الذي نحن فيه كله واحداذ هو كجسم انسان واعلم أنك لا تتحقق
من هذا الا بالعلوم كلها فتحقق اذن بنفسك أن السموات
والارض وما بينهما كجسم واحد يحتاج بعضه الى بعض ومن
قرأ كتبنا ميزان الجواهر وجواهر العلوم والنظام والاسلام
وجمال العالم عرف ذلك بلا ريب إن كان ذا بصيرة

بدائع العلم

ولعمري كيف يكون الكون واحداً كما ذكر ونحتاج لبرهان
على توحيد خالقه أم كيف تكون الوحدة عليها مدار نظام
الامم ولا يقوم ذو روح بل ولا نبات الا بها فكيف بعد ذلك
نستدل على وحدانية الخالق وكيف تكون أشرف من جميع
الاعداد ثم نحتاج الى اثباتها لمن هو أشرف (أم جعلوا لله
شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء
وهو الواحد القهار)

حكاية واقعة للمؤلف

سألني تلامذة يوما عن دليل الوحدانية فقلت لهم(١) ألكل منكم روح أم روحان فقالوا روح فقلت العالم كله جسم واحد فكيف يكون له مدبران فقالوا فهمنا ولكن زدنا (٢) فقلت يمكنكم أن تعدوا فقالوا نعم ٦٥٤٣٢١ وهكذا فقلت ان لم يكن الاله واحداً كان اكثر ولا مرجح لاحد الاعداد على الآخر فان قلت قلت وما الذي رجحها على العشرة مثلا فقالوا كفانا فقلت لهم (٣) أيضاً خالق الكون لابد أن يكون له وجود والواحد محقق وما زاد فمشكوك فيه فمن أراده فليبرهن عليه (٤) ثم قلت ما منكم من أحد الا وله غيرة على أرحامه وأهله في منزله قالوا نعم قلت اهى فضيلة أم رذيلة قالوا فضيلة فقلت أتكون هذه الغيرة على مالا تملكون فضيلة فيكم ويعطيها الكل من لا يتصف بها مع أنه أحق وأولى بان تكون فيه اذ هو المالك حقيقة وكيف يعطيك الغيرة على شيء لا تمتلكه ويرضى هو بالتنازع فى عظيم ملكه وهل فاقد الشيء يعطيه (ما اتخذ الله

من ولد وما كان معه من آله اذا لذهب كل آله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فلو تعدد الاله فمن أين كنت ترى الوحدة التي عليها مدار العمران

فصل

في الواحد الحقيقي والمجازى وان الواحد له الحكم الحقيقي وترتيب الاعداد فى نفوسنا وحنينها الى الاصوات اللطيفة

اعلم أن الوحدة السارية فى هذا الكون كلها مجازية اذ كلها تنقسم فالامة تنقسم الى افرادو الافراد الى اجزاء والاجزاء التى تقع عليها حواسنا لا تقف عندهم فى القسمة عقلا وان وقفت حسب التحليلات الكيماوية موافقة لمذهب ديمقراطيس وكل مايقبل القسمة فانه مركب من اجزاء ولا بد لها من مركب وصانع فان كان ينقسم أيضاً فهو منها فاذن لا بد أن يكون غير مركب وهو ما نعنى به الواحد الحقيقى صانع هذه الوحدات كلها (الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) وهو أسرع

الحاسبين ولذلك ترى الواحد له الحكم على جميع الاعداد
ازواجها وافرادها وهذه الخاصة لا توجد فى غيره البتة ولعمري
ما أشبه هذه الاعداد فى النفس بالموسيقي اذ هى مركبة من
حركات صغيرة متتابعة متناسقة متلائمة عند جميع الامم ولما
كانت نفوسنا منطوية على النسق والترتيب والنظام التي عليها
يدور الحسن والجمال حنت الى الموسيقي عند سماعها والى النغمات
وعشقت نظام العالم وقالت (سبحانك ما خلقت هذا باطلا)
فجمال الاصوات ومحاسن الصور انما هي مناسبات حسابية
وهندسية ناسبت نفوسنا فحنت اليها وهكذا ترى نظام اللغات
في سجعها ونظمها والخطوط التى تحكيها والقواعد التى تنطبق
عليها من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع وهكذا لغات العالم
كلها بل لغات الطيور كلها لها طرق مخصوصة تظهر بملاحظتها
وكل هذا العالم الذي نشاهده نسب هندسية وحسابية مشاكلة
للحساب المنطوى فى نفوسنا وللموسيقي المودعة فيها فرمى
نظر الحكماء والعلماء أن يكون لهم فى كل نظرة فى الوجود
لذة بادراك دقائق معانيه الغريبة الملائمة طبعاً للنفوس الانسانية

ولذلك كانت الكتب السماوية والنصائح الحكمية من الانبياء
والحكماء والعلماء تذكرة لما انطوت عليه النفس فلذلك سمى
القرآن ذكراً (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه
وهم يلعبون لاهية قلوبهم) واعلم أن الكائنات تذكرنا مافى
نفوسنا من الجمال ولكن هذا يصعب على الناس فسهل الله
تذكيرهم بكتبه (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر)
أى سهلناه لتتذكروا فهل من متذكر يتذكر هذا القرآن يذكرنا
العهد والميثاق الذى أخذ على الارواح المفطورة على حب المعارف
التى نهايتها صانع هذا الكون والارواح غاية الابداع والاتقان
فلا يلذ لها الا ما فطرت عليه فمن ترك كمال نفسه انسدت عليه
طرق الكمال وباء بالوبال وصار جاهلا أعمى (ومن أعرض
عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال
رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا
فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم
يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) فانظر كيف
جعله ناسياً وجعل عدم الفهم اعراضاً عن الذكر

وانى ليعجبنى ما يذكره علماؤنا أن النفس اذا سمعت الموسيقى أو الألحان المطربة حصل لها طرب لانه يذكرها العهد القديم وتحن الى كلام الله تعالى الذى سمعته فى الازل وهذا تمثيل فى غاية الغرابة والحسن ولا تظن انى ابيح السماع مطلقا وانما له شروط فاطلبها من الاحياء وانما نحن الآن في مقام مباهج الكون ومحاسنه اذ النغمات فى الاصوات وهى منتظمة تحدث عند النفس شوقا لأمر ربما لا تعرفه وربما خر الانسان صعقاً لانه يعرب لها عن عالمها عالم الجمال والكمال ويشخص لها نظام العالم المشاهد بتلك الحكاية الموزونة فى أقرب من لمح البصر بخلاف هذا العالم فان لطائفه تحتاج لطول زمن والنفس متى انخلعت من هذا العالم تكون لذاتها سريعة لطيفة وأقرب شيء يمثلها هي الموسيقي وكان فيثاغورث يقول ان العالم مركب من الموسيقي وهو تعبير فى غاية الجمال ومعناه أن المادة المشاهدة كل ما فيها حاصل بحركات موزونة فلكية ونظامات أرضية والمادة واحدة وهكذا الصوت واحد والالحان والحركات فيه تشبه حركات العناصر وامتزاجها شبها

تاما وهذا كله يشير اليه آية فى القرآن وهى قوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) فذكر الالسنة ثم الالوان والاول يتضمن الصوت والثاني العناصر والاختلاف فيهما هو مالا يتناهى من الصور ثم ان فيثاغورث لما اكثر من الرياضة قال وصلت الى عالم الجمال والبهاء والصور الحسان والموسيقى ورأيت هناك ما يعجزنى عن التعبير مشيراً بذلك الى الجنة وكان يدعو كثيراً الى تصفية النفس وكان تلميذا لسيدنا سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وكان يقول ان الواحد أساس كل شيء فلولا وحدة عناصر الجسم ما تركب الانسان ولولا وحدة الامة ما انتظم شملها وبقدر تمام الوحدة يكون حسن النظام وسنجعل هذه الحكمة وحدها مقالا شافيا ان شاء الله تعالى ثم قال الوحدة سارية في كل شيء حتى ان العالم كله واحد لارتباطه كارتباط الجسد الواحد فالوحدة بها شرف العالم وتم نظامه مع انها فيه مجازية فما بالك بالوحدة الحقيقية (وان الى ربك المنتهى) الا ترى رعاك الله الى ارتباط العالم بعضه ببعض بالجاذبية والاستضاءة

فانك ترى انه لو اختل كوكب عظيم عن مداره اختل النظام أجمعه وقد أوضحنا ذلك في كتابنا ميزان الجواهر واوضحنافيه الكلام على قيام الساعة وما يقوله الناس فيه وترى الارض تستقبل النور من الشمس لحياة ما عليها وكل هذا من وحدة نظام الكون ولما كان الحساب بهذه المثابة ذكر في كثير من آيات القرآن مقروناً بما فى السموات والارض والدنيا والآخرة فتارة ذكره مع الشمس والقمر فقال (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) واكد ذلك على سبيل الايغال فقال (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) فياعجباً لقوم لا يفهمون خطاباً (وكل شيء أحصيناه كتابا) وقد ظهر الحق في رابعة النهار فاعتبروا يا أولى الابصار

﴿ لطائف ودقائق من الحساب والحكمة ﴾

يعجب الانسان ويبتهج بعلم الحساب ومسائله اذا حل دقائقه ووصل الى خباياه وكائن من فتى ترى ملامح السرور

واضحة على محياه اذا حل مشكلة من مشكلات علم الحساب
فيرى باسم الثغر منشرح الصدر فبالله ما هذا الوجدان الذى
في نفوسنا وماهذا العشق العجيب ولعلك تقول هذا من الامور
الغريبة في نفسها والنفس ميالة بطبعها الى الغرائب إذ تحن اليها
وتأنس بها وتهش وتطرب بها فتفرح اذا علمت انها قدرت
على الامور العظام فلذة العلم عالية قطوفها دانية لا تسمع فيها
لاغية نقول نعم هى لذة العلم كما قلت ولكن كيف تفرح النفس
بما هو غريب عنها بل لا فرح إلا بما يلائم ويستحيل أن يكون
الفرح بما هو خارج عن النفس إذ لا يلائمها بل كلما كان أبعد عنها
كانت اكثر نفوراً منه وهذا هو المنطبق على القضايا العقلية
وانما الحقيقة ان الحساب وغيره من العلوم أمور انطوت عليها
نفوسنا ألا ترى ان المسائل الهندسية من الخطوط والسطوح
والاجسام أمور ثابتة فى نفوسنا وهكذا المقالات الثمانية الباحثة
عن خواصها كما يعرفه من زاول الهندسة وهكذا علوم اللسان
انما هي قواعد استنبطها العقل على وفق ما جرت عليه الالسن
وان كل ما جاءت به الشرائع موافق للعقول وان خفى بعضه

عليها لغموضه فبالله أي عقل لا يلائمه الامر بالمعروف والنهى
عن المنكر وترك الحقد والحسد والاتصاف بالمروءة والنجدة
والشجاعة والعفة وعلو النفس والمعرفة بالكون وخالقه وهذه
هي التي جاءت بها الشرائع ونزلت من السماء (ولله ما فى
السموات وما فى الارض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وان تكفروا فان لله ما فى السموات
وما فى الارض وكان الله غنياً حميدا ولله ما فى السموات وما
فى الارض وكفى بالله وكيلا) (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم
ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا
منهم ميثاقاً غليظاً) فهذا الميثاق مأخوذ على كل فرد بشهادة
الفطرة وانما كان ظهوره فى الانبياء أشد فارتقى الى درجة
الوحي ولولا ان كل فرد عنده أصل من هذا الميثاق تشهد به
فطرته ما أرسل اليهم الانبياء وكيف يرسلون بما لا تقبله فطرنا
ويشير الى ذلك قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان
قومه ليبين لهم) واللسان وان كان مراداً به اللغة فالمعاني أيضاً
لها بها ارتباط فلا بد أن يكون فى فطرهم شعور بها لهذا اتفق

الانبياء جميعاً على دعوة واحدة (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون) فقوة الكمال الانسانى ظهرت أشد ظهور في الانبياء كما ظهرت شرور هذا النوع فى قطاع الطريق والسارقين والجائرين والفراعنة فما من قوة فيه إلا وظهر بها قوم من هذا النوع ظهوراً تاماً فلولا عموم الرؤيا فى نوع الانسان إلا أفراداً قلائل أنكروها (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) (ذلك مبلغهم من العلم) ما أمكن التصديق بالنبوة ونظير هذا فى الشجر ترى شجرة الليمون ذات رائحة مخصوصة فى سائر أجزائها إلا أنها تختلف ويكون تمام ظهور تلك الرائحة فى ثمرها وهكذا جميع الاشجار فيها خواص تظهر في الاوراق والازهار ظهوراً ضعيفاً وتمام الظهور في الثمر (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وانما جعل لكل شيء غاب عنا وجهلناه نموذجاً نستدل به عليه حتى كان نوع الانسان كله كنفس واحدة فى أدواره من حيث البدو ثم التدرج فى الحضارة لأنها كالفرد فهو طفل ثم شاب ثم شيخ وهذان طلسمان أيضاً لحال الحيوانات وترتيبها من ابتداء

الحيوانات المائية الى عالم الانسان فالعالم كله ضرب أمثال بعضه ببعض (ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

فصل فى لطائف ودقائق من الحساب والحكمة

قد ذكرنا أن جميع العلوم كامنة فى النفس فلنجعل الحساب محل تمثيلنا ونقول تصفح الحساب بابا بابا تجده مبنياً بعضه على بعض بحيث إن كل باب يحتاج لما قبله حتى تصل الى الاعداد البسيطة والقضايا الضرورية وكأن هـذا من أوله الى آخره عرض قام بنفوسنا ومنها استنبط وظهر واشرق كما أضاءت العين بنورها وانما نور العين تتضح به الاشياء الظاهرة المحدودة ونور العقل بالحساب تتضح به أشياء لاتتناهى ولا حد لها وهذا النور لايقوم الا بموجود كما قام نور العين بموجود وهي الحدقة وذلك الموجود هو الروح التى لاتحس ولا ترى وانما قلنا إن الحساب أشرق من النفس لانه نتيجة بحث العقلاء بعنايتهم لنفوسهم فوضعوا هذه القوانين ولم يكن لها مصدر الا نفوسهم فهي غريزة وفطرة منغرسة فيها ثابتة حقة فاذن

بمافرح الانسان عند حل المسائل الا بنفسه وكأنه عاشق
غاب عنه معشوقه ففرح بلقائه ولذلك ترى النفس عند سماع
الاغاني تستشعر طرباً وربما ذهلت لما تسمع بما يذكرها
بعالمها المنتظم العجيب ولعلك من هذا شممت رائحة قولهم
العلم كامن في النفس كمون ماء الورد فيه وهذا ضرب مثل
صدر من العلماء فاذا قارنته بمثل ضربه الحكيم العليم عجبت كل
العجب بل يأخذك الاندهاش اذ مثل تلك القوة المودعة فى
هذا النوع واللطيفة القدسية الكامنة فيهم بالزيت الكامن فى
شجرة الزيتون وما أحسنه من تشبيه وما اجمله من تمثيل
الا ترى أن الزيت يوقد فيصير نوراً على نورفلذلك قال(يوقد
من شجرة مباركة زيتونة) فاذا طفت الاشجار جميعها لم تجد
لهذه الفطرة المودعة فينا تشبيها أقرب من الزيت وانت تعلم
أن الطين لايتقد ناراً فاذا ترقى الى عالم النبات استمسكت به
وكانت أتم ظهوراً في الاشجارالزيتية فاذا ترقى الانسان أشرق
النور الاعلى على قلبه فظهر لك أن العالم ثلاثة أقسام طين
لايقبل ضوء او نبات يقبل ناراً محسوسة تدوم فى الزيتية منها

وحيوان يقبل نوراً عقلياً ويكون اشراقه أتم فى الانسان الذي
كان أرقاه الرسل فتأمل كيف تدرج قبول الانوار من أصغر
مركب وهو النبات واخذ فى التدريج الى الحيوان فادركه
ادراكا عجيباً ثم وصل الى الانسان وترقى فيه الى الانبياء فما
أعجب هذا التقدير ولقد عجبت كل العجب عند كتابة هذا
وحرت فى تلك الحكمة الباهرة ثم اعرض ما شاهدت في هذا
الكون على ما سمعته وانظر كيف يقول (واذ اخذ ربك من
بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم
قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين)
أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من
بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم
يرجعون) ثم أتبعه بقصة بلعام بن باعوراء الذي ترك الهدى
فقال (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه
الشيطان فكان من الغاوين) فهذه الآية دالة على سريان فطرة
العلوم والمعارف فينا سريان الزيت فى الشجرة (ولئن سألتهم
من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم)

(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يؤفكون) (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) هذا هو الحكم السارى فى نوع الانسان ثم اشتد ظهوره فى أفراد قلائل منه وكانوا هدى للناس وهم الانبياء فتجسمت هذه العلوم فيهم تجسما ظاهراً حتى انك تراهم يعلمون ولم يتعلموا ويخبرون بما كان وما يكون ويفهم عنهم الخاص والعام وقارن علوم الانبياء بعلم الحساب متبصراً فعلومهم دفعية وهو تدريجى فتأمل قوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما لكن الله يشهد بما انزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً)

فما أجمل العلم وما أحسن المطابقة بين هذا القول وذاك الفعل ويا سبحان الله ان هذا الكتاب المبين تضمن حكما باهرة

وما أعجب هذا الملك والحكم السارية فى العالم أمامنا وكيف
ظهر النور فى العوالم الثلاثة من ادنى درجة فى النبات الى أعلى
الحيوان الى الانسان الى الانبياء وكيف نبتهج نحن بالمعرفة
والعلم بهذا ولعمرك ما الحياة الا حياة العلم والمعرفة والفهم مع
تصفية النفس حتى تشرق فيها تلك العلوم وتزدان بها كما كان
الانسان خلاصة هذا العالم فاشرق فيه النور بلا نار

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ونور ولا نار وروح ولا جسم

﴿ اتفاق غريب وحادث عجيب ﴾

يوم ان كتبت هذا الموضوع وذكرت فيه أن الموسيقى
اتذكر بالعهد القديم وما فطرت عليه كما رأيت ذهبت الى دار
الكتب الخديوية ولم اكن أرتب اوقاتى في ذلك اليوم مصادفة
فنظرت فى كتاب من الكتب القديمة بلا قصد لأمر مخصوص
فاذا فيـه ذكر الموسيقى وكيفية تركيب الالحان من حركة
وسكون وحركتين وسكون وثلاث حركات وسكون ويحصل
من امتزاجها صور كثيرة وصلت الى ما وصلت اليـه ثم قال
الآلات الموضوعة لهذه الصناعة قصد الحكماء بها اموراً شريفة

كالترغيب في الحروب فينشدون الاشعار التى استبدلها المسلمون
بآيات القرآن كقوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم
واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)
فكانوا يقرءونها على نقرات الدفوف تشجيعاً للغزاة وكالصلح بين
المتباغضين والافراح فى الولائم واثارة الاشجان اما الحكماء انفسهم
فقد كانوا يقرءونها فى بيوت العبادات امام الهياكل وهذا نص
ما كانوا ينشدونه وهم يبكون على النقرات ياءيتها النفس الغائصة
فى قعر الاجسام المدلهمة وياءيتها الغريقة في ظلمات الاجرام
ذوات الثلاثة الابعاد الساهية عن ذكر المعاد المنحرفة عن سبيل
الرشاد اذكروا عهد الميثاق إذ قال لكم الحق ألست بربكم قلتم
بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هـذا غافلين أو
تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبـل وكنا ذرية جرمانيين فى دار
الغرور وضنك القبور اذكروا عالمكم الروحانى وداركم الحيوانى
في محلكم النورانى وتشوقوا الى آبائكم وأمهاتكم الروحانيين
الذين هم فى أعلى عليين الذين هم من أوساخ الأجرام مبرءون
ومن علامة الاجسام الطبيعية منزهون بادروا وتزودوا

وارحلوا من دار الفنا الى دار البقا من قبل ان يبادركم الى هناك مكرهين محقورين غير مستعدين نادمين ثم قال وقد حرم في شريعتنا الاسلامية سماع الموسيقى نظراً لاستعماله في غير ماوضع له فانزلوه الى حضيض الشهوات والجهالات استنزلوه من معاليه وهذه عادة الله في خلقه جعل لكل زمان نظاماً خاصاً به فهذه الاصنام كما ورد في الاخبار كانت صور قوم صالحين فتناسى الناس اصلهم وهجروه (ونسوا حظاً مما ذكروا به) فعبدوها فحرمتها شريعتنا وهكذا الموسيقى وضعت لامر شريف في الازمان السابقة فحرمتها فروع شريعتنا المفصلة فى الكتب كالاحياء بشرائط واحوال مخصوصة واباحتها في احوال اخرى وانما كان تحريمها لاستعمالها فى غير ما وضعت له الا ترى انه اذا انشد نحو هذا البيت عند السماع

ماجاءنا من احد يخبرنا   فى جنة من مات اوفى نار

يدخل في قلوب السامعين الشك والارتياب او هذا البيت

فخذوا بنصيب من نعيم ولذة   فكل وان طال المدى يتصرم

يغرى بالمعاصي والمفاسد .فياسبحان الله كيف اصبح
المذكر بالنعيم ولذة الجنان ومعالى الاخلاق وحب مبدع هذا
الكون مغرياً بالكفران والمعاصى ومساوى الاخلاق اما
الحكماء فنظروا الى جميع لذات الانسان وقالوا انها ترجع الى
المطاعم والملابس والتناسل فاما لذة المطاعم ونحوها فليست
مقصودة لذاتها وانما جعلت قاهراً يقهرنا على الاكل انبقى حياء
واما لذة التناسل فهل هى الا قاهر لنا ومسيطر علينا لبقاء
النوع الانساني اقصر آجالنا ولو كانت اجسامنا باقية الى امد
الدهر وخلت عن التحليل الحاصل فيها كل لحظة لم نحتج لهاتين
الفعلتين ولم تخلق هاتان الشهوتان اللتان هما كالشرطى
(الجندى الملازم) الآمر بالفعل فحقيقة هذه الشهوات
جنود الله فينا تطالبنا بمصالحنا ونحن عنها غافلون فاعتبروا
ياأولى الابصار ومصداق ماقلناه انك ترى شهوة الغذاء
تقل اذا شبع الانسان وهكذا اذا كبر في السن وهكذا
شهوة التناسل بل تري ذلك الجمال والحسن قد اصبح ذابلاً
وجيد المحاسن عاطلا كلما تقادم العهد ودرجت الذرية في المهد

وانقلب حب الشهوات الى حب التربية المنزلية فكان الله أيقظ نوع الانسان الى ان هذه ليست لذات حقيقية أتيت بها اليكم تعيشوا وتتذكروني والا فلماذا أقال محاسنكم اذا كبر السن وهل انسخ آية الا وآتى لكم بخير منها وهذا امر ظاهر جلي

ولعلك تقول كيف اتيت بعبارات المتقدمين فى الموسيقى واستدللت بها فى كلامك على انه مذكر بالعهد القديم وهل يجوز التذكير بغير القرآن والسنة اقول لك اعلم ان شريعتنا الغراء جاءت مصدقة للكتب كلها قال تعالى (آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس) فجعله مصدقاً لما بين يديه فمن ذكرناهم من الحكماء كانوا يحنون الى عالم القدس والجنة والبهاء والنور وهذا كتابنا الكريم نطق بالحق الموافق لما كانوا ينشدونه ويا سبحان الله كيف كانوا ينشدون هذه الاشياء التي نزل القرآن بها بعد قرون كثيرة فانظروا كيف تطابقت الشرائع والفطر واتجهت عقول اكابر

الامم الى مقصود واحد وهو الاتجاه الى صانع هذا الكون

فصل

حكمة الخالق عز وجل أن جعل لكل شيء ارتفاعاً وانخفاضاً وجهلا لقوم وعلما لآخرين ولذلك ترى علوم الحكمة يضل بها الجاهل ويهتدي بها العالم بالشريعة وهكذا كل شيء (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهدالله من بعدميثاقه الآية) بل ما لناوللاشياء القديمةنذكر كتابنا العظيم وهو القرآن الذى هو محفوظ لدينا كيف أصبح لا يقرأ إلا للتغنى ونحوه لا للمعانى هذه حالنا الآن قد طال علينا الامد فقست قلوبنا وكثر فسقنا وهذه حقيقة صفة الانسان متى طال عليه الامد نسى ماوضعت له الاشياء نجرى عليها تقليداً ، هذه الصلاة انزلها الله على المؤمن بواسطة النبوة لتيذكر بها الرب كما قال (واقم الصلاة لذكرى) فتمادى الزمان وقلنا من اتى بالاركان تامة صحت صلاته فالخشوع غير شرط وانما خفف علماؤنا رحمهم الله تعالى لعلمهم بقصور الناس ولكن

اصل الوضع ما قلناه وهو التذكير وممن جعل الخشوع شرطاً
الشيخ الغزالى وهو وجيه بل كتب الروايات كالف ليلة وليلة
وما فيها من الروايات كريم الزنارية والورد في الاكمام وعلى نور
الدين فهذه كلها تطرف فيها واضعها وجعلها للعلوم والمعارف
كما يصنع اهل اوروبا اليوم فلما تنوسى العهد اصبح اخواني
المسلمون يظنون انها حقيقية ويقولون الملوك العباسيون فعلوا
كيت وكيت وهم براء مما يفهم الجاهلون وانما جرت عادة
واضعي الروايات ان ينسبوها الى الاكابر لتقبل الناس عليها ثم
يتناسى الناس ذلك لطول الزمن كالاصنام كانت صورا عزاء ثم
محى الزمان أسماءهم بعد ان عبدت الاصنام وهاهم أهل أوروبا
الآن يعلمون أن رواياتهم موضوعة وضعاً خالياً فما يدريك اذا
طال الأمد عليهم وقست قلوبهم وانتشر فسقهم أن يظنوها
محققة هذه سنة الله فى خلقه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) وهذا
هو السر في كثرة تغيير النظامات القديمة بالوحي على الانبياء
السابقين أولا وتغيير النظامات فى الدول الخالية اذ تنقلت من
ملوكية الى جمهورية وتأخذ الصنائع والعلوم فى التقدم كل ذلك

النسخ والتغيير سنة الله لعلمه أن الانسان اذا وقف على القديم وحده لم يقفه سره فاذا عمل عملا جديداً استفرغ فيه جهده فعرف مقداره واستعمله فيما وضع له فالنسخ فى الكون تارة يكون بالوحى وتارة يكون بالهام فى قلوب الامم ورؤسائها وعلمائها بخلاف نسخ الدين فانه لايكون الا بالوحى وحده كما هو معلوم ولا ريب أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء لم يحدث أعظم تغيير فى الكون الا بعد بعثته لظهور حركة أفكار فى الشرق منه ثم أمتدت الى المغرب وحصل هذا الانقلاب الهائل فتوالت التغيرات فى النظامات الكونية (والله يعلم وانتم لا تعلمون) ولقد أصبحت المواصلات بين الشرق والغرب أسرع من لمح البصر فلم يحتج النظام الى نبى يأتى بعده (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) لا للمؤنين فقط كما أوضحناه فى رسالة جوابا عن سؤال كيف كانت حال العالم لو لم يفتحه المسلمون انتهى ما أردنا ذكره في الاستطراد لمناسبة الموسيقى وتغير الاحكام فيها ومشابهة الاصنام لها وغير ذلك

بدائع فى الحساب واستشهاد من القرآن

كل انسان يسر بمعرفته ويبتهج بحسابه وهندسته وهكذا يشوقه ما يسمعه من غرائب العلم وتهش نفسه اليه وتطرب به وتعجب بحسنه اذا سمعه من ذوى الدراية والعلم ألم ترأنك اذا سمعت مسئلة اليهودى لسيدنا على اذ طلب منه مخرج[١] الكسور التسعة البسيطة وجوابه له بضرب السنة في الشهر فى الاسبوع مما أوضحناه فى كتابنا ميزان الجواهر وهكذا المسئلة المنبرية المشهورة اذ كان يخطب على المنبر وهو يقول ما معناه الحمد لله خالق السموات سبعا وله المآب والرجعى فقال له سائل ماتقول في من مات عن أبوين وبنتين وزوجة فقال صار ثمن

---

(١) جاء رجل يهودى الى سيدنا على كرم الله وجهه فقال ما العدد الذى يكون نصفه وثلثه وربعه وخمسه وسدسه وسبعه وثمنه وتسعه وعشره أعداداً صحيحة فأجابه على الفور اضرب اسبوعك فى شهرك فما حصل فاضربه فى عدد شهور سنتك وهو المطلوب فاسلم اليهودى حين سمع هذا الجواب فان ٧×٣٠=٢١٠ و٢١٠×١٢=٢٥٢٠ وهو العدد المطلوب ولهذا جواب آخر وهو ٤و٧و٩و١٠ وهذه الاعداد الاربعة كل عدد منها فيه عين وتسمى (أربع عينات) وهذه المسئلة فى الحساب هي مسئلة المضاعف البسيط اهـ مؤلف .

المرأة تسعاً فاذا سمعت ذلك حصل لك باعث مستحث الى العلم والفهم والعقل والبحث عن العلوم الكونية والعقلية فانظر كيف أدرك حساب الميراث والعول بأسرع من لمح البصر ، وتأمل كيف تتعجب اذا رأيت مسئلة الرجل الحساب الذى باع بيته الجميل بمبلغ ٢٥ فرنكا وشرط على المشترى أن يدفع له (سنتيما) يعنى جزء ١ من مائة جزء من الفرنك وهو أقل من نصف مليم مصرى وفي ثاني يوم (سنتيمين) وفي ثالث يوم ٤ سنتيمات وفى الرابع ٨ سنتيمات وهكذا بطريق التضعيف الى آخر الشهر فانظر الى ما أخذه الحسّاب آخر الشهر أخذ الخمسة والعشرين فرنكا وزيادة ٧٣٧ الف فرنك و٤١٨ فرنكا و ٢٣ جزءاً من مائة من الفرنك فاذا رأيت ذلك هالك الامر جداً وتعجبت كيف يصل ما هو أقل من نصف مليم بالتضعيف في ٣٠ يوما الى هذا المبلغ المهول

تأمل فيما هو أرقى من ذلك وهى مسئلة الشطرنج والاخذ فيها بطريق التضعيف كهذه المسئلة الى ٦٤ عيناً عدد بيوته كما تقدم لك فكيف كانت حبة القمح بالتضعيف الى ٦٤ تصل الى

مقدار لا يمكن تحصيله من مخازن الدنيا وذلك أن القمح بالتضعيف في بيوت الشطرنج يصل الى ١٨٤٤٦٧٤٤٠٧٣٧٠٩٥٥١٦١٦ أي ١٨ سنكليون و٤٤٦ كترليون و٧٤٤ ترليون و٠٧٣ بليون و٧٠٩ مليون و٥٥١ ألف و٦١٦ حبة قمح

وأعلم أن كل ألف ألف تسمى مليونا وكل الف مليون تسمى بليونا وهكذا فلا تلتبس عليك القراءة إن لم تكن قرأت الحساب الجديد وهنا مسئلة لطيفة وهي ان مسئلة التضعيف لها قاعدة غريبة وهي ان كل عدد مضاعف فيها يكون جميع المضاعفات قبله اذا جمعت تساوى مافوقها الا واحداً وتوضيحه ان ثمانية ضعف أربعة واذا جمعت ٤و٢و١ كانت ٧ وتضعيف ٨ هو ١٦؛ فاذا جمعت ٨ على ماقبلها بلغ ١٥ وهو أقل من ١٦ بواحد وقس عليه

وكيفية حسابه ان يكون البيت الاول١ والثانى٢ والثالث ٤ والرابع ٨ وهكذا فاذا بلغ ١٦ بيتا كان القمح قدحا وهو ٣٢٧٦٨ حبة واذا بلغ ٢٠ بيتا صار١٦ قدحا وهو الويبة والاردب ٦ ويبات واذ وصل التضعيف ٤٠ بيتا صار مخزنا كبيراً (شونه)

وهي ٢/٣ ١٧٤٧٦٢ (اردبا) فاذا بلغ ٥٠ بيتا صار مدينة وهي ١٠٢٤ مخزنا (شونة) فاذا بلغ ٦٤ صار ١٦٣٨٤ مدينة

وبالاجمال فالقمح يبلغ ١٦٣٨٤ مدينة وكل مدينة ١٠٢٤ مخزنا وكل مخزن ٢/٣ ١٧٤٧٦٢ اردبا وكل اردب ٩٦ قدحا وكل قدح ٣٢٧٦٨ حبة فالحب كله نظمه بعضهم فقال

ان رمت تضعيف شطرنج بجماته

واوا هَهْ طعجزْ مدٌّ زوٌ ددحا

١٨٤٤ ٦٧ ٤٤٠ ٧٣٧٠٩ ٥٥ ١٦١٦

وهذا كله ٠ و البيت الرابع والستون وماقبله جميعه فان اخذت نصفه كان مافي البيت الاخير وحده على حسب القاعدة المتقدمة وهو ٩٢٢٣٣٧٢٠٣٦٨٥٤٧٧٥٨٠٨ وهذه المسئلة يسهلها عملية حساب اللوغارتم وهو ان تأخذ لوغارتم (٢) وهو ٣٠١٠٣و٠ وتضرب هذا اللوغارتم في الأس وهو ٦٣ هكذا ٦٣ × ٣٠١٠٣و٠ = ١٨٫٩٦٤٨٩ ولما كان عادة علماء اللوغارتم ان يأخذوا ما يقابل الكسر ويجعلوا للصحيح ارقاما بمقدار العدد الصحيح بزيادة واحد وجب ان تأخذ العدد المقابل للوغارتم ٩٦٤٨٩و٠ وهو

٩٢٢٣٤ ونضيف له اصفاراً حتى يكمل ١٩ رقما بقدر ١٨ + ١
وعلى ذلك يكون هذا العدد هكذا ٩٢٢٣٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٩
وهذا العدد بعينه هو الذى ذكرناه عن علمائنا رحمهم الله تعالي
ولكن هنا فى اللوغارثم تقريب فقربت (٤) اه

واتفقوا على ان واضع الشطرنج ومخترع هذه المسئلة هو
صصه بن داهر الهندي الحكيم الشهير ملك الهند يلهيت او
بلبيت وهو من فضائل الهند الثلاثة وثانيها كتاب كليله ودمنه
وثالثها أرقام الحساب العشرة المعلومة هذا

ولعلك هالك الامر حين تأملت هذا الحساب وتعجبت
مما استكن فى فطرنا وتقول لقد بلغ الانسان من العلم مبلغاً
عظيما ولكن اذا نظرت ما سنذكره لك فى الكائنات ومانظمه
الحكيم فيها تعلم حقيقة معنى قوله (نرفع درجات من نشاء وفوق
كل ذى علم عليم) وان العلم والحساب عندنا نزر يسير بل
رشحات من ذلك الحساب العالى الذي ستطلع عليه بأجلى بيان

فلذلك ورد قصراً للعلم بتقديم الخبر وتأكيده بالتذييل
واتباعه بالتفصيل فى قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها

الا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها
ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب
مبين) اشارة الى اختصاصه بعلم عدد مافى البر والبحر وعدد
الاوراق الباطنة ولما اختص العلم به شرع يذكرنا بأعمالنا وانه
يعلمها بعد ان ذكر علمه بالعالم كله فقال (وهو الذى يتوفاكم
بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى
ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) أظننتم أنكم الينا
لا ترجعون (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى
اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) أيزعمون
اننا لا نحسب مع انهم هم يحسبون أم ظنوا انا خلقناهم يلعبون
بلى قد احصينا أعمالهم وضبطنا أوهامهم فى صحف مكرمة
مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة حاسبين كاتبين (ثم ردوا
الى الله مولاهم الحق وهو أسرع الحاسبين) فكأن هذا فى
مقام قهر العباد فأظهر عزه وذلهم وغلبته وضعفهم حيث قصر
فى الاول وذكرا لقهر وختم بقوله (وهو أسرع الحاسبين)
فأثبت الحساب لنا واننا مهما وصلنا الى شأو الحذق فيه فهو أسرع

تأمل كيف يقول فى مقال الثواب واعطاء الاجر (أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب) كانه قيل كيف يمكن حساب أجر كل عامل فقال ان الله سريع الحساب فلا يقاس عليكم ولم يقل أسرع الحاسبين اذ ليس المقام لاظهار القهر وانما هو جزاء ومكافأة ليس فيه دعوى لاحد

عجبا للانسان فطره المبدع على العدد والحساب ثم غفل عنها وجهل نفسه فانزل القرآن ليذكره بحساب الكون ونظامه ليستيقظ من غفلته لنفسه رحمة منه تعالى وحباً له وارادة للخير فقرأنا القرآن ونحن معرضون عن الذكرى

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الاّ استمعوه وهم يلعبون) فهم في انفسهم لا يبصرون (واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون) (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) (وكم من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) (اولئك الذين نسوا الله فانساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون)

فسبحان الله ان العلم والتقدير والتدبير من أجلى صفات

الربوبية ولا يتم العلم الاّ بالتقدير والحساب فلذلك كثر ذكرهما في الآيات كقوله (الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهنّ يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علما)

وياليت شعري كيف نعلم أنه قد أحاط علما الا بالتفصيل والبحث عن الحقائق وفك طلاسم هذا العالم والسير فى الارض بالفكر وتحليل المواد إما عقلا وإما عملا والحق الذي نرضاه أنه لا بد من أعمال الصناعة أولا كتحليل النبات ومعرفة مقاديره وكحساب سير الكواكب ثم بناء البراهين على تلك الحقائق حتى يتحد العلمان وتكون الصنائع البشرية مبدأ للمنازع الفلسفية (وسيرد عليك في هـذا الكتاب جملة من الحساب الفلكى ونبذة من تحليل النبات بمقاديره وبناء البراهين عليه ليكون نموذجاً أرجو أن ينسج على منواله)

واعلم ان هذا هو السير الذى طلب من العلماء فسير العامة بالسياحة والاسفار وسير الحكماء بما أبنته لك سواء اكان معه انتقال أم لا فسير العلماء أعم والعامة أخص ولعلك بهذا تفهم

سر قوله تعالى(قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير) .

يا حسرتا على ما فرطنا في كتاب الله تعالى فجهلنا ابداعه فى ملكه وصنعه وهو عزوجل يطلب منا النظر وانه كيف بدأ الخلق وانا اذا تيقنا البدأ بالعلم اليقيني كما ستراه في كتابنا هذا تعرف ان النهاية بنظام كالبداية فَلِمَ نقتصر بعد هـذا على الاحكام والقضايا وحدها والعبادات دون المصنوعات (سبحانك ما خلقت هذا باطلا) سبحانك ما أنزلت قرآنك لمجرد الزينة مع الجهل بما فيه ثم انه لم يكتف بما ذكر لايقاظنا من سنة الغفلة حتى قال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) نعم نظر العقلاء في موازين هذا العالم واطلعوا على كثير من التحليلات الطبيعية والكيماوية والعلوم والقوانين فوجدوا أنه موزون بميزان عدل وكيف يصح اليقين لعاقل بهذه النظامات ولم يرها بالبرهان وانما يكون ايمانه ايمان العجائز والعامة والجاهلين المقلدين (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)

وانى لأعجب كل العجب لقوم يقولون نحن مسلمون ويظنون جهلا وغباوة ان هذه العلوم بريئة عن الدين مع أنها هى والدين ربما تبرآ منهم وانى أرى ان الايمان لا يكون يقينياً فى هذا الزمان إلا بها

﴿ استشهاد على ان الايمان لا يكون يقينياً ﴾
« إلا بهذه العلوم من كتاب الله تعالى »

ما كنت بدعاً في هذا القول ولا متغالياً كيف وقد ورد في القرآن الكريم ما هو صريح فى ذلك وان تحليل المواد النامية توجب اطمئنان القلب ورسوخ الايمان كما سيرد عليك فى تحليل النبات عند الكلام عليه لتعلم ان الله على كل شىء قدير وان الله قد أحاط بكل شىء علما وتعلم كيف بدأ الخلق والموازين القسط حتى لا تظلم نفس شيئاً وانه ان كان مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض أتى بها ربك وانه أسرع الحاسبين فاذا رأيت ثمّ رأيت علما فيما سيرد عليك يطمئن به قلبك وترى ظلمات الشك قد انجلت عنك

واذا كان سيدنا ابراهيم طلب من ربه قائلا كيف تحيي الموتى ليطمئن قلبه ويكون بالمعاينة أوثق منه بالعلم إذ لا ريب أن المشاهدة أجلى من الغيب وأظهر وأوضح فأجابه لما طلب تعليما لنا ولتابعي الانبياء بعده ولذلك كثرت العلوم الحكمية فى الامم التي اتبعته وانتسبت اليه فالصابئون يدعونه وكذا المجوس وباقي الأمم المشهورة من اليهود والنصارى والاسلام اجابة لدعوته (واجعل لى لسان صدق في الآخرين)

ولا ريب ان هذه الأمم كلها تعلم كبراؤها الحكمة والتحليل والتركيب بدرجات متفاوتة على وفق مشربه واتباعاً لمذهبه ولا شك أنا أولى به وأحق باتباعه والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (نحن أحق بالشك من ابراهيم)

ولعل هذه المقدمات شاقتك الى أن تسمع الآية مفسرة ألفاظها قال تعالى (وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى) قال تعالى له (أولم تؤمن) بقدرتى على الاحياء سأله مع علمه بايمانه بذلك ليجيبه بما سأل فيعلم السامعون غرضه (قال بلى) آمنت (ولكن) سألتك (ليطمئن) يسكن (قلبي) بالمعاينة

المضمومة الى الاستدلال (قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك) أملهن اليك وقطعهن واخلط لحمهن وريشهن (ثم اجعل على كل جبل) من جبال أرضك (منهن جزءا ثم أدعهن) اليك (يأتينك سعياً) سريعاً (واعلم ان الله عزيز) لا يعجزه شيء (حكيم) فى صنعه فأخذ طاوساً ونسراً وغراباً وديكا وفعل بهن ما ذكر وأمسك رؤسهن عنده ودعاهن فتطايرت الاجزاء الى بعضها حتى تكاملت ثم أقبلت الى رؤسها تختطفها

أليس التحليل والتركيب الكيماويان رعاك الله فى العوالم التى حوالينا كالماء وغيره من هذا القبيل لقد شاهدنا الماء حلل بالكهرباء الى غازين ألطف من الهواء أحدهما محرق محي وهو الاكسوجين وثانيهما بارد مميت وهو الادروجين فاذا خالطا صارا ماء أليست هذه العملية التى شاهدناها فى الماء هى كمسألة سيدنا ابراهيم فتحليل الماء الى جزءين كتقطيع تلك الطيور ومزجهما وكاتيان الطيور سعياً غاية الأمر ان ذاك فى حيوان وهذا فى جماد وبينهما مرتبتان فيكون اطمئنان سيدنا ابراهيم أرقى إذ لوازم الحيوان اكثر وكلما كثرت اللوازم والاعضاء

اشتد الاستغراب وظهرت الحكمة وذلك بلا ريب أدعى الى
التوغل فى التحايل والتركيب فى المواليد الثلاثة لتطمئن القلوب
ولذلك لم يأمره الله بتحليل الماء وانما أمره بماهو أصعب وأعجب
ليرشدنا الى الترقى في الاسباب قال تعالى (فليرتقوا فى الاسباب)
وهذه قصة لم يذكرها الله في القرآن لمجرد التلاوة أو
التبرك كما يزعم الجاهلون أو التسلي بسماع حكايته وانما هو
ذكرى لقوم يعقلون فيحللون ويركبون بالآلات المعروفة كما
حلل الله وركب لسيدنا ابراهيم فنستفيد يقيناً بالمعاينة ونظاماً
فى مدنيتنا وننتفع فى دنيانا وآخرتنا وقد أفاد أنه لا يأتى به
إلا تدريجاً فى قوله خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا
تستعجلون أي ان كل شىء يأتى فى حينه والحكمة تأتى بالتدريج
وانظر كيف ختم الآية بالعزة فى القهر والغلبة والحكمة فى
التحليل والتركيب بمقادير متناسبة

﴿ اثبات ان العلوم الجديدة معجزة للنبوة فى آخر الزمان ﴾

رب قائل يقول ما كانت الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون تحليل الماء وتركيبه والهواء والكهربائية مع انه صلى الله عليه وسلم يقول (لو وزن ايمان أبي بكر بالامة لرجحها) وقد قام الاجماع على ان الصحابة هم خير الأمة كما ورد في أحاديث كثيرة وان قرن النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فأنت انما أتيت ببدعة في الدين لم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

نقول اعلم ان الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم كان نور النبوة شاملا لهم والمعجزات والآثار وسير الرسول صلى الله عليه وسلم شائعة فيما بينهم فكان ذلك أعظم نور يهتدون به فلم يحتاجوا الى التدقيقات بل كان امامهم مثال الكمال والعلم وهو النور المحمدي أما الآن فوجب البحث عن هذه العلوم لوجوه — الاول : ان زمن النبوة قد طال أمده علينا فقست القلوب واختلطت العقائد ودخل الناس الهرج والمرج والشرائع السماوية ترجمان عن الحقائق الكونية إذ محصلها يرجع الى حقائق

العالم ومعاد الانسان وأخلاقه ونحو ذلك . فلنرجع الى هذه الحقائق فاذا نظرنا الى القرآن وجدناه يحث على النظر وضرب الامثال كما رأيت فوجب أن نتمسك به لا سيما وقد رأيت ما قصّ سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقد قال فى آية أخرى (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) الايمان فى الامة على ثلاث درجات الدرجة الاولى زمن الصحابة والتابعين وهؤلاء كان نور النبوة شاملا لهم — الثانى : زمن الامويين ودولة العباسيين ومن بعدهم وهؤلاء ما كان سلاحهم لجهاد المارقين من الدين إلا القضايا النظرية العقلية التى اضطروا اليها لبعد زمن النبوة — الثالث : هذه الازمنة الاخيرة التى آن استبدال النظر الفلسفي القديم بالنظر في التقدم الجديد في الفلسفة الحاضرة إذ هى لا جرم أقرب لمعرفة الحقائق وأدنى الى تقدم المدنية

الوجه الثاني — ان المسلمين فى زمن الصحابة ومن بعدهم

لم تكن هناك قوة أرقى منهم حتى يضارعوها في الصناعات وينافسوها في الاعمال ويسابقوها في الخيرات أما نحن فوجب علينا الاخذ بهذه العلوم والصنائع والتحليلات ليحصل التوازن بيننا وبين الامم التى حولنا

الوجه الثالث — ان الأمة الاسلامية على وجه العموم ثبت فى أذهانهم بطريق الفهم العامي ان هذه العلوم تنافي الدين فمتى عرفوا بطريق الكتاب انها منه ولا تنافيه بل انها هي عين اليقين مصداقاً لقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيءٍ شهيد) فاذا ثبت ذلك لديهم شرعوا فيها وبرعوا وبدون ذلك لا يمكنهم ان يعملوا شيئا قط الا من انسلخ عن الدين اوشك فيه .على ان الامم حولنا فى المسكونة اجمعوا على ان الاسلام هو المؤخر عن التقدم والاسلام والله براء مما نسب اليه وانما حاملوا العلم هم المطالبون به بين يدى الله تعالى وسوف يسئلون (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلم سليم)

اللهم انى بما كتبت ابرأ اليك من تبعة الكتمان وأتقرب

الى جنابك واتودد اليك زلفى بهـذا الكتاب الذى ارجو ان تنفع به قوما وتفتح به آذانا صماً وتحيي به امما من رقدة الغفلة والجهالة (فعسى الله ان يأتي بالفتح)

﴿ زيادة شرح وتفصيل ﴾

من قرأ القرآن وتأمله وجد أن أغلبه حث على النظر فى المصنوعات الآلهية بحيث إنك لوجمعت آيات العبادات وقستها بآيات شرح الكون والغرائب والنظر فى ملكوت السموات والارض وذكر العالم والحساب والتقدير والنظام لوجدت آيات الاول قليلة بالنسبة للثانى

فمنها قوله تعالى (ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون) والكتاب الذي ينطق بالحق فى أعمال الآخرة نحب أن نشاهد نطقه بالحق فى أعمال الدنيا لنعرف موازينه حتى نقيس ما غاب على ماشوهد من طريق الفراسة كما قال تعالى (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ان في ذلك لآيات للمتوسمين) أى المتفرسين

فكتاب الله وهو علمه أو لوحه المحفوظ ينطق بالعاجل والآجل أفلا تقرأ نسخة من آثاره وهي هذه العوالم التي أمامنا ونستدل بما فيها من حساب متقن على حسن آثاره ولطائفه وغرائبه ونعلم أن هناك داراً أخرى حسابها كحساب هذه الدار — ألا ترى كيف ذكر في سورة النبإ الصنائع الكونية مستدلا بها على يوم القيامة فقال (عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون) وهو البعث والشريعة وكل ما جاء به الوحي (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) انذار ووعيد وتهديد فانظر كيف أراد أن يستدل على ذلك اليوم بما نشاهده من المصنوعات المتقنة وما فيها من الحساب وان هذه نسخة كتلك في ضبط أعمالها فشرع يفصل العالم الذي نحن فيه فقال انظروا الى الارض التي أنتم عليها فقد جعلناها هامها دالكم وفراشا بل انتم تنتفعون بكافة أنواع الانتفاع من المزارع والابنية وغير ذلك وثبتناها بالجبال الراسيات ليحصل التوازن كما تثبت الخيام بالاوتاد وجعلناكم ذكوراً واناثا ليحصل بينكم الازدواج والالتئام والاتحاد فيثبت بينكم داعي الحب والوفاق كما انضمت الارض

والتأمت أجزاؤها بالجبال وكما يسكن الرجل لزوجته والمرأة لزوجها وجعلنا لكم ليلا تسكنون فيه جميعاً فهو سبات اى راحة لابدانكم ولقد خلقناكم من جسم وروح فللجسم نحو نصف الزمن وهو وقت الراحة وللروح الوقت الآخر تسعى له فى طلب المعاش فجعلنا النهار معاشاً بل الروح تسعى للجسم كما تسعى الرجل لزوجته وهذه الانوار والظلمات من عالم فوقكم جعلناه شديدا قويا فبنينا فوقكم سبعاً شداداً ثابتات قويات فكونوا آمنين مطمئنين على حياتكم وجعلنا سراجا وهى الشمس متقدا فاستضاءت دياركم وابتهجت مزارعكم وابدانكم وتبخر البحر فانزلنا من السحب المعصرات اللاتى كالبكر التى دنا زمن حيضها ماء ثجاجا اى صبابا لنخرج به حباً ونباتا كالقمح والتبن والكلاء والبرسيم والحشيش وبساتين كثيرة الفافاملتفات وذلك قوله تعالى (الم نجعل الارض مهاداً والجبال اوتاداً وخلقناكم ازواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافا)

ولما كانت هذه المحيطات بنا متقنة الوضع محكمة الصنع بحساب لا يتغير ولا يتبدل ولاجرم أن العالم الذى يلي هذا العالم منتظم مثله اذلا يجوز أن ينتظم هنا ويحسب ويهندس ولا ينتظم هناك ولا يحسب بل يتركه بلا نظام فلذلك أعقبه بقوله (إن يوم الفصل كان ميقاتاً يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا وفتحت السماء فكانت ابوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها احقابا لايذوقون فيها بردا ولاشرابا الا حميا وغساقاً جزاءً وفاقا انهم كانوا لا يرجون حساباوكذبوا بآياتنا كذاباوكل شيء احصيناه كتابا الخ السورة)

فتأمل كيف ذكر بعد ذكر نسخة من عالم الدنيا ونسخة من عالم الآخرة مسئلة الحساب وقال إن المكذبين جهلوا هذا العالم وظنوا أنه عبث وباطل بلا حساب إذ لم ينظروا فيه ولم يفقهوا جليه فضلا عن رموزه مع انهم لو تأملوا لعرفوا أن كل شيء احصيناه بكتابتنا له عندنا اولا يرون النسخة التى امامهم من هذا الكون العجيب وهذا يناسب ما ذكر أول الكتاب

من أن الحساب هو أساس كل شيء في العالم كما قال فيثاغورس وهذا أمر عجيب مطابقة العالم الخارجي لما في نفوسنا من النظام والترتيب والحساب ومثل هذه الآيات في النسق سورة النازعات فان السورة كلها عبارة عن ثلاثة امور الاول. انكارهم للبعث. والثاني ذكر هذا العالم المشاهد المتقن للدلالة على البعث ليعلم ان من حسب واتقن كل شيء فلا يليق به أن يترك هذا العالم سدى ويضيعه هملا. والثالث. وصف أهل النعيم وأهل الجحيم والذي يهمنا هنا هو القسم الثاني وهو الاستدلال فقال تبكيتا لهم (أأنتم أشد خلقا أم السماء) اشد خلقا وشرع يبين خلقها فقال (رفع سمكها) وهو سمتها في جهة العلو أو رفع سقفها (فسواها) جعلها مسواة لاعيب فيها (وأغطش) اظلم (ليلها وأخرج ضحاها)

ولا جرم ان جميع ماعلى الارض من الماء والنبات والحيوان والانسان مستمد من الحركات العلوية وحرارة الشمس فلذلك اعقبه بقوله (والارض بعد ذلك دحاها) ثم ابان كيفية دحوها فقال (أخرج منها ماءها) بالتبخر من البحر

الملح اولا واخرج ما استكن من مطره بتفجير العيون ثانياً واخرج (مرعاها) بذلك الماء الذى يخزن فى الجبال الى وقت الحاجة (والجبال ارساها متاعا لكم ولانعامكم فاذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الانسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى الى آخر السورة

فتأمل كيف جعل ذكر اليوم الآخر قبل العجائب وبعدها هكذا لو تأملت قوله تعالى (وماخلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين ما خلقناها الا بالحق ولكن اكثرهم لايعلمون ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين) لوجدت مثل ما سبق فهنا ذكر العالم اجمعه مجملا واعقبه بذكر اليوم الآخر وهكذا قوله (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الانهار وعد الله لايخلف الله الميعاد)

فتأمل كيف حتم انه لايخلف الميعاد اذ كل ذلك بحساب لايتغير وذلك يوجب عدم اخلاف الوعد ولما كان ذلك لايفهم

الا بدليل ظاهر اعقبه بقوله (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب) وهكذا قوله تعالى في سورة الانعام (الحمدلله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون وهو الله فى السموات وفى الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون) يمتن على عباده بخلق سمواته وأرضه وتفصيل العالم الى اجرام شفافة منيرة وأجرام مظلمة معتمة ليطلبوا معاشهم في النور ويناموا فى الظلمة وهم مع ذلك يعدلون عن ربهم وكيف يشركون به أو يكفرون وهو خلقهم من طين وقدر لهم أجلا الى موتهم وضرب أجلا آخر لهم مسمى عنده بعد الموت الى يوم القيمة فكيف بعد ذلك يمترون ويشكون وهو يعلم سرهم ونجواهم وأعمالهم (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض

ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين)

فياليت شعرى كيف يدعى قوم انهم موقنون مالم ينظروا فيما بين ايديهم من العوالم العجيبة ليشاهدوا صنع الله الذي اتقن كل شيء ويسبروا بانفسهم ما اخبر به عن نفسه من قوله ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً وانه كيف لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ولا اصغر منها اللهم انا نشهد بهذا فيما لدينا من الصنائع التي خلقتها مما سنذكره (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)

ولما كان هذا جلياً للناظرين خافياً عن المعرضين انذرهم الله بقوله (أفلم يروا مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفاً من السماء ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب)

ولعمرى ان من لم ينظر في هذا الكون فقد استحق الخزي والجهل المؤبد ومن الآيات الدالة على احاطته قوله تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) ومنها (وكل شيء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر)

ومنها (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوي على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون)

ما اصرح هذه الآية وما ادقها وما اقربها الى المقصود وما اجملها فى موضوعنا الذي نحن فيه فقد ذكر رفع السموات واستواءه على الملك وتسخير الشمس والقمر الى اجل مسمى ثم ابان انهذه الامور يدبرهاعنده اولا ويفصلها ثانياً ليتضح لنا بهذا التفصيل أن لنا رباً نلاقيه ونوقن بهذا ايقاناً لا مجرد ايمان تقليداً

وكيف يمكن هذا الا اذا عرفنا سير الشمس والقمر وطرفاً من حسابهما مفصلا لا مجملا لقوله (نفصل) ولم يقل نجمل فنستدل بتفصيله على تدبيره وبتدبيره على اننا نلقاه

﴿ الباب الثانى فى تدبير الامر وتفصيل الآيات ﴾

﴿ فى الفلك وحسابه وعجائب الظلال ﴾

بهجة السموات فى نظامها اجمل من زينتها الظاهرة اذا وقفت فى فضاء واسع مزدان بأجمل بهجة من الازهار الباهرة والاشجار المزهرة والانهار الجارية والحدائق الغناء ومحاسن الاطيار والغناء والنسيم عليل والجو جميل ثم حدقت بالبصر الى تلك القبة الزرقاء ورأيت النجوم المرصعة في جلابيبها كمثل ثوب اخضر عليه قطن قد ندف تتراقص طرباً مابين ظاهرة وخافية ومتوسطة هذه حمراء وتلك بيضاء والاخرى صفراء وهناك ترى الاشكال الهندسية على اختلافها بهذه النجوم فهذه النجوم باجتماعها ترسم تاره خطاً مستقيما واخرى خطاً منحنياً وآونة قوساً من دائرة وهذه على هيئة مثلث وهاتيك على شكل متوازى الاضلاع فاذا رأيت ذا كله اخذت المخيلة تبدى ما لديها من صور الاختراع وتقول ماشبه هذه اللامعات بالملوك على الاسرة او بالوزراء يتلاحظون او بالعلماء يتناظرون مع الهيبة والوقار (اصحابي كالنجوم فبايهم اقتديتم اهتديتم) او العشاق

يتباهون ويرمزون ويتغامزون ويلحظون او هى رسل العالم الاعلى سطعت على العالم الادنى لتكون رمزاً الى ما وراءها ونبراساً لنا ودليلا على حكمة عالية فهي كشف عن اتقان بديع وحساب وهندسة حتى اصبح نوع الانسان ينظر في الاشكال وتقسيمها فجعلها ثلاثة اقسام خطوط وسطوح واجسام ورأى ان الاشكال منها ما هو مستقيم الاضلاع كالزوايا والمثلثات والاشكال المتوازية الاضلاع والمحال الهندسية كالخط المتوسط في جسم الانسان الذى نقطه على ابعاد متساوية من اليدين والرجلين والعينين ونحو ذلك ومنها ما هو دائرة بفروعها من الاوتار والاقواس وزواياها ثم أخذ يبحث عن حساب ذلك كله فعرف مقادير كثيرى الاضلاع والاشكال المنتظمة والدوائر ثم أخذت مخيلته ترتقى الى ماهو ارقى من ذلك فعرفت السطوح وكونت منها الزوايا المجسمة والكرات وعرفت مساحات كثيرى السطوح من متوازى السطوح والمنشور والهرم ومساحات الكرات فهذا كله اجمال الهندسة العادية التى بنى عليها الهندسة الوصفية فحاصل الهندسة ثمان مقالات نقلها اليونان عن قدماء

المصريين واخذها العرب عن اليونان ثم نقلت الى اوروبا ورجعت لنا منها الآ ن وهي

الاولى فى الاشكال المستقيمة والاضلاع والزوايا الثانية في محيط الدائرة وما يتعلق به فحاصل هاتين المقالتين البحث عن الخط المستقيم والمنحنى والثالثة والرابعة فى مساحة كثيرى الاضلاع والخطوط المتناسبة وتشابه الاشكال المنتظمة ومساحة الدائرة فحاصلهما يرجع الى مساحة الاشكال الحادثة من الخطوط المستقيمة والمنحنية كالمثلثات والمربعات والدوائر والخامسة فى تصور المستويات والزوايا المجسمة والسادسة فى الكرة والسابعة في مساحة الخامسة والثامنة في مساحة السادسة فانظر كيف تصور الانسان اشكال العالم كله من مستقيم ومنحن خطا وسطحاً وجسما وعرف حسابها ثم عرج بها الى السماء ومسح الكواكب فى علم الهيئة وعرف وزنها وسطوحها واشكالها وسيرها وعين دوائرها واقطارها وابعادها عن الشمس فعلم ان بعد عطارد عنها ٥٧ مليونا كيلومترا وبعد الزهرة ١٠٧ كيلومترا والمريخ ٢٢٥ كيلومترا (والكيلو متر الف متر) وبعد المشترى ٧٧٠ كيلومترا

وزحل (١٤٠٠) كيلومتراً تقريباً وبعد الارض عنها ٣٨ مليونا فرسخاً تقريبا وقطر الارض يبلغ ١٢٧٥٤ كيلومترا وهكذا اخذوا مساحات هذه الكواكب الظاهرة لهم ولعمرك ان الذى عرفوه شيء يسير جداً بالنسبة لما بقي ولقد ذكرنا في كتاب جواهر العلوم كلاماً مفصلا على عدد النجوم وان المجرة التى هى في جو السماء فيها نجوم لم يمكن تمييزها بالنظارات الى الان ثم المعروفة التي امكن تمييزها تزيد عن عشرين مليون نجمة ولم تعرف الابعاد والسطوح والمساحات الا لقليل منها

﴿ حيرة العقلاء فى نظام الافلاك ﴾

فياحسرة العقلاء وياجهل الانسان (انا عرضنا الامانة على السموات و الارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا)

تشتاق نفوسنا الى معرفة جميع هذه العوالم وهاهم اكابر الحكماء قديماً وحديثاً يبحثون وكلما دققوا وبحثوا رجع البصر خاسئاً وهو حسير

نظر ارباب المحسوسات الى هذه القبة الزرقاء المرصعة بدرارى النجوم فما رأوا فيها من فطور وشقوق بل رأوها مسواة ليس فيها تفاوت ثم ترقى عنهم أرباب العقول والحساب والمهندسون فقالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا ها نحن واقفون بمناظيرنا المعظمة وأرصادنا الفلكية نستمطرك سحائب العلم والعرفان وكلما رأينا لامعة من علم زاد علمنا بنظامك العالى وفهمنا ان التسوية والحسن والاشراف فى الحساب والهندسة فى دوائر الافلاك وسير الكواكب ونظام البروج واستقامة الكواكب ورجوعها لا تنقص فى الهيئة والحسن عن جمال هذا السقف المرفوع وكلما ظن أحدنا ان هذا العالم سينقضي باصطدام نجمين حتى تتلاشى العوالم كذبته تكذيباً فعلياً ورأينا عندك قوانين لم نصل اليها قضت بتباعد ذلك الكوكب عند الاصطدام فكيف نرى فى هـذا النظام تفاوتاً (ان ربى على صراط مستقيم) فصراطك مستقيم وحسابك عظيم وانت أسرع الحسابين ومما أدهشنا انا علمنا ان النظام الكلي كمزاج انسان معتدل الجسم بحيث لو حاد عن الاعتدال قليـلا ظهر

انحرافه سريعاً واذا اختل عضو من الاعضاء الرئيسية كالقلب والرأس والكبد انحل ذلك الجسم كله انحلالا تاما وتوارى فى التراب فهكذا نظامك الكبير ابقيته دهورا واحقابا وهو لم يتغير فالآن فهمنا قولك (فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير) اي مقطوع ونحن نظرنا بالبصيرة فلم نجد الا نظاما عاليا لا تفاوت فيه وانقطعنا عن الوصول الى غاية ابداعك ونهاية اتقانك بل لم نصل الى عشر معشار جزء صغير منه فيا قوم ما لنفوسنا لاتقف عند حد فى الشوق والميل الى الاطلاع

نعم حملنا الامانة التي عجزت عنها العوالم كلها واصبحنا عاجزين عن حملها واردنا ان نعلم كل ما خلق فهاهى الطريق امامنا وعرة والشقة بعيدة فالى متى لانعرف الحقائق — كل انسان فى مشارق الارض ومغاربها يرى في نفسه ولوعا بالبحث عن الحقائق الكونية ولم يذر الحكماء والعلماء من طريق ولا واد الا جابوه ولا مفازة الا قطعوها كل ذلك لينالوا حظا مما تطالبهم به تلك الضمائر الصافية والنفوس النيرة العاشقة لما لا

يتناهى من الجمال الباقي الذي لا يتغير (ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى ذلك السبيل ولا يطأون موطئا يبدد غيوم الشكوك والاوهام الا رأوا فى نفوسهم بهجة واشراقا ويبقى عملهم سنة ونورا لمن بعدهم جيلا فجيلا (ان الله لا يضيع اجر من احسن عملا) (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)

يجد العلماء فى نصبهم لذة لا يعرفها من قصروا على المحسوسات وبقوا فى قيود الذل والجهل فياليت شعري الى اين تذهب هذه النفوس والى متى تتيه فى بحار العلم ولا تجد لها قرارا وتطير فى جو السماء فتسمي الى الغايات التى تحن اليها وما هذا العشق العجيب والصبوة فى نفوسنا نعم هى فطرنا التى تعشق ما بعد عنها

﴿ الحب والعشق ﴾

واعلم ان الحب هو ميل النفس الى الملائم والعشق شدة ذلك الميل جدا والشوق ان يحضر بعض المعشوق ويغيب بعضه

فمن عرف ذا جمال وغاب عنه تصوره طبعاً في خياله فهنا صورتان في الخيال وصورة في الخارج ولكن صورة الخيال ناقصة وبها يطلب المحب الصورة الظاهرة ومتى حضرت لديه وتمكن منها بحواسه الخمس فلا شوق اذ الشوق انما يكون لما بعد وهذه حاضرة امامنا وهكذا من نظر اصبع الجميل واعجبه احب ان يشاهد اليد ومتى رآها احب ان يرى الوجه فهكذا شوق نفوسنا الى هذه العوالم

اذا لم يكن في الحب صد ولا جفا فأين لذاذات الرسائل والعتب

فها نحن حملنا الامانة التي اعجزت الجبال والسموات ولم نطق حملها فكلما نظرنا في العالم طربنا به فرحا وسرورا وجالت عقولنا في جو السماء واستزادت فاذا نظرنا هنالك ولت خاسئة واقرت بالعجز

(العلم مرتبة شريفة ومنقبة منيفة وسر جميل لمن لنا به والعلماء ملوك الارض وكفى به شرفا قول الله عز وجل (انما يخشى الله من عباده العلماء) ما اعظم مرتبة العلماء وما اجلها قال عليه الصلاة والسلام ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب

العلم رضاء بما يطلب وفي معنى حديث ان العالم يستغفر له كل شيء حتى حيتان البحر ولما كان هذا الكون محتجبا امامنا وهو مظلم خاف علينا كان من حكمة مدبره ان جعل لكل غائب عنا نموذجا نستدل به عليه اذ علم قصرا جالنا وضيق دائرة علمنا هذا الكون الشاسع لا ندري مبدأه ولا نستشعر نهايته فياليت شعري في أي زمن ابتدأ هذا الدهر ومتى كان انشاؤه وكم آلاف من السنين مضت وأيان منتهاه ثم ما هذا الفضاء الذي تجري فيه الشمس وتوابعها وسياراتها اين آخره وهل له آخر وهل الارض التى نحن عليها شيء مذكور في جانب هذا الذي لا يتناهى وما اعمارنا فى جانب هذه القرون وأى شيء فى بيوتنا الصغيرة في جانب الممالك الارضية فضلا عن الارض التى لا تذكر في جانب هذا الكون الواسع فلما ظهر ضعفنا كما قال تعالى (وخلق الانسان ضعيفاً) وعلم عجزنا عن حمل امانة العلم والايمان بنى عالمنا هذا على نظام ثابت كما ثبت الحساب فى فطرنا فكانت هذه المشاهدات على وفق عقولنا مطابقة لها تمام المطابقة فهذه النجوم التى لا يعلم عددها ما اكتشف منها

الانسان الا بعضا قليلا وعرف حساب ما تيسر منه مما يعود عليه بالنفع في معاشه ومعاده وجعل جميع اتجاهاتها واحدا ليعلم ان الكواكب كلها بنواميس تشبه هذه وان لم نقف عليها تماما فهذا من حيث اللانهاية المكانية فكاننا بمعرفة سير بعض الكواكب عرفنا الجميع اجمالا كما ذكر علماء التوحيد وجوب معرفة بعض الرسل وبعض الصفات الالهية تفصيلا وبقية الصفات والرسل معرفة اجمالية (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا)

(شواهد القرآن على حساب الكواكب وانتظام سيرها وعموم علمه تعالى ونحو ذلك)

قال تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) اشارة الى انه اراد ان يعلمنا الفلك والحساب وهذا التفصيل ظاهر لمن يعلم ولقد ذكرنا لهذه الآية وجها جميلا في كتابنا ميزان الجواهر

وقال تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل امسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) تأمل كيف ذكر رفع السموات واستواءه على العرش وكبرياءه ثم تسخير الشمس والقمر بحسب امره وانه جعل هذا لنؤمن بلقائه بخلاف الآية قبلها فانه ذكر ضياء الشمس ونور القمر وهما اللذان ينتج عنهما الحساب ولم ذكر الجلال والعظمة واستواءه على العرش التى تدعو الى تشويق النفوس الى لقائه الا عند ذكره فى الاية الثانية لعلكم بلقاء ربكم توقنون وقال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الايات لقوم يعلمون)

ثم علمنا بعض ما فصله مما أراد فى هذه الاية من جعل النجوم لهدايتنا الى الطرق براً وبحراً وهذا التفصيل لمن يعلم واعلم ان النجوم يهتدى بها السائرون ليلا في الصحارى والقفار من الاعراب في قوافلهم والمدلجين على اختلاف طبقاتهم وهكذا الملاحون في البحار

ولما ارتقت المدنية الحاضرة قامت البوصلة وهي الابرة المعلومة المغطسة مقام تلك النجوم إذ هى تتجه تقريباً الى القطب الشمالى كما اوضحناه في جواهر العلوم فرجع الاهتداء بها الى الاهتداء بالنجم كما قال فى آية اخرى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) فياسبحان الله اين نحن واين ذاك القطب البعيد عنا الذى قدر الفلكيون وصول نوره الينا في ٥٠ سنة مع ان ضوء الشمس يصل الينا فى ثمانية دقائق وثمانى عشرة ثانية حارت الافكار فى قدرة من قد هدانا سبلنا عز وجل اما الهداية فظاهرة واما الحيرة ففى القدرة الباهرة اذ كيف يحتاج هذا المسافر المنزوى في ركن من اركان المعمورة الى هذا النجم العظيم البعد الصغير ظاهراً الكبير الحجم حقيقة فى تلك الابعاد التي لا تعرف الا بمزاولة علم الفلك صنع الله الذى تقن كل شيء وتأمل قوله وجعل لكم النجوم ولم يذكر تقدير المنازل اذ لم يرتب عليه الا الاهتداء فانظر كيف جعل فى كلامه دقة كما جعل في خلقه حكمته

واعلم ان هدايتنا في الارض تارة تكون بضياء الكواكب

كما علمت واخرى بما ينوب عنها وهى البوصلة وطورا بسير الشمس وهذا مشاهد عيانا

الا ترى الى الشمس متى تكبدت السماء ومركزها بخط نصف النهار الوسطى (الذى نشأ من تعديل سير الشمس على مدار السنة كلها بحيث يتقدم تارة على مرورها بخط الزوال الحقيقي وتارة يتأخر عنه) فان صاحب الرصد بالعباسية (كما شاهدنا ذلك يبصرها اذ ذاك فيضغط فى الحال على زر تحت يده له اتصال بالقلمة فيضرب المدفع في اقل من لمح البصر ويصل الخبر بالبريد الكهربائى لسائر المحطات وتضبط الساعات وينتظم امر القطر اجمعه بسبب انتظام سير الشمس (الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) وهذا وربك من المدهشات والغرائب اذ لولا انتظام سير الشمس لتصادمت الوابورات اذ لا رابطة بينها وكيف ينتظم امر الدواوين والمصالح الاميرية ام كيف يتقابل التجار والمتبايعون والمتقاضون — انظر كيف نشأ عن هذا المرور فى لحظة صغيرة جميع هذه المصالح وكأن الشمس وقد مرت على خط نصف النهار ملك

اعطى اوامره لرئيس مدينته وتركه يتصرف فيها الى رجوعه
كرة اخرى فهكذا الشمس تمر بخط نصف النهار الوسطى وتعطى
التعليم والاوامر لجميع الساعات التى قامت مقامها في الاعمال
الحسابية بل هى نموذج يدل على عالم السموات ونظام الكوا كب
فترى الانسان يحمل آلة من المعدن صغيرة تمثل له حساب عالم
الافلاك وهو لا يدرى كما اخترع الشطرنج الحكيم الهندى
صصه لملك بلاده ليخرج أهل اللعب من عماية الجهل بلطف
اذ كانت هذه اللعبة من جنس اللهو ولكن أراد أعلى من ذلك
فيعلمون ان الناس ملكهم ووزيرهم وصعلوكهم يجوبون فى العالم
جوبة ثم يرجعون الى الارض كما ابتدؤا منها كما تخرج العناصر
وتتفرق الاجزاء من المولدات الثلاث ثم تنضم ثانية وذلك
هو حال الشاة. والفرس والفيل والبيدق تخرج الى ساحة اللعب
ثم ترجع اليه والشطرنج كالدهر فى ساحته بياض كالنهار وسواد
كالليل وبؤس والخلائق تفنى جميعها وتحي بعد الفناء وتبعث اعظما

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح فى الدنيا ويجمعها حتى اذا مات خلاها وما فيها

وكان الملوك يشتغلون بلذاتهم وشهواتهم ويتركون دولهم ومآلهم في عالم الآخرة فاراد الحكماء ان يلفتوا اذهانهم الى كيد الاعداء والاحتراس منهم والى موالاة الاصدقاء وان الملك لا قوة له الا برجاله فاذا تركهم تركوه فارادوا نقلهم مما هم فيه الى الكمال والفطام بالحسنى (ادفع بالتي هى احسن) (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) ونحن أهل الشريعة الاسلامية اولى بمثل هذه الطريقة ولذلك دعونا فى كتابنا هذا الى الايمان بطريق العلوم التى في ايدى الناس اقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم فى الدعاء الى السبيل بالحكمة والحكمة ان يدعى كل عاقل بما يناسب طباعه (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) ولا تتم الدعوة الا اذا جاءت الى المهندس من هندسته والى الطبيب من طبه والى الفلكى من فلكه والى اللاعب من لعبه والى التاريخى من تاريخه وهكذا ولقد كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا النسق فقد دعا العرب وتحداهم بالفصاحة التى كانت منتهى ادراكهم وغالب اليهود والنصاري بما فى كتبهم كما فى قصة اصحاب السبت

(واسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) وقضية الملاعنة في سورة آل عمران وكان يتحدى الجميع بالاخبار بالغيب كما في قصة (الٓم غلبت الروم في ادني الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وقد تم ذلك بعد سبع سنين وفرح المؤمنون بهذه المعجزة وغير ذلك وهكذا كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام فلقد تحدى عيسى بالطب الذي كان اغلب علم على أهل زمانه وموسى بابطال السحر الشائع عند المصريين وسليمان بالملك الذى كان هو أعظم مالدى بنى اسرائيل فهكذا هذه الامة يجب على علمائها أن ينظروا في العلوم من طريق النظر والبرهان ليظهر الحق للناس من طريق علومهم والا هلك الداعي والمدعوون اجمعون هذا وكما وضع أهل الهند شطرنجهم وضع الملك اردشير (ازوشير) النرد وهى الطاولة المعروفة وهو ابن بابك رأس الدولة الساسانية وأول ملوك فارس الاخيرة مدة تزهده في آخر ايامه وسميت باسمه واختصر فقيل نرد وكان ذلك من سنة ٢٢٦ الى سنة ٢٤٠ من الميلاد وقد جعل الرقعة لوحين تشبيهاً بالنيرين فيها ٢٤ بيتاً بعدد ساعات

الليل والنهار وكل منهما ١٢ بيتاً بعدد الشهور والبروج الاثنى عشر مقسومة ٤ اقسام بعدد فصول السنة والمهارك وهي القطع ٣٠ كالشهر والدرج الذى لكل برج نصفها ابيض ونصفها اسود كالليل والنهار والفصوص (الزهر) كالافلاك ورميها مثل تقلبها ودورانها فالفص له ستة اوجه مكعب يدل على الجهات الست والنقط بعدد الكواكب السبعة زحل والمشترى والمريخ والشمس وزهرة وعطارد والقمر واليك يقابله الشيش والدو يقابله البنج والسيه يقابله الجهار وكل وجهين متقابلين ٧ نقط تماما وما يأتي على اللاعب من خير وشر كالقضاء والقدر وتقليبه لها باختياره كالجزء الكسبي واختياره وعقله كمذهب اهل السنة وقد ذكرنا هذا في موضوع آخر غير هذا فى الكتاب واعدناه بفوائد لم تذكر هناك ولمناسبته للساعة التي هى نموذج السموات وسير شمسها قال بعضهم في النرد

ومحكمان على النفوس وربما ... لم يحكما فيهن حكما عادلا
اخوان قد وسما على متنيهما ... سمة تحث على البليد غوائلا
فاذا هما اصطحبا على كف الفتى ... ضراه او نفعاه نفعا عاجلا

هذا ولنرجع الى ما نحن بصدده من امر الشمس وحرورها

فنقول كان الشمس ملك القى اوامره لعماله والنائب عنها بمصرنا هو المدفع (ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) مثلت ايها الشمس بكبريائك علينا وعظمتك وجلالك فى ملكوت السموات والارض واستوائك على العرش حتى اقسم بك ربك فى كتابه فى غير موضع مثل نبي مر على قوم وضرب الامثال وعلم العلوم ثم قلت علومه جيلا بعد جيل اهـ

﴿ ذم من اعرض عن التفكر في السموات ﴾

قدمنا ان الساعة التى فى أيدينا كانها شمس ننقلها من مكان الى مكان تمثل لنا الشمس الكبرى فهى مثل ضرب للناس لعلهم يتذكرون — ما اوضح الامور عند العلماء وما أخفاها على الجهلاء أما العلماء فظنوا ان الناس يعلمون فتركوا التذكير وأما الجهلاء منهم فهم فى غفلة وهم لا يؤمنون واعلم أن الاشياء كلما كانت اكثر وضوحاً اشتد خفاؤها والعكس بالعكس الا ترى ان الناس يقرؤن الحروف الصغيرة في الورقة ويفهمونها وهاهم يسمعون المدافع فى الزوال وهم لا يفهمون وينظرون الشمس وهم لا يبصرن

ويقضون حاجاتهم ويلاقون اصحابهم ويذهبون الى دواوينهم وهم لا يتفكرون — أليست الشمس وضوءها وصوت المدافع الدال عليها اكبر من الحروف الصغيرة التي في الورقة (وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) نعم كلما اشتد الظهور اشتد الخفاء وصار المعتاد المأنوس به لا يلتفت اليه وعلى هذه القاعدة ترى كل شيء مما نشاهده لا يؤثر على فكر اهل الجهالة وانما يؤثر اذا فهم اولا وحكى بالالفاظ وعبر عنها بالكتابة فترى المتوسطين من اهل العلم اذا قرءوا عجيبة من عجائب العالم استفزهم ذلك وحصلت لهم دهشة واخذهم شائق غريب مع انهم ربما رأوه ولم يعيروه جانب الالتفات وذلك لان الكتابة لما عبرت عن الالفاظ الدالة على المعاني المطابقة لما في الخارج كان المكتوب عين المعبر عنه الا أنه يشبه ما كان من وراء حجاب ولهذا نظير وهو الجسم إذا وضع بجانب العين لم يرو هكذا ضوء الشمس لا يرى الا إذا انكسر شعاعه في ماء في اناء فينظر الانسان في الاناء إذ ذاك ويرى قرص الشمس مع أنه لو حدق اليها لم يمكنه وهذا كمثالنا الا أنه في مثالنا قد

انعكس ضوءه ثلاث مرات بخلاف الشمس فقد كسر شعاعها
مرة واحدة وهكذا ترى الهواء المحيط بأجسامنا لا يعبأ به
أحد لاحاطته بنا وترى ذكر الماء والامتنان به في الكتاب والسنة
وتراهما شبها العلم به وانما كان ذلك لملاقاة الهواء دائما لجسم
الانسان نخفي لشدة ظهوره وأما الماء فله زيادة ونقص ومجيء
وذهاب فلذلك كثر الامتنان به (وجعلنا من الماء كل شيء حي)
مع أن الحياة من الهواء أيضاً ولكن الظاهر للناس أولى
بالاستدلال ولذلك شبه به العلم في التوراة والانجيل والقرآن
لان العلم في صدور العلماء وضده الجهل فعرف والمثال الاشهر
لذلك معرفة الله تعالى فانه ظاهر جداً للبداءه البشرية وانما
خرج عن الطبيعة قوم فوجب ردهم بفهم الشرائع والاحكام
والكتب والوعظ والارشاد والتنبيه فالخلاصة أن وضوح الشيء
جداً سبب لخفائه ولذلك ترى الحواس لاتتأثر بما اعتادته ولولا
ظلمة الليل ما عرف فضل الشمس فلذلك كله ترى الناس
يعرضون عن النظر فى السموات والارض مع أنها اكبر مايشاهد
(لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر

الناس لا يعلمون) فاذا صورت لهم فى الفاظ أو خط قربت من فهمهم ولحظوا المقصود منها فاما النظر الى حقائقها من أول وهلة فذلك قليل ومن الناس من اذا ذكرته بهذا أعرض ونآى بجانبه واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون) بل يقولون هذه أمور معروفة وكل الناس يفهمونها وهـذا قول أحد رجلين إما جاهل أو متكبر قال تعالى فى الاول (أولئك الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) وفى الثانى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) ولقد غرهم انهم أوتوا مالا وولدا (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدي متين) مع أن أحدهم ينظر الى العالم نظرة المستسخر ثم ينكس رأسه ويشرب بنت الحان أو يلهو ويلعب تسلياً عما اختلج فى ضميره من قبح صورة الجهل في نفسه فانظر كيف أعقبه بقوله (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة

إن هو الا نذير مبين أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) فياحسرة على أعمار تنقضي ونحن في غفلة معرضون فأنظر كيف دل القرآن وكلامه الجامع وأمثاله العامة على كل ما نراه وما نسمعه مما ارتكز في فطرنا (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون) وتأمل سورة الرحمن قال تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان الا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والارض وضعها للانام فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام والحب ذو العصف) (التبن) (والريحان فبأي آلاء (نعم) ربكما تكذبان) فتأمل كيف بدأ السورة بذكر الرحمة وتعليم القرآن وخلق الانسان ومعرفة النطق والبيان وشرع بعد ذلك يفصل العوالم المحيطة به ليبينها ويفهمها بعقله فأول ما ذكر أن الشمس والقمر يجريان بحسبان لا يتغير ولا يتبدل وأعقبه بذكر الشجر

والنبات وذكر إن هذا العالم كله موزون بالميزان الحق ولكن التأمل هنا في ذكر الحساب وكيف ذكر مافى العالم كله فى هذه السورة وبدأه بحساب النيرين ولعمرى أن من تفطن لهذه النكتة هاله الأمر جداً فان العالم كله مرتب نظامه على حسب سير الكواكب وعلى حسبها يتكون كل شيء على سطح الكرة وعلى هذا الاصل سار علم أحكام النجوم قديماً ولقد كانوا يظنون ما يبدو لهم منه صحيحاً مع كثرة ما يظهر لهم من الخطا فى الاحكام ولعمرى إن أحكامه موهومة لان النجوم إن كان بينها وبين عالمنا إرتباط فالمعروف قليل والمجهول كثير ولذلك جاء الوحى بتكذيبه فالعالم الارضي يجرى على سنن سير الكواكب وحره وبرده وإظلامه وآضاءته كذلك فانظر كيف تطابق فعله وقوله (إنه هو العليم الحكيم) كذلك فلنفهم ونطبق مانرى على مانسمع والا كان إيماننا لا يقين فيه

﴿ اختلاف الليل والنهار والدول والممالك ﴾

اذا تاملنا سير الشمس المذكور في سورة الرحمن انه بحساب رأينا فيه اختلافا وينشأ عنه اختلاف الليل والنهار و حالة العمران

﴿ إختلاف الليل والنهار ﴾

أما إختلاف الليل والنهار فاعلم أنهما يختلفان تبعا لعروض البلدان فكلما كانت البلاد فى خط الاستواء كان الليل والنهار متساويين فى جميع أيام السنة أى يكون كل واحد منهما ١٢ ساعة وكلما بعدت عنه جنوبا أو شمالا اختلف الليل والنهار تبعاً لمقدار البعد ففي عرض ١٥ درجة يكون أطولهما ١٢ ساعة و٣٥ دقيقة وفى ٢٣ درجة و٢٧ دقيقه وهو مدار السرطان شمالا ومدار الجدى جنوبا يكون أطولهما ١٣ ساعة و٢٧ دقيقة كاسوان في حدود مصر وفي عرض ٣٠ درجة كالقاهرة يكون أطولهما ١٣ ساعة و٥٦ دقيقة وفي عرض ٤٥ يكون أطولهما ١٥ ساعة و٤٦ دقيقة وفي عرض ٦٠ يكون الاطول ١٨ ساعة و٣٠ دقيقة وفى عرض ٦٦ درجة و٣٣ دقيقة وهى الدائرة القبطية يكون

الاطول منهما ٢٤ ساعة تماما ثم يتزايد الطول كلما امتد عرض البلد وأوغل جهة الشمال والجنوب فيصير أطول الايام والاليالى شهراً أو شهرين أو ثلاثة وهكذا الى ستة أشهر (وهذا واضح لمن نظر الكرات الصناعية والخرط الجغرافية وهذا إنما يكون فى القطبين واذن تكون السنة كلها يوما وليلة لاغير وهذه البلاد لاتصلح للسكنى قطعاً وانما الصالح لها هي ما كانت فى المنطقة الحارة أي بين المدارين الجدي والسرطان أو المعتدلتين من خلفهما الى شمال الروسيا شمالا أما الجنوب فهناك المحيط الهادى وهو البحر الاخضر ومن هنا نفهم قوله تعالى (إن فى إختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) فانظر كيف عطف ما خلق على الاختلاف ليفهمنا أنه ليست كل أرض تصلح للسكنى وإنما الصالح ما تقدم فكانه يقول قارنوا بين المخلوقات واختلاف الليل والنهار تجدوا أن بعض الارض لايصلح لسكنا كم أنتم وإن كان يصلح للدب ونحوه والبعض الآخر يصلح وانظر كيف قدرت على تنويع الليل والنهار بحيث إن كلا منهما يأخذ أقداراً مختلفة من دقيقة

الى ساعة الى أكثر الى ستة أشهر مع أن الشمس واحدة والارض واحدة فهو كاختلاف أنواع النبات والحيوان والانسان مع اتحاد الارض والماء والهواء والحرارة ولذلك عطف قوله ما خلق الله في السموات والارض على ما قبله — ما أعظم هذه الحكمة الباهرة ولعظم شأن هذا الاختلاف كثر ذكره فى القرآن كقوله (إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وقوله (إن فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) ولما كان إختلاف الدواب يشبه اختلاف الليل والنهار من حيث اتحاد العناصر فى الاول واتحاد الشمس والارض في الثانى اعقبه بقوله (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) ولما كان هذا كافياً لالفات الانظار أعقبه بقوله (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أفلا نفهم ياقوم بعد سماع هذه الآيات وننظر في هذا الكون ونعمر مدنيتنا بالاعمال وعقولنا بالافكار

واعلم أن النقطة الواحدة من الارض يختلف الليل والنهار فيها على حسب ما قدمنا فيكون في مصر مثلا من ١٠ ساعات الى ١٤ ساعة تقريباً وكل بقعة تختلف عن الاخرى مقدار ذلك الاختلاف وهكذا تختلف البلاد باعتبار الطول . أن هذه البلدة تشرق فيها الشمس قبل الاخرى حتى يصير الليل فى بلد والنهار فى آخر كما فى مصر وبعض الاقيانوسية وذلك باختلاف شروق الشمس عليها وذلك انه كلما كان الطول شرقياً أشرقت الشمس على ذلك البلد أولا فتشرق في مصر قبل طرابلس وفي طرابلس قبل تونس وفيها قبل الجزائر وفيها قبل مراكش وفيها قبل بحر الظلمات وفيه قبل أمريكا وفيها قبل الاقيانوسية التى يكون نهارها ليلنا وبالعكس (صنع الله الذى اتقن كل شئ) فتأمل كيف كان الاختلاف حاصلا بثلاثة أشياء الطول والعرض وهما مكانيان وكرور الايام على مدار السنة وهو زمانى ولقد أوضحته فأفهمه (يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار)

﴿ اختلاف الامم والممالك ﴾

(وتلك الايام نداولها بين الناس)

اعلم أن هذا النظام الارضي تابع لسير الاجرام العلوية فالرياح والامطار والحر والبرد كلها على حسب سير الشمس كما هو ثابت في العلوم الطبيعية اذ هبوب الرياح قد ينشأ من تخلخلها بالحرارة فى الجهة الاستوائية فيذهب تياران جنوبى وشمالى الى القطبين ويكون هناك التبخر ويحصل التغير فى البر والبحر ويشير لذلك قوله تعالى « الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار) فقد ذكر الماء الذى تخرج به جميع الثمار وتجرى به الانهار عليها السفن ثم أعقبه بذكر سبب انزاله من السماء وخروجه من البحر الملح بالتبخر بالحرارة الناشئة من الشمس فقال وسخر لكم الشمس والقمر دائبين فانظر كيف جعل

العطف رمزاً لذلك كله على حسب ماتقرر في العلوم الطبيعية
فهو من ذكر السبب عقب المسبب وبمثل هذا فليفهم القرآن
ولقد علمت انه بانتقال الشمس شمالا وجنوبا يحصل اختلاف
في الحرارة كما يحصل في الايام والليالى فتختلف الفصول وتكون
أربعة الصيف والخريف والشتاء والربيع اثنان معتدلان
وواحد حار والآخر بارد واذا كانت أحوال الارض على
وجه العموم لاثبات لها فهكذا كانت أحوال الامم والدول
فكما انه بمقدار ما ينقص الحر تزداد البرودة كذلك الامة
بمقدار ما تنقص تزيد المضادة لها وكما ان الزيادة والنقصان
لازمان لكل من الحر والبرد والليل والنهار والصيف والشتاء
فكذلك الامم لا بد فيها من غالبة ومغلوبة وعالية وسافلة ولا
تقف على حالة واحدة فالامة اما فى انحطاط اوارتفاع فى كل
آن فهى كالجسم دائم التفاعل لا يقف لحظة عن زيادة اونقص
(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وكما ان الفصول متغيرة
كذلك الدول متغيرة فلابد من انخفاض دولة وارتفاع اخرى
ثم يتبادلان ويتعاكسان وهذا هو الحال في الشرق والغرب

وهذه سنة الله فى خلقه (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) ومن هنا نفهم قوله تعالى (وتلك الايام نداولها بين الناس) اذ يستحيل ان يغير السنة اذا لنهج واحد لا يتغير عن التغير ولا يتبدل عن التبدل فهو دائم على التبدل

﴿ حوادث الارض المهولة ﴾

وهل اتاك ما اجمع عليه الفلكيون واثبته الاقدمون واستكشفه على أثرهم العلماء العصريون من انقلاب احوال الارض وتغييرها واضطرابها وتبدل عامرها غامرا وغامرها عامرا وسهلها جبلا وجبلها سهلا وبرها بحرا وبحرها برا وقطبها خط استواء وخط استوائها قطبا والمسكون خرابا والخراب مسكونا (أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) وانما هو بحساب ذكره علماء الفلك وهكذا علماء الجلوجيا) أى علم طبقات الارض فاصغ لما اقول بذهن صاف وقلب حاضر

ذكر علماء الفلك ان للعالم دورا قدره الاقدمون ٣٦ الف سنة قالوا ان احوال الارض كلها تتغير فيصير البر بحرا والبحر براً والجبال بحرا والبحر جبلا وهذا القطب سيكون كما كان قديما ويصير خط الاستواء الآن ثلجا والقطبان خط استواء وهكذا قال الاقدمون وقالوا ان الرأس والذنب لمدار الشمس يتغيران من سنة الى اخرى وفي كل مائة سنة تنتقل الرأس درجة واحدة في السماء ففى كل ثلاثة آلاف سنة تنتقل لرأس برجا واحدا وفى كل ٣٦ الف سنة تنتقل فى ١٢ برجا وترجع الى ما كانت عليه وهكذا واذا انتقل الرأس فالذنب كذلك ومعلوم ان الرأس هى النقطة التى اذا وصلت اليها الشمس كانت في مبدإ الصيف في أول يوليه تقريباً والذنب النقطة التى اذا وصلت اليها الشمس كانت في أول يناير في مبدأ الشتاء تقريبا وبعبارة أخرى الرأس اقصى نقطة تصل اليها الشمس جهة الشمال وعكسها الذنب فهاتان النقطتان تتغيران دائما كما رأيت

أما علماء الفلك العصريون فقد قالوا كما قال الذين من قبلهم مع اختلاف فى الحساب فقد اكتشف هيبارك الاسكندرى

(من مدينة اسكندريه)من نحو الفى سنة ان الاعتدالين يتقدمان وهو المسمى مبادرة الاعتدالين تقدما يسيراً جدا جهة الشمال وتوضيحه ان الشمس في كل سنة لهابوماعتدال في أول الربيع وأول الخريف فاذا نظرت الى الشمس فى أول الربيع من سنة معينة ونظرت غروبها من نقطة معينة ثم نظرت اليها فى اليوم بعينه من السنة الثانية ثم الثالثة والرابعة وهكذا لم تجد فرقا بين مغاربها فى تلك الاوقات بحسب الحس الظاهر — أما هيبارك الاسكندرى ومن حذا حذوه من علماء الفلك العصريين الاوروباويين فقالوا تتقدم فى تلك الاوقات سنة بعد سنة وتقدمها فى كل مرة ⅚ دقيقة من القبة السماوية او ٥٠ ثانية وجزء من ١٠ من الثانية وبناء على ذلك يصير التقدم فى كل ٧٢ سنة درجة وفي كل ٢١٦٠ سنة برجا ٣٠ درجة

وبناء على هذا يتغير سير القطب الشمالى من سنة الى سنة فالقطب الآن بينه وبين النجمة القطبية درجة ونصف فاذامضى ٢٥٠ سنة صار هذا البعد نصف درجة أو ٣٠ دقيقة وبعد ذلك الوقت يتباعد القطب الشمالى عن النجمة القطبية وفى زمن قدره

١٢٠٠٠ اثنى عشر الف سنة تقريباً تصير النجمة السماة الواقع
من النسر هي القطب بدل النجمة القطبية الآن وتنال خواص
النجمة القطبية الحالية وهذه النجمة بين السماك الاعزل من
السنبلة والسماك الرامح فى نحو منتصف القبة السماوية أي تتباعد
عن هذه النجمة الحالية الآن بنحو ٦٠ درجة وبناء على هذا
تتغير مناظر السماء فما كان ابدى الظهور يصبح ابدى الخفاء
وما كان ابدى الخفاء يصبح ابدى الظهور واسماء البروج المشهورة
وهي الحمل والثور والجوز الخ صارت صورها المعلومة ايام هيبارك
ليست محل البروج الحقيقة الان بل حفظت الاسماء وان تغيرت
الصور كما اوضحه حسن بك حسنى فى كتابه الاصول الوافية
في علم القسموغرافيا وهكذا نرى ذات الكرسي التى هي عبارة
عن نجوم قريبة من القطب الشمالى فى الجهة المخالفة للدب الاكبر
كانت ابدية الخفاء منذ أربعة الاف سنة فهي الان ابدية الظهور

هذا ملخص أقوال القدماء والعصريين ولقد رأيت الفرق
بينهما عشرة الاف سنة فان الاقدمين يجعلون الدور ٣٦ الف
سنة والعصريون يقولون ٢٦ الف سنة ونأخذ من كلام الفريقين

ان هذه الكرة الارضية تحدث فيها أحوال على طول الزمن غير ظاهرة للعامة ظاهرة للخاصة فتأمل كيف كان تقدم الاعتدالين له سير مخصوص يتم دورته فى الاف من السنين فاذا اتم دورته فكانها يوم واحد اذ يوم الكوكب عبارة عن دورة تامة له وقد قال الاقدمون في كل ٥٠ سنة تغير يسير وفي كل ٣٦٠ سنة انقلاب آخر — فتأمل كيف دل حساب الفلك على ان يوما عند ربك ربما كان كالف سنة مما تعدون وربما كان كخمسين الف سنة مما تعدون وذكرهم بايام الله او ٣٦٠ الف سنة

﴿حكمة﴾

هل أتى العلم بالنهاية كلا ثم كلا فلقد أظهر علماء العصر الحاضر ان للشمس حركة حول نجم آخر لا يعلم كيف تلك الحركة انما يعلمون انها ترسم فى سيرها قوساً من قطع ناقص ولكن الى متى وفي أى مدة — فياليت شعرى كم عدد السنين التى تتمها الشمس فى دورتها حول ذلك الكوكب الاخر وربما كان تمام دورها يوم القيام و ربما كان غير ذلك

ولعلك من هذا عرفت معنى كونه تعالى أسرع الحاسبين وعلمت أيضاً أيها الاخ انه ما على الارض يتأثر بالحركات السماوية وتغير الاوضاع والدول والحر والبرد والحيوان والانسان وكل ما على الارض

﴿ حل معضلات ﴾

وهذه المسئلة تفهمك أيها الاخ ما تسمعه في الاستكشفات الحديثة من ان الجهة القطبية فيها حيوانات مهولة الخلقة وجدت مطمورة تحت الارض فتحير علماء طبقات الارض وقالوا لعل الارض تتغير من حال الى حال ولقد علمت علم اليقين ايها الاخ من الفلك ان الجهة القطبية كانت خط استواء فى غاية الحرارة كما هى الآن فى غاية البرودة

فانظر كيف شقيت البلاد وسعدت كما شقى الناس وسعدوا وان الدول تنتقل من أمة الى أمة وهكذا العلوم والمعارف والعز والذل ولذلك ترى ان الامم الاوروبية الآن تكتشف الجهة القطبية حكمة من الله وعدلا ليلفت أذهان نوع الانسان

لتلك الجهة فى مستقبل الزمان حتى تسكن فيما سيأتي هكذا معلوم فى التاريخ ان أمم أوروبا كلها من بلاد آسيا وانما انتقلوا اليها الهاما من الله حين نقص بردها بالتدريج على طول الزمان وستصبح حارة والتاريخ دل أيضاً على ان العلم والحكمة انما كانت عند قدماء المصريين وبلاد آسيا والشرقيين وانما حدثت فى بلاد أوروبا أخيرا

ومن الحكمة العجيبة ان جهة القطب الشمالى مغمورة بالماء ولا يعلم منها الا الى درجة نحو ٨٠ عند الجليد — أما الشمالية فقد تقدموا في اكتشافها الى ما يقرب من القطب وكما كانت أمم آسيا التتاريون يغيرون على أرض أوروبا قديماً ويعمرونها كلما أخذت في الحرارة شيئاً فشيئاً كذلك اهل اوروبا الآن سيتقدمون جهة القطب شيئاً فشيئاً على طبق ما تفعله الشمس

﴿ لا تيأسوا من روح الله ﴾

اذا فهمت هـذا علمت كيف ورد الوعيد الشديد في القرآن على الياس من رحمة الله تعالى قال (ولا تيأسوا من روح

الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) وذلك لانهم لم ينظروا في هذا الكون فلم يعلموا ان مع العسر يسراً وان كلا من الليل والنهار يعقب الاخر وهكذا الحر والبرد وان الكون متشابه يشبه بعضه بعضاً فهذا في الحقيقة جهل بنسبة الكون ونواميس الطبيعة كيف لا والحروب التى تحدث فى الكون طبيعية لا بد منها ومن ظن من السواس ان يوقفها مرة واحدة فهو جاهل بنواميس الكون قصير النظر اذ الحرب عليها مدار تقدم الامم ولولا المداوة ما تقدمت الافراد ولا ارتقت الصناعات فلذلك ترى الامة تحارب الاخرى حتى اذا ايقظتها من رقدتها قامت تلك الاخرى فوجدت ان الاولى المحاربة قد ترفت ونامت على مهاد العز وعروش العظمة فأخذت تترقى شيئاً فشيئاً لتجاريها في مضمار الحياة وسمت لهاسعيها حتى رجعت عليها فاخذتها أخذ عزيز مقتدر مسلط قاهر فالجاهل يرى هذا اختلالا فى الملك والعالم الحكيم يقول لولم يكن هذا لكان اختلالا وهزءا وتركا للحكمة وما مثل هذا الا اختلاف الليل والنهار وتقدم الاعتدالين الذى من فوائده ان الحكمة الالهية تدير

فى باطن الارض هناك بالحرارة معادن لتحضرها الى الامم التى تسكن هناك بعد حين من الدهر عظيم جداً اذ المعادن التى فى الارض المسكونة لا بدمن نفادها يوما ما وذلك حتى ياتى وقت لا تصلح للسكنى كل هذا تدبير وحكمة فالحركة سارية فى الكون من علوى يتبعه سفلى على سطح الكرة وفى باطنها فالملك يبقى فى الامة أمداً على مقدار ما وهبته من العلم والعمل وحينما تاخذ فى الترف تكون أمة اخرى دبت فيها روح النشاط فتنقص الاولى وتزايد الثانية فهى على وزان الارض وانتقال العمارة فيها تبعاً لحركات الشمس كما رأيت ولعلك من هذا أيها الاخ فهمت حكمة تقديم سير الشمس والقمر وحسابهما في سورة الرحمن ثم ذكر جميع العوالم بعدها واحداً واحداً اجمالا حيث قال (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان الخ السورة) وملخص هذا الباب أن أحوال الدول والممالك والمعمور والخراب والعز والذل والرفع والخفض مثل سير الشمس واختلاف الليل والنهار وتعاقبها وانتقالها من جهة الى جهة بالزيادة والنقص قال تعالى خطابا لنبينا صلى

الله عليه وسلم (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير) وأشار الى سبب ذلك فقال (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب)

فتأمل هذه الآية ومافيها من الرمز الغريب وتعجب من هذه الاحكام

﴿ حكم السنة الشمسية والقمرية والفرق بينهما ﴾
(ومعرفة أوائل السنين والشهور العربية)

حبيت النفوس الانسانية الى حب الاستطلاع على حقائق الاشياء لا سيما تقدير الزمن حتى انك تسمع العامة في مجالسهم والسوقة فى محادثاتهم يتناجون فيما خفى عليهم من تلك العجائب الفلكية ويجلس الفلاح وفاسه أمامه وجاره بجانبه ويقول يافلان هاأنا صمت رمضان في بؤونه الحجر (كلمة عند العامة يريدون بها أن الارض تكون فيها خالية من الماء كالحجر) وأنا فى عنفوان

شبابى وكنا من شدة الحر نجلس فى الماء وفى السواقى وهانحن الآن في طوبه ثم تمضي مدة طويلة ويأتى رمضان فى الصيف فترى الرجل يحادث صاحبه وهما في أرضهما يستروحان نسيم الروح يقول أحدهما ها نحن صمنا رمضان في الصيف كما صمناه ونحن أطفال ثم يتناقشان الحساب فيختلفان في التقدير فهذا يقول ٣٠ سنة والآخر يقول ٢٥ والآخر يقول ٤٠ وهكذا أما الحقيقة فستعلمها مما سنذكره انها ٣٣ سنة كما سيظهر من أن لكل مائة سنة سنة واحدة ولكل ٣٠٠ سنة تسع سنين كمسئلة أهل الكهف وستراه بأجلى بيان

فهذه فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم وهو شوق نفسانى ورد من العالم الاعلى الى حضيض هذه النفوس ليوقظها من سبات الغفلة الى يقظة العلم وزخرف الجنة والسعادة والهناء مع الذين أنعم الله عليهم بالعلوم والمعارف فما أشوق نفس الانسان وأبهجها بالمعرفة — جاء القرآن مطابقاً لما فى فطرنا مساعداً على نحو تلك الغريزة الالهية وايقاظها من نومة الاغترار على فراش الجهل الوطىء فحل هذه المسئلة

الظاهرية الخفية القريبة البعيدة في قصة أهل الكهف حين ناموا ولم يتيقظوا الا بعد ثلاثمائة سنة ان اعتبرت سنين شمسية وتزيد تسع سنين ان اعتبرت قمرية وتوضيحه أن النوع الانسانى راقب حركات الكواكب المشهورة ودقق الحساب جداً في الشمس والقمر فأما قدماء المصريين وأهل أوروبا وكثير من الامم فنظروا الى الحر والبرد وتفاوتهما واختلافهما وفى كون كل منهما يخالف الآخر وماينتج عنهما من الزروع: وأحوال الامم والممالك مع انتظامه انتظاما تاما فلم يجدوا له سبباً الا قرب الشمس وبعدها عنا ووجدوا انها تقطع بحسب الظاهر دورة واحدة فى كل ٣٦٥ر٢٤٢٢١٧ يوما شمسياً بمعنى انها تحدث قربا الينا وبعداً عنا ينتج عنهما الصيف والخريف والشتاء والربيع ومدة هذه الاربع تسمى سنة شمسية اذ النظر فيها الى سير الشمس وتقريبها ٣٦٥ر٢٥ يوما وربعاً وانما قربنا ذلك لاننا نريد في كتابنا هذا أن نأتى بما يسهل على الناس ولا نخوض فيما يدق جداً على الافهام اذذاك لعلماء الفن نفسه فأما نحن فلسنا حابسين أنفسنا على فن واحد اذذاك يخرج بنا عن الجادة وانما نتخذ من كل فن

أحسنه لان مرادنا أرقى من جميع الفروع العلمية وهى خلاصة الكون كله ومدبره فالاشتغال بالتعويقات يذهب بنا عن الجادة (ان ربى على صراط مستقيم) هذا واعلم أن هذه السنة الشمسية تسمى أيضاً السنة الانقلابية لانها عبارة عن المسافة الزمنية التى تمضي بين مرورين متتاليين للشمس بنقطة اعتدال واحد كالاعتدال الربيعى مثلا وايضاحه انك تنظر الى الشمس مثلا وهى تغرب من محل معلوم فى السماء فى أول يوم من برج الحمل مثلا أى حين ذهاب الشتاء وعند اقبال فصل الربيع فى ٢٢ مارس وتعلم المحل الذى أشرقت منه كشجرة مثلا ثم تتأملها فتجدها تميل الى الشمال عن تلك النقطة شيئاً فشيئاً ثم تقف بعد ربع السنة وذلك فى أول الصيف فى ٢٠ يونيه ثم تراها ترجع ثانياً وتغرب فى المحال التي غربت فيها على طريق العكس من باب اللف والنشر المشوش عند علماء البديع اذ بين هذا الكون وبين علوم اللغات تشابه عجيب حتى انك ترى الكون كله مملوء بعلم البديع كالجمع والتقسيم وهكذا ثم لا تزال الشمس كذلك حتى تغرب في النقطة التى كنت علمتها أولا وهذا أول فصل الخريف

فى٢٣ سبتمبر ثم تجاوزها الى جهة الجنوب الى تمام ثلاثة الاشهر
وهذا ابتداء فصل الشتاء فى٢١ديسمبر واذن تكون الشمس
في ذنب الجو زهر كما كانت وهي فى المنقلب الصيفى فى٢٠يونيه
المتقدم فى رأس الجو زهر فهنا رأس الجو زهر وذنبه وهما
المنقلبان الشتوي والصيفي وهنا اعتدالان وهما الخريف والربيع
ثم ترجع ثانيا آخذة النقط التى مرت عليها منقلبة متقهقرة الى
جهة الاعتدال الربيعى حتى تصل اليه في ٢٢ مارس وفى هذا
يتساوى الليل والنهار فى كافة اقطار الارض وكذلك فى الاعتدال
الخريفى فالاعتدال فى السنة يومان لا غير فقد عرفت كيف
سميت انقلابية لان الشمس تنقلب فيها من البروج الشمالية
الى الجنوبية وبالعكس وبهذه الطريقة يمكنك ان تعرف هذه
السنة بمجرد النظر الظاهر بدون آلة ولا مشقة اذ كثيراً ما
نرى العامة يراقبون هذه الحركة بنحو هذا وتأمل فى حكمة
هذا الصانع الحكيم وكيف جعل الشمس تغرب في يومى
الاعتدالين من محل واحد بحيث لاتتغير على كر العصور ومر
الدهور وترى ان لكل يوم من ايام السنة مشرقا ومغربا مختصاً

به لا يشركه فيه سواه وانما تحذو ايام السنة التى بعدهـا حذو ايامها ما أعجب هذا الا تقان وما اغرب هذا الابداع فتخيل ان رجلامن نحو الفى سنة رأى الشمس فى أول الصيف تشرق من محل معلوم وان رجلا في هذه الايام راقبهافي أول الصيف وجدها تغرب فى المحل بعينه فجل الذى اتقن صنعه واحكم اتقانه ولعلك من هنا فهمت قوله تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) وقوله أيضاً (والصافات صفا فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) وفهمت ايضاً قوله (رب المشرقين ورب المغربين) فجمع ليريك القدرة الباهرة في ان كل يوم له مشرق ومغرب على حدته وان كل سنة تحذو حذو سابقتها وثنى ثانياً باعتبار ان المشارق قسمان جنوبية وشمالية وخاطب الخاصة بالجمع والعامة بالمثنى فافهم

واذا دققنا النظر واجلنا الفكر مع استحضار ما ذكرناه سابقاً من تقدم الاعتدالين نجدان كل يوم لا يشركه غيره في شروقه وغروبه ولا فى السنة الثانية فالوضع الذى اخذته الشمس

في يومه لا يرجع الى يوم القيامة فما دورة تشبه ما قبلها الا شبها ظاهرا وهذا لا يفهم الا للفطن الذى دقق النظر فيما قلناه سابقاً في تقدم الاعتدالين فتأمل كيف ادهش العقول بهذا النظام فاننا ان نظرنا نظراً قريبا قلنا الايام يحذو بعضها بعضاً ورأينا تشابها وان دققنا لم نجد لشيء من هذه الايام مثلا من كل وجه الا أنبيئك بما يشبه هذا يشبهه افراد النوع الانسانى فانك لو نظرت الى الجنس الابيض منه وجدت انهم كلهم بيض ولن تجد مع ذلك انسانا يشبه الآخر بالحقيقة وان قال علماء الطبيعة بالرجعة وهي ان كل نوع يأخذ أشكالا كثيرة ثم يرجع ثانياً ويمر على تلك الاشكال فترجع صور الابناء للجدود المتباعدين جدا في العصور السالفة كما تدور ايام السنة وتحذو حذو سابقتها فيما سيأتى فى كل ٢١٠ سنة مائتين وعشرة وكما هنا فى مسألة مشارق الايام فى السنين المتتالية فلقد علمت ان ما مضى لا يعاد ولا فرق بين الفلكيات والطبيعيات وان الاعادة انما هى بحسب النظر الظاهرى رحمة من الله بنا ليعرفنا عدد السنين. ويرينا ان هذا الملك ثابت فلا تضطرب نفوسنا ولذلك يرى الانسان ان

هذا العالم ساكن ولكن اذا دقق النظر لم نجد شيئاً الا وهو متحرك علوا وسفلا وارضاً وسماء وهذا أيضاً عجيب فقد جمع بين الحركة والسكون باعتبارين وفي الحقيقة ليس عندنا الا الحركة (ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) ولعلك من نظرك في اشكال المشارق والمغارب مع النظر لصور الناس والوانهم وتخطيط اشكالهم فهمت قوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) وانظر كيف ذكر السنتنا والواننا ولم يذكر اختلاف المشارق والمغارب مع انهما متناظران لينبه بما ذكر على مالم يذكر فما ظهر يفهمه الخاصة ومالم يظهر وهو اختلاف سير كواكب السماء لا يفهمه الا خاصة الخاصة ولذلك أتم الاية بان هذا لا يفهمه الا العالمون جمع عالم

ولقد اطنبنا في هذا المقام لا يضاحه لاخواننا اهل العلم الذين لم يمارسوا هذا الفن او مارسوه ولكن عهدهم به بعيد فلقد لخصنا المقام لك ايها الاخ بابسط مايمكن مع الاستيفاء والحمد لله

واعلم ان علماء الفلك راقبوا هذه الحركات بآلاتهم فدققوا

الحساب وعرفوا ما ذكرته لك ثم حاولوا سهولة الحساب فجعلوها سنين كبيسة وبسيطة ولا حاجة لنا الى التطويل فيه وقد لخصنا لك في كتابنا ميزان الجواهر ما يغنيك في هذه المسألة عن استخراجها من علم الفلك فهذا ما أردنا ذكره فى السنةالشمسية او الانقلابية

ولتتميم ما نحن بصدده نذكر السنة القمرية وما ادراك ما السنة القمرية السنة القمرية نور من نور الله تجلى لعامة الناس والاعراب فى البادية اظهر على وجه القمر بقربه تارة من الشمس وبعده تارة اخرى

كل انسان في مشارق الارض ومغاربها يبصر الهلال حتى أوجب الله الصيام على من شهد فقال (فمن شهد منكم الشهر) أي ابصر الهلال (فليصمه) الضمير يرجع اليه باعتبار الزمن المعلوم وهى الايام المعدودات ويسمى عند علماء البديع الاستخدام

راقب حركات القمر تجده في أول الشهر محاذيا للشمس محترقا بها مختفيا بنورها ويسمى ذلك (الاحتراق او الاقتران) ثم نراه بعد عنها قليلا فصار هلالا فرآه الناس فحكموا بانه أول

الشهر أما الفلكيون فرأوا ان رؤية الناس تقريبية مبنية على الظواهر التي لا تنضبط فاعتبروا ان ابتداء الشهر عند اجتماع الشمس مع القمر ومحاذاته لها واقترانه بها ثم أخذ القمر فى التباعد شيئاً فشيئاً حتى يصل الى نحو أربعة عشر يوما فيكون مقابلا لها ويتم اشراقه ثم يأخذ فى التناقص شيئاً فشيئاً حتى يجتمع معها فهذا هو الشهر فعامة الناس يقولون شهر ٢٩ وشهر ٣٠ وهذا تقريب أما الفلكيون فانهم دققوا في الحساب ونظروا في خسوف القمر الذى لا يكون الا فى لحظة الاستقبال اي حين يكون بدراً كاملا والارض اذ ذاك تحول بين الشمس والقمر بجرمها الكثيف فتحجب الضوء عنه وقتاً ما فحسبوا بين كل كسوفين متوالين عدد الدورات لاقترانية المسماة الحركات الدائرية ايضاً وقسموا المدة الكلية على عدد تلك الدورات فاذا لكل دورة ٢٩ يوما و١٢ ساعة و ٢٤ دقيقة وثانيتان وتسعة اجزاء من عشرة من الثانية او ٥٣٠٥٨٩ ر ٢٩ يوما اى ٢٩ يوما وما ينوف عن نصف يوم فالسنة القمرية اذن تتركب من ٣٦٧٠٦٨ ر٣٥٤ يوما اى ثلثمائة واربعة وخمسين يوما وسبعة

وثلاثين جزءاً من مائة جزء من اليوم تقريباً فاذا طرحنا السنة القمرية من السنة الشمسية كان الفرق بينهما ١٠ر٧٧٥١٤٩ ايام وهذا العدد يكون فى كل ٣٣ سنة ٣٥٥ر٥٧٩٩١٧ يوما اى ٣٥٥ يوما ونحو ٥٨ جزءا من ماية من اليوم وهذا نحو سنة فتكون كل ٩٩سنة شمسية تزيد ثلاث سنين اذا اعتبرت قمرية وبالتقريب تزيد كل مائة سنة ثلاث سنين فثلاث المائة تكون ٣٠٩ سنة فهذه هى التى ترى العامة يقولون فيها في محاوراتهم صمنا رمضان فى الصيف وها نحن فى الشتاء وهكذا فكان كل ثلاث وثلاثين سنة يمر الشهر العربي فيها على فصول السنة كلها اذ التفاوت مابين عشرة ايام واحد عشر كما رأيت فترى الشهر العربى يقارن الشهر الشمسى نحو ثلاث سنين ثم ينتقل لسواه فيدور على جميع فصول السنة وهكذا سنة الله في خلقه فانظر كيف اشتاقت النفوس الانسانية الى الاطلاع على غرائب هذا العالم وعجائبه وكيف حنت الى الوقوف على هذا السر المكنون فى هذا الحساب كما يأخذها البهر والاندهاش حينما تسمع باختلاف الليل والنهار وانهما كما تقدم يتفاوتان باعتبار عرض

البلاد من خط الاستواء الى القطبين ويمر ان على الاقدار من ١٢ ساعة الى ستة أشهر وهذا من جهة العرض كما قدمنا ويختلفان أيضاً من جهة الطول فترى الشمس اذا كانت عند بحر الظلمات فى غربى افريقيا وأوروبا تشرق وتغرب عليهم بعدنا فاذا ذهبنا الى بلاد أمريكا كان التفاوت أشد ثم عند بعض بلاد الاوقيانوسية يكون ليلهم نهارنا وبالعكس وحقيقة هذا يعرفنا قوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) فمن هنا نفهم معنى التكوير بحيث يلف كل واحد منهما حول الكرة الارضية كما تلف العمامة ونفهم أيضاً قوله (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) فالتكوير فى الآية الاولى بالنظر لاختلاف المشارق والمغارب فالبلد الشرقى ليله ونهاره قبل البلد الغربى . ولذلك كان ليل أهل مكة ونهارهم قبل ليلنا ونهارنا وبعكسهم بلاد مراكش وأهل انكلترا أو فرانسا وغيرهم وأما الايلاج فباعتبار أن كلا منهما يزيد بما أخذه من الآخر فكأنه أولج أي ادخل فيه ولقد ذكرنا

هذا سابقاً وانما أعدنا هنا لزيادة الفائدة ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول : قد عرفت مما ذكرنا فرق السنين العربية من السنين الشمسية ثم تأمل كيف ساعدنا مدبر هذه الصنعة على ميل فطرنا فأنزل القرآن وقص علينا قصص أهل الكهف وذكر مدة نومهم وانهم استيقظوا بعد مدة ٣٠٩ سنين فقال (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين) اذا اعتبرت شمسية (وازدادوا تسعا) اذا اعتبرت قرية. فكأنه سبحانه أراد أن يوقظ أفكارنا وينبهنا من سنة الغفلة الى النظر في هذا الحساب فنعمر مدنيتنا ونقوم بما ينفعنا فى دنيانا وآخرتنا اذ هذا الفرق لا يعرف الا بمزاولة علم الفلك وياسبحان الله كيف أدمج ايقاظنا فى ايقاظ من قبلنا وكيف نبهنا في ذكر قصصهم (لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وكانه سبحانه علم اننا سننام نوم جهل وخمول كما نام أهل الكهف نومة أجسام فذكر تلك الزيادة وهى التسعة بعد ثلاث المائة لنستيقظ لهذا الحساب

﴿ عجائب الظلال وشواخص المزاول . ﴾

ومن العجب ان هذه القصة ذكر فيها امر ظاهر خفي واضح مستور من حيث سير الشمس وهو قوله تعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله) أى ان الشمس تميل عن كهفهم اذا طلعت واذا غربت فلا تصيبهم شمس وهم فى متسع الكهف ثم اتبعه بقوله ذلك من ايات الله

فاذا قرأ القارئ هذه الآية يقول في نفسه اين آية الله هنا اذ المقرر في اذهان العامة وكثير من أهل العلم ان آيات الله هى الخوارق للعادات انما آيات الله ما ظهر لذوى النفوس العالية فى حساب سير الكواكب والشمس والقمر والنظام العجيب فالاية هنا ظاهرة لذوى البصائر خفية على العامة والجاهلين وتوضيحه أن الشمس كما علمت حسابها منتظم وجميع ظلال الاشجار تبع لها فهى بحساب منتظم أيضاً فلن ترى من شجرة صغيرة ولا كبيرة ولا شاخص الا وله حساب منتظم تمام الانتظام تابع لحساب الشمس ولقد عرف هذا الفلاحون وأهل البدو

فجعلوا أعمالهم على حسب الظلال ولقد استعمل علماء الفلك نفس
هذا الظل في معرفة مقدار الزاوية التى بين الدائرة الكسوفية
ودائرة المعدل المسمى ميل الدائرة الكسوفية وذلك انهم نصبوا
شاخصاً فى الارض في محل مستو مكشوف ونظروا ظله فى يوم
المنقلب الصيفي ويوم المنقلب الشتوى وقاسوا فى هذين اليومين
أعظم ارتفاع زاوي للشمس وتوضيحه أن الشاخص يعتبرونه
ضلع مثلث وقياسه ممكن وظله على الارض ضلع آخر والخط
الواصل من نهاية الظل ورأس الشاخص الذى هو وتر المثلث
المقابل للزاوية القائمة ضلعه الثالث فالزاوية المنحصرة بين وتر
المثلث والضلع الذى رسمه الظل هى الدالة على البعد الزاوى
للشمس وهذه الزاوية كلما قصر الظل تكبر وكلما طال تصغر كما
هو مبرهن عليه فى الهندسة فاذا راقبت ظل الشاخص فنهاية
قصره يكون هناك اعظم ارتفاع للشمس واذن علم من المثلث
ضلماه والزاوية المنحصرة بينهما فيمكن رسم ومقاس تلك الزاوية
الدالة على ارتفاع الشمس بكل سهولة على الورق بالرق المشهور فى
الهندسة او بغيره وتصنع هكذا فى يومي المنقلبين اللذين عرفتهما

سابقاً وتقسم الفرق بين هذين الارتفاعين نصفين فيكون ذلك
النصف هو الزاوية الواقعة بين الدائرة الكسوفية ودائرة المعدل

ويمكنك أيضاً أن ترسم خطاً بين هاتين القطتين اللتين
وصل اليهما الظل في يومى الانقلابين فذلك الخط هو نصف
نهار ذلك المحل وحينئذ متى جاء ظل الشاخص عليه أى يوم
من أيام السنة كان وقت الظهر مدى العمر كله فتأمل وتعجب
كيف امكن نوع الانسان بشاخص بسيط أن يعرف أوقاته
وأن يحكم على الشمس في السماء ويعين درجاتها نعم نعم هذا من
آيات الله

اذا فهمت هذا أيها الأخ فتأمل فى آية الكهف وقوله تعالى
(وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا
غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) فتأمل ترانه جعل
الشمس ونورها وظلالها لها حساب معين لا يتغير ولا يتبدل
وذلك هو الآيات والحكم التى تبهر عقول الحكماء ولما
علم سبحانه أن كثيراً من الناس لا يعقلون هذه الآية أردفها
زامزاً لذلك بقوله (من يهد الله فهو المهتدومن يضلل فلن تجد

له وليًا مرشدا) فانظر كيف كانت هذه بعد قوله ذلك من آيات الله رامزاً الى أنه لا يقبل هذا إلا من عرف هذا العالم وهداه الله وأما الضال فكيف يهتدي وهذا وان كان كلاماً جامعاً ومرسلا كالامثال فله مساس بما قبله فتأمل ما لهذه الظلال من الحساب وكيف تبعت الشمس في سيرها وحسابها ونظامها فلا ترى من حائط أو عماد أو خشبة منصوبة أو شجرة أو جسر أو جبل أو صخرة أو حجر فى سهل حضر أو بدو ولا انسان أو حيوان أو نبات أو معدن مكشوف إلا ولكل من ظلالها حساب كحساب الشمس كما رأيت فى الشاخص المتقدم ألا ترى الى قوله تعالى (ولله يسجد من في السموات والارض طوعاً وكرها وظلالهم بالغد والآصال) ومعلوم ان السجود هو الانقياد للقوانين الموضوعة لهذا النظام فلما سجد كل ما في السموات والارض ومشي على حساب النظام سجدت ظلالها وكان النظام واحداً وإلا لم يمكن الاستدلال بالظلال ولا بالمزاول على سير الشمس ومعرفة انتقالها ومدارها وذلك تقدير العزيز العليم وانما قيد الظلال بالغدوّ والآصال لان الاختلاف ظاهر فى هذين

الوقتين في التابع والمتبوع ويشير لذلك قوله (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان) سجود الاشجار والنبات من وجهين أحدهما من جهة النمو والمدة التي ينقضي أجلهما فيها وذلك على حسب الاشعة ومرور الزمان وثانيهما من حيث الضوء الناتج منه الظل فهو على حسب النور المشرق حوله وقد قال الله تعالى (الشمس والقمر بحسبان)

فلما سجد المتبوع سجد التابع طبعاً . وهنا نكتة عجيبة وهى ان الانسان يحكم بالظل فى الارض على سير الشمس فى السماء والبعد عظيم جدا لعله ينتبه من غفلته ويستيقظ من رقدته ويعلم أن الله نور السموات والارض وكما ان للنور الذي يشاهد بالبصر أثراً يستدل به عليه فهكذا الخالق سبحانه وتعالى كل العالم ظل لنوره فلنستجل مظاهره منه ولنقل كل جمال في هذه الظلال فانما هى سنحات من جماله وبوارق كمال ومحاسن من اخلاقه

﴿ غفلة العقلاء عن النظر فى ظلال الاشجار والابنية ﴾

كم من عاقل يجلس تحت الاشجار الخضرة فى البساتين النضرة والنور ظاهر والغصن زاهر والورق تغنى على الافنان فرحة بالروح والريحان وقطوف الاغصان دانية لا تسمع فيها الاغية والرياح النواسم على تلك الاغصان البواسم فيسكره خمر ذلك الجمال الظاهر والحسن الباهر ولا يعرج على الباطن من تلك المحاسن ولا ينظر الى تلك الظلال وما فيها من الجمال مع انه لو انخلع عن ربقه قيد المحسوسات ورجع الى فكرته لرأى ماهو أعجب من ذلك ألا وهو ظل الشجرة التى هو جالس تحتها ويقول ان ابصارنا إما ان ترى نوراً أو ظلمة أو ظلا فالظلمة كالليل اذا يغشى والنور معلوم كالنهار اذا تجلى وأما الظل فهو عبارة عن أشعة تنعكس من الاشعة الشمسية على ما وراء الاحجام الحاجبة لها كظل هذه الشجرة فمن جلس فى ظل فهو في ضوء الشمس تمتع بنورها وكفى شرها وأمن حرها (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم

تسلمون فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون) فتأمل كيف نبهنا بلطف خفى الى النظر في ظلال الاشجار وغيرها من كهوف الجبال ومغاراتها وامتنّ علينا بالثياب التي تقينا من الحر والبرد والدروع السابغات التى تقينا من الحرب وبالجملة كل ما نتقى به الاخطار من الحصون والقلاع والسلاح والعدة إذ لا فرق بين ما يقى أجسامنا مباشرة وما يقيها بواسطة عند الاتساع فى القياس . وهنا نظر أدق وأعلى ألا وهو ان ظل هذه الشجرة ينقبض وينبسط بحساب بديع كحساب الشاخص المتقدم بحيث يمكن به حساب البعد الزاوي للشمس اذا انضبط والمقصود أن جميع الظلال من النبات والشجر والمساكن ذات حساب كحساب الشمس ولكل ظل من حائط أو شجرة أو زرع صغر أو كبر حساب لا يشركه فيه سواه لاختلاف المقادير مع اشتراك الجميع في القانون العمومى التابع للشمس فهو كاختلاف الليل والنهار فيما ذكرنا سابقاً مع اتحاد الشمس والارض وكاختلاف أنواع المواليد الثلاثة وأفرادها مع اتحاد العناصر وكاختلاف اللغات

مع اتحاد الصور

فهذا نظرك أيها العاقل في الظلال تفردت به عن الجهال الذين أسكرتهم صبوة الهوى. (أفرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) أى لست متوكلا عليه حتى تقهره على الاسلام شاء أم أبي وهذا كقوله لست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بجبار) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم كالانعام بل هم أضل سبيلا ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً. فانظر كيف يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم انظر الى هؤلاء الذين اتخذوا محبوبهم ومعبودهم الهوى أتظن أن هؤلاء يسمعون فيفهمون أو يعقلون وماهم الا قوم أرجعوا القوة العاقلة الى اللذات السافلة التى فى مرتبة الانعام ثم أخذ يشوق ذوى العقول ويوبخ الغافلين بالنظر الى الظل فانك تراه أول النهار قبل طلوع الشمس ساكناً مالئاً للكرة الارضية اذنور الصبح طبعاً من انعكاس ضوء الشمس في الهواء وذلك أن الكرة

الارضية محاطة بالهواء الحامل للون الزرقة التى نراها فوقنا ككرة محيطة بنا كما هي عادة الاجسام الشفافة فانا نراه كلما امتد يزداد زرقة وهى لون غير حقيقى فهكذا هذا الهواء نرى فيه هذا اللون الازرق لارتفاعه في الجو ولولاه لكان جو السماء أسود لاأزرق وقد أجمع الحكماء على أن لون ا . . نة والخضرة أصلح مايكون لابصار كل حي وبهذا الهواء ينتشر ضوء الشمس تحت الافق وينعكس على سطح الكرة الارضية قبل طلوع الشمس وبعد غروبها فهى فى الحقيقة ظلال للشمس انعكست عن أشعتها ولوزال الهواء لطلع ضوء الشمس دفعة واحدة وغاب دفعة واحدة ولم يكن هناك فجر ولا صباح ولا شفق ولاغيره وانما هما ظلام وضياء لاغير مع أن هذا مناف للحكمة الالهية من التدريج فى أحكام الصنعة فبهذا فلنفهم قوله تعالى (ألم تر الى ربك كيف مد الظل) أى قبل طلوع الشمس ثم قال (ولوشاء لجعله ساكناً) فى الارض فلا يظهر ضوء الشمس (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً) أشار بذلك الى نقصان الظل شيئاً فشيئاً كلما ارتفعت الشمس بحساب

معلوم على حسب دلالة الشمس وسيرها بحسب ما يظهر لنا في جو السماء مشيراً الى ان المطابقة تامة بين الدليل وهو الشمس والمدلول وهو الظل اذ الشمس تجري بحساب معلوم يتبعها ضوءها والظل تبع للضوء فالشمس كأنها اللفظ وهو الدال والضوء والظل كالمدلول والمعنى واحد وقد قدمنا ان القسمة ثلاثة ضوء وظلمة وظل ولكل حكم يخصه فالظل والشمس تقدم حكمها فاذ تعب الناس من الشمس لجأوا الى الظل فاهتدوا بالنور وكفوا الحرارة وبقي القسم الثالث وهو الظلمة التي هي عدم الضوء بالكلية الداعي الى النوم بخلاف سابقيه المعينين على الحركة ولذلك أعقبه بقوله (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً)فالليل بظلمته ساتر كاللباس كانه شامل لجميع من على سطح الكرة من انسان وغيره فينامون والنوم راحة للابدان وأما النهار فقد قدمنا أنه للانتشار فى الارض والسعي على الرزق واعلم أن الله عز وجل علم أن كثيرا لايفهمون ماذكرنا من حكمة الهواء وانه يكون به تدريج الضوء عند الغروب والشروق اتباعا لما رسم في الحكمة الالهية من

التدريج في كل شيء فلم يذكر ذلك صريحاً لخفائه على الافهام ثم اتبعها بهذه الآية (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وانزلنا من السماء ماء طهورا) الآيات أى ارسال المطر يكون في الغالب اذا كثرت الرياح الذاريات بين يديه ليستعد الناس له اذ لا يفجأ الله عباده بالامر دفعة واحدة كما نراه يعطى النعم بتدريج فى الاغلب رحمة بالعبيد لئلا يهلكوا بمفاجأة الفرح وهكذا يتقدم المرض الموت استدراجا للنفوس من حال الى حال وهذا فى الاعم الاغلب رحمة من الله ولطفا (ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) وهذه قاعدة عمومية فى العمل الالهي والذى نسجت عليه الامم المتمدنة فى الاستعمار بالاستدراج كما قال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) فانك ترى وتعلم أن أهل أوروبا قلدوا هذه الحكمة العالية فى الاستعمار فيستدرجون الناس من حيث لا يعلمون فيأنسون بما يرد عليهم شيئاً فشيئاً وفي ذكر هذه الآية وهي التي فيها ارسال الرياح بعد ماقبلها وهى آية الم تر الى ربك كيف مد الظل رمز الى أن احتمال الهواء لضوء الشمس وعكسه على الكرة الارضية قبل ظهور

النور من هذه القاعدة أيضاً فهو كارسال الرياح بشراً بين يدى رحمته فما أدق القرآن وأعجبه ثم تأمل كيف كان الهواء هو المبشر فى الحالين ففي الصباح بشر بلطفه ورقته المناسبة للضوء فحمله ونشره فى الارض ظلا وعند المطر بشر بحركته وسرعته فتأمل هذه المناسبات العجيبة واعلم أن بقية هذه الاية الاخيرة وهى قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا انعاما واناسى كثيراً الاية قد ذكرناها الى آخرها فى كتابنا ميزان الجواهر وذكرنا تفسيرها بما يسرك فارجع اليه هناك .

ولآية الظلال وجه آخر وهو أنه يراد بكونه ساكنا أن تقف حركة الشمس فوق الافق فتبقى الظلال لاصقة باصول الجبال لاتمتد ولاتنبسط فهو يقول الا تنظر الى صنع ربك كيف مد الظل وبسطه مع انه قادر على سكونه ووقوف حركته بأن تقف الشمس التى هى الدليل عليه والمحرك له والمادة له يمينا ويسارا فنحن جعلناها دليلا عليه تدل عبادنا بحركاتها المنتظمة المعروفة لكل انسان على سطح البسيطة ليرتب أعماله فى نهاره

وأوقات فراغه وراحته من شغله على أوقات ذلك الظل فلا ترى رجلا ولا امرأة ولا صغيرا وكبيراً الا وهم ينتظرون الاستظلال في محل كن لاسيما القفار وبلاد الفلاحين وعند الاعراب فكل هؤلاء لا يمكنهم الراحة والجد في العمل الا بنظرهم في أمر الظل لراحتهم هم وانعامهم في وكل ذلك لولا أن سير الشمس بحساب ما أمكنهم ان يستدلوا على مواقع الظل قبل مجيئها (ان ربكم لرؤوف رحيم)

﴿ غريبة عجيبة ﴾

اعلم ايها الناظر في هذا الكتاب انى وانا اكتب في هذا الموضوع في يوم الاربعاء ٢٢ مايو سنة ١٩٠١ كتبت ان ربكم لرؤوف رحيم كان ذلك باستشمار تلك الرأفة والرحمة ولم يكن في ذكرى ان بعدها هذه الاية وهي قوله اولم يروا الى ماخلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون) فتعجبت كيف سطر اليراع ان ربكم لرؤوف رحيم لاستدعاء المقام لذلك وكيف كان القرآن نفسه آتيا بمسئلة الظلال

بعدها كما رأيت اذالقرآن موافق تمام المطابقة لفطرنا الانسانية ناطق بمافيها فهو ذكر وتذكر.

يقول الله تعالى أغفل هؤلاء الجاهلون ولم يروا ماخلقنا من الاجرام ذات الظلال تميل ظلالها عن الايمان تارة وعن الشمائل تارة أخرى وتلك الاجرام خاضعة لنا جارية على النواميس التى سنناها وهم داخرون صاغرون فكل من الظلال والاجرام خاضعة لنا منقادة طائعة ثم أعقبها بقوله(ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون) ومن نظر الى هذه الآيات رآها آخذة في طريق الترقي وذلك انه ذكر خضوع الظلال ثم الاجرام ثم مافى السموات ومافي الارض من الدواب وذلك أرقى طبعاً من بقية الاجرام ذات الظلال ثم ارتقى فى العالم الذى لا نراه وهو ما به هذا النظام وحركات الكون ونواميسه الذي يسمى بلسان الشرع ملائكة كما يسميه علماء الفلك والطبيعة نواميس يسميه الشرع ملائكة اختلفت التسمية والمعنى واحد . ولم يبق بعد هذه النواميس والمدبرات فى العوالم

الا خالقها فلذلك قال (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون به فقد ترق فى هذه الآية من الظلال الى الاجرام الى أنواع الحيوان الى الملائكة الى الخالق سبحانه وربط كل درجة بما فوقها فى الطاعة وارجع الجميع الى واحد . وهذه الآية تشبه تمام المشابهة العلم الذي كان يدرسه علماء اليونان والمسلمون المسمى بفن الالهيات وهو الذى يبحث عن العلوم كلها ويقسم الكون كله تقسيما يدخل تحته كافة العلوم ويرجعونها كلها الى أصل واحد وهو مدبر الكون ومهندسه وخالقه ثم في قوله من دابة يمكن ارجاعه الى ما فى السموات وما في الارض وحينئذ يفيد أن في هذه الكواكب دواب تدب غاية الامر اننا لا نراها كما يظن كثير من الاوروباويين اليوم وهو الذى تشهد به الفطر وتألفه النفس ويقبله القياس ولذلك قام رجل يونانى الاصل سربى المولد أمريكي الاقامة وهو الآن فى نيورك يحاول مخاطبة من فى المريخ من السكان بالتلغراف الذى بلاسلك لما شعر أن الآلة الكهربائية التى أمامه فيها اضطرابات وقال انها ليست من أرضنا ويظهر أن هؤلاء القوم فى المريخ أرادوا مخاطبتنا وأنهم

ارتقوا في المدنية أكثر منا كل هذا رأيته فى أيامنا هذه في مجلة
الهلال مع صورة الرجل هناك وهذا أمر لا يصح الاقدام على
تكذيبه أو تصديقه وانما المستقبل كشاف

ولقد أطنبت في الكلام على الظلال لاني كنت أرى فى
نفسى شائقا لاأدرى ماهو وأتأمل في هذه الظلال وأقول فى
نفسي لعل لهذه حساباً وياليت شعرى كيف يكون ذلك الحساب
وعلى ماذا يدل وما نظامه وكان هذا الذى ذكرته يحضر في
خيالى ولكن أجدفى القلب حرارة وشوقاً ولا أدرى كيف
السبيل اليه ولا أى علم يدل عليه فى ابتداء مجاورتى بالجامع
الازهر فها أنا أيها الاخ قد لحظت لك ماعكن بالعبارة البسيطة
لتقف عليه بلانصب ولاتعب مع ما يناسبه من آيات القرآن
وتقف على ماجهله العاجزون وامرنا الله بالنظر فيه والتفكر في
عجائبه فان لم تجد لك شوقاً اليه فعالج نفسك دائما حتى ترى فيها
انشراحاً لفهم غيره من مواضيع هذا الكتاب ولا تيأس من
روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون وانا
اقول انك ايها الاخ اذا وصلت فى قراءة هذا الكتاب الى هذا

الموضع وفهمت كثيراً منه فقد صرت من اخواننا المستعدين للترقي فى العلوم والمعارف .

ولنتأمل أيها الاخ معي بذهنك الصافى وقلبك الحاضر زيادة تأمل في مسألة الظلال وانها تابعة للشمس جارية بنظام حتى جعلها علماء الفلك رحمهم الله تعالى دليلا على الشمس معرفة لساعات النهار بل هى أضبط جدا من ساعات الجيب وهي ساعات تقسم النهار اثنى عشر ساعة بلا زيادة ولا نقص وهي الساعات الشمسية الحقيقية وهى أربعة أقسام مزاول معتدلة وافقية ومنحرفة ورأسية ولنذكر لك الاولى منها يا أخي لتقف على سر الخالق في صنعه بابسط عبارة لك وأسهل ما يمكن مع الاستعانة بالبراهين الهندسية اذ قصدنا من هذا الكتاب الحقائق العلمية فنقول

﴿ المزولة المعتدلة ﴾

يجب أولا معرفة خط زوال المحل بان تعد محلا معتدلا مستويا لاعوج فيه وترسم فيه دائرة حيثما اتفق وتقيم في وسطها

شاخصا عموداً عليها وتنظر شروق كوكب كالشعري اليمانية
مثلا وتضع الشاخص بين عينيك وبين الكوكب وتعلم النقطة
التى أشرقت حذاءها من محيط هذه الدائرة ثم تتركها وتراقبها
وقت الغروب وتعلم النقطة المحاذية الى ما عندك بالطريقة المتقدمة
ثم تصل خطا بين النقطتين فهذا الخط مواز لخط الاستواء
فتقيم عليه عموداً فهو خط زوال المحل والاقرب من هذا أن
تأتى بروح التسوية وتسوى به المحل أولا بأن يكون رخاما او
خشباً اوغيرهما فتضع روح التسوية وضمين متعامدين لتحقق
التسوية ثم تثبت فيه الشاخص ثم ترسل داوئر مركزها ذاك
الشاخص دائرة بعد دائرة وتنتظر شروق الشمس فتى جاءت
على نقطة من الدائرة الكبيرة فعلمها وهكذا فيما يليها وتفعل
هكذا بعد الظهر وتصل خطا بين هذه النقط فهو خط المشرق
والمغرب وتقيم عموداً عليه بطريقة البرجل المعلومة وهذه فى
العلوم الرياضية فان قلت إن الشمس ليس سيرها على خط واحد
اجبت إن هذا فرق يسير جداً لا يؤثر في مثل هذا العمل ثم
تأتي بلوح مستو من معدن او غيره وتقيم عليه عمودا شاخصاً

وترسم دائرة مركزها موقع هذا الشاخص وتقسم محيط هذه الدائرة ٢٤ قسما متساوية فيكون كل قسم ١٥ درجه ثم تأخذ هذا اللوح وتضعه عمودا على خط الزوال اي ان اثره الذى على الارض هو الذى يكون عمودا اما نفس اللوح وهى المزولة فتكون مائلة بمقدار متمم عرض البلد وهو فى مصر ٦٠ درجه أما الشاخص فانه يكون مائلا طبعاً على الافق بمقدار عرض البلد ويكون موازيا لمحور العالم اذ هو عمود على المزولة الموازية لدائرة المعدل والعمودان على مستو واحد متوازيان ومعلوم أن العمود على أحد سطحين متوازيين فهو عمود على الاخر .فاذا وصلت بين موقع الشاخص والاقسام الاربعة والعشرين التى على المحيط انصاف أقطار فهى اذن عبارة عن آثار مستويات ساعية على مستو مواز لدائرة المعدل والشاخص موجود فى كل منها فاذا جاء مركز الشمس فى أحد هذه المستويات الساعية ينطبق ظل الشاخص كذلك على نصف القطر الدال على المستوى الساعى. والخط الذى هو أثر مستوى الزوال على المزولة يبين الظهر تماماً فاذا جاءت عليه الشمس فقد جاء وقته فيعد عليه ١٢ وجميع

الخطوط الموضوعة غرب ذلك الخط تبين ساعات قبل الظهر والتى فى شرقه تبين ساعات بعد الظهر والقطر الافقى يبين السادسة صباحاً والساعة السادسة مساء . ومن الواضح أن الشمس في الربيع والصيف تكون فوق المزولة وفى الخريف والشتاء تنير الوجه السفلى منها فلا بد من رسم المزولة على وجهي المستوى . ولما كانت الشمس وقت الاعتدالين تكون فى مستوى دائرة المعدل أى فى مستوى المزولة وجب عمل بروز فى نهاية مستوى المزولة لاجل سقوط ظل الشاخص عليه .

ثم ان المزولة فى خط الاستواء تكون قائمة على الافق وكلما مال العرض جنوباً أو شمالا مالت المزولة جهة خط الاستواء بقدر متمم عرض البلد ففى عرض ٢٠ تميل جهة خط الاستواء ٧٠ وفى ٢٣ كاصوان تقريبا تميل ٦٧ وهكذا

هذا ماأردت ذكره فى المزاول وذلك لشدة شوقى الى مسائل الظلال ومن أراد الاستيفاء فعليه بكتاب الاصول الوافيه في القسموغرافيه لاستاذنا حسن بك حسنى فقد ذكر هذه المزولة ورسمها وكذا المزولة الافقية والمزولة الرأسية والمزولة

المنحرفة وقد استوفيت انالك الاولى فى هـذا الكتاب مع براهينها الهندسية .

فتأمل يا أخي فى مسئلة الظلال وكيف شغل فيها كثير من العقلاء فلم يفهموها اللهم الا هؤلاء الذين عرفوا بها الاوقات أما وجهتها العقلية فكثير من الناس عنها غافلون وتأمل كيف يقول سبحانه وتعالى فى الآيات المتقدمة تارة أو لم يرو الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله وأخرى يقول فى قصة أهـل الكهف وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله مع أن العامة وكثير من الخاصة لا يلتفتون لها بالكلية وهاهو القرآن موقظ العقلاء من غفلتهم يحثنا على النظر لها اذ الظلال عالم عجيب مقدر موزون وحجمه تارة يكون قدر حجم ما على الكرة الارضية وتارة أكثر وتارة أقل .

ياليت شعرى أهذه الظلال أجسام أم اعراض أم عدم فأما العدم فلا وأما كونها أجساماً أو اعراضاً فهذا هو موقع الخلف بين العلماء اذ هو من نوع النور وفيه حارت أفئدة العقلاء فمن قائل انه أجسام اذ لو كان اعراضاً لما انتقل والعرض لا ينتقل

ومن قائل انه اعراض اذ لو كان أجساما لما زال بزوال المضىء
والحق أقول انه عرض ولكنه لم ينفصل من الكوكب وانما
يخلق خلقا ابتدائيا فى الاجسام عند مقابلة الكوكب هذا ما
قاله الغزالى رحمه الله ثم قال اهل أوروبا انه حركات الأثير
وتموجاته كتموج الهواء بالصوت وهو قريب مما قاله الغزالى
وانظر مالهذه الاعراض من الفوائد العجيبة فى أحوالنا وما لها
من حساب متقن فاذا جلست تحت شجرة فلك النظر فيها
من ثلاث جهات من جهة محاسنها الظاهرة وذلك أوضحناه فى
جواهر العلوم وهو ظاهر لك بالحس ومن جهة قواها الباطنه
وذلك ذكرناه في كتابنا ميزان الجواهر وثالثا من جهة ظلالها
وذلك مما ذكرناه لك في هذا الباب فياليت شعرى كيف جهلنا
تلك العجائب وكيف ينبه الله عليها فى كتابه . والذي أراه انه
مانبه به الا الخاصه اذ العامي لا يعدهذا نعمة ولا يتفكر فيه لكثرة
اعتياده وان قال الحمد لله فانما يقولها باللفظ وهذا كقوله (أولم
ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما فهذه
المسئلة لا يعرفها الا الراسخون في العلوم فالكافرون هم الجاهلون

بعدم التضلع من العلوم والتبحر فيها حتى يعرفوا منشأ العالم ولذلك سجل عليهم الجهل فى آية أخرى فقال ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً . وبالجملة فالظلال شأنها عظيم وهى ركن كبير فى العالم بل عند التأمل هى أغرب اذ نموها وذبولها وصغرها وكبرها فى كل يوم فترى، أقل نبات يأخذ ظله فى النمو بنسق عجيب ثم يختفي وهكذا فالظلال تابعة لناموس سير الشمس والاجرام ذات الظلال تابعة لناموس العناصر المؤتلفة ولعمرى أن كلا يمثل ما يليق له فالضوء لما كان لطيفا كان غاية في السرعة قريب الزوال فهو يمثل لنا أحوال الدنيا كلها في أقرب زمن بحيث لا يأتى وقت الغروب الا وقد نسخ كل شيء وعدم بالكلية كقوله تعالى (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالامس) فكل نهار يمثل هذه الحال أجمل تمثيل وفى هذه الظلال دلالة على ان هناك

فوقنا عالما أرقى من هذا أقرب في السرعة كما تمثل الموسيقي علوم
الاعداد ونظام الكون فى لحظات يسيرة فما بالك اذن بالنفوس
الانسانية التي هي فوق ما نتصور وربما طويت فيها السموات
والارض (يوم نطوي السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول
خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين ولقد كتبنا فى الزبور من
بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون)

﴿ دلالة الظلال على الله ﴾

الظلال ترشدنا الى ان العالم كله كانه ظلال والخالق عز
وجل يدل عليه عند ذوى البصائر (أو لم يكف بربك أنه على
كل شيء شهيد) فكما يستدل على الظل بالشمس فهكذا استدل
فحول العلماء وأساطين الحكماء بالله على خلقه كما ذكره الغزالى
وأوضحه ابن سيناء اذ ليس الوجود الحقيقي الاله وفيه نكتة
لطيفة وهي أن العالم لما كان كالظلال كان تابعاً لله الذى هو نور
السموات والارض ومتى كان كذلك فلوفرض زوال وجوده
واحتجابه عنه لحظة واحدة لزال العالم بالكلية كما يزول الضوء

والظل بزوال الكوكب ولا يبقى الا الظلمة وما هي الا العدم المطلق ومن هذا تعلم شبهة العامة من قولهم ان الانسان يبنى الدار ويموت ولا يعلم أن الدار لم يكن للبانى فيها الا جمع ماتفرق بخلاف هذا الملك كله كما فهمت بل هو أيضا ككلمات المتكلم فانها لا توجد الا عند كلامه فاذا سكت لم تبق ويرمز لهذا قوله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) فالعالم كله كانه كلمات لو سكت المتكلم عنها لحظة لم يبق لها وجود لانها كالخط الذى هو عبارة عن جمع مواد على ورق ومن الغريب انك ترى أن بين صنائعنا والكتابة تشابهاً وبين فعل الله والكلام تشابها .

وتوضيحه أن كلامنا يخرج في الهواء مدة نطقنا فاذا سكتنا لم يكن له بقاء وهكذا الخالق فى ملكه وأما الكتابة فما هي الاعناصر متحدة وضعت على قرطاس لها بقاء بعد كتابتها فهي كصنائعنا ولكنها متأخرة فى المرتبة اذ هى تصوير للحروف المنطوق بها دالة عليها فالكتابة والبناء بأدوات تبقي لان أجزاءها ليست من أفعالنا أما الكلام فلا يبقى الا وقت النطق

به فهو كابداع المبدع الحكيم الذى لم يستمد من أحد ولذلك
كثر في القرآن ذكر الكلمات كقوله تعالى (انما أمره اذا أراد
شيئاً أن يقول له كن فيكون) (وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه)
فالعالم كالكلمات ولقد رمز الى ذلك بقوله (ان الله يمسك السموات
والارض أن تزولا ولئن زالتا أن امسكهما من احد من بعده انه
كان حليما غفوراً) وبقوله (ويمسك السماء أن تقع على الارض
الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم) اذ لو لم يمسك السماء والارض
لم يوجد من يمسكهما أما البناء فاذا بنى البيت ومات بانيه فانه
يجد من يمسكه وهو الذى خلق هذه المواد التي بنى بها البيت
وهذه النواميس الكونية التى اقتضت بقاء هذا البناء من ناموس
بقاء كل شيء فى نظامه وثباته مما عرفته من هذا الكتاب .

﴿ أعجوبة الظلال وملح الهندسه ﴾

فر عصفور من فوق نخلة ووصل الى الارض بحيث
يرسم في طيرانه خطاً مستقيما أوله على الشجرة وآخره نهاية ظلها
على الارض ونريد أن نعرف طول هذا الخط

الجواب — نقيس طول النخلة وطول الظل الذى يمتد من أصلها الى نهاية الظل ونربع كلا من الضلعين ونجمع المربعين ونجذرهما فالجذر هو المطلوب فاذا كانت النخلة أربعة أمتار وطول الظل ثلاثة فمربع الاول ١٦ والثانى ٩ ومجموعهما ٢٥ والجذر خمسة وهو المطلوب

وذلك من قاعدة ان مربع وتر المثلث القائم الزاويه يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين ولها شكل في الهندسة يسمى العروس وواضعه فيثاغورس وانما ذكرت هذه لتتأمل احوال الظلال وتعلم ان كل ظل لاى مرتفع من الارض عمود عليها تجرى عليه هذه القاعدة ويكون بينه وبين الضلعين الاخرين هذه المناسبة العجيبه سواء طال الظل أم قصر بكرة وأصيلا وطال الشاخص أم قصر وبلغ ما بلغ فالحكم سار فى الجميع وهذا لعمرك من الميزان الذى قامت به السموات والارض وما بينهما هذا اذا كان العمود او الحائط قائما عموديا فان كان مائلا فلينزل من رأسه عمود على الارض فالمسافة المحصورة بين اصل المرتفع وذلك العمود هى مسقط النخله على الضلع

الثانى وحينئذ نقول ان المربع المنشأ على الضلع المقابل لزاوية
حادة من هذا المثلث يكافئ مجموع المربعين المنشأئين على الضلعين
الاخرين منه ناقصا ضعف المستطيل الذى قاعدته احد الضلعين
المذكورين وارتفاعه مسقط الثانى عليه فان كان ذلك العمود
او الشجرة او الحائط مائلا الى خلف فتكون الزاوية منفرجة
فنضع ماتقدم قبله ونقول ان مربع الضلع المقابل لزاوية منفرجة
فى اى مثلث منفرج الزاوية يكافئ مجموع المربعين المنشائين على
الضلعين الاخرين منه زائدا ضعف المستطيل الذى قاعدته احد
الضلعين وارتفاعه مسقط الثانى عليه وتمثيله غير خاف عليك
فتأمل في هذا الارتباط العجيب فى كافة انواع العالم كله وظلاله
وكيف امكننا ان نقيس كل ظل من الظلال فى مشارق الارض
ومغاربها بهذه القوانين الثلاثة فهكذا يكون الميزان والعدل
والنظام المحكم في السموات والارض وتأمل في الظل اذا قصر
أو طال في أول النهار واخره فان النسبة لم تزل محفوظة ثابتة
فلا يتغير الانتظام الهندسى ذلك تقدير العزيز العليم : اذا فهمنا
هذا المثال الصغير نجد ان العالم كله على هذا المنوال الا فاعتبروا

ياولى الابصار .

ولعلك من هـذا تتذكر قوله تعالى وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم اى تتركهم ذات الشمال فاذا طلعت كانت على يمينهم واذا غربت كانت هى على شمالهم اذ الظلال لها نسب محدودة وحساب منتظم دال على حكمة الله تعالى والارتباط العجيب بين هذه العوالم وان جميع هذا العالم على نسب محفوظة كهذه ليتم النظام والمصالح ومنها استظلال اهل الكهف وهنا نكتة ارقى مما تقدم كله وهي ان هذه النسب المحفوظة امور ثابتة في نفسها تدركها العقول وان لم تظهر فى الخارج فهى متحققة في نفسها سواء اوجد هذا العالم ام لا فاذا كانت مثل هذه الاشياء ادركتها العقول ولم تشاهد الا آثارها من المساحات والاشكال فما بالك بمبدع هذا الكون الذى خفي عن الابصار وظهر للبصائر بالاشكال التى اخترعها والتخاطيط واظهار صور هذه الحقائق والمبدعات فهو اظهر وجودا وأتم واكمل وهذا فى الحقيقة هو آية الله عند الحكماء ولعمرى لا يعرف هذه اللطيفة الا الذين

ارتاضوا بالعلوم ومارسوها وصفت نفوسهم فتأمل جدا وهذه من اعظم فوائد الهندسة والحساب واكرر عليك القول بان تتأمل قوله تعالى (ذلك من آيات الله وقوله بعدها من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً)

﴿ لطيفة ادق وعجيبة أبهج في الظلال ﴾

ان للشمس اذا طلعت ظلالا كثيرة فيما يحاذيها من أشجار وجبال ومساكن وهكذا مما لا يتناهى وكل له ظل بحساب خاص به ومصالح وحكم فهكذا هذا العالم قبل ان يخلق علم الله اجمل صورة يمكن وجوده عليها فاختار هذه الصورة فكما ان صور الظلال لا نهاية لها ولا بد ان تكون صورة منها اوفق للمصلحة عندك فهكذا صور هذا العالم كله لا نهاية لها في الحسن وضده وانما اختار المبدع له هذه الصورة التي هو عليها الآن من دنيا وآخرة وهى اجمل وارقى وابهج ثم حين ابدعه جرى على حساب لا يتغير كما رأيت في ظل الشاخص والشجرة وان بين الظلال نسبة محفوظة لا يمكن ان تتغير . واعلم انى وانا

اكتب هذا الموضوع وجدت نفسى فرحة به طالبة لاطالته
تحب ان لا ينقضي ولو اطعتها لم يقف اليراع وسيوقفني خوف
سآمة القارئ

وبالاجمال فان مسئلة الظلال وتبعيتها للشمس تشير بطرف
خفي الى ان العالم كله تابع لحركة واحدة منتظمة فانتظم كل
ما تبعها كما انتظم سير الظلال تبعاً لنظام الشمس فالمادة العمومية
متحركة حركة منتظمة ظاهراً وباطنا والشمس جزء صغير
منها وبحركتها انتظمت الظلال فهذا الجزء دل على الكل للتشابه
بين العالم كله (ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين. تسبح
له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء إلا يسبح
بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفورا)

﴿ حقائق ورقائق ﴾

لقد رأيت سير الشمس والقمر وانتظامها وما فيهما من
حكم ومصالح ولعلك من هذا تفهم ما يرد عليك من آيات القرآن
فتفرح بما في نفسك من علم وفهم وتقول رب زدني علما ويكون

فرحك مأموراً به (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون لا الفرح المذموم كما قال تعالى في حق قارون إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ولا كذينك الرجلين الصالحين اللذين أرسلهما الحكيم لتعليم الملك في بلاد فارس فعلماه ومالا الى الدنيا وزخارفها وصارا فتنة للناس

فانظر كيف اختلف الفرحان إذ أولهما باق وهو العلم والثانى فان وهو عرض الدنيا الذى عند قارون ومن على شاكلته وما لا بقاء له فالفرح به وصحبته جهل وخزى فانظر كيف تفرح بعد مافهمت هذا إذا قرأت قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان وقوله وكفى بنا حاسبين وقوله (وهو أسرع الحاسبين وقوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا اكبر إلا فى كتاب مبين) وقوله والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم وقوله (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) وكيف ترى فى نفسك بهجة وسروراً اذا لاحظت منازل القمر وتقديرها وهى ٢٨ منزلة ينزلها القمر فى خلال

الشهر فتراه أول ليلة كالعرجون الذي هو الساق الحامل لشماريخ البلح ويسمى عند العامة السباطة) وقد أشبهها القمر فى الصفرة والدقة والانحناء ثم يرى فى الايلة الثانية متأخراً عنه فى الليلة الاولى والمسافة بينهما منزلة تقريباً ومثل ذلك في الليلة الثالثة والرابعة وهكذا فيتم ثمانية وعشرين منزلة فى مدة ٢٧ يوماً و٧ ساعات و٤٣ دقيقة و١١ ثانيه ونصف ثانيه

فاذا أتم هذه الدورة لم يجد الشمس فى المكان الذى تركها فيه فى القبة السماوية فيجرى ليصلها فيدركها وقد قطعت منزلتين وثلثا تقريباً وهى نحو برج من السماء في يومين وخمس ساعات تقريباً وتكون المدة جميعها تسعة وعشرين يوما و ١٢ ساعه وثانيتين و ٩/١٠ من الثانية الواحدة والحاصل انه كلما قطع ١٣ برجاً قطعت الشمس برجا واحداً وها انا أيها الاخ أوضحت المقام بما فى الوسع

فتأمل هذا التقدير العجيب وكيف قدر جرى القمر بهذه السرعة العجيبة وترتب عليه مصالح الامم فترى أهل البدو والاعراب والفلاحين يعرفون حسابهم بلا نصب ولا تعب

مكتفين بالنظام والتقدير الذى قدره لهم ربهم مطمئنين به لا يشكون فى صدق حسابه فهل رأيت أيها الاخ يوما رجلا سواء كان من اقل الناس ادراكا واحطهم فكرا ام من أقصاهم عرفاً واعلاهم عقلا يدعى جورا وظلما فى هذه المواقيت او تقديماً وتأخيراً فالاجير والخادم والتاجر والحاكم كل مصدق مطمئن على صدق الزمن وحسابه لا يشك فيه وانما يحصر فكره فى مقدار ما يأخذه من الاجرة على كل مقدار من الزمن وهذا حقيقة هو العدل

فهذا من فوائد التقدير فى الآية ولقد أخذنى العجب والانبهار عند كتابة هذا الموضوع وتعجبت من هذه الحكمة الباهرة الظاهرة وكيف كان مقدار سرعة القمر قدر سرعة الشمس نحو ثلاثة عشر مرة لا يتغير هذا المقدار من يوم ان خلق الله السموات والارض الى ما شاء الله في المستقبل (ان هذا لشيء عجاب) ما أعجب هذا الملك وما أتم هذه الصنعة وما اغربها ولعلك من هذا عرفت حكمة قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك

يسبحون) لما علمت ان الذي يدرك الاخر هو القمر فانه يجري ويرجع لها كالصبي يذهب الى المدرسة وأمه تلاحظه ويرجع اليها آخر النهار ولذلك يسمون ظهور القمر أول الشهر توليداً

ولعمرى أيها الاخ ما الحياة الا حياة العلوم والمعارف حياة مشاهدة نظام عجيب مشاهدة حكم وغرائب ولطائف (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) فاذا رأيت هذا القول شارحاً لصدرك فابشر فقد انفتحت لك البصيرة فى العلم والفهم فاذا نظرت الى القمر وترتيب سيره عرفت قوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم) فذكر التقدير مع الشمس والقمر ثم العزة مع الاولى لانها هى السلطان فى العالم وذكر معها العلم أيضاً ليرينا بهذا الحساب علمه وقدرته وتقديره. ما ألطف هذا البيان وما أجمل هذا التفصيل (يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) فهذا من التفصيل . فتأمل كيف يكون فرحك اذا قرأت بعدما عرفت ماتقدم قوله تعالى (يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة

لاولى الابصار) فاذا اتبعت هذه الآية ما بعدها وهو قوله (والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير)

رأيت أمراً عجيباً ألا نرى أن الاختلاف بين أنواع الحيوان وهى من أصل واحد وهو الماء يشبه تمام المشابهة الاختلاف بين الليل والنهار اللذين يقلبهما الله على صور متعددة والشمس واحدة تدور فى مدار قطع ناقص واحد وان هذه الحيوانات كلها من نواتج الاسباب السماوية فأشبهتها في الاختلاف وبهذا عرفت تلك القدرة وفهمت الموازين التى في السموات والارض وعلمت معنى قائماً بالقسط وانه حكيم وانه خلق السموات والارض بالحق ومعنى (وكل شيء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر) وقوله (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ومايدرك لعل الساعة قريب) وانه كيف عطف الميزان العام في السموات والارض على الكتاب من باب عطف العام على الخاص ثم كيف ذكر مسئلة الساعة بعدها فكانه يقول اذا كانت

هذه الافلاك الدائرات لم أذر حركة من حركاتها الا حسبتها (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) فكيف أترك أفعال خلاصة خلقي بدون نظر في شؤونهم فلابد من يوم اذن فيه اعمالهم وافرغ لهم كما وزنت هذه الدنيا بما فيها من خير وشر ونفع وضر (يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله انه لطيف خبير)

﴿ ملح ورقائق ﴾

بينما أنا في الدرس حين وصلت في تأليف هذا الكتاب الى هذا الموضع سئلت أسئلة من التلامذة وأجبت عنها فأحببت أن أثبتها هنا ترويحاً لنفوس العقلاء من قراء هذا الكتاب.

قال أحدهم مامعنى قوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) فكيف يضل الله بالقرآن ويهدى به فقلت نعم ضلال لقوم استعدادهم للعلم ناقص وهدى لكاملى القرائح فقال كيف

ذلك فقلت مثلا قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها وذلك تقدير العزيز العليم) يقرؤها قليل العلم فيقول قد قرأنا فيما أعطينا في الكراسة التي بأيدينا ان الشمس ثابتة والارض تدور حولها وهذا يناقض القرآن أما الذى درس هذه الفنون فانه يعلم أن لها حركة حول نفسها وحركة حول نجم آخر لم يعلم حتى الآن وقد ذكرنا الخلاف فيه في كتابنا جواهر العلوم) ثم يأخذ في فهم معنى ذلك التقدير ويتأمل هذه الحكمة الباهرة والعجائب الظاهرة فانظر كيف ضل فريق واهتدى آخر والمرجع هو النظر والقرائح وشكوك الطرق التى يصعب سلوكها أو يسهل.

فقال آخر مامعنى (والله جعل لكم الارض بساطاً) فقلت أيضاً هى من أعجب العجائب فان كل بساط مما لدينا يستحيل أن يكون كرة كالفرش التى نفرشها في منازلنا وهكذا الكرة كالبطيخة ونحوها يستحيل أن تكون بساطاً اذ فيه جمع بين الضدين أما الخالق جل وعلا فانه جمع التكوير مع البساطة في هذه الارض لعظم حجمها فهي بساط فى نظرنا نستقر عليه فينظر الانسان بالعين فيرى بساطا متسعاً وهى فى الحقيقة

كرة كأن من يمشي عليها لا يرى لها آخرا كما أن كمال بارئها لا آخر له فكأنه جمع بهذا بين الضدين انبساط وتكور فسأل آخر كيف قال لمستقر لها فقلت قرأ ابن عباس لا مستقر لها وهو ظاهر وأما على هذه القراءة المشهورة فالمستقر هو يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ويخرب العالم فهذا هو المستقر الذي تقف عنده الحركة

﴿ بهجة النفوس ﴾

تأمل كيف ترى أن العلوم متشابهة وآيات القرآن كذلك فان سير الارض حول الشمس وكذا سير القمر حول الارض اللذين تتألف منهما السنون الشمسية والقمرية لم يحصل بينهما اتفاق بل بينهما تفاوت ونشأ منه الكسور فانظر كيف اضطر الناس الى حسابها حساباً مدققاً لتكمل العقول فهكذا القرآن يرى بحسب الظاهر في آياته تشابه لتضطر العلماء للبحث عن معانيه وبها يقفون على الحقائق الكونية ألا أخبرك بأعجب من هذا محاربة الدول فان التنازع فيما بينهم موجب لنمو القوي

الجثمانية وارتقاء النوع الانسانى ألا أخبرك بأغرب منه. أمراض الانسان الداعية الى اكتساب جميع العلوم الطبيعية لمعرفة أصول علم الطب وفروعه وذلك يستلزم طبعاً معرفة جميع موارد قوتهم وسعادتهم من نبات وحيوان وجماد (صنع الله الذي أتقن كل شيء)

أما آن لك بعد هذا ان تحدس من نفسك أن معرفة جميع العلوم هى الموصلة للقاء مدبر الكون الناظمة للمدنيه (وأن الى ربك المنتهي) واذا كان علم الطب لاشرف على الارض وهو الانسان يفيد البحث فيه وفى مقدماته جميعها نظاماً خاصاً وتقدما عظيما فليكن البحث للوصول الى مدبر الكون يرفع المدنية ويكمل العقول فيعرفونه هذا هو الحق لاشك فيه كما هو آراء أهل المدينة الفاضله فمتى كان حكماء الامة وعلماؤها عندهم احساس بنظام الكون كله وانه بقسطاس مستقيم أمكنهم تنظيم مملكتهم اذ هى جزء منه لم تخرج في النظام عن الملك الاعظم وعلى ذلك كان ترتيب كتابنا هذا.

ولعلك تري مع هذا فى نفسك استغراباً أقول لك أليس

كل انسان يعرف ربه بما اطلع عليه من العلوم فاذا لم يعرف المهندس بهندسته والحاسب بحسابه والفلكي بفلكه والطبيعي بطبيعته وقارئ البلاغة ببلاغته فمن أين يدرفه الا تقليداً محاطاً بالشكوك والاوهام أما قرأت قوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذى من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين) أما آن لك بعد هذا أن تعلم سبب انحطاطنا في مدنيتنا الحاضرة ألم تعلم أن قواد جيوشنا وموظفينا من مهندس وطبيب وآمر ومأمور لم تتوفر لهم داعية المعرفة بربهم حتى يخشوه حق خشيته (انما يخشى الله من عباده العلماء) وكل انما يخشى الله على مقدار علمه بمدبر الوجود وبعثه على حسب استعداده الكمال .

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

ولنرجع الى ما نحن بصدده من ذكر نظام السماء وحسابها

العجيب ونذكر السنة العربية وشهورها اذ لم نذكره في تقويم كتابنا (ميزان الجواهر)

﴿ تقويم السنة العربية وشهورها ﴾

وقد آن أيها الاخ أن نذكر لك حساب مبدإ السنة العربية وشهورها لتعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وتفهم كيف صرفت الابصار والبصائر عن هذا النظام العجيب وكيف شقي قوم وسعد آخرون وان حساب السنة العربية أدوار منتظمة ومتي عرفت دوراً واحداً فقس عليه آلافاً كثيرة من الادوار بل مالا يتناهى منها واذن تعلم أن الزمان واحد بحيث يشار اليه فى عقولنا بأنه واحد كواحد الاعداد فاذا جزأناه الى أجزاء بحسب حركات الافلاك ظهر لنا انه انقسم أقساماً منتظمة تشبه تمام المشابهة الكسر الدائر البسيط والمركب وتفهم قوله عليه الصلاة والسلام وهو يخطب على الجبل في حجة الوداع ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم

ثلاث متواليات ذوالقعدة وذوالحجه والمحرم وواحد فرد وهو رجب مضر الذى بين جمادى وشعبان واذا أردت التفصيل فاصغ اقص عليك

أنا الآن اكتب هذا الموضوع ضحى فى يوم الاربعاء خامس يوم من شهر المحرم سنة ١٣١٩ هجرية فوجب اذن ان أجعل التمثيل بهذه السنة فاقول

اذا اردت معرفة اول يوم من السنة العربية فاقسم عدد السنين الهجرية على (٢١٠) واقسم الباقى على (٣٠) وما بقى فانقصه واحدا ثم اضرب البسيط فى (٤) والكبيس فى (٥) واضرب الخارج من قسمة الباق فى (٥) ايضاً واضف (٥) اخرى فهذه حواصل (٤) فاجمعها واقسمها على (٧) وما بقى فاجره على ايام الاسبوع من يوم الاحد فاليوم الذى يدل عليه العدد هو اول تلك السنة من زمن الهجرة الى ما لا يتناهى ففي مثالنا هذا باقى قسمة سنة ١٣١٩ على (٢١٠) هو (٥٩) وبقسمته على (٣٠) يكون خارج القسمة ١ والباقى ٢٩ وبطرح واحد منه يكون ٢٨

والسنين الكبيسة فى كل ٣٠ سنه هي ٢و٥و٧ و١٠و١٣ و١٥ و١٨ و٢١ و٢٤ و٢٦ و٢٩ وبضرب الكبيسة فى مثالنا في ٥ يكون (٥٠) والبسيطة فى(٤) يكون ٧٢ والباقي عندنا (١) نضربه فى(٥) وتضيف (٥) وهذه الحواصل الاربعة «١٣٢» وبقسمتها على «٧» يكون الباقى «٦» فيكون اول هذه السنة على هذا يوم الجمعه ولكن الهلال لم ير الا ليلة السبت فأول السنة الشرعية يوم السبت وقد مكث الهلال نحو ٤٣ دقيقة بعد الغروب دلالة على ان الاجتماع سبق بمدة عظيمه

وبالجملة فهذه القاعدة قريبه جداً من التحقيق الا انه لا يخفى عليك ان حساب الفلكيين المبني على الارصاد اكثر دقة ومهما كان فهذه القاعدة لا تستبدل وان حصل اختلاف يسير وقد ذكرها الغازى مختار باشا فى كتابه وهذا الذى ذكرته ملخص ماقاله واعتمده هو وعلماء الفلك الاقدمون التتاريون

ولمعرفة أول الشهر اضرب عدد الاشهر السابقة على الشهر المطلوب على حساب ان المحرم ٣٠ وصفر ٢٩ وهكذا شهر كامل وشهر ناقص فاضرب التام فى (٢) ويضاف اليه عدد الناقصة

ويضاف الى مجموعهما العدد الدال على أول يوم من السنة ويقسم
الكل على سبعة فلمعرفة أول شهر ربيع الاول من هذه السنة
ناخذوا حدا للمحرم و٢ لصفر فهن (٣) وبجمعها على (٦) وهو
الذى كان ابتداء السنة يحصل (٩) فتسقط (٧) فالباقى (٢)
ويكون أول شهر ربيع الاول من هذه السنة يوم الاثنين ولكن
على حسب القاعدة نفسها لا على حساب الهلال الذى فى النتائج
فافهم وقد علمت ذلك الخلاف اليسير الذى لا يضر في سير
القاعدة فهذا هو ملخص ما ذكر سعادة مختار باشا الفلكى فى
كتابه فى علم الهيئة فتأمل كيف دارت الافلاك دورات
منتظمه وكيف كانت الادوار كل دور (٢١٠) وهذه فيها (٧)
ادوار لمدد (٣٠) المشتمل على الكبيسة والبيسطة بحيث انك
ترى الكبس والبسط فى كل (٣٠) منها مماثلا تماماً للثلاثين
الثانية ثم ان اوائل الشهور والسنين فى كل دور من الادوار
الكبيرة وهى (٢١٠) هى بعينها تماماً اوائل السنين والشهور
فى الدور الآخر بحيث ان السنة الثانية من الدور الاول ترى
أوائل شهورها مثل أوائل شهور السنة الثانية من الدور الثانى

وهكذا العاشرة والعشرون والاربعون وهكذا الى المائتين والعشرة فتأمل كيف اعطى كل يوم من أيام الاسبوع حظه من القسمة فى الادوار اذ المائتان وعشرة فيها الثلاثون مكررة سبع مرات عدد ايام الاسبوع لتدور الادوار بعدد الايام ليأخذ كل يوم جميع أوضاعه الممكنة له عقلا ولعلك الآن فهمت من هذا قوله تعالى (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) فهذا حقيقة هو القيام بالقسط والعدل والنظام والترتيب ولعلك أنت من أولى العلم واذن تعلم ان الزمان الذى هو مقدار حركة الاجرام السماوية الذى رايت هذا العدل فيه ليس باولى من المادة المتحركة بالعدل ألا ترى رعاك الله الانواع المعدنية والنباتية والحيوانيه فان موادها حصل فيها العدل من جهات شتى ألا ترى انها ليست بالحيوان اولى منها بالنبات ولا بالنبات أولى منها بالمعدن وهكذا نقول هذا الدليل فى جميع أنواع الحيوان وأنواع النبات والانسان فلذلك قسم هذه الصور بين أجزاء المادة تقسيما عجيباً فجعل بعضها معدنا وبعضها نباتا وبعضها حيواناً ثم كل نوع منها يجوز أن يكون

أشخاصاً كثيرة وليس شخص منها اولى من الاخر فجعل البقاء
لها محدودا متناهياً لتابس المادة خلع الصور جميعها صورة بعد
صورة الى ما لا يتناهى فهذا اذا تدبرته هو العدل والقسط
ويشابه تمام المشابهة لما رأيته من أدوار الفلك فتأمل كيف تشابه
العدل فى الزمن والقسط فى المادة وصارا بنسبة واحدة ومن
هذا تفهم حكمة الموت وتعلم أن الحرب والوباء والفناء كلها
حكمة عالية تامة وتمت كلمة ربك وبهذا يهدأ سرك ويطمئن
بالعلم ومعرفة الحقائق وتبتهج بها وهكذا ترى الناس اقتسموا
أنواع البلاء كما تقاسموا أصناف المسرات فيعطى هذا جمالا
وفقراً وذاك غنى وقبحاً وهكذا مما لا نهاية له فهذه ثلاثة
أنواع الاول النظامات الفلكية والثانى صور المادة وهي أنواع
الموجودات وأشخاصها والثالث أحوال السرور والحزن والنعم
والبلايا وهذا كلام مجمل لا يفصله الا طول البحث والتفكر
ومساعدته بالعلوم الطبيعية والعقلية والشرعية وغيرها والمدار
كله على التعقل والفهم وهذا لعمرك يسر العاقل ويبتهج به ويسمعه
الجاهل من وراء حجاب وأنت أيها الاخ الفطن اذا فهمت

هذا عرفت حقيقة كيف كانت أجسامنا عرضة للبلايا من داخل ومن خارج وان سببه كثرة العناصر الداخلة فيها وعرفت أن لذة الشهوتين ليست مقصودة وانما هي لبقاء البنية الى وقت ما بادخال بدل ما انحل وللتذكرة والتبصرة والاعتبار بلذة العلم الذي نصل اليه بعد هذه الحياة المبنية على التفاعل . وأيضاً لو كانت أجسامنا قليلة التركيب كالاحجار والصخور والرمل لدمنا زمناً طويلا ولم يكن ذلك عدلا فوجب بطريق الحكمة والعدل أن تتفاعل أجسامنا داخلا بالعناصر المتضاده وخارجا بالحروب والعوادي الجوية وغيرها لتنحل أشخاص ويأتي آخرون من بعدهم وأما الحروب فلتحيي أمة وتموت أخرى فلابد من خفض ورفع وعز وذل وضعه وشرف لئلا يختص قوم بالعز دون آخرين (وتلك الايام نداولها بين الناس) .

فكأن من استطلع خفايا هذا الكون يقرأ في صفحاته باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وهذا الباب من العلم لذة عظيمة لا يفهمه الا الراسخون في العلم وبه تتفاوت العقلاء والحكماء ومن هنا عرفوا أن وجود امثال هذا لم يكن مقصودا الا وسيلة

لوجود لذة لا تنقضي وعرفوا كيف كان تعاقب الموت والحياة نعمة على كل فرداذ بتكرار الاشخاص وتلاحقهم تزداد لذاتهم اذكل يفرح بشبهه ونظيره ممن هو على شاكلته ولذلك طلب منا لزواج لتكثير النسل وقرأنا في كل صلاة السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تذكرة باخوان على الشاكلة وهم امثال متلاحقون واليه الرمز بقوله (اولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ذلك الفضل من الله) .

ولقد أطلنا الكلام في هذا المقام واستطردنا ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول لعلك أيها الاخ فهمت من هذا قوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) فهل أنت رأيت التناسب بعين بصيرتك في هذا العالم كما رأيته بعين البصر في هندسة الاشجار وانتظام أوراقها وأزهارها واثمارها وان كل شجرة تحذو نهج أصلها وكل أم يتبعها ولدها فانواع النبات والحيوان والانسان كل فرع منها تراه يتبع أصله بل الامم يشبه بعضها بعضاً كما في الحديث (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر

وذراعا بذارع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) ولذلك ترى علماء الافرنج يقولون التاريخ يعيد نفسه وقال سيدنا على لولا ان الكلام يعاد لنفد أي أن الافكار اللاحقة تشابه الافكار السابقة (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) فكما تشابهت القلوب والافكار تشابهت الامم وتتابعت وهكذا الافراد من كل نوع فكان الله ذكر هذه الآية وما يماثلها لينبهنا على تشابه العالم وتناسقه وأحكامه وانتظامه لثلاثة أسباب

الاول — انه يرينا حكمته ونظامه وعدله

الثانى — علم أن حياتنا قصيرة فما نسبة الزمن الذى نحن فيه الى جميع الازمنة الا كنسبة الجزء الذي تشغله أجسامنا الى هذا الفضاء الواسع الذى لا يتناهى ولا نعرف آخره فأراد بهذا التشابه بين جميع العوالم علويها وسفليها أن يوقفنا بالجزء على الكل اذ جعل كل جزء من العالم يشبه بقية الاجزاء بل جعل كل انسان وحيوان يشابه العالم كله حتى جعل نظام جسم الانسان كنظام العالم كله ونظام المدينة الفاضلة فكأن روح الانسان في ثلاث ثياب متشابهات ثوب الجسم وثوب الامة

وثوب الملك وكل يشبه الآخر. وهذا ملخص آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى وهو المعلم الثانى. وكانه عز وجل يقول للانسان افهم هذا الجسم الذى سكنته واشبهه العالم كله

وقد مثلت الانسان بقصر مشيد فى مقالة مختصرة فى كتاب جواهر العلوم فأرجع اليه ان شئت. فتأمل كيف أردف الآية المتقدمة وهي قوله تعالى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم بقوله (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) والايقان العلم الذى لا يعتوره شك وهو الذى كان يطلبه من ربه نبينا صلى الله عليه وسلم وكان يقول خير ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وقال فى الثانى وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

الثالث معرفة الجزاء ولذلك قال (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون

انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى انسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادّين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) فانظر كيف كان أول هذه الآيات والوزن يومئذ الحق وآخرها ذكر الحساب عند الرب فاجل نظرك في الحساب المتقدم وكيف رأيته لم يترك مثقال ذرة إلا أحصاها فى أدوار الفلك وقل اذا كان هذا فعله فى الدنيا فكيف به فى الآخرة والحقيقة أن النظام واحد في الدارين لا يتغير وانما هو جلى عند الخاصة خفي على العامة وانظر كيف يقول الظالمون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها . وقال الله فيهم (ووجدوا ما عملوا

حاضراً ولا يظلم ربك أحداً)

﴿ الكواكب ﴾

(مترجمة من اللغة الانكليزيه)

ولندبج كتابنا هذا بما حبره يراع الكاتب الشهير العلامة اللورد (اوفبرى) فى كتابه جمال الطبيعة. قال ذهبت لازور مدينة نابل فقصدت فيزوفيا لاشاهد الشمس وهى تشرق من ذروة الجبل ثم صعدنا الى (المرصد) مساء وقضينا الليل فوق الجبل والسماء فوق رؤسنا صافية الاديم نقية الراحة لم تنتقب بحجاب ولم تتوار بنقاب وكان البحر تحت أقدامنا يتفرع منه خليج ازدان بالانوار ورصع بدرارى الثريات اللامعات والمصابيح المتقدات على شكل نصف دائرة هندسية يكاد سنا ضوئها يذهب بالابصار والقمر والنجوم من فوقنا تزيد الجمال كمالا والبهجة رواء وبهاء فالقمر يرسل أشعته الفضية وينشر ملاءة بيضاء ناصعه كست الماء بهجة وجمالا والنجوم تلألأ في الهواء وتتراقص في جو السماء بانوار وأضواء لن انساها أبداً.

— كم قرون مضت وامم خلت وأجيال قضت وهم يعجبون مما عجبنا ويستعظمون ما رأينا من هذه المشاهد والعجائب السماويه ولم يوفوا جمال السماء وزينتها حق قدرها ولم يقفوا على حقائقها ولا مقدار عظمتها فلم تتناولها آراؤهم ولم تسم الى سماء عظمتها أشعارهم وانما نحن مدينون فى ذلك للعلوم الفلكية

وهل الحيل الميكانيكية اذ اختيرت لمقياس حركة الاجرام السماوية استقر لها قدم أو اعترف لها بمقدار حين ظهر وبهر الاكتشاف المظيم للعلامة (نيوتن) — قال رسكن أن العلوم أرتنا أن السحاب ضباب ذو ثلج ومطر وان الصناعات تيجان من الذهب على رؤس الناس اه . وأنا لا أظن قوله صوابا . ولست أرفع الصناعات الى المقام الذى أنزلها فيه . وانما العلوم والمعارف والذوق والاختبار هى التى أجلها . وأرفع منها مقاما وأعلى منزلة العلوم الفلكية — وكم فى السحاب من صورة عجيبة فما من رجل يتخيل صورة الا وجدها فيه فترى فيها سلاسل الجبال والمدن الفاخرة والعواصف تهب على البحار والطيور الطائرة وأنواع الحيوان على اختلافها وكل شكل غريب الخلقة عجيبها — وهل

يمر علينا يوم ولا تبهجنا السحاب بالوان باهرات وصور عجيبات ثم شرع يتكلم على القمر فقال

﴿ القمر ﴾

القمر أقرب كوكب الينا ولقربه منا يظهر مع مشابهة ما للشمس وهو أصغر الكواكب ولكن لشدة قربه يرى اكبرها

﴿ دورته ﴾

وكما أن الارض بسيرها حول الشمس تقطع دائرة فى السنة فهكذا القمر يقطع دائرة حول الارض فى الشهر واذا دارت أرضنا حول مركزها كل ٢٤ ساعة مرة ونتج الظلام والضياء فكان الليل والنهار هكذا ترى القمر يدور حول ذلك المركز فى الشهر مرة مقابلا لنا بوجه واحد تقريباً

وليس القمر كالشمس وسائر الكواكب يضيء علينا بنوره ويمدنا بضوئه .كلا. فانما نوره من الشمس انعكس عليه منها وتتغير صوره لان الجانب الذى تضيء الشمس عليه ليس المقابل لنا وحده — ومن ذلك ينتج اشكال القمر التى تزيده رونقا

وبهجة وجمالا ومنفعة . من ذا الذى ينظر القمر ولا يعجب لغريب حكمته ويستغرب لدقيق صنعته — نراه أولا هلالا دقيقاً جميلا عجيباً مصفر اللون يرى فى جهة الغرب بعد غروب الشمس ثم يأخذ فى الظهور ابعد فابعد جهة الشرق في السماء حتي يمتلىء نوراً ويوافق شروقه من المشرق غروب الشمس فى مغربها

اذا صار القمر بدراً أخذ في النقص بالتدريج شيئاً فشيئاً الى أن يصل الى التربيع الاخير وحينئذ يرى في السماء صباحاً من الشرق عالياً فوق الافق كما كان يرى قبل فى أول الشهر ثم بعد أيام تمر يأخذ شكل الهلال ثانيا ثم يدق ذلك الهلال فى النقص قليلا قليلا متقاربا جهة الشمس ثم يختفي عن العيون ثم يظهر بعد ذلك قمراً جديداً كما كان أول مرة ويتبع قانونه المعتاد

﴿ المد والجزر ﴾

قدمنا ان القمر يلى الشمس ولم يكن ذلك خاصاً بالجمال بل انه ارفع مزية من سائر الكواكب السماوية واكمل منفعة ألا

ترى انه اذا تلاقي سيره مع سير الشمس وازدوجت حركتهما حصل المد والجزر وما أجل منفعتهما لصناعة الملاحة فى البحار وذلك ان مرافيء البحر وفرضاتها وميناها ترد اليها السفن وتصدر عنها اذا كان المد فان كان جزر انخفض ماء البحر فجرت له الانهر من البر وما القمر والشمس اذ ذاك الا كالعملة الذين وكلوا بقنطرة تحجز الماء بمقدار للسفن وتساعد فى ري الارض تمر من فوقها السيارة ومن تحتها بتدبير أبوابها السفن فتأمل كيف دبر الله ذلك التدبير العجيب فى سمائه وأرضه وهذا سر من أسرار قوله تعالى (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علما) .— وفي القمر منفعة أخرى للملاحين فبه يهتدون للجهات ويميزون الطرق وماينبغي السير فيه ومالا ينبغي (هو الذي يسيركم في البر والبحر)(وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون)

(جغرافية القمر)

جغرافية القمر أصبحت معلومة عند الناس كارضنا بلا فرق فترسم على الخريطات وتدرس بغاية العناية والدقة فترى فيه منظراً عجيباً يرتفع الى درجات في أعلى جوه بهيئة مخيفة وما تلك المناظر يا ترى — تلك المناظر براكين متسعة بطل عملها وترى بالميكروسكوب المتوسط ولعمري انه لمنظر عجيب الجبال شاهقة جداً — أعلى جبال الارض يبلغ تسعة وعشرين الف قدم إرتفاعا وارتفاعها فى القمر يبلغ اثنين وأربعين الف قدم وانلاحظ أن جبال القمر معتبرة من أدنى أرضه انخفاضا وأوطئها انحطاطا أما جبال الارض فانما اعتبروا مبادئها من موازاة سطح ماء البحر -- وكثير من أفواه البراكين متسعة في القمر تبلغ مساحة أقطارها ٧٨ ميلا وكثير منها ذات مخروطات تقريباً تشابه براكين أرضنا ومن العجب أن نرى جبال النار (البراكين) مسدودة الافواه بالحمم البركانية وترى البراكين القمرية كأنها سكن لهيبها وخمدت نارها وهدأت حركاتها وترى الجبال القمرية خالية من علامة حصول تغير فيها والقمر أصغر من

الارض حجا بارد وأسرع منها طبعاً ومن المحتمل أن تلك الجبال قد مر لها الوف الالوف من السنين فهي أقدم من كثير من سلاسل جبالنا

ومن ذا الذى ينظر فى خريطة القمر وغرائبها ولا يتعجب من ذلك المنظر المدهش العجيب البادى على وجهه والحال الغريبة المحيطة به وذلك لخلوه من الماء والهواء

الا ترى أن هذين العنصرين يحيطان بالكرة الارضية فيحدثان الرياح والامطار والرعد والبرق والثلج والبرد فتحارب تلك الحوادث الجبال الشم وتدك الصروح العالية وتبرى التماثيل وتخر لها القصور من أعاليها والمبانى الفاخرة فيجعل عاليها سافلها أليس هذا كله فعل الهواء والماء فلاغرابة اذا هال منظر القمر وسلمت جباله على مدى الايام بلا أدنى تغيير — واعترى جبال الارض التغيير والتبديل. كيف لا وأدنى المطر والرياح يحدث ثلما وتغييراً فما بالك بالعواصف والاعصار والمزن العظام وعلى ذلك بقيت جبال القمر الاف الآلاف من السنين على حالها الى الآن واعترى التغيير جبال أرضنا وماعليها

﴿ عجائب القمر المجهولة ﴾

تعلم يا سيدي أن جبال القمر وجبال نارها انما سميت بهذه الاسماء واعتبرت هذا الاعتبار لما يرى عليها من المشابهة بالمقارنة بينها وبين جبال أرضنا وجبال نارها ولكن الامر العجب الذي وقفت العقول دونه وتحيرت آراء العقلاء فيه ان هناك متسعاً عظيما كقمة البركان يبلغ ارتفاعه ١٧ الف قدم وعرضه خمسين ميلا ينتشر منه الضوء الى جميع الجهات منبسطاً على سطح القمر ممتداً الى مئات بل آلاف الاميال ماراً على السهول والاوديه والجبال وهذا أمر عجيب فياليت شعري ما منبع هذا النور وما سبب سيره وامتداده هنا وقفت عقول البشر ولم تدر ما كنه هذه الغريبة اه . أقول ان جرينا على أصوالهم المرعية وأقوالهم الاساسية سهل الجواب وذلك انهم يقولون ان الارض محشوة ناراً وان البراكين تتفجر كينابيع منها ثم قالوا ان القمر غاب عنه العمران ومات منه الثقلان فوقفت الحركة وتعطلت المنافع فانقطعت البراكين وبناء عليه نقول ان في جوف القمر كرة من نار كما في أرضنا فانشق القمر بزلزله عظيمة اندكت

لها الاركان وخضعت لها السكان وقامت قيامتهم فشع النور من هذا القسم الواسع والهوة العظيمة واذا يخرج بنفسه الى جميع الجهات أما ذلك الارتفاع فانما هي تلك الحمم التي قذفها والجبال التي نثرها

﴿ الشمس ﴾

لنفض فى الكلام على الشمس ناهجين منهجنا من اقتباس آراء العلماء في كتاب جمال الطبيعة للعلامة اللورد افبرى ثم ننظر كيف كانت هذه العجائب المكتشفة من خفايا التنزيل وانها معجزة له فنقول

الشمس أبعد من القمر عن الارض ٤٠٠ مرة وهي كرة لامعة قوية لا تقاس حرارتها بفرن عظيم فى أرضنا وهي اثقل من الارض ٣٠٠ الف مرة وأوسع منها مليون مرة وقطرها ٨٦٥ الف ميل وتدور حول محورها ما بين ٢٥و٢٦ يوماً وبعدها عن الارض ٩٢٥٠٠٠٠٠ ميل ومع هذا كله فالشمس ليست في مصاف الكواكب الكبرى وانما هي من النجوم المعتادة

على سطحها أعاصير وزوابع ملتهبة بالنار العظيمة قد تصل في ارتفاعها عن سطح الشمس ٣٥٠ الف ميل ثم تعود كأن لم تغن من قبل وقد لاحظوا أن الارتفاع المعتاد لتلك الزعازع والاعاصير أن تصل فى الثانية الواحدة مائة ميل والنهاية القصوى العادية ١٠٠ الف ميل ارتفاعاً

﴿ معجزة للقرآن في آخر الزمان ﴾

ذكر في التنزيل (اعصار فيه نار) ولم نشاهد هذا الاعصار على سطح الكرة الارضية واظهر الاكتشاف الاوربي ان أعاصير الشمس ملتهبة بالنار ومعلوم ان الاعاصير رياح هائجة متلاقية فى مكان واحد تعلو الى جو السماء فانظر كيف ظهر ان الاعاصير النارية على سطح الشمس المرسلة أشعتها عرفاً تباعاً الى الارض ممازجة لعناصرها فهذا القول وان لم يكن جيء به على الشمس فانما فيه رمز الى أن في العالم أعاصير مزجت بالنار لها اتصال بكم وبساتينكم المذكورة فى الآية قبلها ولو شاء لسلطها عليكم فأحرقت زرعكم اذا لم تخلصوا في أعمالكم كما يعلمه

من فهم الآية قبلها

﴿ حرارة الشمس ﴾

فى معنى الحديث الصحيح يد الله ملأى لا يغادرها نفاد هذه الحرارة الشمسية المرسله لنا من الشمس حيرت علماء هذا العصر فأخذوا يجدون في البحث عنها

مضت ملايين من السنين والشمس ترسل أشعتها تباعا ولم ينقص منها قليل من الحرارة ما هذا المنبع الذى لا ينفد

ولو كانت الحرارة باحتراق عناصرها لنفدت فى القرون الاولى ولم تبق فى الوجود اكثر من ٦٠٠٠ سنة — فاختار بعضهم ان هناك شهباً تتساقط عليها تكسبها ما أربحته وقال آخر ان قطر الشمس ٨٦٥٠٠٠ ميل والشمس تجمد دواماً فينقص القطر كل سنة ٢٢٠ قدما

﴿ منافع الشمس ﴾

أقسم الله بالشمس وكررها في مواضع كثيرة ليرينا عظمته وحكمته ويأمرنا بالنظر والفكر في خليقته وإلا بقينا فى الذل

خالدين هل كان يكررها الله فى القرآن عبثاً وباطلا . أم كان ذلك لحكمة تذكيرنا وايقاظ عقولنا لما به رقيناوسعادتنا فى الحياة وهو النظر والعلم والتعقل ألم يكن الاحرى بنا أن نكون السابقين الى هذه المباحث الشريفة . حق على أمة تركت دينها أن تخضع لمن هو أعلى منها مقاماً وأرفع شأناً ونحن بحثنا نريد احياء خطة السلف فنقول

الشمس ذات حر ضوء تحيا بهما أجسامنا وتهتدي عقولنا ألم ترها تجتذب الماء من البخار بحرارتها فيزجى سحاباً فتمطره فيملأ الانهار ويعيش بمائها النبات والحيوان الشمس تثير الرياح بحرارتها فتنقي الهواء وتسير الفلك في البحر بهاتجرى سفن البخار وقطار الحديد إذ الفحم الذى يحترق فيهما انما هو ما خزنته يد العناية الالهية فى الارض احقاباً طويلة فى الاعصر الغابرة وفى تلك الفحم المطمورة قد خزنت الحرارة الشمسية لتبقى لمنافعنا

جعل الله عزوجل الشمس بحرارتها منعشة للطيور فتغرد على الاغصان ملونة الازهار منضجة الفواكه منمية الاشجار

فالشمس صنعها الله جمالا لصور المخلوقات وأشكالها ناقشة لها مرقشة لازهارها وألوانها نافعة لنا في غذائنا وشرابنا وملابسنا ولعموم حياتنا ولكل شيء نافع فى وجودنا وبقائنا.

﴿ عجائب الشمس ومعجزة للقرآن فى تركيبها ﴾

في ابتداء القرن التاسع عشر أخذ العلماء يبحثون عن تركيب الشمس وأول ما عرفوا أضواءها السبعة المتحللة بقوس قزح وبالمنشور البلورى وبكل جسم شفاف لطيف كالماء ثم رأوا أوسط تلك الاضواء خطوطا سوداء تتخللها ثم أخذوا ينظرون في اضواء العناصر الظاهرة فى أبخرتها فأعدوا لها عدتها وقارنوا بين الاضواء العنصرية الارضية وبين نظائرها فى الشمس بعلامات فى الخطوط المركبة منها تلك الحزم الضوئية فأول ما عثروا عليه ان رأوا مشابهة بين أضواء الصودا وبين نظائر لها فى ضوء الشمس وهكذا اخذوا يرون عنصراً بعد عنصر الى ٣٦ ولا ريب ان العناصر المعلومة في الارض الآن تربو على السبعين ومن العجب انهم رأوا أضواء في الشمس لعنصر

لم يروا نظيره في الارض فسموه عنصر الشمس ثم عثروا عليه في النوروج وكان ذلك انتصاراً باهراً للعلم والحكمة واستنتج من ذلك من باب الظن والفكر ان الاضواء الشمسية التي لم تعرف معادنها فى الارض والمعادن التى لم تعلم أضواءها في الشمس لا تمنعنا من القول بأن الشمس مركبة من العناصر التى فى الارض تقريباً اه . ونحن نقول أنت تعلم من هذا أن هذه البراهين غير قطعية وانما هى فراسات وحدسيات توجب الاطمئنان فمن ذا الذى يخبر تلك الارواح الطاهرة فى برازخها فطاحل علمائنا العظام كالفخر الرازي والغزالى والزمخشري والسيد والعضد ويقول لهم ان بناءكم قدتم تشييده ورفع عماده فلقد حاربتم فلاسفة اليونانيين الذين زعموا أن العالم قديم وهذه الكواكب لا تتغير ولا تتبدل فهى خالدة فرددتم عليهم وحاربتموهم بالقرآن (كل من عليها فان) فيا أيتها الارواح الطاهرة هاهى آراؤكم أصبحت الآن منظورة بالمنظار المعظم وأضحى الاكتشاف الحديث معجزة للكتاب المقدس ألا فاتقر أعينكم فى برازخكم .

﴿ معجزة أخرى للقرآن ﴾

العالم يناسب بعضه بعضاً بل هو كجسم انسان واحد وحيوان واحد ولابد من أن يكون بين أجزائه تناسب ولولا المناسبة بين الارض والشمس لم تقبل الاولى من الثانية ضوءها ولا حرارتها ولم تدر حولها فهى مركبة تركيبها (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) اه

﴿ نظام الكواكب وترتيبها ﴾

علم الحكماء من مبدء أمرهم ان هذا العالم نظام واحد كانه حيوان أو انسان رتبت أعضاؤه ترتيباً محكماً ولما كانت الكواكب والشمس والقمر هي الاعضاء الرئيسة لهذا الجسم وجهوا أنظارهم اليها في ابحاثهم علهم أن يعثروا على قانون يصلها أو حساب يجمعها فوصلوا الى تلك النتيجة فى علم الفلك وعرفوا قوانينها وحسابها ثم نظروا نظرة فى النجوم من حيث وضعها فى المكان وعرفوا انه كما ان العينين والاذنين والحاجبين والهدبين والجفنين والمنخرين والخدين واليدين والكتفين والثديين والجنبين

والرجلين موضوعات في أجسامنا وضعاً هندسياً بحيث أن الخطوط الواصلة منها الى السطح الموهوم القاسم للجسم (المسمى فى الهندسة محلا هندسياً) القاسم له من أعلى الى أسفل طولا تضحى تلك الخطوط مساوية كل لنظيره فلو قسم رجل بسيف الى قسمين قسمة متساوية من أعلى الى أسفل لوجدت هاته الاعضاء كل منها يصل الى ذلك الوسط بخط مساو الى خط نظيره فهكذا فلتكن للكواكب رتب محفوظة فى أوضاعها وابعادها ومداراتها وترى انهم يحاولون ذلك ليرجع العالم كله الى نسب موسيقية يستلذ بها العقل كما تستلذ الاذن بالاصوات المنتظمة (ان شئت فاقرأ مقالة النغمات والعلوم فى كتابنا النظام والاسلام) ولعمري أن الله مدبر العالم وهو واحد فالعالم واحد حتى أن أفلاطون جعل هذا برهاناً على وحدانية الله فقالوا ان هذا العالم واحد وكل كوكب منه عضو من أعضائه فمدبره واحد يشير اليه قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) (يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه) (لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس) فقارن بين خلق الناس وخلق

السماوات والارض وفرق بينهما بالكبر والصغر لا غير .

وهاك ماقرره علماء الاسلام فى أوضاع الارض والكواكب قالوا معلوم أن الارض كرة وهى مركز العالم (على المذهب القديم) فاذا قدرنا قطرها ثمانية كان قطر الهواء تسعاً وقطر القمر ١٢ وقطر فلك عطارد ١٣ وقطر فلك الزهرة ١٦ وقطر فلك الشمس ١٨ وقطر فلك المريخ ٢١ ١/٢ وقطر فلك المشتري ٢٤ وقطر فلك زحل ٢٧ ٤/٧ فهى هكذا

الارض	الهواء	قمر	عطارد	زهرة	شمس	مريخ	مشترى	زحل
٨	٩	١٢	١٣	١٦	١٨	٢١ ١/٢	٢٤	٢٧ ٤/٧

وقالوا هناك نسبة بين الارض والقمر وبينها وبين الهواء والزهرة والشمس والمشترى اذ فلك القمر مثل فلك الارض مرة ونصفاً والهواء مرة وثمنا والزهرة مرتين والشمس مرتين وربعاً والمشترى ثلاث مرات وأما الثلاثة الباقية وهي عطارد والمريخ وزحل فليست نسبها محمودة (اذ المحمود مثل النصف والربع والثمن) فقيل عنها انها نحوس هذا ماقاله علماؤنا جارين على مذاهب اليونان ناهجين مناهج النسب المعربة عن النحوس والسعود

ولاذكر لك مارسمه الافرنج لتطلع على آراء الشرق والغرب
في النجوم وتأمل كيف اتحدت الوجهة واختلفت النتيجةلتعلم
أن جميع العقلاء يرمون الى غرض المعرفة سواء أوصلوا الى
النتيجة أم لا وجميعهم حكماء — ذكر (أوفبرى) فى كتابه جمال
الطبيعة ناقلا عن العلامة (بود) قانوناً سموه (قانون بود) ذلك
القانون لم يتم انضاجه ولم تكمل تجربته فلا يزال عمل نظر وفكر
وذلك أن كل كوكب يبعد عن الشمس ضعف ما قبله زيادة
ثابتة ماعدا الاول . ايضاحه اننا اذا فرضنا أن عطارد بعده عن
الشمس ٤ فبعد الزهرة ٧ والارض ١٠ والمريخ ١٦ وفى بعد ٢٨
متسع عظيم ومنطقة مشغولة بكواكب أخرى يعبرون عنها
(زون) تبلغ نحو ٣٠٠ محاطة بأخرى صغيره كأنها ذرات لا تكاد
تتميز اكتشفها العلامة (بيزي) وكلها كواكب سياره صغرى
من أجمل مكتشفات هذا العصر في المسافة العظمى بين المريخ
والمشترى وكان ذلك فى أول يناير سنة ١٨٠١ أي نحو قرن

ثم المريخ ٥٢ وزحل ١٠٠ هذا هو القانون الذى رسمه
(بود) وأكمله (بيزى) يريك ان بعد كل كوكب عن الشمس

مضاعف لما قبله بزيادة ٤ وهو تقريبي وها أنا أريتك قول الفريقين الشرقيين والغربيين لتعلم أن كل امرء عاشق للوقوف على أسرار الخليقة ومحب أن يشهد نظام الله المتقن ليكون من أولى العلم المعبر عنهم فى آية (شهد الله انه لا إله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم) فها هو القسط والعدل وهو الوضع المنظم المتقن المحكم (حكمة بالغة) (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) (الذى أحسن كل شيء خلقه) (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الخ) وها نحن أرجعنا البصر كرتين كرة بالبصر وأخرى بالبصيرة أو بالاحرى مرة بالحس وأخرى بالعقل فبالنظرة الاولى شاهدنا قبة زرقاء مرصعة بكواكب تبلغ ثلاثة الآلاف بالعين المجرده عن الميكروسكوب ومئة مليون بالنظر في الصور الفيتوغرافية المأخوذة عن صورة السماء ولم نر فيها عوجا ولا امتاً بل هي ملساء لا شقوق فيها ولا فطورا وبالنظرة الاخرى وهى الفكرية

عرفنا حساب منازل الشمس والقمر والكواكب ورأيناها مفصلة تفصيلا حسناً جميلا موضوعة وضعاً باتقان مرصعة في تلك الاماكن الشاسعة بابعاد ملتئمة متناسبة لا ترى في حسابها فطوراً ولا شقوقاً وهذا هو الذى يشهده المقربون الذين يشربون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم ومن حرم من هذا فقد حرم لذة النعيم في الحياة

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

هنالك مبدأ الحياة السعيدة وخطوات فى الفردوس والزفاف الى الجنات

فياعجبا كيف وضع كل كوكب على ضعف ماقبله وكيف يقول علماؤنا ان وضع الكائنات وضع موسيقى وذلك أن الصوت اذا كان له نسبة مع صوت آخر وتألف لحن فلا جرم يكون بينهما نسبة شريفة كالثمن والربع والنصف أو الضعف أو أربعة أضعاف وهكذا والا كان التأليف بين الصوتين مشوشا واللحن مزعجا وبنوا على ذلك كواكب النحس والسعد بما عرفت من النسب ثم جاء الافرنج وظهر لهم نسب محفوظة

بقانون لاتغيير فيه تقريبا فانظر كيف هام علماؤنا وعلماؤهم وحكماؤناوحكماؤهم ووضعوا الارصادولزموا السهاد فى طلاب ذاك الجمال والبهاء والحسن والبهجة والنور في تلك القبة الزرقاء فجل الله جلالا وعز جمالا ألا فاتجدفى ذلك ان كنت من أهله

واذا كان بعد عطارد عن الشمس ٣٦مليونا ميلا كما قاله العلامة أوفبري) فمعرفة ابعاد باقي الكواكب عنا وعن الشمس يسهلها عليك قانونه المرسوم الذى ذكرناه

﴿ السياره ﴾

تأمل فى اختلاف الكواكب صغرا و كبرا و كيف كان بعضها صغيراً جداً حتى انه يصغر عن ارضنا وآخر أ كبر منها بمئات بل آلاف و كيف تدور هذه كلها حول الشمس

﴿ عطارد ﴾

هو أقرب كوكب من الشمس قد يظهر صباحا ومساء تحت شعاعها مستحياً من طلعتها لقربه وصغره وهو أصغر من الارض بنحو ٢٤ مرةوسنته ٨٨ يوماً

﴿ الزهرة ﴾

الزهرة تسمى عند العامة (فريحة) ويعبرون عنها بنجمة الصبح والمساء إذ تراها تشرق آونة فوق الافق بعد غروب الشمس أو قبل شروقها ظاهرة باهرة وسنتها ٢٢٥ يوما

﴿ الارض ﴾

وترى الارض ساكنة هادئة وهي تمر مر السحاب تدور حول محورها كما تدور العجلات المتحركات في الآلات البخارية فى كل ٢٤ ساعة مرة ومحيط دائرتها عند خط الاستواء يبلغ نحو ٢٤ الف ميل وعلى ذلك ترى الرجل الذى على خط الاستواء يتحرك فى الساعة جاريا مع حركة الارض الف ميل أو ١٦ ميلا في الدقيقة ومن العجيب أن تكون الشمس والارض والسيارات جارية الى جهة مجهولة ونقطة مبهمة (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) وهذه الحركة التى ذكرها القرآن واكتشفها الافرنج تصل في الساعة ٢٠ الف ميل أو اكثر من ٣٠٠ ميل فى الدقيقة وترى انها تسير سيراً حثيثاً فى ذلك محيطة

بالشمس يتكون بها السنين الشمسية التي منها السنة القبطية والافرنجية وعليها مدار الزرع والحصاد فى دائرة تبلغ (٥٨٠) مليونا ميلا وعليه فنحن نسير حول الشمس في الساعة نحو(٦٠) الف ميل أو الف ميل في الدقيقة هذه المقادير نقلتها لك من كتب العلامة أفبري المعاصر لنا فتأمل كيف ترى نفسك ساكناً وأنت سائر (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) وكيف نكون ساكنين هادئين ونحن فى الدقيقة تجرى بنا الارض ١٦ ميلا الى جهة و ٣٠٠ ميل الى أخرى والف ميل الى سواها فياعجباً كيف نكون مستقرين متحركين وما أغفل الناس عما عليه هذا العالم من الحسن والبهاء وما أجهل الكثير منا بتلك العجائب والغرائب فياليت شعرى أنكون متحركين مستقرين ولعلك تفهم من هذا سر قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء) فالارض وما عليها من الجبال والبلاد تتحرك حول الشمس فى الدقيقة الف ميل والناس يحسبونها جامدة وتأمل سيدي (قلة) المدفع إذ ليست تزيد سرعتها عن ١٠ أميال فى الدقيقة فانظر كيف كانت

حركة الارض مثلها ونصف مثلها فى حركتها اليومية وفوقها ثلاثين مرة فى حركة المجموعة الشمسية ومائة مرة فى الحركة السنوية حول الشمس فتأمل حركة القلة وقد ضوعفت مائة مرة كيف تكون السرعة بل لا تكاد ترى وهى تمر أمام بصرك

لعمرى ان هذه العجائب لما تحار فيها العقول فالحمد لله الذى من علينا بالحياة حتى متعنا بالنظر في عظمة صنعه وحسن اتقانه وغرائب أحكامه في مثل هذا فليجد المجدون وعليه فليتنافس المتنافسون

﴿ المريخ ﴾

وهل أتاك نبأ المريخ أقرب كوكب لارضنا إذ يبعد عنها بما يبلغ ٣٥ مليونا ميلا بلون محمر وكما ان الارض لها قمر فله قمران سموهما (فوبس Phobos) (وديموس Deimos) وهو اكبر من نصف الارض قليلا وهو وان بعدت مسافته من الارض فهو أقرب الينا من سواه فأمكن العلماء أن يحكموا بوجود ماء على سطحه وتكليل قطبه بلون أبيض ناصع يحسبونه ثلجا كما في أرضنا ويرينا وجهه خطين (series)متوازيين مجهولة حقيقتهما وخاصتهما

﴿ زحل ﴾

ان زحل نجم من النجوم السيارة المعروفة قديماً يقطع محيط دائرته فى (٢٩ سنة) باجماع علماء العرب والافرنج وزحل يقارب المشترى في حجمه ولكن يظهر للناظر بلا مناظر مقربه نجما لامعاً صغيراً والعلامة (جاليليو Galileu) نظره فى المنظار المعظم فحسبه ٣ نجوم على خط واحد فجاء (هيجنس Huyghens فى سنة ١٦٥٥) فرآه كوكبا محاطا بثلاث حلقات أوسطهن مفصولة من الوسط بخط مظلم وترى تلك الحلقات تعطى زحل زينة وجمالا جردت عنه سائر النجوم

﴿ المشترى ﴾

المشترى يدور في فلكه نحو ١٢ سنة باتفاق الجميع ويبلغ قدر حجم كرتنا الارضية ١٢٠٠ مرة بحيث اذا اجتمعت السيارات كلها كان المشترى وحده اكبر منهن حجما ويرى على وجهه أجرام لامعة كانهن احزمة تحيط به ربما كانت سحابات تمطر كسحابنا ويؤخذ مما تقدم ان للارض قمرا وللمريخ قمرين وللمشتري أربع ولزحل ٨

﴿ أورانومس uranus ﴾

فى١٤ شهر مارس سنة ١٧٨١ (ويليم هرسيكل) نظر فى الرصد اذا قرص هذا الكوكب ظاهر جلى فبحث قطره فاذاهو ١٣٧٠٠ ميل وقد اكتشف له أربع أقمار وفيها أمر عجيب ترى كل قمر يدور حول كوكبه في سطح واحد كالقمر حول الارض أما أقمار أورانوس فانها تدور على زاوية قائمة كقمرنا مثلا اذا دار حول الارض من الجنوب الى الشمال مع انها تدور هى من المشرق الى المغرب وهذا أمر عجيب

﴿ نبتون Neptune ﴾

هو آخر كوكب يدور حول الشمس وطول قطره يبلغ ٣٣٠٠٠ ميل وبعده عن الارض نحو ٢٧٨ مليون ميل

هذه هى الكواكب التى علمها العلماء تابعة للشمس دائرة حولها

﴿ فصل ﴾

فبعد ما فهمت ما تقدم تعرف معنى كل آية ذكر فيها اختلاف الليل والنهار والشمس والقمر والحساب والميزان والقسط وكيف أقسم الله بهذه الاجرام المنيرة وما نتج عنها وما حكمة هذا القسم حتى اذا قرأت القرآن فهمته فهم العلماء الكبار بتدبر وتحقق

الكواكب الثابتة وأعدادها وأضواؤها وابعادها

هل أتاك حديث ماسطره يراع العلامة اللورد (أف برى) وما دبجه فى نقوش السماوات فقال تنظر ليلا فترى عدداً عظيما من تلك اللوامع وفى المثل عد النجوم كذرات الرمال (كما ان الناس هكذا فى كل أمة يضربون بها الامثال فى الكثرة) وقد عدها بعضهم فألفاها تبلغ ٣,٠٠٠ ثلاث آلاف نجمة بالعين المجردة من الآلات فاذا استعنا بالآلة المقربة (التلسكوب) بلغت مائة مليون نجمة — أما الآلة المصورة الفوتوغرافيا فلها شأن أجل ومقام أرفع توضح الاشكال وتظهر الصور وتميز فيما بينها وذلك ان الضوء المنبعث من الكواكب اذا لاقي العين

مجردة ارتسم عليها فى الثانية الاولى ما تستعد العين لقبوله وكلما
توارد ت اضواء أخرى لم تزد الرائى وضوحاً بل تكل العين
وتضعف الباصرة شأن الحواس الخمس فيما أقنعها من محسوساتها
لكن الآلة الفوتوغرافيا تقبل فى الثانية الاولى ما تقبله عيوننا
مجردة وكلما ورد عليها ضوء زادت اتضاحا فينجزن الضوء فيها
وتتضاعف قوتها حتى تقبل في الساعة من الضوء ما تقبله فى
الثانية الواحدة ٣,٦٠٠ ثلاث آلاف وستماية مرة فاذا رفعنا
غطاء الآلة المصورة ساعات متتابعة فتعرضت للنور فلن تفقد
مما ورد عليها بل تحفظه فيها غير منقوص ولو كان ذلك في
ليالى ذوات عدد متتابعات فضلا عن ليلة واحدة فتفيدنا تلك
الآلة ما به يقصر دونها وضوحا أى تلسكوب في العالم. العين
وتلسكوبها ومصوراتها لم تصل الى معشار عشر ما فى السماء
من كواكب قصرت دونها تطاول الاعناق ومد الابصار
ونصب الآلات

علم القليل من الكواكب بعد هذا العناء والشقه وهذا
الذي علم قد ادهش العلماء بعداً وضوءاً وقدراً واحكاما فترى

امثال نجمة سيريز Sirius (النجمة اليمانية) اثقل وزنا من الشمس
عشرين ضعفا وتفوقها ضوءاً بما يقدر خمسين مرة متضاعفة
بالنسبة لها أما بعدها فأمر عجيب فلقد ترفعت وتناهت في
أقطار السماء حتى كانت أبعد من الشمس بمقدار مليون مرة
فالعجب العجب من هذه الحكمة الباهرة والعظمة الظاهرة
والبهجة الباهرة والقوة الحاضرة حكمة أدهشت العقول وازاغت
الابصار وحيرت الحكماء وكيف يكون بعد الشمس عنا يقدر
بنحو ٩٠ مليونا من الاميال ويصبح بعد شمسنا المدهش المهول
كانه متر نقيس به ابعاد الكواكب فنقول إن هذا الكوكب
يبعد بمقدار هذا البعد مليون مرة . هذا ثم ان هذه النجمة تظهر
للناظر انها ثابتة لا تتحرك فى اقطار السماء ومع ذلك فهى تجرى
بسرعة الف ميل في الدقيقة الواحدة سرعة تقطع دونها سرعة
الوهم وجولة الخاطر وحركة الضمير ولمحة الكهرباء وترى امثال
نجمة السيون AIcyone ونجمة فلكتر (Flecter) ونجمة ميا (Maia)
فهذه الثلاثة الانجم ابهج ضوءاً من شمسنا هكذا بالتوالى
١٠٠٠ مرة ٤٠٠ مرة ٤٨٠ مرة ونجمة كوريسيس (Carryises)

٢٥٠٠ مرة اكبر من الشمس ضوءاً والاعجب من هذا كله والأغرب نجمة اركتورس(Arcturus)فهي اضوء من الشمس وانور منها بما يبلغ ٨٠٠٠ مرة وهى تجرى في الثانية الواحدة ٣٠٠ ميل واكبر منها عشرين مرة وتبعد عنا بعداً عظيما حتى ان نورها لا يصل لنا الا في ٢٠٠ سنة ولقد تعلم ان ضوء شمسنا يصل لنا في ٨ دقائق و١٨ ثانيه وبعدها يقدر بتسعين مليوناً من الاميال فياليت شعرى كيف يكون مقدار بعد هذا! وعلى ذلك فجمسنا ليست من النجوم الكبيرة وكيف وقد علمنا ترفع جميع نجوم السماء ان تتناولها آلاتنا او يصل اليها فهمنا لعظمتها وبعدها ولم نصل الا الى نزر يسير منها ثم ما وصلنا اليه مع قلته الفينا منه هذا الكوكت الذي برعها وسبقها فكان اضعافها ٨ الاف مرة فكيف يكون ضوءه وما تأثير حرارته وما اقماره وارضه وسياراته وانسان اراضيه وحيوانها اعمرى ما اصغر شمسنا وما احقر ارضنا وما اقل علمنا وما اضعف مدنيتنا (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) دعنا من هذه الكواكب المعلومة والنجوم المرسومة في كتبنا وتأمل في تلك المجره التي تراها

في الليالى الصافية وأنت تنظر فى أديم السماء الازرق فتراه مرصعاً بهيئة جميلة كأنها سحاب مستطيل مسافات يخترقها يمينا وشمالا يسميها العامة عند المصريين (طريق التبانه) أى الذين يبيعون التبن وعلماء الفلك الشرقيين المجرة وعلماء الانجليز كما يقول اللورد (الطريق اللبنى) وعند علماء الدين الاسلامى (أبواب السماء) ومهما اختلفت الاسماء فلندعها ولتنظر لجوهرها فنقول انها عبارة عن كواكب ترفعت فى السماء وهربت فى أقطارها وكبرت ان نراها فصغرت في العيون شأن الاجرام المتباعدة وتناهت فى الصغر حتى وصلت الى ذرات كأنها ذرات اللبن أو الماء لاتتميز من بعضها مهما حاول الناس بعين أو تلسكوب أو منظار أو آلة مصورة مع ان كل ذرة منها شمس كشمسنا أو أعظم بملايين وربما كان لها سيارات وأرض وتوابع ونيازك فالعجب العجب (ويخلق ما لاتعلمون)

﴿ مسئلة تشحذ اذهان الرياضيين فى الفلك ﴾

بعد الكواكب يعرف بأحد أمرين

فان كان قريباً كالسيارة فطريقته أن يرصده اثنان من مكانين مختلفين على سطح الكرة الارضية وتقاس الزاويتان اللتان بين الآلتين الراصدتين والارض وعليه فيكون المثلث معلوماً واذا علم زاويتان والضلع بينهما فقد علم المثلث ومتى أمكن رسمه على الورقة سهل وبناء على تشابه المثلثات يعرف المثلث الاكبر ويعرف الارتفاع وبهذه الطريقة عرفت السيارات حول الشمس

الطريقة الثانيه — أما الكواكب الثابتة فلبعدها الشاسع تكبر أن تميز بالعمل السابق لصغر أرضنا حتى ربما كان الرصدان متوازيين فى مصرين مختلفين هكذا (اا) وعليه اضطر علماء الفلك الى متابعة سير الارض حول الشمس فينظرون الكوكب في رأس السنة وبعد مضي ثلاثة أشهر يبصرونه مرة أخرى فبالطبع يرسم خط مقاطع للاول عند الرصد وفي ثلاثة الاشهر الثالثة خط آخر وعند الانتهاء خط رابع فتتقاطع تلك الخطوط لاختلاف نسبة الارض في الوضع بسيرها حول الشمس في

الفصول الاربعة فهي تقطع دائرة قطرها ١٨٥,٠٠٠,٠٠٠ ميلا ومتى وصلت الشمس الى رأس ستة اشهر كانت المسافة بين وضعيها ١٨٥ مليونا ميلا فيمكن مقياس الزاويتين والضلع المحصور بينهما مفهوم فيرسم على الورق وبعبارة تشابه المثلثات يمكن معرفة الارتفاع بالضبط وهنا لطيفة وهي انهم بعد انتهاء السنة ورسم خطوط اربعة متقاطعة تتكون عند رؤوس الخطوط بعد التقاطع دوائر اخرى تكبر كلما قرب الكوكب وتصغر اذا بعد وعليه القاعدة (بمقدار بعد الكواكب تصغر الدائرة والعكس بالعكس)

وعلى ذلك فبمعرفة مقدار الدائرة السنوية لسير الارض حول الشمس كما تقدم تعرف ابعاد النجوم الا ترى اننا بهذا يمكننا على الاقل ان نرسم مثلثا قاعدته قطر الدائرة السنوية المعلوم مصغراً والزاويتان تكونان معلومتين ومتى رسمناه عرفنا ارتفاعه وبطريقة تشابه المثلثات يمكننا معرفة المثلث الحقيقي وارتفاعه وهو المطلوب

واذا امكن رسم المخروط على الورق عرف ارتفاعه ويرجع للنسبة كما تقدم فى المثلث ثم ان الراصدين لا يزالون يقيسون

ابعاد الكواكب ما دامت متميزه ثم تصل الى درجة لا يمكن تميزها ويكون الوضع متحداً مع ذلك الفرق الشاسع وهو نحو مائة وخمسة وثمانين مليونا ميلا فلا تميز الكواكب اذ ذاك ولا تقاس كما اوضحنا فى الكلام على المجرة وهنا يقال لا يمكن معرفة اكثر الكواكب والله يعلم وانتم لا تعلمون فتأمل هذا الموضوع وحققه

﴿ الباب الثالث ﴾

الكلام على نظام الارض وما عليها

من نظر الى الكرة الارضية نظراً سطحياً لم يخطر بباله انها وجميع ما عليها موزونة بموازين حسابية مقاسة بمقاييس هندسية تابعة انظام عمومى ولكن انظر الى العلوم تعرفك انها جارية بحساب عجيب . واذا كان تجاذب الاجسام التي عليها وسقوط الاحجار من أعلى المنازل والسقوف وذبذبة البنادل كلها جارية على نواميس لا تتغير مصداقا لقوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) فما بالك بسيرها هى ودورانها حول نفسها وحول

الارض كل ذلك عرفه العلماء ودونوه في تآليفهم (ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولاأكبر الا في كتاب مبين) ثم اتبعها بما يشير الى أن من عرفوا ذلك هم المقربون المحبون لربهم بقوله (الاإن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) وكيف يحزن العالم بهذا الكون أويخاف وقد أطلعه الله على ابداعه فآمن ايماناً صادقاً فصار فى لسان الامم حكيما وفى لسان الشرع ولياً فلذلك أعقبه بذكر سبب عدم الحزن بقوله (الذين آمنوا وكانوا يتقون) ولاجرم أن ذلك يورث العز فى الدنيا والجاه فيها وفى الآخرة فلذلك قال (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الاخرة) وهذا قانون لايتعداه خالقه فلذلك قال (لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) ولاشرح شيئا من هذا النظام فأقول.

الحجر ينزل من أعلى الى أسفل بقانون واحد على حسب مربع المسافة فينزل فى باريس فى الثانية الاولى ٩ر٤ متراً أربعة أمتار وتسعه من عشره أى تسعه ديسات وفى مصر أقل ضرورة لقربها من خط الاستواء فاذا قطع فيها فى الثانية

الاولى أربعة أمتار ففي انتهاء الثانية الثانيه كان ٤ × ٤ = ١٦ متراً واذا استمر عشرة ثوان قطع ٤٠٠ متراً فتربع ١٠ تكون ١٠٠ مائه ونضربها فى الاربعة المفروضة وهذا قانون لايتغير ولا يتبدل كما انه بنزول الاحجار الساقطة وغيرها على الارض عند خط الاستواء تقل سرعتها جداً وتأخذ في الزيادة الى القطبين وهكذا الموازين تخف عند خط الاستواء وتثقل عند القطبين وما بينهما درجات متواليات بعضها فوق بعض فانظر كيف اختلفت هذه المقادير كما اختلف الليل والنهار من خط الاستواء الى القطبين (ولذلك خلقهم) فكيف بعد هذا الاختلاف العظيم مع هذا النظام العجيب نظن وقوف العالم على درجة واحدة ومن أين تظهر القدرة والحكمة

هذا الذى ذكرته في سقوط الاجسام من أعلى الى أسفل فاذا اعتبرت جسمين يقتربان كفلينتين على وجه الماء وتأملت اقترابهما كانسانين اقترب أحدهما من الاخر اذ الجنس يحن الى جنسه فى كل شىء من حيوان ونبات وجماد ولكنها في الحيوان تسمى حبا وعشقاً وحنينا وهكذا وفى الجماد تسمى جذباً (ما

تري في خلق الرحمن من تفاوت) فترى هاتين القطعتين تقتربان بقانون عجيب وذلك انهما اذا كانت المسافة بينهما متراً مثلا كانت السرعة في التقارب اكثر منها والمسافة بينهما متران بمقدار أربعة أى على حسب عكس المربع اذ المربع بينهما متر واحد واذا كان بينهما متران كانت السرعة بعكس هذا المربع فأعطى تربيع الثانى للاول والاول للثاني واذا فهمت هذا فقس عليه ما اذا كان بينهما ثلاثة أمتار اذ تكون السرعة أقل من السرعة الاولى تسعة أى ٣×٣ واذا كان بينهما اربعة امتار فهى أقل ١٦ واذا كان بينهما خمسة فهى ٢٥ وفى ستة ٣٦ وفي سبعة ٤٩ وفى ثمانية ٦٤ وهكذا الى ما لا يتناهى (صنع الله الذى أتقن كل شيء) واذا كان الله بصيراً بعمل الاحجار الساقطة وبالاجسام المتقاربة فما بالك باعمال العباد (انه بما تعملون بصير) وفي الحقيقة لو تأملنا القانونين لوجدناهما واحدا اذ لا فرق بين حجر ساقط وجسمين متلاقيين لحالة البعد فيهما واحدة وقانون الاقتراب واحد فتأمل (ان ربك حكيم عليم) . ثم ان الموازين التى يزن بها نوع الانسان امتعته تابعة للميزان العمومي فى السموات

والارض ولقد ذكرناه واوضحناه في كتابنا ميزان الجواهر ولكن اردنا هنا ان نبين ان الذراع الذى فوق اللسان الدال على الاعتدال اذا كانت جهتاه متعادلتين كالميزان الذى عند الباعة كان الرطل الموزون يعادل رطلا نظيره من معدن ونحوه فاما اذا طالت احدى الجهتين وقصرت الاخري كميزان القبان (والجهة الصغرى اسمها ذراع القوة والكبرى ذراع المقاومة) وذلك ان القوة عبارة عن الشيء الموزون كالقطن مثلا والمقاومة عبارة عما يعادله من المعادن فله قانون وذلك ان المقاومة دائما عكس ذراعها فاذا كان ذراعها قدر ذراع القوة عشر مرات كانت هي أقل من القوة عشر مرات وان كان ذراعها اكبر مائة مرة كانت اقل من القوة أيضاً مائة مرة فاذا كانت هي عشرة ارطال كانت القوة الف رطل وهكذا فانظر كيف امكن الانسان وزن اشياء كثيرة بمعادل قليل مع ناموس حق لا يتغير

ثم لننظر الى البندول وهو عبارة عن خيط او حبل او معدن طويل فى آخره قطعة من الرصاص او غيره تعلق في مكان شروطه مخصوصة ويترك يذهب ويجيء من نفسه متذبذبا

مضطربا فان هذا له حركات منظمة في اوقات معينة كما يتذبذب
بانتظام ورق ذلك النبات الذى على نهر الكنج فى كتابنا جواهر
العلوم. وكما انتظم سير الشمس والقمر فى ما تقدم فى كتابنا هذا
وكما هو شأن العالم كله فانه على احسن نظام . الحمد الله الذى
هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله فاذا نظر الى
البندولين اللذين يتحركان في مكان واحد تجد زمان حركاتهما
واحداً اذا كانا متساويين فان اختلفا كانت ذبذبتهما على حسب
جذر طولهما فاذا كان احدهما طوله اربعة والآخر ٩ تذبذب
الاول فى ٢ والثانى في ٣ والمعنى ان الحركات المتساوية عدداً
كخمسة مثلا تقع من الاول فى ٢/٣ من الثانى هذا اذا اخذنا
بندولين فى مكان واحد واذا عكسنا بان اخذنا بندولا واحداً
فى اماكن مختلفة كانت سرعته على حسب عكس الجذر التربيعي
لشدة الثقل اذ معلوم ان الثقل يكون اكثر كلما قربنا من القطبين
واقل كلما قربنا من خط الاستواء . فاذ كان البندول فى النوبة
مثلا قوة ثقله «١» وفي بلاد الروسيا قوته في الثقل «٤» تحرك
فى الاولى حركات فى «٢» الذى هو الجذر التربيعى لاربعه

وتحرك في الثانية تلك الحركات بعينها فى «١» الذى هو الجذر
التربيعي لواحد والنتيجة ان البندول الواحد فى الاماكن المختلفة
تكون سرعته على حسب عكس الجذر التربيعى لشدة الثقل وبعبارة
اخرى يكون فى الجهات القطبية وما والاها لشده ثقله مناسبا
للجذر التربيعى في الجهات الاستوائية وهكذا بالعكس

فانظر الحكمة الالهية كيف اقتضت اعتبار طول الروافع
ومربع المسافة فى الحجر النازل وعكس المربع في الجسمين
المتجاذبين والجذر فى البنادل المختلفة في المكان الواحد وعكس
الجذر فى البندول الواحد فى الاماكن المختلفة فانظر كيف اعتبر
الطول والمربع وعكسه والجذر وعكسه فما اعجب هذه الحكمة
التى هى من الموازين التى قامت بها السموات والارض وهذا
من معنى قوله تعالى ووضع الميزان واى ميزان اعجب من هذا
الميزان ولاعد عليك هذه الآية والسماء رفعها ووضع الميزان
الا تطغوا في الميزان واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان
والارض وضعها للانام فيها فا كهة والنخل ذات الاكمام جمع كم
وهو الذى فيه الطلع والحب ذو العصف اى التبن وذلك كالقمح

والشعير وجميع الحبوب والريحان هو المشموم او الرزق فباي آلاء ربكما تكذبان فانظر كيف صدر الكلام بالميزان واعقبه بذكر الارض اذ هي موزونة قبل ما عليها ثم اعقب هذا بذكر النخل وانواع النبات وهي موزونة وزنا محكما عجيبا وسأذكر لك ميزان النبات وعجائبه بارقى وابهج مما ذكرته في جواهر العلوم وميزان الجواهر ولاطلاعك على دائرة الوجود مترتبة منتظمة من العناصر الارضية الى المعادن الى النبات والحيوان والانسان واريك كيف انتظم وقدر كل شيء مع ما اكتشفه المحدثون ايضاً من وزن العناصر الداخلة في اجسام النبات بميزان لا يتغير ولا يتبدل لتفهم من كلام الاوائل والاواخر معنى قوله تعالى وانبتنا فيها من كل شيء موزون وترى كيف كانت الارض وما عليها كلها جارية على القوانين الحسابية وجذرها وتربيعها وكيف كان ما في عقولنا كامنا وان لم يوجد هذا العالم فاصبح امامنا رأى العين وعرفناه في العلوم وقد كان جميعه مشتقا من اصل واحد وهي المادة كما ان الحساب كله من اصل واحد وهو الواحد وهذا اشارة عجيبة لطيفة لقوم يعقلون فيعرفون خالقهم

وتوحيده وان له يوما يحاسب الناس فيه كما ترى عالمه محسوبا موزوناً (الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)

﴿ القطبان ﴾

(مترجمة من اللورد افبرى بتصرف جميل)

القطب الشمالى والجنوبى لهما تأثير عظيم على العقول وكل محاولة فى الوصول للقطب الشمالى طاحت وهكذا الجنوبى بل أنه أشد نفوراً

فى القطب الشمالى لم يصل پرى (Bary) الا الى درجة ٨٣ وفى الجنوبى لم يجاوز أحد ٧٨ درجة و٩ دقائق

وبينما نرى ألا أحد يمكنه ان يحدث عما ضمنه القطب الشمالى ويؤمل قوم ان يكون هناك مجرى مائى نري من وجه آخر آمالا اتجهت الى القطب الجنوبى بل اقصاه وفتق الخيال لها ثقة اكبر من سابقتها

تسير المراكب فى البحار وتمخر الاقيانوس الشمالي فلا ترى

الازرقة الماء تصافح زرقة السماء وقد تصادف جزيرات قليلات تمر عليها يوماً اوبعض يوم ولا تزال سائرة حتى توافى بناء عالياً ليس من الطين او الحجر ولا الخشب او القصب. بناء تقصر القياصرة ان تمد اليه يداً . أشد بياضاً من القمر وابهى جمالا من الجوهر . عنصره الماء لا الفحم (مادة الماس) ، من جو السماء نزوله . وعلى الارض قصوره ، ولا أخالك ألا عرفت بناءه وقرأت من سطورنا خبره (ذلك هو الثلج) — تستشرف بعينك هناك فلا ترى الا فلاة بيضاء ، وارضاً تفخر على السماء والعجب أن سطح الكرة الارضية يزدان ببهجة البساتين والحقول الخضراء. قف على جسر خليج أو نهر ومد بصرك في الخريف أو الربيع فلا ترى الا خضرة نضرة ثم تارة تنظر فتراها سوداء جرداء وآونة تسرح الطرف فلا ترى الا بياضاً محمراً فى الصحارى والقفار فان ركبت الجواري المنشئات رأيت زرقة مدى البصر فاذا سرت الى القطب الجنوبي ألفيت الثلج كما ذكرناه يعلو على سطح البحر مابين ٥٠ و٤٠٠ قدم كانه جبل شامخ

فلو رأيت ثم رأيت ثلوجاً تنزل حيناً فحيناً فتترا كم طبقة

طبقة حتى اذا بنت بناءها. وأحكمت أساسها. ورفعت قصورها رأيت أرضاً من الثلج أبهى من القمر. وأجمل من بهجة الدرر، يلوح للناظر مداه. ولا يدري اذ ذاك الاه، يظن أن النجوم الراقصات في السماء اقتطفت من جبالها. أو القمر اشتق من سهولها، وكانما تنظر لها النجوم من جو السماء شاكرة نعماءها ويراها دواما تلد قطعاً كبيرة. وكتلا عظيمة. كسفينة تنفصل منها. وتعوم على الماء

ذلك فى الاقطار الشمالية أما الجنوبية فقد تلاحظ فيها جبالا شامخة تنفصل من تلك الارض الثلجية — ما أجمل تلك المناظر وأبهاها. وأبهجها وأحلاها،

وترى جبال الثلج الشامخات فى الاقطاب الجنوبية تبلغ ارتفاعها ٨٠٠ قدم أو الف قدم وربما بلغ ميلا فى الارتفاع عند الشاطىء في سمت السماء عند سطح الماء، فترى أصله في الماء ورأسه فى السحاب، ومن عجب ان يكون بناء الماء اقوى ثباتاً وأمتن من بناء الارض ولكم ضرب الناس أمثالا بعدم الثبات بالبناء على الماء فعكس الامر وقلب الوضع وربما يشير بطرف

خفي لذلك قوله تعالى (وتري الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) اوقوله(وينزل من السماء من جبال فيها من برد) حقيقة هذه جبال من البرد اوالثلج انزلت من السماء

وقال ابن العربى قد كشف لى فرأيت أرضاً تسمي أرض السمسمة خلقت فيها المستحيلات والحق ان هذه الدنيا عجائب وغرائب ومن لم يحس فى نفسه ويشعر فى قلبه بالسعادة العلمية في الدنيا والراحة بهذا النظام فاتعده ممن لا يعقلون

قال كرول Crool اذانظرنا الثلج وراء ماعرفناه بنصف درجة رأيناه يبلغ ارتفاعاً عن سطح البحر ١٢ ميلا

﴿ خاق عجيب ﴾

قال السير جيمس روس James Ross انه كان يقيس زاوية عند جبل في الجنوب اذ رأى فجأة جزيرة اخذت تكبر شيئا فشيئا تدريجا حتى تكاملت جبلا ثلجياً عائما ولم يزل يعتورها التغير والتبدل حتى تكونت ارضاً علاها الطين والحجر ومع ذلك لم يكن ليشاهدها من قبل ان رآها بنحو ٣ ساعات او ساعتين.

﴿ اختلاف القطبين منظراً ﴾

ترى الاقطار الشمالية القطبية ذات اراض كثيرة وقلت فيها الاراضي الثلجية وفي الجنوبية عكس ذلك نرى الارض فيها قليلة وكم فيها من قمم وجبال وحقول واراض

﴿ الكلام على دائرة الوجود ﴾

وفيه ذكر المعادن والنبات والحيوان والانسان بالترتيب الاكمل والنظام الاجمل . من اعظم مايميز العلماء من الجهلاء مزية ترتيب الوجود المسمى في عرف الفلاسفة دائرة الوجود اذالانسان اذا نظر لهذا الكون اول وهلة لايخطر بباله الا انه لا نظام فيه ثم يرى فى نفسه شوقاً الى الوقوف على نظامه اذ هذه لذة ليس لها غاية بل هى نهاية اللذات وهي ايضاً لانهاية لها فهي نهاية ولانهاية لها وهى كجنة عرضها السموات والارض تعجل لذوى البصائر في الدنيا قبل الموت وهى ثمرة العقل الذى مدحه صلى الله عليه وسلم بقوله اول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فأدبر ثم قال وعزتى وجلالى ما

خلقت خلقا هو اعز عليّ منك بك آخذ وبك اعطى وبك اثيب وبك اعاقب الخ. وقد ورد ايضا انه وصف رجل بالعبادة عند احكم الحكماء سيد الانبياء عليه الصلاة والسلام فقال كيف عقله فقالوا ليس ذاك فقال لا يرجى صاحبكم او ما هو معناه فها انا اشرح لك دائرة الوجود ليرتسم في ذهنك معرجا على الكليات اذ الجزئيات لانهاية لها فأقول.

من قرأ كلام الاوائل والاواخر من فلاسفة الاسلام والاوروبيين وجد بينهم اختلافا كثيراً ولسنا نريد نقل الاقوال وطول الشروح والاقاويل فهاك مااستخلصناه منها.

اعلم أن الله عز وجل علم هذا الخلق قبل وجوده وهذا من بديهات العقول انه يستحيل أن ينظم الصانع صنعته الا اذا علمها من قبل فالمهندس اذا أراد بناء منزل نظر فى علمه فتصور أشكالا من البيوت كثيرة وهذا هو العلم ثم نظر بعلمه فيها فاختار أحسن وضع يناسب وهذا هو الارادة ثم أبرزه فى الخارج بالفعلة والبنائين وهذه هي القدرة

اذا فهمت هذا المثال وعرفت أن كل صانع لا يمكنه أن

تقوم صناعته الا بهـذه الثلاثة وهي العلم أولا والارادة ثانياً والقدرة ثالثاً فلو انتفى العلم أو لم تكن الارادة استحال طبعاً أن يوجد فى الخارج ذلك المصنوع كما ثبت فى مثالنا والا فاين تكون حجرات النوم وموضع الطبخ والخبز وغير ذلك .واذا كانت جميع أعمال النوع الانسانى والحيواني على هذا المنوال فاعلم أنها طلسم يدلنا على فعل خالقها اذ هى نموذج للعالم بأجمعه فمن صنع هذا العالم كان فى علمه كل مستحيل وممكن وواجب كما برهن عليه الحكماء لتجرده سبحانه عن المادة بالبرهان القطعى ثم اختار أعلى وضع وصنع على مقتضاه هذا العالم فكان أول ما خلق المادة لا ترى ولا تحس ولا تلمس ولا تذاق ولا تشم وانما تعقل مناسبة للعالم العقلى وهى المادة المعبر عنها بالاثير لم يعرفها العقلاء الا بالعقل وهى الحاملة للضوء وللحرارة وهى الموصلة للتلغراف بلاسلك لشدة صقلها وتموجاتها بشرارات الكهرباء فتماوج كما يتماوج الماء والهواء وتذهب الامواج الى الموضع الذى فيه آلات الاستقبال ثم لعل هذه المادة هى المعبر عنها فى الشرع بالدخان (ثم استوى الى السماء وهى دخان) وفي

كلام الطبيعيين بالمواد الغازية لشدة لطافتها وعـدم حسها ثم تكاثفت هذه المادة بالدوران أو غيره حتى تكون الهواء ثم الماء ثم الارض ثم اخايت مواضع على سطح الكرة الارضية لينبت فيها النبات ويدب الحيوان وتتكون المعادن. واعلم أن البسيط في الخلق دائما مقدم على المركب فالمادة الملتهبة بسيطة جداً وكل ماتركب منها فهو مركب عنها فالماء والهواء والارض مركبات ولكن ليس لها عظيم فضل اذ في الامكان بعد أجمل منها اذ خلق الحكيم العليم المعادن وجعلها مراتب أدناها مما يلي الارض كالجير والشب ونحوها ومعنى معدن مايعدن أي يقيم بالارض من الانواع غير النامية ثم تأخذ فى التدريج شيئاً فشيئاً من حيث الشرف والعزة الى أن تنتهى الى معادن الرصاص والنحاس والحديد والقصدير والخارصين وأعلى مرتبة منه هى الفضة والذهب والبلاتين والاحجار الجميلة مثل الياقوت. فتأمل كيف كانت المعادن متفاوتة درجات بعضها فوق بعض أدناها ينفع فى بناء الاماكن ونحوه وأعلاها يكون قاضياً بين الناس فى معاملاتهم كالذهب والفضة أوعلى التيجان والنحور كالياقوت

وغيره وهنا (أمر عجيب) في العلم فان القدماء قالوا فى الارض والماء والهواء انها بسيطة ولكن المحدثون حققوا انها مركبة وهو الحق إذ نحن شاهدنا ان الماء تحلل الى اكسوچين وهو جسم هوائى محي واودروجين وهو جسم مميت هوائى بتسلط تيار كهربائي على الماء وهكذا البقية . فلا مراء في هذا التركيب بعد العيان والمشاهدة .

فهذا ملخص كلام الاوائل والاواخر فى ذلك أما المعادن فقد قال الاقدمون انها مركبة فمثل النحاس والقصدير والذهب قالوا انها مركبة من الزئبق والكبريت تكونت فى ظلمات الارض احقاباً طويلة وهـذا ربما يشهد له ان الارقى فى الموجودات اكثر تركيباً وأوسع ادوات واكثر آلات من الادنى ولكن علماء اوروبا الذين برعوا فى الآلات جداً وتقدموا فى كل شيء حكموا ببساطتها وجعلوها عناصر مستقلة ولله في خلقه شؤون ولعل فى المستقبل غرائب تظهر الناس على حقائق لم نعلمها الآن فانظر كيف حكم المتأخرون ببساطة ما كان فى زعم القـدماء مركباً وتركيب ما زعموه بسيطاً (وفوق كل ذى علم عليم)

ومن العجيب ان قوما بأمريكا ضغطوا على الفضة فصارت ذهبا بالضغط العظيم جداً وهذا يقرب من كلام الاقدمين حيث زعموا ان الفضة لو ترقت صارت ذهبا والمعادن عناصرها متحدة هـذا ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول . ويلى اعلى رتبه في المعادن ادنى رتبة في النبات ليتصل العالم بعضه ببعض وهي النباتات الفطرية التى تنبت من الطل والندى فى اواخر الليل وتكون ضئيلة لاصقة بالارض لاتتميز الا بالمنظار المعظم فاذا جاء الهجير نشفت ورجعت الى التراب . وهذا النبات يسميه العلماء معدنا نباتياً اما كونه معدنا فلانه لم تظهر له اوراق ولا ازهار ولا غيرها فهو كالمعدن الذى لا ينمو بل يبقى على حال واحدة وأما كونه نباتا فلانه نما نمواً قليلا جداً فله شبهان كما علمت ويليه في الرتبة نبات اسمه الكمأة ويسميه العامه (عيش الغراب) أوخبزه وهذا النبات يعلو يسيراً ويكون كالمظلة (الشمسية) وهو سريع الزوال ويسمى نباتا معدنياً اذ هو أقرب للنباتية منه الى المعدنية اذ هو أرقى مما قبله ثم لا يزال النبات يترقى درجات بعضها فوق بعض الى أن يصل الى أن يصلح لاكل الحيوان

منه كالسعدان والكلاء فهذه نباتات صلحت لتغذية النوع الارقى منها وهو الحيوان وهذه فضيلة لم توجد فيما قبله

ثم تزيد هذه المرتبة شيئاً فشيئاً الى أن تصل الى ما يعتنى به الانسان لخدمة الحيوان ويحافظ عليه كالبرسيم وهذه فضيلة ليست فى غيره كحشائش البوادي والشوك وغيرها اذ هذه كلها تنبت بنفسها بل كثيراً ما يزيلها الانسان لتخلى له وجه الارض وأرقى من هذه ما يصلح لاكل الانسان والحيوان معاً كالفول والشعير فانهما جعلا لاكلهما وهذه فضيلة لم تكن في البرسيم . ثم اذا ارتقى النبات عن هذه الدرجات كلها اختص بالانسان فكان منه أقوات كالقمح ومنه ملابس كالقطن ومنه أخشاب لمساكنه ومنافع ومآرب لا تحصى من اثاث المنازل والسفن وغيرها وهنا بحر لاساحل له فترى النبات مراتب بعضها فوق بعض فنها مالا ساق له وهو المسمى نباتا ومنها ماله ساق وهو المسمى شجراً والشجر ارقى من النبات فهذه مرتبة اخرى لتفاضل الثمار والاشجار

ومعلوم أن من الشجر ما يتحات ورقه شتاء ومنه ما لا

يرتفع كثيراً ومنه مايبطىء فى الارض وأن جميع الزرع والشجر فيه ذكر وانثى وقد أوضحناه في كتبنا وزهرة هـذا الكتاب فارجع اليها إن شئت اذ هناك تفصيل تلك الجزئيات. اذا علمت هذا فاعلم أن من النبات مايتميز ذكره عن انثاه ولانطيل بذكر الانواع وانما نقول أن النخل شجر يبقى ورقه صيفاً وشتاء وهو غذاء وفاكهة وحلوى لنوع الانسان قد تميز ذكره عن انثاه وهو مرتفع جهة السماء طويل المدة ثمره باق بعد جذاذه نافع كثيراً وهذه صفات لا تجتمع فى غيره وانما تكون متفرقة وزد على ذلك انه يموت اذ قطع من رأسه وهذه صفات تكاد تقربه من الحيوان اذ الحيوان يبقى في الصيف والشتاء على حاله ويموت بقطع رأسه وتميز ذكره عن انثاه فالنخل لو ترقى عن هذه لكان حيوانا وهذه آخر مراتب النبات وهو يتصل بأول مراتب الحيوان ثم اعلم أن النبات نوعا من الحس الا ترى الى شجرة تسمى السنط الحساس ويسمونها المستحية اذا لامسها الانسان انضمت أوراقها ولعلك قرأت فى كتابنا جواهر العلوم ذلك النبات الذى يأكل الحيوان كما أكل الحيوان النبات. كل هـذا

لاشك أنه بحاسة وزد على ذلك أنك ترى أن غصن العنب مثلا اذا وضع على حبل لم يكد يحيد عنه يمنة أو يسرة واذا كانت شجرة فوقها ثقب وبجانبها نور تراها مالت بفروعها الى جهة النور فهذه علامات دالة على ان له حساً ولذلك تحير العقلاء قديماً وحديثاً في الفرق بين الحيوان والنبات اذ لم يمكنهم أن يقفوا عند حد مخصوص وهم معذورون فى ذلك اذ العالم كله سلسلة واحدة أو دائرة متحدة ولم يخلق للنبات مع هذا الحس ألم والا لخلق له قوة دافعة بهرب أو بطش كما للحيوان كما أنه مسخر للحيوان وجل الله أن يعذب المسخر المذلل بمالا فائدة فيه اذ تلك القوة لا فائدة فيها فى النبات اذ هو مقصود لغيره فلهذا خلق الالم في الحيوان ليدفع ما يضره . اذا علمت ذلك فاعلم انهم اعتبروا ان أدنى مرتبة في الحيوان ماله حاسة اللمس فقط كالمحار (الصدف) الذي فيه الدر فى أعماق البحار وكل علق أو دود مخلق فى خل أو حب أو ثلج أو في بطون الحيوانات الكبيرة فان هذه كلها ليس لها الا حاسة اللمس فقط فترى الدودة في المش تسبح ولا سمع لها ولا بصر ولا شم ولا ذوق

وانما تمتص بجرمها المواد التى حولها بالقوة الجاذبة التي هى سارية فى أنواع الحيوان وهكذا العلق في الطين

فتأمل كيف لم تخلق له الحواس اذ لا لزوم لها اذ تلك الحيوانات تأكل مما حولها وهى لم تخلق الا في أوساط مناسبة لاغذيتها وما السمع والبصر والذوق الا للتمييز واذا كان كل ماحولها ملائما فلا لزوم للتمييز (وان من شيء الا عندنا جزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) ولقد ذكرنا فى كتابنا جواهر العلوم ان أجمل وأبهج المخلوقات تكون من أضعف الاشياء وأحقرها كالدر من أدنى حيوان البحر والعسل من أحقر الحشرات والحرير من أخس حيوانات البر فانظر التقسيم العجيب مع الحكمة الغريبة وكيف قسمها على البحر والبر والجو (صنع الله الذى اتقن كل شيء) وقد فصلنا الكلام هناك تفصيلا يسرك فارجع اليه ان شئت وأرقى من هذه الحيوانات ما له لمس وشم وذوق وهى الديدان الذى تخلق على الاشجار لتأكل منها وارقى منها ما له سمع وشم وذوق ولمس وهى الحيوانات المخلوقة فى الظلمة فتشم الطعام ثم تذوقه لتأكله وتحترس من عدوها بحاسة.

السمع اما خاسة البصر فتكون عبثاً ثقيلا عليها بلا فائدة فاذا ترقينا عن هذا وجدنا ماله الحواس الخمس كلها وهذه طبقات بعضها فوق بعض فمنها الحيوانات التى لا تربى اولادها كالاسماك والبعوض وانما اراد الله ان يبقيها فى الكون فاكثر من اولادها معرضة للحر والقر فلا يبقى الا القليل وذلك كالبعوض المنتشر في الارض المسمى عند العامة ناموساً وهذه الاسماك التى تراها فى البحار جزء من كثير من بيض السمك الذى ماتت صغاره فهذا النوع من الحيوان لم تخلق فيه قوة حفظ اولاده فانظر كيف اقتضت الحكمة الآلهية ان يكون كثيراً لتقوم الكثرة مقام الحذق والصبان ويترقى الحيوان عن هذه الطبقة بحفظ اولاده والسمى عليها كالنحل والطيور والحيوانات والانعام فترى النحل يبنى بيوته المسدسة والمنتظمة بتقدير محكم ويربى اولاده وقد اوضحنا الكلام عليه فى كتابنا جواهر العلوم وذكرنا نصوص القرآن مع مشاهدات الناس وما ذكروه فى علومهم فارجع اليه إن شئت وترى الطيور تبنى اعشاشها المنتظمة لتربى اولادها وهكذا الانعام ترضع اولادها ثم هذه الحيوانات مع

حفظها اولادها لم تزل بعد ناقصة إذ لم يمكنها ان تقبل التأديب
والتعليم من الانسان الذى هو سيدها وارقى من هذه حيوانات
تتأدب ككلاب الصيد والطيور الجوارح إذ الانسان امكنه
ان يعلمها ويستخدمها ويؤدبها بادبه فيرسل الطيور في الجو
لتأتى له بما اراد والكلاب فى البر لتصطاد له الغزال وغيره ومع
هذا كله فقد رأيت هذه المراتب قد اعطيت القوة الغضبية
متفاوتة فيها بعضها فوق بعض ولكل منها سلاح يخصه كمخالب
الاسود وانياب السبع وبرثنه وقرون البقر والجاموس وحافر
الحمار فالحافر كالترس والانياب كالسكين والسيف والمخلب والبرثن
كالرمح ومنهاما سلاحه رائحة كريهة تخرج منه كاشرار الناس
الذين يجتنبون لاذاهم كما قال عليه الصلاة والسلام مامعناه (شر
الناس من يجتنبه الناس لفحشه) هذا ولنرجع الى ماكنا بصدده
فنقول ثم تتزايد الحيوانات فى المراتب مرتبة بعد مرتبة الى
أن تقرب من سيدها وهو الانسان لتتصل به كما اتصل أولها
بآخر النبات وكما اتصل أول النبات بآخر مراتب المعدن وكما
اتصل أول المعدن بالبسائط الاخرى ورجع جميع ذلك الى أبسط

الموجودات وهى الكرة الغازية كما قدمنا

ولما كان الانسان جامعاً لفضائل كثيرة جداً لم يتسبين للحيوان أن يجمعها في فرد واحد كما كان في النبات بل قرب من الانسان الفرس بأدبه حتى أن الفرس لتمتنع من البول فى الميدان وبحضرة صاحبها وهذه هى الخيل الصافنات الجياد التى يقول لها العامة (كحائل) حتي ان فرسا ببلادنا بالشرقية مرض مالكها فمرضت وقبل موته بثلاثة أيام أخذت تصهل أشبه بصوت النساء وبعد ان مات ماتت ويقال أن عرب البادوية يعرفون قرب أجل المريض بامتناع فرسه الجيد عن الطعام وقرب الفيل من الانسان بامتثاله الاوامر والنواهى والطيور ذات الصوت الجميل بأصواتها الجميلة والطيور ذات الالوان الجميلة كالطاووس بجمالها والنحل بهندسته والقرد بصورته الظاهرة وتقليده في الافعال والانسان هو الذى جمع جميع ذلك وأول أفقه هؤلاء الذين لايعرفون من اللذات والعلوم الا المحسوسات فهم أقرب الى الحيوانات وهم الذين في أطراف المعمورة من شمال الروسيا شمالا وقوم فى السودان عراة

الاجساد يأ كل بعضهم بعضاً في الجنوب فاذا جئت من الطرفين الى الاقاليم المعتدلة أخذت الفضائل تنمو وظهر الحكماء والعلماء والادباء والانبياء وانتشرت علومهم فى الآفاق وهذه آخر مراتب الانسان ويليه الملك فها أنت شاهدت المراتب بعضها فوق بعض من الكرة الغازية الى مرتبة الملائكه الذين تشبههم أرواحنا بعد الموت فهذه ثمرة العالم كله وهى خلاصته والملائكه هم العالم الاعلى عند مليك مقتدر ومن هناك كان مبدأ المادة التي عبر عنها بالكرة الغازية فهذه هى الدائرة لاأول لها ولا آخر

محبق لانقضي بسلوة تبطلها
كانها دائرة أولها آخرها

﴿ لطائف وبدائع ﴾

اذا تأملت هذه المراتب وجدت كلا منها فيه اشارة عجيبة فالنبات رأسه منغرسة فى الارض اشارة الى أنه منكوس متسلط عليه القسمان الآخران ورؤوس الحيوان متجهات الى الجهات الاربعة اشارة الى علوها على النبات وسلطتها عليه ورؤوس النوع الانساني الى أعلى اشارة الى بلوغها الغاية وقهره للآخرين .

ومن العجيب أنك ترى الانسان يأخذ جميع هذه المراتب فى خلقه فانه يخلق أولا نطفة وهى بحسب ظاهرها لاتنمو كالمعادن ثم تصبح مضغة وهذه حال النبات ثم ينفخ فيها الروح وتبقى كالحيوان والنبات معاً فتتغذى من دم الام المجتمع من دم الحيص كما يتغذى النبات بالماء والعناصر الارضية وتكون رأسه اذذاك على ركبته منكوسة كرأس النبات ثم ينزل الى أسفل عند الولادة ويأخذ يتدرج ويمشي على أربع كالحيوان ويتغذى من ثدي الام فله نوع سعي وقد كملت حواسه فأشبه الحيوان ثم تعتدل قامته ويسعي على رزقه ويقوى عقله وكلما أعطى موهبة آلهية في نفسه أزيل عنه المساعدات التي كانت أعدت له كثدى الام كان هذه كلها اشارات الى أن التمام والكمال انما يكون بالغنى عن الاحتياج اذ كلما ترقى سعى بنفسه ففيه نوع غنى فلو استغنى عن السعى بالمرة ولم يجد جوعاً ولا عطشاً ولا ألماً كانت هذه هى آخر مراتب الانسان (إن لك الاتجوع فيها ولاتعرى وانك لاتظمأ فيها ولاتضحي فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك

لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى الى آخر السوره) فتأمل هذه الآيات وأعرضها على هذه الحقائق تعلم علماً يقيناً لا مجرد تقليد .

وكما أن الانسان أخذ أدوار هذه السلسلة من حيث شكله كذلك نراه أخذها أيضاً من حيث أخلاقه ومعارفه فانه فى أول نشأته عار عن العلم والمعرفة كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) ثم يأخذ درجات الحيوان وتحدث عنده الحمية والغضب كالحيوانات المفترسة وغيرها ويقلد العلماء فيما يقولون كالقرد الذى يقلد الانسان وهذه كلها درجات مرت عليها مراتب الحيوان كما تقدم

﴿ الامة كالفرد ﴾

واعلم أن الامة كالفرد فيما ذكرأو كسلسلة النبات والحيوان. فبينما هى مشتتة فى الفلوات لايحس الفرد بما يؤلم الآخرين

كالبعوض والفراش المبثوث والجراد المنتشر كأمة يأجوج ومأجوج وهم التتر والمغول اذ نراها وقد قيض لها من يجمع شملها ويلم شعثها كما جاء تموجين وهو تيمورلنك الشهير فلم شعثها وحماها من جيرانها فاذن صارت الامة أشبه بالحيوانات اللبونية وبالانسان حين يحس بحب أمه ويبكي لفراقها ثم يأخذون فى تقليد العلوم والمعارف وذلك كالانسان الواحد فى المدرسة وزمن التعليم وكالقرد من الحيوانات وكل حيوان مستأنس عنده خاصة من خواص الانسان فهذه كما ذكرنا هى حال الامة حين تأخذ فى التقدم وتسعى لاخذ آثار الامم الغابره وتتصفح قوانينها وتقلدها في مصنوعاتها ثم تترقى عن هذه المرتبة الى ان تشتغل بالاختراع وتحدث مالم يكن من قبل كأهل أوروبا الآن فانهم مع استمدادهم من أمة العرب واليونان والرومان وغيرها اخترعوا وزادوا وأفادوا وهذه هى نهايات الامم كما ان نهاية الفرد الواحد بعد تعلمه واستفادته من غيره أن يصل الى الاجتهاد المطلق ويفعل مالم يكن من قبل فانظر كيف أشبه الفرد الواحد من الانسان سلسلة النبات والحيوان ثم أشبهت الامة الفرد

وهذا اجمال توضحه العلوم وتفصله العقول ولعلك من هذا فهمت
معنى قوله تعالى ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت وفهمت
قوله وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم
وقوله ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة اذ الفرد الواحد
كالامة بأسرها بل الامة عبارة عن فرد مكرر فهى على مقياسه
وسيتضح لك ان شاء الله تعالى بأكثر من هذا عند الكلام على
نظام الامم اذ بين الكون الالهى وبين الامم تشابه فى النظام
واذا رأيت كتابنا ميزان الجواهر وقفت على شيء من هذا وان
الامة كالشخص يعمل فى صغره لنفسه ماينفعه فى كبره فالامة
لها اعتبار ان أحدهما من حيث ابتداؤها وتوسطها ونهايتها واذا
تصفحت أحوالها وجدتها كانسان واحد . وثانيهما من حيث
التعاون فى الاعمال والتشارك فيها وهى في ذلك أيضاً كأعضاء
الفرد الواحد من حيث تعاونها والجميع تحت مدبر واحد وهو
العقل فى الانسان والملك أو رئيس الجمهورية فى الامة واعلم أن
هذه الاقوال يسمعها الجاهل كأنها من وراء حجاب أما العالم
الناظر فى الوجود فانه يعاينها كأنها مشاهدة له مكشوفة أمام

عينه يبصرها. وها أنت شاهدت ترتيباً حسناً فى المواليد الثلاثة ووقفت على درجاتها وان لها نظاماً عجيباً غريباً وقد أجمع الحكماء على انه لا يمكن بحسب الحكمة أن تخلو مرتبة من المراتب بدون ان يخلق فيها خلق كما رأيت وتوضيحه أن كل درجة كبيرة كانت او صغيرة لابد ان توجد في انواع المواليد الثلاثة فلقد علمت مما تقدم أن كل مرتبة متصلة بما عداها ورأيت أن آخر النبات متصل بأول الحيوان كالنخل وكالحيوان الذي يسمى (الكشوف) ذكرناه فى (كتابنا جواهر العلوم) وهو الذى يتعلق على غيره ويمتص منه ولا أصل له في الارض فقد اشبه الحيوان في تعلقه على غيره كأنواع البراغيث والبق وغيرهما والحيوان له حواس خمس ومن مراتبه عقلا ما له حاسة واحدة وقد وجدت فى حلزون البحر وهى عبارة عن مادة لحمية عليها حلزون صلب وتخرج تلك المادة الى خارج ذلك الحلزون فاذا أحست بشيء انقضبت الى داخل حصنها الواقى لها من الاذى وهكذا ما له حاستان وثلاث وأربع كالحيوانات التي خلقت فى الظلمة فلم تخلق لها الاعين فكل هذه الحيوانات لا بد

من وجودها وهذا قانون سار في الكون كله وعليه كانت السلسلة متصلة بالانسان ومنها القرد ومامعه مما ذكرناه سابقاً. ولقد وقف الجهال عندهذه المسألة الصغيرة وأولهم دروين فان هذا الرجل بدت له بارقة من علم فطار بها فرحاً وتبعه كثيرمن علماء أوروبا واغرار الشرقيين وصاروا يقولون أصل الانسان القرد ثم أخذوا في تشريح الحيوانات ليثبتوا اشتقاقها من أصل واحد مع أن السلسلة قطعاً لا بد أن تكون متصله سواء كان بالاشتقاق أم بغيره ولم اقتصروا على القرد مع أن الذي اقترب من الانسان جملة حيوانات لا القرد وحده غاية الامر أن له الصورة فكان أقرب الى ذوى المحسوسات ثم اعلم أنه لو بقيت حلقة من السلسلة فى الوجود بلا وجود لكان نقصاً اذ الملك اذا لم يكن فيه الناقص كان ناقصاً فلا بد من جميع الدرجات وهذه المسألة الان واقفة على باب القضاء والقدر بل اذا فهمت ما رمزت اليه فهما يقينياً انفتحت بصيرتك لمعرفة سر القضاء والقدر الذى اختلف فيه فريقان أهل السنة والمعتزلة ونظيراهما في أوروبا أيضاً ومع هذا كله فلا يجوز اظهاره ولا افشاؤه ولقد

رمزت له رمزاً في غضون هذا الكلام فمن فهمه اطمأن لكل
ما يقع فى الوجود وعلم ان كل خير وشر هو في الحقيقة خير وعلم
ان كل مرتبة من المراتب الخسيسة راضية فرحة (كل حزب
بما لديهم فرحون) وانهم جعل من بين ايديهم سد ومن خلفهم
سد فأغشى عليهم فلم يبصروا الا ما عرفوا كما قال فى قوم
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة غافلون وفي
آخرين رضي الله عنهم ورضوا عنه ولكل وجهة هو موليها
وفرح بها وأشار الى أعلاها بقوله فاستبقوا الخيرات.

واذا اطلعت على مراتب الناس من اقلهم الى اعلاهم سواء
كان فى علم أو مال أم غيرهما وجدت درجات لا تتناهى وكل
درجة لا بد من وجودها كما رأيت فيما تقدم درجات الليل
والنهار واختلافهما بالزيادة والنقصان من خط الاستواء الى
القطبين بحيث لم تر درجة من الدرجات الا وقد وجدت ليكون
الملك كاملا فهكذا الانسان لا بد من ذلك وتمت كلمة ربك
لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فلله الحجة البالغة فلو
شاء لهداكم أجمعين.

واعلم انه لا بد فى هذا الكون من جميع الطبقات والا لاختل سائرها وكل يخدم الآخر .

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

واعلم ان كل فرد من أفراد هذه السلسلة متقن كما ذكرنا فعروق النباتات وسوقه واغصانه وأوراقه وأزهاره وثماره وقواه الباطنة كلها موزونة بميزان عدل لا يخس شعيرة بمناسبات هندسية لا يعرف عددها وتفصيل مناسباتها وأشكالها الا الله الذي خلقها ولا قدرة لمخلوق على احصائها كما رمز الى ذلك بقوله (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ومع ذلك لا بد لنا من ذكر مثال لنقيس عليه غيره في النبات والحيوان

﴿ الباب الرابع ﴾

فى عجائب النبات

انظر الى النخل تجده محكم الوضع فهذه عروقه الضاربة فى الارض تراها منتشرة وساقها هشاً رخواً وفى باطنها خلاء وتحمل فوقها سعفاً مسدسا كل دور منه ست سعفات كسدس

الخلايا فى النحل الذى شرحناه في موضعه وكالثلج ينزل من الجو مسدسا منتظما وعلى هذه السعف لفائف ثلاث من منسوج غليظ وهو الليف وتلك السعف ورقها مستطيل ولها عراجين قنوان دانية تحمل الثمر وهى في أول امرها في اكمامها ثم تنشق عنها وتبرز للشمس ثم ذلك الثمر تجده حلواً ملونا بالوان صفراء وحمراء ثم يصير رطباً فتمرا فى باطنه نواة فى ظهرها نقطة وفى باطنها حفرة مستطيلة فيها خيط على طولها وحول هذه النواه ترى منسوجا لطيفاً دقيقا كمنسوج الديباج ناعم اطلس لا كمنسوج الخيش الذى هو الليف المحيط بالسعف بل هذا كورق (السيكاره) التى تلف على الدخان ليشرب. هذه مجمل أوصاف النخلة ولكل منها سبب ونتيجة كما هو كذلك كل العالم ولعلك أحببت ان تعرف اسباب ذلك فاقول أما سبب كون عروقها منتشرة دقيقة لا غليظة فاعلم ان النخلة لها أعمال كثيرة مع كبر حجمها وكثرة ليفها وسعفها وعراجينها وغير ذلك ويلزم لذلك طبعا ان تكثر المواد الآتية هى بها من الطين والماء المتمازجة عناصرها في الارض كالاكسوجين والادروجين

وغيرهما من المواد الحديدية والكبريتية والفضية والذهبية كما يعلم بقراءة علوم الزراعة وكما سيذكر عند ذكر التحليل بعد هذا فكثرت تلك العروق لتأتى كل طائفة منها بعناصر غير التى تأتى بها الاخري كما تقسم ملكة النحل اعمالها على النحل (راجع كتابنا جواهر العلوم) وكما تقسمت الاصوات الاتية الى الاذن على اعصاب صغيرة تفوق ثلاثة الاف عصب خارجة من ماء فى حلزونة في داخل الاذن فكل عصب اختص بصوت يوصله الى الدماغ فيحس به كما ذكر في اكتشافات علماء هذا العصر فهكذا هنا في النخل كل طائفة من عروق النخلة توصل غذاء مخصوصا الى فرع من فروعها كالسعف والليف وغيرهما وكانت تلك العروق مجوفه كساق النخله ليسهل ارتقاء تلك المواد الى اعلاها وساق النخله مركب في الحقيقة من خيوط دقيقة فاجتمعت جماعة منها اتصلت بعرق فى الارض ليأتى لها بما تحتاجه وما يلائمها ولو كانت العروق الارضية غلاظا وجمعت الاغذية لصعب على القوة المودعة فيها توزيعها على تلك الخيوط الدقيقة مع كثرتها وتنوع الاغذية على حسب

اختلاف وظائفها. وأما كون ساق النخله هشاً وباطنها كالخالى
وانما فيه عروق فانما ذلك ليسهل صعود تلك الاغذية الى اعلى
النخله اذ القوة الجاذبة تعوقها صلابة الساق عن ايصال المواد
الكثيرة مع طول النخله وارتفاعها وأما كون سعف النخل عليه
لفائف وهو الليف فلما علمت ان ساق النخله رخو فجعل ذلك
ليكون كالحزام يشده الانسان على وسطه ليقوم بالخدمة وهذه
السعف يخاف من سقوطها اذا هبت الريح العاصفة ويتشقق
اذ ذاك ساق النخله ويختل نظامها فانظر كيف كان هذا وضعها فى
النخلة وجعلت عند الانسان مقوداً لانعامه وخيطاً لاسفاطه
(المقاطف) ونحوها فكانت زماما للنخلة ولامتعة الانسان
فالعمل واحد في الحالين (ربنا ماخلقت هذا باطلا) وأما خروج
ثمره أولا في اكمامه فلانه يخرج ضعيفا كجنين الحيوانات فحفظ
هذا فى كمه وذاك فى رحمه أو بيضه (صنع الذى اتقن كل شيء)
فاذا قوى البلح واشتد تشققت عنه الاكمام وخرج بنفسه الى
الهواء والشمس ليتكون بما قسم له من احمر وأصفر لينضج وكل
ذلك لايمكن الا بالشمس المضيئة وحرارتها كالفرخ يخرج من

البيضة والجنين من الرحم كل يسعى لشؤنه بنفسه وكماله وكما
ينشق الجسد عن الروح بالموت فتذهب الى كمالها الذى اعد لها.
ثم أرأيت البلح وعليه عند رأسه كأس صغيرة فقد جعل هناك
ليميز الغليظ من الغذاء الاتى اليه من الساق فى العرجون من
الطيب اللطيف ويجعل الخبيث الغليظ بعضه على بعض فيركمه
جميعا فيجعله فى نواة وأما اللطيف الطيب فيجعله في جرم البلحة
من دبسها وجرمها وأما جعل تلك النواة منقورة من ناحية وفيها
خيط فذلك الخيط ليأخذ المواد المغذيه الغليظة فتجرى فيه وتنعقد
اولا فاولا. وأما النواة فهى مندمجة جداً لا تصلح لمرور الغذاء
فيها وأما النقرة التي فى ظهرها فانما وضعت لتكون محلا سهلا
لخروج النخلة وعروقها عند زرعها فترى ورقتين تخرجان وعرقين
ينزلان ولولا هذه النقرة لما سهل الخروج وأما النسج الذى على
تلك النواة فلأن جرم الثمرة حلو وثمرتها غضة فلو اجتمع
الجرمان لاخذ النواة من جرم الثمرة وتشرب كثيرا من حلاوتها
اذ الجسم الغليظ عادة يستمد من اللطيف اكثر مما يأخذ اللطيف
من الكثيف كالطين يبتل بالماء وهكذا يستمد جرم الثمرة من

النواة فتصير الحلاوة ذات غضاضة فكان هذا النسج محكما ليمنع من ذلك كما وضع بين البحرين حاجزا فترى البحر الملح والحلو متجاورين ولا يختلط احدهما بالآخر (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فباى آلاء ربكما تكذبان) واذا فهمت هذا علمت معنى قوله عز وجل (ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات (طوالا) لها طلع نضيد رزقا للعباد) وقوله (والارض وضعها للانام فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام) (جمع كم وهو الذى فيه الطلع) والحب ذو العصف (التبن) والريحان فباى آلاء ربكما تكذبان) وقوله (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى تؤفكون) فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى انشأ كم من نفس واحدة فمستقر (في الرحم) ومستودع (في الصلب) قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات

كل شيء فاخرجنا منه خضراً تخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه (نضجه) ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) هذه الايات ذكر فيها النخل وقد فهمته وذكر فيها كواكب السماء وهذه مبنى أغلب كتبنا فارجع الى هذا الكتاب وغيره وذكر فيها الانسان وسنذكره فى كتابنا هذا بعد وذكر فيها الحب والفواكه ولنذكر بعض الفاكهة لنقيس عليه غيره فنقول أعلم ان التين جعلت عروقه الارضية خالية الجوف ذات انابيب أما خلو جوفها فللحكمة التي تقدمت فى النخل أى ليسهل اجتذابها للغذاء وهكذا ساقها وفروعها وأما الانابيب فى العروق والفروع فلتساعد القوة الماسكة على بقاء الغذاء فيها لتهضمة الهاضمه وتأخذه المنمية لتعطي كل ذى حق حقه من الفروع والاوراق والازهار والاثمار وهكذا المولده ولقد ذكرنا هذه القوى وشرحناها في كتابنا ميزان الجواهر فتأمل كيف رأيت هذه الانابيب فى هذه العروق المجوفة تجويفاً كتجويف القصب (الا ان هذا أقل) لتساعد

الماسكة وترى الانسان قلد هذه الحكمة العالية فى فعله فوضع السواقي كهذا الوضع فتراها إما ذات أوان مشدودة بحبال وكل من تلك الاوانى أسفل الآخر وهى تغترف الماء من أسفل البئر (وهـذه ذات القواديس) واما ذات خشب له ثقوب في تجاويف بينها حواجز لتمسك الماء أن يرجع الى البئر وهكذا الالة الحديدية (الطلومبه) فقوة البهائم ويد الانسان فى هذه الآلات نظير القوة الجاذبه فى الرمان وغيره غاية الامر أن الجاذبة في هذه الآلات قوى في مواد حسية وتلك قوى خفية لا آلة لها ليظهر الفرق بين قوة الخالق والمخلوق ويظهر الفرق بين الجذبين

ثم اذا نظرت ثمر التين وجدته لا نوى له وذلك ان مادته الاصلية ليس فيها كثير تفاوت من غليظ ورقيق فلم يجب تمييز غليظه من رقيقه ومع ذلك فقد حصل تمييز وهو تلك الحبات الدقيقة ثم وضع عليها منسوج رقيق ليقيها الغبار وغيره من الجو ولا يمنعها حرارة الشمس لتنضج وهذا بخلاف الزيتون فان له مادة غليظة قد ميزت كالتمر وجعلت داخل المادة وهكذا العنب

جعلت عروقه الضاربة في الارض كعروق النخل والتين وهكذا سوقه الا أن هذه لاتقوى على القيام وحدها فجعل لها مبدعها فى تلك الفروع خيوطا لتتمسك بغيرها وترتفع عليه

أما قطوفه فقد جعلت حباتها فى مبدأ أمرها غضة يابسة لا تحتاج الى ما يقيها حر الشمس كطلع النخل الذى يخرج فى غاية الضعف ثم اذا انضج بحرارة الكواكب ميزت مادته فلما قويت القوة الغريزية في النبات على نضجه فهو تلك المادة الحلوة التى نتخذ منها سكراً ورزقا حسنا وجعلت آيات لقوم يعقلون ومالم يقدر على هضمه فبقيت بذورا صلبة وسط ذلك الحب الجميل وهذه هي الحكمة البالغه فان كل شيء لا بد فيه من طيب وخبيث فانظر كيف تميز الخبيث من الطيب وتأمل كيف كان الخبيث له هذا الوصف فى النظر العامى أما في نظر الحكمة فهاك واستمع ماأقول ان هذه المادة التى صارت نواة فى التمر وعجما في التين وحباً فى الزيتون والعنب لولا استعصاؤها على تلك الحرارة لما بقى أصل يزرع مرة أخرى لهذه الشجرة فانظر كيف صار من أحقر المواد أجل المطالب كما خلق من الجاهل الرجل العالم

ومن المواد الخارجة من بطون الحيوان من أرواثها وأبوالها
وغائط الناس من المواد الفاسدة حول البيوت والاماكن الخربة
القديمة جنات وبساتين ومزارع فانظر كيف جعل أقذر ما نراه
مبدأ لاعظم الاشياء وكان هذه الحكمة سارية فى الكون كله
فترى الاشياء الحقيرة تبنى عليها أشرف المطالب كما بنيت الدول
الكبيرة والصغيرة على صغار الرجال والجهلة فاف لمن أصبح يجهل
هذه النواميس ثم أف لمن يصبح كئيباً بعد اذ رأى صنع خالقه
وهو يقول لم خلقت هذه الخبائث ولم كثر الاشرار فى هذا
النوع الانسانى واذا سمع الغيبة والنميمة يقول لم خلق الله
هؤلاء النمامين المغتابين وما علم أن لكل حكمة لاتقل عن حكمة
هذه البذور في الثمار ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول ثم ان
عنقود العنب لم يجعل له كم يقيه كالنخل لما علمت من صلابته
واحتماله ثم جعلت ورقة الشجرة عريضة مغطية له كافية لغطائه
لتقيه الغبار وطغيان الحرارة بل الاوراق على وجه العموم على
الثمار كاهداب العين على الحدقة تذر النافع ليدخل وتمنع الضار
فهي صنعة حارت فيها عقول العلماء وضلت فيها أفهام الحكماء

ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار مع انه زين للناس حب الشهوات من الملاهى والمال والنساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع اشترك فيه الجاهل والعالم ولكنه لذة ضعيفة واللذة الدائمة القوية العالية لذة الفكر والعلم والمعرفة ٠

وهنا سؤالان أحدهما أن يقال لم لم يخلق منسوج على الحب الذي في داخل العنب كما وضع على نوى التمر نقول لان هذا البذر صغير جداً فلم يخف منه على ذلك الحب الكبير مع أن البذر فى داخله مادة زيتية فلم يكن ليجف حتى يشرب من ذلك الحب على ان جرم البذر ليس مندمجا كالنواة بل هو هش فلا نخاف منه الثانى ان العنب والتين والنخل وغيرها يكتفي فى خلقها بفروع فيها كفسائل النخل وغصون الاشجار فأى فائدة لتلك البذور قلنا هذا سؤال لم يخف على تلك الحكمة العالية المدبرة القاهرة على كل شيء وذلك ان هذه الاشجار يخلقها الله عز وجل فى الاودية والجبال والاماكن المتباعدة ولا بد لها من أصل تحمله الرياح والحيوانات أو الانسان بقصد أو بلا

قصد والمياه في الانهار الجارية وذلك لا يكون الا هذه البذور التي يخف حملها ويعظم نفعها أما الاغصان ونحوها فانما جعلت لتسهيل الغرس على الانسان في بساتينه وهو عمل محصور بل الانسان يحتاج الى زرع نخل هذا الاقليم في أقليم آخر فكيف يمكنه الا بتلك البذور فلولا البذور ما رأيت الاشجار فى الجبال والاودية والاقاليم المختلفة ولاقتصرت على أفراد قليله من نوع الانسان ويشق عليه نقلها من اقليم الى آخر والانتشار على سطح الكرة الارضية لابد منه ليم النفع جميع العالم كما انتشر نوع بنى آدم على سطح الارض فأما بنو آدم فقال تعالى فيهم (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ولما كان الانسان لابد من نقله الى الاماكن المختلفة ليستخلفه خالقه على الانواع الارضية وكان ذلك لايمكن ببذر كالنبات فوجب أن يكون بالنقل فكان نقله بالتكريم والتبجيل لا كتلك البذور التى تحملها الرياح أو تحمل في بطون الحيوانات القذرة أو في تراب فان ذلك لاتكريم فيه ولذلك قال ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في

البر والبحر وطرق الحمل معلومة وهي الدواب والآلات البخارية البرية والبحرية فتأمل هذا التكريم. ولما كان عند انتقاله لا بد أن يرزق في الامكنة المنقول هو اليها وجب أن تنقل أرزاقه قبل أن يصل اليها فوضعت تلك البذور التي لا قدرة لها على السعي كالحيوان ولم تكرم كالانسان فتحمل على أظهر الحيوان فوزعت بطرق متناسبة كما تقدم (ذلك تقدير العزيز العليم) فلذلك أعقبه بقوله ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . هذا ومن العجيب أن هذه البذور جعلت غضة لا تصلح للاكل لتعافها النفوس فتبقيها الى الوقت المعلوم ولولا البذور ما أمكن زرع نبات خلا من الكرة الارضية وبقى بذره بعد مئات من القرون. فالبذر يحفظ النوع وينشره مع طول الزمان وتباعد البلدان . أما الاغصان فانما نفعها فى المكان وما يقرب منه غالباً ولا تبقى زماناً طويلا ولولا البذر ما امكن ان يزرع ذلك الرجل الانجليزى حب الحمص الذى عثر عليه في هذه السنة في ناووس فرعون من فراعنة مصر فقد زرع ذلك الحب وما كاد يصدق أنه ينبت فنبت وكان زهره أحمر على خلاف العادة

وحبه كبير وفيه حلاوة وشجره أطول من المعتاد وطار بهذه الحادثة الخبر في جميع الاقطار . وأدرجت في صحف الاخبار

ولو تأملت العالم كله لوجدت كل مخلوق أريد بقاؤه فلا بد له من حافظ عجيب فما من ديانة أوعلم شريف أو خسيس أوصنعة الا وتحفظ نوعاً من الحفظ حتى اذا جاء أجلها ظهرت ونمت كالنبات ينبت اذا جاء أوانه. مثلا ديننا الاسلامى مضي عليه زمن والقرآن لايعرف الا ألفاظه أو المعانى المستنبطة منها الاحكام وبقي محفوظاً فى الصدور

وفى خلدي أنه في هذا الزمن ومابعده سيظهر ويتضح لاولى العلم والفهم وترجع المدنية الاسلامية كما كانت لاول أمرها فبقاء القرآن فى الصدور بلا فهم كالبذر ثم اذ انما كان كازرع . وترى الامة عند ضعف يقينها تفزع الى قسيسها أو أحبارها أو رهبانها فيتخذونهم أرباباً من دون الله أوالى قبور أكابرها فيلتمسون منهم الشفاء والنصر كعامتنا اليوم لا الخاصة اذ هم يزورون للاعتبار والايقاظ والاقتداء وفرق بين الزائرين فاذا هبت من رقدتها فهموا قوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا

إلهاً واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون وتأملوا قوله (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون). فهذه الاعتقادات فى صدور الجاهلين كبذور تبقي بها الى أن يأتى يوم يفهمون فيه الحقائق وهكذا كل صنعة او لغة فترى كتب علم الفراسة وعلم الكهانة والروحانيات بقيت بأيدى الغوغاء من الناس حتى اذا ظهرت أوروبا فاتخذتها علوماً عندها وسمتها عندنا خرافات وهكذا لغة قدماء المصريين لما ذهبت دولتهم بقيت محفوظة عند ضعاف القبط فأخذها عنهم الغربيون فى القرن الماضى وهو التاسع عشر المسيحى وانتشرت اللغة بين علماء أوروبا وأمريكا وهى اللغة الهيروغليفية وهكذا صنائع الامم يبقى لها نموذج فى مبانيها كأهرام الجيزة وبرج ايفل في فرنسا ومنارة بيزه بالبلاد التليانية وهكذا بقيت مكاييل المصريين وموازينهم الى يومنا محفوظة بين أيدى الناس وقد ورد فى التنزيل ماهو كالرمز لذلك كله اذ نص على بقاء القرآن بقوله (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فهو وان ورد فى القرآن فهو كالرمز لبقية ما في العالم ان ربى على كل شيء حفيظ

فلايضيع شيء فى العالم نافع قط قال تعالى (وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض) .

ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول تأمل في أنواع البذور ترانها خلقت غير صالحة للتغذية وذلك وقاية من أكلها ليبقى النوع ثم الاثمار ثم تأمل بقية الاشجار والزروع بفراستك تر العجب العجاب وقس الجميع على النخل والتين وتأمل حال الثمار تجد انها مختلفة اختلافاً عجيباً فمنها ما عليه قشور غليظة منسوجة نسجاً متداخلا مندمجاً كالرمان وفي داخله حبوب قد رصعت على مادة مرة بين حواجز وذلك القشر وقاية لها وتري من قشور الثمار ماجعل على شكل سفطين (مقطفين) مثلا وفى وسطهما مادة لذيذة الطعم نسج رقيق قد وضعت بين حواجز منتظمة وكانها تشبه مخ الانسان وهو الجوز ومنها ماعليه نسج حريري ليقيه حرارة الشمس خشية أن تصيبه فتنشفه كالماء في البرك والمستنقعات وذلك هو العنب . ومنها ماله قشر ذو رائحة عطرية نسج نسجاً غليظاً ووضع مكسراً مبططاً من جهة قطبيه أشبه بالكرة الارضية وداخله مادة على هيئة أقطاع ناقصة

متلاصقة فيها حب عفص لا يمكن أكله بخلاف تلك المادة فهى حلوة وذلك هو البرتقان ونحوه ويقل عنه في الشكل الليمون وبالجملة نظر المتفكر يكفيه فى النظر لهذه الصنعه

وليعلم العقلاء أن التفكر في مثل هذه الغرائب الذ من أكلها بما لا يتناهى عند المتبصر الحاذم .

ومن المدهشات أننا نرى أن المواد الارضية والعناصر الكونية متحدة ومع ذلك يأخذ كل نبات ما يناسبه فيتكون شكله وطعمه ولونه وغير ذلك ومنه ما يصلح للملبس وما يصلح للمآكل والمواد واحدة اختلفت مقاديرها واتحدت أنواعها فخرج هذا قطناً يلبس أو كتاناً أو حريراً وخرج هذا فاكهة وتمراً وعنباً وقمحاً وذرة تبصرة وذكرى لقوم يعقلون.

واعلم أن للنبات نظرين أحدهما نظر الى ترتيب بعضه على بعض وترتيب أشكاله وأثماره وأزهاره أى النظر الى ترتيب الانواع وترتيب الاشخاص وقد ذكرنا لك منه نموذجاً. والنظر الآخر التأمل فى تركيب عناصره التي أخذها من الارض ولنذكر لك منه نموذجاً لتستدل على صنع الله تعالى

وتعرف الحقائق معرفة مشاهدة كما هى طريقة أبينا ابراهيم عليه الصلاة والسلام اذ قال (رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي الآية) وقد تقدم ملخص تفسيرها عند الكلام على السموات. واعلم أن الاستدلال على حكمة اللطيف الخبير انما يكون بأحد أمور ثلاثة. الاول مشاهده حال الرسول في أول نشأته الامية فيظهر جمال الحق فى الكون يشير اليه قوله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض الى قوله ولوشاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا الى قوله والله سميع عليم) وهذه صدر الامة الاسلامية وغيرها من الامم.

الثانى البراهين التى ينظمها العقلاء واليه الاشارة بقوله تعالى (ألم تر الى الذي حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك (وهو النمروذ) اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت) فأتى نمروذ برجلين يستحقان القتل فقتل أحدهما وعفا عن الاخر فلما رأى ابراهيم أن هذا غبي (قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت) أى دهش

وتحير (الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) فهذه الحجة من سيدنا ابراهيم على نمروذ كالحجج التى تذكر فى علم التوحيد التى بين أيدينا اليوم وهي تفيد الاقناع لا اليقين.

الحال الثالثة تنبه الامة بعد نومها ويقظتها بعد غفلتها وخروجها من المشاحنات الى العمل والجد والتحقيق كما نص الله من نبأ عزير والخليل. أما عزير فانه مرَّ على بيت المقدس وقد مضي على خرابه ستون عاماً فقال كيف يحيي هذه الله بعد موتها وتذكر قومه فنام وحماره بجانبه وكان معه تين وعصير فبقى مائة عام ثم استيقظ فرأى حماره عظاما فى جانبه فضم الله بعضها الي بعض .وصار يكسوه العظام لحما وهكذا حتى كسي جلداً وقام ثم راي التين والعنب لم يتغيرا ووجد بيت المقدس قد أصبح عامراً آهلا فقال (اعلم ان الله على كل شيء قدير) وهكذا ماقصه من حكاية سيدنا ابراهيم الخليل وقوله رب ارني كيف تحيي الموتى الخ وهاتان القصتان ذكرتا في القرآن رمزاً الى انه ما بعد المشاغبات والانحطاط الا العمل المقرون بالعلم المقترنين بالتقدم فى الماديات والادبيات كما هو حال الامة الغربية

الان وكما هو الرجاء فى مستقبل الاسلام فانظر كيف ذكر أولا الرسل وصفات الخالق اشارة الى مبدإ الامة ثم اتبعه بذكر الحجج عند الاختلاف اشارة الى مايقرب مما نحن عليه الان ثم ذكر كيفية تركيب المتفرقات واحياء الموتى وذلك هو وقت استيقاظ الدولة ونظرها فى الكون علما وعملا لتتحقق من العلم بالصنعة والصنائع وتأخذ خطها من المدنية اذ تكون مطمئنة على كل شيء كاطمئنان الخليل ومستيقظة استيقاظ العزير المقارن لعمارة بيت المقدس ولننجز ما وعدنا به ذكر نبذة من تحليل النباتات نقلا عن مجلة الجمعية الزراعية الخديوية ومدرسة فن الزراعة الصادرة فى شهر أغسطس سنة ١٨٩٩ ونذكر تحليل القطن والقمح والبرسيم اى أشهر ملابس الانسان ومطاعمه ومطاعم البهائم

عناصر	قطن	قمح	برسيم
بوتاسا	٣٥ر٥	٣١ر٥٤	٣٤ر٦
صودا	٣ر٦٤	٢ر٦٦	١١ر٤
جير	١٤ر٦٣	٣ر١٤	٢١ر٦
مغنيسيا	٨ر٧٨	١٢ر١٠	٤ر٥
حمض فوسفوريك	٨ر٣٤	٤٨ر٥٠	٥ر٣
حمض كبريتيك	٧ر٧٧	٠٠ر٠٨	٤ر٢
سلكا	٨ر٢٢	١ر٨٨	٣ر٨
كلور	٦ر٣٧	٠٠ر١٠	١٣ر٩

وهاك جدولا آخر جامعاً لا كثر أغذية الانسان

عناصر	القطن			القمح		الشعير	
	شعر	بذرة	خشب	حب	تبن	حب	تبن
بوتاسا	٠٥٫٥٠	٣٢٫٣	٣٢٫٩	٣١٫٥٤	١٥٫٦٤	٢١٫٢٠	١٨٫٨٠٠
صودا	٣٫٦٤	٦٫٩	٥٫٤	٢٫٦٦	٩٫٥٤	٤٫٠٠	٦٫٨٠
جير	١٤٫٦٣	٥٫٦	٣٨٫٠	٣٫١٤	١٠٫٠٠	٢٫٤٠	٤٫٧٠
مغنيسيا	٨٫٧٨	١٦٫٥	٠٦٫٣	١٢٫١٠	٣٫٥٠	٩٫١٠	٢٫٥٠
حمض فوسفوريك	٨٫٣٤	٣١٫١	٨٫١	٤٨٫٥٠	٣٫١٠	٣٣٫٧١	١٫٦٠
حمض كبريتيك	٧٫٧٧	٢٫١	٥٫٤	٠٠٫٠٨	٤٫٧٠	٠٢٫١٠	٣٫٥٠
سلكا	٨٫٢٢	٠٫٣١	٥٫٩	١٫٨٨	٤١٫٩	٢٧٫٥٢	٤٣٫٠٠
كلور	٦٫٣٧	١٫٥٠	٧٫٥	٠٠٫١٠	٥٫٢٠	٠٠٫٣٠	١٧٫٣٠
أوكسيد الحديد	معدوم	معدوم	معدوم	آثار	٦٫٢٠	٠٠٫١٥	١٫٣٠

الذرة		الفول		بطاطس نوع من الكمء	القصب		برسيم
حب	اسيقان وقوالح	حب	تبن		ورقه وقاماته	مجرد من قاماته	
٣٧ر٩	٣٢ر٠	٤٢ر٥	٢٧ر٨	٦١ر٦	٢١ر٥	٣٤ر٣٠	٣٤ر٦
٣ر٠	٣ر٠	٣ر٣	٨ر٦	١ر٩٠١	٠٢ر٤٠	١ر٩٠	١١ر٤
٣ر٤	٩ر٧	٦ر٠	٢١ر٥	٢ر٤	٧ر٢٥	٤ر٨٠	٢١ر٦
٧ر٥	٥ر٥	٧ر٣	٠٥ر٦	٥ر٠٠	٣ر٨٠	٢ر٩٠	٤ر٥
٤٤ر٨	٢ر١	٣٤ر٦	٥ر١	١٧ر٦	٣ر٣٥	٤ر٨٠	٥ر٣
١ر٥٠	١ر٤	٣ر٥	٥ر٩	٦ر٢	٦ر٣٠	٦ر٥٠	٤ر٢
١ر٤٠	٣٢ر٨	٠٠ر٩	٨ر٧٠	١ر٠٠	٤٤ر٨٠	٢٦ر٩٠	٣ر٨
آثار	١٠ر١	١ر٤	١١ر٥	٢ر٢	٨ر٢٠	٨ر١٠	١٣ر٩
٠٠ر٤	٣ر٠	٠٠ر٤	٤ر٩	٠ر٨	١ر٩٠	٩ر٨٠	٠٠٠٠٠

تأمل هذا الجدول تجد ان مطعوم البهائم والادميين والملابس والفاكهة كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها فيا عجبا كيف كانت مادة الذرة هى مادة القمح بعينها بل مادة القطن وباختلاف المقادير صار هذا ملبسا وهذا مطعما. ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون حارت الافكار فى هذه الحكمة الباهرة فان نظرنا الى ترتيب النبات مع المعادن والحيوان وترتيب كل طبقة فيها وجدنا احكاما وان نظرنا الى اجزاء كل شجرة من اعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار واثمار رأينا حكمة باهرة وانها موزونة بميزان عدل وان نظرنا الى عناصرها التى تركبت منها رأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم والاشكال والالوان والروائح والمقادير وما اشبه هذه النظامات فى ترتيبها بنظام السموات فكما رأيت هناك جداول لها نظام خاص فكذلك ترى هنا جداول محكمة. ولقد صدق فيثا غورث في قوله ان العالم مبنى على الاعداد والموسيقا ومن هذا نفهم سورة الرحمن ولنعد آيات منها لنفهم المقصود قال الله تعالى . . (الرحمن علم

القرآن خلق الانسان علمه البيان) نعم خلق الله الانسان فيه كل نظام وترتيب ولما كانت الاشكال تحن الى أشكالها وضعت الروح ذات العلم والادب وحب النظام والترتيب في هذا الجسم المشاكل والمناسب خلقتها واعرب وبين عما استكن فى هذا العالم الذى هو طبعا يحكي جسمه فلذلك اعقبه بقوله (علمه البيان) فابان عما يقرأ على صفحات هذا الكون من العلوم وللطائف والعجائب اذ خلق العالم اولا مقدمة لخلق الانسان وليكون دفترا له وكتابا يقرؤه فله نفع فى عقله وفائدة في جسمه فخلق الانسان اولا فاستفاد الماديات وعلمه البيان لاستفادة العلوم منه. ولما كان هذا الكلام مجملا اذ لم تقرأ شيئا من هذا الوجود مفصلا شرع الرحمن يفصله تفصيلا مظهرا آثار رحمته على اجسامنا اولا وعقولنا ثانياً بالخلق اولا والعلم ثانيا فقال الشمس والقمر بحسبان ولقد اعدنا هذا الكلام مرارا واتضح لك نظام السموات على ابهج اوضاعه وترتيبه وبينا ايضا ان العالم السفلى نظامه تابع للعلوى لوصول الاثر من الثانى فلذلك كان له نظام بحساب متقن كمتبوعه الاول كما رأيت هنا فلذلك قال (والنجم)

هو ما لا ساق له (والشجر يسجدان) فذكر المزارع من نبات وشجر وقد رأيت حسابها فأفاد انهما يسجدان . ولقد رأيت آثار السجود فيها من اطرادها على قانون واحد لا يتغير ولا يتبدل ولما كانت النباتات على سطح الكرة الارضية وهى مستديرة والسماء محيطة بها من جميع الجوانب ومرسلة اشعتها عليها وامطارها ورياح جوها فكان الارض ومزارعها كرة طرحت بصوالجة فتلقفها هذه الحوادث الفلكية والجوية . ذكر السماء بعدها كما ذكر الشمس والقمر قبلها لتفيد الاحاطة المذكورة فقال (والسماء رفعها) وهذه الرفعة حسية وعقلية أما الحسية فظاهرة وأما العقلية فقد علمتها من التأثيرات المختلفة بالحوادث المتناقضة فتارة تأتى ببرد واخرى بحر ومرة بخصب واخرى بجدب ولا ريب ان هذا يورث خللا فى النظام وعدم ترتيب فى الاحكام فلا بد اذن من قانون تسير عليه هذه العوالم كسفينة فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها فلذلك اعقبه بقوله (ووضع الميزان) ولقدفهمت في الجداول

السابقة في العالم العلوى والسفلى شيئا من الميزان فقس عليه كل احوال هذا الكون فكله موزون بهذا بعينه ومن هنا نفهم قوله تعالى (والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون) فلقد شاهدت الميزان فى الجداول السابقة (وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم . وارسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين

ولعلك فهمت أيضاً من هذه الجداول قوله تعالى وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون) فلقد رأيت انه فضل القمح على الذرة فى الجدول السابق بان العناصر المقوية للعظام كالسلكا الذى هو مواد رمليه وحمض الفوسفوريك الذى يدخل في تركيب عظامنا ومنه تصنع اعواد

الكبريت فهاتان المادتان فى القمح اكثر منهما فى الذرة بخلاف الكبريت فهو فى الذرة اكثر منه في القمح وهكذا بقية العناصر فباختلاف المقادير فضل هذا الطعام على ذلك الطعام .

قلنا ان الفصفور في القمح اكثر وهو داخل فى تركيب العظام وهذا مشاهد في عظام الموتى فانك تري ابخرة تتصاعد وكثيرا ما ترى بالليل نارا ساطعة وما هى الا تلك المادة الفصفورية التى ذكرناها في الاغذية وكمنت فى العظام قد تصاعدت فتلاقت بالمادة الحارة فى الهواء وهى الاكسوجين فاتقد نارا فظن العامة انها كرامة لولى او نحو ذلك وقد فهمت الحقيقة وقس على هذين النباتين غيرهما .

ثم ان هذه المواد تدخل فى تركيب الاجسام النامية وتبقى الى امد معلوم ثم تنحل ويذورها الهواء وترجع ثانياً وتدخل تركيبها كما قال تعالى (انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) استدلال بالطبيعة على بقاء الارواح واليه رمز (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا

كنا فاعلين) (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ولعلك تقول الاية واردة فى خلقنا بعد الموت قلنا نعم وانما نحن ذكرناها على سبيل الاشارة والرمز أو نحو ذلك مما ذكر علماء البيان بل بقاء العناصر الارضية بعد الانحلال دليل على بقاء أرواحنا بعد الموت وكيف تبقى هذه العناصر المعتمة الظلمة الميتة وتهلك تلك الارواح الطاهرة المنيرة الحية العلية بل كان الاجدر بالقياس ان تهلك المادة وتبقى الارواح فاذا بقى الاخس فالاشرف اولى بالبقاء لان الروح اذا كانت بسيطة كما هو اجماع الحكماء فكيف تفنى والفناء انما هو تفريق كما تفرق الجسم عن البدن المركب من عنصرين روح وجسم ففناء الارراح ليس يقبله العقل بالكلية فافهم .

ثم من تأمل العناصر وجدها تفعل كما تفعل الكواكب في السماء وكذا الماء فى الدوران فتتكون في النبات مثلا ثم تتفرق وتذورها الرياح وترجع ثانياً كما اوضحناه فانظر هذا التشابه (ما تري فى خلق الرحمن من تفاوت) ولا نكرر عليك قراءة الايات ذامك المصحف واقرأ واعرض كل آية فيها حساب

أو ميزان وتذكر ماقلناه تفهم فهما حقيقياً لا تقليدياً فاذا قرأت
قوله تعالى (انا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا الا واحدة كلمح
بالبصر) تذكر أن جميع العالم داخل تحتها (واذا قرأت وكل
شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر)تقول هذا في
أفعال العباد وقد رأينا أن صنعته متقنة بأعجب حساب فلا ريب
أن كل أفعاله بحساب واذا حسب الاشياء التي تفنى ولا بقاء لها
فكيف ترك ماهو المقصود بالذات وهي أفعال هذا النوع العجيب
الانساني فاننا شاهدنا كتابه المفتوح الذى كله سطور منتظمة
في الطبيعة مرسوم بحروف كبيرة فكتابه الغائب عنا لا يقل عن
المشاهد ولذلك ترى الكفار يقولون يوم القيامة (ياويلتنا مالهذا
الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا
حاضراً ولا يظلم ربك أحدا) والظلم انما هو وضع الشيء فى غير
موضعه بلا حساب ولا نظام ولقد شاهدت حسابه فى عمله
وتدقيقه فيه ولذلك رمز الى هذا بقوله (وما تكون فى شأن
وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا
اذ تفيضون فيه) ثم أراد أن يأتى لنا ببرهان من مشاهداتنا

فقال (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) فها أنت قرأت شيئاً من آثار ذلك الكتاب اذ النسخة التى أمامنا فى المزارع مطابقة على تلك النسخة حرفا بحرف (عالم الغيب والشهادة) فهذه الشهادة مطابقة لذلك الغيب ولو أردنا استقصاء تلك الايات لما وسعها كتابنا ولنرجع الى سورة الرحمن فنقول لما ذكر الميزان الموضوع فى السماء والارض أراد سبحانه أن يرفع من قدرنا بتقليده فى أفعاله وان نزن أفعالنا ونكون حكماء فقال ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ولقد ذكرنا تفسير هذه الآية في كتاب ميزان الجواهر في خطبته فانظره هناك ثم شرع يذكر العالم كله مفصلا دنيا وآخرة من الارض وفاكهتها ونخلها ذي الاكمام والحب وتبنه والرياض وهكذا ذكر المشرقين والمغربين والانسان والجان والبحار وهكذا وهذه السورة عجيبة جداً ولا أزال أكرر عليك القول أن تلتفت الى ذكر الحساب أولا ثم ذكر مجمل العالم بعدها. ومثل ما رأيت فى علم النبات من النظام وحسن الترتيب ترى الحيوان أيضاً

﴿ من كلام اللورد افبري ﴾

مع تصرف جميل

(نقص الانسان في المعارف وعدد النبات على سطح الارض)

﴿ وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾

يقول .

كلنا رأينا الحقول وشاهدنا البساتين وهل من أحد لم يجر بخلده أو يهجس بضميره ماأنواع هذه المخلوقات النامية النباتية وما أعدادها وأظنك لو نقبت في حقلك لعددت المئات وترى العلماء المحققين أحصوا ما عرفوه فشارف خمسمائة الالف ولا جرم أن مثل هذا العدد يرجع الى ماظهر للنظر (وما يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكرى للبشر) كلا والنبات الناميات والتين والزيتون ان هناك ما لا يعلم العلماء في نفس بلادنا(الانجليز) فلن يمر يوم الا وترى نباتاً اكتشفه باحث أو شجرا عرفه عالم

اذا كان هذا حال العلم مع مانشاهد كل يوم من أرض بلادنا فاظنك بالاقطار الشاسعة التي قل علمنا بمساحاتها فضلا عن أنواع مخلوقاتها . لا ريب أن ما حوته من الناميات النباتية لم يصل لعلمنا منه الا نصف أو يزيد . بل ما ظنك بالارض

المجهولة التى خفى على العلماء ما حوته من المبدعات وما اكتنته من الحكم من الانواع مما يلذ الانسان فهمه . ويسعده درسه. قد خفى عنا تاريخه وماطرأ عليه من العبر والغير، على ان اكثر تلك الانواع المعلومة خفيت علينا تراكيبها ومنافعها وتاريخ حياتها

وفي المعارض النباتية من الانواع ما لم يجد له النباتيون زمناً لوصفه فضلا عن تسميته

انظر كيف عجز الانسان عن علم حقائق ما عدده واكتشفه بل تمادى في تقصيره وعجزه فلم يمكنه وصف البعض فضلا عن التسمية مع الجهل التام ببعض الاقطار واكتشاف نحو النصف من أقطار أخرى

واذا كان ذلك فيما حضر لدينا فى زماننا فما ظنك بالنباتات المتحجرة اذ انها حفظت أنواعاً زادت النبات عدداً . فضلا عما أبادته عاديات الايام فلم تسلمه لنا يد الطبيعة على يد رسولها الامين وهو التحجير . على ان ما عرفناه من اختلاف الصور والتركيب واللون له أسباب وعلل تعوزنا الى البحث عن الاسباب وكيف انتجت هذه النتائج والعقول مفطورة والحقول

منظورة فقد نطق بقوله تعالى (وماأوتيتم من العلم الا قليلا)

﴿ الغابات والحقول ﴾

(وفى الارض آيات للموقنين) (ألم تر أن اللهّأنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير)

قال اللورد افبرى

اذا امتد بصرك فى الخلاء ، وشاهدت الاشجار الخضرة وفروعها النضرة ، وأوراقها الزاهره ، وازهارها الباهره ، صيفاً أوشتاء ، ليلا أو نهاراً ، شعرت بالحياة التى ينادى بها وجدانك ويطلبها ضميرك ، وتحس بالسعادة السماوية ، والحياة السرمدية (وفى الارض آيات للموقنين وفى انفسكم افلا تبصرون وفى السماء رزقكم وماتوعدون)

الجمال في الحقول والاشجار يمنح الروح روحاً ووحياً ينجم عنها طمأنينة وسلام ، وسمو فى المدارك ، وارتقاء فى الفكر اذ سعة الفضاء ، وتباعد الاقطار ، تمد العقل باتساعها ، وتسعد التصور بامتدادها ، وما انسب هذا القول بالآيه المتقدمة اذ

كيف يقول (وفى الارض آيات للموقنين) وكيف يعقبه بالنفس
يشير الى تأثير الافاق على الانفس فتتشكل النفوس بشكل الآفاق
ام كيف اردفها بقوله (وفى السماء رزقكم) زيادة فى التوسع فينظر
الانسان فى الارض واتساعها فتوحى الى نفسه سعتها. وتمنحه
هبتها، ثم ينظر الى السماء فتتجلى له صورها الواسعة الاقطار
التى لا نهاية لها وهذا غاية ما يصل اليه العارفون . ولمثل هذا
فليعمل العاملون

﴿ ايتحرك النبات ويعقل ﴾

مترجمة بتصرف جميل

قال اللورد افبرى

اذا وقفت على شاطىء نهر جار وحوالك المزارع الخضرة
وازهارها النضره، فهل يخطر بخلدك . او يقوم بفكرك. وانت
على جوادك، ان للنبات حركة ارادية وانه يعقل ويحس ويفهم
كما تفهم. وانه لمن أصح وأقوى البديهيات ان النبات لا يتحرك
بالارادة والحيوان يتحرك بها ولكنك ياسيدى لو قرأت حكمة
مبدع الكون . ومزين الصور، وملهم المخلوقات، ومعطى كل

مخلوق قسطه من العدل لرأيته حير العقول وبهر الابصار حتى أصبح المطلع على الحكم والابداع يشك في تلك القضية واضحى العلماء يقولون النبات يتحرك ويحس — تصور النبات والحيوان سلسلتين اشبه بساقى مثلث يتلاقيان عند رأس الزاوية فترى بين الحيوانات والنباتات الصغرى تشابهاً عظيما بحيث لا يتميزان في نظر الناظرين

ولو شاهدت النباتات الكبرى البحرية لألفيتها تلد وتتكاثر وتثمر بأمر عجيب وفعل غريب مدهش يكاد ينبذه العقل ويدفعه ويرفضه الخيال لولا ماتضافر العلماء والمؤلفون على ماراوه من عجائبه. ذلك ان ذلك النبات يعوم على سطح الماء بما اوتى من شعر على ظهره مهتز دائما مضطرب به يسير على سطح الماء وله نقطة حمراء كأنها عين صغيرة بها يبصر الاشياء حوله فاذا لقى مكاناً صالحاً امه فالتصق به فهذا نبات يجرى اشبه الحيوان فى حركته واحساسه وهذا هو قوله تعالى (وفى الارض آيات للموقنين) فانظر كيف يتحرك النبات وانظر كيف يقول تعالى (قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فلم يقل اعطى كل حيوان بل

عمم ولعمري ان القرآن يصدق هذه المذاهب ويميل لها والعجب ان يعبر بقوله كل شيء حتى يشمل النبات اذ قوله هدى لا معنى له الا الالهام والارشاد ولا يرشد الا ماله احساس فدخل النبات. وهل يأتي المستقبل باحساس الجماد هذا ما لا اعلمه وقد اثبته الشيرازي من حكماء الاسلام وابن عربي من الصوفية

يقول داروين ان الاجزاء النامية من كل نبات لفي دوران ثابت دائم وترى النباتات المعروشة على السقائف كالعنب تميل ميلا عظيما وتتبع السبيل السهل سلوكه. والحركة وان لم تظهر في رأى العين فانما تعلم بالتأمل والتأنى

ولقد ذكرنا فيما مر في الازهار ان من الاشجار ما تطبق أوراقها وتضم ازهارها ليلا ووقت المطر فياليت شعرى كيف ادركت معنى الليل فنامت وكيف فهمت المطر واثره فضمت الاوراق

ومن النبات مايسمى دندلين (Dandelion) تراه منكسا رءوس ازهاره مطرقا خاشعاً كليل طرف زهرته فاذا فتحت زهرته رفع رأسه الى أعلى يستقبل النسمات واللقاح والطل والندى ثم

يوالى فتح ازهاره اذا انبلج عمود الصباح ويتفتح اذا تفتحت السماء بالضياء وابتسمت عروس الصبح فاذا أغمض الليل جفنه ودع العالم بطرف خفي وأسبل عينيه ونام ولا يزال هكذا حتي اذا تم اخصابه أدلى برأسه وفارق الشروق والغروب ولا يزال هكذا حتى اذا تم مدة الحمل رفع رأسه ليحمد الله على انعامه ويشكره على آلائه واذا نضجت حبوبه وآن قطافها اسلمها للرياح تسيرها كما يشاء مبدعها فتأمل كيف ترى تنكيسا وفتحاً وانقفالا في أوقات متناسبة لعمرى .لن يدرك هذه الا أولوا الالباب وهذه هى المعجزات .يقول الغزالى رحمه الله ليس العلم مأخوذاً من قلب المصاحبة .كلا وانما يقف الجاهل من العلم على قشره وانما العجب كل العجب في هذه الحكم وغرائبها لا تسر الجاهل هذه الغرائب الا ان تعاقبت على بصره دفعة واحدة واذن تبهر بصره. وعليه فالجاهل بقصر نظره انما تبهره خوارق العادات فتحيره . لا يعرف حكمة الله الا فيما يضرب له من الامثال في خوارق العادات ولو فطن لعرف أن هذا العالم اجمع خارق للعادة عند الدارسين . فالجاهل يحصر قدرة

الله وجماله فى خرق العوائد على يد أناس يقلون عدداً وأذن
لا يشاهد من الله الا قدرته ويغفل عن حكمته أما المفكرون
فهم يرون حكمته وقدرته.ومن عجب أن فى أنهار اوروبا ذلك
النبات المسمى فاليسنيريا سبيرال (folisniria spiral) تراه ذا
زهرات ذكرانا وأخرى أناثا وترى للزهرات الاناث ساقا
طويلا حلزونيا ممتدا بها الى سطح الماء أما الزهرات الذاكران
فانهن فى أسفل النهر ليس لهن سوق فاذا قرب أوان الخصب
رأيت أمرا عجباً رأيت الزهرات الذاكران قد قطعت من
أصولها وسارعت الى وجه الماء وأخذت تطوف بين الزهرات
الاناث اللاتى تستقبلها عائمة على وجه الماء وترى الزهرات
الذكران يرحن ويغدون بينهن طائفات طائعات (سبحانه له
ما فى السموات والارض كل له قانتون) فهذه قانتات مسبحات
حامدات لله فاذا حمل الاناث نزلن الى أسفل النهر وذلك أن
ينقبض ذلك الساق الحلزونى فتنزل تلك الزهرات الحاملات
الى قاع النهر فيتم هناك الاخصاب .وبعض النبات تدفن بذورها
فى الارض.وترى السنط الحساس اذا لامسته تضامت أوراقه

ومن النبات ما يري متحركا دائرا على الدوام

واقد ذكرنا أن نباتا بحريا يعوم على وجه الماء بالشعرات المهتزات على أعلاه وترى بعض النبات المكروسكوبى يقضي أغلب حياته بهذه الحركة الاختيارية ميكسوميتس وانه يشبه المربي أو الفالوذج يعيش تحت الاوراق البالية المتساقطة من الاشجار وبين طبقات التراب الندى وفى كل موضع رطب وانه لاشبه بالحيوان فى جميع خصاله تراه لا يفتأ يتحرك طلبا للرطوبة او الحرارة أو الضوء وغير ذلك ولو أنك وضعت مادة رطبة على مانشأ من هذا النبات مرتفعا من الجسم لرأيت أجزاءه أجمع تحركت ورأيت تلك المادة العاملة أسرعت الى ذلك الجسم في سيرها وتحرك حول نفسها ولو أنك صببت عليه كربونات البوتاسا لرأيت هذا الجسم اتخذ مكانا قصيا وابتعد وظهر منه النفور ومع ذلك لو انك أدنيت منه محلول السكر أو ما يشبهه مما يغذيه لرأيت هذا النبات الهلامي اتجه نحوه وتغيرت اوضاع هيكله وهكذا يتعاطى غذاءه ويدور دورة رحويه او دولابيه او حمائليه على غذائه ويمتص بجلده وتراه اذا

اقبل الشتاء دفن هذا النبات نفسه تحت تلك الرطوبة

ومنها نوع ينبت فى الحفر العميقة تراه اذا اقبل الشتاء تدلى فى الارض اقداما ممدودة فاذا اقبل اوان اثماره رأيت امرا عجبا الفيته رجع يبحث عن النور بعد ان اعرض عنه وعشق الظلمة وطلع الى الارض ورمى بذوره على ظاهرها فانظر كيف كان النبات يعقل ويحس وكيف ينفر من البوتاسا والكربونات وكيف يميل الى السكر ويلتف حوال غذائه بل كيف يدفن نفسه تحت الثرى عند البرودة ويظهر على الارض عند الاثمار اليس هذا هو قوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وانبتنا فيها من كل شيء موزون) (وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) فتأمل وافهم كيف لا ينزل شيئاً الا بقدر معلوم وحكم مفهوم وهذا النبات لما علم انه يضره برد الشتاء اعطاه ادراكا مقدار حاجته فكان كل علمه على مقدار حاجته وهذا معنى (وما ننزله الا بقدر معلوم)

﴿ الباب الخامس ﴾

(الكلام على نظام الحيوان)

قال تعالى (ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير . وقال تعالى وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. وقال تعالى وبث فيها من كل دابة وقال تعالى خلقكم من نفس واحدة ثم جعل من زوجها وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فاني تصرفون . وقال تعالى والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولوشاء لهداكم أجمعين هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم

يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرأ لكم في الارض مختلفاً ألوانه الى قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم) اعلم أن الحيوان كما رأيت في هذه الآية خلق رحمة للانسان كما خلق النبات لهما معاً ولنشرح ذلك فنقول

اعلم أن النبات مقدم على الحيوان وضعاً لانه غذاؤه فقدم طبعاً اذ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ولا ترى حيواناً يمكنه أن يأكل العناصر الارضية والاملاح جوعاً فخلق له اللطيف بعباده النبات ليلطف تلك العناصر ويطبخها فتصبح خلقاً جديداً يناسب الحيوان فيكون كالام المشفقة بل أحسن منها فترى الحيوان يأكل من أوراقه ويتناول أغصانه ويستظل بها وترى سيده وهو الانسان يأخذ اعلى وألطف جزء في النبات فيأكل حب القمح والفول كما يأكل لحوم الحيوان فتأمل كيف كان النبات غذاء للجميع وأخذ الاشرف أشرف جزء فيه وأخذ الحيوان الادنى لتفهم قوله وكل شيء عنده بمقدار وترى غذاء الحيوان غير الانسان حاملا وغذاء الانسان محمولا ألا ترى أن

سنبل القمح في أعلاه وهكذا جميع الحبوب والفواكه تراها تارة أعلى وتارة فى الجوانب وهى على كل حال محمولة على غيرها وكأن النبات ينطق بلسان حاله قائلا أيها الانسان خذ خلاصة ما عندى وسأدخل فى جوف الحيوان وانقلب الى مادة تناسبك فخذ العاجل من ثمارى وحبوبي وانتظر الآجل منى حين اصبح لحما وشحما فأصير ارقى من هذا فانه قد سخر لك ما في السموات ومافى الارض جميعاً وانت الارقى طبعاً فانى لما كنت غذاء الحيوان وجدتنى سافلا وغذاؤك فوقي فمرتفع المكان كمرتفع المكانة وسافل المكان سافلها .

واذا تأملنا ما كلنا عرفنا ذكر قوله هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب الايات بعد ذكر اصناف الحيوان اذ بالبداهة ذكر غذاءه بعد ان ذكره . بل اذا قرات من اول السورة وهى سورة النحل رأيته ذكر الانسان ثم الحيوان ثم النبات فكلما ذكر مرتبة اتبعها بما يخدمها فذكر المؤخر فى الوجود وكر راجعا الى المبدأ وهذه الآية عجيبة جدا وتفصيلها يعرف بمزاولة العلوم اولا وكثرة التفكر ثانيا ولقد ذكرناها في

كتابنا جواهر العلوم وفصلنا القول فيها بطريق واضح والان آن لنا ان نشرع في الكلام على الحيوان فنقول :

قد ذكرنا ترتيب الحيوان عند ذكرنا دائرة الوجود وها نحن الان نشرحه بارقى مما هناك فنقول :

اعلم ان الحيوان ثلاث درجات الاولى مالا يلد ولا يبيض كالزواحف من المحار والاصداف البحرية وكثير من الحشرات والعلق والديدان والثانية مايبيض ويحضن ويفرخ كالطيور والثالثة مايحمل ويلد ويرضع وكل واحدة منها درجات بعضها فوق بعض

وقد علمت ان الحيوان رتب على حسب درجاته في الاحساس وقوة الغضب كما ذكرناه في الكلام على دائرة الوجود فارجع اليها هناك . وينقسم أيضاً من حيث الحركة والانتقال الى ما يمشي على بطنه ويدخل فيه كل زاحف كالمحار ومتسلق على الاشجار أو على الارض كالديدان أو منساب على بطنه كالحيات .وبالجملة كل مالا يمشي ولا يطير. والى مايطير في جو السماء. والى مايمشي على ارجل ولكل من هذه الثلاث درجات بعضها فوق بعض واليه الاشارة بقوله

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشي على رحلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير) فتأمل هـذه الاية كأنه يقول ان هذه العوالم وضعت فيها كل درجة من درجات النظام ولم اخل بواحدة منها فذو رجلين وذو اربعه وستة وثمانية وعشرة وعشرين واكثر من ذلك. يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير. كما فعل في الفلك واختلاف الليل والنهار وحركات البنادل المختلفة والنباتات المختلفة ليكون النظام واحـدا . وان المتفكر لتأخذه الدهشة حين يتفكر فى ان هذه المادة في الكون واحدة والى الان لم تعلم اذ ما تمسكه ايدينا وتشهده ابصارنا وتسمعه آذاننا وتذوقه السنتنا انما هى صفات عرضت لها حدثت من تكونها وتضامها والا فانا نعلم انها تصل الى درجة لا تحس فيها ولا تلمس ولا تشم ولا تذاق ولا تلمس وهى المادة الاثيرية التي أجمع عليها قدماء الحكماء ومحدثوهم فسماها المحدثون أثيراً وسماها القدماء ناراً فوق الهواء

فياليت شعرى كيف جاءت الكثرة من القلة والمادة واحدة

وكيف كانت فيها كل هذه العوالم وكيف تنوعت واختلفت على اطوار شتى (راجع مقالتنا عجائب العناصر والحروف ولعلها تذكر في كتابنا هذا ان شاء الله تعالى) فتأمل تجد أن الحيوان مرتب في حركاته من قاع البحار الى الفضاء الى الهواء وفى شرفه من حيث الاحساس وفي قوة غضبه وفى تربية أولاده وحفظه لنوعه هذا من حيث ترتيبه بالنسبة لبعضه فأما النظر لافراده فكل حيوان له هيئة مخصوصة وشكل وأعضاء تناسب ما خلق له وقد أوضحنا الكلام على هذا فى كتابنا ميزان الجواهر ولنفصل بعض التفصيل فى بعض الحيوان فنقول. ان من الحيوان ما له جسم مربع وجناحان وأربع ارجل ويدان متناسبة هذه الستة كتناسب اضلاع المسدس فى الدائرة وله رأس مدور وعنق ليميل رأسه يمينا ويساراً وذنب مملوء هواء مخروطي الشكل جعل موازنا لرأسه عند الطيران واذا استقل في الهواء كان على هيئة الشكل المسدس اجنحة اربع كل جانب جناحان ورأس وذنب وتصنع اقراصاً فيها بيوت مسدسة الشكل منتظمة الموضع كشكل جسمها عند الطيران ولعلك بهذه الاوصاف عرفت انه النحل

﴿ حيوان يعيش ملايين من السنين ﴾

ترجمتها من كتاب اللورد جون ليك أفبرى لخصتها لك بلسان عربى
مبين لتعلم ما وصل اليه العلم من تلك الحكم العالية النفسية

من أعجب ما سطرته يد العناية الالهية على صفحات الخليقة ودبجه يراع تلك العناية الباهرة ما ذكره المكتشفون عن حيوان المرجان ذلك أنهم علموا أنه ينمو من بيضة صغيرة فقدروا حجمه ووزنوه وقاسوه بمقياس النمو السنوى وقدروه قدره فألفوه يعيش آلافاً من السنين

وأعجب من هذا وأغرب ما علم عن حيوان من أصغر الحيوانات وأدناها شكله بيضاوى أو مدور تراه يغدو ويروح فى طلب رزقه اذا هو قد أخذ وسطه يحز حزاً كأنما أمررت سكيناً عليه باستدارة حوله ثم ترى هذا الحز أو الشق يزداد حيناً فحيناً شيئاً فشيئاً حتى يمتاز النصفان ويستقل الشخصان ويعيش كل منهما عيشة وحده. واذا لاحظت كلا منهما وجدته بعد حين محزوز الوسط ويتزايدان حيناً فحيناً حتى ينفصلا ويستقلا كاسلافهما وهكذا الى يوم يبعثون وهكذا كان فيا ليت

شعري أهما والد وما ولد . هذا ما لا يكون . فكيف والسن واحد وهل يتساوى الوالد والمولود في العمر ام هما توأمان وكيف ذلك وأين الوالدان. وعليه حار العقلاء في ذلك المخلوق الصغير حيرة لن يكشفها الا العلم يقول العلامة افبرى (المترجم عنه) ان هذه الحيرة سيكشف العلم غطاءها ونحن الآن في دور الابحاث العلمية والتنقيب عن أسرار الحكمة الالهية فعميت علينا السبل وتشعبت الطرق ولم نعد نميز بين الاشخاص فيما وضح من الحيوان وكبر منه الجثمان فضلا عما دق في الصورة والشكل والوصف والشخص والجنس ثم وضع قاعدة فقال (كلما زاد العلم زال الغطاء) وقال ان هذه القاعدة أنسب ادباً وأنفع علما وادعى الى الرقي والسعادة ونحن نقول لئن اعتدل المؤلف في شق فقد مال في آخر فأما منفعة هذه القاعدة مادة وأدباً فلا مشاحة فيه وأما كشف العلم كل غطاء فنقول ان الله سبحانه وضع هذا العالم على طبقات شتى في الوضوح والخفاء ولن يكشف للانسان أو الحيوان الا ما كان أنسب لحياة روحه وعقله ومبادئ العلوم قليلة وكلما صعدنا سلما اتسع المجال وانفسح الميدان وما التصورات

والتصديقات الا كنسب هندسية تظهر بوضوح في الاعداد المتضاعفة فلئن يكشف العلم غطاء واحدا ير وراء الكشف غطاءين فاذا أزالهما ظهر أربعة فان انقشعت سحابتهن ابتدرته ثمان حجب فان كشف الستار عما وراءها فاجأه ست عشرة ظلمة وهكذا وهذه الحيوانات الدنيئة التي نحن الآن باحثون فيها نراها هكذا كانت تتناسل في غابر العصور وهكذا تتوالى الى الابد فهي على هذا ازلية أبدية أي مادامت الارض فاذا زلزلت الارض زلزالها ماتت موتا قهريا لا طبيعياً. لعمري ان الموت سنة على كل حي بالعمر الطبيعي ولم اختصت هذه بالا موت عليها في القريب العاجل وسيكشف الغطاء عن هذا ويعلم أمره واذا علم الامر وزال الاشكال تبدت وراءه سحب من غياهب الجهل ودجنات من الطبيعة تغشى وجوه حور العلم الباسمات وهكذا كما قدمنا. هذا ولا تظن ايها المسلم ان هذا ينافي الدين فان الموت كتب على كل حي وهذه ستموت بلاريب وانما الموضوع هل هذا الانفصال موت للشخص الاول وحياة للاثنين الآخرين أم أمر آخر ولن يقف في مثل هذه الصغائر الا الجهلة

والعامة لضعف عقولهم عن الادراك فيتوهمون ان كل شيء يضاد الدين . انظر وتأمل هذه الحيرة بين شرقيين وغربيين كيف حيرت العقول فى صغر الحيوان فلم يفقهوا حياته ولا موته فحارت العقول واشتبهت النقول (والله من ورائهم محيط) ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء

أنى لنا بالوقوف على أسرار هذه المخلوقات ونحن مغمورون وسطها وكيف نشهد خلقها ونحن مغمورون في ظلمات الطبيعة ودجنات المادة (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) اه

﴿ عجائب الالوان فى الحيوان ﴾

ملخصة من كلام اللورد افبرى

ألوان الحيوان وضعت لحكم انشأها مبدعها وقد تكون جاذبة للرفقاء محببة لتزاوج الجنسين والطاووس أوضح شاهد من نوعه وترى الطيور والحشرات دبجت بنقوش الالوان وزخرفت بابدع زينة موشاة بابهى الحلى والحلل كانما خلعت عليها

الشمس والنجوم والسماء حلى البياض والحمرة والزرقة فلبست جلابيب الحبر وسابقت كل جميل في بهائه حتى الازهار في بهجتها

قال العلامة جفير رأيت يوما حشرة أبى دقيق ناشرة جناحها كأنها شراع سفينة على شجرة الصفصاف مشرفة على خليج ناضب ماؤه وتلك الاجنحة قد نقشت باخاديد تتباهى زرقتها بجمال الرونق قد رقشت بجدد حمر قانيات ونقوش بيض ناصعات كانما اعارتها الشمس حلية من زينتها أو رقشتها باصباغ أشعتها أو صبغتها بمباهج زينتها فتبارك الله احسن الخالقين

ثم قال الكاتب

فياليت الا فامن تلك الحشرات البهجة تخلق فى أرضنا وتصطف فى حقولنا فى سموم الصيف وحرارة الهجير اذا ذبلت الازهار وغارت الابار وتساقطت الاوراق حتي نعوض ما فقدناه من جمال تلك الزينة والبهجة

ليست نقوش جمال الازهار باقل انعاشاً ولا اضعف اطرابا من قطرات العقار للعقول . وليس يقصر هـذا الجمال عن الغذاء للافئدة والقلوب وما البهجة المنعشة للفواد بقراءة

تاريخ القرون الاولى للحيوان من لونه وما سطرته يد الحكمة الالهية من موازاتها لسابق حياتها ومناسبتها لما يحيط بها باقل قيمة من بهجة العين بحسن مناظرها . ولئن قيل ان ام الجواهر التى تحيط بالدطرة داخل الصدفة تظهر حكمة للونها او ان اعضاء الحيوان لونت عرضا واتفاقا كما تلون الاحجار الثمينة والمعادن الغالية بلا منفعة ظاهرة ولا بينة واضحة كما يظن . حكاها المؤلف بهيئة الضعف . اذ الحكمة وان لم تعلم فربما كانت خفية . (ونحن نقول ان اعضاء الحيوان الداخلة حكمتها تظهر فى التشريح وتميز الاعضاء والهزيل من السمين عند الاكل والاحجار الثمينة لن تغلى قيمتها الا بالوانها . اذن فليس الحكمة لنفس الملون فقط بل له ولغيره). ثم قال اللورد فكم من لون يظنه علماء الطبيعة الى الآن خفي الدلالة ونحن نوقن بحقيقته

الا ترى رعاك الله سواد ظهر السمكة وبياض بطنها الفضى يظنها الطبيعى فلتة العناصر ونحن نقول على رسلك فاسوداد الظهر ليحجب نظر الناظرين من اعلاه ولا يشهده المطلع من ادناه فيعيش قرير العين آمنا من الهجمتين وترى

حيوان الصحراء ملونا بلون الرمال ليتشابه بها فلا يهتدى له
القانص ولا يصل له الباحث

ونرى حيوان الاقطار الشمالية الثلجية قد ابيض اديمه
لا سيما في الشتاء كما ابيض الثلج فلن يتميز عنه فى الحر والقر
فهذه وقايته وترى النمر قد خُدَّ بأخاديد عمودية الوضع ليتشاكل
النمر والغاب الذي فيه مأواه اذ يشاكل بهذا تلك الغابات
الطويلة وترى الفهد وهرة الحقول مرقشة بتمثل شعاع الشمس
يتخلل الاوراق ليسهل لها اقتناص الفريسة وترى من حكمة الله
العجيبة وصنعه الغريب ان يحمى العظيم والحقير والقوى
والضعيف. هذا النمر مع قوته والاسد مع صولته والطيور مع
ضعفها نقشها بألوان تحميها تشاكل ما حولها

فلا عجب اذا قلنا أن دود الحشرات الصغيرة (الشرانق)
تعيش طبعاً على الاوراق وتستعد لتنقلب الى حشرة تراها
لونت بالخضرة لتكف عنها عاديات الطيور هجماتها وتصد
غاراتها فاذا كبرت الدودة خططت بخطوط حجبتها عن الناظرين
فاذا بلغت سناً أعلى تزاوجت خطوطها وتشعبت وتقاطعت

فاشبهت أعصاب أوراق الاشجار لتكف عنها الابصار

ومنه مايعطى شعراً يحميه أوطعماً مقيئاً حتى اذا ذاقه حيوان استقاء فكانت تلك الكراهة رحمة للدودة . أليس هذا كله قوله تعالى (ومامن دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون)

ويقول(ومامن دابة في الارض الاعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) ومن قرأ مانكتبه في هذه الفصول أيقن ايقاناً تاما

ومن أعجب ماترى العينان ويحفظه الجنان ان من الديدان ما أعطاه الله نقطتين براقتين مغروستين فى حلقتين كبيرتين تحتهما كأنهما عينان وماهما بعينين قد أشبهت بهما الحية لتخيف كل قانص من الطيور وترى لتلك الديدان جسما مستطيلا كجسم الحية قدوهب هيئة صولتها عند الفزع فترفع رأسها ومقدمها كانها تريد الوثوب. ومامن امرئ يراها الا ويعجب من شبهها للحية وتري الطيور تخافها على اختلاف أشكالها . ولقد جرب ذلك العلامة بزمان فى تجربة لانطيل بذكرها فأحجمت العصافير

من حشرة لو اجتمع ألوف منها لم تحرك ساكناً فانظر كيف كان الشكل واللون أعطيا لها هيئة بها صينت حياتها وحفظت جثتها من العدم والتمزيق

ومن الديدان مارقش جلدها وخطط بالسواد كنوع من الحيات لحفظ بذلك . وبعض دود الفراش فى الهند أعطى قوة الصفير فيخيف مفترسه فيسلم . ومن الحشرات ماتشبهه ماتعيش فيه لوناً لتحفظ من أعدائها . ومن البعوض مالون بلون الاشجار الغناء التى يعيش فيها أو الاحجار التى يقطنها أو الحشائش الخضراء لتحفظ من عدو يفاجئها

وأبو دقيق فى المنطقة الحارة أسود الاجنحة ملون من أطرافه بالالوان الخضر كأن الجناح وأطرافه ورقة خضراء فى ظل وأطرافها فى الشمس فبه يحمى الحيوان وليست الحماية فى الحكمة الالهية باللون وحده فمن الحيوان مايشبه العصا . وما يشبه الورق . وما يشبه حيواناً يخيف غيره . ومن الحيوان الضعيف ما أشبه الحيوانات السامة . قال باتيس بعض أبى دقيق كالحيوانات المقيئة فى طعمها . فتحفظ بذلك حياتها . ومن

العنكبوت مايشبه النملة فيحفظ لقبحها فى الطعم ومنها ما يشبه الزنبور فلا يهاجم وبعض الزاحفات (الهوام) والاسماك أعطيت قوة على تغيير ألوانها على حسب ماحولها

﴿ سؤال عجيب ﴾

لم لم تلون الاغنام بالخضرة ؟ والجواب عن هذا انك ان سألت سكان الجبال أجابوا بلسان واحد ان الغنم لن تنال من اللون الا ماوضع لحمايتها فان كان أسودا سودت أصوافها وان كان أبيض ابيضت أصوافها وهكذا مشاكلة للصخور والكتل والاحجار المتراكمة حول التلال ليجهلها الذئب فيظنها حجراً من الاحجار اه اللورد أقول وعليه فيسهل فهم تنوع الصوف بين ظهر انينا فتقرأ على جلود الانعام تاريخاً قديماً وهي فى جبالها كيف كانت جبالها وألوانها اذ ذاك (ان فى ذلك لآيات للمتوسمين) ثم قال اللورد

ترى الحيوان (صياد السمك) قد لبس حلة زرقاء حتى يختفي عن أعين القانصات من الطيور فيسلم من العطب ويختلط

باللون المنعكس عن سطح الماء وهو فى الغالب ازرق فيقتنص السمك فانظر كيف حماه اللون من قانصه وأمكنه من القنيصة وهذا عجيب جداً وترى ناقر الخشب البسه الله حلة خضراء وهي حلة الصيد والقنص وقبعة حمراء حتي اذا تخلل ورق الشجر وهاجم الحشرات في الخشب لم تكد تميزه من الاوراق وازهارها فهل لك أن تفهم (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم)

ومن تأمل تلك الاعاجيب والحكم يشاهد في كل ذرة من هذا العالم يداً تصنع بمهارة وحكمة لا يشذ عنها شيء ويفهم قوله تعالى وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين) ثم افاد ان الذين يقراون هذه العلوم هم اولياء الله واحباؤه فقال عقبها (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفى الاخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز

العظيم) افاد بهذا انهم يكون لهم الغلبة في الارض فبشرهم بالحكم على سواهم من الامم وفي الاخرة بالجنة ولا يكون ذلك الا بعلوم الكائنات والحكم المودعة وجميع علوم الطبيعة والفلك اه

﴿ الجمهوريات في الحيوان ﴾

ترجمتها عن اللورد افيري

الحيوان خلق عظيم فيه من دقائق الحكمة وصنوف الجمال مايبهر العقول فمنه مايبهج العين بمحاسنه وينعش الفؤاد بمناظره كأبي دقيق وغيره من الحشرات والطيور ومنه مايهولنا بعظمته ويبهرنا بعظيم جثته كالفيل والهيكل العظيم والخلق الكبير في كل جيل ألا وهو القيطس ومنه مايسحر العقل بجماله ويخلب الفؤاد بسحر حلاله ويرسل للمفكرة مغناطيس اقطابه ويسلب اللب لدقة صنعته وحكمة خلقته ذلك هو الحيوان الذي توارى عن الابصار فلا يرى الا بالمنظار واجل الحيوانات لذة واعظمها فائده ما الف الشركات وعاش جماعات وهل اريد بما اتلوه عليك ما تجتمع اياما معدودات في فصل من السنة كالخطاطيف

اوتلك التي لها جمهوريات ثابتة لخاصة المكان كلا. فالاولى يجمعها
خاصة الزمان والثانية يؤلفها المكان . وانما اردت تلك الدول
النظامية والامم الدستورية والجماعات الشورية كالغربان وكلاب
البحر . فانها تهب لعقولنا حكماً ولارواحنا وحياً ولنفوسنا علماً
ولنظامنا دستوراً ولاخلاقنا حكماً . على انها مع عظم امرها لن
تبلغ عشر معشار ما وهب النحل من الحكمة في تقدير بيوته
وتسديس اشكاله وما ابدع في نظامه وهندسته ومنح الانسان
هبة العسل ونصب نفسه ناطور الازهار وقيم البستان فلونت
بألوان جميلة يعشقها ونحن له مدينون وهو لايشعر .فقد زينت
ونقشت لمنظره وهو غافل . على ان هذه ربما كانت اقل مهارة
من النمل كما يشهد بذلك فطاحل العلماء مثل هبر ولورل وكوك
ووسمان وغيرهم من الفحول اذ قالوا ان نظام جمهورية النمل في
اصناف جنسها وافراد نوعها وفي دستورها الشامل لطوائف
الامم الخاضعة المستعبدة لرقها والنواميس العامة على انواع المخلوقات
من الانعام المناسبة لها لانظير له في الامم فيما ذكرنا ثم ذكر
المؤلف كلاما عن نمل بلادهم ثم قال ان النمل تبلغ أصنافه ألفاً

وتزيد. كل نوع يمتاز عن غيره بصفة. وقد لاحظت النمل الشغال فعاش سبع سنين. والملكة فعاشت ١٥ سنة. وكل جمهورية من الجمهوريات لها ملكة أو أكثر ذات جناح قبل أن تطير لحملها فاذا حملت كسرت الاجنحة اذ تعلم أنها ستلازم المكان والجناح شغل لافائدة فيه فى الحجرات وفيها ذكران من النمل لاشغل لها والعمله لاجناح لها والصبية الصغار تبقى فى الديار تحفر الحجرات وتشكل السراديب وتهندس الدهاليز والمنعطفات وتنمو وهى فيها وترتيبهن في المساكن على درجات السن كما تصف صفوف التلاميذ بالنسبة لاسنانهم. ومن النمل ما عظم جثة وكبر قامة وامتاز قوة. وهل يقوم ذلك برهاناً على انهم جنود وقوامون على الامة. ذلك مايعوزه الدليل وقال دابتين ان النمل التى كبرت رؤوسها وعظمت خراطيمها تمتاز عن الصفوف في سيرها فتسير بجانبه كضباط العساكر واذا احتملت تلك النمل قوتاً رجعت تلك الضباط غير حاملات فربما كان ذلك دليلا على ان أولئك ضباط وذلك محتمل

ومن العجيب أن العملة من النمل والنحل لاتفتأ أثناء العمل

تنظر الى الملكة كأنها تستمطر الرحمات بمنظرها أو تستروح السرور بمشهدها ولقد شاهدت جماعات النمل وهى خوارج من عش دواخل غيره قد اتخذن ذلك المشهد مهرجاناً للملكة فمددت يدى لعمل أهيئه لهن فأصاب القضاء الملكة فلقيت حتفها فرأيتهن اجتمعن حولها ورفعنها حتى أدخلنها أوسع مكان فى القرية التي أعددنها لهن ولم يعاملنها معاملة ما يموت منهن ينبذنه بالعراء فجلسن حولها فلو رأيتهن لقلت انهن باكيات حزينات أو راجيات بشوق عظيم حياتها أو كأنهن يظنن انها حية ستنسى

وقد تتركب القرية من خمسمائة ألف نمله

ومن العجيب ألا ترى نملتين من قرية واحدة تتنافران على انهن لا يتحرجن عن مهاجمة اخوانهن فى الصنف فضلا عن النوع فضلا عن كل حيوان . ولكم حاولت ادخال نملة من نفس الصنف فى عش اخوانها فلم تكد تطأ أرض العش بأرجلها حتى فاجأنها فأخرجنها من رجليها . فليس بمكرم لديها الا اخوانها المشاركات لها فى مرافق الحياة وما عداها من الصنف فمنبوذ

مطروح . ولقد فصلت القرية الى قريتين وبقيت على ذلك سنة وعشرة أشهر . فلعمرك ما التقى الجمعان الا وهما متعارفان يتصافحان ويهاجمان ماعداهما بمجرد التقائهما. بهذا أثبتت المعرفة والتمييز في الاشخاص. ولن نعرف أكان بعلامة أم لا الا بتجربة فعرجت على الكلوروفرم فخفت أن يميتها فعمدت الى العقار فأسكرتها وما كادت تسكر لولا ان غمست رؤوسها فما كان الا دقائق حتى سكرن وهن اذذاك خمسون خمس وعشرون منها من عش وخمس وعشرون من آخر وهما بمشهد من جماعات من احدى القريتين وهن يطعمن على مائدة أحيطت بماء لئلا يتمزق النمل شذر مذر فما كادت تشعر بالسكارى الا وأقبلت من كل صوب وأدهشت كما ندهش لسكرانا فأخذن اللاتى من غير قريتها ووضعنها لدى طرف الماء وأغرقنهن . أما اللاتى من قريتهن فحملتهن برفق الى العش. فمن هذه ترى أن النمل تعرف بعضها بغير علامة ولا طريق وهذه عاطفة فى النمل عدمت فى الذئب وغيره فاذا جرح أحدها أو مرض طرده أصحابه أو قتلوه .

ولقد رأيت نملة كسرت رجلها اذفقصت بيضتها فنامت على ظهرها ثلاثة أشهر والنملات يطعمنها ويسقينها وأخري جرحت بمثل ذلك فنامت أياماً ثم خرجت فهاجمها الاعداء من كل صوب فوقعت مغشياً عليها فمر عليها النمل لا تبدى حراكا حتى اذا جاءت نملة وحركتها وجست نبضها ثم حملتها برفق الى عشها

فهذه دلائل العطف في هذا الخلق الضعيف . النمل والنحل لها علم بسياسة المدينة ونظام الجمعية ولكنه علم محدود ونظام معدود . وترى النملة اذا عثرت على طعام أسرعت البقية اليه ورأيت الرائد اذا دخل العش خرجوا معه وان لم يكن في فمه شيء فمن المحقق انه أفهمهم بغير رؤية الشيء

من النمل مايكون له أسري وهؤلاء يقمن بخدمة السادة حتى اذا رحلن من قرية الى أخرى حمل العبيد السادة من الاولى الى الثانية

ولقد رأيت الصواحب من النمل اذا خرب عشها بحثن عن غيره فاذا سقفت مكاناً ورأته احداهن أحضرت أخرى

فحملتها ثم أرتها المكان ورجعا فأخذا غيرهما ثم رجعن فحملن غيرهن وهكذا بالتضعيف حتى تجتمع القرية جميعاً وهذه ترينا ان ذكاء النمل محدود ويدلنا على ذلك ما نرى من أن بعض السادة لا يأكل الا اذا ساعدهن العبيد على احضار الطعام فاذا قسم الغذاء بينهن وأفرد كل بمكان وبقى السادة يوما أو بعضه ماتت اذ لا ترى من يضع الطعام فى أفواهها

وكم من حشرات اتخذتها لها أنعاماً زينة لها وجمالا ومتاعاً تتخذ ألبانها العسلية طعاماً تسومها كالانعام على غصون الاشجار أو ترعاها في الكلأ والحشائش والاب أو تحبسها فى بيوتها وتؤتيها أكلها كل حين بتقدير فتمتص الانعام من النبات فتحال العصارة في بطونها عسلا فتمتصه النمل. وأنفع تلك النعم حيوانا اسمه (فيس) كانه بقرها تكلأها بحمايتها وتحميها برعايتها

ولم تكن رعايتها قاصرة على نفس الحيوان فقد تجمع بيوضا في الخريف وتكلاها في الشتاء وتتربص الربيع المقبل ومن الحشرات ما تتخذه النمل دواب تحت الارض فتبقى امداً طويلا فتخسر عينيها وتبقى عمياء

انا لااطيل الكلام فى هذا المقام اذهذا الموضوع اوضحته فى مكان آخر انما اقول أسائلك ايها العاقل اذا رأيت النمل وهى فى قريتها تستقل بحركتها وكيف تدرك بغريزتها واذا رأيت هضبة سكنها النمل وهى آلاف مؤلفة تحفر الحجرات وتشكل الدهاليز وتهندس الطرق وتحفر الاماكن وتجمع القوت وتطعم الابناء وتصف صفوف المدارس فيها وترفق بحيوانها كل منها موكل بما يناسبه من العمل قائم به فلاجرم أن هذه هبة عقلية ولئن قلنا انها غريزة وسليقة فمن ذا الذي يضع حداً فاصلا بين الغريزة والعقل انه لعسير

فهذه المناظر تهدينا الى أن هذه هبة عقلية مشتقة من عقل لانسان تشبهه كيفاً وتنقص عنه كما .المؤلف.أقول ها انت أيها الاخ القارئ لكتابى هذا نظرت مقال أكابر حكماء العصر الحاضر وفلاسفتهم فتأمل كيف تراهم ينقبون عن اسرار الحكمة الالهية ويبحثون ونحن غافلون وهنا بدائع وملاحظات

أولا ان الله جلت حكمته لم يشأ ان يدع مخلوقاً الا وأعطاه حكمة وعلماً لمعاشه وبقائه (قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه

ثم هدى) كما ترى في لون الحشرات والطيور والحيتان واشكال وسياسات الحيوانات

ثانياً ان علماء أوربا يبحثون عن عجائب الجزئيات ويطمعون فى استقصائها ونحن نقول لا مطمع فى استقصائها ولكن لا يريح الافئدة الا تعقل الكليات ولن يعرف العقل الا بعض الجزئيات اذ استقراؤها لا مطمع فيه وكليات المسائل عجيبة صادقة وكلها ناطقة بالعدل أما الجزئيات فترى المرء يضل فيها فها هو اللورد اوفبري يضلل من عداه فى لون السمك فقد كانوا يحسبونه بلا حكمة فظهر له انه بحكمة ونحن زدنا أن عظام الحيوان والاحجار لحكمة

ثالثاً يقول الحكماء فى القواعد العامة ان لكل مخلوق علة ومادة وصورة وغاية فعلة اللون غير مادته غير صورته غير غايته وهى مطردة في كل شيء فقوله ألوان المعادن والاحجار اتفاق كلام غير مسلم اذ له علة وهى التمازج بهيئة خاصة وصورة ومادة وله غاية وهو منفعة الانسان فالتعبير بما قالوه قاصر

رابعاً هذا يفيد حكمته تعالى اذ يقول وما كنا عن الخلق غافلين

خامسا قصة النمل وقول الله تعالى «وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون الى آخر الآية مما نفهم منه اهتمام الانبياء بعلم الحيوان ونعلم أن المسلمين مأمورون بالبحث عن هذه الحشرات والله أعلم

﴿ هل للحيوان حاسة غير الخمس ﴾

ولقد ترى هذا العالم اللورد في كتابه أماط اللثام عن حواس الحيوان وأعرب عن حقيقة حاسة الجهات ومعرفة المناهج والسبل فعقد بابا لذلك صفحة ٥٢ سماه حاسة الجهة ورسم فيه ماأنبأه به (الفرند) وقوله له ماللحمام من حاسة يحس بها ولم يكن ليعطي ماحرمه الانسان وانما ذلك ان الحمامات الطائرات اذا أرادت مكانا قصيا أعددن عدته فطفقن يتدرجن من الاقرب الى القريب للمكان البعيد فالابعد الى جهات كسنة التدريج ونفى عنها حاستها

وهكذا ذكر ما أشار به العلامة (داروين) وقوله ان أضبط حيلة وأقوم سبيل لمعرفة ما للحيوان من حاسة الجهة ان يهاجر في الارض ابتعاداً عن وطنه مسجونا فى صندوق مقفلة عليه ثم يدار مراراً عديده ويفتح لينظرا يرجع الى وطنه فتكون له حاسة ام يضل فلا حاسة له هكذا قال

ولقد صنع ذلك برمته عالم اسمه فابر (Fabre) واختار النحل فوضعها في صندوق وانتبذها مكاناً قصيا ميلا ونصفا وآونة ميلين فلا وربك ما باء لمكانه ورجع لوطنه الا ثلث النحل ولقد كرر ذلك مراراً فكان الثلث يستطيع الرجوع والثلثان تضل فلا تعود وقد كان يعرف ذلك بعلامات بيض يضعها على ظهورها ولقد استشهد بما جرب ان لها حاسة ورد عليه المؤلف العلامة (افبري) يقول لئن صح ذلك فهلا انتبذ بها خمسة اميال ولئن كانت لها حاسة جهة فلن تعوقها تلك الخمسة الاميال ثم ذكر انه اخرج النحل من عشه ٤٠ ياردة فضلت سواء السبيل وحارت وما اهتدت فعلم ان لا حاسة لها تحس بها الجهة هذا محصل ما أورده العلامة فى باب حاسة الحيوان اه

المؤلف فها أنت وقفت على مارسمه هؤلاء العلماء في الالوان وما سطروه في النحل وما أوردوه فى طول أعمار الحيوان وفى حاسة تزيد عما للانسان فتراهم هكذا يتساءلون عن الجزئيات ولعمرى ان خطة العلامة افبرى أحري وأقرب للصواب فلقد قارب فى حكمته الوصول الى خطة حكمائنا وكتب علمائنا وذلك انه لن ينال مخلوق حاسة ولا شكلا ولا قوة الا اذا توقف وجوده عليها أو احتاج فى كماله لها أو لم يتم الا بها وهذه الحيوانات لن تخلق لها الاعين والارجل والاسماع والابصار الا اذا اضطرت اليها وكان لها حكمة فيها واذا كان النبات لم ينل أعيناً لعدم حاجتها أو اسماعاً لعدم نفعها له فهكذا الحيوان لما لم يكن ذا سفر طويل يعوزه للحاسة المعرفة عن الجهة كان خلقها فيه عبثاً وباطلا ولو خلقت حاسة الجهة لكان الانسان بها أحرى وأحق ويا ليت شعرى لم لم تخلق للانسان

نقول ليس كل امرئ مضطرا الى السفر كما يحتاج الى الطعام والشراب والذهاب والاياب فأعطى الحواس التي يحتاج اليها كل امرىء وأما التى يختص بها فريق دون فريق فا كتفى

فيها بالقوة المخيلة الحافظة لصور الطرق والمسالك وأعان عليها الخرط والرسوم وتعلم الفنون الجغرافية والفلكية وهذا كله مصداق قوله تعالى

(وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى — وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون)

ولما وصلت الى هنا ذكرت أن الاجدر بالقارئ اللبيب أن يرجع الى كتابنا جمال العالم الذى تم طبعه في هذه السنة فان فيه من عجائب الحيوان وترتيبه وغرائب أعماله وعجائبه المدهشة مايسر ويبهج الافئدة ويورثها اليقين التام ولنهدك أيها القارئ الآن لمناسبة هذا المقام رسالة صغيرة وهى العقد الثمين في آراء العرب ومذهب droين فنقول

﴿ العقد الثمين ﴾

في اراء العرب ومذهب داروين

لقد ولع الناس خاصتهم وعامتهم في أنديتهم ومدارسهم ومجتمعاتهم بالكلام على مذهب (دورين) الانكليزى وآرائه وظن الاكثرون انه رأى حديث اخترعه ذلك الانكليزى ثم عرضوه على الكتب المقدسة وظنوا مخالفته لها فارتاب كثير في العقائد بلا بينة ولا هدى ولا كتاب منير ومن العجيب ان هذا الآراء توارثها حكماء العرب جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن فلا تكاد تري كتابا من كتبهم التى اعتاص على اكثر النشء فهمها الا وتراه ناظماً لك سلسلة جميلة كانها عقد بهي يتلألأ نضرة وبهاء من المواليد الثلاثة وهى المعدن والنبات والحيوان وبقية العوالم فى سمط واحد من الحكمة العجيبة والنظام المحكم الذى قضى الا يخلو فراغ من ذلك السمط بل يحلى بلؤلؤة من لآلى تلك المخلوقات الشريفة والصور البديعة فى عقول ذوى الفطن والحكمة حتى انك لترى القرد والطاووس والفيل والحصان والبلبل كل ادلى بخاصة فيه الى الانسان حتى استحقت لؤلؤته ان تصاقب

لؤلؤة الانسان فهذا بصورته وهذا بجماله وذاك بذكائه الحاد (حتى انك لتسمعهم يقولون ان لسان الفيل مقلوب ولو اعتدل لنطق) وهذا بأدبه وذاك بصوته ونطقه. فتأمل فيما سيرد عليك من الحقائق فى هذه الرسالة وتعجب كيف كانت هذه الاراء عندهم والناس عنها غافلون وكيف قامت أوربا وقعدت اذ سمعت أن رجلا المانياً علم حصانه الحساب واللغة الالمانية وظنوا ان اقتراب الحصان من الانسان في الادب والذكاء شيء غريب مع انك اذ تسمع ماانتلوه عليك تعلم صحة ماقلناه وغاية الامر ان ماعلمه الالمانى يعد تطبيقاً على ماعلم وانه جزئى تابع لكلى وكم خطر لى أن اكتب اذ ذاك ما يرى به ابناء الشرق آراء ابائهم وحكمائهم ليعلموا أن الحصان جمانة من ذلك العقد الثمين الذي انتظم فى جيد الوجود والرقي في الحياة وأنه ليس شيئاً بدعا ولعمرى أن من درس هذه الرسالة وكان من اولي الذكاء والفهم أصبحت الدنيا أمامه عقداً يضيء بجماله عقله وزالت تلك الاوهام والشكوك الطائرة في عالم الخيال. وسبب تحرير هذه الرسالة انى كنت يوماً جالساً فى منزلى اذا بفتى أقبل علىّ وأخذ يسألني

عن آراء حكماء العرب فى مذهب (دروين) ولنرمز لاسمه بحرف (ا) ولاسمى بحرف(ط)واليك مادار بيننامن الحديث

(ا) عجبت من أهل أوروبا كيف رقوا في صناعة التعليم الى درجة سامية حتى استطاع ذلك الرجل الالمانى أن يرفع الحصان فى الفهم الى درجة تلميذ فى سن الثالثة عشرة وكيف استطاع أن يمكنه من معرفة الاشياء والتمييز بين الالوان والحساب جمعاً وطرحا وضربا وقسمة حتى وصل الى معرفة الكسور (كما ذكرته الجرائد فى هذه الايام) وهذه لها مساس بمذهب (دروين) الانكليزي اذ قال الانسان مشتق من القرد . فمن هذه الحادثة ترى ان الحصان قرب من الانسان في الادراك كما قرب منه القرد في الصورة والتقليد فهل بحث العرب فى هذا الموضوع وماذا قالوا فان جميع اخواني الشبان المتعلمين يحبون أن يقفوا على مادونه أسلافهم من ذلك (ط) هل لك أن تصغى الى مانص عليه الفخر الرازى فى تفسيره لتعلم كيف كانت هذه المسألة معلومة لديهم بل كانت من أبسط المسائل عند صغار الطلبة حتى انك لتراه يذكرها فى تفسير القرآن

الشريف من دلائل الحكمة وعجائب القدرة لا أنها مناط شك وكفر كما يظن كثير من الناس قال رحمه الله تعالى فى سورة الروم عند تفسير قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) التراب أبعد عن قبول الحياة من سائر الاجسام لان العناصر أبعد من المركبات لان المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر ابعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الارواح والنار أقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول رتبها المعدن فانه ممتزج ولها مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات الذي ينبت فى الارض ولا يبرز ولا يرتفع ثم النبات وأعلى مراتبها(وهى مرتبة الاشجار التي تقبل التطعيم ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة) قريبة من أدنى مراتب الحيوان وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي الى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فالانعام ولا سيما الفرس

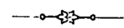
تشبه العتال والحمال والساعى ثم الانسان. وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين . فالله الذى خلق من أبعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو في أعلى المراتب لايكون الا منزهاً عن العجز والجهل ويكون له الحمد على انعام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة اه بالحرف (ا) قد عرفت هذه المسألة اجمالا فأرجوا ايضاح المقام فان الفخر الرازى رحمه الله انما يخاطب قوما يفقهون اجماله والناس الآن لايعلمون شيئاً فى ذلك مما سطره قدماؤنا في مذهبيهم العلمى والعملى فى هذا المقام

﴿ مذهب العرب العلمي ﴾

(المعدن)

(ط) قال علماؤنا ان المواليد الثلاثة وهى المعدن والنبات والحيوان سلسلة واحدة بحيث أن كل طبقة أرقى مما قبلها وأحط مما بعدها فترى الخارصين والرصاص والنحاس والحديد والفضة والذهب وغيرها مرتب بعضها فوق بعض فأرقاها

الذهب وتليه الفضة ثم المعادن الاخرى على اختلاف طبقاتها وانقسم العلماء اذ ذاك قسمين ففريق ظن أن هذه كلها أنواع مستقلة منفصل بعضها عن بعض وفريق زعم أنها أصناف لنوع واحد ومن الفريق الاول ابن سينا ومن الثاني الفارابي فيكون مذهب هذا الاخير فى المعادن مذهب دروين فى الحيوان وبنوا على رأى الفريق الثانى أن الفضة يمكن جعلها ذهباً بعقاقير كيماوية فجدوا فى علم الكيمياء لحدث العمران العظيم فى المعمورة وارتقت المدنية فلم يحصلوا على الذهب الذي كان مطلوبا لهم ولقد أحسن ابن خلدون فى دحض مذاهب هذا الفريق من العلماء اذ خطأهم وأتى ببراهين لم يسبق اليها فيما أعلم وعليه فخلاصة كلام العرب في المعادن أنها درجات بعضها فوق بعض وانه لا يستحيل أحدها الى الآخر



﴿ النبات ﴾

أما النبات فأول حلقة من سلسلته متصلة باخر حلقة من سلسلة المعادن كالنبات الفطرى الذى يحيا ويموت بعد بضع

ساعات فينبت صباحا ويذبل ويموت ضحوة ويظل لاصقاً بالارض كالمعادن اذلا ظهور لها ثم يأخذ فى الترقي شيئاً فشيئاً فما استوفى الشرائط العشرة المعلومة عندهم (كالشوك والحب والنوى وامتياز الذكر عن الأنثى) فهو أرقاها وما تجرد منها فهو أدناها وقالوا ان أعلاها النخل ثم لابد من وجود موجود يكون واسطة بين النبات والحيوان سواء أعلمه الانسان أم جهله ومن العجيب أنه ظهرت فراستهم في الاكتشافات الحديثة اذ علم أن السفنج نبات حيواني فان تلك الكتل التى بأيدينا انما هى عظام ذاك النبات الحيوانى وتلك الثقوب الغائصة فيه كانت مملوءة بمواد هلامية القوام . تقوم مقام لحوم الحيوان وهو ينبت فى أعماق البحار فهو نبات حيوانى اكتشفه المحدثون من الافرنج طبقاً لما ظنه العرب

﴿ الحيوان ﴾

الحيوانات الدنيا

ثم يأخذ الحيوان فى الترقى شيئاً فشيئاً من القواقع والمحار الى ماهو أرقى منها فمنه ماله حاسة واحدة كالديدان التى تكون فى أجواف الحيوانات الكبيرة والثمار وكل مختمر فانما لها حاسة اللمس (اذ لايلزم لها سواها) ثم تترقى شيئاً فشيئاً فمنها ماله حاستان (الشم واللمس فقط) كبعض الديدان التى تأكل الزرع ومنها ماله ثلاث ومنها ماله أربع فيفقد حاسة البصر كالجرذان العائشة فى الظلمة (اذلا معنى لوجود الأعين لها) والحكمة الالهية تقضي أن لايكون عضو بلا منفعة وأعلاها ماله خمس حواس كاغلب الحيوانات المشاهدة . ثم هذه يمتاز بعضها عن بعض فهي درجات مختلفة مرتبة في صورها واحساسها وتمييزها وذكائها درجة بعد درجة

﴿ الحيوانات البائضة ﴾

فمنها ما تبيض بيضها وتتركه فى الهواء والماء كالذباب والبعوض وهى أدناها مرتبة ويليها ما تبيض وتحضن بيضها فيفرخ فتربى أفراخها كالدجاج والطيور وكثير من الحشرات

﴿ الحيوانات اللابنة ﴾

وأرقى منها ماتحمل أولادها في بطونها وترضعها بعد كالانعام والانسان فهذه أرقى مماقبلها لكمال الشفقة فيها والعطف على أولادها ومعرفتها الضار من النافع وأرقى من هذه مازاد ذكاؤها حتى قبلت من الانسان التعليم والتأديب وأخذت تتلقى عنه دروس الحياة واعانته في أعماله وكفلها برحمته وشفقته كالانعام ولقد اقتربت طائفة من عموم الحيوان من الانسان قربا ما بالصورة والشكل كالقردة أو بالذكاء والأدب كالخيل أو بالجمال وحسن الزينة كالطاووس أو بجمال الصوت كالببغاء أو بالذكاء الحاد كالفيل كما أوضحناه فى المقدمة

﴿ الانسان ومصاقبته الحيوان ﴾

ولما ارتقى الانسان جداً عن الحيوان وكانت الحكمة تقتضي أن يتصل كل موجود بآخر لئلا يكون فى المقدمكان خال ولتبقى الدائرة منتظمة والشكل جميلا والاتصال محكما حمل كل فريق من الحيوان خاصة من خواصه وقرب منه بهاوعليه فلا فرجة بين الحيوان والانسان فادنى الانسان مرتبة من لا يكاد يعد العشرة ويقلد في جميع شؤونه غيره وهؤلاء فى أطراف المعمورة كبعض الزنوج وسكان أطراف الروسيا الشمالية ثم يأخذون في الترقى شيئاً فشيئاً حتى اذا كانت المناطق المعتدلة ظهرت فيهم الحكماء والعلماء والانبياء وهم درجات بعضها فوق بعض حتى يتصلوا بعالم الملائكة وهم قريب من الله والله سبحانه وتعالى خلق المادة بعجيب قدرته وباهر حكمته وغريب تصويره وزاهر نقشه ورقشه خلقها فابدع وكورها ودورها ينزل الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة فتعجب وتأمل كيف وضع جل جلاله هذا العالم على نسق بديع ومن ذا يتصور ما قلنا ويفهم ما رسمنا ولا يأخذه العجب من

مادة ميته جامدة تمخضت عن المعدن النافع لنا في قوام حياتنا وكيف وضعه جل جلاله قبل خلق الانسان بملايين من السنين ثم اردفه بالنبات فالحيوان رفقاً منه بنا وفضلا علينا وكيف وضع العوالم مرتبة كأنها دائرة واحدة

﴿ استنتاج ترقيهم العلمى ﴾

(عود) فتأمل تر ان ما قاله دورين هو جزء مما قاله العرب فانه لما نظر فى ظاهر الطبيعة وصور الحيوان واشكاله قال بما قال وظن اشتقاق بعضها من بعض ومن العجيب ان بحثه على ماهو المشهور بين الناس اقتصر على رابطة القرد بالانسان في تلك السلسله مع انك ترى ان بحث العرب اوسع دائرة واقوى مدركاً فى الكيف والكم والاستنتاج اما فى الكيف فانهم لم يروا القرد كافياً فى الارتباط لاختصاصه بالصورة والتقليد وأشركوا معه ذات الصوت الجميل كالبلابل وذات الذكاء كالفيله الى آخره وأما فى الكم فلانهم تناولوا كل موجود من جماد ومعدن ونبات وحيوان وانسان وارتقوا الى الملائكة الكرام اما دروين فقد

حصر بحثه فى قوس من الدائرة (المسماة عندهم دائرة الوجود) ولذلك ترى صحف العالم اجمع اخذت تترنم فى انحاء المعمورة بذكر الرجل الالمانى ومهره فياليت شعرى مايكون حال اولئك الكاتبين اذا وقفوا على آراء العرب ومذاهبهم فى هذا الموضوع اما فى الاستنتاج فانهم ربطوا كل موجود بآخر واوجبوا بمقتضى الحكمة ان لاتخلو مرتبة من المراتب التى يدركها العقل من موجود يشغلها والا كان خللا فى الحكمة وجهلا بالنظام والحكمة تقتضي الافراغ في السلسله المعقولة كما لا فراغ فى المحسوسات (اذ لا فراغ في العالم باجماع علماء الشرق والغرب)

فنرى من هذا ان ارتباط الانسان والحيوان بعضهما ببعض امر معروف قديم عند علمائنا وان (دروين) باحث فيما بحث فيه من قبله وقد قال علماؤنا رحمهم الله في حديث (اكرموا عماتكم النخل المطعمات فى المحل وانها خلقت من طينة ابيكم آدم) انها رمز الى هذه السلسله اى ان ارقى النبات قريب من الحيوان ويرمز لها كذلك قوله عز وجل (والله انبتكم من الارض نباتا) وقوله تعالى (لتركبن طبقا عن طبق) وقوله سبحانه (فاير تقوا

فى الاسباب) وقوله تعالى وقد (خلقكم اطوارا) وقوله تبارك
اسمه(لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في
قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة الآية) ويشير لها بطرف خفى
(فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فتأمل
وتعجب كيف غفل الشرقيون عما سطره قدماؤهم ولم يدركوا
اتصال هذه الكائنات بعضها ببعض الامن مذهب رجل غربى
بحث ونشر مذهبه فظنوا انه مبتدع له .

﴿ المذهب العملى لفلاسفة العرب ﴾

قلنا ان علماءنا جعلوا مراتب المواليد بعضها فوق بعض
ونقول الآن انهم ذكروا أن الحكمة تقضي أن يكون الادنى
مكملا وطعمة للاكمل الاشرف. ألا ترى أن كاملا واحداً خير
من ألف ناقص (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك
كثرة الخبيث) وقد بنيت على هذا الحكمة الشرعية فى جواز
أن يأكل الانسان الحيوان لشرفه عليه وفضله وهكذا الحيوان
يأكل الاكمل فيه الاخس منه . وانك ترى البزاة والصقور

والشواهين خلقت أنيابها محدبة كأنها الخطاطيف والمحاجن وحرم عليها أن تأكل النبات فوجب عليها وجوباً طبيعياً الهيا أن تقتات من الحيوان الذي لا سلاح معه المخلوق بفطرته ليكون قوتا لما هو أرقى منه. ثم قالوا والحكمة تقضي أن يكون الارقي نافعا للادنى يرحمه ويعطف عليه ألا ترى ان الانسان يستخدم الحيوان ويقدم الغذاء له والسيد يطعم خادمه الذى اختص بخدمته وعلى هذه القاعدة جرت سنة الجهاد فلقد شرعه الله عز وجل لتكميل الامم الناقصة الجاهلة بالعلم والعرفان وادخالها فى أحضان الامم القوية لتسيطر عليها وترشدها وتكملها كما يستخلص النبات بجذوره وأغصانه مواد الغذاء من الارض والهواء والماء ويلقى عليها دروس الحياة فتصبح ورقا ناضراً وزهراً باهراً بعد ان كانت مادة ميتة وعنصراً جماداً لانمو فيه ولا ارتقاء فمامثل الامم القويه الا كمثل النبات وما مثل الامة الجاهلة الا كمثل تلك العناصر التى تتلقى عنه دروس الحياة فتصير عصارة فورقا أوزهراً فثمراً. ومن العجيب أن الانسان اختلف في فنون الغلبة على طرق متباينة وأحوال متباعدة

فترى الانبياء ومن على شا كلتهم أرسلوا لتكميل الامم الناقصة ولتربيتها وتهذيبها فما جهادهم الا كما يجاهد الوالد في تثقيف عقل ولده وتدبيره او الطبيب في قطع عضو المريض الفاسد او تضميد جرحه او سقيه دواء مراً فهكذا كان جهادهم فما هم الا آباء والناس أبناؤهم او اطباء والناس مرضي وعليه شرع طاعتهم واحترامهم واعزازهم واجلالهم. اما الامم الفاسقة فقد تدهورت عن سنة الانسانية وتدلت الى حضيض الحيوانية فتقلدت بأشنع حلية كالصقور والشواهين تقتنص الطيور ولا منفعة لها منها يوما ما فهذه مبادىء الانسان وغاياته والسنة العملية الانسانية. انتهى ماقاله علماء العرب في المذهب العملى الانسانى

﴿ مذهب دروين العلمى والقرآن الشريف ﴾

وقال دروين مثل ما قالوا سواء بسواء مؤيداً به مذهب التغلب على الامم الضعيفة ولم يراع في ذلك بالصراحة الشفقة والحنان. وربما اخذنا من كلامه عرضا اذ قال ان العالم لا يبقي فيه الا الاصلح ومن العجيب ان تراه مسطوراً فى كتبنا عند

الخلاف بين الطائفتين المعتزلة واهل السنة فكم صنفوا من كتاب وانشأوا من مقال . فالمعتزلى يقول كما قال دروين من بقاء الاصلح واهل السنة يرجعون الى الاطلاق ولكن بحثهم خاص بعمل الانسان اما حكماؤنا رحمهم الله تعالى فقد فصلوا القول وعمموه في كل صغير وكبير وساروا مع القرآن الشريف خطوة فخطوه وكم في الذكر الحكيم من شاهد على ذلك يقول الله تعالى (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أومتاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال) فكما أن الزبد الذى يعلو وجه الماء والخبث الذى يعلو المعدن عند صوغه وذوبانه بالنار وما يعلو مايطبخه الناس يرمى به جفاء ويبقى الماء فى الاودية والحلى والطعام انفع الناس فكذلك ما كان أصلح يبقى في الوجود

(وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) فهذا أوضح دليل على بقاء الانفع والاحسن

وأن الله تعالى لا يبالى بشيء اذهو قهار وحده يفعل ما يشاء ويرشداليه(فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب) ولو قرأت ماكتبناه (فى المقالات الاصمعية (١) والنظام والاسلام) على الترقى فى الاسلام لعلمت كيف كانت هذه الآية الشريفة نصاً صريحاً فى ان يأخذ الناس بالاحسن فى كل شيء وانهم بذلك يكونون من اولى الالباب وينالون السعادة فى الحياة وبعد الممات ولنقتصر على هذا الآن.ومن أراد الزيادة فعليه بمراجعة تلك المقالات وفيما ذكرناه هناك كفاية للمتبصر

﴿ مسائل موضحة لماتقدم ﴾

(١) ماملخص مذهب دروين (ط) أتريد مذهبه العلمى أم العملى(ا) مذهبه العلمى(ط) اعلم ياأخى أن العلم مبدأ العمل وان الامم وسياساتها تدور رحاها على قطب العلم وكيف يعمل الانسان عملا الاعلى اعتقاد وأساس

(١) المقالات الاصمعية ستكتب فى هذا الكتاب

﴿ أراؤه فى الاعتقاد ﴾

آراؤه مشهورة بين الناس ولكنا نلخصها لك في قالب لا يشذ عنه شيء . نظر النباتات والحيوانات نظرة فرآها على صور واشكال متقاربة متباعدة متفقة مختلفة وذلك ان صورها واشكالها واعضاءها وحواسها وعضلاتها واعصابها وقواها وغرائزها ترى متشابهة فى اعضائها مختلفة فى البعض الآخر فترى من الوفاق بين الحمار والحصان مالا تراه بين احدهما والارنب وترى الباز والصقر يتقاربان كما يباين كل منهما الذباب فأرجع هذه المسائل كلها الى اربعة قواعد

(القاعدة الاولى) تباين الافراد فكل فرد لا يشبه اصله تمام المشابهة وعلى ذلك ترى الذكر والانثى والاختلاف فى الالوان والقوة والضعف وهكذا

(القاعدة الثانية) ان التباين يرثه الفرع عن الاصل ويزيد عليه تباينا آخر وهكذا جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن فعلى توالى السنين والقرون والدهور . وباجتماع تلك التباينات والانقسامات يظهر التمايز واختلاف القوة والضعف فتنشأ

(القاعدة الثالثة) وهى تنازع البقاء وذلك ان ماورث عن اصوله القوة والغريزة والدربة التي بها يبقى فى الوجود فله البقاء وما حاربه الجو والكوارث والحوادث فصرعته فهو الصريع المعدوم من الوجود اذ لا يبقى الا ماهو اقوى واقدر وانفع وهنا نشأت

(القاعدة الرابعة) وهى بقاء الأصلح فلا يبقى بمقتضى تلك النواميس الا ما كان انفع واقوى واصلح ومالا قدرة له على ذلك ولا صلاح فيه فهو الهالك لا محالة . وبتوالى السنين والأعوام والقرون والدهور اخذت الحيوانات في الترقي جيلا بعد جيل حتى وصلت الى القرد وما الانسان الا حيوان من الحيوانات ترقى بالتحسين في الانتخاب الطبيعي حتى بلغ ماهو عليه الآن. ولما كان مشابها للقرد فلا مانع من ان يكون هو واياه اشتقا من اصل واحد وترقيا . ما فلما وصل القرد الى تلك المرتبة وقف عندها واما القرد الانسان فقد ترقى عنه حتى وصل الى ما هو عليه الان بمرور القرون العديدة

وعليه يكون العالم مشبها شجرة ذات فروع اخذت تنمو ووقف بعضها عن الحركه واخذ البعض الاخر في النموو على

ذلك ترى الاغصان القريبـة من الارض وقفت حركتها اما الغصن الأعلى وما حوله فلا يزال ينمو في الهواء وما العـقل والادراك الانسانى الا فعل من ذلك التفاعل الطبيعى فى جسم الانسان بل ادراك الحيوان وتمييزه كعقل الانسان واختلفا كما وكيفا لا ذاتا.وكما اختلفت الاجسام بالترقى اختلفت العقول وكم لديه من شواهد ترجع الى الظنون وكم رد عليه من اناس فى الغرب ومن ادلته انهم لم يعثروا بالحفر فى اغوار الارض العميقة على الانسان وعثروا على الحيوانات الاخرى فهو آخر ما خلق والا لكان معها اينما حلت في طبقات الارض ولقد اطال فى الـكلام على الاعضاء الاثرية والمشابهة بين حيوان وآخر في ظلمات الارض وعقد بابا واسعا في اللغات وتباينها واختلافها وتفرعها وانتخاب الاصلح منها ونبـذ القديم المهجور ، وهجر المنبوذ المطروح ، وقارن بين اللغات الشرقية والغربية . ولقد ردّ عليه خصومه واطالوا فى ذلك اما نحن فنقول ان هذه من الاقيسة التمثيلية ولا فائدة لها الا في الظن والتخمين والحدس وتأخر الانسان فى الوجود هو الذي وردت به السنة الصحيحة

واجمع عليه علماؤنا .هذا ملخص مذهب الرجل بحيث انك
لو قرأت كتبه من اولها الى آخرها لم تستخلص منها سوى ماقلنا
(ا) كنى كنى . عرفت مذهب الرجل وفهمته وتصورت
كيف سار في ادلته وبراهينه وها انا الآن اتذكر ما سمعته
منكم فى المقال السابق ولقد حضر في ذهنى صورة المذهبين معاً
فأولئك راوا مشابهة الحيوانات والنبات وافتراقها واختلافها
وترقى بعضها عن بعض في الشكل واللون والصورة والاعضاء
والفرائز . وهكذا النباتات والمعادن والعناصر فأرجعوها الى
سلسله واحدة تقتضيها الحكمة والنموذج الجميل وكأنهم راوا
ان كل شيء يجرى فى العالم بنظام واتقان كالزهرة فانا نرى ان
اوراقها متناسبة ولونها جميل وهكذا اوراق الشجرة تحذو
حذواً واحداً وبالجمله فانك ترى كل شيء حسنا فى الحكمة
والسنن الاصلح فحكموا ان لا فراغ بين الموجودات ولا درجة
خالية والا لم يكن هناك تناسب فيكون التحسين في الافراد
لا في المجموع وهو خلاف للكمال الذى نراه

اما(داروين) فانه احضر بذهنه صورة اخري عند ما

راى هذا التشابه فانظر كيف اتحد النظران واختلفت النتيجتان وعندى ان ما ذكره العرب اقرب الى الصواب واعم كيف لا وهم أدخلوا فى هذا الترتيب المعادن وغيرها وهذا لم يذكر الا النبات والحيوان فى تصوره قصور أو تقصير ولكننى أعجب كيف يكون للعرب قول وتفصيل كما سمعت منكم ولا يذاع بل ينتشر مذهب الرجل الغربى في الشرق؟

(ط) اعلم أن سلسلة العلم انقطعت من الشرق من نحو سبع قرون (اللهم الا فى العلوم الشرعية) حتى داهمنا الافرنج فنشروا كتبهم بيننا فقرأها الناس فظنوها مذهباً جديداً وما هو بجديد. ثم الجديد فيه الاشتقاق أما مشابهة الحيوان بعضه بعضاً وأن القرد ملاصق للانسان في المرتبة فهذا أمر قديم بل الاقدمون كانوا أعلم من هؤلاء فى هذا المقام ألا ترى انهم عدوا من الحيوانات الملاصقة للانسان القرد والحصان والفيل والطاووس والبلبل فى الصورة والادب والذكاء والجمال والكلام

أما داروين فلم يقل الا بالقرد وحده وهو قصور ظاهر وضعفه فى اقتصاره على قوس من الدائرة وياليت القوس كان

تاماً فى نفسه اذ لم يتمكنوا من وصل الانسان بالحيوان الا في عروة واحدة كما علمت مما فصل فيما مضى وها نحن أخذنا على عهدتنا نشر مذهب العرب بين الناس وستأخذ الاقلام مجالها في الشرق الغرب فى المقارنة بينهما

(ا) هل مذهب دروين ينافى الدين وقصة آدم في القرآن الشريف .

(ط) ان هذه القصص التي ورد بها القرآن الشريف ليس كل المراد منها مصادرها بل غاياتها وعليه فهي ليست تاريخاً طبيعياً فقط وانما جاءت بنوع أخص لمصالح عامة كسياسة البشر في أحوالهم النفسية والعامة وسنريك بأجلى بيان سرها وكيف كانت مبدأ للحكومات النيابية لتقف على جمال هذه القصة بحيث تقول عند ما نريك عجائبها وغرائبها (فنحن بوادو الحبيب بواد) ان الذى ورد في القرآن الحكيم جاء عظات وضرب أمثال للناس لعلهم يفقهون فيكون ذلك كنايات يراد ظاهرها وباطنها .

فان قلت ان ظاهرها مخالف لكلام هذا الافرنجي فاعلم أنهم لا يؤولون من الآيات الشريفة الا ما ثبت منها بالعقل مخالفته

لظواهرها . فلئن ثبت ماقاله درون ولم يبق مجال للشك فيه فضلا عن وجود ماهو أرقى منه فلا محالة يؤولونها ويرجعونها الى مذهبه والمجاز شيء سهل في العربية. أما وقد علمنا أن هناك شكا فى كلامه اذ كثير من العلماء فى أوروبا الفوا كتباً وردوا عليه وشنعوا فضلا عن ان ماسطره فلاسفة المسلمين في مباحثهم أقوى وأجمل فكيف تؤول الآيات له وهو لم يزل مذهبا ضعيفا

(ا) لم ذا ذكر الله تعالى هذه القصة على لسان رسله الكرام وهو سبحانه وتعالى يعلم ماينتج منها من الشكوك والاوهام. فان الشبان الشرقيين يشكون فى عقائدهم بكلمة مثل هذه وان لم يفقهوا معناها وهل ينزل الله تبارك وتعالى قصة تكون سبباً في اثارة الشكوك والاوهام والخلاف والجدل وهو سبحانه أعلم بعباده وبمصالحهم ويعلم انه سيخلق درون ويسمع الناس كلامه قبل ظهور رسالتك هذه فكيف هذا وهو عز وجل يقول (الذي أحسن كل شيء خلقه الآية) فما الحسن فى هذا

(ط) اعلم أن انزال هذه القصة قصد به ترقي الامم وذلك أن الناس متى قارنوا بما سمعوه عن العلماء ما قرأوه في الكتاب

السماوى ثارت الشكوك والشكوك مبدأ العلوم وكما ان الحرب روح الاجتهاد ومحو رد ولاب العمل والنشاط والرقى فهكذا الشكوك عليها يدور فلك الحركة الفكرية الموجبة للسعى في تحصيل العرفان وكما ان الجوع باعث على طلب الطعام فكهذا الشك يكون موجباً للعرفان بل قال بعض علماء التوحيد أول واجب على المكلف الشك وهذا الكلام وان يكن خلاف الاحق والاولى ولكنه تنبيه على الايقين الا بالبحث والتنقيب. فرجع القول الى أن هذه القصة من أسباب الرقى الذى وضعه الله عز وجل فى الارض فنفس هذه الآية ونزولها وبحثك عن الحقيقة موافق كل الموافقة لمذهب الرجل

﴿ الله والناس ﴾

وترى بعض القوم لا يصلون الحقائق في مثل هذا وهؤلاء لا عبرة بهم بل المقصود بالقول هم اولو العلم والعرفان ومن عداهم فتمسكهم بالظواهر أسلم لهم

وترى الله تعالى في تعليمه الناس وارشاده اياهم (وله المثل

الاعلى) كاستاذ يعلم تلاميذه فتراه يعرب فى مقاله وقد يصرح تارة ويرمزأخرى رمزاً لا يخفي على اولى الالباب فتلك الارشادات واللطائف لايفهمها الا الراسخون في العلم

(ا) قد فهمت هذا ولكنى أحب ان افهم ماهو المقصود من قصة آدم وماتلك النتيجة التي استخلصتها منها

(ط) خلاصتها وثمرتها امران سياسة النفس وسياسة الامة اما الاول فانه يشير بخلقه اياه من نخار الى قوة الشهوة والغضب فى الانسان فأولاهما بطبيعته الارضية التى هي مادة الغذاء والثانية بالحرارة الواردة عليها التى اوصلتها الى الفخارية وما الشهوة فينا الا ما يدعو الى الغذاء المشتق من الطين وما الغضب الا النار فى النفوس وقد اوضح هذا الامام الغزالى فى الاحياء

واما سياسة الامة فان خلافة آدم فى الارض انما هى ان يسلك مسلك ملك الملوك ومدبر شؤون العالم الارضي . ولا ريب ان كل بنى آدم مستعدون لهذا فترى كلا منهم ركب فيه غريزة فائضة عليه من سماء القدس الاعلى واستوت على قلبه

فأنارت له سبلا حالكة الظلام في دجنة الطبيعة فكل آدمي مأمور من قبل مدبر العالم ومنظمه ان يسير على ما سنه مبدع الكون من النواميس ليحقق الخلافة قال الله تبارك وتعالى (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين) فكل بنى آدم خلفاء الارض كأبيهم فهم وارثون له

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وفى الحديث الشريف (كلكم راع وكل راع مسؤل عن رعيته) وقال تعالى مخاطباً للعالمين كافة (امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض الاية) فانظر كيف ذكر كل مسلم وسماه خليفة واذا علمت ذلك أقول

ان الامة اذا سمعت بهذه الخلافة فان كانت من الامم المنحطة اعتبرت ذلك فى واحد وجعلته نائباً عن الله تعالى وحكمته في ارواحها وانفسها وأهليها فغفر الذنوب لها وقتل الابرياء وهؤلاء هم كهنة المصريين القدماء أوقدماء الاوروبيين الذين لم تزل لهم باقية الى الان فبعض الممالك يظنون ملكهم نائباً عن ربهم ومثلهم فى الاسلام من أمنوا بالحاكم بأمر الله

وهكذا نرى كثيراً ممن فسدت طرقهم من الصوفية الجهلة فاذا ارتفعت الامة واستنارت عقول افرادها أيقنت أن الحكومة المطلقة لا أصل لها لا عقلا ولا شرعا وان كل فرد خليفة فيبدى أراءه فى الامور العامة والخاصة وينشر مبادئه على الملا ويكون على قدم ابيه ابراهيم (ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً وهذا معنى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) بالعقول والاراء والاستنتاج ولذلك قال بعدها (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فكوننا خير أمة انما يكون بهذه الثلاثة الخصال وهل يأمر بالمعروف ويؤثر فى الناس من لم تستقر آراؤه وهل ينهى عن المنكر بالتأثير الا معتقد الضرر فيه . ولا معنى للايمان الا الاطمئنان بالبرهان والنظر وعليه قال كثير من علمائنا إيمان بلا نظر شجر بلا ثمر ينفع فى الدنيا وهو في الاخرة هباء فى الهواء وذرة طارت فى الرياح ومتى تعلم المرء الحرية فى قوله وعمله طالب الحكومة وألزمها وأقنعها وجاهر برأيه وعليه فكل امرئ فى الحياة يجب عليه ان يجد فى انتشال امته ولا يتقاعد اتكالا على سواه لأنه الخليفة وعليه

يصبح الرعاة من الملك الى العامل الى الكاتب منفذين لرغائب الامة خدامالها لا انهم هم المسيطرون عليها القاهرون لها. فعامة الامة يفهمون ان الخلافة خاصة والخاصة يفهمون انها عامة فالعموم للخصوص والخصوص للعموم . ولذلك ترى الامة كلما سارت على سنن المدنية والعرفان أوقفت الرؤساء عند حدهم وارتهم أنهم نواب لا قاهرون

(ا) كلام الله منزل من عالم القدس على قلوب البشر فكيف يكون له فهمان وهل تفهم العامة مالا تفهمه الخاصة ؟

(ط) ان مثل كلام الله كمثل فعله فكما ان الغذاء فعل الله فهكذا كلامه فترى المريض يتناول الخبز فيضره ويؤخر شفاءه ويتناوله الاصحاء فلا يمرضون بل اذا تركوه مرضوا فهكذا فليكن كلامه عز وجل يسمعه الرجل المعتل النفس فيفهمه بمقدار ما اعطى من العقل وترى ذلك الحكيم ينزل الكلام منزلته من السمو والعلو والحكمة والشرف وهل تسمع دليلا على قولنا اقوي من قوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين) فسألة الخلافة فى الارض ترجع الى كل

امرئ. وهم بطريق الانتخاب يصطفون منهم أوسطهم واعلمهم ويقرب هذا قول الاعرابي لعمر رضي الله عنه (لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا) فمعنى هـذا انه كان نائبا عنهم فى شؤونهم العامة تحت مراقبتهم ونظرهم فهذا مقصد الآية

اما الامم المنحطة فتخضع للحاكم الجائر ظنا منها انه خليفة يتصرف في الارض فاذا اقبل هلعت القلوب ووجلت النفوس وارهب بخيله ورجله وشارك الرعية في الاموال والاولاد واوعدهم و .عدهم واذا ادبر ترك أثر السطوة في النفوس والقهر في القلوب وهذا ناشيء من الجهل باسرار الخليفة الانسانية فاذا عرفتها الامة فليس لها مناص من الثورة العامة والمجاهدة واستحلاء مرارة الموت واستمراء طعمه الزؤام فهل نزل القرآن لمثل هذه ام للبحث عن أصل خلقة القرد والحمار وغيرهما كلا ثم كلا فان لدين مبنى على النصح والارشاد .

﴿ اراء علماء العرب ومذهب دورين ﴾

النتيجة من ذلك المقال

العلماء قديماً وحديثاً يبحثون عن هذا العالم ففلاسفة العرب يقولون ان المعدن والنبات والحيوان سلسلة متصلة الحلقات كأنما أفرغت في قالب من الجمال يبهر أبصار الناظرين ويشغل تصور المفكرين كما شغلهم بالنظر الى الورد وغيره من الزهور فى جمالها وانتظام اوراقها وسير الكواكب وحساب السنين وبعض القدماء من اليونانيين على ان الانسان اصله خنزير وصار الى ما ترى بالاشتقاق والتوالد والتكاثر والترقي والتباين والارث وبقاء الاصلح وداروين يقول أنه اشتق بعضه من بعض كما قال من قبله والانسان من القرد لا من الخنزير .

﴿ الحقيقة ﴾

الحقيقة ان هذا العالم موضوع على غاية من الاتقان والتناسق وكل قوم يعبرون عن هذا الاتقان بما تسعه مخيلاتهم وتصل اليه تصوراتهم ففلاسفة العرب رجعوا في حكمهم الى الحكمة والكمال وغيرهم رجع الى العادة وما يجرى امام عينيه

كل يوم وان كان فيه نقص اذ ان الحكم بالجزئى على الكلى ظنى لا يقيد فى المنطق وهذه الاقوال وان كانت ظنوناً ولكن مارآه العرب اقرب الى الصواب .

أما الدين فلا علاقة له بهذه المسألة اصلا ومن ألصقها به فقد جهل من حيث يدري ولا يدرى وانك ترى الرجل المدعي انه متدين ينكر على قوم اراءهم ومذاهبهم التى تلقفوها فيقابلونه بالمثل ويشكون في عقائدهم ونحن تلقاء هذه المسئلة نرجع الى رأى السلف الصالح رضوان الله عليهم اجمعين . ونفوض علم خلق الانسان الى الله تبارك وتعالى وهو عز وجل يقول في كتابه العزيز (أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين) ثم بين تبارك وتعالى خلق الانسان في اية اخرى فقال عز وجل (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً أخر فتبارك الله احسن الخالقين) ولم يبين لنا فى هذه الآية الشريفة ادوار حياة ادم وتقلبه وكيفية فطرته وما الذى طرأ

عليه فاذا سئلنا عن ذلك من حيث الدين قلنا لا علم لنا بذلك ونكل العلم بكل ذلك الى الله تبارك وتعالى وديننا الشريف لا يجزم بشيء لا بمذهب العرب ولا بمذهب درون ولا بمذهب بعض اليونان

فيا عجبا كيف يدعي قوم ان القرآن جاء لمثل هذا ومبدع هذا النظام خلق العقول وامرنا بالتفكر فهل قرآننا الشريف كرة يتلقفها اصحاب مذهب بعد اصحاب مذهب آخر ولو رأينا ما ذهب اليه اليوناني لقلنا ان الانسان مرّ على الخنزير في ادوار حياته ولو رأينا المذهب الدرويني لقلنا ان اصله القرد ومن لنا ان يقف العقل الانساني عند هذا الحد . هل نأمن ان تقوم مذاهب اخرى جديدة فيتبع الجهلاء القرآن الشريف لها انه اذن يكون (والعياذ بالله) في ايدي البشر يؤولونه كما يشاؤون ولله در القائل

كرة طرحت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

فليترك أولئك الناس القرآن الحكيم على ظاهره ولا يقطع فيه بمذهب من المذاهب وليرجع في تلك الآيات الشريفة الى

الحكم العالية المقصودة منها

ولقد ذكرنا في مقالنا السابق مافيه كفاية لمن اقتنع ونترك للعقول مجال البحث والتنقيب. لانه باتحاد الشرقى والغربى وتجدد الاراء تتولد علوم ومعارف وتسمو آداب وتشعب ناشئة يقومون بالامة وينهضون باخوانهم الى المدنية والحضارة ولماذا يا أيها القوم نترك آداب السلف الصالح

فاذا سألك سائل عن مذهب دروين وعلاقته بالدين فقل انه لا علاقة له به وأما من جهة آراء العقلاء فكلها تكاد تكون متقاربة على ان أقربها للصواب كما قلنا مذهب العرب واعل هذا المقال الذى حررناه يكفي لحسم الكلام فى هذا المقام وبالله التوفيق

(ا) أنت ذكرت الفخر الرازي فهلا ذكرت رأيه (ط) الفخر الرازى رحمه الله يميل فى كلامه الى عدم الاشتقاق كما هو مذهب حكمائنا رحمهم الله تعالى ولكنه لم يستدل الا باذا الفجائية في قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) هذه المفاجأة دالة على ان الانسان لم يمر على

المعدن فالنبات فالحيوان بل خلق من التراب مباشرة وهذا مجرد استدلال للاستظهار لا انه قاطع بذلك والا فان اذا الفجائية كثير ورودها فى القرآن الشريف وفى كلام الفصحاء من العرب وهى في كل جملة بحسبها ألا ترى انه ورد في الذكر الحكيم قوله تعالى (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة : فاذا هو خصيم مبين) مع انك تري أن بين كون الانسان نطفة وبين جداله طبقات كثيرة علقة فمضغة فعظما فخلقا آخر فطفلا فراهقاً فشابا ففتى وهنا يكون الخصام ومن ذلك تعلم انه ليس عندنا دليل على احد المذهبين بل ذلك موكول الى الله عز وجل

وقد روى أن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه لما سمع قول الله عز وجل (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا) قال بالبته تم فعلم من ذاك أن هل بمعنى قد لا انها للاستفهام والحين المقدار من الزمن

وان اردت زيادة الايضاح والافصاح قلنا ان العلامة الفخر الرازى رضي الله عنه قال ان آدم مكث اربعين سنة وهو طين الى ان نفخ فيه الروح

وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ان آدم بقى طيناً اربعين سنة وبقى صلصالا كذلك وبقى اربعين أيضاً وهو حمأ مسنون وعلى ذلك يكون قدتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة وما ندرى ما تلك السنون أهي مثل سنينا أم هى من أيام الله تعالى التي يعد كل يوم منها بمقدار ألف سنة أو خمسين الفاً او أكثر اواقل

كل هذا في علم الله تعالى وانما ذكر لكي يتفكر البشر ويعقلوا ويعلموا ماهيات الاشياء بعقولهم ويحصل الترقى بواسطة البحث والتنقيب وقال الحسن رضي الله تعالى عنه خلق الله الاشياء مايرى منها ومالا يرى من دواب البر والبحر فى الايام الستة التى خلق فيها السموات والارض وآخر ماخلق آدم عليه السلام وكل هذا يدل على اتفاق العلماء عامة واهل ديننا خاصة ان الانسان اخر المخلوقات وفقا لما اكتشفه الافرنج ورآه حكماء العرب وان هناك مدة مرت على تكوينه عبر الله سبحانه وتعالى عنها بلفظ الحين والحين مجهول فنكل علمه الى الخالق عز وجل

﴿ بهجة القول وجماله ﴾

لقد اوضحنا المقام ايضاحا يفهمه المتوسطون في العلم والاذكياء ولعمرى ان من يفطن لما رسمنا وقرأ مليا ما كتبنا وتأمل فيما نظمنا لاح له من خلال جمال قصة آدم والكون وجماله امران على محورهما يدور دولاب الحياة الدنيا والاخرة الا وهما الاعتقاد والعمل فان قصة آدم وخلقه من طين وخلافته فى الارض مارسمت فى الذكر الحكيم الا لترشد في الدارين وتهدى الى اجمل النجدين والسير على المنهاج السوي

يقول الله تبارك وتعالى (ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون) وهذا هدى للعقول وسوق لها الى منابع الحكم ومجامع الجمال فيا عجبا كيف يشتق من تراب برد طبعه واسود وجهه واغبرت ارضه وداسته الاقدام وسيم الخسف فسكنت حركته وكان على الارض تصرفه الرياح انى شاء اثقل المخلوقات وابعدها عن الحركه جذبته القوة المركزية فاعتلى عليه الماء والهواء فاذا كانت هذه هى حال التراب فى خلقته ودأبه في فطرته فكيف تقلب فى اطوار وتشكل فى

ادوار وتخمر ثم صار سلالة من الكدر وغدا (بعد ايام لا يعرف مبتداها ولا يدرى منتهاها) بشرا سويا نضر الوجه باسم الثغر (لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم) بعد ان لم يكن شيئا مذكورا . ثم انه بعد امتزاج هذه العناصر وتكونها وتنسيقها وتحسينها صار بشراً سويا بتلك الحكمة الباهرة وقد ورد في آية أخرى (أنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا) ولعمر الحق أن من العجيب أن ترتسم على شبكية الحدقة جميع المشاهدات فى الارض والسماء والعين نظير غيرها من الحواس والاعضاء مخلوقة من التراب والاعجب أن تلك الحدقة الصغيرة البهية المصقولة تسع هذه الصور والاشباح بلا تزاحم ولا تداخل

وكيف تكون هذه الغرائب والبدائع كلها من الطين المخلوق منه أول انسان وبنوه اذ هم باغتذائهم من الحيوان والنبات المغتذيين من الطين يتغذون منه بهذه الواسطة فياليت شعري كيف صور ذلك الجمال ومن ذا الذى يرى التراب ثم يفكر يوماما انه يتشكل سمعاً يميز الاصوات الدقيقة والالحان

الرقيقة ويحكم عقله بين العباد ويرى العالم كله وينتقل من مكان
الى مكان ويرسم ما فى العالم على الورق ويعبر عنه بحروف
واشكال وأصوات أو يرسم لتلك الكلمات صوراً أو يخزن ذلك
كله في عالم عقله المجهول الذات المعلوم الصفة

أليس ذلك الجمال والبهاء دالا على حكمة بالغة وقدرة عجيبة
وتدبير محكم . هذا هو الوجه الاعتقادي العلمى الذي يرجع
النفس الى التبصر والتفكر . والوجه الثانى ان الله تعالي يقول
عن آدم وذريته انهم خلفاء (ويجعلكم خلفاء الارض) ولا بد
أن يكون في الخليقة نموذج ممن استخلفه وهو الله عز وجل
وهذا تنبيه على ان كل فرد من نوع الانسان خلق بفطرته
مستعداً للحرية في الرأى والعمل مع نهج الصراط السوى ولا
ريب أن ذلك يدعو الى أن يعرف المرء ماله وما عليه فيخدم
الامة وتخدمه ويرحمها وترحمه ويقاتل أعداءها ويوالى أولياءها
واذا كان كل فرد كأنه أمة فى نفسه وخليفة عن ربه فلا جرم
لا يسود عليهم الا من أتسم بأظهر شروط القيادة العامة وأتمها
ومتى عرف كل انه محاسب على أمته وخليفة على ما أودع من

الاسرار والعلوم والقوة والنطق وبذلها في منفعتها الخاصة بها حفظاً لمركز الخلافة كثر الاختراع والاكتشاف والنظم والتحرير اذ كل يعلم انه أمة في نفسه

﴿ انظر معي الى هذا الجمال ﴾

دع الفلاسفة وشؤونهم وآراءهم واختلافهم. وقف معي في هذا الفضاء الشاسع وحدق ببصرك فيما لا يتناهى بعده من العالم تجده ذا رقش ونقش وعجائب وغرائب أصلها الاثير لا لون له ولا وصف ولا جرم عرفه الحكماء بعقولهم أبعد عن الحواس بعد المادة عنه ثم أخذ يقرب من الحس شيئاً فشيئاً (طبقاً عن طبق) عبر عنه بالدخان (ثم استوى الى السماء وهي دخان) ولعمري ما الدخان الا المادة في ابان عمايتها وتبعثرها وهي تتحرك ذات اليمين وذات الشمال وأعلى وأسفل فتطورت وتصورت وتكورت كرة كرة فكانت شمساً وبدراً وأهله وسيارات وتوابع ونيازك (فأشرقت الارض بنور ربها)

وأخذت تلك الكرات تدور وتسير في مدارات متناسقة

متتابعة . فلو رأيت قوانينها وخواصها لادهشك جمال وضعها كما بهرك حسن ضيائها (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقد كان من تلك الكرات أرضنا وقد ضمنت عناصر ومعادن تربو على السبعين فانظر كيف جمل الاثير

وتمخض عناصر مختلفات ومعادن أبهى منظراً وأجل نفعاً وتلك المعادن درجات وطبقات ذات بهجة فى المنظر والتركيب والنظام والترتيب والابداع وعليها أنهار جاريات وبحار شاسعات وعيون نابعات وجبال شامخات وثلوج بيض ناصعات ورياح ذاريات وأشجار مثمرات وأزهار باهرات وحدائق وجنات وقد تكون الانسان نخلق فى أحسن تركيب وأجمل صورة وأبدع منظراً (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم).

اذا تأملت في هذا العقد النضير والجوهر الثمين رأيت نعيما وملكا كبيرا وسعدت نفسك بجمالها وبهائها بما ارتسم من حكمة واتقان صنع فانظر ماترى فى الانسان

قامة اعتدلت ونفس استوت وسمع وبصر وشم وذوق ولمس ومنظر باهر وحسن ظاهر فتبارك البارى جل وعلا . ثم

تتأمل فترى عقلا وفكراً وذكراً وخيالا فانظر معى أليست نفس الانسان نتيجة هذا الابداع أليست تحوى ماارتسم على شبكية العين وما أودع في الاذان من النغمات والاصوات والحروف وما ذاقه الذوق وأوصلته الخياشيم من الروائح فما النفس الا لوح ترتسم عليه الصور التي تكونت فيما مضى وفيما هو آت فانظر ما هو المبدأ وماهو المنتهى أليس من العجيب أن ينقلب الطين في أدواره حالا بعد حال نباتاً فطعاماً فكيموساً وكيلوساً فمادة صفراء فدماً في الكبد فالقلب فلحماً فشحماً فيفاض عليه نفس وعقل وترسم فيه جميع ماصورته وسطرته يد الحواس وما ألقى عليه من دروس الاحساس والوجدان وكل ما حوت الدفاتر وأوحي الى الانبياء فياليت شعرى أين هذا الجمال والبهاء من ذلك الطين المظلم الكدر (ان ربك هو الخلاق العليم) ويشير الى ذلك الابداع في ترتيب المواليد وخلق الانسان في قوله (الذي أحسن كل شيء خلقه) وفيه اشاره الى سلسلة الموجودات وهذا نموذج من آراء الغرب والشرق والعجم والعرب.

﴿ أيها الانسان ﴾

سجدت الملائكة لابيك آدم ولكن ذلك السجود سجود حب لا سجود قهر لما ظهر لهم وبهر من العلم والعرفان والعالم العامل محبوب فلماذا لا تحس بمقامك وعظيم قدرك وتوجه عنايتك الى ما ذرأ لك ربك وأفاضه فى العالم مما أملاه على صفحات الطبائع

وجه قلبك وفكرك الى كنوز الارض ومعادنها وخيراتها ومطالبها يفتح لك باب الخير والسعادة لان الاشياء تحبك اذ سجدت الملائكة لابيك محبة وشوقاً ومن أحب انساناً أعطاه ما ملكت يداه عن طيب خاطر ومحبة وشوق فالعالم مسخر لك بدليل قوله تعالى (هو الذى جعل لكم الارض ذلولا) أيها الانسان أنت مخلوق من طين مودع فيك العقل والعرفان والعلم والقدرة والفهم والمزاج والفكر يصل الى الافلاك فى علوها ويدارج النمال فى مدابها ويناله القبض والبسط فلا تيأس أيها الانسان من روح الله ان كنت في جهل أو فقر أو مرض فانك فى مرضك وذلك وجهلك وفقرك أقرب الى الصحة والعز

والعلم والغنى من طين لم يكن شيئاً مذكورا ثم أفاض عليك النعمة مفبض الخير فصرت بشراً سويا ولو أنك قست ووازيت في الوجود لوجدت أن النسبة بين هذين أبعد بالآلاف مما بين المريض والصحيح والفقير والغنى والعالم والجاهل (لا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لانهم لم يعقلوا نواميسه التي وضعها ولم توقظهم حكمة الله في خلقه ولم يفطنوا أنهم كانوا طيناً حيناً ما فصاروا أعلى العالمين.

ترشدك قصة أبيك آدم ان استعدادك يصل بك الى أرقي ما يصل اليه فكر الانسان ثم متى تم استعدادك واقترن به اسعادك فلتجد ولتتعرض لنفحات الله عز وجل (ان لربكم في أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها) وأني أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعاً صالحين مصلحين ترشدك قصة أبيك ان تكون أبا شفوقاً براً رحيما تراعي الوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وتقول للناس حسناً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ترشد الضال وتعلم وتنادي بالاصلاح وتكون كالشمس في النفع والاضاءة وكالنجم في الرفعة والهدى

﴿ خطاب المؤلف لاذكياء الامة ﴾

كم عير الغربيون الشرقيين بأن قواهم العقلية وغرائزهم الفطرية لن تسمو الا الى الادب ولن تعانق الا الخيال وانهم من الحكمة محرومون وعن العلوم العقلية والطبيعية عاجزون

اليك أيها القاريء أهدى هذه الكتب مفصلة موضحة ما بين مختصر ومطول فاذاصفا الوقت وطاب الزمان واعتدل الهواء فاجلس فى حديقتك وسامر الزهور وباسم النور ثم مد يدك الى كتاب جمال العالم تجده جنة زاهية الافنان زاهرة الاغصان تقرأ فيه غرائب الحكمة وعجائب الخلقة ثم طالع جواهر العلوم تجد محاورة جميلة ما بين فتى وفتاة يتسامران فى أنواع العلوم العقلية والنقلية ما بين علوى وسفلى فبينما هما يقتطفان الزهور من أغصانها تراهمارصدا النجوم في أبراجها والسيارات فى مداراتها وتارة تراهما يتنافشان الهندسة والحساب وطوراً تلحظهما يتهاديان الملح والآ داب. وآونة تلقاهما حكيمين يتناظران وآنا تجدهما محدثين ومفسرين للقرآن فاذا فرغت منه فاقرأ

ميزان الجواهر وهناك ترى الحكمة قد جلبت في حبرها وأضاءت في لالائها. ترى فلسفة المحدثين والقدماء اتحدتا وامتزجتا بعبارة يألفها المتوسطون فى العلم ولن تشذ عن المبتدئين ويشتاقها المنتهون ثم النظام والاسلام وهناك ترى مقالات تسر الناظرين ثم اقرأ هذا الكتاب (نظام العالم والامم) فاذا فرغت منها فقد قرأت الحكمة بأسرها وصرت مع أولى العلم الذين قال الله فيهم (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكه وأولوا العلم قائما بالقسط).

ولعمري لن يعرف القسط والعدل الا من عرف هذه العجائب وشاهد حساب النجوم وترتيب الافلاك ونظام الحيوان والنبات وترتيب الامم ونظامها (أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً)

سطر	صفحة	صواب	خطأ
٢	٢	ولبشوقك	ولتشوقك
٦	٦٣	لشد	اشدة
١٠	٨٢	الشطرنج	الشطر
٧	٩٣	قلت ٢٠ قلت	قلت قلت
١٠	١٠٧	تذكر	أتذكر
٦	١١٠	احياء	حياء
٦	١٣٣	يسعي	تسعي
٥	٢٠٣	وفى كل	فى وكل
٦	٢٠٣	الظلال	الظل
١٤	٢٠٤	وكما	كما
١٠	٢٠٦	لحصت	لحظت
٧	٢٠٧	اثنتي عشرة	اثنى عشر
٤	٢٢٧	ازن	أذن
١	٢٢٨	ذلك	وذلك
٨	٢٣٠	لاشرف من على	لاشرف على
١١	٢٣٤	لاتتبدل	لاتستبدل
٥	٢٥٤	نريد	تريد
٧	٢٥٤	حر وضوء	حرضوء
٨	٢٥٤	سحاباً	سحايا
١٠	٢٥٦	بناءكم	أبناءكم
٦	٢٥٩	المريخ	المريج

سطر	صفحة	صواب	خطأ
٢	٢٦٦	المجوعه الشمسيه	المجوعه الشميه
١٢	٢٦٦	فوبس	فويس
٤	٢٦٧	مقربة	مقربه
١	٢٦٨	أورانوس	أورانومس
٥	٢٧٠	فيخزن	فينخزن
٨	٢٧٢	فشمسنا	فجمسنا
١١	٢٧٢	الكوكب	الكوكت
٦	٢٧٣	ولتنظر	ولتنظر
٢	٢٧٤	الكوكب	الكواكب
٥	٢٧٤	معلوما	معلوم
١	٢٧٥	دائرة	دائره
٢	٢٨٠	فوقه	فوق
٩	٢٨٤	نفوراً	تفوراً
١	من٨٩الى٣٠٠	الكلام على دائرةالوجود	اختلاف القطبين منظراً
١٤	٢٩٤	من النجم	من النبات
٩	٢٩٥	اذا	اذ
١٥	٢٩٥	ذلك	دلك
١٠	٢٩٨	الصيانة	الصبان
٨	٢٩٩	بورثنة	بورثته
٢	٣٠٠	لم يتسن	لم يتسين
٨	٣٠٠	الباديه	البادويه

سطر	صفحة	صواب	خطأ
١٣	٣٠١	فالنبات	فالبنات
٤	٣١٣	الغليظ	الغليط
٥	٣٢٢	تحفظ	تحقط
٣	٣٣٠	٣٥٫٥٠	٥٫٥٠
١٠	٣٣٢	نظرنا	نظرنا
١٣	٣٣٢	رأيت	رأيث
٧	٣٣٤	فتلقفها	فتلفها
١٤	٣٣٤	لحى	الحى
٨٦	٣٤٧	الذكران	الذأكران
٧	٣٥٠	منها	من
٣	٣٥٩	اصغر	صغر
٤	٣٦١	لم تظهر	تظهر
٤	٣٦١	بالدرة	بالدارة
١٥	٣٦١	فاسودادالظهروبياض البطن	فاسوداد الظهر
٤	٣٦٨	البحر	بالبحر
١٦	٣٧٠	الصنف	الصتف
٣	٣٧٣	بدلنا	يدلنا
٣	٣٧٤	بفريزتها	بعريزتها
٧	٣٨٠	هذه	هذا
٥	٣٩١	وأما	اما



﴿ أو الحكمة الاسلامية العليا ﴾

تأليف العلامة المفضال خلاصة الحكماء وصفوة العلماء حضرة

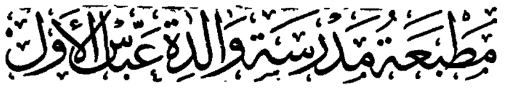
﴿ الشيخ طنطاوى جوهري ﴾

وهو الكتاب المستطاب الذي قدمه حضرة المؤلف هدية لمدرسة
ساكنة الجنان والدة المرحوم عباس باشا الأول وأذن
بطبعه لفائدة المدرسة المذكورة

طبع هذا الكتاب على نفقة وقف تلك المدرسة

١٣٢٤ — ١٩٠٦

الجزء الثانى



(بالطرقة الشرقية بشارع خيرت بالقاهرة)



﴿ الباب السادس ﴾

الكلام على الانسان

الانسان آخر نقطة وصل اليها الابداع واليه اتجهت الانظار من جميع العقلاء والجهلاء، وهم في ذلك أربع طوائف كل طائفة نظرها فيه مقدمة لما بعدها وارفع مما قبلها. الاولى مرتبة الشعراء والعامة. والثانية مرتبة الناظرين فى أوائل العلوم الرياضية. والثالثة علماء التشريح والرابعة علماء الفلسفة العالية أو ما وراء الطبيعة أو العلم الالهى أو العلم الاعلى وكل طائفة من هؤلاء تعرف علم ما قبلها وتجهل ما بعدها . فالعلماء بالنفس يعرفون علم التشريح وظواهر محاسن الانسان وعلماء التشريح يعرفون طبعاً المحاسن الظاهرة التى ولع بها عامة الناس

﴿ الطائفة الاولى ﴾

انك اذا نظرت الى النوع الانسانى عرفت بادنى التفاتة انهم جميعاً يلهجون بما يشاهدونه من محاسنه الظاهرة وعجائبه الباهرة المدهشة للناظرين بالحواس الخمس فتراهم يصفون كل عضو من أعضاء البدن بوصف دقيق وينثرونه وينظمونه حتى كان شعراء العرب في الجاهلية والاسلام لا ينظمون القصائد لمدح الملوك الا ويذكرون فى أوائلها دقائق المحاسن .

واذا تصفحت اكثر كلامهم وجدتهم به لهجين وهذا شائع في الكتب لا يجهله احد من أهل العلم فلا ترى كتابا من كتب الادب الا فيه نبذة أو نبذ من ذلك ولعمرى ان فطر الانسان صادقة ترمى الى غاية اذ الانسان كما قلنا نهاية الابداع فقد جمع المحاسن واللطائف كاللمس والشم والسمع والنظر ثم التخيل والعقل فقد جمعت فيه جميع المحاسن التى تلذ الانسان ولا ريب انها مفرقة في هذا العالم فبعض ذلك يلتذ بالنظر اليه أو لمسه أو ذوقه أو سمعه او شمه أو التفكر في محاسنه أو اثنين أو اكثر والانسان هو الذى جمع هذه اللطائف والمحاسن كلها ولذلك ترى

الشعرا يشبهون أجزاءه باجزاء هذا العالم فقال بعضهم

اشمس فى غلالة ارجوان　　وبدر طالع أم غصن بان
وثغر ما أرى أم نظم در　　ولحظ ما حوى أم صارمان
وخد فيـه تفاح وورد　　عليه من العقارب حارسان

فانظر كيف شبه كل عضو بجزء من العالم وتارة يفضلونه عليها كقول بعضهم

ما أنت ما دحها يا من تشبهها　　بالشمس فى الحسن لا بل انت هاجيها
من أين للشمس خال فوق وجنتها　　ومبسم مثل نظم الدر فى فيهـا

وهؤلاء الشعراء هم المفصحون عن النظر الظاهر في الانسان ومثلهم فى ذلك العامة الذين يلهجون بتلك الاراجيز والموالى وفى هذه المرتبة كان عشاق يوسف عليه السلام فقطعن أيديهن وقلن حاشى لله ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ولعمرك ما هذه المحاسن الظاهرة الا رمز لما وراءها وعنوان على ما بعدها كما ان محاسن السماء وزينتها وجمال النباتات وبهجتها وبدائع الحيوانات ودقتها اعراب عما وراءها لتتوق النفس الى ما وراء هذا الجمال البديع . ولقد اختلفت الفطر وبحث كل عما يرمي اليه غرضه ويصل اليه فهمه (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات) . فهذه المحاسن بالطبع تدعو الى التعاشق

والتزاوج لجميع النوع الانسانى كما تدعو اولى النظر للتفكر فى دقيق المحاسن التى وراءها .

فوقف نظر العامى عند الظاهر واكتفي بانواع الازدواج كما تزدوج النباتات والحيوانات فيأكلون ويشربون (كما تأكل الانعام) وكما وقف نظر الزارع من زرعه على القوت والملابس وهكذا مربو الحيوانات المنزلية كل، وقف نظره على مأكله ومشربه من ذلك ولقد ترقى عن هؤلاء قوم وهم

﴿ الطائفة الثانية ﴾

وهم الناظرون فى الرياضيات

قالوا ان لكل ظاهر باطنا ولا بد لهذه المحاسن الجميلة والبدائع واللطائف من حساب متقن وهندسة محكمة اذ لسنا لهؤلاء الشعرا والعامة الذين وقفوا على الظواهر وانما نحن أرقى منهم عقلا واسمى نظراً واصح فراسة وقد قال الله تعالى ان فى ذلك لايات للمتوسمين وهم ارباب الفراسة وقال فاعتبروا يا اولى الابصار وقال ان في ذلك لآيات لاولى النهى وقال لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم . ثم نظروا فوجدوا بالاستقراء

ان الانسان اذا اعتدل خلقه فى الرحم ولم يمسسه سوء يحول وجهة خلقه كانت له مقادير معينة وأوضاع محكمة . فقامته ثمانية أشبار بشبره وقد قسمت أربعة أرباع فمن مفرق رأسه الى رأس فؤاده شبران ومنه الى حقويه شبران ومن حقويه الى رأس ركبتيه شبران ومن رأس ركبتيه الى أسفل قدميه شبران فهذه أربعة أقسام متساوية متى استقام وضع الجسم ولم يحصل فيه تنوع يوجب بعض الاختلاف فاذا مد يديه الى أعلى كان عشرة أشبار بشبره خمسة من رؤوس اصابع يديه الى سرته وخمسة من سرته الى اسفل قدميه واذا مد يديه الى اليمين واليسار كان الباع كله ثمانية أشبار كطوله فتأمل كيف كان طوله كعرضه مع مد يديه وما هذا الوضع العجيب الغريب ثم ترى هذا الباع ايضاً مقسما أربعة اقسام كتقسيم الطول من رؤوس الاصابع الى المرفقين الربع والى الترقوة النصف فانظر كيف تشابه التقسيمان وتناسق الوضعان ·

ثم ان طول وجهه وهو ما بين اذنيه شبر وربع وعرضه وهو ما بين منابت شعره ورأس ذقنه شبر وثمن وطول انفه ربع شبره وهكذا طول شق فمه وشفتيه وطول جبينه ثلث

طول وجهه وطول قدمه كطول وجهه شبر وربع وطول كفه من الكرسوع الى رأس الاصابع الوسطى شبر واحد والابهام والخنصر متساويان ورأس البنصر زائد على الخنصر نصف ثمن شبره وكذلك الوسطى على البنصر وهكذا ترتيب الابهام والسبابة والوسطي كل يزيد عما تحته نصف ثمن الشبر فالوسطى اليها تنتهي الزيادة والطرفان متساويان وما حول الوسطى كذلك بل حال الاصابع وترتيبها يفهمنا ترتيب الحياة اذ يخلق الانسان من ضعف الى قوة الى ضعف من الصبا الى الشباب والكهولة الى الشيخوخة

وعرض الصدر شبر ونصف وما بين الثديين شبر واحد ومن السرة الى العانة شبر واحد ومن رأس فؤاده الى رأس ترقوته شبر واحد وبين المنكبين شبران اثنان وهذه المقاييس تحتاج الى عناية وتدقيق ومن هذا تعلم قوله تعالى وكل شيء عنده بمقدار وخلق كل شيء فقدره تقديرا وقوله وكل شيء فصلناه تفصيلا وقوله يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون : ولا نكتف بهذا القدر مما ذكره هؤلاء الرياضيون عن هذا الانسان العجيب فبحثوا بما يناسب فهمهم وعلى مقدار

علمهم ثم ترقي عن هؤلاء قوم ونظروا فيما هو ادق من ذلك وهم علماء التشريح المدققون وهم .

﴿ الطائفة الثالثة ﴾

(التشريح) رأى بعض علماء العرب والغربيين وعليه مدار التعليم في مدارسنا الان ان الطبيعيات مؤخرة عن الرياضيات وهناك راى آخر درج عليه صاحب الهداية وغيره بقدم الطبيعيات على الرياضيات (ولكل وجهة هو موليها). وهؤلاء نظروا فقالوا ان هذه المحاسن التي ولع بها الناس من العامة والشعراء والمقادير المقياسية التى عرفها الرياضيون لا بد وراءها من سر عجيب وكما ان انتظام اوراق الاشجار وقياسها البديع واتساق اعضاء الحيوان بمقاييس معينة وحساب الشمس والقمر وانتظام سيرهما فى دوائرهما وهكذا الانوار والظلمة وهندسة العالم كله دلت العلماء على نظام عجيب من هذا الحساب الظاهر . فبحث النباتيون عن التحليل والتركيب في المواد وهكذا علما الفلك حللوا الضوء بالبللورات المنشورية واستنتجوا منه المواد المكونة للشمس والقمر وبعض الكواكب ولا زالوا يوالون البحث بانوار الآلات

حتى عرفوا بعض اشياء طنيه مما على سطح القمر والمريخ بل حاول رجل فى زماننا هذا في امريكا ان يخترع طريقة فى ان يكلمهم بالتلغراف الذى بلا سلك ؟ فلنحبث عن هذا الانسان المشاهد امامنا فلا بد ان يكون فيه من الحكمة العجيبة مايجهله هؤلاء اذ العلم ولذته هى الباقية للروح بعد الموت بل هى اللذة الحقيقية للانسان اذا عقل وهاك مخلص ابحاثهم .

تأمل فى وضع جسم الانسان وما اوتى من حق اتقانه تجد عجباً عجابا تجده كساعة بهاظاهر يروق والآت ترتب بعضها على بعض بحيث لو اختل واحد منها لاختل باقيها او احتاجت الى الاصلاح فمثل الانسان كمثل الساعة متى اختل جزء من اجزائه تألمت الاجزاء الاخرى ولكن بينهما فرق من وجوه

(١) فالساعة من مواد معدنية كالحديد والذهب والفضة وغيرها ففيها التماسك بنفسها طبعاً بخلاف الانسان فانه من مواد نباتية وأخرى حيوانية واغلبه ماء يبلغ نحو ٨٠ جزءً من مائة منه فكل هذه الاجزاء لا تماسك بطبعها فياليت شعري كيف وضعت على وضع تراه في اتقانه ارقى من الساعة بما لا يتناهى

(٢) ان الساعة اذا اختل جزء منها اسرع الخلل الى باقيها طبعاً ووقفت حركتها .

والانسان لا تقف حركته بضعف جزء منه بل ولا قطع عضو او عضوين بل يشتغل بالباقى فى منافعه مع تركيبه من اجزاء رطبة رخوة وتركب الساعة من أجزاء متماسكة

(٣) اذا اختلت الساعة فمصلحها من خارج أما الانسان فانه يسعى على الدوام لاصلاح جسمه بالقوت والملابس فمصلحه فى أغلب الاحوال هو نفسه فيأكل ويشرب ويدفع من يؤذيه بهذا السر العجيب وهى الروح المنبثة فيه المحركة له

٤ وتركيب الساعة ليس فيه كثرة وانما هو بالنسبة لتركيب الجسم قليل التركيب واعلم ان الشي كلما كان اكثر اتقانا واجمل وضعاً واحسن تركيباً كان اكثر نفعا واتقن صنماً . وجسم الانسان حاز من حسن التركيب ودقة الوضع ما حار فيه اولو الالباب وقاسوه بنظام السموات والارض فقالوا اننا ينظرنا الى عالم السموات والارض رأينا بها مزاجا واحدا كمزاج الانسان والله هو المدبر لها وفيها ترتيب كترتيب جسم الانسان.

وكم ضربوا الامثال للعالم وخالقه بالجسم وروحه وهكذا

علماء السياسة وعلماء تكوين الشعوب كابى نصر الفارابى يقولون ان المدنية الفاضلة هى التى تشبه وضع الانسان فانظر كيف أشبه العالم كله والمدنية الفاضلة وسيرد عليك هذا فيما سيأتى باوضح بيان ولعل هذا شاقك الى معرفة وضعه لتقيس عليه المدنية الفاضلة وترتيب السياسات ودرجات الناس فيها فهاك

أول ما ينال الصبي شهوة الغذاء فيأتى له عرق متصل بأمه يغذيه بدم الحيض ويدخل فى السرة وينتشر فى سائر أجزائه فلا يحتاج الى طعام من خارج ولا ادخاله من الفم فاذا استهل من بطن أمه قطع ذلك العرق وعوض عنه بثدى أمه فأول ما يعطى شهوة الغذاء ثم حاسة اللمس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر ثم قوة التخيل ثم العقل فبهذه القوى والادراكات مع الحركة يجلب مايغذيه ويدفع ما يضره فاذا حصل الطعام ومضغه بفمه ونزل في المرىء فالمعدة فالاثنا عشرى فالامعاء الدقاق وهكذا حتى وصل الى القلب فرقه على سائر أجزاء البدن بالدورة الدموية الآتية من الدم بخلاصة لطيفة جداً وهى حرارة تنبعث من القلب مع الدم تسمى الروح الحيواني وتصل الى الدماغ بكثرة وقد جعل فى هذا الاخير رطوبة طبيعية متى

وصلتها تلك الحرارة المنبعثة عن القلب وزعتها على سائر أعضاء البدن بالتساوى فالروح الحيوانى منشؤه القلب والموزع له مع حفظ النسب لكل قطعة من الاعضاء هو الدماغ ولذلك كانت أعصاب الحس وأعصاب الحركة انما يصدران عن الدماغ والنخاع الشوكى المتصل طبعاً به. وتوضيحه أن الانسان له حواس خمس يحس بها مايرد عليه من خارج ليعرف ماينافر وما يلائم فتقوم الاعضاء من اليدين والرجلين وغيرهما بدفع المنافر وجلب الملائم بما لها من العضلات والعظام والرباطات والاوتار .

فههنا حركتان احداهما من الخارج الى الداخل حتى تصل الى الدماغ والاخرى من الداخل الي الخارج

فالحواس تحس بالخارج وتوصله أعصاب الحس الى الدماغ ثم يأمر الحاكم الذى فى الدماغ أعصاب الحركة فتحرك الاعضاء تارة للطلب وأخري للهرب فكل من أعصاب الحس وأعصاب الحركات لم يكن منشؤهما الامن الدماغ أو النخاع الشوكى الا انها ثلاث درجات فمنها أعصاب تحتاج الى أن تكون حرارتها الحيوانية خالصة من المادة الكربونية وهى أكثر أعصاب الاحساس فكان محلها الدماغ اذ الحس لطيف فوجب في الحكمة

خلوص الحرارة الحيوانية لاعصابه

ومنها أعصاب تحتاج مع الحرارة الى مادة تكسبها لزوجة لتقوى على فعلها. وتلك هى أكثر أعصاب الحركة فكانت مغارزها في النخاع الشوكى.

ومنها أعصاب تحتاج الى زيادة يبس عما قبلها فكانت مغارزها في العصعص أسفل فقرات الظهر وعدد الجميع ثمانية وعشرون فى الرقبة سبعة وفى الظهر اثنا عشر وفي القطن خمسة والعجز عظم واحد مفصل الى ستة ملتحمة من بعد الولادة والعصعص ثلاثة ولا تلتحم الا فى سن الاربعين فهذه ثمانية وعشرون فقرة

فتأمل كيف وضع كل شىء فى موضعه فان هذه الاعصاب لو كانت مغارزها فى القلب نفسه لاحترقت لشدة حرارته فانظر كيف اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مغارزها فى الدماغ الذى جعلت فيه رطوبة حتى في الملمس لتلطف تلك الحرارة وتأمل كيف كانت أعصاب الاحساس ناجمة من الدماغ الذى يتمالى عن المواد الكربونية الدخانية وأعضاء الحركة تحتاج الى لزوجة تساعدها على الانقباض والانبساط لتسهل بها الحركة فكانت مغارزها فى النخاع الشوكى المتصل بالدماغ وبالجملة فكلما كان

عمل الاعصاب الطف كانت مفارزها اعلى وكلما كان عملها محتاجاً الى معاناة وشغل جثمانى كانت مفارزها أسفل بمقدار تلك المعاناة والنصب. فالقاعدة فى أعمال الجسم ان الا على أشرف والادنى انزل معه بترتيب محكم ووضع متقن

واذا نظرت الى صورة الجسم وتلك الاعصاب رأيتها كشجرة أصلها ثابت في الرأس وساقها مار بالنخاع الشوكى والفروع خارجة من الجذع الذي فى الرأس ومن الساق في جميع انحاء الجسم. وبالجملة فالدماغ بمنزلة ملك المدنية الفاضلة يوزع الحرارة الحيوانية بمقادير مخصوصة لكل عضو من أعضائه ويخص تلك الاعصاب بفضل عنايته كما رأيت وباعتدال الحرارة يعتدل فعل القوة المخيلة التى تحلل وتركب وتمثل الصور التى نقلتها الحواس بواسطة الاعصاب الى الحس المشترك وهو يعطي المخيلة ماالديه منها. ويعتدل فعل القوة الناطقة التى تنظر في الكليات. ولسنا الآن بصدد بيان تلك القوى وانما ذكرناها لبيان اعتدالها بواسطة فعل الدماغ وعدله فى توزيع الحرارة الحيوانية. وفي كتابنا ميزان الجواهر ما فيه الكفاية لمعرفتها فراجعه ان شئت وسيأتى فى هذا الكتاب أيضاً

ويلى الدماغ في المرتبة القلب اذ منه ينبعث الدم لسائر البدن وكذا الحرارة والدماغ هو المسقط لها والمنظم والآمر والناهى والمحرك والمسكن.

فالقلب مشتغل بمعالجة المادة الغليظة وهو الدم . والدماغ انما يعالج ما هو الطف واشرف وهى الحرارة الحيوانية التى هى الخلاصة . ومن آثار ذلك ان الدم اذا تغير انحرف الدماغ واذا اعتدل اعتدل فكان الاشرف يعالج الالطف والاقل مرتبة يعالج ماهو غليظ والرأس أعلى البدن أما القلب فهو فى وسطه فالقلب كالوزير والدماغ كالملك ولا تظن ان هذا التشبيه بعيد بل هو قريب . وما مثل الدماغ مع سائر البدن الا كمثل ملك أمامه خدام البريد ومعهم آلات التلغراف الواصلة الى اطراف المملكة فيقبل الاخبار من الخارج ويصدر اوامر اليه فاليه الوارد ومنه الصادر وهو المدبر للحركة العمومية وقد وضح المقام لكل ذى لب

وللدماغ وزيران أحدهما القلب والآخر القوة المولدة وايضا ان الانسان خلق فى الدنيا ولا بد له من الحياة الى اجل مسمى واقتضت الحكمة الالهية والعدل ان يموت ليقوم في مادته

صوراً أخرى كثيرة وكلما خلعت صورة لبست اخرى إظهاراً للقسط والعدل فلا بد من الموت والحياة والا لكان العالم بلا عدل ولا حكمة تامة واذا كانت الاشخاص تموت فلا بد من بقاء النوع لتحصل عمارة الارض ويكثر المنعم عليهم . فجعل لبقاء الشخص القلب ولبقاء النوع قوة التوليد فالقلب كالوزير الاول وقوة التوليد كالوزير الثانى أما القلب فتخدمه الرئة فى الصدر والكبد تحت الحجاب الحاجز بين البطن والصدر فالاول يأتى له بالهواء والثانى بالدم وايضاحه

ان الانسان يحس بحواسه فيعرف الاغذية ويتناولها بيديه فمه فيمضغها ويساعد الريق فيه على هضمها وهو المسمى بالهضم الاول ثم يندفع الى البلعوم فالمرىء فالمعدة وهناك يطبخ بمساعدة سوائل أخرى هناك حتى يصير كماء الشعير وتسمى كيموسا ثم ينزل منها الى الاثنا عشرى فيزيد طبخه بمساعدة البنكرياس والمادة الصفراوية الآتية من الصفراء المفرزة في الكبد لتحلل المادة الزيتية الباقية فى الطعام وبعد ان يتم نضجها فى الاثناعشرى تنزل فى بقية الامعاء الدقاق الموضوعة وضعا تعريجياً وفيها غدد صغيرة لا ترى الا بالنظارة المعظمة كثيرة جدا تمتص خلاصة

ذلك المطبوخ على هيئة مادة بيضاء كاللبن الابيض تسمى كيلوساً تذهب في الوريد الذي يذهب صاعداً الى أعلى ثم تصل الى الكبد فيطبخ تلك المادة

﴿ معنى قول القدماء الصفراء والدم والبلغم والسوداء ﴾

وانت تعلم ان كل مطبوخ فلابد له من مادة غليظة أسفله ورغوة فى اعلاه ومائية تخلله ولا يمكن هذا المطبوخ ان يؤدي وظيفته الا اذا خلص من تلك الشوائب فالرغوة فى الدم انما هي الصفراء. فاقتضت الحكمة الإلهية ان تذهب تلك المادة الى عضو رقيق يسمونه المرارة تجتمع فيه الصفراء وتذهب الى الاثنا عشرى كما تقدم وهو اول الامعاء الدقاق مما يلي المعدة ويسمى بذلك لانه اثنا عشر قيراطاً ثم تسير مع الغذاء في مجراه وتسلك سبيله هذا غاية المادة الصفراوية

أما الماء فيذهب في عروق الى الكليتين وهما يدفعانه الى الحالبين الى المثانة الى القضيب الى الخارج

(اقوال القدماء وحكماء العصر في الكبد وظهور حكمة الله تعالى فيه)

وبقيت المادة الغليظة التى تكون عادة في اسفل المطبوخ

المسماة بالدردى والعكر وهي المسماة بالسوداء فقال الاقدمون انها تصل الى الطحال وهو يجعلها جزئين جزء يصل الى فم المعدة فيحرك الشهوة وجزء يذهب مع الخارج من الامعاء الغلاظ ولكن المحدثون لم يكتشفوا الى الآن له وظيفة يعرفونها وغاية الامر انهم عرفوا ان فى الجسم كرات بيضاء ذات حياة تخترق كافة العضلات والاوتار والعروق وهذه تارة تكثر وتارة تقل وظيفتها انها اذا وجدت مواد سمية اجتمع منها عدد واخذ تلك المواد ووضعها فى ناحية من نواحى الجسم لا يضره هذا السم وكذلك اذا حصل قرح فى عضو من الخارج اسرعت اليه تلك الحيوانات كلمح البصر وتراكمت على ذلك المكان فامتصت الحرارة المحرقة له وصارت هي نفس القيح الذي به تقل الحرارة عن الجرح فيستريح المريض فاذا قارب الشفاء تراكمت أيضا فصارت لحماً يلتئم به الجرح وهذا فى المكتشفات الحديثة فهذه الكرات البيضاء المالئة لاجزاء الجسم ولا ترى الا بالمنظار المعظم قد اكتشف انها كلما كثرت فى الجسم كبر الطحال فلا بد اذن من علاقة بينها وبين الطحال (وما يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكري للبشر) . ولقد صنعوا تجربة

فقطعوا طحال كلب فكثرت تلك الكرات البيضاء فى الدم جداً فمات ذلك الحيوان وهذا أمر عجيب جداً فقد قارب المتأخرون ان يكتشفوا ماذكره الاقدمون فان هذه الكرات البيضاء ماهى الا فضلات الدم التى سماها الاقدمون السوداء والطحال هو المصرف لها وفى ظنى ان بين اقوال الفريقين قرباً يظهر في المستقبل .

هذا آخر ما وصل اليه النوع الانسانى فالاقدمون هكذا تقريرهم والمحدثون انكروا اولا فعله فى الجسم بالكلية وقالوا لم يعرف له وظيفة ثم اكتشفوا تلك الكرات البيضاء ولاحظوا تلك العلاقة معه تخميناً .

﴿ مقارنة حيرة علماء الفلك بحيرة علماء التشريح ﴾

لعمرى لقد حار الاقدمون والمحدثون فى الاستكشاف والعلم واقروا بالعجز وانبهر حكماؤهم وعجز علماؤهم وقالوا لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . ان نظرنا الى علماء الفلك وجدناهم صاغرين امام هذه الحكمة الباهرة مقرين بالعجز والتقصير غير معجبين بعقولهم يثبتون اليوم ما نفوه بالامس ثم يقرون على ما نفوه فيثبتونه . فيالله والعدل فكأن الله لما نظم ملكه على العدل وحسن النظام اراد أن يرينا العدل ايضاً

في العلم والاعتقاد. فترى علماء الفلك قبل بطليموس الرومي كانوا يحكمون بدوران الارض حول الشمس ثم عكس القضية بطليموس ثم جاء من بعدهم كورنيكوس وارجع الهيئة الى حالها الاولى والاعتقاد الاول وسبقه الى ذلك علماء الاسلام كما اوضحناه في جواهر العلوم . وان نظرنا الى علماء الطبيعة نراهم حيرتهم اجسام الانسان وفعلوا فى التشريح فعل علماء الهيئة في الافلاك من الاثبات تارة والنفى اخرى فهاك مسئلة الطحال اثبت له الاقدمون فعلاً كما علمت وجاء المتأخرون فقالوا أولا لا وظيفة له ثم قالوا له علاقة بالكرات البيضاء فقد قاربوا ان يكتشفوا عمله هذا ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول

﴿ ترتيب الاعضاء الباطنة فى جسم الانسان ﴾

اعلم ان الخادم للكبد ثلاثة أعضاء وهى المرارة والكلية والامعاء باتفاق الحكماء الماضين والحاضرين ولكل منها خوادم درجات بعضها فوق بعض فيخدم المرارة العرق الموصل الى الاثناعشرى وهو يخدم مابعده المخدوم بمابعده وهكذا الكليتان وهماموضوعتان في الجزء العلوي من البطن وشكلهما كحبة اللوبيا يخدمهما الحالبان فالمثانة فالقناة البولية والامعاء تخدمها المعدة

فالقم فاليد . فالكبد هو المخدوم لهـذه كلها بعضها يجلب النافع
وبعضها يدفع الضار ويبقى خالص الدم فيؤديه الى القلب وهو
المقصود الحقيقى أما تلك الشوائب فانها تخرج منه لمصالح وحكم
عجيبة فانظر كيف كانت المرارة مساعدة على تحليل مواد الغذاء
الحاصلة في الاثنا عشرى فما اعجب هذه الحكم وادقها حتى قال
تعالى (وفي انفسكم افلا تبصرون) اشارة الى هذه الحكم العجيبة
وهذه الخوادم كما رأيت كل واحد منها خادم من جهة
ومخدوم للآخر من جهة الا الاطراف فانها خادمة لا مخدومة
كاليد والقضيب وكلها كما رأيت موصلة للكبد وهو يخدم
القلب فهو خادم ومخدوم ايضاً والقلب يخدم الدماغ فهو مخدوم
وليس عليه رئيس فالرئاسة الكبرى للدماغ الذى ليس عليه
رئيس وبقية الاعضاء خادمة ومخدومة باعتبارين الى ان تصل
الى الاطراف فتجدها خادمة لا غير . وكلما كان فعل العضو
اقرب الى الرئيس كان عمله اشرف . ثم الشرف والخسة تارة
يكونان باعتبار المادة التي فيها العمل ولا ريب ان الحرارة الحيوانية
اشرف من البول فعضو الاول وهو الدماغ اشرف من عضو
الثانى وهى المثانة

وتارة يكون باعتبار كثرة العمل وقلته فالقلب بلا ريب اكثر عملاً من الكبد مثلاً فهو اشرف بهذا الاعتبار وتارة باعتبار كثرة النفع وقلته فرب عامل يعمل قليلا ومنفعته اكثر ممن يعمل كثيراً كاعصاب الحركة فان معاناتها اشق وأصعب ولكن اعصاب الحس اكثر نفعاً اذ هي موجبة للعلم وهو اشرف من العمل .

والى هنا عرفنا الحكمة الالهية فى الكبد وخواده .

بقي ان الغذاء بعد مروره من الامعاء الدقاق ويأخذ الكبد خالصه تبقى هناك حثالة فتخرج فى وعاء متعرج يسمى الاعور منسد من اسفل مفتوح من اعلى فتصل ثم في الامعاء الغلاظ فتذهب فيه تلك الفضلات الى وعاء متعرج يسمى السيني وتنزل منه الى وعاء آخر نازل على الاستقامة الى اسفل يسمى بالمستقيم فكأن الطعام في مروره من اعلى الى اسفل انطبخ حتى اذا وصل الى وسط الانسان اخذت خلاصته وذهب ثقله الى اسفل فلله الحكمة البالغة والصنع العجيب (صنع الله الذى اتقن كل شي) فمن هنا نفهم اتقان شخص الانسان اما اتقان النوع فيكون عند ذكر المدينة الفاضلة وقياسه تماما على جسم الشخص الواحد لنفهم

معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة)
هذا ما اردنا ذكره بالنسبة للكبد الذى هو احد خادمى القلب اما الخادم الثانى فهى الرئة

(الرئة)

اعلم ان الحكيم جلت قدرته جعل الفم باب الجسم يدخل منه الطعام او الشراب الواصلان الى المعدة اسفل الحجاب الحاجز فى الجهة اليسرى من البدن ويدخل الهواء ايضاً منه الى الحنجرة الى القصبة الهوائيــة المتفرعة فرعين داخلين في الرئتين اللتين وضعهما الحكيم جلت قدرته في الصدر وهما عبارة عن انسجة كالاسفنج تتخللها تلك الشعب الدقيقة الحاملة للهواء . ودخول الهواء في الرئتين يحدث بحركتين شبيهتين بحركة المنفاخ احداهما حركة الدخول بانتفاخ الصدر المسماة بالشهيق والاخرى حركة خروج بالانقباض المسماة بالزفير ولكل منهما حكمة عجيبة . اما حركة (الشهيق) فبها يدخل الهواء فى الرئة وقدعلم فى المكتشفات الحديثة انه مركب من خمسة عناصر وهي الاكسوجين والازوت (النيتروجين) وحمض

الكربونيك وبخار الماء والارغون وهو عنصر استكشف حديثاً وحمض الكربونيك عبارة عن كربون واكسوجين وادرجين فالعناصر البسيطة له خمس وهي :

(الاكسوجين والاوزت والكربون والادروجين والارغون) فيقابل الدم هناك بواسطة الدورة الدموية.

(الدورة الدموية)

علمت فيما ذكرنا آنفا ان خالص الغذاء يصل بعد نضجه في الكبد وصيرورته دما الى الكبد ونقول الان انه يمتزج بالدورة الدموية وذلك ان القلب مقسم اربعة اقسام مجوفات فالتجويفان الاعليان هما الاذينان والسفليان هما البطينان. والدم اذا تقابل مع الهواء فى الرئتين وهو مسود المزاج متغير اخذ من الهواء مادة الاكسوجين لتعطيه الحرارة التى بها الحياة واعطاه المادة الفحمية وهى الكربون اذ الدم اذا اعطى كل عضو ما يستحقه بالحرارة الغريزية والتفاعل العجيب فى الجسم فلا جرم تخلل فيه اجزاء فحمية دخانية تعكره مع تركه ما فيه من المواد الصالحة للغذاء فى الاعضاء فقد اخذت الاعضاء

من الدم الجيد واعطته الخبيث فانظر هـذا العجب العجاب كيف دخل الهواء فاعطى الدم ما فقده فى الاعضاء وهو الاكسوجين واخذ منه تلك المادة الفحمية فيصفو الدم ويذهب الى الوريد الرئوى الى الاذين الايسر فالبطين الايسر بواسطة فتحة بين الاول الذى هو اعلى والثانى وهو الاسفل ذات صمامة تفتح وتقفل سريعا على حسب الانقباض والانبساط بنظام محكم عجز عنه مهندسو القناطر وغيرها . ومن البطين الايسر يخرج فى الاورطى وهو يوزع الدم فى البدن كله بتقدير محكم فيعطى الغليظة غليظاً والدقيق دقيقا والكبير كثيراً والصغير قليلا ولولا هذا لكانت العين كالرأس والرأس كالعين والانف كالرجل والرجل كالانف حكمة قد حيرت من يبصر

وهناك يؤدى مادة الحياة والغذاء الى تلك الاعضاء فيصير لحما وعظما وعروقا واربطة وشرايين واوردة وعيناً وانفاً وفما ومخاً وظفراً وجمالا وحسناً وبهاء وبهجة فانظر كيف صار التراب حسناً وبهجة..وكيف اصبح الجماد حيوانا وانسانا (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون) ثم يذهب ذلك الدم الباقي مادة سوداء في تلك العروق الشعرية المنتشرة

فى الجسم الآخذة للدم الصافي عن العروق الكبرى الوريدية المعطية الدم الإسود للعروق الشريانية ومنها الى الاجوف الذى هو مجتمع العروق الشريانية الى الاذين الايمن ومنه ينزل الى البطين الايمن بصمامة كالمتقدمة في الايسر ويندفع منه الدم الى الشريان الرئوى المتفرع الى فروع داخلة فى الرئة وهناك يتقابل مع الهواء الجوى وهكذا يدور دورات لا نهاية لها (ذلك تقدير العزيز العليم)

وانى ليعجبنى ان هذه الآية ذكرت فى مسئلة دوران النيرات العلوية فانظر كيف ذكر هناك التقدير وان ذلك كله ليسير بمقادير معينة واوضاع محكمة وما اشبه العلوى بالسفلى بل ما اشبه الانسان الصغير بهذا العالم الكبير

ولسنا نقول هذا من باب التقليد وانما نقوله علما وفهما فتأمل معى ايها الاخ فها انت رأيت هذه الدورة ونظامها المحكم فقارنها رعاك الله بسير الكواكب التى يحدث منها اظلام واضاءة اليست كالدورة الدموية وان جرى الدم فى الجهة الشريانية اليمنى كالليل وفى الجهة الوريدية اليسرى كالنهار اذ الاول دمه خال من مادة الحياة والثانى فيه الغذاء والحياة وانه لو انقطع

التنفس لحظة وقفت حركة الدمومات الانسان كما ان الكواكب لو وقفت لحظة لفنى العالم فالحركة فى العوالم كلها لا تتناهي. طبع العالم على الحركة علويه وسفليه

الست تشاهد الرياح فانت تراها تحرك يميناً وشمالا وقد قال علماء الطبيعة ان هناك رياحا دورية تجول فى الجو كما تدور الدورة الدموية وكما تدور الكواكب

حدق ببصرك قليلا واجل طرفك في الماء ودورانه الست تجد في البحار الملحة فالسحاب فالارض فالنبات فيتبخر فيصير سحاباً فيرجع ثانياً او ينزل فى البحر الملح .

اليست هذه كلها دورانا متشابها

تأمل في الطعام فانك تراه ينقسم الى قسمين احدهما يصير دما والاخر ينزل فضلات من الانسان والحيوان ويجعل سماداً أو يترقى ثانياً وهكذا حتى يرجع فيصير دما او ينزل الى الخارج وهكذا فما من شيء الا وهو مستعد دائماً للترقي ومهما تسفل فانه يرجع كرة اخرى طالباً العلو

ولقد علمت ما ذكرناه فى الصفراء الذاهبة مع البنكرياس الى الاثنا عشرى وما هي الا افراز من الكبد ذهبت الى

الطعام لنهضمه حتى يصير دماً آخر .

فيا عجباً كيف كان كل ما لفظته الطبائع يرجع لها فيصير نافعاً فلولا الصفراء ما تم هضم الغذاء ولولا براز الحيوان وبقايا النباتات ما نما نبات ولكانت الحياة رديئة (كلوا وارعو انعامكم ان فى ذلك لايات لاولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) وكما خلقنا فيها ويعيدنا ويخرجنا فهكذا يفعل مع كل ما رايته فى الكائنات وكأن هذه الايات الفات لاولى النهى والالباب الى هذه البدائع العجيبة

وتأمل ثم تأمل كيف رأيت الصفراء التي هي الطف من الفضلة الغليظة جعلت طابخة لخالص الغذاء في الجسم اما الفضلات الغليظة فخرجت لتصلح النبات الذي هو فى غاية البعد لا عن انسان فلله الحكمة البالغة

ولعمرك ايها الاخ ما هذه الكائنات كلها الا طالبات للترقى الى الاعلى فهاك مقالا حسناً .

تأمل في التراب كيف يصير نباتاً بتلك الاسمدة من فضلات الحيوان والانسان وبقايا النبات فينمو حتى اذا بلغ حصاده درس وازيل المحمول وهو غذاء الانسان والحامل

وهو غذاء الحيوان كالتبن وتأمل كيف كان الاعلى للانسان والاسفل للحيوان في نحو البر عدلا وحكمة واتقانا للصنع .

واذا فصل البر من التبن فانه لا يصلح للدخول في جسم الانسان وانما يحتاج الى صناعات نحو ما يفعل به اذا دخل الجسم باعضاء الهضم فانه يغربل ليفصل منه بقية المادة الغريبة ثم يطحن ويفصل منه المادة غير المقصودة . فمن وقت حصاده الى نخله تعمل فيه اعمال لفصل ما لا لزوم له فاذا تم ذلك لم يصلح لدخوله الجسم وهو على هذه الحال . وهذه الاعمال هندسية من حيث كميته اما كيفيته فلا بد له من عجن وخبز وبعد ذلك يصلح للاكل فاذا تمت افعال الهضم داخل الجسم صار بعضه انسانا سمعا وبصرا وحركة وبعضه صار مبدأ لانسان آخر مثله وبعضه مادة تسمد النبات او يأكلها الحيوان فما هو غذاء الانسان صار انسانا حيا ومبدأ انسان سيحيي وغذاء لحيوان او نبات وكل واحد من ذلك يرجع الى الترقى كما صار اليه الارقى وهو القسم الذى صار سمعا وبصرا وعقلا وهكذا فتأمل فى هذه السلسلة من ابتداء كونه ترابا الى نهاية كونه انسانا فلما كان نباتا علمت ان الاعلى ذهب الى ما ذكرنا واما الاسفل

وهو التبن فانه اكل الحيوان او منفعة للانسان ادنى من الاكل كأن يجعله وقوداً او داخلا فى البناء فانظر كيف كانت الاشياء موضوعة مواضعها والجاهل لا يعقل لها معنى وهذا من ملكوت السموات والارض الذى اراه الله لسيدنا ابراهيم اذ قال (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) فهذا حقا الايقان واليقين الذى يرينا كيف يكون النظام ثم غذاء الحيوان طبعاً ترقية له ويحصل فيه انقسام كانقسامه فى بدن الانسان فمنه ما يصير حيواناً سمعا وبصراً وذوقا وشما ومنه ما يكون مبدأ لحيوان آخر ومنه ما يخرج فيصير غذاء للنبات وكل واحد من هذه يترقى الى المرتبة التى فوقه

فتأمل بعقلك كيف كانت جميع هذه المواد طالبة للرفعة والتنقل من اسفل الى اعلى وكلما صارت ترابا رجعت الى العلو ولا تظن من التعبير اننا نقصد انها هى التى تطلب فانه غير معقول وانما نقول نظام واحكام وحكمة عالية دبرت هذه المواد وبرهنت للعلماء والحكماء على حسن الابداع وجمال الصانع وغرابة افعاله حتى ادهشتهم وحيرتهم وكلما زادوا تعمقا في البحث ازدادوا

شوقا واستطلاعا وازدادت الحقائق تقصيا واستبعادا . ولقد
ضرب رئيس المجمع البريطانى فى آخر القرن التاسع عشر مثلا
لذلك (فقال كان الاقدمون يقولون ان الهواء بسيط وآخر
اكتشاف وصلنا اليه انه من خمسة عناصر فاصبح كل عنصر
يحتاج الى بحث وحده ولعله مركب من عناصر وهى مركبة من
اخرى الى مالا يتناهى فها هو ازداد العلم وتباعدت الحقائق)
ويقرب من هذا ان نعيم الجنة لا يتناهى وهو يتزايد كلما امتد
الزمان كما ان العلم بازدياده تزداد الاشواق وتبتعد الحقائق ثم
تامل في سوق النباتات وجذوع الاشجار وفضلات الحيوان
التى قلنا انها منافع للانسان فى خارج جسمه او للحيوان فى اكله
اذا احترقت فانك ترى نارا ودخانا ثم نارا صافية ولعمرى
انها تعبر عما يؤول اليه حال الرماد الباقي اذ هو مستعد تمام
الاستعداد الى الدخول في جسم النبات ثم يترقى فى زمان طويل
او قصير الى ان يصير حيوانا او انسانا الا ترى ان النار
الخالصة من شائبة الدخان كانت نهاية الاحتراق فهكذا يرتقى
الى النور الخالص والعقل في الانسان وكأن النار فى شبوبها تمثل
حركة نمو هذه الحوادث وتشير بلطف خفي الى رقيها من

احسن الى اشرف. وهنا نكتة لطيفة وهى ان مركبات العناصر تارة لا تقبل النار اذا كانت فى مرتبة الحجرية والترابية فاذا ترقت نباتا قبلتها وتدوم فيها بدرجات مختلفة على حسب المواد الزيتية قليلة او كثيرة الى الزيتون فاذا ترقت حيوانا قبلت الاحساس مترقياً فيها من اسفل الى اعلى الى مرتبة النبوة التي هى نهاية العقول فلذلك ضربت الامثال للعلوم والعقول بالنور (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة الاية) ويشير اليه قوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً)

وهذه العناصر في الترقي مختلفة فنهـا ما يطول امـده ومنها ما يقصر على حسب ما يصادفها فى سيرها ومنها ما يرجع الى اول امره ثانياً وهكذا ومتى وصل العنصر الى النهاية رجع ثانياً وانحل الى اسفل وقام غيره بمقامه فى الدخول في جسم الانسان القائم بالخلافة . فانت ترى ان المستضعف منها السافل هو الذى يأخذ فى الترقي وان ما وصل الى النهاية رجع الى اسفل سافلين كما في قصة ابن افعى الجرهمى وابناء نزار وقولهم ان الشراب تغذى من جسم ميت فاذا هو ابوه فقـد صـار جسم الانسان غذاء نبات بعد انحلاله الى عناصر .

وههنا جواهر

(الجوهرة الاولى) ان سنة العالم الترقى مهما عاقته العوائق وهكذا النوع البشرى يترقى فى مدنيته فى الدنيا والشخص الواحد يترقى بعد موته فيما هو فيه. ومن هنا نفهم أنه كيف استدل على البعث بهذه الاية وهي قوله تعالى (يايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ذلك بان الله هو الحق وانه يحى الموتى وانه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) فانظر هذه الآية كيف استدل بها على البعث اليس ذلك لتشابه العالم وان اوله كآخره فى سنن الترقى

(الجوهرة الثانية) ان سنة الكون وان كانت كلها فى الترقى فهى تختلف فى تعريج سيرها واليه الاشارة بقوله مخلقة وغير مخلقة

ثم اعقبه بقوله لنبين لكم اذ السيرليس متحداً بين انواع السائرين

(الجوهرة الثالثة) ان الذى يصل الى النهاية هو الذى ينزل الى اسفل سافلين من العناصر ويقوم غيره مقامه ومن هذا يعلم ان الامة المستضعفة هى المستعدة للترقى الى ان تصل الى نهاية العزة وتقوم مقام غيرها الا تراه تعالى يقول (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض) ويقول (وتلك الايام نداولها بين الناس).

وهذا حقيقة مقتضى العدل وسنة الكون لا تجد دولة تبقى امداً طويلا فللدول اعمار وآجال كاعمار الانسان وآجاله اليها تنتهي وتقوم اخرى مقامها .

(الجوهرة الرابعة) لما علمت ان سنة الكون هى الترقي وان المستضعف هو الذى يرقى فاليائسون اغبي الجاهلين ولذلك قال (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فكل امة تيأس من الترقى فقد دلت على جهلها بنواميس الكون ووقوعها فى مهواة الانحطاط ودرك الخسران فى الدنيا. اولا يرون ان دوران العالم كله كالدورة الدموية في الجسم التى نحن بصددها فبينما يكون الدم وريديا اذا هو شريانى فيرتفع تارة وينخفض

اخرى وهكذا نجوم السماء وماء البحر وكذا الجو

(الجوهرة الخامسة) إن الاية المتقدمة مذكورة فى سورة الحج ومن العجيب ان الحج عبارة عن اعمال مخصوصة من العبادات فى مكان يحجه اى يقصده جميع المسلمين من اقطار الارض ويجب على القادر ان يحجه فى العمر مرة فتأمل كيف ناسب الوضع الدينى نواميس الكون اذ كلها تنتهى الى نقطة واحدة وهو الترقى وان اختلف سيرهـا بطأً واسراعاً فهكذا الحجاج يذهبون لمكان واحد وان اختلفت المسافات قربا وبعداً بل الدين كله عبارة عن قصد الى رقي النفس وان اختلفت العبارات وتنوعت الاشارات وتباينت العقول.

(الجوهرة السادسة) من المدهش العجيب ان البعث الذى استدل عليه الله سبحانه وتعالى بالاية المتقدمة الدالة على ترقى الكون يناسب تمام المناسبة لسنن ترقى العناصر الا ترى ان الصراط يختلف مرور الناس عليه فنهم من يمر كالبرق ومنهم من هو كالنجم وهكذا الى من يمشي على بطنه فهاهنا اختلاف فى السير من باب ضرب الامثال كما اختلفت العناصر فى سيرها للترقى وهكذا الحجاج والعباد على اختلاف طبقاتهم فبين

الحج والبعث وترقى العناصر مناسبة فلهذا استدل به الله تعالى فكأنه يقول ها انتم شاهدتم سير العناصر فى الترقى من نطفة وعلقة وهكذا الى ان تصير بشراً سويا وسنتنا واحدة ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا فانتم هكذا تترقون فى عالم أخر ولقد وضعنا لكم سننا تسيرون على مقتضاها عبادة وعلما ترمز الى ذلك « افلا تبصرون »

(الجوهرة السابعة) هذه الحركة المستمرة في الدورة الدموية ونظائرها في الكواكب والماء والعناصر تستفز الانسان الى التشمير عن ساعد الجد والنشاط فمن وقف عن الاستطلاع الى المعالى لحظة واحدة فهو جاهل بسنن الكون حائد عن الوجهة التى خلق لها اولا يرى ان الحركة عامة في جميع الكائنات حتى الذرات الصغيرة بل لولا الحركة ما امكن التجاذب الذى به حفظ النظام فاية امة او انسان لم يفقه ما خلق له ولم يجتهد فى الاعمال النافعة المرقية له ولامته فجزاؤه السقوط في الدنيا ولعذاب الاخرة اشد وابقى . وليغالب عقبات الدهر وتقلبات الحوادث مستعيناً بمن سن هذه القوانين قارئاً (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

(الجوهرة الثامنة) الدورة الدموية تجرى بنظام محدود
وقانون لا تتعداه وبهذا السر دام الكون كله فمن لم تكن اوقاته كلها
مرتبة وكذا امكنته وعلومه واعماله فهو من الاخسرين اعمالاً
الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون
صنعاً اولئك الذين كفروا بآيات ربهم) ولا ريب ان من
الايات المذكورة حسن النظام في جميع ما يدور فى العالم .
(الجوهرة التاسعة) ربما يظن ان موت فلان وحياة فلان
وتحرك الاشجار وتمايل الاغصان وهبوب الرياح بلا نظام
حسب مايصادف من الاحوال وترى الدم في العروق الشعرية
في الجسم كأنه ساكن وهو يزيد وينقص بالاتفاق . ومن علم
ان الدورة بنظام فلا جرم ان ما نتج عنها بنظام تبعاً لها وانما
كثرة الفروع التي لا يمكن عدها حتى كان كل عضلة من عضلات
الجسم مركبة من عروق شعرية لا تكاد تحس اوجبت عدم
تميز الدورات فيها وتميز النظام وقس عليه ما ترى فى الماء
والعناصر والتفرق والاجتماع والموت والحياة كل ذلك بمقدار
تابع لنظام السموات السائر بقوانين محدودة (وكل شيء عنده
بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)

(الجوهرة العاشرة) سير هذه الدورة والدورات المناظرة لها بنظام ينتج منه العدل وبيانه اننا لو نظرنا كوكباً من الكواكب سائراً في جو هذا الاثير فبالله اي نقطة اولى به من الاخرى وكل نقطة يجب ان يكون ملازما لها الكوكب فتعارض امر ان بقاء الكواكب في موضع واحد دائماً ابداً مع حرمان النقط الاخرى من الدائرة منه وسيره في جميع النقط واحدة بعد الاخرى مع ان كل واحدة منهن تطلبه لها دائماً فلم يمكن الا ان يمر بالنقطة الواحدة حيناً بعد حين ويعم جميع نقط الدائرة . وان سألت عن العدل لم تجده سوى هذا فقد حصل دوام الوجود في كل نقطة ولكن وقتا بعد وقت ووفيت كل واحدة قسطها من الكواكب ومثل هذا ما نحن فيه من الدورة الدموية والرياح والماء والعناصر فبين النظام والعدل مناسبة تامة وهذا هو المعبر عنه بقوله تعالى والسماء رفعها ووضع الميزان فمتى فهمت هذا الكتاب عرفت مقصود الميزان والعدل والقسط المذكور في قوله تعالى شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم فياليت شعري ما للنفوس البشرية معرضة عن ادراك

كنه ما حولها من الكائنات

(الجوهرة الحادية عشرة) واذ عرفت ان سنة الكون انما هو العدل فيجب علينا ان نعدل فى جميع اقوالنا وافعالنا بأن نضعها فى مواضعها اللائقة ونحكم بين الناس بالعدل كما شاهدنا فى الكائنات وعلى طبقها جاءت اشارات الكتب السماوية

هذا ما خطر بالبال عند ذكر الدورة الدموية اثبته ليكون تذكرة لى ولاخ صادق الرغبة في العلوم

ولقد اطنبنا في هذا المقام لغرابته وحسنه واذ قد عرفنا وظائف الكبد والرئتين الخادمين للقلب الخادم للدماغ وقد قدمنا ان القلب وحركة الدم فيه وضعت لبقاء الشخص فلنذكر الان ما به بقاء النوع وهو اعضاء التوليد التى بها يلد الانسان والحيوان والنبات مثله

(اعضاء التوليد)

قضت سنة الكون ان الاشخاص تفنى ولا يبقى الا الانواع رحمة من واضع هذه النواميس وعدلاً . الست ترى ان هذه المادة التى منها صنع هذا الكون كما علمت مما قدمنا

في مواضيع من هذا الكتاب انها مادة بسيطة خالية من كل نقش وصورة ادركتها العقول ولم تجل للحواس الا فى جلابيب الصور والاشكال وانت ايها الذكى ترى ان الاشكال لا تتناهى عداً فبحقك قل لى اي صورة اولى بالمادة من الاخرى اليست كل صورة لها الحق ان تكون فى المادة فتساوت جميع الصور بالنسبة لها فى الحق فكانت كل واحدة يجب ان تنفرد بالصورة وحدها دون ما عداها ومن جهة اخرى فالصورة الواحدة اذا تشكلت بها المادة كان الواجب ان تبقى ابد الابدين ودهر الداهرين فلا يموت انسان ولا يذبح حيوان ولا يحصل تغيير البتة . فلما تعارض هذان الامران حكم ذو العدل والميزان والقسط اللطيف الخبير منظم الاعمال فأوجب ان تلبس المادة صورة بعد صورة وشكلا بعد شكل بحكم النظريه الاولى فكان الموت والحياة والزرع والحصاد ودوران الافلاك وهذه الحركة العامة .

ثم اخذت خلاصته من الصور ليبقى مثلها فتفنى الاشخاص وتبقى الانواع فنوع الانسان مثلا تموت اشخاصه ولكن يبقى نوعه وبقاء النوع بحكم القضية الثانية ففناء الاشخاص لئلا يحصل

الاجحاف وبقاء الانواع ليكون لها نوع من البقاء فهذا هو الامكان المذكور في قول الغزالي ليس في الامكان ابدع مما كان.

ولعمرك لولا الموت والحياة والزرع والحصاد لبطلت الحركات وسكن الكون ووقفت الكواكب وتحطم الكون كله واليه الاشارة بقوله (الذى خلق الموت والحياة) (هو يحيي ويميت فاذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) فتأمل كيف عبر بلفظة قضى اشارة الى ما علمت فى النظريتين السابقتين

واذا علمت هذا فلنذكر كيفية التناسل فنقول: إن الدم اذا غذى اعضاء الجسم وأخذ كل قسطه منه بقيت هناك مادة تحول الى منى فان الغذاء يطبخ أولاً فى الجهاز الهضمى وثانياً فى الكبد وثالثاً فى الاعضاء ورابعاً تصير البقية منيا يتم نضجه في عروق تحت العانة تعينها الانثيان فاذا تم النضج اخذت تطلب الخروج الى ماخلقت له الى الرحم بواسطة عضو التناسل فيفعل الانسان فعل الطبيب بالمريض. فكما ان الطبيب لا بد له من عقاقير وآلات يديرها بها ومن تلك الآلات ما هو متصل به تمام الاتصال وهو اليد ومنها ماله به نوع اتصال وهو المبضع الذى به دخول الدواء فى جسم المريض فكذلك

الرجل آلته فى تدبير مادة التناسل هى تلك العروق تحت العانة مع مساعدة الانثيين وهى قائمة مقام اليد فى الطبيب وآلته في ادخال تلك المادة هي آلة التناسل بها تدخل المدة فى الرحم وهى قائمة مقام المبضع وكلاهما فى المرتبة الثانية في العمل. فالمبضع بعد اليد المحركة للدواء المعطية له قوام ما يليق بالمريض والعروق التى تحت العانة اعطت لمادة التناسل قوامها وشكلها بتدبير الحكيم العليم .

وكما ان الطبيب ليس له عمل الا ادخال الدواء في جسم المريض ثم تتم هناك افعال الدواء ولا علم للمريض بها ولا دخل له بل ربما تتم افعالها وهو ميت فكذلك الرجل متى وضع المادة فى الرحم حصلت تلك الافعال التى بها يتم خلق الجنين في الرحم ولا علم للرجل ولا للمرأة به كما انه لا علم للطبيب ولا للمريض بما يفعله الدواء في الجسم .

واعلم أن ماء المرأة منه يخلق الجنين ومنى الرجل هو الذى يعطى الصورة فقط وما مثلهما الا كمثل الانفحة واللبن والخمير والعجين فليس للانفحة بالنسبة للبن الا اعطاء الصورة فقط فيصير جامداً بعد ان كان سائلاً وهكذا الخمير انما يعطى العجين

صورة الانتفاخ وخروج المواد التي يضر بقاؤها منه فهكذا مني الرجل يتوقف عليه تخلق الجنين.

فالولد انما يخلق من مادة فى رحم المرأة وان كنت في شك من ذلك فتأمل فى دم الحيض الست تراه ينقطع ايام الحيض أليس ذلك لتغذية الجنين ولا ريب ان الغذاء به النمو فأما تشكل هذه المواد بهذا الهيكل فانما يكون بحلول مادة الرجل فيه واذن تخلق الاعضاء وتتشكل بنظم عجيب وسر غريب . وياليت شعرى ما الذي ينقش تلك الصورة في داخل رحم المرأة ونحن لا نرى نقاشاً لا داخل الرحم ولا خارجه حتى صنع العين والحور والاصداغ والنظر والانف وتقويسه والثغر وحسنه والثنايا وبريقها ورقتها والشفة ودقتها وما الذى اوجب تناسب الاطراف فجعل مد اليدين يساوى طول الانسان وان الطول والعرض متساويان وانهما ثمانية أشبار وما الذي أوجب تلك النسبة ثم ما الذى قوس الحاجبين لم نر قلما يسطر ولا نقاشاً يهندس هذه هى العجائب التى حارت فيها عقول الحكماء

وياليت شعرى ما المناسبة بين منى الرجل وبين هـذه الاعاجيب وهل هو الذى ساق المواد الى ما تصلح له فأعطي

العين مع رقتها والاذن مع دقتها والمخ مع لطفه والافخاذ مع غلظها والعظام مع جودها المواد الصالحة لكل بحسبه فالمواد الداخلة في عنصر الدم مختلفة كثيرة على حسب اختلاف الاعضاء ثم توزع بعد الدخول في الرحم الى ما اريدت له ذلك تقدير العزيز العليم.

فهذه العظام تدخل فيها المادة الفصفورية التى تعجن مع مواد اخرى وتوضع على اعواد الكبريت وبها يوقد الناس وهى التي يظهر ضوؤها من منافذ المقابر عند تحلل العظام في القبور فهذه المادة في مواد الغذاء كيف تخرج من الدم وتذهب الى العظام وهكذا حدقة العين كيف تذهب اليها المادة الزجاجية التى تصنع منها المدسات. ان هذه لحكمة حار فيها العقلاء وان أردت المزيد فعليك بما سطرناه فى كتابنا ميزان الجواهر فاذا فصلت الاجزاء تميز القلب أولا ثم أخذت الاعضاء فى التفصيل وآخرها وجودا أعضاء التناسل وبها يتميز الذكر عن الانثى وهذه عامة في نوع الانسان وهكذا الحيوان فترى الذكر والانثى منفصلين ولما كان الحيوان اقل شرفاً من الانسان واضعف تركيباً وجد بعضه وليست وظيفة الذكورية كاملة فيه كبعض

الاسماك تبيض اناثه فيأتي الذكر فينزو على البيض فيصيب بعضه ولا يصيب الاخر فما هي وظيفة الذكوريه لم تنل تمامها كما في الحيوانات العليا وكما في الانسان ثم بعض الحيوان يتحاك الذكر مع الانثى فينزوان على بيضهما .

اما النبات فالذكر والانثى فيه غير متميزين تميزهما في الحيوان وقد علمت ان وظيفة الذكورة اعطاء الصورة ووظيفة الانوثة تكون المادة فما هي جميع الحبوب والنوى توضع في الارض فتنبت وتخضر بما نالت من قوة الذكورة والانوثة معاً وهذا باعتبار ما عرفه الاقدمون وتأمل كيف اظهر الاكتشافات تفصيلاً اوسع وعلم ان النبات فيه ذكور واناث تارة في نبات واحد وتارة في نباتين وتارة في زهرة واحدة وتارة في زهرتين (يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) ولما كان من اعجب التدبير واتم التفصيل ما رآه الناس في النبات من الذكورة والانوثة اعقبه بقوله (وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فالذكورة والانوثة علم انهما واضحان في النبات

كله وفى النخيل المعروف امره من قديم فترى الزهرة الذكر تعطى الزهرة الانثى مادة فيها فتظهر صورتها وتتخلق كما يتخلق الجنين ويبقى حبا او نوى ويمضى زمان فيزرع ويخرج بما نال من القوتين المودعتين فيه . غاية الامر ان الحيوان يحتاج الى الدقة والنبات بخلافه اذ يمكث جنينه مدة طويلة ويقرب من النبات الحيوانات التى تبيض وارفع منها ما تحمل وترضع . فتأمل كيف كان ارفع المولدات شروطه اكثر ومقيداته اعظم لما اعطي من العقل والقوة وما كان اوسط كالدجاج جعل بيضه يبقى مدة قصيرة ليحضن وان زاد عنها فسد اما النبات فان ما هو بمنزلة البيض فيه وهى الحبوب والنوى تعطى مواد التغذية داخلة فيها كما فى البيض وتبقى أمداً طويلا شهورا بل سنين ثم تزرع فتخرج زاهرة ناضرة .

فالاقدمون عرفوا الذكورة والانوثة فى نفس الحب والنوى ولم يعلموا ما سبب ذلك وا كتشفه المتأخرون.

هذا هو الاجمال فى تزاوج النبات وان اردت المزيد فعليك بكتابينا ميزان الجواهر وجواهر العلوم واول هذا الكتاب أيضاً فقد اودعناها مايكفيك قراءته ولكن لا بد

لنا من ذكر اية (والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد) فذكر اولا عند التبصرة البهجة والتزاوج وعمم جميع الاصناف وخصص فى قوله جنات وحب الحصيد وعمم الخلق كلهم في الرزق

فكانه يقول ان جميع النبات فيه تزاوج ذكور واناث مع بهجة وجمال وحسن وبهاء وهذه تكون ذكرى للخواص لا للعوام فبهجتهم تكون بكل نبات متى ادركوا حكمته وما فيه من العجب . واما كافة الناس فان رزقهم يكون من اصناف معلومة كالجنات وحب الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد . فهذه امور مشتركة بين جميع الناس الخاص والعام ولم يذكر معها بهجة ولم يخصصها باحد ولم تعم جميع النبات امافى الخواص فقد اشار الى ان رزقهم التبصرة والتذكر والتعقل الراجعة الى البهجة وادراك الجمال والحسن والرونق فلذلك ذكر فى جانبهم البهجة اما هؤلاء فلذاتهم امور حيوانية اذ الاكل اشترك فيه الحيوان والنبات والانسان وادراك الجمال لاولى

الالباب الذين عرفوا ماهى لذتهم وما المختص بهم وما هو جمالهم وبهاؤهم واشراقهم وبهجتهم . فلعمرك ان معرفة قوة الذكورة والانوثة من اغرب ما يدهش العقلاء ويحير الحكماء فى اصناف النبات والحيوان والانسان فانظر كيف تخلق اعضاء الرجل والمرأة متشابهين فى الحواس والاعضاء ما عدا عضوى التذكير والتأنيث وهكذا فى القوى والادراك الا في امور تميز فيها الذكور عن الاناث فاعضاء الحركة والتحريك فى الرجل أقوى منها فى الانثى وهكذا الحرارة فيه اقوى منها وما كان من الصفات قوة وشدة فانها في الرجل اقوى وما كان فيها من رحمة ورأفة فهى في الانثى اقوى واما فيما عدا ذلك فيتقاربان ويحصل اختلاف واتفاق على حسب الاحوال .

﴿ ابداع غريب وحسن وضع وترتيب ﴾
فى الكبد والرئة والحواس

ليعرني قارئ كتابى هذا سمعاً وليصغ الى ما أقول الان وليناجني بضميره وليدخل معى فى عباب هذا البحر من العلم ولينظر الرئة والكبد وترتيبهما مع المواد العنصرية

فياليت شعرى اننا نرى ماينفع الانسان اما غاية فى اللطافة او الكثافة والاول هو الضوء والثانى عناصر طبقات الارض المكونة للنبات. واما متوسطة بينهما وهذا المتوسط اما اقرب الى اللطافة وهو الهواء او الى الكثافة وهي عناصر الماء

ثم تأمل كيف كانت هذه الاقسام الاربعة موضوعة بترتيب درجاتها فالاثقل في اسفل وهي الارض وما يقرب منه فوقه وهو الماء ويليه عناصر الهواء ويداخلها من فوقها الضوء اللطيف الذى لا وزن له وانما هو حركات فى الاثير آتية من الكواكب سارية في هذه الاجسام الشفافة اللطيفة للمناسبة . هذا هو وضع ما يحيط بالانسان والانسان في وسطها كأنه جنين يحيط به الهواء المتداخل فيه كرات الماء (البخار) وفيه الضوء ومن تحته الارض فهذه كلها محيطة به احاطة الرحم بالجنين في بطن المرأة ليتبين للعقلاء تمثيل احاطة الرأفة من ذلك المبدع بهم وكيف تمثل احاطته بالناس وما مقدار تحببه اليهم والذى يهمنا الان ان ننظر لوضع جسم الانسان وترتيبه ومقارنته بها فنقول

هذه المعدة تحت الحجاب الحاجز فى البطن ومعها الامعاء وكلاهما فيه الطعام يطبخ والكبد يأخذ مارق وراق ولا يدخل

لهذه الاعضاء مما حولنا الا المواد العنصرية الارضية الثقيلة مع الماء وماتركب منهما فانظر كيف وضعت هذه المذكورات اسفل لمناسبتها لما تأخذ منه (الارض والماء) وتأمل كيف وضعت الرئة اعلى واخذت من الهواء اذ هو اعلى من سابقيه فما هذا التناسب العجيب فما كان في البطن فمادته الارض والماء وهما اسفل وما كان فى الصدر فمادته الهواء وهو اعلى منهما ثم انظر أيضاً فى الحواس الخمس فانك تعلم ان حاسة اللمس وان كانت تعم الجسم كله فيمكن اعتبار اليد هى التى بها الاحساس اعم من غيرها لانها تمر على الجسم كله فيمكن اعتبارها عضو الاحساس . واللسان للذوق والانف للشم والاذن للسمع والعين للابصار فكل واحد منها وضع بازاء ما يناسبه وهاك البيان اللمس يكون للمواد الغليظة التفلية وغيرها فلذلك عم الجسم كله واليد جعلت اسفل من الحواس الاخري لان عملها في الاحساس انما يغلب فى المواد الارضية والمائية والذوق وضع فى اللسان لانه لا يذوق كل شيء وانما يختار بعض ما يمكن بخلاف اليد فهي تباشر كل شيء وللذوق خلاصتها فلذلك وضع اعلى فى الفم للطف ما يذوق نوعاً وانه خلاصة لما يلمس باليد

والانف فوق الأثنين لانه عضو الشم ويأخذ المواد اللطيفة بواسطة الهــواء فلذلك كان يشم القريب والبعيد ويحتاج الى العناصر الدقيقة المتخللة فى الهواء فهو ارفع من حاسة الذوق واقرب الى حاسة السمع التى تسمع الاصوات وهى حركات فى الهواء لا دخل للعناصر فيها ولا مواد تخللها وتسمع من بعد كثير فهى ارقى من حساسة الشم ووضعت في الجانبين اللذين هما اقل من المقدم الذى فيه البصر لانه لا يرى الا بالضوء ويميز الاشكال والصور والالوان والاضواء (الآتية من الكواكب المناسبة لوضع العين فهى اشرف واعلى) والقرب والبعد والصغر والكبر فهو اشرف الحواس لارتفاع مكانه وشدة تمييزه وحسن ما به ابصاره فهو مقدم بالمكان والشرف والرتبة على سائر الحواس ويرى من بعد عظيم الى مسافة مئات ملايين من الفراسخ والكواكب ذات البعد الذي يعجز الانسان عن تقديره وهذه لم تصلها حاسة غير النظر

ولا ريب ان كل حساسة تميز على بعد اكبر فهى اشرف والعكس بالعكس فتأمل كيف كانت حساسة اللمس وهى اسفل لا تحس الا بالملاصق ويليها الذوق ويعلو عنهما الشم فالسمع

فالبصر وبالجملة فكل حاسة تميز باربعة مميزات المادة المستعملة هى لها وقوتها في ادراك القريب والبعيد ومكانها فى الجسم ووضعها بما يناسب ما تستعمله

فهذه من حكم وضع جسم الانسان العجيبة التى تترفع ان ينالها من يضيع أوقاته فى اللعب واللهو ومن يشغل الاوقات باظهار مسئلة عرفها ليفتخر على الاقران فمثل هؤلاء يظنون ان المقصود من العلم انما هو غلبة الاقران في المجالس والتظاهر ولم يعلموا ان نفوسهم تطالبهم كل آونة باشباعها من هذه الحكم الغريبة المودعة فيما حولهم من الكائنات فياليت شعرى كيف يقر لعاقل قرار اذا لم يعرف حكم هذا الكون التى تركت فطاحل العلماء والهين بها صاغرين امامها فرحين بما آتاهم الله من فضله قارئين (فبذلك فليفرحوا هو خير بما تجمعون)

او لم يروا انهم ياسفون على الحياة اذ المعت لهم بارقة من بوارق العلم ويتأففون حسرة على مافرطوا ثم يرجعون لاهين على عادتهم (كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا) (افلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء)

وهناك حاسة أرق من هذه التي هي مشتركة بين طوائف الحيوان والانسان وهي حاسة العقل ولذلك كان اتصالها بالدماغ أعلى من الجميع مستخدما لما يرد عليه من هذه الحواس بقوته الآتية من عالم فوق عالم الكواكب وهو الجمال العقلي يرتفع عن الاجسام ومخالطتها اذ أنت ترى أن الحواس قد حكمت على جميع ما نشاهد حتى أضواء الكواكب فلم يبق لقوة العقل الا عالم فوق ما نشاهد والا فلا عقل ولا عوالم واذا كانت هذه الحواس كل منها له مواد بها اشتغاله وهي تمده فما الذي به صرنا عقلاء وما مادته وبهذا واحده تظهر قوة العقل ويعلم أن له عالما يستمد منه يناسبه تمام المناسبة عبر عنه الاقدمون من اليونان بالعقول العشرة وعلماء الديانات بالملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويناسب ما نحن فيه بعض المناسبة تكسير الخليل الاصنام ونظره فى الكواكب حتى وصل الى الشمس ثم استدل على المبدع (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا).
واية النحل (أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) وقصدنا من هذا موازنة ما يذكر فى الكتاب السماوى بما ادركته العقول فوجدنا اتحاداً بينهما فهذا الخليل نظر من الاسفل الى الاعلى الى الاصنام ثم الزهرة فالقمر فالشمس وما وراءها الى مافوقها وها هى الاية الاخرى ذكرت فيها الظلال للاشباح الارضية ثم السموات والارض الشاملة للسبب والمسبب ثم ما فوق ذلك من العالم الذى يستمد منه العقل المناسب له فتأمل ألست ترى بين هذه كلها تناسبا تاما

ثم ان هذه الحواس مرتبة أيضاً من أسفل الى أعلى من حيث الوجود اذ الجنين أول ما يخلق توجد له مادة التغذية فالحس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر فها أنت تراها مرتبة من أسفل الى أعلى وجوداً ومن أعلى الى أسفل شرفا وترى كل ما كان أسفل كسلم لما هو أعلى على الترتيب الطبيعى فى الوجود من جعل الاسفل مقصوداً للأعلى وهل بعد البصر الا العقل الذى هو المقصود الحقيقى المستمد من عالم ليس بمادة واذا تكبر البصر عن الاستمداد من المادة وانما استمد من الضوء وهو أرفع منها قدراً فما بالك بالعقل ومن هنا نفهم قولهم الله منزه عن

المادة وتعلم كيف يكون البقاء بعد الموت وان الى ربك المنتهى ومن هنا نعرف قوله تعالى (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) وقال (الله الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) فكأنه يقول كل شيء في العالم حسن والانسان احسن العالم تقويماً لأنا بدأناه من طين ثم ترقى بهذه الاوضاع في المواد المختلفة بحكمة عجيبة حتى استحق أن يلهم العقل الذى يستمد من عالم المجردات (ان ربي لطيف لمن يشاء انه هو العليم الحكيم) وهذه الآية ذكرت فى قصه يوسف عند مسألة صواع الملك وما ترتب عليه من السياسة الموجبة لاجتماع شملهم وحضور أبويه واخوته ليعلم ملوك الارض كيف يحتالون فى السياسات وهكذا وضع الف سياسة فى وضع جسم الانسان واخراجه من المواد الميتة الى أن صار فى احسن تقويم وهذا هو اعجب سياسة تحويل عناصر ميتة الى عاقل متعلم متصرف (ان ربى على صراط مستقيم)

فآخر ما وصل اليه الاحساس فى البدن تلك الاضواء الآتية الينا من الكواكب التى هى الة الضوء في الاحساس وهذا الضوء امره عجيب جداً فانه حارت فيه عقول الحكماء قديما

وحديثاً فان العوالم التى نشاهدها اما اجرام واما اعراض وهذا
الذى نسميه ضوءً الاندرى اى شيءٍ هو فان كان جسما عارضه
اننا اذا أقفلنا المكان الذى فيه الضوء او توارت الشمس بالحجاب
او غاب الكوكب ذهب النور وهذه تخالف صفات الاجسام
اذ الجسم يبقى في المكان بعد ذهاب واضعه فاما ذهابه بذهاب
سببه فلم يعهد قط فاذن هو ليس بجسم وان قلنا انه عرض فما
لنا نراه ينتقـل من مكان الى مكان وكيف ينتقل العرض اذ
الاعراض كالبياض والسواد والطول والقصر والحسن والجمال
لا تتحرك بنفسها وانما تتحرك بغيرها واذا لم يكن عرضاً ولا
جسما فما هو اذن ولما رأى الاقدمون هذا التعارض قالوا انه
يخلق بمجرد مقابلة الكوكب لما امامه ويكون ظهور الكواكب
سبباً عادياً لخلقه وجعلوا هذا ليخلصوا من تعليله ثم جاء حكماء
الافرنج وفرضوا انه حركات فى الاثير وهو هذا الموجود الذى
لا يدركه الحس وانما ادركه العقل فاذا قابل الكوكب المرئيات
تحرك الاثير الذى لا يرى بحركات سريعة لايمكن ادراك كنهها
تبلغ في الثانية الواحدة مئات الآلاف فهذه الحركات ينشأ
عنها هذا الضوء الذى نراه بابصارنا وهذا الغرض الذى تخيلوه

لم يجعلوه آخر الاراء وانما فرضوا ذلك لحل المشكلة مؤقتاً حتى
يجعل الله لها سبيلا آخر فى المستقبل وها انت تعلم ان الاثير
الطف من المادة وهو شيء اقرب الى المجردات فبالاولى تكون
حركاته الطف وابهج ولذلك تري الضوء امامنا اجمل شيء نراه
حتى حمل الصابئين على عبادة الكواكب والمجوس على عبادة
النار لما فيها من النور فياليت شعرى ما للناس أصبحوا سكارى
وما هم بسكارى ولكن الشهوات شديدة والآلام المعنوية عديدة
ها هو الضوء ينادي جميع الامم يوبخهم انهم لم يعرفوا كنهه
بل حاروا في ظواهره ونواميسه التي بها تدرك العين الموضوعة
طبقاتها وضعاً غريباً فهى من مواد زجاجية من الرمل وما معه
من مواد الزجاج ويتنوع هذا النور فيها تنوعاً سنأتى على تفصيل
بعضه فيما بعد والذي نختاره فى ترتيب العوالم ما اشرنا اليه من
انها تأخذ فى اللطف من اسفل الى أعلى حتى تصل الى الضوء
وهو وسط بين الاجسام والمعنويات وبه تدرك الابصار وتراه
داخلا فيما لا يدخله الهواء لشدة لطفه جداً فاذا تراقينا عن
العين رأينا الدماغ وهو مناط الروح والادراك واذن يجدر بنا
ان نتكلم على علم النفس

﴿ الباب السابع ﴾

(المرتبة الرابعة — علماء الفلسفة العالية)

(علم النفس)

الى هنا وصل علماء الطبيعة وقالوا الاطاقة لنا بما فوق ذلك فان هذا آخر ما وصلت اليه ابحاثنا ولو عرفنا علم من هم ارقى منا من علماء العلم الاعلى ما ذكرنا هذه المباحث فجاء قوم ارقى منهم عقلاً واسمى نظراً وقالوا نحن عرفنا ماعرفه عوام الناس وشعراؤهم وما استنتجه رياضيوهم من القياس في الجسم وما ادركه مشرحوهم وطبيعيوهم فلنبحث اذن نحن عما هو ارقى من هولاء ولا يصح لنا الوقوف عند هذا الحد وقد قال تعالى وفوق كل ذي علم عليم تنبيهاً لذوى العقول على الجد والبحث والتشمير في نظر الاشياء ولقد رأينا الاطباء لا يعرفون من الانسان الا اعضاءه المفصلة وروحه الحيوانى وهو عبارة عن خلاصة الدم الحاملة للحرارة الحيوانية السارية في سائر الحواس وما هذه الحرارة الا كسراج يدار في جانب المنزل فتضيء جوانبه وتخرج منه اضواء الى الخارج من منافذه فهكذا هذ الروح الحيوانى

المنبث في أعصاب الحس وأعصاب الحركة الخارجة من الدماغ والنخاع الشوكى وهذا الروح هو الذى يعرفه الطبيب فاذا سد شريان أو وريد أو انقطع عرق ووقف العضو عن العمل عالج الطبيب هذا العضو حتى يخلص الروح الحيوانى اليه أما مافوق ذلك من عالم النفس الذى هو أرقى من الضياء فهو من عالم فوق عالمنا وفوق قدرة الطبيب ولا يمكن معرفة بعض ظواهره الا بمزاولة الطبيعيات والرياضيات وقد قدمنا فى كتابنا هذا وسائر كتبنا مايكفى الذكي ان يدخل معنا فى عباب البحث فى هذا العلم

وقد قدمنا في آخر التشريح قريبا ان البصر ادرك الاضواء وبها ميز الالوان بعضها عن بعض والاشكال والصور والجمال والتناسب وقد كبرت العين وتعاظمت أن تتنازل الى الهواء فتبصر بواسطته وتشامخت عن المادة وارتفعت الى ماهو متوسط بين المادة والمجردات .

اما العقل الذي يستخدم تلك الحواس ويدرك بواسطة الجزئيات الآتية اليه كليات كأن الكل مثلا اعظم من الجزء من مبادىء الهندسة ومبادىء معرفة مالادخل للانسان في خلقه والتمييز بين الحسن والقبيح من افعال الانسان وهى الحكمة العملية

فذلك لايجوز ان يكون مدركا بلاشيء مشرق عليه ممايناسبه

وكما ان العين مع صحتها لا تدرك الاباشراق أنوار عليها من الكواكب البعيدة عنا المرتفعة جداً فهكذا عقولنا التي هي ارقى من ابصارنا لاتدرك الاباشراق نور عليهامن عالم لايجوز ان يكون جسما والالكان هو اخس من العين ولا متوسطا بين الجسماني وغيره والالكان مساويا للعين وقد علمناه ارقى منها مكاناً ومكانة واحاطة ومعلومات فاذن ادراكه انمايكون باشراق نور من مجردات عن المادة لانراهابحواسنا وانماعرفناها بعقولنا وكما ان البصر لايدرك الا اذا كان صحيحاً فهكذا العقل لا يدرك الا اذا سلم من الآفات وكما ان البصر لايدرك بنفسه وانما يدرك بواسطة نور يأتي له من عالم اعلى وهي الكواكب فكذلك العقل لايدرك وان كان صحيحاً الاباشراق عليه مما يناسبه وكما ان البصر يدرك النور بنفسه ويدرك بواسطته الاشياء ويدرك مشرق النور وهي الكواكب ولا يدرك ذلك كله حاسة اخرى مما هي تحت العين فهكذا العقل يدرك الاشياء بواسطة اشراق يناسبه من موجود ليس بجسم فيدرك ذلك النور ومبدأه ولا يقدر على ذلك غيره مما هو اسفل منه طبعاً

وهو البصر وغيره وكما ان الاضواء الآتية من الكواكب بعيدة عنا جداً مرتفعة مكاناً فكذلك الموجود الذى لانراه الذى يشرق النور على العقل الذي ليس له مكان اعلى فى الرتبة والشرف من العقل بما لانهاية له .

وكما ان العين مع صحتها واحاطة النور بها قد لاتبصر لمانع صرفها عن ذلك كاطباق الجفن فهكذا العقل قد يحجب عن التعقل والتبحر فى العلم بانصرافه الى جهة الاغذية والمآكل والملابس والعداوة مع الناس وموالاة الاصدقاء ومعاداة الاعداء والى ذلك يشير قوله عليه الصلاة والسلام .

(لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات والارض) وكما ان مشرق النور وهى الكواكب لايعرف منها لشدة بعدها الاظواهر قليلة لانعرف حقائقها بل نرى اكثرها قدر بيضة مع انها قد تكون اكبر من الشمس فكذلك من اشرق نوره وهو مبدع هذا الكون على نفوسنا لانعرف عنه الامايصل من نعمه لنا نظير ضوء الكواكب ولا نعرف من صفاته الا مقدار ماعرفنا من جرم الكواكب وكما ان فينا قوما نظروا بالمنظار المعظم فعرفوا كثيراً من ظواهر

الكواكب وآخرين بالبرهان علموا ابعادها واقدارها واقطارها فكذلك العلماء من جملة الناس قد يحثون بالعقل تارة وبصفاء الفكر اخرى فيتجلى لهم كثير من العلم بصفات من اشرق نوره على النفوس وهو مبدع هذه الكائنات ومن هذا نعلم كيف اقسم بمواقع النجوم على مدح القرآن وما المناسبة بينهما فقال (فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين)

فتأمل كيف اقسم بمواقع النجوم ثم اعظم هذا القسم واكبره جداً واشار الى جهل اغلب الناس به فقال لو تعلمون وذكر المقسم به وهو مدح القرآن واشار الى انه في كتاب مكنون اشارة الى بعد مناله كما بعدت الكواكب وكل هذا لما بين العلم ومصدره والكواكب وانوارها من الشاكلة واما النور فنظير قرآن كريم واما مصدره فنظير تنزيل من رب العالمين لانه هو معلم العلم ومنزل الكتاب كما ان الكواكب مشرق النور

ومن هذا التقرير نعلم كيف يتصور ان يكون موجود ليس بجسم وانه أرفع واجمل من النور وابهى وابهر وانه محيط بكل شيء واذا رأيت ان النور اكثر احاطة بالاشياء فلا بد

ان يكون ما فوقه اكثر احاطة بما يعجز النور عنه وتعلم كيف مثل ذلك بقوله الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح الآية ولسنا نأتى بهذه الآيات مقلدين وانما هى البراهين والحجج العقلية التى نراها بعقولنا كما نسمعها من الشرح ليتحد النقل والعقل واعلم ان العقل هو الغذاء والنقل هو الدواء كما ذكره الغزالى فى احياء علوم الدين

هذا ولعلك شاقك ما سمعته الآن الى معرفة ماهى النفس وما صفاتها وما الذى تحسه وكيف تحس فهاك البيان فنقول .

اعلم ان النفوس ذللت لها هذه الكائنات وكأننا اذا دققنا النظر لم نجد حولنا الا شيئين خادما ومخدوما فالمخدوم هى النفس والخادم هي المادة ولا ريب ان كلتيهما لم تظهرا قط وانما الظاهر صفاتهما فقد اجمع حكماء العصر والاقدمون ان المادة لم يمكن ظهورها الا لصورها المختلفة كما اثبته القدماء . وهكذا مذهب لابلاس الذى اعتبرها كرة غازية تنوعت الى اخره :

وما اشبه المادة الا بغادة حازت جميع المحاسن التى يتصور وجودها فى العقل ثم وقفت امام النفوس بحللها وحلاها (والنفوس لم تظهر الا بصفاتها كالمادة فظواهر كل منها تجلت لظواهر الاخرى)

وجمالها وبهاها ونرى النفوس كالعشاق والمادة كالمعشوق فتتمتع بجميع ما فيها من المحاسن واللطائف بحواسها الخمس وتخزن منها مارق وراق بصور في قواها الباطنة كما يستحضر العاشق صورة المعشوق واليه الاشارة بقوله (الذى جعل لكم الارض ذلولا) وقال ايضاً (الذى جعل لكم الارض فراشا) ولذلك ترى اغصان الاشجار كانما تمديدها بالازهار وتسلم على الناظرين اليها وتحيي القادمين عليها وكأن كل شيء يدعوك بلسان حاله (خذ ماتشاء) (كلوا مما فى الارض حلالا طيباً) وقد آن لنا أن نشرع فى المحسوسات فانه اسهل ثم كيفية وصولها الى الحواس ثم الحواس الظاهرة ثم الباطنة فنقول .

﴿ المحسوسات ﴾

اعلم ان الجسم جوهر طويل عريض عميق وهكذا النفس كالجسم ولكنه ليس لها ابعاد ثلاثة وهذا هو الفرق بينهما وانما هى جوهر ليس بمادة وهذا التعريف هو بعينه قولهم انه مركب من هيولى وصورة فالهيولى هى المادة او الجوهر ومعنى الجوهر هو الموجود الذي ليس صفة فى غيره كالبياض والحمرة

والصفرة وهكذا والصورة هي الابعاد الثلاثة والمادة يستحيل ظهورها الا بالصورة فهى لم تعرف الا بالدليل اذلم يرالا الجسم واما المادة التي هي احد جزئيه فلم ير قط . واذا علمت ان الجسم ماذكر فجميع مازاد عن الامتدادات الثلاث فهي صور متممه وهى صفات كثيرة وكل جملة منها تختص بحاسة من حواس النفس الانسانية فالحواس خمس اللمس والذوق والشم والسمع والبصر وصفات المادة ست وثلاثون صفة فعشرة منها لحاسة اللمس وهي الثقل والخفة واللين والصلابة والملاسة والخشونة والرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة فهى انما تدركها القوة اللامسة بملاصقتها لها وهذه الصفات للجسم لا من حيث هو جسم وانما هى عوارض حدثت له من احوال عارضة والثقل والخفة لاندماج المادة وانجذابها نحو الارض مع قربها فى الاول وعدم اندماجها وتخلخلها او بعدها عن مركز الجاذبية في الثانى وهكذا بقيتها فالرطوبة لقلة المواد السائلة عليها واليبوسة بالضد والخشونة لوجود نتوات كثيرة في سطحها والعكس بالعكس وبقيتها ظاهرة وقوة اللمس تدرك هذه العشرة من صفات المادة بملامستها

﴿ المذوقات ﴾

وللاجسام تسع صفات اخرى وهى الحلاوة والمراره والملوحة والدسومة والحموضة والحرافة والعذوبة والقبض والعفوصة كالعسل والحنظل والملح والزيت واللبن الحامض والفلفل والماء والليمون والعفص فهذه التسعة لواحق للمادة ومحاسن قدمتها هدية الى حاسة الذوق .

ومن العجيب ان هذه الطعوم التسعة انما تكون فى خلاصة المواد لا كالملموسات التى كانت صفات لجميع المواد فتأمل كيف كانت خلاصة المادة هدية للذوق الذى جعل فى الفم وهى ارقى من الملموسات فكانت الخلاصة للاعلى

﴿ المشمومات ﴾

وكثير من النباتات والمواد الاخرى تخرج منها اجزاء لطيفة تمتزج بالهواء فيتكيف بها فيصل الى قوة الشم في الانف وتصل الى الدماغ فيحس بريحها وينقسم الى محبوب ومكروه فتأمل كيف كانت حاسة الشم فى الوضع اعلى من سابقتيها ولها الشرف من حيث لطف ما تستعمله . الا ترى انه لا يأتى لها

الامواد لطيفة في الهواء سائرة اليها فقد استخدمت الهواء لتنال مشتهاها اما سابقناها فكانما تباشر ان نفس المادة بدون توسط الهواء، لعمرى انه لوضع عجيب

﴿ المسموعات ﴾

والى هنا عرفنا صفات المادة الاحد والعشرين الموزعة على تلك الحواس الثلاثة ولاجرم انها كلها غليظة لم تصل الى اللطف التام وبقى للمادة بهجة ارقى مما ذكر وهي الاصوات الناشئة من اصطكاك بعضها ببعض ولعمرى ان هذه الصفة وحدها تكاد تعبر عن محاسن المادة وتعرب عما استكن فيها من الجمال ولما ضعفت ان تؤدي مافيها من المحاسن وتظهر مااستكن فيها من الجمال لضيق نطاق الصور اذلاتسع صورتين فى آن واحد مع انها مستمدة لصور لانهاية لها ولذلك تراها تلبس صورة وتخلع أخرى فعبرت عن تلك المحاسن والاستعدادات بالنغمات الموزونات المتتابعات لتقوم مقام الصور الكثيرة فى الازمان المتباعدة وسرت تلك الاصوات في ارق جزء من الاجسام وهو الهواء اللطيف فأتى الى الاسماع فطربت النفس وصفت

ولعمرك ان النفس وقد سمعت الالحان لاشبه شيء بمن عشق فسمع كلام معشوق . وترى ان النغمات كلما كانت اكثر وزنا واحسن وقعا زادت قبولا وبهجة وحسناً عند النفس لمشاكلتها وزن الصور وتناسقها. والاصوات اما حيوانية او غير حيوانية وغير الحيوانية اما آلات كالطبول والاوتار واما طبيعية كخرير النهر وصليل الحديد . والحيوانية اما منطقيه واما غير منطقيه الثانية اصوات الحيوانات والاولى اصوات الانسان وهي اما مفهومه او غير مفهومه فالاولى كالاشعار ونحوها والثانية كالضحك والبكاء فهذه خمسة فانظر كيف كان الهواء اللطيف يحمل هذه الاصوات مع اختلافها وكثرتها ولا يختلط بعضها ببعض فتحمل صوت الاشجار وما حولها من الحشرات الصغيرة والحيوانات الكبيرة والانسان والنهر الجارى ويسمع الانسان هذا كله ويميزه اذ الهواء لطيف وبلطفه يسع هذا كله وتأمل كيف تحفظ الاذن هذه الاصوات كلها وتميز بينها مع انها ليس لها لطف الهواء ولكن قد اكتشف الطب الجديد ان القوقعة التى هى وراء اعصاب الاذن فيها سائل داخله حبوب صغيرة تبلغ نحو ثلاثة الاف كل منها متصل بعصب دقيق جداً اختص

يسمع نوع من الاصوات فقد قامت كثرة الاعصاب فى الجسم الكثيف مقام لطف اللطيف (ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) فعلم كثافة الجسم ففرق الصوت على الاعصاب لا كالهواء الذى هو لطف محيط بالارض صالح لحمل المختلفات فتراه محيطاً بالقائلين والسامعين على الدوام. وههنا يجب تذكر النعم الواصلة من الرب لعباده فالهواء لا نستغنى لحظة عنه لغذاء اجسامنا بتلطيف الدم اذ لسنا في تلطيف دمنا احوج منا اليه فى كلامنا وتوصيل اخبارنا والتواصل فيما بيننا مع ما فيه من نقل الروائح الينا لنعرف الضار والنافع. فما اقصر عقول كثير من نوع الانسان لا يحمدون الله على مثل هذا وانما يحمدونه على المال والغنى اما المبذول لنا فى كل آن مع شدة حاجتنا اليه فلا نكترث به ولا نعده نعمة وهذه معنى قوله (قتل الانسان ما اكفره)(ان الانسان لظلوم كفار) نعم هذا هو كفر النعم

﴿ المبصرات ﴾

اما المبصرات فهى عشرة الانوار والظلمات والالوان والسطوح والاجسام والاشكال والابعاد والاوضاع والحركات

والسكنات فالظلمة ترى ولا يرى فيها غيرها بل هي كالحجاب اما النور فيرى وترى به الالوان وبها تظهر السطوح وهي لا تقوم الا بالاجسام فتظهر تبعاً لصفاتها والجسم لا بد له من شكل فتظهر الاشكال فالأبعاد فالاوضاع فالحركات والسكنات والحامل لهذه العشرة هو الضوء المشرق من الكواكب الساري في العوالم كلها الداخل في العيون الزجاجية المناسبة له كل المناسبة الموضوعة بترتيب يناسب نواميس الضوء فتجتمع الصور على الشبكية ثم تذهب الى المخ مع اخواتها السابقة فيحكم بين جميعها وهو من الطاف الحاكمين

واعلم ان تقسيم الاجسام الى مضيئه ومظلمه خطأ وانما هي مظلم وهو ماله ظل كالارض ومضيء كالشمس وهو مالا ظل له يعطي الضوء لغيره وشفاف وهو مالا يحجب الضوء وانما يسري فيه ويفيض على مابعده ومنه عين الانسان والزجاج وبعض الاحجار الكريمة والماء والهواء وجسم الاثير وهي اجرام الافلاك .

واعلم ان الالوان بعضها حقيقي وبعضها غير حقيقي فالاول الوان الزرع مثلا والثاني كخضره الهواء وزرقه الماء العميق

وهذا رحمة من الله ولطف بالحيوان اذ يحتاج في تصرفه الى نظر نحو السماء حين يبحث عن الاغذية والى النبات وهو يرعاه فاقتضت الحكمة الالهية تلك الخضرة واختها الزرقه فى الارض وفى السماء لشدة مناسبتهما للعيون (ان ربكم لرؤوف رحيم) فهذه حكمة تحارفيها نفوس العقلاء ويخر العقل ساجداً وياقوم كيف جعل فى الاجسام الشفافة ناموس عام فيها وهو الزرقة فى عمقها المتباعد وكيف كانت بهجته بهجة الحيوان وحسن منظره وان هذه الظواهر حكم وراءها جمال وبهاء وحسن اعلى واشرف وابهج (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون) بهذا يفرح الاذكياء المجدون ويفر فرار جعل من ريح الورد الجاهلون. فالملموسات عشره والمذوقات تسعة والمشمومات اثنان والمسموعات خمسة والمبصرات عشرة فالجميع ستة وثلاثون واغلب هذه تسمى الكيفيات المحسوسة وقد دخل معها الوضع وهو مايرى من الترتيب ونظام العسكر وطرق البساتين ونظام المنازل والاشجار وكل حسن وبهاء وهو الجزء المهم من علم تمييز الجمال .

ثم ان الكيفيات المحسوسات قد تكون راسخة كحلاوة

العسل وملوحة ماء البحر وتسمى انفعاليات وان كانت غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجل تسمى انفعالات هذا في غير الانفس فان كانت الصفات الراسخة فى الانفس سميت ملكة لجميع المتدربين على العلوم واللغات وان لم ترسخ سميت حالا

وبعض الاجسام فيه صلابة بهايدفع الوارد عليه كالحديد ويسمى هذا الاستعداد قوة وبعضها فيه ضعف عند ورود خارج عليه ويسمى ضعفا كالماء والسوائل كلها

فعلم لك من هذا الكيفيات كلها ومنها الوضع والكم المتصل الذى هو الابعاد الثلاثة. وهناك كم منفصل قار وهو الاعداد وفروع علوم الرياضة الحسابية كلها تبحث عنه كما يبحث عن الكم المتصل وهو ابعاد الجسم الثلاثة فن الهندسة وفروعها وكما يبحث الفلك عن الكم المنفصل الذى ليس بقار وهو الزمان وكما يبحث في الطبيعيات كلها عن جميع الجواهر ويلاحظ فى علم التاريخ المتي وفي الجغرافيا الاين وفى علم تمييز الجبال الوضع وفى الصنائع كلها والحروب والتعاليم الفعل وفي المواد السائلة والمسبوكات والمصنوعات والمتعلمين والمحكومين الانفعال وفى الاحاطات كلها كاحاطة الثياب بالاجسام والماء بالارض والهواء بهما مقولة

الملك وفى علوم الانسان ومعرفة منازل الناس ونسب العلويات الى السفليات واللطائف الى الكثائف والاسراع الى البطء وهكذا تلاحظ النسبه.

فهذه عشر مقولات وهى الجوهر والكيف والكم والاضافة والفعل والانفعال والمتى والاين والملك والوضع وانما قصد الفلاسفة بها معرفة هذه المادة وصفاتها بطريق الحصر الوجودى وانما تتعلق الحواس بالكيفيات المحسوسات وقد يتبعها غيرها.

واذ فرغنا من الكلام على صفات المادة فلنشرع الآن فى كيفية وصولها الى حواسنا ولنشرح اعمال الباصرة فنقول:

علمت ان الصفات التى تحس عشرة فيظهر الجسم المرئى بشكله وابعاده الثلاثة ومن العجيب ان الضوء يحمل هذه الصور والاشكال مجردة عن مادتها فيتكيف بها بدل موادها فتراه يحمل جميع مواد صور ما نراه. وياليت شعرى كيف يتكيف الضوء بما لا يعد من الصور المزدحمة فيه ويوصلها الى الابصار ولكن لا عجب في ذلك فان الهواء هو الطف منه يحمل ما لا يحصى من الاصوات المختلفة ويميزها فكيف به هو وهو أرق

والطف واعجب ولذلك تراه اختص بالصور نفسها. أما الهواء فلم يأت الا بالحروف المعبرة عن تلك الصور ففرق بينهما فالضوء كالآلات الفوتوغرافية والهواء كالفونجراف فالاول مظهر لصور الاشياء والثانى معبر عنها بالفاظ والضوء يقرب فعله من فعل المخيلة التى تزدحم الصور فيها ولا يختلط بعضها ببعض فتأمل كيف كان الشيء كلما رق ولطف كان اوضح فى فعله واشرف وكلما قرب من الغاظ ضعف ايضاحه ووضوحه فالهواء حمل الاصوات وهي بلاريب اضعف تعبيراً عن الاجسام من صورها المنقولة بنفسها فى الضوء داخلة فى الاعين مرسومة في الدماغ فتدركها النفس. ولعمرى كم من الفرق بين من يعبر عن الشيء وهو الهواء وبين من يحضره بنفسه وهو الضياء ولعلك من هذا تعلم كيف تكون حال ماهوارق من هذا وهى عقولنا ونفوسنا ومن هو الطف منها وهو مبدع الكون وملائكته (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون. ومايعلم جنود ربك الاهو)

ولقد علمت من هذا ان العائق عن الوضوح هى كثافة

الاجسام فالقوة اللامسة والذائقة لاتدركان الا المجاور لهما فتتكيفان بكيفيته ولاتشعران بها وتنتقل فى الاعصاب حتى يحس بها المخ وارقى منهما الشامة .

وقد علمت فعل السمع والبصر وهو انما يدرك بواسطة الضوء الذى ليس بجسم فكيف عقولنا وكيف من يعلو عليها فان هذه ليست باجسام اذلم تبق مرتبة بعد الضوء الا وجود مجرد عن المادة واسع الاحاطة ومنه نفهم معنى القدوس والمنزه وكيف احاط بالكائنات علما اذ الذى علمناه بالمشاهدة ان المادة هى العائقة فاذا لم تكن مادة حضر كل معلوم لم يعقه عائق ثم تصور هذا صعب علينا جداً مادمنا فى جلاليب المواد فاذا تخلينا منها كنا اقرب الى العلم بذلك. ثم اننا اخترنا فى الابصار مذهب علماء الطبيعة وهو انه بالانطباع كما اوضحناه لا مذهب الرياضيين اذقالوا انه بالشعاع الخارج على هيئة مخروط قاعدته على الجسم المرئى وقمته فى العين الباصرة ولهم في ذلك تشعب وأراء كثيرة فلا ثمرة في الاطالة بذكرها والانطباع الذى اخترناه مذهب ارسطو والشيخ الرئيس ابن سينا وفلاسفة الاسلام وقالوا ان مقابلة المبصرات للباصرة تفيد استعدادا لتفيض به صورته

على الجليديه ولا يكفى فيه الانطباع في الجليدية والا لراى
شيئاً واحدا شيئين لانطباع صورته فى جليدتى العينين واذن
لابد من تأدى الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه الى الحس
المشترك ولم يريدوا من تأدى الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه
الى الحس المشترك انتقال العرض الذى هو الصورة اذ لا ينتقل
العرض وانما ارادوا ان انطباعها في الجليدية معد لفيضانها على
الملتقى وهو معد لفيضانها على الحس المشترك كما كان الضوء بين
الجسم والعين معدا ايضا وقس على سير الضوء سائر المحسوسات
بالحواس الخمس فى الاعصاب حتى تحس بها النفس فهى اشبه
بالكهرباء او النار تسرى من جزء الى جزء وليس المعنى ان
ما كان في الجزء الاول انتقل الى الثانى بل هي استمدادات
حاصلة بالمجاورة وهكذا شأن عالم اللطائف الذى منه التعليم
فعلم المعلم لم ينتقل عنه الى التلميذ وانما تعليمه جعل فى المتعلم
استعداد القبول فيضان الصورة التي عند المعلم نظيرها

﴿ شرح رؤية العين ﴾

ويجدر بنا الآن ان نذكر نبذة لطيفة فى ابصار العين وما

فيه من التدبير العجيب فان للنور نواميس لا يتعداها فوضعت العين على حسب تلك النواميس ولولا هذا لما ابصر حيوان فنها ان الصور تنتقل في الضوء على خطوط مستقيمة دائماً فاذا مرت بجسم الطف مما هي فيه زاد افتراقها وان مرت بجسم اكثف مما هي مارة فيه انضمت اجزاؤها واقتربت فاذا نفذ الضوء من الهواء الى الماء تضامت خطوطه او من الماء الى الهواء تفرقت وهكذا يضم خطوط النور الاجسام المحدبة بوجهيها او المقعرة من وجه ومحدبة من الآخر او محدبة وجه واحد ومستوية الآخر ثم ان السواد يتشرب النور فلا ينعكس عنه بخلاف بقية الالوان والصورة لا ترسم على شيء الا اذا كان في بعد مخصوص من المرئي او من الجسم الشفاف الذي مر فيه النور فهذه اربع نواميس في جمع النور وافتراقه وتشربه وارتسامه على بعد مخصوص وهناك ناموسان اخران وهما ان النور يحل لالوانه السبعة المعروفة في قوس قزح اذا مر بجسم محدب وان الصورة توضع مقلوبة اذا مرت بجسم يجمع النور فهذه ست نواميس للنور وضعت العين على مقتضاها. فاذا جاءت الاشعة من الجسم المرئي ومرت بالهواء ووصلت الى الشبكية وهي

اعصاب منفرشة في مؤخر العين لم ترتسم الصورة فيها قط لانها
تكون مفرقة فاقتضت الحكمة الالهية ان تكون القرنية التي نرها
محدبة من الخارج مقعرة من الداخل محيطة بالعين من الامام
لتلاقي النور فتجمعه بعض التجمع ويمر في اوساط اخرى تزيد
في تجمعه وهي الرطوبة المائية فتجمع النور زيادة تجمع لكثافتها
فتأمل كيف وضع القرنية والرطوبة المائية مناسبين لجمع النور
احداهما بالتحدب والتقعر والاخرى بانها اكثف من الهواء
الجوي فياليت شعري ان الاشكال كثيرة جداً يعرفها من درس
الهندسة بل العامة ايضا فلم اختار هذا المبدع شكل القرنية
محدباً ولم وضع الرطوبة المائية ثقيلة ثم تعجب ايضا فيما وراء
ذلك ولنمثل العين وطبقاتها بقبة من الزجاج خلفها ماء وتحته سد
فيه فتحة ووراءها زجاجة محدبة الوجهين ومن خلفها مادة كبياض
البيض وتحتها اعصاب تسمى شبكية العين فالقبة هي القرنية
والماء هي الرطوبة المائية والسد الذي فيه فتحة هو غشاء القزحية
والفتحة تسمى البؤبؤ ملونة اطرافها بالوان كالسواد او الخضرة
او الزرقة ليتشرب النور وهو مار الى البلورية وهي كزجاجة
محدبة من وجهين تجمع النور زيادة تجمع ثم جعل ذلك البؤبؤ

وتلك البلورية تحت ارادة الناظر فيوسع ويضيق كما اراد على
حسب كثرة النور وقلته فلاختلاف الاضواء يختلف التضييق
والتوسيع فيوسعه اذا كان النور قليلاً لتدخل كميات كافية ويضيقه
اذا كان كثيراً لئلا تتشوه الصورة. ويا ليت شعري كيف روعى
ماخلق في الخارج من انواع النيران التي لاتتناهى فى خلقة هذه
العين العجيبة حتى يتسنى لها الرؤية بكل بون (ان ربك هو
الخلاق العليم) وان قلنا ان العين واتقانها اعجب مانشاهد من
الغرائب لكنا مصيبين اذ العبرة بالاتقان لابكبر الاجسام
المخلوقة واختلاف النور كثير جداً اذ فرق بين ضوء الشمس
وضوء مصباح ضعيف فبينهما مراتب لاتتناهى ومع ذلك امكن
الناظر ان يوسع للقليل ويضيق للكثير بمراتب كثيرة على حسب
اختلاف الاضواء ربما كان الافا مؤلفة فتأمل كيف جمع فى
هذه العين الصغيرة هذه العجائب التى لا تتناهى فاذا مرت
بالبلورية نفذ النور في الرطوبة الزجاجية ثم وصل الى الشبكية
مع حيرة العقلاء فى تعليل رؤية الاجسام معتدلة لا معكوسة
كما هو مقتضى النواميس وان الجسم اذا مر في شفاف ينحل
الى الوانه السبعة وقد اختار بعضهم ان الرطوبة الزجاجية التي

هى امام الشبكية فرقت الصورة بعد تجمعها بالبلورية وماقبلها
لكون الرطوبة الزجاجية الطف مما قبلها ثم اجتمع مرة اخرى
على الشبكية ممتدلاً وهكذالما انحل الى الالوان السبعة بدخوله
فى القرنية حلته بقية الاوساط بعكس ماحلته الاولى فرجع لونا
ابيض وقد وضعت الشبكية وهذه الطبقات بحساب لايختل
شعرة واحدة لترسم الصورة في بعدمناسب حسب النواميس
اذمن المشاهد فى العلوم الطبيعية فى الضوء انه اذا مر بجسم
شفاف لايجتمع الا على بعد مخصوص كما يشاهد في المدسات
امام الشمس. فياليت شعرى كيف وضعت الشبكية على بعد
مخصوص من الطبقات فوقهافلم تتقدم ولم تتأخر.ثم ان الشبكية
مقعرة تجمع الصورةولكن لابدبعد رسم الصورةعليها من نفوذ
النور الى ما خلفها فيقع على الصلبة التى هى خلفها مما يلى المخ
ومن الحكمة الالهية انها ملونة باللون الاسود لئلايرجع النور
بالانعكاس فيشوش الصورةحكمةوعدلاودقة فهذا هو وضع
العين قد اوضحته بقدر الامكان لنفهم معنى قوله تعالى (وفى
انفسكم فلاتبصرون)وقوله(وجعل لكم السمع والابصاروالافئدة
لعلكم تشكرون) كل هذه حكم تسجل علينا الخزى والعار اذا

خرجنا من الدنيا ونحن بها جاهلون بل ان هذا الجهل هو الذى سجل علينا الذلة في الدنيا .

ولما كان فى العين هذه الحكم وغيرها وهى كثيرة جداً كثر ذكرها فى القرآن ليلفت الانظار اليها فالجاهل انما عرف مايقوله الشعراء في الغزل والعالم ينظر هذه الاعاجيب. وتأمل فى ان الشيء كلما كان اكثر اتقانا كان اكثر منفعة وكلما قل اتقانا قل منفعة .فهذه العين لما ابصرت مابعد الى ملايين من الفراسخ ورات صور جميع الاشياء واظهرت لنا كواكب السماء وقربت ان تكون مثلا كما قرب النخل ان يكون حيوانا والانسان ان يكون ملكا صنعت مطابقة لنواميس النور العجيبة لتقوم بهذه الاعمال مع غرابتها وفعلت فعلا مدهشا فهذه هى الحكمة وهذا هو العلم . فياليت شعرى كيف يحيا الانسان في الدنيا وهو لم يشاهد هذا الاتقان وكيف يموت ويخرج من هذا الكون وهو لم ينظر مافي هذه الصنائع اللطيفة من الدقائق وما اشبه نظام العين بنظام السموات والارض بل العين مع صغرها اخذت صور السموات مع اتساعها والارض وا كنافها والشمس واشراقها واستحضرت هذا كله واوصلته الى الشبكية. ولئن قلت ان هذه

الحدقة في خلقها اعجب من هذه الاجسام الواسعة واغرب
منها لم اكن مبالغاً اذ كيف تسعها كلها وتوصلها الى الدماغ وكيف
يسع اللطيف الكثيف والصغير الكبير. ولئن ادهشتنا العين وصنعها
فالحس المشترك الذى وراء ذلك اعجب واغرب وهكذا المخيلة
والواهمة والذاكرة والحافظة. وقد ذكرناها مفصلة فى كتابنا
ميزان الجواهر ولكن لابد لنا من زيادة تفصيل في بعضها لاسيما
الحس المشترك والمخيلة فنقول :

﴿ الحس المشترك ﴾

فاذا شعرت النفس بهذه المحسوسات الخمس كلها اجتمعت
فى قوة واحدة لايهمنا مكانها وانما يهمنا فعلها تسمى الحس المشترك
يزعم الاقدمون انها فى مقدم الدماغ وما هي الا كرئيس ارسل
رسلا ووكل كلا بجهة من اطراف بلاده ليأتى باخبارهم حتى
اذا اجتمعت عنده الاخبار رصدها في دفاتر الوارد ثم اودعها
مخازنه حتى اذا حضر الحاكم الاكبر فيها فصل في قضاياها
وتوضيحه ان كل حاسة لها عالم يخصها. فللعين الالوان وللاذن
الاصوات وللشم المشمومات وللفم المذوقات وللحس الملموسات

فاذا ابصرنا سرابا وسط النهار رأيناه ابيض كالماء فهذه الحاسة ادت وظيفتها وهي رؤية اللون والحس المشترك يودعها في المخيلة — وهي ترفعها الى العقل فان حكم بانه ماء فقد ضل لانه لايجوز له الحكم الا اذا شهدت حاسة اخرى وهي الذوق هنا فحينذاك يحكم بانه ماء وهكذا اذا نظرنا هيئة رمانة صناعية فلا نحكم بانها رمانة حقيقية الا باستعمال حاسة اخرى كالذوق حتى نحكم بذلك . ثم ان تكرار المشاهدة بحاستين شيئاً واحداً مراراً يوجب الاستغناء باحداهما عن الاخرى فاذا رأى أي حيوان نباتا واكل منه فوجد طعمه لذيذا ثم نظره كرة اخرى فلولا الحس المشترك الذي اجتمع فيه الذوق والمنظر لما عرف الحيوان ان هذا الاخضر هو اللذيذ بعينه . فمن رحمته تعالى ان خلق هذه القوة الرئيسة تجتمع الاخبار عندها بهيئة غريبة ويتصرف الانسان والحيوان فى شؤونه باعانتها. فالحواس الخمس كانهار خمس انهر تصب في حوض واحد فهذا الحوض مخدوم وهي خادمة فهو اجل منها قدراً اذ المخدوم اشرف من الخادم والعالم بخمس فنون افضل من العالم بفن واحد على ان الحواس لا علم لها وانما هي موصلات للصور كما علمت من قبل فهو العالم

وحده ثم هذه الصور تخزن في الخيال .

﴿ المخيلة او المصورة ﴾

افعالها عجيبة فانها تخزن فيها الصور الى وقت الحاجة من كل مااحس به الانسان . ومن العجيب انك كلما احسست به تراه بشكله بعينه مجسماواضحا فيها فاذا ابصرت قصراً منيفاً أو نهراً جارياً او بستانا زاهراً واغمضت عينيك رأيته واضحاً فيها وانما الفرق بينه وبين الحواس الظاهرة انها لاتشاهدالا بعلاقة بينها وبين المحسوسات فاذا انقطعت العلائق كالهواء والضوء بان ضمت الاجفان او سدت الآذان فلا ابصارولا سمع اما هذه القوة فانها تشاهد ما فيها بوضوح بشرط قطع العلائق ولكن الصفات بدلت بامثالها قطعاً اذخضرةالبستان في الخيال ليست هي التى فى النبات وانماهى مثلها وعلى صورتها ومن نوعها فقط فهذا حصل نوع الصفات لاهى فياليت شعرى كيف تسع هذه القوةعالم السموات والارض وصورهاالمختلفة المجتمعة فيها وكيف يوضع الكبير فى الصغير. قد اجمع الحكماء على عدم تداخل الاجسام فلو كانت هذه القوة جسما فكيف

تسع هذه الاجسام كلها . ينسى الانسان الشيء مدة طويلة حتى اذا اراد ان يتذكره كرة اخرى احضره من هذه المخيلة ولولا حضوره عنده ماتذكره فهذه القوة .

(١) تقبل الصور عن الحس المشترك

(٢) تحفظها عندها لوقت مسيس الحاجة اليها

(٣) تحلل وتركب ماذامت الحواس مشتغلة بالعالم الخارجي فهي ترسم مايرد عليها. فاذا ركدت الحواس اخذت المخيلة في النظر فيما عندها من الصور فتحلل تارة وتركب اخرى اما صدقا واما كذباً فان كان تخيلها لقصد صحيح كتخيل النجارين وعلماء البلاغة باختراع صور جميلة في هذين الفنين وكاختراع المصورين والنقاشين وهكذا جميع علماء الفنون الجميلة فهذا تخيل صحيح وهو منشأ الاختراعات والروايات والتآليف والصناعات وذلك يكون تحت اشارة القوة المفكرة فان اطاقت المفكرة لها العنان اخذت تحلل وتركب كالهازلين والمخرفين فتأتى بصورة انسان عليه رأس جمل او بالعكس

(٤) ثم هي كما تحلل وتركب تضرب الامثال وبيانه انها تصور الشيء بصورته تارة وتمثله بصورة غيره تارة اخرى ولذلك

ترى النائم يتخيل اخاه فى صورة صديقه والعدو في صورة الصديق. والعكس. هذه اعمال القوة المخيلة فى الصور المخزونة عندها

(١) ولا تقتصر على ذلك بل تمثل مزاج الانسان واخلاقه ومعقولاته

(٢) فاذا كان المزاج حاراً فربما يتخيل النائم انه في الشمس قرب نار. وتاتى بالمعقول في صورة المحسوس الذي اعتادت عليه فلا تترك شيئاً من المحسوسات او المعقولات الا وترجعها اليه

(٣) وتمثل الاخلاق فيرى الغضوب انه ينازع الاقران والشهواني انه يتصرف في شهواته والكريم انه يفرق الاموال فانظر كيف ضربت مثل هذه الصفات المعقولة بالجزئيات المحسوسة

(٤) وتمثل المعقول الاترى ان العلم يؤتى به في صورة اللبن. والكليات فى صورة الجزئيات كما اذا تصورنا الرحم وهى الامر المعقول (القرابة) بصورة انسان يطالب بصلته بين يدى ملك. فهذه تمثل الامر المعقول بين الناس المستلزم للتعاطف والمودة. هذه هى اعمالها في التمثيل وهي اربعة كما رأيت

(٥) ومن صفات المخيلة انها سريعة الحركة فتخرج من الكلى الى الجزئى وبالعكس ومن الكل الى الجزء ومن الصديق الى العدو وبالعكس رحمة من الله بعباده ليذكروا مانسوه فيخرج الانسان من صديقه الى صديق آخر ثم يذكر منزل ذلك الصديق وينتقل الى جاره ويذكر قضية له ومنها الى القاضى ومنه الى الحكومه ومنها الى السياسة وهكذا فتكون الافكار سلسلة واحدة ايا كانت متضادة اومتماثلة اومتجاورة اومتناسبة ولولا هذه الحكمة العجيبة ماامكن الانسان ان يكون مدنيا ولم يتذكر مانسيه ولم يعرف معايشه (صنع الذى اتقن كل شيء) فهذه خمس اعمال اجمالا ثمانية تفصيلا للمخيلة فانت ترى من هذا البيان ان اعظم نعمة علينا هي هذه المخيلة ولو نظرت حق النظر لعلمت انها جمعت فيها كل شيء مع ان حقيقتها مجهولة بالكلية فياليت شعرى ماهذا الذي ليس معروفا ثم يسع هذا العالم كله فترى المخيلة تسع السموات والارض وما بينهما وتفصلها واحدة واحدة وان كنت فى شك مما تلونا عليك فاغمض عينيك وفتش على الصور تجد مارأته عيناك وما سمعته اذناك حاضرا فيها بصوره واشكاله . فان كنت لاتعجب من هذا فابك على نفسك وعالجها

بالاداب والعلوم حتى ترتاض فتصل لادراكه فانه خفي مع ظهوره

هانحن نصور الكرة الارضية والسماوية بطريقتين احداهما بالكرات الصناعية المشاهدة في المدارس والاخرى بالخرائط الجغرافية وكلاهما صور ناقصه فالكرة تكون صغيرة جداً عن الحقيقة والخريطة ليس فيها الا ظل لاحقيقة له وهو مع ذلك صغير جداً ربما بلغ المقياس فيه واحداً من مليون. اما هذه المخيلة التي ضل عنا محلها فكيف تسع السموات كلها بشكلها مع صغر جمجمة الرأس وهي شيء صغير جداً على ان جمجمة الرأس لا تسع شيئاً من ذلك كله اذهى مملوءة مادة دهنية هى المخ واعصاب موزعة فى الجسم وماء سائلا فلم يبق متسع لرسم نجم صغير فضلا عن السموات والارض. ولعلك ايها القارىء يأن لك ان نفوسنا شيء غير مادة بالمرة وعرفت انها عالم اوسع من عالم النور الذى ذكرناه لك سابقاً لان المادة امامنا قد عجزت كل العجز عن تحمل هذه الرسوم العظيمة بهذا البرهان الحسى الذى اقمناه في هذا الزمن والعلوم راقية والامثال مضروبة منها

ثم انظر كيف تدخل هذه الصور العظيمة من حدقة العين مع صغرها فلئن سلمنا هذا البرهان فى المخيلة التي هى ظاهرة

من ظواهر النفس فكيف بالحدقة التي هى من اعضاء البدن وما بالنا نراها تسع هذا كله وتدخله الى المخيلة. حارت الافكار فى قدرة هذا المبدع الحكيم. وانى لا ذكر لك المحاورة المشهورة بين ابليس وادريس التي ملأت كتب التوحيد وقولهم ان ابليس قال لادريس ايقدر ربنا ان يدخل الدنيا في قشرة بيضة فقال يقدر ان يدخلها فى سم هذا الخياط وفقأ عينه بالابرة . واجابوا عن هذا بقولهم ان هذا من المستحيل الذى لا تتعلق به القدرة وانما هو من عجز الممكن عن قبول الايجاد والا فالقدرة لا حجر فيها. هذا ملخص ما اجابوا به . وانت ايها الاخ القارىء لكتابى هذا تأمل فى السؤال وما يشير اليه الجواب فان هذه المسئلة من الاشياء المضروبة للناس امثالا لعلهم يتذكرون فلقد شاهدت ان الحدقة والمخيلة قد وسعتا العالم كله بشكله وهيئته مجردا عن المادة (ان الله على كل شيء قدير) اذليس المراد من العالم الا خلاصته وشكله ولقد قالوا ان الله يقدران يدخله كله في قشرة البيضة بان يكبر البيضة او يصغر العالم وها انت شاهدت ان العين والمخيلة بقيتا على حالهما ودخل فيهما العالم بحاله جملة واحدة فلا العالم صغر ولا محل الرسم كبر وانظر

كيف قالوا فى هذا المثال انه فقأ عينه فتأمل كيف اشار الى ان
العين هى نفس جواب السؤال كانه يقول ان عينك ومخيلتك
فيهما الجواب هذا ماخطر بنفسي عند كتابة هذا الموضوع والذي
انقدح فى نفسي انها ضرب امثال للناس ثم تنوقلت فى الكتب
على انها حقيقية مع ان اصل الواضع لم يرد به الا تنبيه العقول
والتأمل ويظهر انه حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل وفى نسبتها
الى سيدنا ادريس دلالة على انها قديمة الوضع من وضع بنى
اسرائيل الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوا
عن بنى اسرائيل ولا حرج وكثر النقل عن موضوعاتهم
ورواياتهم فى كتب المفسرين على انها مواعظ يراد غاياتها لا
حقائقها وهذا امر يعلمه رسولنا صلى الله عليه وسلم ولكن شأن
الامثال اذا تداولت عليها الايام ظنت انها حقائق. ولعلك تقول
لم لم توضح فى كتب التوحيد قلنا ان العقول لا تحتمل ان المتخيل
يقال له موجود وانما يعرفه من ارتاض بالعلوم. هذه الصور
المتخيلة يصدق عليها انها موجودة وانها معدومة وانها متوسطة
بين الموجودة والمعدومة اذ فيها امارات الاحوال الثلاث فلعدم
الجزم ربما يتوهم العدم ولوجود الصورة يظن الوجود ولتعارضهما

يقال لاموجود ولامعدوم. وما اقدر هذه القوة على الاعمال
فانظر كيف لطفت الاجسام الكثيفة ووضعتها في اعلى بعد
وان كانت في اسفل واضاءتها بعد الاظلام فى قوله تعالى انى
رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين
ثم ابرزت المعقول فى صورة المحسوس والمعقول هو التعظيم
والمحسوس هو السجود وكل ما ذكرناه فى هذا المقام من
عجائب المخيلة والى هنا قد ذكرنا قوتي الحس المشترك والمخيلة
التى ذكرنا لها هذه الاعمال كلها ولها غير ذلك من الاعمال
فهي تدرك المعانى الجزئية كالعداوة بين الذئب والشاة مثلا
هذا مايظهر من كلام ابى نصر الفارابي فى آراء اهل المدنية
الفاضلة وكتاب اخوان الصفاء اما كلام غيرهما من العلماء فانهم
يجعلون القوى خمسا وهى الحس المشترك والخيال وليس له
وظيفة الا حفظ الصور والواهمة ولها حفظ المعانى المدركات
بين الصور والحافظة تحفظ المعاني الصادرة عما قبلها والمتصرفة
تتصرف في تلك الصور والمعانى فان اتبعت العقل فهى مفكرة
او الوهم فهى متخيلة هذا ونحن لا يهمنا كثرة الاسماء والالقاب
وانما المهم هو معرفة مافيها من الغرائب وها انت قد عرفت

المذهبين من باب الاحاطة فلندع الاصطلاحات جانبا ولنذكر القوة العاقلة

﴿ القوة العاقلة ﴾

اعلم ان جميع ماذكرنا من القوى الباطنة والحواس الخمس الظاهرة خدم للقوة العاقلة فهي التى تستنتج من تلك الصور المخزونة والمعانى المدركة ومركباتها كليات معقولة تارة لتدبير البدن وهو العقل العملى وتارة لتكميل قوتها بالمعارف والعلوم وهو العقل النظرى. قال الطوسي فى شرح الاشارات. فالعقل العملى هو ادراك كل مستنبط من مقدمات كليه اوليه اوتجربية او ذائعة شائعة او ظنية يحكم بها العقل النظرى ويستعملها العقل العملى فى تحصيل ذلك الرأى الكلى من غير ان يختص بجزئي دون غيره والعقل العملى يستعين بالنظرى فى ذلك ثم انه ينتقل من ذلك باستعمال مقدمات جزئية اومحسوسة الى الرأى الجزئى الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعمله مقاصده فى معاشه ومعاده اما العقل النظرى فاعلم ان له ست درجات بعضها فوق بعض ولكل درجة منها درجات كثيرة لايحصى عددها الامبدعها

ولنتبع درجات الانسان من صباه الى بلوغه النهاية من العلم ونسمى كل حال من أحواله باسم فاذا نظرنا اليه في أول ولادته لم نجد عنده الاستعداد لفهم الكليات المستنتجة من الجزئيات لمعرفة الحيوان والانسان والنار والماء وهكذا من الاشياء المحيطة فعند عدم هذا يسمى عقله عقلا هيولانيا أى ماديا لم يرتسم فيه شيء من أنواع الصور العقلية فكانه مادة خالية من الصور وان كان جميع الحكماء أجمعوا على عدم وجود مادة تخلو من الصورة أما العقل فها هو خلا من الصور العقلية ولعلك تقول انه يحس ويتخيل كما تقدم نقول ذلك ادراك قواه لا ادراكه هو فان الادراك المتقدم للجزئيات لا للكليات. فان ميز بين الاشياء كما ذكرنا فهو العقل بالملكة وهذا يكون عند الفطام ونحوه الى سن التمييز

ثم ترتقى عن ذلك وتحصل لها الاستنتاجات وتحصل النتائج بالبراهين العقلية وهى القوة الفكرية التى تحصل المعلومات بالمشقة او التعب في استخراج المجهولات كما يحصل للتلاميذ فى علوم الحساب والهندسة والجبر. فاذا استكملت هذه القوة ونمت جدا حصل عنها قوة أرقى منها وهى الحدس وهى سرعة

حصول النتائج بحضور الحدود الوسطي بلا مشقة كما كان فى
الفكر كما يحصل للمدربين على العلوم والسياسات مع استعداد فيهم
من الفطرة معين على ذلك .وهؤلاء قليل وأقل منهم من يترقى
عنهم فيصير ذا قوة قدسية اذ هى صافية تكاد تضيء .والعلم
المشرق عليها عقل مستفاد من المبدأ الفياض بالنور على الناس
واجتماعهما معا عقل بالفعل. فهذه سبع مراتب. العقل الهيولانى
العقل بالملكة. الفكر. الحدس. القوة القدسية. العقل المستفاد
العقل بالفعل ولنضرب مثلا لهذه الدرجات السبع بالمشاهد
امامنا فنرى ان العقل الهيولانى عند الطفل كالمشكاة وهي الكوة
فى البيت المسدودة من الخارج فانها تقبل النور بدرجات مختلفة
حسب ما فيها من الهواء وصقالة حيطانها وعدمها والعقل بالملكة
كالزجاج فانه أشف من الهواء فى الكوة ومن حيطانها واكثر
قبولا للانارة منهما .والقوة الفكرية التى هى أرقى منهما كشجرة
الزيتون اذ فيها زيت مستعد لظهور النور فيه ولكنه محتاج للنصب
والتعب فى اعتصاره واستخراجه والحدس كالزيت اذ هو
أقرب لقبول ظهور النور من شجرة الزيتون وهما جميعا يولدان
النور بخلاف المشكاة والزجاجة فليس فيهما قوة لاخراج النور

منهما وانما هما قابلان لاشراقه عليهما فتفطن للفرق بين الجميع

والقوة القدسية كالزيت الشفاف الذى يكاد يضيء ولولم تمسسه نار . والعقل المستفاد كنور على نور فانه علم اشرق على هذه النفس القدسية واجتماع هذين النورين يسمى عقلا بالفعل وهو كالمصباح صار مضيئا بنفسه . وفي التحقيق ان الثلاثة الاخيرة مرتبة واحدة وبهذا تكون المراتب خمسة فقط .

اذا فهمت ما تلونا عليك عرفت ما نشير اليه الآن وهو قوله عز وجل (الله نور السموات والارض مثل نوره) الفائض على الناس من العقول والعلوم (كشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) اشارة الى الاعتدال الغريب (يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)فتأمل هذه الاية كيف جمعت فى نظمها من المشاهد امامنا ما ينطبق على درجات العقول فى النوع الانسانى وما استخرجه الفلاسفة من المباحث وكيف تناسب المعقول والمحسوس وبقى هنا شيء هو : انه ذكر النار وهى توقدها المصابيح ولعلك تتذكر ماقلناه

قريبا ان العقول البشرية لا تأتى لها العلوم الا من مبدأ يشرق العلوم عليها يناسبها كما ان الكواكب مبدأ يشرق النور المشاهد على الابصار المناسب لها وقد أوضحنا فى أول الكلام في هذا الباب وهو علم النفس بما لا مزيد عليه . فهذه النار اشارة الى موجود لا نراه ولا نسمعه ولا نحس به ولا نشمه ولا نذوقه ترفع عن ادراك الابصار (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) عجزت الابصار عن ادراكه لانه يناسب قوة أرقى من قوتها كما قدمنا

فلا قوة للابصار الا على الاضواء الظاهرة وكيف لها ان تتخطى مراتبها وتعلو فتدرك ما يدرك العقل كلاً ثم كلاً وهو يدرك الابصار اذ هو مسيطر على العقل قطعا تبدله والعقل مسيطر على آلاته فقد علا على الجميع بالعلم (وهو اللطيف الخبير) فلطافه جدا ودقته عن الاضواء المشاهدة لم تدركه الابصار فهو برهان عقلى للفطنة الاولى (الخبير) لانه استعلى على هذه القوى كما قدمنا فهو برهان للقضية الثانية فتأمل هذه التمثيلات الظاهرة ثم الحجج الباهرة

فالممد للعقول المخرج لها عن البساطة الى المعقولات في الدرجات المختلفة موجود لا نراه يعبر عنه بالملائكة والعالم الاعلى وكانها نفوس قدسية شرفت على المادة اقرب الى اشراق النور عليها من المبدع الحكيم منا. فكل علم حصل فى قلوبنا فانه بواسطة عالم ينزله الينا على حسب استعدادنا قلة وكثرة. وكل حادث على نفوسنا من المشاغل الدنيوية مؤخر لهذه النفس عن الكمال الذى اختص به (الانبياء عليهم الصلاة والسلام والوحى والرؤيا ونحو ذلك)

واعلم ان النوع الانسانى على وجه العموم له اتصال بعالم الجمال المشرق على هذه النفوس البشرية تراهم يقتبسون المغيبات في المنام وهم كثير جداً. ومنهم من تحتاج رؤياه الى تأويل ومنهم من لا تحتاج وهذا قد يقوى فيرى فى اليقظة ما يراه في المنام ثم بالحواس وهى مرتبة فوق مرتبة المنام وهؤلاء هم الكهنة ومن نحا نحوهم من كل من يستعين بشىء من الخارج كالمندل وضرب الحصى والنظر فى الزجاج فى الشمس وتحضير الارواح والتنويم المغناطيسي وبالجملة كل ما يفعله الانسان يشغل الحواس عن النفس حتى تتصل بعالمها وتخبر بالغيب الذى هو شغلها الحقيقي ومنبعها الاصلى فالكهان قسمان قسم يحتاج

الى استعانة وقسم لايحتاج وهذا الثانى هو ما كان لكهان العرب مثل سطيح وغيره ولكنهم لاينظرون بكهاناتهم الا فى الامور الجزئيات اما الكليات فمعرفتهم بها قليلة جداً كالرؤيا ويحصل عندهم كثير من الغلط وقلب الحقائق فيختلط الصادق بالكاذب كما فى الرؤيا فقد اختلط الصادق بالكاذب فيهما . وذلك لان المخيلة تحلل وتركب في المنام واليقظة صدقاً وكذباً كما علمت فى تعبيرها عن المزاج والاخلاق . وغيرها فيما لديها من الصور . يشير لذلك ابن صياد وقول النبي صلى الله عليه وسلم له كيف يأتيك فقال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك

وهؤلاء قوتهم المخيلة قوية حتى تتحمل مايرد عليها من الحواس وما يرد عليها من العالم الاعلى وهي عند الكهان اقوى منها عند عامة الناس اذلا يقوون الاعلى اختلاس المغيبات وقت المنام فيتصور المعقول بصورة المحسوس بهيئة عجيبة جداً

القوة التى هي ارقى من هذين قوة الانبياء فانهم يرون فى اليقظة وفى المنام واول الوحى الرؤيا الصادقة ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يتمثل له الملك بشراً سوياً في اليقظة واخبار الله للانبياء على ثلاثة اقسام

وحي في القلب بحيث يعلم ان هذا من عند الله ولا يمكن دفعه وبروز هذا المصدق به من العقل فيسمع صوته ولا يرى شخصه وهذا هو المعبر عنه بسماع الملك وظهوره الى البصر وهو رؤية الملك يكلمه واليه الاشارة بقوله تعالى (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا) هى المرتبة الاولى (او من وراء حجاب) هى المرتبة الثانية (او يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) وهي المرتبة الثالثة (انه عليم حكيم) والى هنا تمت مراتب التعلم من العالم الاعلى وقد علمت انه كله سبعة اقسام للمنام مرتبتان وللكهانة مرتبتان وللنبوة ثلاث مراتب فهذه سبعة كاملة . وتأمل كيف كانت النبوة نهاية للقوتين ثم كيف كان البشر كلهم عندهم هاتان القوتان

ولعمرك لولا قوة مودعة في نوع البشر وهي الرؤيا الصادقة ما صدقوا الانبياء فما من انسان الا ورأى رؤيا صادقة اوسمع ممن رآها

﴿ اقسام العلماء ﴾

ولما اختلف الناس فى اخذ العلوم من بابي الحواس والعالم القدسي رأيت العلماء قسمين قسم اخذوا علومهم عن الفكر والنظر

فان تبعوا الانبياء فهم المتكلمون وان لم يتبعوهم فهم الفلاسفة وقسم اخذوا العلوم من جهة اشراق النفس فان تبعوا الانبياء فهم الصوفية . اولم يتبعوهم فهم الفلاسفة الاشراقيون فهذه اربع فرق لايخرج احد من العلماء عنهم .

﴿ اقسام العلوم ﴾

والعلوم ستة اقسام ثلاثة نظرية وثلاثة عملية فالنظرية اما ان تحتاج الى المادة فى الخارج والذهن وهي الطبيعيات ويدخل تحتها علوم كثيرة من الطب والتاريخ الطبيعى والبيطارة والبيذرة وعلم التشريح وغيرها واما ان تحتاج الى المادة فى الخارج فقط لافى الذهن وهي العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك فانه لا توجد المقادير ولا الاعداد الا في مقدرات ومعدودات معينة ولكنها فى الذهن لا تحتاج الا الى تصور مطلق مادة لامادة مخصوصة واما ان لا تحتاج الى المادة لافى الخارج ولا فى الذهن وهى علم ماوراء الطبيعة من الخالق وصفاته والملائكة اذ هذه موجودة بلا مادة لما علمت فى البراهين التى قدمناها ويتصورها العقل بلا مادة .

واذا كانت العلوم الرياضية لم تحتج الى المادة في الذهن فكيف بالمجردات فهي لا تحتاج اليها من باب اولى

وهذه الاقسام الثلاث كالتقسيم الذى قدمناه فى الاجسام والاضواء وعالم العقل فالاجسام كعلم الطبيعة والاضواء كعلم الرياضة وعالم العقل كالعلم الالهى فاجتمع التقسيمان فى لفظة واحدة لان البراهين الصادقة ترجع الى امر واحد كلها فهذه اقسام العلوم النظرية.

وهناك علوم عملية وهى سياسة الانسان لنفسه وسياسته لاهل بيته وسياسته لاهل مدينته وهذه تكفلت بها الشريعة الاسلامية وعلوم الاخلاق والسياسات المستنتجات من التجارب فهذه ستة اقسام وتحتها فروع كثيرة تعرف بالاطلاع والمزاولة والى هنا تم الكلام على اقسام المعرفة الثلاثة وهى الحواس والقوى الباطنة والعقل

﴿ الارادة والاختيار ﴾

وللانسان ميل طبيعى الى ما يعلمه بهذه القوى الثلاث ويسمى ارادة وهى عامة في الحيوان والانسان فيشتاق الحيوان

الى ما يراه بحواسه وينفر عما يضره وهكذا الى ما يتخيله وما يعقله ولكل من هذه الثلاث مرغوب عنه ومرغوب فيه فهي ستة اقسام ثلاثة مرادة وثلاثة غير مرادة . فما اشتاقت اليه النفس من المحسوسات حركت تحت ارادتها الاعضاء للطلب وما نفرت عنه حركتها للهرب منه فتأمل كيف خلقت الاعضاء صالحة للطلب والهرب على مقتضى ما تحسه في الخارج ليكون النظام تاماً وتكون الافعال هنا جسمية بالاعضاء وعقلية بشعور الحواس واما القوة المخيلة فيكون وصولها الى ما ارادته بمجرد التخيل او بالاستعانة بالحواس على استحضار الصورة بالمشاهدة او بأخذها من العقل كما في حال الرؤيا الصادقة .

واما العقل فتى اشتاق لشيء فانما يكون باعمال عقلية لا غير مسخراً تلك القوى تحت امره لتحضر له الجزئيات لاستنتاج الكليات ذلك عمل عقلي فلكل درجة من درجات الحس عمل يناسبها

﴿ السعادة والاختيار ﴾

لاريب ان الارادة عامة عند جميع الحيوان وهو مشترك كله في الحواس وقوى النفس يتصرف على حسب الخيال والحواس

اما الانسان فارادته التابعة لعقله ارقى من تلك الارادة اذ هذه معرفة للعواقب لا كالارادة فى الحيوان اذ لا يعرف الا المشاهد امامه الحاضر ولنسم ارادة الانسان اختياراً ولا ريب انه بهذا الاختيار يرقى الى السعادة تارة وينزل الى حضيض الهوان تارة اخرى ومتى تمكن الشوق فى فؤاده حركه طبعا الى المشتهى ولا تظن ان العقل مهما وصل من الكمال وكذا الخيال والحس يكفي للحياة فى هذه الدنيا بدون شوق فالحيوان بحسه وخياله والانسان بعقله مهما ادرك كل منهم النافع والضار لم يعبأ به الا اذا حصل عنده شوق الى الطلب او الهرب فلا بد اذن في كل امة من انماء قوة الشوق عند التلاميذ الى المعالى وعلو الحياة ونظام الامة والعلوم والمعارف ومكارم الاخلاق وبهذا الشوق يشتغل الناس بالسعادة ويصلون الى الكمال

﴿ حكمة تامة ونظام عجيب ﴾

ها أنت علمت نظام العين وتركيبها العجيب أولا ثم قوى النفس الداخلة وما معها من العقل ودرجاته ثم العالم كله وغرائبه فها هو تركيب العين فى غاية من الاتقان والبهجة والنواميس

الغريبة التى علمتها وعالم النفس قد شاهدت حكمه العجيبة ورأيت ان العين والنفس كلاهما من حسن اتقانه قد اتسع لما لا يحصى من العالم فالعين وسعت السموات والارض وان كانت لا شعور لها بشيء وانما هى آلة والنفس وقواها قد ادركت ما لا نهاية له من الصور والمعقولات فكأن كلا منهما عالم مركب متقن غاية الاتقان ولعمرى ان بينهما وبين العالم كله مشاكلة تامة ولذلك يقول تعالى (الله نور السموات والارض) اشارة الى النظام العمومى فى السموات والارض .

ثم قال مثل نوره كمشكاة الآية اشارة الى ان عالم النفس عالم وضعه كوضع العالم كله والسراج وأما العين فانما هى آلة من آلات النفس وهاك البيان قد علمت ان المصباح ما تم أمره الا باشياء مختلفة من زجاج ومشكاة ومادة بها يتقد كالكهرباء أو المواد الدهنية وهى لا جرم تختلف درجات بعضها فوق بعض فى الاضاءة ولولا هذه الشروط ما تمت الاضاءة ولو نظرنا الى جسم الانسان لوجدناه مركبا من عناصر مختلفة اتحدت وكونت هيئة اشتعلت فيها نار الروح الحيوانية ولكن فرق بين النارين فهذه نار معنوية وتلك نار حسية لان تركيب الجسم أتم من

تركيب المصباح ثم انك اذا تأملت العالم كله الفيته كالمصباح في
تركيبه بل كالجسم في نظامه فكلما كان الشيء أتم تركيبا واجمل
وضعاً كان اكثر نفعاً ولذلك كان نظام العين لشدة دقته اجمل من
نظام السراج فى صنعته ولذلك كان نفعه اعم وأهم وما نسبة العين
لنفس الانسان الا كنسبة السراج لهذا العالم بل كل سراج فى
العالم محسوس من الكواكب والمصابيح فهو نظير الحواس عند
الانسان ولكل نور يناسبه فالكون المحسوس نوره محسوس
وجسم الانسان لما كان مداره على الروح ضوؤه روحا كان نوره
أقرب لها وهو نور العين

فقوله الله نور السموات والارض اشارة لنظام العالم وقوله
مثل نوره اشارة الى روح الانسان فى جسمه موازنا بينها وبين
المصباح وتركيبه

فالموازنة بين العالم والانسان والمصباح والعين او الروح
صحيحة فايهما وزن بالاخر صح اعتباره فاذا وازنا بين روح
الانسان والمصباح وجدنا ان جسمه كالزجاجة وروحه كالمصباح
وكما ان للمصباح زيتا يتقد منه فكذلك الروح لها مادة وهو الدم
المنبعث من القلب المبخر لخلاصته وهى الحرارة الغريزية

وكما ان السراج يضيء البيت فكذلك الروح تضيء الحواس كلها وكما انه اذا أحيل بين السراج وبين ركن من اركان البيت أظلم فكذلك الروح متى احيل بينها وبين حاسة من الحواس بحصول عائق في اعصاب الحس أو مواد الاحساس لم تحس تلك الحاسة واظلمت وكما إن المصباح ينطفىء باحد امرين اما بوارد عليه من خارج واما بانقطاع مادة ايقاده كالمواد الدهنية او روح الكهرباء فهكذا الانسان يكون موته اما بقتل واما بنفاد مادة الحياة وكما ان للسراج مادة يتقد فيها اياكانت تلك المادة فهكذا الروح لها مادة وهى خلاصة الدم السارية في جميع العروق واعلم ان هذه المواد المشاهدة بينها تفاوت عظيم جداً فالمادة الطينية لا تقبل ناراً البتة فاذا اشرفت الى ان صارت نباتاً قبلت النار المحسوسة فاذا ارتقت الى الحيوانية كانت نارها اضوء كالشموع التى نارها حسية وظهرت فيها الروح الحيوانية فى جسم الحيوان فاذا ارتقت الى الانسانية صارت الروح اجمل وجاء لها العقل وارتقت الى عالم الجمال وهذا هو نهاية الابداع فهذه هي سنة الكون وهي الترقي. (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) (فسنة الله في الكون الترقي دائماً)

فوازن بين هذه السلسلة الآخذة من الجماد الميت الى الروح العاقلة فى الانسان وبين نحو الطفل ولادة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة فموت وهكذا المولدات من جماد فنبات فحيوان فانسان فعقل راق وهكذا الامة تبدو كالطفل فتشب فتصير فى الكهولة فالشيخوخة فالموت وهكذا الليل والنهار فى زيادتهما ونقصهما فى السنة كلها وهكذا في نفسهما فترى الشمس تأخذ في الارتقاء حتى تصل الى كبد السماء ثم ترجع كاحوال الانسان بل العالم كله على هذه السنة (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)

﴿ ابداع العقل والمنطق والخط ﴾

علمت حواس الانسان وقواه الباطنة ورأيت انها جمعت تفاصيل مالدينا من كل ما نشاهد من العالم بصوره ومعقولاته فتأمل كيف عمل العقل فى الكثيف عملا جعله لطيفاً ثم ترقى فصار معقولا فللمحسوس مراتب ثلاث صوره الخارجية ثم تلطفه وخروجه عن المادة بصورة في النفس ثم صوره العقلية المنتزعة من صور الخيال فما اعجب هذه الحكم وما ابهجها فياليت

شعرى كيف صار الجماد معقولا وبأي وسيلة اصبحت هذه
الاجزام العظيمة كلها فى عالم النفس بصورها واشكالها ثم كيف
رقت فصارت اموراً كلية فى العقل وبأى وسيلة ترجع الامور
المعقولة فتصير خيالا اما فى النوم ورؤية الكليات في صورة
جزئيات واما باستعمال العقل لاستخراج جزئيات يتصورها
الخيال ثم تبرز في الخارج بالجوارح بواسطة الآلات المسوقة
بالشوق ثم تأمل كيف برزت صور الخيال والعقل الى الخارج
بواسطتين احداهما الافعال بواسطة المواد والآلات وثانيتهما
بواسطة اللسان وآلات النطق بالهواء فيحدث صوت يتشكل
باشكال مختلفة تسمى حروفا تجتمع مع بعضها فتكون كلمات
لاحصر لها مساوية لما يحدث في الخارج من المركبات العنصرية
في انواع الكائنات الداخلة من الحواس المصورة في الخيال. ولكون
الانسان مدنيا بالطبع احتاج الى النطق يبرز مافي ضميره الى
ذهن غيره فكان نسخة العالم كله احضرت امامه ويختار منه
ما يشاء ويعبر عنه ليعرف الآخر ما عنده ثم ان الانسان مع
هذا كله تبقى حاجاته غير تامة محتاج الى زيادة تكملة فانه لا يمكنه
ان يكلم من هو بعيد مكانا ولا من في مستقبل الزمان ولا يعرف

اخبار الماضين فلهذا كله اقتضت الحكمة الالهية ان يكون الانسان كاتبا اتبقى افكاره بعده وتحيطها علما من ابعد مكان ويدون جميع الأعمال بصور الحروف المكتوبة لانها اثبت ولا يمكن انكارها فها هنا مراتب العقل والخيال واللسان والكتابة فاللسان يحضر صور الحروف وهي دالة على مافي العقل والخيال وهما دالان على مافي الخارج الا ان الصورة في الكلام اضعف من صورة العقل والخيال لان الكلام دال وذانك مدلولان ثم الكتابة دالة على الحروف ولعمرى كم من الفرق بين حروف تكتب وصور الاشياء بنفسها في المخيلة .

اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم واشار الى النطق بقوله (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان والى الكتابة بقوله) (ن والقلم وما يسطرون) وقوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم. وهنا دور عجيب تنظر الحواس الامور الخارجية فترصد في دفتر الخيال ويسمى المصورة ايضا ثم تذهب الى العقل ثم ترجع الى الخيال ثم النطق فالكتابة ثم ترجع الى الحواس من طريقها ولكن صغيرة عن حالها الاول

فانها دخلت اول مرة بصورة والان بدال الصورة فيكون العلم اضعف من المشاهدة ولذلك كان اقل الناس علما من حرموا النظر فى الكون واقتصروا على الكتب يدورون فيها كما يدور الحمار فى رحاه (اولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم) فوجود العلوم فى الكتب فى مرتبة سابعة فافهم

﴿ ضرب مثل لحال النفس مع الجسم ﴾

مثل النفس مع الجسم كمثل وزير يدبر امور رعاياه ويقوم لشؤونهم وهو مع ذلك يتلقى اوامر الملك او كمثل حاكم مقاطعة من المقاطعات ينظر فى أمور الناس ويسمع امر الوزير وهو اعلى منه فهو بين اعلى يأمره واسفل يأتمر بامره فاذا اظهر استعداده لرتبة من هو اعلى رقاه الوزير وباشر الامور العليا فهكذا الروح يدبر الجسم ويسعى فى تكميله بالاخلاق ويتكمل هو بالعلوم ليستعد للترقى الى ماهو اعلى فى عالم اجل من هذا

واذا تأملنا احوال النفس مع الجسم نرى انها مع قواها كرب المنزل سكن هو وامرأته فيه فالنفس رب المنزل والقوى

اهله وخدمه وحشمه والجسم هو المنزل .

ومن جهة اخرى نجد ان هناك اعمالا داخلة فى الجسم ناتجة من قوى النفس فهناك القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمصورة والحواس الخمس والخيال وقوى الدماغ والاحساس والحركة ولا ريب ان هذه القوى لها اعمال عجيبه داخل الجسم وخارجه وما اشبهه الا بصانع وتلامذته او مهندس وعماله يعملون جميعا في دار صناعة واحدة

ثم ان هذه الاعمال لا يمكن حصرها وكأن كل قوة من هذه القوى وحدها لكثرة اعمالها وانتشار عمالها معمل مخصوص كثرت عماله كما اوضحناه فى ميزان الجواهر فالقوة الجاذبة نراها منبثة في جميع الاعضاء المحتاجة للجذب كالمعدة والحلقوم فترى المعدة تجتذب الغداء الى اسفل لا سيما الحلو وهكذا المرىء يحصل فيه جذب للطعام كجذب الرحم لماء الرجل وقس عليها الماسكة فانها تمسك لكل عضو من اعضاء التغذية ما اودع فيه حتى يفرغ من عمله وهكذا اعضاء الجسد كلها تمسك عليها ما يغذيها من الدم فالاول كالمعدة والاثنا عشرى والكبد فكل من هذه الثلاثة تبقى فيه المادة حتى يتم نضجها الى ان تدفعها الدافعة والثانى

كاليد والرجل والعين وغيرها فكل من هذه الاعضاء اذا جاء اليها بتقدير الحكيم العليم مايليق لها من الدم للتغذية امسكه لله عليها حتى يتم بناؤها فلله الحكمة البالغة ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون فلكثرة الاعمال وانتشار العمال وتفرق اعضاء الحس والحركة وغيرها في سائر البدن يمكن اعتباره مدينة ذات معامل كثيرة الصناع منتشرة العمال لا يهدؤن ليلا ولا نهاراً في اعمالهم. ثم انا اذا لاحظنا ان النفس وقواها الحساسة والمحركة تأمر الجسم فيأتمر وتنهاه فينتهى فهو مطيع مسخر مقهور تحت هذا المسلط القاهر القادر (النفس) امكننا تشبيهها بملك واعوانه مسلط على مملكة الجسم واى ملك فى العالم اقدر على رعيته من النفس للجسم واي رعية اطوع لمالكها واخضع لسيدها من الجسم الى النفس وقواها ويضرب الله الامثال للناس و لله بكل شيء عليم

ثم اذا راقبنا اعمالها نجدها كأنها حارث يحرث ارضا يخرج له ثمر يناسب الحارث والمحروث فالنفس كالحرث والجسم كالارض والاعمال كالثمر .

ولما كان نوع الانسان غير منحصر في عدد بل افراد منتشرون وهم في اعمالهم يتنافسون وفى اغراضهم يتنازعون

امكن تشبيه النفس بالفارس والجسم بالفرس والحياة بالميدان والناس يتسابقون وقصب السبق هي المعالى فاذا لاحظنا الحياة والموت وغصص الدهر واعمال الناس واختلافهم والفصل بينهم بالحق وهم لا يظلمون امكن تشبيه الجسم بمركب والنفس ملاحه والبحر فتن الدنيا والبضاعة المحمولة فى السفينة عمل النفس والساحل الموت ومدينة التجار وراءها وفيها الرب الجبار يعطي كلا من هذه الانفس ما يليق لها على حسب بضاعتها ان خيراً فخير وان شراً فشر . واذا لاحظنا ان نفس الجسد منظم فى غاية الحسن والابداع والجمال والبهاء والنفس تقرأ فى نقوش ابداعه ومحكم تركيبه شبهناها بصبي يتعلم فى مكتبه . ثم ترتقى عن ذلك كله الى ان النفس تنظر الى نفسها وقواها فتجد فيها صوراً ونقوشاً وعلوماً فكأنها دفاتر رصد فيها الصادر والوارد والعالم باجمعه فكأنها عالمة معلومة وعلومها مختصرات علوم الكون اجمعه ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانظر كيف شبهت مع الجسم بمنزل ومعمل ومدينة ومزرعة وميدان ومكتب ودفاتر ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب

﴿ قوى الانسان كلها ترجع الى نفس واحدة ﴾

اعلم ان القوة الغاذية وممداتها وفروعها من الهاضمة والماسكة ونحوها وما يتفرع عنها من النمو بقسطاس مستقيم وتدبير محكم من طول وعرض وعمق لكل عضو ما يليق به من مقادره وانواع غذائه مقدمة على قوة الاحساس بالحواس الخمس ورئيسها الحس المشترك فالحس المشترك تخدمه الحواس الخمسة كما كانت ممدات القوة الغاذية خادمة لها وهذا الحس المشترك مقدمة للمخيلة (المصورة) وهذه مقدمة للنفس الانسانية

فاذن هى نفس واحدة لها خدم يشتركون في خدمتها بعضهم فوق بعض فاولها المخيلة فالحس المشترك فالغاذية ويقترن بكل قوة من قوى الادراك الثلاثة نزوع الي مشتهى او نفور عنه فيكون للادارة ستة انواع ثلاثة منفور عنها وثلاثة مشتاق اليها فالحواس الخمس كل منها موكل بعالم من العالم المشاهد فتأتى كل حاسة بخبر عالم من العوالم كما اوضحناه سابقا فتشتاق النفس اليه وتنفر عنه كطعام محبوب او مكروه كالتمر والحنظل فتاكل كيف تتسلط القوة النزوعية على اعضاء الحركة فتحركها اما الى

طلب واما الى هرب وتستعين بالاعضاء الظاهرة فى السعى الى ما احبت وفى الهرب عما كرهت وان كان هناك مانع أثناء السعى ازلناه بايدينا حتى نصل اليه فهذه كلها اعمال الاعضاء الظاهرة فاذا ذقنا هذا الطعام المشتهى حصل شعور النفس وهذا بعينه فعل النفس بعد فعل الاعضاء فما احسته الحواس ينال بفعل الجوارح وفعل النفس وهكذا المخيلة تتبعها ارادة اما الى طلب المتخيل او الهرب منه وذلك يكون باحد ثلاثة امور

اما باستخدام الحس المشترك واما باحضار الخيال تلك الصورة فلا عمل للجوارح من جهة المخيلة قط فاذا اشتاقت الى احضار صورة جميل تعرفه بعينه فتارة تستخدم الحس المشترك وهو يستخدم البصر لينظرها وتارة تحضرها هى بنفسها. وإما الارادة التابعة للعقل فبالفكر تستنتج الحسن والقبيح وتستخدم جميع القوى في درء ما كرهت وجلب ما احبت

وبالجملة فالعقل هو الحاكم على جميع القوى الرئيسة والقوى الارادية فهى نفس واحدة وكل هذه فروعها وتبع لها

ولا تظن انها تمثل بجزء وتحس بالحواس الخمس بجزء وتتغذى بجزء بل هى شيء واحد وله احوال مختلفة كما ان الكاتب

يمسك القلم ويكتب ويعدل السطور ويضع النشافة على الورق ويطوى الكتاب فليس لكل عمل من هذه واحد مخصوص وانما العمل لواحد لكثرة قواه كثرت افعاله فهكذا العقل ينظر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس ويتخيل ويتغذى ويريد ويعمل ويكر ويفر وهو واحد فى ذاته

﴿ برهان ان النفس وقواها واحدة ﴾

ولعلك تقول هذا تمثيل لا برهان عليه فانى لا اقنع الا بالبراهين واما ضرب الامثال فكيف يكفى من درس العلوم اقول ان الحكماء برهنوا على هذا براهين وربما اخال ان كثيراً لا يفقهون جلها ولكن لا بد من ذكر جلىّ البراهين واوضحها فعساك يطمئن به قلبك ها انت تعلم ان طبيعة الاجسام لا تقبل التداخل فالجسم الواحد لا يقبل دخول غيره فيه قط كما هو معلوم من الطبيعة فمالنا نرى كل قوة من قوى الدماغ تسع صوراً لا نهاية لها فاذا كانت اجساماً فكيف تسع ما لا يتناهى من صور السموات والارض وما بينهما ومن القضايا الكلية والجزئية فهذه طبيعة خالفت طبائع الاجسام فليست منها واذن فهى لا

تنقسم اذ المنقسم هو الجسم فالنفس امر بسيط

وايضا نرى ان القطعة من الشمع مثلا لا تقبل صورة الا بعد ذهاب اخرى وهل يمكن ان تكون قطعة الشمع مثلثة ومربعة في آن واحد كلا فما بالنا نرى القوى التي في الدماغ تقبل علما وتقبل آخر فاخر الى ما لا نهاية له ومع ذلك لا تمحو الصورة المتأخرة الصورة المتقدمة فلو كانت جسما لمحي السابق باللاحق بل العلوم كلما كثرت عند النفس تقوى بها على غيرها من العلوم اما الاجسام فلا تقبل الا شكلا واحداً ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار اليس ذلك لكون النفس امراً غير جسم فلا ينقسم اذ لو انقسم لكان جسما وقد برهنا انه ليس بجسم فكفاك هذا برهاناً على ان النفس امر واحد غير جسم وهذه القوى ليست غيرها وانما هي صفات لها كما قدمنا ايضاً ان المادة امر مجهول ظهرت صفاته التي عشقتها النفس وسعت لها بقواها

﴿ المادة والنفس ﴾

فالمادة كما قدمنا لم يمكن معرفة كنهها والنفس مثلها لكل منهما صفات مختصة به تتلاقى تماشقاً فجعل المادة بظواهرها

مكملة للصورة الانسانية ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون

﴿ المادة والنفس والعقل والملائكة ﴾

اختلفت الافكار وتباينت الاراء فى الموجودات تبعا لاختلاف الفطر وفوق كل ذى علم عليم فقال قوم ليس فى الوجود الا الله والمادة فالمادة هى المصنوع والله عز وجل هو الصانع وانكروا النفوس والارواح وقالوا ليس هناك شيء سوى المادة وقالوا ان ما نراه من قدرة الانسان وعلمه وحكمته وما يظهر من غرائب الحيوان فهي قوة جسمية وجميع مانراه من افعال الجماد فى الطب والكهرباء فنهم من قال فعل الله ومنهم من قال بالبخت ومنهم من نسبه الى الطبيعة فاذا سئل عنها عجز عن تفسيرها ثم جاء من بعدهم قوم آخرون وقالوا اننا نشاهد المادة امامنا ميتة مظلمة وجميع اعراضها لاتعطيهاقوة بل هى قبلهاالاحراك لهافالمادة وصفاتهاميتة منفعلة فكيف تكون فاعلة في نفسها هذا مما لايكون

ثم اننا نشاهد بعض الاجسام حلهاامرغريب عنها فحركها واعطاها الحس فسميناه نفساً وهذا لكافة الحيوان بل والنبات

فكل ما ينمو سمينا مافيه نفساً نباتية وكل ما يتحرك ويحس سمينا الامر الذى حل فيه نفساً حيوانية اذ هذه الافعال والقدرة والادراك ليست من صفات المادة وانما هي فاعلة والفاعل غير المنفعل فهذا طبعاً امر ثالث غير المادة والخالق

ثم اننا نرى بعض الحيوان وهو الانسان تختلف افكارهم وتتفاضل قرائحهم بامور أخرى فقلنا ان هذا التفاضل جاء لها بامر غريب قاهر للنفوس ومسيطر عليها الا ترى ان النفوس مدارها على الشهوة والغضب في الحيوان والانسان ولكن هذا الامر الغريب يزجرها عنهما ويأمرها بالاعتدال فسمينا الامر الوارد على النفس عقلا. فهنا مادة تسلطت عليها نفس وتسلط عليها عقل حل فيها حلول الصفة في الموصوف . فبهذا ثبتت المادة والنفس والعقل

ثم قالوا اننا نرى المادة في السموات والارض مسخرة كلها جارية بنواميس كلها سائرة على محور النظام والعدل والكمال وقد علمنا انها من نفسها لا حراك لها فوجب ان يكون لها محرك يقرب منها وبينه وبينها مناسبة لانا علمنا ان هذا الحكيم الذى دبر الكون ربط الاسباب والمسببات فجعل كل شيء

يناط بما هو اقرب اليه فى الشبه ثم الكائنات متشابهة فاذن لا بد للعالم كله من نفس مدبرة له خاضعة تحت اشارة العقل الذي هو فوقها كما ان للانسان عقلا مسلطاً على نفسه القاهرة لجسمه اذ النفس لا تستقل بنفسها فى تدبير الاجسام بل هى تستمد من العقل فى كل آن فقاس هؤلاء نظام الكون كله على الانسان وقالوا ان هناك نفساً مدبرة تحرك بها العوالم تتصور الجزئيات وتتلقاها عن العقل القاهر فوقها .

وهذا العقل يسمه الشرع اللوح المحفوظ فتتلقى منه النفوس عند الحكماء (وهم الملائكة عند الانبياء عليهم الصلاة والسلام) الاوامر ويتحرك هذا العالم على نظام عجيب هذا معنى مايذكره هؤلاء وقالوا ان اول ماخلق الله العقل وهو فيض من نوره تنزل من تلك السبحات العليا وفاض فيضاناً بلا زمان ولا مكان اذ كان الله ولم يكن زمان ولا مكان لما تعلم انه قبل خلق العقل لم يكن الا الله فاين الزمان واين المكان فان المكان يستلزم المادة وهى لم تخلق والزمان لابد فيه من حركة الافلاك كما هو مقرر لا مطلق حركة ثم خلق بعد العقل الهيولا (المادة) بسيطة لاتدرك بالحواس كالاجسام الروحانية ثم اعطاها الصورة بأن

مدها طولا وعرضاً وعمقاً وصارت كرة عظيمة غازية الطف من
كل ما يرى ثم افاض الله عليها النفس من العقل فدارت المادة
دورات سريعة وعلى مقتضى النواميس التى وضعها مـدبرها
والقاها في اللوح المحفوظ ومنه فاضت على النفس الكلية (الملك)
المسلط على المادة فصارت كراه كثيرة دائرات وكل كرة خلقت
فيها نفوس لا يعلمها الا الله واودعت فيها نفوس كلية تارة
وجزئية اخرى (وما يعلم جنود ربك الاهو وما هى الا ذكرى
للبشر ومن هذه النفوس الجزئية الانفس الحيوانية والنباتية
والانسانية التى فاض عليها من اللوح المحفوظ نور الهمها تقواها
ومن نفوسها فيض الهـمها فجورها هذا زبدة ما قاله هؤلاء
الناظرون مع رعاية العلوم الحاضرة وانت تعلم ايها الاخ المطلع
على كتابى هذا انى لااقول هذا من باب انه هو الطريقة التى
خلق عليها العالم قطعاً لا وانما هي التى اخذها الناس بفراساتهم
من ظواهر الكون مع تأملهم فى الشرائع السماوية فيجعل كانه
فرض تحل به المسألة حلا وقتياً والا فمبدأ خلق العالم امر مجهول
بالكلية وانما هذا القول اقرب الاقوال الى الحقيقة بحسب ما بلغه
علمنا اذ من الناس من يقول العالم مركب من اجزاء لا تتجزاء

والا خر يزيد فى الطين بلة ويقول مركب من اجزاء تتجزأ ولا نخص عنصراً مخصوصاً من العناصر المعلومة وآخرون افرطوا فقالوا هذه العناصر كلها اصلية فأصل العالم مركب منها وزاد قوم ضلالا فقالوا بقدم الافلاك وزاد آخرون جهلا فقالوا بقدم المادة وهذا كله خبط عشواء لا دليل عليه بل اوخصه كله الاكتشافات الحديثة والعلوم الجديدة التى توضت تلك الترهات ومن هذا نفهم الخبر المشهور على الالسنة وهو قوله عليه الصلاة والسلام.

اول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر ثم قال وعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً هو اعز على منك بك آخذ وبك اعطى وبك اثبت وبك اعاقب

وما نتيجة المادة الا النفوس الحالة فيها الفائضة من العقل الذى جعله الله محيطاً بها . فتأمل كيف ترقت المادة بظهور اثر النفس فيها من نبات الى حيوان الى انسان وان الى ربك المنتهى فاذا تكمل الانسان بالعقل يرجع الى الملأ الاعلى فالمبدأ هناك وهو العقل فى اصل المبدأ صار هنا منتهى ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم هو نهاية ابداع النوع الانساني استعد لفيضان النور عليه من الملائكة وصار يترقى الى مالا يتناهي ومن هذا

نفهم كيف احتاج الكون الى ملائكة فانك علمت ان المادة
لا حراك لها فلا بد من ملائكة فيها كلها والا فما الذى حرك
هذه الكواكب ولا بد من ملائكة ايضاً فوقهم ليعطوهم الاوامر
بالنظام والا فما هذا الحساب البديع لا يتغير على مدى الزمان
ولعلك تقول ان الله هو الذى ادارها فنقول لا ينكر جاهل
فضلا عن عالم ذلك اليست الملائكة من افعال الله واذا كانت
نفوسنا ونفوس البهائم هى المحركة لهذه الاجسام افلا يمد الله
محركا لنا فهكذا تحريك الكون كله يحتاج الى ما احتاج اليه الجزء
الصغير من نفس وعقل ويكون الله هو المحرك بالضرورة وهذا
القول مطابق لما ورد في الشرائع الالهية من ذكر الملائكة وانهم
منوط بهم امر العالم كله لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون
ولذلك ترى نظامهم على غاية الاتقان. واعلم ان الملائكة خلق
من خلق الله تعالى يحار العقل فيه فان سألت عنهم فاعرف عقلك
ونفسك اولا وتأمل انك ابداع غريب يغمض عينيه فيرى
ملكا عظيما وكل ما شاهدته فى الخارج موجود فيه فان فهمت
هذا فارجع الى الملائكة ويا ليت شعرى اذا عجزنا عن معرفة
نفوسنا فكيف نعرف ذلك العالم العظيم وهم الملائكة وكيف نعرف

مدبر الكون كله الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين

﴿ لطيفة ﴾

كل مصنوع للانسان محتاج الى مادة وصورة وحركة وآلة وزمان ومكان فيحتاج الكاتب الى قلم وحركة يد والى حبر وورق ثم جعلهما صورة واحدة وكل هذا في زمان ومكان فالمادة الحبر والورق والصورة هي الحاصلة من اجتماعهما والحركة معروفة وقت الكتابة والقلم والآلة والزمان والمكان معروفان فهذه ستة اشياء ثم المصنوعات الالهية كالنبات والحيوان والانسان تحتاج لاربعه المادة والصورة والزمان والمكان ولا حركة ولا الة كالجنين في الرحم فانك لا ترى فيه الة رسم ولا حركة من الراسم وانما يرسم جل جلاله نقشاً بديعاً تحار فيه العقلاء ولا ترى الة رسم ولا حركة تظهر ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون

ثم الكون المحسوس كله وهو الجسم العمومي المكون من افلاك دائرة سائرة تكون بمادة وصورة ولكن لا زمان ولا مكان ولا حركة ولا الة اذ الزمان لا بد فيه من حركة ذلك وهناك لا افلاك والمكان معلوم وليس هناك سوى هذا

الجسم وغيره عدم فكيف يكون له مكان ولعمرى لقد جهل قوم بمثل هذا الكلام وفهموا منه ان لا اول له وهو خطأ محض بل كان الله ولا زمان معه اذ الزمان بحركة الافلاك فاذا لم يكن ذلك فلا زمان فكيف اذا لم تكن مادة اصلا

ثم الملائكة المدبرة لهذا النظام كله لا مادة لها ولا صورة ولا حركة ولا آلة ولا زمان ولا مكان فتأمل هذا الترتيب العجيب فالموجود اما لا يحتاج لموجد اصلا وهو الله تعالى واما ان يحتاج لموجد بلا آلة وهم الملائكة ارفع مادة وصورة وهو الجسم ادمعهما ومع الزمان والمكان فهي انواع المولدات او مع هذه الاربعة والحركة والآلة وهي الصناعات الانسانية

﴿ آراء الناس فى النفس ﴾

آراء العقلاء ونتائج ابحاثهم تابعة طبعاً لما يغلب على عقولهم وما تصل اليه معارفهم وهذا هو السر في عدم الاتفاق وكثرة الاختلاف فى كل مسئلة واعظمها اختلاف واكثرها تشعباً نفس هذا الانسان ولكل وجهة هو موليها وقد بلغت الاقوال فيها قريباً من المائه فمن قائل انها الهواء اذ بانقطاعه تنقطع الحياة

ومن قائل انها الدم اذ بوقوف حركته تقف الحياة وهكذا من الاقوال الدالة على نظر لجهة دون جهة واهم الاقوال ثلاثة فقال قوم انما النفس هو هذا الجسد اذ كل ما عندنا من القوى النفسية ناتجة من هذا الجسم وعنه تفرعت الا ترى انه اذا تغير المزاج او مرض الجسم او انقطعت عنه مادة الغذاء اوجرح او انكسر عضو من اعضائه يذهل العقل وتضعف القوى فلا علوم ولا معارف على ان الشيخوخة تذهب بالفكر وترجع العاقل الكبير طفلا صغيراً

وقال قوم ضد الاولين ان النفس هي قوة مسلطة على الجسم ذات قوى تتصرف فيه تصرف الملك فى الرعية الا تري ان الجسم ان هو الا جماد تحركه تلك القوة المدبرة فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله واعتبر حال القضبان فانظر كيف تحمر عيناه ويتبلبل لسانه وتضطرب حركاته وهكذا السرور والعلم والجهل ولعمرك كم من الفرق بين عالم عظيم وجاهل فانظر كيف اثرت المعارف والاخلاق على الجسم وما هذه كلها الا من تلك القوة المدبرة وتأمل انها اذا خرجت من الجسم بالموت اصبح ولا حراك له بل يكون

جيفة لاقيمة لها ويخرجها اعز اصحابه وخلانه ولو كانت هى النفس لأبقوها في اماكنهم فقد علموا ان النفس هى التى خرجت من عندهم وتركت فضلاتها فاخروجها. ونظر آخرون في قول سابقيهم فقالوا اننا نرى ان كلا من الرورح والجسم يؤثر على الآخر فالروح بما لهان من السلطان على الجسم تؤثر فيه صلاحاً وطلاحاً وصحة ومرضاً وهكذا الجسم والذى نستنتجه من ذلك ان الروح وجدت فيه لتتربى كما يتربى الحب فى النبات والثمر في الشجر والفرخ في البيضة والجنين فى الرحم فلا تزال تمو فيه الى اجل مسمى

وكما ان المقصود من النبات الحب ومن الشجر الثمر ومن البيضة الفرخ فكذلك المقصود من هذا الجسم هى تلك الروح وكما ان البيضة تضعف اذا كبر الفرخ وقوى . والنبات يصفر وينحنى اذا اشتد الحب فكذلك الجسم يأخذ فى الضعف اذا قويت الروح وارادت الخروج وكما أن كلا من الفرخ والحب يبقى بعد خلاصه من البيضة والزرع فكذلك الروح باقية بعد هلاك هذا الجسم وكما ان الفرخ والنبأت والجنين فى بطن الام تكون على حسب نوع البيضة والنبات ومزاج الام فكذلك

الروح بعد الموت تكسب الصفات التي تناسب ما كانت تكابده مدة الحياة وكما ان الحب بعد خلاصه من التبن قد يكون غذاء للنوع الارقى وهو الانسان وبعضه يكون غذاء للنوع الادنى وهو الحيوان وبعضه مشترك بينهما وبالجملة يكون انواعاً كثيرة فهكذا الارواح تكون درجات متفاوتة على حسب انواع التربية التي ترباها الانسان في هذه النشأة فكل يترقى فيما غلب عليه فمنهم جلساء الملائكة ومنهم من هو ادنى من ذلك الى ان يبلغ درجة سمين وكما ان الحب اذا خلص من التين والثمر من الشجر وهو لم يبلغ اشده يكون ضعيف الفائدة او عديمها فكذلك النفس اذا خرجت من الدنيا وهي لم يكمل تهذيبها تكون في عالم الآخرة ابعد عن اللذات ناقصة عرضة للآلام والذم والسخط الاترى ان لكل موجود فاعلا ومادة وصورة وغاية كما هو مشاهد وفاعل الانسان معلوم ومادته وصورته مفهومان ولكن ما غايته مع انه اجمع الحكماء على انه ليس في الكون شيء بلا ثمرة فلم يبقى الانسان بلا ثمرة وحده وهذا القول الاخير هو الموافق لسنن الكون وقوانين الحكمة وسير هذا النظام والموافق للقرآن قال تعالى (انما الحياة الدنيا لعب

ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الاخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

فتأمل كيف اشار القرآن الى تنوع الانسان كتنوع النبات فالحق والحق اقول ان القرآن رمز فى غضون امثاله الى علوم الحكمة ووكلها الي العقول فها انت علمت ان القول الآ خير من كلام الحكماء هو الا وفق لنواميس الكون والصق بالبراهين العقلية وان احسن مثال له هو النبات فانظر كيف ذكره فى القرآن مثالا ابرزته تلك التشبيهات التى رأيتها وغيرها وقال فى آية اخرى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير) وقال فى آية اخرى (انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون

عليها اتاها امرنا ليلا او نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون

فهذا ضرب مثل للحياة على سطح الكرة الارضية وماقبله تصريح بحال الشخص الواحد وماقبله ضرب مثل لحاليه فضرب المثل في حال الشخص الواحد والامم الانسانية بالنبات لما علمت من الحكم المندرجة ضمنه ولم يقتصر جل جلاله على ضرب هذا المثل وعظا بل جعله في موضع آخر برهاناً مستدلا بعالم النبات وغيره على البعث رمزاً للبرهان الاخير الذى هو نتيجة ابحاث الحكماء فقال. (نحن خلقناكم فلولا تصدقون افرايتم ما تمنون أانتم تخلقونه الايات وقوله آانتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشئون فاستدل اولا بالنطفة في الرحم وبالنبات وخروج الثمر منه وبالماء ان لها غاية وهكذا النار ومايستفاد منها فكانه يقول هل خلق الجنين في البطن الا للترقى الى عالم ارقى وهي الحياة ويكون ترقيه على حسب المزاج الذى كان عليه في بطن امه اليس النبات جعل لغاية وهو الثمر الم يكن نزول الماء لغاية اليست النار جعلت لمنافع الناس والاعتبار مع انها فى الاحجار والاشجار وكل شيء اتكون هذه كلها وهى الاجنة فى البطون والماء فى السحاب

والنبات والشجر والنار لمنافع تنتج عنها ويكون وجودكم انتم بلا ثمرة الا الشقاء والآلام ثم تعدمون من الوجود بلا ثمرة مع انكم انتم افضل الجميع بل هذه ماخلقت الالكم واذا كان الانقص المخلوق له غاية افلا تكونون انتم اولى بان تكون لكم (ولقد خلقنا الانسان في احسن تقويم) على ان الحكمة العامة والناموس الذى وصفناه فى الكون يقتضى الترقى أفيصل العالم الى النقطة العليا وهو الانسان ويقف الترقي (فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين)

اقسم هنا بعد تلك العبارات بالنجوم ومواقعها فى مداراتها على عظيم امر القرآن فذكر النجوم هنا لينبه الفكر الى انها ايضا لها فوائد وهى تلك المذكورات من المولدات اذ كل ما ذكر قبلها ناتج عن دورانها فى مواقعها وهذا كله في ضمن عجائب القرآن التى لاتعرف الا بدقة النظر والبحث في علوم الحكمة مع كثرة الاطلاع ثم ذكر بعدها ان لروح خفية لاتظهر عند خروجها وافاد انه اقرب الى الميت من الحاضرين والناس لايبصرون ثم ذكر انها ذات درجات علياوسفلى ووسطى على

حسب مايكون الجنين في الرحم ويخرج الى الدنيا والحب والثمر
فتأمل كيف كانت ادلة القرآن هى نهاية الحكمة فتارة تذكر تلك
التمثيلات على انها مواعظ وتارة اخرى على انها براهين قاطعة
إن فى ذلك لآيات لاولى النهى) ومما قاله في الوعظ (واضرب
لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات
الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً
ومما قاله فى الاستدلال فى سورة يس (قل يحيها الذى انشأها
اول مرة الى قوله فاذا انتم منه توقدون فتأمل كيف مثل بالثمر
والنار اشارة الى ان الروح تبقى بعد الموت كبقاء النار بعد الشجر
وانها خلاصته والقصد الاشارة الى البقاء بعد الموت ثم يلبسها
جلابيب الابدان عند القيامة ويبعثها

﴿ عموم الوحدة فى الموجودات ﴾

اذا تأملت جميع نظامات هذا الكون رأيت الوحدة سارية
فيها على غاية من الاحكام ولولاها لم يصح لها وجود ولم يكن
لهذا النظام فائدة فلا تكاد ترى كوكبا فى نظام الكواكب الا
وهو جار على وحدة مخصوصة من حيث السير على نهج الصراط

السوي (ان ربي على صراط مستقيم) وجميع الكواكب لها وحدة مخصوصة فى الاتجاه والضوء وان مداراتها اقطاع ناقصة فلها نظام يجمعها

وهكذا النبات اشترك كله في وحدة تجمعه وهي النمو والتوالد التابعان للنفس النباتية فنفوس انواع النبات والشجر وان اختلفت فوجهتها واحدة وهى النمو والتوالد والسعى في المصالح على حسب مبلغ مااعطيت من القوى حتى انك ترى العنب يلف خيوطه على عرشه الذى ينصبه الناس له كانه يعلم ان ذلك هو الذى يقيه من التشتت وترى اوراق كل نبات تحذو نهجاً واحداً وهذا كله سير الوحدة وهكذا النفوس الحيوانية فكل نفس من هذه النفوس انما وضعت في هذه الاجسام ليتم اتحاد العناصر والقوى وتعيش زمانا ما ثم تنهدم فظهر من هذا ان كل شيء اعتنى به اشد اعتناء فان له نفساً تجمعه وتدبره لتضم شعثه ويبقي الى اجل مسمى واذا كانت هذه الحيوانات الصغيرة بل والنباتات لها نفوس فبالاولى يكون هذا النظام وكواكبه لها مدبرات تديرها كما تدبر اجسام الحيوانات وهى المسماة ملائكة فان قال الطبيعى هى الجاذبية فنقول له صدقت

ولكن الجاذبية عبارة عن ظواهر ذلك السر العجيب .فياليت شعرى هل دبرت الجاذبية الميتة ذلك الحساب وعرفت مايترتب عليه من الملوك والدول وانواع المولدات وكيف يحوط الجاهل حياة العالم وكيف تمسك الجاذبية الجاهلة مالا يتناهى من النجوم عدام فلا تتلافى يوماً ما ولعمرى ان مثل علماء الفلك في هذه الظواهر كمثل علماء الطب فكما ان الطبيب لا بحث له الا عن الروح الحيوانية التى منشؤها الدم ولا خبرة له فى الروح العليا التى تعقل وتعرف الهندسة والحساب والسياسة ونظام الامم فهكذا عالم الفلك لايعرف الا ظواهر سير الاجرام الفلكية وقال آخر ان هنا جذبا بينها فدارت دورات لانهاية لها بالحركة الطبيعية ولم يدران الحركة كيف يخرج من جهلها علم وكيف كانت بشقائها تصلح العالم وياللعجب لهذه الحركة الغريبة التي دبرت امر الحيوان والنبات وجعلت الكل يرتبط ببعضه ارتباطاً تاماً وبناء عليه قال الحكماء ان هذه الحركات في الافلاك لها عالم يحفظها كنفوسنا عبروا عنه بالعقول وعبر عنه علماء الشريعة بالملائكة واذا كانت كل جملة من هذا العالم لها قوة تدبرها فالعالم كله جملة واحدة لمانشاهد انه كله يتعاون كتعاون الجسد

وكل كوكب ينفع بقية الكواكب نفعاً خاصاً فقد تحقق ان الكواكب بالنسبة لمجموع العالم كانها اعضاء جسد واحد فها هو القمر يستمد من الشمس ويضيء الهواء ويمتزج نوره بانواع المولدات وكل كوكب فله في الارض تأثير خاص وجذب يؤثر على حركتها اذن فلا بد ان يكون لهذا العالم كله مدبر واحد ترتبط به جميع هذه المدبرات وتستمد منه وهو مدبر هذا الكون وحده

واعلم انا ذكرنا فوائد في ميزان الجواهر تناسب هذا المقام ونقلنا هناك كلام العلامة فيليكس لامروين الفرنساوي فى الجاذبية وقوله انه يعلم منها الفعل لا السبب فراجعه هناك فبالله الوحدة وفعلها فاشرف شيء في هذا العالم الوحدة بها تم النظام وكلما كان الشيء اتم وحدة واجمل صنعاً كان اتم تركيبا واعلى شأناً والى هنا نشرع في ذكر نظام الامم ولاسيما امة الاسلام مطابقين بينها وبين نظام الكون على حسب ما قدمناه وكيف يجب ان تكون وحدتها مطابقة لوحدة النظام الطبيعي فنقول.

﴿ الباب الثامن نظام الامم ﴾

(الوحدة فى الامم ترجع الى قوتى العلم والعمل)

لايشك من طالع اساليب حكم الخليقة وما اوتيت من لدن المبدع الحكيم ان كل قوة منحتها فانما ترجع الى قوتى العلم والعمل وهاتان القوتان كأنهما سلسلتان متناسبتان ملتصقتان سائرتان على نسق واحد اوعرقان يمتصان الغذاء لنبات واحد وعلى حسب قوتهما وضعفهما يكون ولنبدأ بقوة العلم وسنة الله عز وجل فى ترتيبها في مراتبا ثم نلحقها بقوة العمل وندعهما يتلاقيان في طرفهما عند نتيجتهما وهى الحياة ونطبقهما على امة الاسلام وكما ان كل نتيجة لها مقدمتان فهكذا الحياة نتيجة الوجود ولها مقدمتان العلم والقدرة

وان اردت البيان فهاك نواميس الوجود ترى ان اصغر الديدان اعطى قوة الحس لاغير فيمتص ماحوله ولم يعط غيرها ووهب من الحركة الضعيفة على مقدار تلك الحاسة الحقيرة فيسمي بالانقباض والانبساط لتلك الديدان المولدة فى بطون الحيوانات الكبيرة والخل واللبن والطين ونحو ذلك ثم يترقى عن

ذلك ديدان الزرع فقد اعطي مع الحس الذوق ليفرق بين ما يناسب ومالا يناسب فيأخذ ويذر ثم ماهو ارقى من ذلك وهي حيوانات الظلمة فى قاع البحار اعطيت مع اللمس والذوق حاسة الشم لمناسبة ذلك لمراعيها التى تتربى فيها ويترقى عن ذلك حيوان اعطي قوة السمع مما يتربى فى الظلمات لما ابتلى به من حيوانات تؤذيه وفوق الجميع ما اعطى قوة البصر فاستكمل الحواس الخمس ثم ترقى الحيون في البر والبحر في انواع الذكاء وابداء الغريب الى ان يربى اولاده كالحيوانات التى تبيض وفوقها التى تلد واعلى منها ماتفهم عن الانسان بالتعليم وأرقى منها ماتقلده والانسان ارقى من ذلك كله فيأخذ فى العلوم والتجارب ويصل بعضه بموهبة من مدبر الكون الى درجة النبوة بلا كسب من عنده ولا تجربة فهذه مراتب العلم من ادنى حيوان الى اشرف انسان ومع كل مرتبة من مراتب العلم ما يوازيها من العمل اوالاستعداد المناسب فترى كل حيوان له قدرة ما على السعى اما الى هرب واما الى طلب على مقتضى ما يامر به العلم اذ المعلوم امامهروب عنه أو مرغوب فيه فلهذا كانت تلك الاعضاء والقوى صالحة للطلب تارة والهرب اخرى مختلفة باختلاف

الحاجة وعلى حسب العلم المودع فيها فمنها ماينقبض وينبسط ومنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على اربع ومنهم من يمشي على اكثر من ذلك الى عشرة وعشرين وهكذا ومنها مايعلو عن ذلك فيطير في الجو بجناح يختلف مقداره باختلاف الطائر وقوته وخلقه (ان ربك هو الخلاق العليم) وقد اجتمع في الانسان قوتا العلم والعمل وكل منهما يقوى الاخر فها هى الدول امامنا اتخذت العلم رائدا لقوة معيناً لها والعمل كذلك قوة للعلم معيناً له فهما قوتان لا يستغنى باحدهما عن الاخر ونتيجتهما الحياة وعلى حسبها تكون الدولة فها هى قوة العلم اصبحت تدل على المكتشفات والمخترعات وتعرف مواقع الدول ونظامها وصنائعها واحوالها فتأخذ قوة العمل في اعداد مايلزم للمضارعة تارة والمقارعة والمصارعة اخرى واعداد لوازم الحياة للحالة الحاضرة فهما تنوعت قوى الحيوان من الرجل والجناح والسعى على البطن فانها ترجع الى القدرة لاغير ومهما اختلفت انواع الحس من لمس وذوق وشم وسمع وبصر وادراكات وغرائز ورحمة على الولد وامتثال أمر وميل للتقليد وارتقاء فى العقليات فانه يرجع الى العلم

ولعمرك ما موقع الامم المنحطة من الامم الراقية الا كموقع تلك الديدان فى اجواف الحيوانات الكبيرة من تلك الحيوانات تمسى وتصبح ولا حراك لها الا الانقباض والانبساط ولقد ضرب الله مثلا للانسان بهذه الحيوانات وسلسلتها في الترقى علما وقوة وكانه يقول انا رقيت هذه الحيوانات فى قوتها فما لهذه الامم اصبحت منشقة العصا ولو انهم سمعوا وابصروا لوقفوا على أحوال الامم الراقيــة التى ابتلعتهم في بطونها فهم يقولون فى الحياة قبل الممات لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى اصحاب السعير

وكل صنف اعلى مما تحته ولقد كرمتك أنت فاعطيتك عقلا يمكنك ان تصل الى ذروة المجد بل تطير فى عالم المدنية طيرانا اكثر من الباشق فى جو السماء . فهذه الحيوانات لم تعط قوة الترقى وأنت أعطيت تلك القوة فما لك تقلد الديدان وتبقى فى حضيض الجهل والهوان فسحقا لاصحاب السعير وما الاخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا وقال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمي وأضــل سبيلا) والاعمي فى الدنيا من لا يرى رشده وأى رشد بعد معرفة حياة الامة بين الامم

والامن على الارواح والانفس والترقى على حسب سنن الكون فقد علمت من هذا ان كل الصنائع الداعية لقوة الدفاع والهجوم بجميع آلاتها الحديثة وهكذا كل مابه التجارة والزراعة والصناعة هي قوة العمل وما به احياء العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الاولى هى ما به قوة العلم وبينهما تلازم كتلازم الطعام والشراب والسمع والبصر والعقل

﴿ كيف تصير الامة كلها جسما واحدا ﴾

وكيف تقارن بجسم الانسان

ظهر لك من نواميس الكون انه كجسم واحد وهكذا كل نبات وحيوان وانسان وكل جماعة منها له وحدة مخصوصة كالاجناس العليا والسفلى والوسطى وهكذا الانواع ولم تقتصر الوحدة على سريانها فى المحسوسات بل سرت في المعقولات فما من علم الا وله وحدة تجمع مسائله كالحد والموضوع فيقال علم الحساب موضوعه الاعداد من الجمع والتفريق وهكذا بل كل طائفة من العلوم لها جامعة من وجه فاغلب العلوم الطبيعية يطلبها الطب والعلوم الرياضية يطلبها الفلك اذ لا يعرف الا

بالحساب والهندسة والجبر وهكذا علم العمران يحتاج للجميع والفلسفة تبحث عن مبادىء جميع العلوم فتتنبه العقول الى مدبر الكون فالزمت الامم القدماء والمحدثين بالنظر في جميع العلوم اذ هو فوق النظر في هذه الاجسام واذا كانت الوحدة سنة الكون فلنتخذ جسم الانسان ناموسا نقيس عليه وحدة الامة فنقول قدمنا فى فن التشريح ان جسم الانسان درجات بعضها فوق بعض من أدنى لاعلى لكل من الاعضاء مرتبة لا يتعداها ولا ريب عند الحكماء ان الامة كجسم الانسان أو العالم كله فكما ان نظام الكون كله مرتب مراتب درجات بعضها فوق بعض وجسم الانسان كذلك ولكل حكمة في الجسم والكون فكذلك الامة لكل فرد من أفرادها درجة فى بناء هيكلها قال تعالي (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) ولنبين معنى هذه الآية فنقول انها تشتمل على معنيين أحدهما ان خلقنا كنفس واحدة والثانية ان بعثنا كذلك .

أما الاولى فاعلم اننا لا نفهمها الا اذا تأملنا لتشريح الجسم فيما ذكرنا وبنينا عليه نظام الامة فكما ان أعضاء البدن يخدم بعضها بعضاً فكذلك أفراد الامة يعين بعضهم بعضاً (وتعاونوا

على البر والتقوى) وكما ان الاعضاء لكل منها وظيفة لا يتعداها
ولا يصلح الا لها فكذلك أفراد الامة لكل واحد منهم استعداد
لا يصلح لأعلى ولا أدنى منه الا بقدرة وعلم جديدين فالدماغ
مسكن الادراك والفكر والعقل والقوى النفسية والحواس
ولا يصلح لما هو دون ذلك من تحريك الدم في العروق وجريانه
وطبخ الطعام كالمعدة وغير ذلك والقلب لا يليق ان يكون بدل
الامعاء ولا يستعد ان يقوم مقام الملاك وهو الدماغ ثم الكبد
وهو خادم القلب وكذا الرئة لا يقومان مقام القلب فيما اختص
به ولا ينزلان عن طبخ الدم وادخال الهواء الى اقل من ذلك
من مضغ الطعام وهضمه وهكذا خدام الكبد من الاوردة
والامعاء والمعدة والحلقوم والاسنان والصفراء والكليتان
والطحال كل هذه لا تصلح للقيام لطبخ الدم بدل الكبد ولا يمكنها
النزول الى درجة الايدى والاثنيين وآلة التناسل فتعمل عملها
وهكذا اليدان والرجلان وآلتا التناسل هي اسفل اعضاء الجسم
منزلة وادناها عملا فهي خادمة لا مخدومة وبالجملة فهذه الاعضاء
ثلاثة اقسام منها رئيس ليس غير وهي الرأس ومنها مرءوس
ليس له رآسة وهو الاطراف من اليدين والرجلين ومنها ما

هو رئيس ومرؤوس باعتبارين وهو مايلي ذلك كالقلب والكبد والكلية والمثانة فكل واحدة رئيسة لما بعدها مرؤسة لما قبلها

فهكذا يكون افراد الامة فالحاكم الاكبر منها بمنزلة الرأس من بقية البدن ولا يصلح الا للامور العامة ولا يتنزل للجزئيات كالدماغ او هو الموزع للحرارة على بقيته توزيعاً صالحا

والقلب بمنزلة الوزير يجب ان يكون فى العلوم والمعارف والاستعداد والجاه اقل من الملك واكثر ممن هو تحته فان كان اعلى مما هو فيه او ادنى فهناك الطامة والفساد

ثم من تحت الوزارة من نظار المصالح يكونون بمنزلة الكبد والرئة والاوردة والشرايين التى تعطى الدم وتأخذه

فلا يجوز ان يكونوا كالوزراء استعداداً ولا مثل الذين هم اسفل منهم طبعاً مثل حكام المقاطعات وهكذا حكام المقاطعات هم بمنزل الكليتين والطحال والمرارة والعروق وكالحجاب الحاجز والصدر والحلقوم فهؤلاء لا يليق ان يكونوا كنظار المصالح استعداداً ولاكن هم تحتهم من امراء الجهات ادراكا وفكرا وجاهاً وهكذا حكام الجهات الصغرى ومشايخ البلدان الكبيرة والصغيرة فهم المعدة والامعاء والقواطع والاسنان درجات بعضها فوق

بعض لا يجوز ان يكون احدهم مساويا لمن فوقه استعداداً ولا نازلا لدرجة من تحته فكراً وادراكا ويسري ذلك من الحاكم الى الكاتب الى الخادم والصانع والفلاح وهم الذين يخدمون ولا يخدمون في مقابلة الرئيس الاكبر للامة وهو الذى يخدم ولا يخدم ومتى كانت الامم على هذا النظام أصبحت تضارع النظام العام فى السموات والارض وفي جسم الانسان الذي خلق فى أحسن تقويم واذن تكون الامة كلها مطابقة لخلق نفس واحدة وتقوم على أحسن منوال وهذه هي المدينة الفاضلة

﴿ تأثير الاعتقاد فى الامم ﴾

من تأمل في الامم وجدها تشترك فى امور تعمها ولولاها ما تعاملوا ولا تجاوروا واهمها الاحساس بان لهم قوة يخضعون لها مسيطرة عليهم وما فى قلوبهم من رحمة على ابناء جنسهم والعقل الغريزى المنبث فى جميعهم وان تنوعت الديانات وتباينت العقول واختلفت القوى ولكن الاحساس والفكر الشامل الغريزى ليس يخلو منه قط الانسان وعليه تبادلوا المنافع والتجارات والصنائع والعلوم وكل يميل الى صناعة او حرفة

او بلد او امة او دين فاختلفت الفطر ولاجلها تنوعت الصنائع والاعمال واحتاج كل فريق للآخر (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك)

وكما اشتركت الامم فى الاحساس الفكرى والصورة الجسمية والحاجة العامة يجب ان تشترك كل امة فى امور تخصها لايشاركها فيها غيرها حتى تتم وحدتها وارفع امة هى التى يسرى فى جميع افرادها اعتقاد بصانع الكون وصفاته وانه مقدس واحد لاشريك له ليس له اول ولا آخر قديم باق ليس كمثله شيء تنزهت ذاته عن الاجسام والتجزئة والتقسيم شملت قدرته جميع الممكنات وعم علمه وكلامه الواجبات والجائزات والمستحيلات لايصدر شيء الا عن ارادته يعلم مافوق السموات وما فى طياتها ومافى الجو والثرى وما تحته وبالجملة ان كمالاته لانهاية لها وهو منزه عن جميع النقائص وان له ملائكة عظاماً وانبياء ورسلا قد اتبعوهم ودانوا الى اخرهم الذي ارسل اليهم كمن اتبعوا ابراهيم وموسى قبل المسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام وان يكون فيهم علماء وحكماء خلفوا هؤلاء الانبياء يقومون بالارشاد والاستنباط فيهم والاهلكوا وضلوا وذلك

ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم استعداد تام للدين والدنيا وسياسة الدارين فيقودون الخلق لمعاشهم ومعادهم ودنياهم وآخرتهم ونمو اجسادهم وقوة ارواحهم فانهم يتلقون الوحي عن مبدع الكون لما افاض عليهم من الاستعداد وقد قويت فيهم القوة المخيلة والعاقلة وهم اذكياء اعفاء شجعان ذاكرون لما علموه نبهاء امناء فطناء رحماء بالخلق قويو البنيه ليس في اجسامهم ماينفر طبعا صادقون يبلغون ماامروا به للخلق. قائمون بسياستهم فى الدين والدنيا

﴿الموضوع الرابع — ما به نظام الدنيا والدين﴾

اعلم ان الدنيا والدين لا يصلحان الا بوجود اربعة أشياء الزراعة والتجارة والصناعة والسياسة والاخيرة مما قبلها بمنزلة الرأس من الجسد وكما لا يصلح الجسد الا بالرأس فهكذا لا تنفع صنائع الامة وزراعاتها وتجاراتها الا اذا قامت سياستها على الوجه الاتم بل السياسة فى الامة كالروح في الجسم فكما تكون الامة جسداً واحدا له اعضاء متعاونة فهكذا يجب ان يكون لهم روح مدبرة سارية فيهم وهى القوة السياسية وهى اما ان تخص بواطن

العامة والقائمون بها هم الوعاظ او الخاصة فقط وهم الحكماء والعارفون واما ان تحكم على ظواهر الاجسام لاغير وهى سياسة الملوك والحكام واما ان تعم الجميع ظاهراً وباطناً خاصة وعامة وهى سياسة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فاذا انقلوا الى جوار ربهم جعل الله تلك السياسات موزعة فى طوائف من اممهم اذا اراد بقاءها فاذا ضعفوا عن حمل تلك الامانة ولم يقوموا مقام نبيهم باعتبار مجموعهم دل ذلك على اضمحلال تلك الامة الضالة واخذها فى الدمار والشقاء اما القائمة مقام نبيها فتختص كل طائفة من عقلائها وعلمائها بعمل فهؤلاء للوعظ وهؤلاء للحكم بالعدل وهؤلاء للتبحر فى العلوم ويتقاسم العامة اعمال الصناعات والزراعات ويتبع مجتهدوها ومستنبطوها آراء نبيهم مع ملاحظة ماهم عليه والوسط الذى هم فيه اذ علوم الانبياء تأتى للناس عامة لاسيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام ويمكن انزالها على كل وقت وبالجملة فكل أمة تحتاج الى نبي تتبعه وحكماء يستنبطون فان الله عز وجل خلق العقول وانزل الديانات وكما ان لكل نفس قوى مختلفة والعقل رئيس عليها كما نشاهد من نفوسنا فهكذا لكل أمة عقلاء ولها نبي يجمع آراءهم

واعلم ان الناس مدنيون بالطبع وذلك ان كل فرد لا يمكنه ان يقوم بجميع لوازمه فلا بد اذن من توزيع الاعمال عليهم بحسب الطبع والفطرة فيحتاج كل للآخر ولا بد بعد ذلك من التبادل فيأخذ النجار ماعند الخباز والخباز ماعند النجار فيتبادلان ثم لابد من قسطاس يحكم بينهما بالعدل فوجب أن يكون بعض المعادن قاضياً حكماً حاكما على القيم لاحظ لاحد المتتابعين فيه يكون معياراً للتبادل ودليلا على النقص والزيادة وقد اصطلحت أغلب الأمم على الذهب والفضة ثم لابد مع ذلك من طمع أحد المتبادلين في الآخر فلابد اذن من حاكم ناطق إذا عجز الحاكم الصامت من النقدين ثم بعد ذلك لابد له من ناموس يحكم به والا لأصبحت آراؤه وأوهامه واغراضه هي السلطان على الامة وذلك القانون يقوم به العقلاء ولكن هؤلاء يختلفون بل الانسان الواحد يناقض نفسه في وقتين مختلفين وإذن لابد من شرع أتى به النبي ليقوم لعقول الأمة مقام عقل الشخص لقوي نفسه وما العقول إلا كالغذاء وما الشرائع الا كالدواء فأي أمة اتبعت عقولها وتركت أنبياءها مرضت مدنيتها وان غلظت وعظمت كما نرى من قوم يكثرون من الاغذية ولا يتعاطون الادوية.

فأولئك تغلظ أجسامهم ويدب فيهم الداء وتكون أمراضهم دفعية فتأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون وهذا حال أمم أوروبا قد ترقوا فى كثير من شؤونهم العمومية ونبذوا الديانات فلم يراعوها الا بين الافراد بعضهم مع بعض فاصبحت معاملات الافراد يغلب عليها الصدق والامانة أما معاملات الأمم فانها تابعة للحظوظ ثم انهم أباحوا للاحاد باشياء لم يراعوا فيها نص الشرائع السماوية كالربا والخمر فترى مدنيتهم زاهية زاهرة كالجسم العظيم السمين ولكن فيها أقوام كثيرون يعثون فى الارض فساداً ويريدون ان يقوضوها على عروشها جزاء بما كسبت من ترك الدواء واستعماله كالاشتراكيين والنيهلست وهناك كثير من الاقوام أصبحوا في أشد الفقر المدقع وعظيم الحاجة لسبب عدم التوازن بين الافراد اذ العقل الانسانى لا يمكنه الاحاطة بجميع المصالح والمضار أما الناموس الالهى فينهى عن الربا مثلا لعلمه أنه يجعل الناس فى الأمة قسمين عبيداً وسادة لاغير وهذا هو الخلل العظيم وهاهو حاصل فى أوروبا الآن ونرى ان الشرقيين على عكس أولئك تماماً فتركوا استعمال العقل في شؤونهم العمومية. وقلدوا في أمورهم الخصوصية وراعوا بعض الدين

فانسلخوا من المدنية وانحطت قوامم إذ لم يرعوا موهبتى الله المفاضتين عليهم وهما قوة العقل والدين وماهم فى شؤونهم إلا كمثل من استعمل الدواء وترك الغذاء فتراه يشرب صباح مساء الادوية ويترك الاغذية وهذا بلا ريب أحط من الاول مدنية واقل منه شرفا فلا دنيا ولا دين على انه لا يتحقق دين بلا دنيا فتلخص ان أهل المدنية الفاضلة هم المتبعون لنبي المستنبطون المؤمنون بالله وبشريعته بعقولهم وان اختلفوا فيما بينهم في الفروع كما تختلف اعضاء الجسد في اشكالها من طول وعرض وتدوير وصلابة ولين وعروق ولحم وانهم ان وقفوا على العقل وحده ضلوا أو الدين وتركوا العقل بالكلية خسروا الدين والدنيا جميعاً ويكون اتباعهم للدين بمجرد الاسم إذ لا دين الا مع تعقله ومتى عقل الدين كان ادل على حفظ نظام الدنيا والاخرة معا وقد علمت حال امم الشرق والغرب هذا حال الامم فى هذه الحياة الدنيا

﴿ الموضوع الخامس ﴾

مآل أهل المدنية الفاضلة بعد الموت

اعلم ان هذه الدنيا عنوان الآخرة ولا يجوز ان يعبر الى الآخرة الا على قنطرة الدنيا وأية أمة ظنت ان الآخرة تأتي بلا دنيا فهي جاهلة لم تدر شيئاً . ألم تر كيف فرضت فرائض المواريث واحكمت شرائط البيع والشراء والهبة والقرض وحرم الربا والزنا والسرقة ودونت احكام النفقة والمهر والدخول والطلاق والعقوبات من القطع والقتل والقصاص والجلد والرجم والتغريب والتعازير مما يجتهد فيه القضاة أليس ذلك كله لحفظ نظام الدنيا. ولعمرى اذا لم يكن عند الناس مال فأين المعاملات والبيع والشراء وأين المواريث والحقوق وأين تفرض النفقات ومن أين تكون السرقة والربا فهذه كلها جعلت قيوداً وشرائط لتحفظ بها هذه الحياة الدنيا ويعبر عليها بالعقول والافكار الى الآخرة بالاعمال الصالحة ومن ظن غير ذلك فلم يفقه في الدين شيئاً ولم يعرف لم خلق . ثم ان أهل الكمال من الامم كلها تراهم يميلون الى فكر واحد ووجهة واحدة وهو الصراط المستقيم

فيتعاونون على البر والتقوى عاملين بقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)

وقد استنتج العلماء رحمهم الله كالشافعي فى الرسالة واصحاب الاصول عامة ان الصناعات واجبة وجوبا كفائيا ونحن نقول لما كان كل فرد له استعداد لعمل خاص فليكن يجب عليه ان يقوم بذلك العمل مع من له استعداد فيه كما هو ناموس الكون ان لكل شيء من الموجودات منفعة ليست فى غيره وهذا هو الذى ادين الله به مهما اختلف الفقهاء فيجب على المستعد لعمل ما أن يقوم به حتى يبرع فيه ويجب على غيره من الامة ان يشجعه عليه من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وسنعقد لهذا بابا خاصاً عند التكلم على مدنية الاسلام ونذكر انه يجب على ملوك الاسلام وامرائه تنشيط كل مستعد لعمل ما الى عمله لتقوم المدنية بالقسط في هذه الدنيا ويأخذ الناس بعضهم بيد بعض للدار الاخرة

وما الاخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا ونتيجة من نتائجها
(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار)
ولا يكون ذلك الا بأن يكسب كل امرء اعتقاده الصحيح
الذى ذكرناه آنفاً بالله وملائكته وكتبه ورسله ونبيه الخاص
ونظام أمته ثم يكسب اخلاقا حسنة ويلتذ بها في حياته الدنيا
وكلما طال امده في الدنيا حسنت في عينه صناعة من علم وعمل
وارشاد وعدل بين الناس فيقوى علمه وعمله وكل من افراد
الامة يفرح بنظيره من سابقيه ومعاصريه فترى العالم يفرح
بمن على شاكلته من اي بلد كانوا وعلى أى مذهب من مذاهب
الفروع كانوا مع توجيه النفوس الى مبدع الكون فى أوقات
معينة والمحافظة على الاجتماعات فى الصلوات والجمع والاعياد
والحج ومواساة الفقراء بالاموال وهكذا مما اوصت عليه
الشرائع وهذا حقيقة لا تتم الدنيا الا به فاذا ذهب الناس الى
ربهم كانوا فارحين بنفوسهم ونفوس اشكالهم في جنة عدن فوق
فرحهم في الدنيا بمراتب والى ذاك تشير شريعتنا المطهرة ولذلك
ترى المصلى يقرأ الفاتحة ويذكر الله بالرحمة العامة في خلقه لعموم
الناس ويحمده على تربية جميع العالمين تربية مصحوبة بالرحمة

تارة والشدة التابعة للملك تارة اخري ثم يقول ها نحن جميعا نستعين بك اذا لامة عبارة عن اشخاص كلهم كفرد واحد وكل فرد فيها كعضو من الاعضاء فنحن نعبدك جميعاً اذ لا يقوم الواحد منا بالعبادة وحده لكثرة لوازم الوصول اليك والفرد الواحد لا يقوم بها كلها كما ان العضو الواحد من الجسد لا يعيش وحده ونحن مع هذه الكثرة البالغة لا يمكننا أيضاً (ويوم حنين اذا عجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت) وانما الذى يعيننا على ذلك انت وحدك فاياك نستعين فاهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم

هذا ملخص صورة الفاتحة من حيث المعنى اجمالاً فهي ترجع الى اجتماع القوم المؤمنين في زمن واحد ثم اذا نظرنا للتشهد وجدنا انه يزيد على ذلك فيحيي الله تعالى ويثنى عليه كالنصف الاول من الفاتحة فيقول التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله وهذا نظير اول الفاتحة الى الرحمن الرحيم ثم يقول السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فبعد ان يذكر الله تعالى يشرع فى ذكر نبيه

ثم نفسه وجميع عباد الله الصالحين ممن مضى ومن هم فى زمانه
ويأتى بعده فى اعلى السموات او اسفل الارضين ليربط قلبه
بجميع المصلحين فى الارض ويتذكرهم فيقتدى باعمالهم فالمقصود
من العبادات هذا التذكر والتفكر والرابطة بالجميع من كافة
الطبقات ولهذا رمز الحكماء فى كتاب كليله ودمنه بالحمام الذى
تعاهد على التخلص من الشبكة التى وقعن فيها ثم بعد ذلك يوحد
الله بالشهادتين ويصلى على النبي وابراهيم وآله لانه هو الذي جاء
بالتوحيد بعد دروسه فنظر فى ملكوت السموات والارض
وكشف له عن جميع ذلك ونزه الاله وملخص هذا ان الصلاة
جعلت تذكرة لشيئين ذكر الله تعالى واستحضاره ثم ذكر من
اصلح في الارض من الانبياء ومن على شاكلتهم للاقتداء بهم
ومن ظن انها مجرد عبارات تقال اوان القرآن لمجرد التعبد
فاؤلئك قوم ليس لهم حظ من الدين والشريعة والعقل . ورد
في رسالة الامام الشافعى رضي الله عنه مامعناه ان سائلا قال لم
اخترت في التشهد التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله
السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى
عباد الله الصالحين الى آخره

فقال رحمه الله هذه رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال السائل اين انت من رواية عمر وهو يخطب على المنبر يقول قولوا التحيات لله الزاكيات الخ فقال رضي الله تعالى عنه ان قول عمر صار اجماعا اذلم ينكر عليه احد فاقرارهم عليه يعد اجماعا ولكني فضلت رواية بن عباس لاسنادها للنبي مباشرة فجعلتها اولى وان كنت اعتمد رواية عمر فقال له السائل ان هنالك روايات اخرى في التشهد غير ما روى عن ابن عباس وعن عمر فماذا ترى فقال له رضي الله عنه متى صحت الرواية فاعمل بها لا فرق بين رواية ورواية ولا حديث وحديث مهما تعددت الطرق وتباينت الروايات فقال له السائل كيف يجوز ذلك ودين الله واحد وكيف تعدد الروايات ويصلى الناس بصلوات مختلفة اليس مانزل الله على النبي شيئا واحدا فقال الشافعى رضى الله عنه اعلم ان القصد فى التشهد انما هو ثناء وهو يؤدى بأى صيغة وليس القصد التعبد بتلاوته فلا غرو اذا ادّي بأى صيغة او كيفية واذا كان القرآن نزل على سبعة احرف واريد منه معناه فما بالك بثناء يراد منه التعبد وهل تذكر ماروى ان هشام بن حكيم قرأ سورة الفرقان فسمعه عمر فاخذ بتلابيبه واحضره

عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انه قرأ القرآن بغير ما انزل فامره النبي باطلاقه وقال اقرآ فقرأت أنا وهشام فقال صلى الله عليه وسلم بهذا وبهذا انزلت نزل القرآن على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسرت

فتأمل كيف كان علماؤنا رضى الله عنهم لا يراعون الا المعانى فهذه الصلاة لم يقصد منها الا نزوع القلوب للخالق والاتحاد مع الخلق في مصالح الدنيا ونظام الدين بتهذيب الاخلاق والاعمال الصالحة وكمال النفوس الانسانية والعقول البشرية واى امة لم تفقه من الصلاة الا الفاظها ومن العبادات الى قشورها فقد ضلت ضلالاً بعيداً عن المدنية اذ تبقى معرفتها بربها نباتاً ضئيلاً لم يسق وائتناسها باخوانها ومساعدتها بقدر الضرورة وفيما عدا ذلك يكثر تحاسدهم وتضاربهم وتعديهم واختلافهم فتتمزق دولهم كل ممزق ويضمحلون كما اضمحل الاولون

﴿ الموضوع السادس — الامة تضارع العالم كله فى نظامه ﴾

ولما كانت الامة تضارع العالم كله في نظامه نرى المصلى يقف تارة على استقامة واخرى يركع كما هى خلقة نوع الحيوان

ثم يسجد كالنبات وهذا مقتضى القسمة العقلية اعتدال وتنكيس وتوسط وهكذا الست جهات فان المصلين حول الكعبة وفي أطراف المعمورة يصلون اليها فيستقبلون الجهات الاربع ويرفعون رؤوسهم الى السماء ويسجدون واضعين رؤوسهم الى الارض فكانهم فى صلواتهم يشيرون الى نظام العالم كله وان الامة الواحدة يجب ان تكون كهذا النظام كله الذى هو كنفس واحدة فالامة كالجسم الواحد وكالعالم كله من حيث النظام ووضع كل شيء في رتبته ولم يكتف في الاشارة بالاتحاد بتلك الاقوال والافعال الاشارية بل جعلت الصلاة جماعة اشارة الى وجوب تضام القلوب في المدنية وذلك خمس مرات فى اليوم والليلة لاهل المحلة الوحدة ثم فى خطبة يوم الجمعه لاهل البلدة . وتأمل كيف لاحظ الشافعى رضي الله عنه الا تعدد الجمعة فى المصر الواحد لانها فى الحقيقه سرها الاجتماع وقيام رئيس المدينة خطيباً يذكرهم باحوالهم ونظامهم في دنياهم واخرتهم بمقتضي الاحوال الحاضرة لا مجرد احوال محفوظة من الدواوين ثم اجتماع المصر ومن حوله فى العيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف ثم اجتماع اهل الاسلام قاطبة في مكة

لمكرمة من استطاع منهم سبيلا مرة في العمر لتبادل الامور العامة (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم) فجعل الله الكعبة محلا يقوم به الناس ويتذاكرون دينهم وسياساتهم العامة واعمال ملوكهم. هذا هو من اجل مقصود الشرع السماوى الذى جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام

فأذا تم ذلك لهم دخلوا بعد الموت فى الدرجات العلى ونالو حظاً بقدر ماتعاونوا وتعاملوا وتحابوا (لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا) فانظر كيف رتب الايمان على الحب وذلك ان العقول لايمكنها المعارف الحقيقية والقيام بالمدنية الحقة إلا إذا تحاب افرادها وتعاونوا فأذا لم يتعاونوا لم يطمئنوا في حياتهم فينقص ايمانهم طبعاً ومتى نقص الأيمان لم يدخلوا الجنة الا بعد جهد جهيد فالحب تبع لنظام الناس فى ما دياتهم وصنائعهم والايمان مرتب عليه ويتبعه راحة الآخرة وهذاما قررناه سابقاً. فانظر كيف تطابقت الشرائع السماوية والاحوال الطبيعية والامور العقلية (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

ولذلك قال تعالى (أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل
من الله) وقال ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا الى قوله
فبهداهم اقتده وقال والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا
بهم ذريتهم فانت ترى ان مدار أمر الآخرة على المرافقة
والاتحاد فبها تنال الدرجات ولا يكون ذلك الا بالعمل فى الدنيا
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته (اللهم الرفيق الاعلى)
وكان كثيراً ما يقول الحق باخوانى الصالحين وقال تعالى حكاية
عن يوسف (توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) وقال سليمان
عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (وادخلنى برحمتك في عبادك
الصالحين وهكذا مما هو شائع مستفيض مما يدل على ماقلنا فيما
تقدم أن المدار على وجود الحب والرابطة بين الناس فبها تنال
الدرجات ولعلك تقول لكل نبي أمة ومالنا ولصالحى الامم المتقدمة
بل مالنا وللذين مضوا من قبلنا فى أمتنا إذ لا تعاون بيننا وبينهم
قلنا اعلم ان الاجتماع هناك مع الاولين والآخرين ويحصل الفرح
بالاشباه والنظائر من أى قوم كانوا وعلى مقدار كثرتهم تكون
اللذة بهم فالعادل فى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تزيد

لذته بالعادل في أمة عيسى وموسى وابراهيم ونوح وان حجب عنه في الدار الدنيا .

ولما كانت لذة الانسان تكثر بكثرة اشباهه وامثاله من أهل الكمال وكلما تمادى الزمان زادت اللذة وعظمت جداً ورد طلب النبي صلى الله عليه وسلم التناكح والتناسل فقال تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة وكلما كانت أمة النبي أعظم كانت درجته عند الله اكبر ولذته تبع لدرجته. وإذا قارنا بين أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمة ادريس التى انقرضت وهم المصريون الذين اخترعوا العجائب واظهروا الغرائب لم يمكننا ان نحكم الان وانما يمكن الحكم بعد انقراض الدنيا وبذلك يقارن بين أعمال الاسلام في عمارة الارض واعمال المصريين الاقدمين ولكن ورد في القرآن في ادريس ورفعناه مكاناً عليا وورد فيه أنه رفع الى السماء الرابعة وورد في السنة ان النبي صلى الله عليه وسلم ارتقى الى السماء السابعة فلا بد ان تكون أمته أرقى من أمة المصريين السابقين لهذه الاشارة وبالجملة فأحوال الناس بعد الموت ويوم القيامة تبع لاحوالهم في الدنيا (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) أولئك لهم نصيب مما كسبوا

والله سريع الحساب) وأما ماورد من ذم الدنيا وانها لهو ولعب
وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد فالمراد منه
صرف وجهتها الى المنفعة العمومية لاتركها بالكلية والا لحقها
الدين قطعاً و معلوم أن الطبيعة البشرية الحرص على الشهوات
فتحصيل الدنيا أمر جبلي فى النفوس البشرية فنزلت هذه الآيات
تزهيداً للناس فيها وتذكيراً بالاخرة ليصرفو الوجهة القلبية الى
المنافع العمومية والدار الآخرة ولم يؤمروا بتركها والا كان
تعطيلا للمنافع وهل ترك صلى الله عليه وسلم الحروب أيام
الرسالة فقد غزا غزوات وبعث سرايات تعد بالعشرات وكان
يحتاط في أمر الدين والدنيا جميعاً (ولولا دفع الله الناس بعضهم
ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذوفضل على العالمين)

﴿ الموضوع السابع — مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا ﴾

من اللطائف ان شريعتنا الاسلامية مزجت امور الدين
بالدنيا مزجا عجيباً الاترى ان صفوف الصلاة هى بعينها صفوف
الحروب فترى فى كل امة من الامم نظاماً ودستوراً يقوم به
كبار ضباط ويتبعهم فيه رجال العسكرية كالامام فى الصلاة

فالمصلون هم المحاربون وكما وجب عليهم الصلاة صفوفاً وجبت
عليهم المدافعة والمحاربة صفوفاً منتظمين فتكون صفوف الصلاة
كالتمهيد للاصطفاف فى الجهاد ولم يكن القصد من الامم ان
تقلد الامام فى حركاته وسكناته وقت الصلاة فقط وانما تقلد
في حركاته الخارجية في الحروب وهذا كان فعل صاحب الوحى
عليه الصلاة والسلام وخلفائه ومن على شاكلتهم ولولا هذا ما
امكن الثلاثة الذين تعاهدوا على قتل سيدنا على ومعاوية وعمرو
ان يضلوا لهم فى يوم واحد فقتل على فى المسجد ونجا عمرو
لاتفاق مرضه فى ذلك اليوم وانابه خارجة عنه وصادفت الضربة
ظهر معاوية بالشام فى الصلاة فعطل نسله فكان الخوارج عالمين
بان هؤلاء يصلون بالناس وهكذا كانوا هم الذين يخطبون وهذه
سيرة صاحب الوحى وخلفائه ومن على شاكلتهم فهم الخطباء
علما منهم ان القصد من الصلاة والخطبة والحج وغيرها سياسة
الدين والدنيا جميعا وان بينهما تلازما في هذا الشرع ويا عجبا انا
ماسمعنا ان شرعا كهذا جاء باتحاد الدين والدنيا وسيرهما فى
خطة واحدة اعجزت كل ذكي عن ايجاد حد فاصل بينهما وهذا
هو الحق . وكيف يميز بين الماء والطين في جسم النبات أم

كيف تستغنى الروح عن الجسد والمعنى عن الكلم فها هنا امتزاج عجيب فانظر كيف خلف من بعدهم خلف فلم يعرفوا ماالمقصود من ذلك فتركت الخطب في ايدى الجاهلين والصلوات عند الضعاف فاصبحت لاترى الا اشباحا خالية من روح الفضيلة وما القصد من هذه العبادات

ومما تنشق له المرائر انك ترى المسلمين اثناء تأليف كتابي هذا بينهم الشقاق والنفار فها هى وادي التى هى مملكة وراءالصحراء الكبرى فيها نحو ستة ملايين من الانفس فيهم مائتا الف محارب وكلهم عند الحرب يقومون على قدم وساق وكذا جميع البلاد ولكن علمنا ان دولة فرانسا تريد الاغارة عليها بطريق القاء الشقاق والنفور بين كبار القبائل وهكذا دولة مراكش نسمع ان فيها قلاقل كثيرة ومثلها في ذلك دولة افغانستان فانها مع ماحصل لها من التقدم فى زمن الملك عبد الرحمن وابنه حبيب الله خان فان اهلها لايزالون ذوى شقاق وهكذا مصر واهلها وجميع اقطار الاسلام على شاكلة واحدة في الخلاف والشقاق والنفور وما ذلك كله الا لضعف التربية وترك ما اريدت به تلك العبادات والاعمال

(نتيجة) قد ظهر لك ارتباط الدنيا بالدين والامة بعضها ببعض كأنها العالم كله أو النفس الواحدة وأننا مرتبطون ببعضنا دنياً وآخرة كالنفس الواحدة وبهذا اتضح معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير) أما كون الخلق كنفس واحدة في الدنيا فقد اتضح مما ذكرناه فى أهل المدينة الفاضلة وانهم كالجسد الواحد واما كون بعثنا كنفس واحدة فقد علم من الكلام في هذا الموضوع

﴿ الموضوع الثامن ﴾

(الترقي سنة العالم شرحها القرآن قبل داوين باثنى عشر قرنا)

زيادة شرح وايضاح

ولنزد الكلام على هذه الآيه ايضاحا معقولا وبيانا صادراً عن استطلاع هذه الكائنات فنقول

الامة تشبه النفس الواحدة من جهات كثيرة زيادة على ماتقدم . فكما أن الانسان الواحد يأخذ فى صغره لنفسه ما ينفعه فى كبره فكذلك الدولة تبنى أوائلها ما ينتفع به أواخرها

نبنى كما كانت اوائلنا تبنى ونفعل فوق ما فعلوا

وكما ان الشخص الواحد يترقي شيئاً فشيئاً ثم يستوى شابا ثم شيخاً فهكذا الدولة تنمو فتشب وتهرم فتموت وكأن الدول كلها نفس واحدة تراهم يتركون الآثار ويؤلفون الكتب ويأتي الاخرون بعد اندراس من قبلهم يترجمون كتبهم ويبحثون على آثارهم فيا ليت شعرى ما لهذه الامم فالاولون حريصون جداً على تعليم الاخرين والاخرون أشد حرصاً على التنقيب على آثار الاولين تلك سنة الكون ونواميس الخليقة وها هنا سؤال يهش له المغرمون بالملح واللطائف وذلك أننا نرى ان الدول تندرس آثارها وتمحي علومها من لوح الوجود فهلا ابقي مدير هذا لكون العلوم على وتيرة واحدة فتأخذ الامة ما اختارته التى قبلها وتبنى عليه فيكون الترقى دائما بلا رجوع وما لنا نرى الناس الان يجوبون الاقطار شرقا وغربا للبحث عن آثار الاولين ولا ينالون مما عرفه المصريون مثلا الا قليلاً من كثير ولا يفهمون الرموز المكتوبة الا بعد جهد جهيد كالكتابة الهيروغليفية وهى كتابة قدماء المصريين ففى النظر الظاهر ان هذا يخالف الحكمة نقول:

اعلم أنه عزّ وجلّ ما أرسل الانبياء ولا علم العلماء ولا خلق الخلق الا للترقى والكمال ولو ابقى علم دولة وأخذته من

بعدها سهلا لطيفاً لو قفت حركة الكون وانحطت مرة واحدة وذلك ان الانسان لا يترقي في عمل الا بباعث وشوق وتنبيه وارادة واختيار ينال به السعادة فلا سعادة فى الدنيا الا بواسطة الشوق ومعنى الشوق ان يعرف الانسان شيئاً غاب عنه بعضه وحضر بعضه فيدل ما شوهد على ماغاب فيدفع النفس الى الغائب ما كان حاضراً مشاهداً فمن رأى عين الجميل او يده او وجهه احب انه ينظر ما وراء ذلك وهكذا اذا رآه ثم غاب عنه فانه يبقى في المخيلة ولكن مشاهدته تكون ناقصة فيشتاق الى اتمام الرؤية بحضوره ومشاهدته . فهكذا الامة لا يحركها الى طلب المعالى والشرف الا ان تكون فى ضعة وشاقها ما رأت من المعالى والكمال عند غيرها فتبحث لتعرف شيئاً من معارفهم ثم تبنى على انقاضه ما يوافق مشربها وما يناسب حالتها التى هى عليها وماهذه الاعاجيب في الدول وتوارثها الا كمثل الاستعارة في علم البيان والكناية فانه لا يجمل الكلام بالتصريح بالمعانى دفعة واحدة والاتيان به على وجه الحقيقة فانه لا يجد في النفوس ارتياحا ولا هشاشة فاما الكناية والتورية فان اللفظ يؤتى به لمعنى ومنه يتوصل الى معنى آخر فكانه افهم للمقصود

برمز خفي وطريق يدعو الى البحث والتنقيب والتشويق وهذا هو السر في المجازات والكنايات والاستعارات المصرحة والمكنية والتشبيهات والاستعارات التمثيلية والمجازات المركبة والتعاريض والتلويحات وغيرها فكل لغة امة مضت انبعثها علومها وبقيت لها آثار تدل على بعض ما تعلم وتسلك الامم المتأخرة سبيلا غير الذي سلكته تلك فتوافقها بعض الموافقة وتباينها فى أمور جديدة وربما زادت عليها فى أمر ونقصت عنها فى آخر وكم من علوم في قديم الزمان لم يبق منها الان على سطح الكرة الارضية خبر ورب علوم حدثت بعد ان لم تكن وكل هذا ليظهر قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) فاما اذا بقيت العلوم بنفسها تماما كان النظام كله واحداً والفكر واحداً واتكل الاخرون على الاولين فى نظاماتهم واعمالهم وهذا هو الهاوية والسقوط والوقوف وجلّ مدبر هذا الكون عن الوقوف على نظام واحد انما هي شؤون تابعة لشوق فى النفوس شاقها باعث خارجي الى مضاهاة من قبلها أو من ساكنها (ان ربكم لرءوف رحيم) ولقد علمت ان بين الامم والكلام مناسبة عجيبة وان احوال الامم أشبه شيء بعلم البلاغة فها هنا بلاغة عملية وفى

القول بلاغة كلامية وهذا هو المشابهة بين العناصر و الحروف والقصد تشويق النفوس الى الارتقاء

فمن هذا علمت أن الامم كلها كنفس واحدة اتصل أولها باخرها وبحث متأخروها عن أحوال متقدميها وانها كلها تشبه الانسان الواحد يأخذ من صغره لكبره ومن دنياه لاخرته ومن حياته لموته ومن صحته لمرضه ومن غناه لفقره كما ورد في الحديث

ولعمرى أن النظرة لهذه التدبيرات يشوق نفوسنا الى الى التطلع الى محاسن الكائنات التى أمامنا فما أجمل العلم وما ألذ الحكمة فاينما تولوا فثم حكم بديعة ان نظرنا الارتباط الامم وفنائها ادهشنا حكمها وان عطفنا على النظر للشخص الواحد هالنا حكمه وعجائبه ثم ننظر فنرى الامة تأخذ فى الترقى من أطراف المعمورة الى من هم في المناطق المعتدلة والغربية منها كاهل اوروبا وكثير من الشرقيين فكأنها أخذت في الترقى من أطراف المعمورة الى الواسط .

والامم درجات بعضها فوق بعض فمنها ذات المدنية الفاضلة وقد تقدم شرحها باحلى بيان اعتقاداً وعملا ولنذكر لك الان الامم النازلة عن الطبقة العليا مدنية واعتقادا فنقول .

﴿ الموضوع التاسع ﴾

(اقسام اهل المدنية الجاهلية واعمالهم)

اعلم أن ترتيب درجات الامم كترتيب درجات الحيوان سواء ولقد ذكرنا ترتيب الحيوان فى كتابنا هذا وأنه درجات بعضها فوق بعض ولنأت بها الان إجمالا لتبتهج بمعرفة انتساقهما في سلسلة واحدة حتى كان العالم كله نظام واحد وتفهم مايرى فى خلق الرحمن من تفاوت ونشرح الامم واحدة بعد الاخرى الى ان نصل الى المدنية الفاضلة فنقول .

انت تعلم ان أدنى الكائنات رتبة العناصر البسيطة فالنبات الذي أخر سلسلة منه وهو النخل متصل بأول سلسلة الحيوان وادناه ماله حاسة واحدة وهو اللمس كالديدان والعلق مما يخلق في الخل وانواع السوائل والنباتات والثلج وبطون الحيوانات الكبيرة فكل هذه حيوانات لو أخبرت بوجود حواس أخرى لانكرت وجودها فلو قيل للصدف في البحار انت عندك حاسة اللمس ولكن هناك حيوانات عندها حاسة وهى الذوق كالديدان التي تسبح على الاعشاب والاشجار لانكرت وجودها وقالت كيف يمكن ان أعلم بحاسة غير هذه وهكذا الحيوانات التي

عندها حاسة الذوق اذا قيل لها ان هناك ما هو أرقى منك لحيوانات في المحال المظلمة تشم ما بعد منها وبعضها قد وجد لها عدو فى محالها فاعطيت حاسة السمع ولم يخلق لها حاسة البصر لعدم لزومها لانكرت ذلك وقالت علم ما بعد عنى محال ولو قيل لجميع ما تقدم ان هنا حيوانا له حاسة تسمى البصر يرى البعيد عنه على ملايين من الفراسخ لانكرت لك الحيوان ووجوده اذ لا تعلم طبقة من الطبقات الا ما علمها الله وتنكر ماوراء ذلك وهكذا يترقى الحيوان من الحواس الخمس الى ان بعضه قد يحمى اولاده كالغربان ويزيد عليه غيره فينفع الانسان بعمله ويقبل منه التأديب بدرجات بعضها فوق بعض كالبهائم واذكاها الخيل ثم يترقى عن ذلك الى ان يقلد الانسان بدرجات بعضها فوق بعض حتى يصل الى درجة القرد والببغاء والفيل فكل هذه تقلد الانسان فى أعماله او تقبل عنه قبولا سريعاً ويلى هذه الانسان. وكما ان كل درجة من درجات الحيوان السابقة اندرجت درجاتها السابقة فيها ولم تدرك ما بعدها فالحيوان الذي له السمع قد اعطى الحواس التي قبله وهكذا ماله البصر قد اعطى السمع وما قبله وهكذا المقلد كالقرد قد اعطى كل مواهب

الحيوان قبله فهكذا الانسان اعطى مواهب الحيوان وكل
درجة من درجاته فى المدنية اعطيت حظ ما قبلها وزادت عليه
وكما ان الخمسة فيها جميع ما قبلها من الواحد والاثنين وهكذا
والسبعة فيها الستة والخمسة والثمانية فيها السبعة وما اندرج فيها
فهكذا كل حيوان فى درجة أخذ موهبة ما تحته وزاد عليها
والانسان أخذ درجات ما قبله من الحيوان وكل درجة من
درجات المدن في كل شكل ارقي فانها اعطيت حظ ماقبلها
وجهلت ما بعدها كدرجات الطفل والشاب الكهل والشيخ
فلو أعطى الطفل البساتين الغناء والتصدر في المجالس لم
يحفل بذلك وهكذا الشاب اذا اعطي بدل الشهوات الذهب
والعلوم والمعارف لم يحفل بها فهكذا درجات الامة كل درجة
اخذت حظ ما قبلها وجهلت حظوظ ما بعدها وكأنها تنطق
بلسان حالها (لا علم لنا الا ما علمتنا)

واذا فهمت هذا فاعلم ان أول درجات المدن الجاهلة قوم
رأوا ان المدار فى الحياة الدنيا على ما به بقاء الاسخاص وهؤلاء
تسمى مدنيتهم (الضرورية) لانهم اقتصروا على الضرورى من
الحياة الدنيا فتراهم من الغداة الى العشى يجدون ليأكلوا فاذا سئلوا

لم تتعبون فيقولون لنأكل فيقال ولم تأكلون فيقولون لنعيش فيقال ولم تعيشون فيعجزون وينقطع جوابهم وهؤلاء المشار اليهم بقوله تعالى ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى ومايهلكنا الا الدهر وترى فى كل أمة اقواما يشبهون هؤلاء فى الفكر.

وقوم آخرون رأوا ان المدار على ما يلذ الانفس من اللذائذ الحسية والشهوانية ومدنيتهم (تسمى الحسية أو الخسة) واليه الاشارة (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون).

وآخرون قالوا ان المدار على اليسار والغنى فاما اللذات فانها تكلفنا مالا طاقة لنا به وتسمى (اليسار) واليه الاشارة بقوله تعالى (وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد) .

وآخرون ارتقوا عمن تقدم فقالوا ليس المدار على المال ولا اللذات والشهوات ولكن المدار على الكرامة فيعظم أحدنا عند اخوانه وعند غيرهم .وتسمى (مدينة الكرامة) واليه الاشارة بقوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فساداً)

وجاء آخرون فقالوا ان المدار في الحياة على جمع هذه الخصال كلها ومدينتهم تسمى (الجماعية) فتنال اللذات والغنى والكرامة

ونعيش متمتعين الى ان نموت وهؤلاء ومن تقدمهم لم يعرفوا عن الاله ولا الرسل شيئاً .

وما اشبه هذه المدن الخمس بسلسلة الحيوانات فى ترتيب الحواس فنها ذات الحاسة وذات الحاستين وذات الثلاثة وهكذا الى الخمس التى جمعت فوائد الجميع وعلمت علمهم

﴿ الموضوع العاشر — آراء اهل المدن الجاهلة ﴾

قد علمت اقسام اهل المدن الجاهلة وكل قسم يكون طوائف واقساما مختلفة متشعبة منتشرة متكاثرة وانهن في درجاتهن اشبه بدرجات الحيوان فالضرورية كالديدان التى خلقت في المائعات واجواف الحيوانات الكبيرة فهى فرق شتى ومدنية الخسة ذات الشهوات كالحيوانات التى اعطيت قوة الذوق واللذة وهى تتشعب شعبا كثيرة وهكذا مدنية اليسار كذوات الشم ومدنية الكرامة كذات السمع اذ به تعرف اخبار العدو فتحترس منه والمدينة الجماعية كذات الحواس الخمس من النمل والحشرات فهى لم ترق بعد الى درجة الحيوانات العليا التى يعلمها الانسان او تقلده . فتأمل كيف تشابهت الدرجات وتناسقت

المراتب بعضها فوق بعض بنسب محفوظة ودرجات متناسقة ملتئمة ثم ان هذه اللذائذ والكرامات والمعايش طلبوها في الحياة بحسب ما غاب على عقولهم فقال قوم .

انا نرى ان هذا الوجود لا نظام فيه ولا ترتيب فالحيوانات يقاتل بعضها بعضا ويغالب بعضها بعضا . يأكل الكبير الصغير والقوى الضعيف فكل طائفة تأكل غيرها وتغالبها بل نرى بعض الحيوان يقتل الآخر لمجرد المشاركة في الجوهر وان لم يكن له حظ في قتله فهذا دليل لنا على ان طبيعة كل موجود حب الانفراد بالوجود والبقاء وان يمحو ما عداه واذن قالوا وجب ان نتبع هذه الخطة فنقاتل اعداءنا من نوع الانسان ونغالبهم ونسبيهم لحظ نفوسنا لا لاصلاحهم ولا لترقيتهم فهؤلاء جعلوا المدار في الحياة ونيلهم اللذائذ الشهوانية على الغلبة والحروب والقهر مقلدين في ذلك طبيعة الحيوان بحسب ما ظهر لهم وقالوا انا كلما قهرنا امة واخذنا قبيلة استعناها على قهر غيرها لنحصل لذاتنا في هذه الحياة الدنيا اذ لا نرى سوى هذا . فهذه طريقة المغالبة . ثم انهم يستعملون مع الغلبة رابطة الجنسية فيستعينون بابناء جنسهم واولاد ابيهم الاكبر على مغالبة من سواهم وتارة

يعتبرون الوطن الذى يسكنونه واشتراكهم في الهواء والغذاء والجو والطقس (وتسمي الوطنية) وتارة يرجعون في الجامعة الى رابطة اللغة المعبرة عن ضمائرهم الموجبة للائتناس والمستلزمة قرب الاتحاد فى الاخلاق والشيم والعوائد وهى وحدة اللغة وتارة بالمصاهرة كما تصنع الملوك الذين يتحابون في هذه الازمنة فيتزوجون بنات بعضهم وهذه تسمى (وحدة المصاهرة) وتارة بالمعاهدة والمحالفة مع غيرهم وهى (وحدة التناصر) وتارة يتناصرون بكونهم كانوا تبع ملك جمعهم على عدوهم فتلك الجامعة يستعملونها بعد ذلك فيما يحبون فالوحدات التى تستعملها المدن الجاهلة سبعة وهى الاستعباد والنسب والمصاهرة والوطن واللغة والمحالفة والتناصر واتباع جامع لهم على الوحدة

ثم هناك امور خاصة بطوائف واناس ليست عامة الامم وذلك كالاشتراك فى الذلة والقهر والصناعة كالنجارين والحدادين وعملة الفحم فكل هؤلاء لهم جمعيات لها عمل عظيم وهكذا الاشتراك فى لذة او جناية كالزناة والسارقين وكالاجتماع فى محلات التلاقي فى سفر وكالوجود فى امكنة لا امان فيها. فاسباب الائتلاف بين اهل المدن الجاهلة اثنا عشر منها سبعة عامة وخمسة

خاصة . فها انت علمت اقسامهم الخمسة وآراءهم واجتماعهم

﴿ الموضوع الحادى عشر فى انماء الثروة ﴾

فاذا حصلوا الغنى والثروة والمال اخذوا ينمونه بطرق شتى فنهم من ينميه بطريق المغالبة لا غير ومنهم من ينميه بطريق المبايعة وانواع المبادلات وبعضهم يجعل المغالبة على الذكور والتجارة على النساء وآخرون يجعلون ضعفاءهم من الفريقين للمبادلات واقوياءهم للمغالبة وقوم قالوا المبادلة مع بعضنا والمغالبة لغيرنا وآخرون قالوا نغالب الضعفاء ونبادل الاقوياء وهكذا بجميع الصور الممكنة وجدت فيهم فى غابر الازمان .

﴿ الموضوع الثانى عشر فى الخشوع ﴾

وقالوا ان الخشوع شيء لا معنى له فانا نرى ان اناساً جاءوا مدعين ان عندهم قوة الهية مع انه لا فرق بيننا وبينهم وهؤلاء لما عجزوا عن المغالبة واخذ اللذات بالقوة رجعوا الى الحيلة وكما ان اصطياد الحيوان اما ان يكون بالغلبة والقهر او الحيلة بالالات فهكذا هؤلاء الخاشعون يظهرون ان عندهم قوة قدسية وامراً عجيباً فيظن الناس فيهم الخير ويعطونهم الاموال لجهلهم وتغطية

أولئك على عقولهم وهم مغرورون في ذلك مخدعون جاهلون.

ثم ان هؤلاء الخاشعين ان زهدوا فى هذه اللذات التى فى ايديهم فهم مغرورون جاهلون والى متى يتركون اللذات وهم لاحظ لهم الا فى هذه الحياة (ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا الا الدهر) ثم تراهم يقولون انهم مغرورون بمدح المادحين لهم واطرائهم عليهم وماعلموا ان قوما يمدحونهم للطمع فيمافى ايديهم فيزهدون فى الاموال ويعطونها لمن حولهم فكلما ازدادوا مدحاً لهم ازدادوا زهداً واعطاء وتفضيا عن اللذات والشهوات وان آخرين يمدحونهم خوفاًمنهم وآخرين يغرونهم استهزء اوسخرية وآخرين يمدحونهم مغرورين كغرورهم ظانين ان هناك لذائذ احسن من هذه فتركوا الادنى للاعلى

وبناء عليه فلا معنى للخشوع الا الاحتيال والدهاء والمكر والخداع والنفاق . وكل العالم يسعى للذائذ المتقدمة ويحتالون اما بالغلبة بالقوة او الغلبة بالحيلة فغلبة القوة بجميع الطرق والوحدات السابقة والحيلة هى بالخشوع واعتقاد قوة قاهرة ودار بعد هذه يكون فيها النعيم

﴿ الموضوع الثالث عشر ﴾

(اعتقادهم فى العدل)

واما العـدل فانه امر فرى لا معنى له اذ الحيوان كله والانسان لايسعى احد الا لحياته وحفظ نفسه واما ماعداه فانه يسعى لاستخدامه لمصالح نفسه وبقائه في الحياة الدنيا. الا ترى النبات كيف تسعى عروقه لاجتذاب المواد الغذائية من الارض وكل حيوان من الجوارح والوحوش والسباع تقتنص الحيوان الضعيف لحظ انفسها وشهواتها فاين العدل . وهكذا الانسان كل من قدر على غيره من بنى جنسه اهلكه واذله واخذ مافي يده وربما قتله واعدمه لمجرد مشاركته له فى الحياة حسداً واستئثارا بالحياة والبقاء . واما العدل فانما هو امر اضطرارى جاء لضرورة التوازن فى الحياة بين العشائر والقبائل والبطون فكل قبيلتين تساوت قوتهما اضطرتا الى المجاملة فى المعاملة والتبادل بالقسطاس المستقيم وتعاهدتا على المعاملة بالحسنى فاذا ضعفت احداهما نقضت العهود والمواثيق ووجب قهرهم واذلالهم واخذ ما فى يدهم جبراً وهذا بعينه ما تفعله دول اوروبا الآن مع الشرقيين كدولتى تركيا والصين بخلاف معاملة بعضهم لبعض فهى خلاف

ذلك فاذا دامت امتان على تلك الحال مـدة جاء من بعدهم فظنوا هذا امراً طبيعيا فتعاملوا كما كان الذين من قبلهم وهذا لاجرم جهل بالسبب الاصلي في ذلك وطبيعة العمران . فربما قويت امة فالواجب عليها ان تأخذهم بالغلبة اذ الانسان لا يلزمه ان يعامل اهله ولا اهل بلده بالحسنى الالاضطراره لهم ولولا الاضطرار لوجب الانفراد بالبقاء، فما بالك بمن هم ابعد عنه جنساً ووطناً ولغة وجامعة وتناصراً وتعاهداً فهم الاولى بالغلبة والاخذ بالقهر والقوة والخداع والختل ثم القتل والاهلاك او الابادة من الوجود فملخص ارائهم فى العدل انه قهر او لا غرور آخراً

﴿ الموضوع الرابع عشر ﴾

(المدن ذات الروح او الجسد والروح)

(ثم الضالة والفاسقة)

هذه هى احسن آراء فلاسفة المدن الجاهلة الذين هم اشبه بالهوام فى الارض والحشرات الصغيرة التى لم ترتق الى فهم الانسان ومعرفة طباعه ولم تعلم كيف تتعلم منه ولم تدر ما

مقداره فلم تصل لدرجة الحيوانات التى تبيض فانها تفهم وتعلم الانسان واوامره لها فضلا عن الحيوانات التى تقلده كالقرد

وبالجملة فالحيوان ثلاثة اقسام قسم له الحواس الخمس او بعضها ولم يفقه عن الانسان شيئاً قط وهذه هي الهوام والحشرات ونظيرها فى الانسان المدن التى ذكرنا اقسامها وآراءها واعمالها

القسم الثانى الحيوانات التى تفهم عن الانسان وتقبل بعض تعليمه وتخضع لاشاراته وهى ذوات البيض وكثير من الحيوانات التى تلد كالجواميس والحمير وغيرها

القسم الثالث حيوانات تقلد الانسان في اعماله ونظيرها فى الانسان المدينة الفاضلة فانها قلدت الخالق فى ملكه وفى صنعه فى جسم الانسان وهى المترشحة للترقى الى عالم ارقى من عالمنا هذا

واذا تم الكلام على القسمين الاول والاخير فلنذكر القسم الثانى فنقول : قد ترقى عن الطبقة السابقة وهم اصحاب اللذائذ المذكورة قوم فنظروا في الكون وقالوا .

ان العدل بين الناس والمسالمة هما الامر الطبيعى فاما المغالبة والمضاربة فهما خارجان عن سنن الطبيعة الا ترى ان الامة اذا

اعتدت على الاخرى التزمت الاخرى بالمدافعة قهراً ولو تركوا وشأنهم لما حاربوا ولا قاوموا فالقتال والضرب فى نوع الانسان امر غير طبيعى والمسالمة هى الطبيعية قالوا ان الواجب بين نوع الانسان هى المسالمة اما الحيوانات الاخرى فتؤخذ قسرا عنها لانتفاع الانسان وهكذا كل نوع من انواع الحيوان لا يأكل ابناء جنسه ويقاتل ماعداه والحيوان يأكل النبات الذى هو نوع اخر وهذه هى طبيعة الكون هذا سيرهم فى الحياة الدنيا فمسالمتهم طبيعية ومقاتلتهم انما هي لامر خارجى ، اما اعتقادهم في الله واليوم الاخر فهم على فرق شتى وامم مختلفة واراء متفاوتة

وترجع احوالهم الي ستة وتحت كل واحد شعوب وقبائل ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين

الفرقة الاولى قالوا ان الانسان خلق فى الدنيا وهي دار باطلة ووهم زائل وما الحياة الحقيقية الا الحياة التى بعد هذه فانه يستحيل عقلا ان تكون نهاية هذا العالم ما نراه من هذه الدار التى كثرت شرورها وامتلأت بالمفاسد كل لذاتها آلام ومصائب وجل مدبر هذا الكون ان تكون هذه الدار هى

الحقيقية بل هى دار يجب الخروج منهـا بالموت وهؤلاء هم المنتحرون بانفسهم ومنهم كثير باوروبا ، والفرقة الثانية قالوا ان هذه الحياة حقيقية ودار حق ولكنها تشوشت بما عاق النفوس عن الكمال وما بنوا آدم فيها الا كسفن تمخر البحار فأتتها الرياح من كل فج عميق واحاطت بها الامواج من كل جانب واتت لها كواسر البحر من الاسماك الكبار والتماسيح فاصبحت تتهددها عاديات الاسماك وامواج البحر وقواصف الرياح فلم يتم ماقصد بها ولم ينل منها الوطر فهكذا الانسان إنتابته حوادث الدهر وقواطع الشهوات واهوال الحياة ومفزعات الخطر المحـدق والغموم والهـموم حتي جاء امر الله وغركم بالله الغرور فهذه الحياة لا ثمرة فيها ويجب التخلص منها

الفرقة الثالثة قالوا ان الانسان هو الروح وبها حياته وما الجسم الا عارض عاقها عن الاعمال لما شاهدوا ان المتجردين بالرياضيات يصلون الى نعيم لا يحس به سـواهم كما هو مذكور عن مدينتين ببلاد الهند غزاهما الاسكندر كما ذكر الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل وهو امر مستفيض شائع فوجب التخلص من هذا الجسم فترجع الروح الى عالمها وتخلص من آلامها

الفرقة الرابعة قالوا ان الانسان فى هذه الدنيا حق وهو مركب من الجسم والروح معا ولا يصح اهلاكه اذ لا تكمل الا بالجسم وانما العائق له عن الكمال الشهوات المحرقات وآلامها الموبقة وغوائلها العائقه عن العلوم والمعارف والحكمة فوجب اذاً قطع الشهوة والغضب اما الموت الحقيق فخالف لحكمة وجود الجسم اذ به كمال النفس وترقيتها الى العالم الاعلى وليس يعوقها عن الكمال الا شهوتا الفرج والبطن فاذن يجب قطع دابرها بالصبر عنهما والاستعاضة عنهما باللذات الروحانية كما هو شائع مستفيض عن قدماء اليونان وعلماء الهند من البوذيين والبراهمة وخلفاء فيثاغورث وعلى هذه السنة كثير من المتصوفين الذين ساروا على طريقة هؤلاء ويظنون انها طرق الاسلام

الفرقة الخامسة يرون ان الحياة حق وان الانسان مركب من امرين متضادين وهما الروح والجسم كما قال الذين من قبلهم ولا بد من ازالة هذا التضاد باذهاب الرعونات من الجسم والنفس مع بقاء الشهوتين في البدن وهؤلاء ومن قبلهم يقولون ان فى العالم المبين اله الخير واله الشر فللاول الروح وللثانى الجسم فوجب مغالبة الثاني لئلا يغلب الاول وذلك يكون باضعاف

شهواته اما بالاماتة كما في القول الاول او باذهاب النواتج عنها كما في القول الثانى واصحاب القولين اتفقوا على هذه الجملة « مت بالاراده تحي بالطبيعه » يعنون امت الشهوة والغضب يحي عقلك ومعارفك واسندوا هذا التضاد لفاعلين كما ذكرناه انفا وبعضهم ارجعه الى تضاد المصنوع نفسه وطبيعته لا الفاعلين وهذا هو الشائع على السنة المتصوفة اليوم مع قطع النظر عما ترتب عليه وهو وجود فاعلين

الفرقة السادسة انه لا حقيقه فى الكون البتة وكل ما شاهدناه يجوز غيره فانسان اليوم قد يمكن ان يظهر بشكل اخر فلا يمكن تحديد الانواع والاجناس وهناك ينتفى كل مايسمونه محالا فلا يمكن انكار شيء اذ يجوز ان هذا المنكر سيكون في وقت ما فهذه ستة اقوال اصول كلها مقدمات لنظام الامة الذى قدمناه في اراء اهل المدينة الفاضلة وانه يجب ان يكونوا كنفس واحدة ذات اعضاء متفاوتة وبهذا يدخلون دار السلام كما قدمناه

ويلحق بالمدن المنحرفة باقسامها الستة امتان المدينة الفاسقه والمدينة الضالة فاما الفاسقة فهم الذين قال الله فيهم «ولا تكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم

وكثير منهم فاسقون » وهؤلاء هم الذين طال عليهم امد النبوة ولم يظهر فيهم عقلاء وحكماء ففسق القوم فيها فحق عليها العقاب فدمرناها تدميرا فاول علماؤهم وحرف وعاظهم واحلوا وحرموا بالتفريع والجدال وكلما عرفوا شيئا ظنوا أنه اصل يبنون عليه وتركوا أصل الدين فعتوا عن امر ربهم

واما الضالة فهى التى ارسل لها رجل اوهم انه يوحى اليه كالمهدى السودانى فقد غير وبدل واحل وحرم بادعاء ان الخضر يعلمه فهذه هى الضالة وهى وماقبلها ملحقتان بالمنحرفة فتلخص من هذا كله ان الامم ثلاث طبقات كطبقات الحيوانات بعضها فوق بعض

طبقة جاهلة وهى خمسة اقسام ولهم اراء وافهام تناسب معلوماتهم وهم فى مقابلة الحيوانات ذوات الحاسة الواحدة والحاستين وهكذا الى الخمس الحواس من طبقة الهوام وبعض الحشرات اللاتى ليس لهن معرفة الا بالمعايش فاما تدبير البيض واطعام الافراخ والحمل وارضاع الاولاد فليس لهن فيها من سبيل وهؤلاء هم المغضوب عليهم

وطبقة منحرفة وهي وملحقاتها ٨ اقسام نظير الحيوانات

التي تبيض وتحضن افراخها وتلد وترضع وتفهم عن الانسان بعض ما يلقى اليها من الاوامر بالاصوات الساذجة وهؤلاء هم الضالون لانهم عرفوا شيئا من امر الخالق والاخرة والانسان ولكنهم تحيروا واضطربوا اضطرابا شديدا

الطبقة الثالثة هم المنعم عليهم وهم اهل المدنية الفاضلة وهم كالطبقة العليا من الحيوانات التي تقلد الانسان فى اعماله فمنها ما حسن صوته ومنها ما حسن لونه كالطاووس ومنها ما ينطق مقلدا له كالببغاء ومنها مايفهم عنه بذكائه كالفيل ومنها ماله ادب حسن وذوق لطيف كالخيل اذ كثيرا ماتنجي صاحبها من عدوه بالعدو والفرار وتقيه من الاخطار ولا تهز ذنبها اذا اصابها رشاش بولها لئلا يصيبه فينجسه وربما تحزن عليه اذا مات فتموت كما وقع كثيرا او تمرض لمرضه كل هذا مجرب مشاهد ومنها ما يقلده فى حركاته وسكناته وهو القرد فكل هذه الحيوانات طبقة عليا وقد اعطيت حظ جميع ما تحتها وارتقت عليها بتقليد ما هو اعلى وهو الانسان فهكذا اهل المدنية الفاضلة نالوا الحظوظ التي وقفت عليها الامم التى انحطت عنهم ولكنهم لاحظوا التوسط والاعتدال وارتقوا بها الى تقليد نظام مدبر الكون فى

اعمالهم واقوالهم فقلدوه فى نظام مـدنيتهم وجعلوها على هيئة الجسم الانسانى أو هيئة العالم الالهى كما قلدت تلك الحيوانات الراقية الانسان في حركاته وسكناته وصوته وجماله وان كانت نسبة تلك الحيوانات الى الانسان اقـرب من نسبة الانسان المرتقي الى مدبر الكون

اذا فهمت هذه المراتب الثلاث فهمت اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضـالين

﴿ الباب التاسع ﴾

(امة الاسلام ونظامها وما يجب على اهلها ان يتخدوه)

في هـذه الايام

ذكرنا نظام الامم الضالة والفاسقة والجاهله والمدن الفاضله بوجه عام مع ارائهم واخلاقهم ونظامهم وقارنا بينها وبين هذا الكون العظيم فلنشرع الآن فى الـكلام على الامة الاسلامية بوجه خاص في هذه الازمان الاخيره اذ هي التي تهمنا فقد وجب على من اوتى علما ان ينشره بين هذه الامة التي اصبحت ولا نصير لها من العالم اجمع فان لم يقم عقلاؤها وينشروا أفكارهم

بين الملاء فهم المسئولون وحدهم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتي الله بقلب سليم من الكتمان وكل ما يشين بالانسانية ولنطبق احوالها على نواميس الشريعة الاسلامية ونظام الكون ونلخص الكلام تلخيصا ونبدأ

بالعادة والاختيار والعمل والتوكل

ونتبعه بتوزيع الاعمال على الافراد وما حكم الشريعة فيها وذكر فروض الكفاية

ثم نذكر انواع العلوم والصنائع التي يجب على الامة تعلمها في هذه الازمان

ثم نذكر طرق التعليم وما يجب على العلماء ان يسلكوه فيه في هذه الازمان

ثم نذكر حكمة النسخ في الايات والاحاديث وما مناسبته لهذه الاحوال التي نحن عليها وما حكمتها بالنسبة لنا الان وما يجب على المسلمين أن يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم واحوالهم

ثم نذكر وجوب استعمال العقول وترك الفضول مع انتهاج خطة الشرع

ثم ما الواجب على جميل الاسلام وامرائه من التعاون والمحبة

ثم نذكر السياسة في أوروبا واستطلاع علومها

ثم قصص القرآن والروايات وتاريخها وما ثمراتها فى الامة وما الواجب علينا وكيف كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيها وما الغرض منها وما الذى طرأ عليها في الاسلام حتى شوه وجهها

ثم نذكر علو همة أفراد الامة وتشويقهم وما خطة القرأن فى ذلك وما تنتهج الامم لعلو شأنها مما اغفله المسلمون

ثم نتبعه بذكر كيفية التوصل بالقرأن الى هذه الطريقة وفهمه وما يجب على طوائف الامة من كل صنف من معرفة ايات مخصوصة

ثم نتبعه بما اقتصر عليه المسلمون الان من علوم الفقه وهكذا وان هذا من اهم اسباب الانحطاط

ثم نذكر حكمة التكليف بالايمان بما غاب عنا مما ليس بجرم وتوحيد العلوم وان الوحدة بها نظام كل شيء ووجوب مطابقة وحدة المسلمين لهذا النظام

الخاتمة في ذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا واستطلاع ما في البلدان الشرقية والغربية وتقديم هذا الكتاب لعقلاء الاسلام قاطبة وهكذا من فوائد اخرى

﴿ السعادة والاختيار والعمل والتوكل ﴾

للانسان ثلاث قوى شهوة وغضب وعقل ورسلها الى العالم الخارجى الحواس الخمس وخزائنها قوة الدماغ الخمس وله مع كل قوة من هذه الثلاث ميل الى مايلائم ونفور عما لا يلائم فالميل الى الملائم والنفور عنه فى الغضب والشهوة نسميه اراده وفى العقل نسميه اختيارا وهو الذى عليه مدار السعادة الانسانية اذ به يمكن التسلط على الشهوتين الاخريين باضعاف ارادتهما ومحو خروجهما عن سنن الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط ويكون بهذا الاختيار السعادة ويكون به الشقاء فاية أمة كان اختيار عقلائها أميل الى الكمال وأحرص على السعادة كانت هى سعيدة وبضدها تتميز الاشياء

والسعادة يدور امرها على كمال النفوس الانسانية اشخاصا واما فسعادة الشخص تكون بكمال العقل وصحة البدن والجاه وتوفر الاموال اذ الموجودات التي نشاهدها لاتخرج عن هذه اذ الكائنات اما ارواحنا أو أجسامنا أو خارجة عنا والخارج اما انسان وإما غيره ونعبر عنه بالاموال وترتيبها في الشرف على حسب قربها وبعدها من العقل فالأموال ادناها وأرقى منها

الجاه ويليه الصحة التي بها يتزن العقل والعقل وعلومه هو نهاية السعادة فكل ما عداه مقدمة له ولا يكمل الا بمعرفة جميع انواع العلوم العقلية والنقلية التي يجمعها ثلاثة اقسام وهى اماان تحتاج الى المادة فى الخارج والذهن وهى العلوم الطبيعية واما ان تحتاج اليها في الخارج دون الذهن وهى الرياضية واما ان لاتحتاج لها فيهما وهى الالهيات وثلاثة عملية وهى علم الاخلاق وعلم سياسة المنزل وعلم سياسة المدينة وهذه الثلاثة تكفلت بها الشريعة المطهرة وارشدت الى الثلاثة قبلها صريحا تارة ورمزا اخرى فهذه هى طرق السعادة ولا تمكن الا بالاختيار الناشىء عن الشوق المسند الى العقل واى أمة كان اختيار افرادها يغلب عليه السعادة كانت سعيدة دايما امة تقاعس افرادها عن اكتساب السعادة انحطت الى دركات الهون

واعلم ان روح السعادة اذا سرت في الامـة أثرت على افرادها تأثيرا حسنا واذا تقلصت تلك الروح خمدت نيران اشواق افرادهم ومعاشرة الانسان لقوم هى اس سعادته واس شقائه ومبدأ جنته وناره فالوسط يؤثر تأثيراً بيناولما كانت الروح الطف من النار بل أكثر سريانا من الكهرباء كان تأثير المعاشرة

على الاخلاق اشد من تأثير النار فيما جاورها أو الكهرباء في المعادن وهذا هو السر في مشروعية الهجرة من بلد الكفر والجهل وهذا مبدأ ارتحال العلماء من بلد لبلد واسفارهم الى الديار القاصية لعلمهم ان الاخرة ليست شيئا سوى ثمرة هذه الحياة ومتى كانت الحياة الدنيا مع من لا يعرفون طريق السعادة قلدهم الانسان بالمعاشرة وكانت سعادته الاخرويه على حسب الدينوية اذ اكثر الناس يفهمون ان المقدمة للسعادة سعادة فالمال والاهل والاصحاب والزوجة والاولاد والوظائف والرتب وعلو الجاه هى نهاية السعادة عند الكثيرين ولكنها عند الخاصة من العلماء مقدمات للسعادة لا انفسها فكانهم يجعلونها سلما الى رقي عقولهم الباقية بعد موتهم اذ هم يفهمون من قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد ومن غيرها من ايات ذم الدنيا والاحاديث وكلام العلماء والزهاد ان هذه يقصد بها انها ليست مقصدا قط للعلماء ومن جعلها مقصده فهو من الانعام بل هو اضل وانما تكون وسيلة وعلى ذلك يحمل كل مدح للدنيا وجميع افعال رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الناموس من هذا القبيل فكانت

اخروية بالقصد وان كانت دينوية بالعمل مثل اتخاذ الازواج والمآكل والمشارب وغير ذلك

وبالجملة تكون تلك الاموال منصرفة الى المنفعة العامة دون الخاصة وهذا هو مقصود الشرائع السماوية باكلها حتى تستعد الامة باغنيائها وعلمائها ويتعاونوا على البر والتقوى

(الموضوع الخامس عشر العمل والتوكل)

علمت من هذا ان الشرع لم يأت قط بترك الاعمال وانما جاء بالحث عليها اذ هي رقى المدنية والتوكل عمادها فليس التوكل مافهم قوم من العامة من انها ترك الاشياء للمصادفة تجرى على غير نظام ولا سنن معهود وترك الاشياء ناقصة بلا ترو ولا اكمال عمل كلا ولنشرح التوكل باوجز ما يمكن مع استيفاء البيان ولنقدم مقدمة فنقول

قضى الشرع وحكم العقل ان مدبر الكون لا يكلف نفسا الا وسعها ولذلك ترى جميع هذه الكائنات تجرى على هذه القاعدة فكل من اوتى فهما وتميزا وعقلا واعضاء فبقدر ما اعطى يكلف العمل وهاك البيان

ترى الطفل فى بطن امه لا ارادة له ولا اختيار ولا قوة يبطش بها فتأمل كيف لم يكلف في بقاء حياته ان يأكل بفمه ولا يتناول شيئا بيده ولا يدبر لنفسه تدبيرا ولا يستنشق الهواء حتى يحيي فى بطن امه وانما اتاه عرق فيه دم يجرى متصل بالسرة يتفرع الى جميع اجزاء جسمه من دم الحيض ولذلك ينقطع ايام الحمل فاذا خرج من بطن امه فتأمل كيف كلف بالهام من مدبر الكون ان يفتح فمه ويمسك بيديه ثدى امه ويستنشق الهواء بانفـه وفمه وسهل له ارتضاع اللبن في ثدى المرأة ولم يكلفه ذلك ولا ان يسعى اذ لا طاقة له فاذا فطم اخذ يسعي على رجليه وكلف مضغ الطعام بالاسنان والقواطع التى تحدث له ويكلف بالالهام العمل بمقدار ما اعطى ويتناول الطعام بيده ولا يزال تتزايد قواه العقلية والبدنية ويزيد تكليفه بالاعمـال كالصنائع وتعلمها والدروس وفهمها الى ان يصير رجلا يلزم بتدبير منزل او امة باسرها هذه هى سنة الكون ونواميسه « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » فتأمل كيف طابق الكلام هذا النظام اذا فهمت هذا فلنبين معنى التوكل فنقول

المتوكل فيه اما امر مقطوع به واما امر مظنون واما

موهوم فالامور المقطوع بها والقريبة منها كاستنشاق الهواء وادخاله الرئتين لاصلاح الدم وتناول الطعام باليد وادخاله الفم واستعمال الملابس لوقاية الحر والبرد والمساكن فكل يقطع العقلاء بنتائجها عند الاستعمال وبضررها عند الترك والمظنون نفعها جميع الاعمال التى لها نتائج عند غالب الناس وقليلا قد لاتثمر وذلك جميع الامور التى تقوم بها الممالك من الزراعة والتجارة والصناعة والامارة وينتج عنها صيانة الممالك بالسياسات وبناء القلاع واصلاح الجيوش وعمل الاسلحة وكل مابه نظام الامم والممالك واصلاح الاشخاص وشؤونهم فى داخل الممالك وخارجها بالطرق المألوفة المعهودة عند الناس فهاذان القسمان وهما المقطوع به والمظنون يكون التوكل فيهما راجعا لصرف القلب الى مدبر الكون في انتاج الثمرات وبقاء تلك الادوات وان تكون الاعضاء صحيحة اذ هو الذى يقدر على ابقاء تلك الاعضاء وانتاج تلك الثمرات فلا يعلم ما ينتج من تلك الاعمال الا هو ولا يحفظ الاعضاء الا هو فيكون المقصود من التوكل اذن انما هو القوة على العمل مع استيفاء شرائطه العقلية وادواته العملية واخلاصه ظاهرا وباطنا فتكون الاعمال جارية على النواميس المعهودة

والعقول ملتجئة الى مدبر الكون هذا هو المقصود من التوكل وكم ورد فى القرآن من مدحه لانه اقوى نصير على العمل قال تعالى فى قوم موسى « وقال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » فتأمل كيف جعلوا التوكل معينا على العمل وتقوية العزيمة لا كما يزعمه كثير من الجهلة انه ترك الامور الى المصادفة

فكلف الانسان بالعمل العقلى تدبيرا والجسمانى مباشرة على مقدار ما اوتى كما هو مقتضى نواميس الكون كما علمت فى مثال الجنين والطفل والشاب وهذا هو المقصود المطابق لما ورد مع الدخول للامور من ابوابها أما القسم الثالث فهو الطرق التى لا توصل الى المقصود فى غالب الاوقات وانما يكون توصيلها على حسب الاتفاق والمصادفة لانها من غير الطرق المعهودة المألوفة وذلك كل ما ليس سببا للنفع مثل الرقى والتطير والتشاؤم وأخذ الامور من الفأل والاستشفاء بالعزائم وامور الدجالين وكتابة التمائم وجعل اخر الطب الكي والقصد ان كل امر لم يكن سببا طبيعيا للامور فانه خارج عن التوكل ومن سار فيه فقد

فقد النفع الدينوى وخرج عن اسم التوكل فلم ينل دنيا ولا دينا

وليس لهذا المعنى اجمع ولا اخصر من قوله صلى الله عليه وسلم « سبعون الفا من امتى يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فجعل الرقية والطيرة والكي من الخروج عن التوكل ومعلوم انها أمور نفعها قليل ليست من الامور الاعتيادية اما الطب فهو الفن الذى يثمر فى كثير من الاوقات النفع فهو من باب التوكل كجميع الصنائع والعلوم وأما الكى فقد كان العرب يكوون المريض اذا يئسوا من شفائه ولا جرم انه ينفع في أمراض قليلة وهى التي يوافقها انضاج محل الالم وفي الاكثر يضر كما هو الشأن في كل دواء يستعمل بدون علم فقد يوافق قليلا والاكثر عدم الموافقة اذ وضع دواء واحد لجميع الامراض جهل محض وكل شيء عنده بمقدار

المتكل على شيء من هذه الاشياء ممقوت فى الدنيا منحوس الحظ لخروجه عن التوكل ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما معناه (من اتكل على شيء من هذه وكله الله اليه)

ترى العلماء يحرمون تولية القضاء على من طلبه بلسانه

او قلبه وادخلوا هذا مع هؤلاء الدجالين من علماء السحر والطلاسم ويلحق بهم محضروا الارواح وكاتبوا التمائم اذ هؤلاء جعل الله اعمالهم موقوفة على ما اتكلوا عليه فكأنهم قيدوا انفسهم فى ذل العبودية لتلك الاشياء

المتوكل من يأتي البيوت من ابوابها ومن هذا تفهم قول كثير (خذ من عبد الله وتوكل علي الله) ثم تأمل كيف ظهر مما قررناه ان التوكل في الاسلامية ضد مايفهمه الناس فيه فمعنى التوكل اذن هو اعتماد القلب على الله في سلامة الحواس والآلات وتمام الاعمال مع استيفاء ما يقتضيه العقل والطرق المعتادة المألوفة قال تعالى «وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين فانظر كيف قدم المشاورة مع اصحابه ثم العزم على الامر ثم التوكل

من هنا نفهم ان الاتكال على الاخبار بالغيب من القوم المجهولى الاحوال أو الاحلام ليس من التوكل فى شيء والا فان رسول الله صلى الله علية وسلم اعلم الناس واقربهم الى علم الغيب فكيف أمر بالمشاورة مع اصحابه ثم العزم بعد ذلك

نم ان الاخبار بالغيب يقع كرامة لبعض اصفيائه وهذا

لاينكره العقلاء وهكذا الرؤيا الصادقة كما هو معهود معلوم مستفيض ولكن الرؤيا تحتمل التأويل ومثلها كلام الصلحاء على ان الرؤيا الصادقة تتبعها الكاذبة فتختلط بها وهذا الكشف الصادق يختلط به الكاذب وهكذا الصادق من الناس مختلط بالكاذب واكثر الموسومين بذلك برءآء من الدين واما الذين امنوا وعملوا الصالحات فقليل ماهم

المعول عليه فى جميع الامور انما هى الاراء الصادقة والعقول وترك الانخداع للزخارف والاوهام

كثير من امراء الاسلام ينخدعون باقوال قوم جاؤا دسيسة من بلاد اخرى وافتروا اثما وكذبا على الله فيكون هؤلاء سبب سقوط الامة كما حصل فى الجزائر ايام الشيخ عبد القادر اذ ارسل الفرنساويون رجلا سرا فقرأ علوم الاسلام وادعى الصلاح واتبعه اكابرهم وانتهى الامر الى انه أخبرهم أخيرا بان الفرنسويين سيدخلون فى هذا العام هذه البلد وكان أمر الله قدرا مقدورا فانحلت عرى قواهم وهبطت هممهم فدخل الفرنسيس وسلم لهم العسكر ولبس ذلك الشيخ الفرنساوى حقيقة المسلم ظاهرا برنيطة ورجع الى بلاده وليست المسألة

خاصة بهذا بل وقائعها كثيرا جدا أدت الى زوال دول وقتل ملوك وما نشأ هذا كله الا من فهم الشريعة على خلاف وجهها وعلى هذا فلتحمل جميع ايات التوكل

من اكبر اسباب اهمال الاعمال ما كثر وشاع من قراءة القرأن لمجرد مجيء الرزق وتكرار السورة مرة او مرارا على ما يفعله اهل العزائم لقصد جلب الرزق ولعمرى ان هذا من اشد الضربات على امتنا وذلك ان القرأن مبدأ العلوم ومنشأ الحكم وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون منه الاحكام بمجرد قراءته ثم دونت المذاهب الاربعة فى القرن الثاني من الهجرة واشتغل اغلب الناس بالفروع المتفرعة من تلك المذاهب فقام طائفة من الصالحين اخذتهم الحمية على القرأن ووضعوا احاديث في فضائل السور ليصرفوا الناس عن الخلاف فى المذاهب الى القرأن وحفظه فذكروا له فضائل ذكره الشيخ السيوطى فى كتاب الاتقان في علوم القرأن وحكي ان رجلا وجد احاديث كثيرة رواها احد الرواة عن عكرمة عن ابن عباس فساله قائلا ان اصحاب عكرمة لم ينقل احد منهم شيئا عنه في فضائل السور مما تذكره انت فقال وضعته لينصرف الناس

عن فقه ابي حنيفة الى القرأن وهكذا حكي عن احد الصوفية في ذلك الزمان مثل ذلك فهؤلاء قصدوا خيرا فجاء شرا فان الناس انصرفوا الى القرأن لمجرد التلاوة بلا فهم اذا كثر الاحاديث جاءت للترغيب فى ثواب عاجل او آجل على مجرد التلاوة ولم يرجع فيها للمعنى واتفق الحفاظ على ان اغلب تلك الاحاديث موضوعة او ضعيفة ولذلك اصبح القرأن يقصد للفظه دون معناه مما جعل الاسلام لفظا بدون معنى الا عند الخاصة وقليل ما هم واصبح كثير من القراء يتكلون على مجرد التلاوة وهذا مخالف للمعقول ولما فى شريعتنا من وجوب السير على موجب النواميس الكونية في الاعمال والجرى على مقتضى الطريق المستقيم في كل شيء وعلى هذا فهذه كلها اعمال تخالف شرعنا وهذا القرأن يجب ان يصرف الناس اليه بالتعقل والفهم ومعرفة ما فيه من الحكم والعلوم

هؤلاء الكاذبون الوضاعون قد افسدوا في الدين ولم يصلحوا فهم وان كان وضعهم لقصد شريف ليسوا بادرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وضع الناموس والعلوم فيحق ان يقال لهم (نعم السير على بئس العير) واؤلئك هم وقود النار

كما قال صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار

(توزيع الاعمال على الافراد وما حكم الشرع في فروض الكفايات)

قدمنا ان الامة كالجسم الواحد وكما ان فى الجسم رأسا فيها المخ ومركز الاعصاب السارية في الجسم وفيها ايضا الكبد لطبخ الدم والقلب لتوزيعه والطحال والكليتان والامعاء والمعدة فكل هذه كخزائن فيها جواهر تخزنها اولا الى وقت معلوم ثم ترسلها فى البدن تأخذ مجراها القانونى فهكذا للامة ملوك وامراء وعقلاء وهؤلاء منهم الرأس ومنهم الكبد ومنهم القلب فوجب عليهم جميعا ان يوزعوا الاعمال على الامة لكل مايليق له وذلك ان الله عز وجل ما خلق الخلق وتركهم سدى فلما جعلهم محتاجين لبعضهم جعل لكل طائفة استعدادا لامور خاصة بهم وشاهدنا على ذلك مانرى من ميل كل انسان لحرفة مخصوصة او علم على حدته او غير ذلك مما هو مشاهد معروف

ثم اعلم ان فرض العلم قسمان عينى وكفائى فالعينى من الفقه ما اشتهر بين المسلمين معرفته من العامة والخاصة مما نص عليه القرأن والكفائى منه مالاينص عليه فيه ولم يذكر الا

فى الفروع او بعض الاحاديث وهذا هو الواجب على سبيل الكفاية لا على العامة ولا على جميع الخاصة بل بعضهم الذين تقوم بهم الكفاية وهناك علوم واعمال لايجب تعلمها الا على بعض الامة كعلم الطب والزراعة والطبيعة والفلك والسياسة وكالجهاد ورد السلام وصلاة الجنازة وبهذا تعلم مايقوله كثير من علماء الفروع ان علم الفقه فرض عين على الناس الى حد اجتهاد الفتوى او اجتهاد المذهب او نحو ذلك مما تنزه عنه شريعتنا المطهرة فانصرفت اليه افكار العلماء وتركوا ماعداه مع ان فروض الكفايات كثيرة وهى كل ماتحتاج اليه الامة ومنه جميع الصنائع لاسيما الاسلحة الجديدة والمدافع القتاله وعلوم الطب والزراعة وعلوم الحروب والتجارة والبيطرة والسياحة شرقا وغربا والرد على مؤلفى الكتب من اعداء الدين وضروب الصناعات المتنوعة والالات البخارية وجميع ما يلزم لهذه الحياة مضارعة لمن جاورنا من الامم فالاقتصار على فن واحد خروج عن سنن هذا الدين القويم فاذا تركت الامة هذه الفرائض كلها اثمت جميعها وعوقبوا في الدنيا بالخزى وفى الآخرة بعذاب النار كما ذكره الشافعى رحمه الله في الرسالة

باب العلم

(قال الشافعي) قال لى قائل ما العلم وما يجب على الناس
فى العلم فقلت له العلم علمان علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب
على عقله جهله قال ومثل ماذا قلت مثل ان الصلوات خمس
وان الله فرض على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت ان
استطاعوا اليه سبيلا وزكاة فى امـوالهم وانه حرم عليهم الربا
والزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان فى معنى هذا مما كلف
العباد ان يعقلوه ويعلموه ويعطوه من انفسهم واموالهم وان
يكفوا عنه بما حرم عليهم منه (قال الشافعى) وهذا الصنف
من العلم كله موجود نصا فى كتاب الله جل ثناؤه وموجود
عاما عند اهل الاسلام ينقله عوامهم عمن مضى من عوامهم
يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتنازعون في
حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم العام الذى لا يمكن فيه الغلط
فى الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع (قال فما الوجه الثانى)
قال فقلت له ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من
الاحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا فى اكثره نص
سنة وان كانت في شيء منه سنة فانما هى من اخبار الخاصة لا

من اخبار العامة وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا
قال افتعدون هذا ان يكون واجبا وجوب العلم الذى قبله او
موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه متنفلا ومن ترك
علمه غير آثم بتركه او من وجه ثالث فوجدناه خبرا أو قياسا
(قال الشافعى) فقلت له بل هو من وجه ثالث قال صفه لى
واذكر الحجة فيه وما يلزم منه ومن يلزم وعمن يسقط فقلت
هذه درجة من العلم ليس يبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة
ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة ان يعطلوها
واذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يحرج غيره ممن
تركها ان شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها

(قال الشافعى) وقال فاوجد لى فى هذا خبرا وسببا في
معناه ليكون هذا قياسا عليه فقلت له فرض الله عز وجل الجهاد
في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ثم اكد النفير منه
فقال جل ثناؤه ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم
بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون الاية وقال
جل ثناؤه فاقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة الاية وقال جل
ثناؤه فاقتلو المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم

واقعدوا لهم كل مرصد وقال جل ثناؤه قاتلوا الذين لا يؤمنون
بالله ولا باليوم الاخر الاية (قال الشافعى) اخبرنا عبدالعزيز
ابن محمد الداروردى عن محمد بن عمر بن علقمة عن ابى سلمة
ابن عبد الرحمن عن ابى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لا ازل اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوا الا
اله الا الله عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم
على الله وقال الله جل ثناؤه ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى
سبيل الله اثا قلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة
الى قدير وقال جل ثناؤه انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم
وانفسكم فى سبيل الله الآية قال الشافعي فاحتملت الآيات ان
يكون الجهاد كله والنفير خاصة منه على كل مطيق له لا يسع أحدا
منهم التخلف عنه كما كانت الصلاة والحج والزكاة فلم يخرج
أحد منهم وجب عليه فرض منها ان يؤدى غيره الفرض عن
نفسه لان عمل احد فى هذا لا يكتب لغيره واحتملت ان يكون
معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات وذلك ان يكون قصد
بالفرض منها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية في جهاد
من جوهد من المشركين مدركا تأدية الفرض دنا فله الفضل

ومخرجا من تخلف من الاثم ولم يسوّ الله بينهما فقال تعالى
لايستوى القاعدون من المؤمنين الآية

(قال الشافعي) فقال أما الظاهر في الآيات فالفرض على
العامة فأين الدلالة بانه إذا قام بعض العامة بالكفاية اخرج
المتخلفين من الاثم (قال الشافعي) فقلت له فى هذه الآية قال
واين هو منها قلت قال الله جل ثناؤه وكلا وعد الله الحسنى
فوعد المتخلفين الحسنى على الجهاد على الأيمان وأبان فضيلة
المجاهدين على القاعدين ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم
كانت العقوبة بالاثم ان لم يعف الله عنهم أولى بهم من الحسنى
قال فهل تجد فى هذا غير هذا قلت نعم قال الله جل ثناؤه وما
كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة
ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون
وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا معه من اصحابه جماعة
وخلف أخرى حتى خلف على بن ابي طالب رضي الله عنه
فى غزوة تبوك فاخبره الله جل ثناؤه ان المسلمين لم يكونوا
لينفروا كافة قال فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة فاخبر ان
النفير على بعضهم دون بعض وان التفقه انما على بعضهم دون

بعض وكذلك ماعدا الفرض في عظم الفرائض التى لايسع جهلها والله اعلم

(قال الشافعي) وهكذا كل ماكان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فاذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم ولوضيعوه معاً خفت ان لايخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم بل لاشك ان شاء الله لقوله الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما قال فما معناه قلت الدلالة عليه ان تخلفهم عن النفير كافة لايسعهم ونفير بعضهم اذا كانت في نفيره كفاية يخرج من تخلف من المأثم ان شاء الله لانه اذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم النفير قال ومثل ماذا سوى الجهاد قلت الصلاة على الجنائز ودفنها لايحل تركها ولا يجب على كل من يحضرها كلهم حضورها ويخرج من تخلف عنها من المأثم من قام بكفايتها وهكذا رد السلام قال الله جل ثناؤه واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها او ردوها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم القائم على القاعد واذا سلم من القوم واحد اجزأ عنهم وانما اريد بهذا لرد فرد القليل جامع لاسم الرد والكفاية فيه مانع لئلا يكون الرد معطلا ولم يزل المسلمون على ما وصفت منذ بعث

الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا الى اليوم يتفقه
ويشهد الجنائز بعضهم ويجاهد ويرد السلام بعضهم ويتخلف
عن ذلك غيرهم فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور
الجنائز ورد السلام ولا يؤثمون من قعد عن ذلك اذا كان لهذا
قوم قائمون بكفايته اه كلام الشافعي رحمه الله

وفرض الكفاية مهم يقصد حصوله من غير نظر بالذات
الى فاعله اى يقصد حصوله في الجملة فلا ينظر لفاعله الا بالتبع
للفعل ضرورة انه لا يحصل بدون فاعل وهو يشمل الدينى
والدينوى كالحرف والصنائع وكل ما ذكرناه مما يلزم للمدنية
الحاضرة وها انت علمت ان الشافعى رضى الله تعالى عنه قال
ان الاثم على القادرين جميعا عند الترك وانت تعلم ان القدرة
مختلفة اذ ليس احد العقلاء . الذين لا جاه لهم كعاقل عظم جاهه
كالملوك والامراء فالامة الان كلها مطالبة بجميع الاعمال اللازمة
للمدنية الحاضرة ومباراة الاروباويين والملوك اولى بالوجوب
واكثر المسئولية عليهم هم والعلماء الذين لا يعظون الناس بذلك
ولا يفهمونهم واجباتهم ولا يظهرون لهم ان هذه فروض كفايات
فالحق والحق اقول ان العلماء لو علموا هذه الحقيقة ونادوا بها فى

الجماهير لهرع الناس الى تلك الصنائع وعدوها من جملة ما يثاب عليه في الاخرة ولاصبح الشرق يضارع الغرب ويفوقه

وها انا ادعوا بكتاب الله وسنة نبيه وكلامه ملوك الاسلام وامراءه وعلماءه الى تنبيه اغنياء الامة وعقلائها الى جميع الصنائع وأن يعطى كل ماهو له اهل من تلك الصنائع حتى لانحتاج الى ثوب ولا ابرة ولا فأس ولا قدوم ولا مدفع ولاغيرها من الخارج وما دمنا نحتاج الى اصغر شيء كالكبريت الذي يوقد به فنحن في اثم وحرج عظيم ومحاسبون يوم القيامة معذبون في الدنيا بالجهل والتأخر وفي الاخرة بالعذاب المهين

والذي اراه فى ذلك ان يشغل ملوك الاسلام وعلماؤه الطوائف كلا بحرفة تنفع الامة فيوزعون على كل واحد من مشايخ الطرق ما يقدر على تحصيله فلقوم الطب والجراحة ولاخرين الترغيب فى الصلاة ولاخرين الترغيب فى الزكاة ولاخرين الترغيب في الحج وغيرهم للحث على صلة الارحام ولغيرهم وجوب الاتحاد فى المسلمين وهكذا ويبثون العلماء لارشادهم فيحضونهم على الصنائع المختلفة والالات البخارية فهذا كله صار الان من فروض الكفايات الواجبة لمباراة الامم

المجاورة ومسابقتها ولاينفع امة الاسلام الائمة اكثر من بث
النصائح والارشاد من اهل العلم ولا يوقظ اهل العلم الا الحكماء
المرشدون والعلماء الكبار لذلك فيجب على كل حكيم ان ينصح
العلماء ويدلهم على تلك الطريقة المثلى ليشتهر القول بين طبقات
المسلمين ولا يتكلفون الفقه وحده وضياع الزمن فيه فانك قد
رأيت من كلام الشافعى رحمه الله تعالى ان الواجب فيه قليل
جدا وهى الامور العامة ولاتخفى على احد اماماعدا ذلك ففرض
كفاية وفروض الكفاية كثيره جدا اذ هى دينية ودينوية ومن
الدينية الوعظ والارشاد لفنون العبادات والذى اراه فى نصيحة
الامة بالقرآن ان يحفظ كل ما نيط به الوعظ فى باب مخصوص
ايات يعظ بها فيه كآيات الجهاد فيه مع فهم معناها وكايات
الصلاة والحج وبر الوالدين والاخلاق والحلم وهكذا من يرشد
لتعليم العلوم النافعة كالطبيعيات يحفظ ما يشير لتلك العلوم منها
وسنجعل لهذا بابا نذكر فيه ما يلزم في ذلك

ولما كان مالايتم الواجب الا به فهو واجب وجب على
ملوك الاسلام والامراء ان يتوصلوا لهذا الغرض بعمل المعارض
الصناعية فى بلادهم ودفع مكافأة والقاب شرف لمن يبرع فى

فن من تلك الفنون دينية أو دنيوية ليقوم الناس بتلك الواجبات
ويعم التعليم فى انحاء بلادهم وتنتشر انتشاراً تاما والاسلامية
الآن في حاجة شديدة الى التنشيط فكل من قام بعمل مثل
هذا قام مقام نبيه صلى الله عليه وسلم فى التأدية على قدر اجتهاده
ألا فليغتنم هذه الفرصة العلماء والاغنياء والامراء (والذين
جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله مع المحسنين)

﴿ العلوم التى يجب تحصيلها والصنائع ﴾

ذكرنا آنفاً ماقاله الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه
وعلماء الاصول من وجوب جميع الصنائع والعلوم على الناس
من باب فرض الكفاية فاى أمة قصر رجالها وسكت علماؤها
على بعض الفروض دون بعض فلتبشر بانها تعذب مرتين
مرة في الدنيا بالتأخر ومرة فى الآخرة بالعذاب المهين ولعذاب
الآخرة أشد وأبقى فان عذاب الدنيا قاصر على الجسم الفانى .
وعذاب الآخرة على تلك النفس الانسانية التى لها الدوام
واعلم ان الامم في الدنيا لها وجهتان وجهة الافراد ووجهة الامم
فوجهة الافراد الترقى الى عالم آخر ووجهة الامم ترقى مجموعها

ليحوز ابناؤهم والمنتسبون اليهم شرفا وراحة بين الامم وهاتان الوجهتان عليهما مدار الحياة واليهما يعمل العاملون وفيهما تنافس المتنافسون وتغلب الوجهة الاولى على المتدينين والثانية على السياسيين وبينهما ارتباط شديد ولا يمكن فصل احدهما عن الآخر فجميع عقلاء الامم انما يسعون فى الحياة لامور دائمة اما دوام الاشخاص وذلك بالرقي لعالم ارقى واما دوام الامم ببقاء الاجيال المتعاقبة حائزة الكمال فى المدنية والحضارة والاول هو بقاء الشخص والثانى بقاء النوع ولعمرى ان كلا منهما يخدم الآخر وقد جمع الامرين قوله صلى الله عليه وسلم اعمل لآخرتك كانك تموت غداً واعمل لدنياك كانك تعيش أبداً واقرب منه قوله تعالى فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له في الآخرة من خلاق وهؤلاء هم الطبقة السفلى من نوع الانسان التي عبرنا عنها بالامم الجاهلة ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وهؤلاء هم أهل المدنية الفاضلة التى قدمنا شرحها واما الذين يقولون ربنا آتنا في الآخرة حسنة لا فى الدنيا فليس لهم ذكر فى الآية وهم الامم المنحرفة الذين قدمنا ذكرهم وقارناهم ومن معهم بمراتب

الحيوان وذكرنا انهم هم الذين يقولون مت بالارادة تحى بالطبيعة فهؤلاء منحرفون لانهم أرادوا القصد بلا وسيلة ولذلك جاء شرعنا بالدين والدنيا معاً لانهما ممتزجتان والمقصد لايستغنى عن الوسيلة والا هلك الاصل والفرع

وانما لم يذكر هؤلاء المنحرفون فى الآية لان القصد من التنزيل ان يكون ضد الطبع ليتعادلا فذم من اقتصر على الدنيا ليكون ضد الطبع ومدح من اعتدل فيهما لانه الكمال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) واما اولئك فلم يذكروا لان القصد سوق الافكار الى الآخرة وذلك ينافيه فما أعجب حكم هذا الترتيب ثم تأمل كيف ذكر حسنة الدنيا ثم اتبعه بحسنة الآخرة ليعرفنا ان الاولى سلم للآخرة ولنشبه بتلك الحكم الزاهرة ونقدم حسنة الدنيا فنقول حسنة الدنيا عبارة عن كل ما يلزم لها من مآكل ومشارب وتزاوج مما به بقاء الحياة فيها والراحة الممكنة مع حسن النظام

ولهذه الحسنة علوم هى بمنزلة الغذاء وأخرى بمنزلة الدواء فالاولى تشمل الصنائع والزراعات والتجارات

فكل صنعة لجلب القوت كالزراعة والخبز وما تحتاج اليه من صناعات البخار التى بها السقي والحصاد والدرس والتخليص والطحن والعجن والنخل والخبز فلكل من هذه آلات وعدد يجب الاعتناء بها وعملها وقيام المسلمين بها اذ لا تمكن الحياة الدنيا فى هذه الازمان الا بها وهكذا الآلات والعدد التى بها الملابس كآلات الحلج والنسج والخياطة وغيرها من آلات البناء ولا بد لهذه كلها من قلاع وحصون وسلاح فاذن لابد من علوم الصناعات التى بها عمل الاسلحة النارية المستحدثة

هذه هى العلوم التى تمد لحسنة الدنيا كالغذاء أما العلوم التى هى كالدواء فهى العلوم التى بها يكون عدم التنازع في الاموال كالبيع والشراء وقسمة المواريث والهبات والصدقات والمناكحات وعدم التنازع في النساء بذكر احوالهن الشخصية مع الرجال من الطلاق والرجعة والعدة والخلعة وغير ذلك وبها يكون دفع المفسدات لها كالعقوبات الزاجرة كقتال الكفار واهل البغى والحث عليه والحدود والغرامات والتعزيرات والكفارات فكل هذه تزجر عن انتهاك حرمة اصحاب

الاموال فهذه كلها فى علم الفقه الذى هو في الحقيقة كالدواء وتلك الصنائع الدنيوية كالغذاء وأى أمة استعملت الدواء وتركت الغذاء مات احساسها فكما يموت من يعيش على اكل الصبر او يحي حياة لا يموت فيها ولا يحي فهكذا الامة التى تقتصر على علم الحدود والاحكام ولا تعرف سواها ولعمرى اذا ضعفت المكاسب وقلت حيل الدفع فاين المعاملات والاحكام والحدود وانما جاء الشرع بهذه العلوم لان الناس بطبيعتهم ميالون الى تعمير الارض فجاءت الشرائع لتهديهم الى ما به تعاونهم وتعاضدهم فاما اذا وكلت اليهم وجاء دور جديد للاحوال المعاشية فانه يأمرهم باقتحام الاخطار لاستدرار الرزق من هاطل الغيث ونابت الزرع

وكما ان علم الطب يراد لاصلاح الجسم الموجود فهكذا علم الفقه جاء لاصلاح امة تعيش ولها ما يكفيها فى الحياة فعلم الطب لاصلاح أجسام الاشخاص وحدود الفقه واحكامه لاصلاح جسم الامة وتعلم العبادات خصوصية اخرى فى تشويق النفس الى مدبر الكون ويعقل أن يطيب جسم ميت فاذا ماتت الامة بعدم ما يغذيها وضعفت معداتها فى الحياة من الاغذية التى

بها حياتها والاسلحة التى بها تدافع فمن يصح بعلم الطب ومن تجرى عليه نواميس الشرع بل يموت كل منهما بموت الامة التى هو فيها ومن هنا تفهم قول الشيخ الغزالى (ان العلوم العقلية بمنزلة الغذاء والشرعية بمنزلة الدواء)

هذا هو الذى به تعمر المدن في الدنيا وتبقى الاجسام محفوظة الى وقت معلوم ومحصلها أمران مابه حفظ الاجسام من الداخل بالتحليل والتركيب وما يأتى لها من خارج من عوارض الجو ومنازعات نوع الانسان وقد قدمنا مافيه الكفاية في ذلك كله. أما مابه صلاح العقول فهي علوم الاخلاق والعبادات وجميع مابه كمال النفس الانسانية من العفة والشجاعة والحكمة والعدالة وهذه الاربعة هى امهات الفضائل التى بها يكون الانسان كاملا فبالعفة والشجاعة يتخلى عن الرذائل وبالحكمة والعدل يتحلى بالفضائل وتحت الحكمة معرفة جميع العلوم وهى لاتكون الا لحكماء الامة وكبرائها الذين رضوا بالراحة الفكرية عن الشهوات المحرقة ولهم السلطان على علماء الامة ينصحونهم ويرشدونهم ويعين على هذه معرفة مآل الانسان ودار الآخرة وصفات الاله وأفعاله فترتبط النفس بمبدع الكون ومن هذه

عرفنا ما به عمارة الارض وبقاء الاجسام وما به تنوير العقول وترقيتها.

وكل من علوم القسمين لا تأتى وحدها بل لا بد من وعاظ يهدون الناس الى تلك العلوم ويشوقونهم الى حفظها والحرص عليها بالترغيب والترهيب وهؤلاء يحتاجون الى فن القصص والروايات الادبية التى اسها قصص القرآن الشريف بذكر أحوال الانبياء والجبابرة والصالحين والكافرين والامم البائدة الهالكة التى تركت عمارة الارض للمصادفة فاهلكهم الله بذنوبهم وسنعقد لهذا وأمثاله باباً خاصاً فى هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وهؤلاء الوعاظ يجب أن يتحروا مواضع النقص في الامة فكلما رأوا ثلمة أسرعوا اليها فنصحوا ورغبوا فيها ففى مثل هذه الايام يذكرون ان المحبة واجبة بين جميع المسلمين ويعرفونهم أحوال الامم المجاورة وكيف حصل تفرقنا ويوردون الاحاديث والآيات ويذكرونهم بالصنائع والحرف ويعرفونهم ان لهم على ذلك أجرين أجراً فى الدنيا واجرا في الآخرة وهكذا ولا بد أيضاً من علماء الكلام وعليهم أن يكون علمهم على حسب ما اعترى الدين من التشويش فاما علم

الكلام الذى عندنا الا ن فالصواب تحويره وتهذيبه الذى في الامة الآن فليس له لزوم بالمرة بل الاشتغال به حرام على المسلمين فان الدين جاءه اعداء كالسيل العرم انحط عليهم من بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك فاخذ القسيسون يؤلفون المطاعن على الاسلام وهكذا القاصرون في العلوم الجديده يظنونها مخالفة له فوجب ان يكون علماء الكلام هم الباحثون على نفي الشبه الحادثة وتطبيق العلم على الدين بقدر الشبهة بلا زيادة ولا نقص اذا علم الكلام ليس الا سلاحا يقاتل به المشوش للاذهان كما ان الحصون والقلاع والاسلحة يدافع بها المغيرون على الاجسام والبلاد وكما ان السلاح ليس لنا به حاجة اذا لم يكن عدو فكذلك علم الكلام ليس لنا به حاجة اذا لم يكن مبتدع وكما ان السلاح يجب ان يكون فى كل زمن بحسبه ويتنوع على حسب تنوع اسلحة العدو فهكذا علم الكلام يتنوع على حسب التشويش الحادث على الدين فالوعظ والسلاح وعلم الكلام كلها ادوية لامراض اجسام الامة فكما ان لكل مرض علاجا فهكذا تعالج الامة بالوعظ وتصنع الاسلحة والحصون وتؤلف علم الكلام على حسب الحوادث الطارية عليها وكما ان

من يداوى جميع المرضى بدواء واحد يعد جاهلا كالذى يكون مريض ويستعمل الرقيا مع جميع الناس فكذلك من يعظ الامة الاسلامية كلها بوعظ واحد ويظن انه ينطبق على جميع الازمان والامكنه او يقاتل كل عدو بسلاح واحد فهو غر جاهل او يدرس علم الكلام القديم الذى جعل دفاعا لمبتدعة العصر الاول لهذا العصر فكذلك يعد قليل العقل ويكون كالذين يكتوون وقد وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلين فى غير المتوكلين اذ ليس القصد مسئلة الكى وحدها بل كل امر يؤخذ بلا فكر ولا روية ولا نظام بل يقال كما وجدنا عليه اباءنا فهو خارج من التوكل وبعبارة اوضح كل مالم يوصل الى المقصود عقلا وعرفا فهو خارج عن التوكل وما اشبه وعاظنا وعلماء كلامنا وصانعي اسلحتنا بشعرائنا فكما نرى اولئك يدرسون ويصنعون ويعظون كما كان الاولون فهكذا نرى الشعراء الا قليلا منهم يرجعون للتشبيه البدوى القديم ولا يذكرون مايرون من جمال المدنية والحضارة ومحاسن الطبيعة وجمال مايشاهدون فى مناهج الكون فاذا سرى التقليد والانحطاط فى امة سرى فى كافة شعرائها وخطبائها وعلمائها (اجمال وتذكره)

واجمال القول ان العلوم اما ان تكون اغذية او ادوية وهما قسمان عقلية وجسمية وكل منهما تخليه وتحلية فهي ثمانية اقسام .

١ فالاغذية الجسمية هي علوم الزراعة بما يتبعها من جميع العلوم الطبيعيات وهي فروع كثيرة كالكيمياء وعلوم الحيوان والنبات والبيطرة والبيزره وغيرها وكل فرع ربما تفرع الى فروع بتقدم العلوم وتمدين الامم

٢ وعلوم الاغذية الجسمية التي للتخلية هي علوم سبك المعادن والاسلحة الجديدة والعدد من المكروب والسفن الحربية فهذه كلها لقتال العدو للمحافظة على الاجسام من الخارج واما التي قبلها فهي للمحافظه عليها من الداخل ومرادنا بالداخل مالم يكن من اغتيال نوع الانسان فيدخل فيه المساكن والملابس واتقاء الحر والبرد وغير ذلك

٣ واما علوم الاغذية العقلية التي للتحلية فهي علوم الحكمة النظرية وهو لعمرك يبنى على اساس علوم الاغذية الجسمية فترى علماء الحكمة العالية والفلسفة الالهية يبنون براهينهم على مارأه علماء الطبيعة والفلك ويخرجون من المحسوس الى

المعقول ويدخلها علوم السنة والقرآن بل هما مبدأ لجميع الاقسام اما صريحا واما اشارة واما علوم اللغات والبلاغة ونحوها فهى مقدمات ليست الا للتوصل بها فالمتعمق فيها جهول ولقد صرفنا شطرا كبيرا من حياتنا فيهما تقليدا ثم اتضح لنا الحق بعد حين وعرفنا ان الامم حولنا يعرف الواحد منهم لغة ولغتين واربع لغات في ازمان قليلة ونحن نمضي حياتنا كلها فى اللغة العربية وهم اعلم منا بها فياحسرة على امة لم تجد من يرشدها ويقيمها من رقدتها ويوقظها من غفلتها وكتابنا هذا اذا تأملته وجدت فيه زبدا من علوم الحكمة والفلسفة العالية التى هى المقصود من حياتنا

٤ وعلوم الاغذية التى للتخليه العقليه فهى علوم الاخلاق الدالة على الطهاره من الشجاعة والعفة والعبادات

٥ وعلوم الادوية الجسمية التى للتخليه هى علم الطب ومن العجيب ان هذا الفن يحتاج الى فنون اخرى من الطبيعة بل يحتاج الى علوم الطبيعة باكلها كما ان الفلك يحتاج الى علوم الرياضة اجمعها وكأن الامراض وتقدير الازمان يحثاننا على قراءة جميع علوم الارض والسماء لنعيش فى رفاهية وراحة وترى

الطب يدعو الى كل علم يحتاج اليه علماء الزراعة ولو اجمالا فكأنه يشير الى انكم تداوون بهذه العقاقير وهى تداوى اجسامكم ولا بقاء لها الا بهذه العلوم كما كانت معرفة الطب تتبع علوم الطبيعيات المحتاج اليها الانسان فهكذا ترى علماء الالهيات يحتاجون لجميع العلوم ولو اجمالا لان مدبر الكون يحب ترقينا فى جميع العلوم لنعيش فى راحة ونموت مع علم وكمال وهذا هو السر في نزول الانبياء بالتوحيد ثم يتركونهم وشأنهم لتوقظهم هذه الفاكرة الى معرفة هذا العالم بعقولهم وأخذ ما ينفعهم وترك ما يضرهم فى اجسامهم وعقولهم حتى تقوى مداركهم فالاله هو نهاية ما ترمي اليه المدنية والحضارة وان جهلها اغلب الناس فالانبياء يحثون والامم يتراكضون فى ميادين الحياة سعيا وراء الارتقاء وتراهم يتجادلون ويتحاربون باسم الدين وهذا هو مقصود الرب تبارك وتعالى فجعل نفسه موضوع الجدال والنزاع ليدوم الترقى بدوام الحروب ولقد كاد القلم يخرج بنا عن جادة ما نحن فيه فلنرجع ونقول

ومن العلوم التى للتخلية الجسمية علوم الحرب التى يدرسونها فى المدارس الحربية (ان الله يحب الذين يقاتلون

فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)

٦ والعلوم التى هى أدوية جسمية للتحلية علوم المواقيت والفلك والهيئة فهى زينة للامة وكمال وجمال ماعدا الضرورى منها كالاوقات المعروفة فهى من الضروريات لا الكماليات

٧ والعلوم العقلية التى هى أدوية للتخلية فهى علوم الكلام التي تكون في كل زمان بحسبه

٨ والعلوم العقلية الدوائية للتحلية فهى المواعظ التى يدخلها جميع قصص القرآن ومواعظه وامثاله

وهذه هى اقسام العلوم الواجب تعلمها على المسلمين فرض كفاية واول وزر يكون على الملوك والامراء والعلماء والذى اعلمه ان أغلب العلماء لم يتيقظوا لهذا ولم يعرفوه ولو عرفوه لعرفه الامراء ومتى عرفه الامراء تقدمت الامة وما الامراء الا أفراد من الامة لا ذنب عليهم وحدهم وانما هم منها ولهذا ورد (كما تكونوا يولى عليكم) فاى أمة اراد الله تعالى انقاذها من الضلال تنبه حكماؤها اولاً ثم نبهوا علماءها وهم يرقون افكار أمرائها وعامتها فلينظر حكماء الاسلام وعلماؤه الى ماقلناه وليتيقظوا من رقدتهم وليقوموا من نومهم ليكون لهم أجور

النبيين وتحيي امتهم التي يحيي ذكرهم بحياتها ولا يظن العلماء ان علوم العربية والتفسير والحديث والفقه التي يموتون فيها ويحيون تنفعهم الا بالعمل وتحريض الامة على جميع تلك العلوم التي اشرنا اليها والا ماتت الامة وعلماؤها فان السنة والقرآن قد حرضا على جميع هذه العلوم كما اوضحناه في غضون كتابنا هذا ألا فليحي العلم فلتحي الامة فليحي الدين فليحي الوطن فيجب على العلماء والحكماء والامراء ان يحثوا الناس على جميع العلوم والا ذهب ربحهم وخسروا الدنيا والآخرة

فليت شعري لم ترك الامراء الخطب يوم الجمعة ولم تركوها للجهال الفقهاء الذين لا يعقلون ألم يأن لكم ايها الامراء أن تقتدوا بالخلفاء الراشدين ألم يأن لكم ان تقتدوا بالخلفاء الامويين والعباسيين ألم يأن لكم ان تقتدوا بخطباء أوربا الذين يقومون على منابر الخطابة وتهتز لهم المنابر فتكسي ورقا خضرا . ساء ما وصلنا اليه ألم تعلموا ايها الامراء ان خطبة الجمعة والعيد لكم وحدكم لتقودوا أممكم الى مصالحهم في الدنيا من الصناعات والتجارات والزراعات وكذا الآخرة أهكذا دين الاسلام تيقظ الناس ونحن نيام

ألا فلتحى الامة فليحى الوطن العزيز فليحي الدين فليحى العلم فلتقم الامة فلتتقدم الصناعة أنتم ايها الحكماء ويا ايها العلماء تقودون الناس فى الدنيا وستقودونهم فى الآخرة فان كنتم الآن منحطين فالانحطاط مآلكم فى الآخرة وان كنتم راقين فهو مآلكم في الآخرة ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمي واضل سبيلا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

﴿ تمة هذا الباب ﴾

قد علمت ان العلوم قسمان اغذية وادوية ولا بد منهما في بقاء الامة اذ الاغذية بغير ادوية يتبعها ضرر وافراط وتفريط فلا تجد ما يوقفها عند الحد فيكون هناك الضرر العظيم والادوية بلا اغذية مهلكة وباجتماعهما الصلاح وبعدمهما الهلاك

ولكن الاقتصار على الاغذية أقرب الى الحياة وعلى الادوية اقرب الى الموت . وعلى ذلك ترى فرنسا وما شا كلها ممن اعرضوا عن الدين احياء حياة فيها مرض والشرقيين التاركين لعلوم العقل اقرب الى الموت فبهذا عرفت منشأ عمارة الامم

وخرابها وارتفاعها وانخفاضها وهى اربعة اقسام لاغذاء ولادواء وهؤلاء هلكي غذاء لادواء وهؤلاء مرضي كبعض الاوروباويين دواء لاغذاء وهؤلاء اقرب الى الموت كبعض الشرقيين غذاء ودواء وهؤلاء احياء وهى المدنية الفاضلة التى اليها يصل النوع الانسانى وقد بلغنا ان بلاد سويسره بلغت هذا الحد

﴿ طرق التعليم وما يجب على المسلمين ان يصنعوه ﴾ (فى هذه الايام)

امة الاسلام ماحط بها في مهواة الدمار الا طرق التعليم منذ قرون متطاولة وكم ارشدهم المرشدون وافادهم الحكماء ولا سميع ولا مجيب لقد كان أهل الغرب (شمال افريقيا) في الازمان الغابرة أيام ابن خلدون لا يدرسون الا القرآن وعلم الرسم الخاص به واختلاف الروايات لا يزيدون عليه شيئاً فلا علم ولا عمل ولا صناعة ولا دين ولا دنيا فاذا أتم الطالب القرآن وقف وقوفا تاما عن العلم وان انقطع عن اتمامه انقطع عن كل خير في الدنيا والآخرة وزاد اهل افريقيا (تونس) شيئاً من الحديث ومدارسة بعض قوانين العلوم ولكنهم هم ومن حولهم

لم يكونوا لينالوا خطاً من ملكة الانشاء اذ القرآن بالغ حد الاعجاز فلا يقدر البشر على تقليده وقوانين العلوم التي تقرأ في افريقية وغيرها عباراتها نازلة عن البلاغة

ولما رأى علماء الاندلس ضعف العلم فى تلك الاصقاع المغربية زادوا على تعليم القرآن الشعر والادب والترسل وعلوم العربية والخط والكتابة فكان ذلك يفيدهم بعض الافادة في الانشاء

وكان تعليم أهل المشرق قريباً من تعليم اهل الاندلس وتردد ابن خلدون رحمه الله تعالى فى أى العلوم عنايتهم به اكثر وقال ان علماء الاندلس عنايتهم بالشعر وقواعد العربية أكثر من عنايتهم بالحديث والتفسير وقد انقطع اذ ذاك سند تعليم العلوم بتلك البلاد وقد دخل النصارى شرقى الاندلس فهاجر أهلها الى أفريقية وقال . وكان لاهل المشرق عناية تامة بالخط وهذه هي طرق التعليم فى الازمان الغابرة . وأنت ترى ان طريقة التعليم في كتاتيب بلادنا تشبه احط درجات التعليم . وهى تعليم اهل المغرب فى عهد ابن خلدون قاصرة على تعليم القرآن ولقد تأفف منها بل ومن جميع طرق التعليم فى ذلك الحين القاضي أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته (كما قاله

العلامة ابن خلدون) وأرشد الى طريقة غريبة فى وجه التعليم
وعاد فى ذلك وابدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم
كما هو مذهب أهل الاندلس قال لان الشعر ديوان العرب
ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة
ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم
ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال
ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يأخذ الصبي بكتاب الله أول مرة
يقرؤه ولا يفهم وينصب في أمر غيره اهم عليه منه . ثم قال ينظر
فى اصول الدين ثم اصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه
ونهى مع ذلك ان يخلط فى التعليم علمان الا ان يكون المتعلم
قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضى
ابو بكر رحمه الله تعالى، وقال العلامة بن خلدون وهو لعمرى
مذهب حسن الا ان العوائد لا تساعد عليه وهي املك بالاحوال
هذا ملخص ما قاله العلامة ابن خلدون رحمه الله وما نقله عن
ابى بكر رحمه الله تعالى عند الكلام على تعليم الولدان واختلاف
مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه وانا اقول الا فاحضرا
أيها العالمان اليوم وانظرا ما نظرت واسمعا ما سمعت تجدا

الحال اسوأ مما رأيتما وتجدا الطريقة الدنيا وهى طريقة اهل المغرب عندنا واندرست طريقة الاندلس بذهاب دولتهم وهكذا الطريقة الافريقية والمشرقية الا فاحضر يا ابن العربى وسر معي فى الكتاتيب واقرأ (كذلك قال الذين لا يعلمون من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ولقد اتفق لى اثناء تأليف هذا الكتاب انى رحلت كما رحلت فى بعض ارجاء القطر المصرى لمشاهده الكتاتيب فى القرى ولقد كان هذا من عجيب الاتفاق اذ لم اكن عند ابتداء تأليف هذا الكتاب مفكرا فيه ولكن ابى الله الا أن يظهر العجائب ويتم ما اراد من الكلام على نظام هذه الامة مع نظام الكون فلو رأيت ثم رأيت اكواخا (١) يعلوها التراب وتأتيها الشمس والرياح من كل جانب كأنها جحر ضب خرب ليس فيها درس الا الفاظ القرآن والعقل فى معزل عن الدنيا والآخرة وصار المسلمون قاطبة لاهم لهم الا الالفاظ ظانين ان البركة فى مجردها وأما السمع فالاغلب عنه معزولون ألا فلتحضرا أيها العالمان ولتريا ما أحدث الدهر بعدكما

«١» كان هذا قبل طبع الكتاب ولقد ترقت كتاتيبنا رقيا حسنا فنحمد الله حمداً كثيرا بهمة اخواننا فى نظارة المعارف

تربيا تحقيق آية اليهود اذ قال فيهم (ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون) أى يقرؤن ولا يفهمون وقوله فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل قوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) ولقد بلغنا ان تعليم المسلمين فى غالب الاقطار على هذه الشريطة من شرق وغرب لا الاندلس اذ لم يبق لها وجود بل صارت بلاداً بدل دينها كفرا واحلوا قومهم دار البوار وأما علومنا ومعارفنا فلا نشرع فيها الا بعد حفظ القرآن اذ يمضي شطر من حياتنا ويمضي زمن غرس بذر الاخلاق فيشب الطفل على الجبن والخوف والهلع وسلب الارادة بتهديد المعلم وضربه فاذا قيض الله له من يعلمه لم يجد ذلك العلم الا يسيرا مع التكلف في زمان الفتوة والكهولة وقلما تصلح الاخلاق بعد زمان الصبا

ويا ليت تعلمنا العلوم بعد ذلك على طريقة حسنة كافلة بالنجاح وانما زاد الامر وكثرت الشراح والحواشي والتفاسير واختلطت المذاهب وتشعبت الفروع فى النحو والصرف. وصار علم البلاغة اسما لامسمى له الا السعد وشرحه وحواشيه

التى هى عبارة عن كلام معمى كله تفلسف في الآلات بغير
وصول للمقصود من فهم القصائد والرسائل وكلام العرب والقرآن
والحديث بل اذا نظرتما لم تريا الا قواعد مجردة كقواعد المنطق
فلا تطبيق له على المعقولات ولا للمعانى والبلاغة على الكلام
وان حصل التطبيق فانما يكون بمجرد الاشكال والجواب ويقرأ
علم الفقه والكلام والاصول والتفسير والحديث والاعتناء
بالثلاثة الاول اكثر وبالاخيرين أقل بل تارة يقرأ للتبرك وتارة
تطبيقاً على العلوم العربية لاسيما النحو ولقد صدق ظنكما وان
العادة حاكمة على الناس وطريقة التعليم رديئة جداً صعبة لا توصل
الى المقصود فاذا حضر احد من الريف الزم بحفظ اعراب
البسملة ووجوهها التسعة مع انه لا يدرى ماهو الاعراب وما
هي الصفة وما هو الموصوف وبالجملة فالعناية على وجه العموم
منصرفة للآلات وهي قواعد اللغة لا اللغة نفسها اذهى ذهبت
ريحها ولقد وقع الاسلام كله الآن فى هاوية الجهل ولكن
جاء الغربيون وهم اهل اوروبا بسيلهم الجارف على الشرق وبخيلهم
ورجلهم وشاركوا الشرقيين فى الاموال والاملاك ووعدوهم
وما يعدونهم الاغروراً وبثوا طرق تعليمهم في بلاد المسلمين

فنبه بعض علماء الازهر لهذه الطريقة الحديثة واشار بعضهم بتسهيل التعليم وادخال علم الحساب والهندسة وتخطيط البلدان وهاهم العلماء الآخرون تارة يثبتون وتارة ينفون وقد اخذت روح العلم تدب فيما بيننا

وهكذا فتحت فى مصر مدارس يتعلم فيها العلوم التى بها نظام الحكومة واسست الجمعيات ومدارس لتعليم الفقراء واظنها أحسن طريقة نعلمها فيعلمون شيئاً من القرآن مع معناه والخط والحساب والاملاء والآداب الاسلامية والعبادات ومحاسن الاخلاق وصنعة يعيشون بها وقواعد العربية والانشاء والترسل وقد فاقت فى ذلك كله المدرسة التى انشأها خديو مصر عباس باشا الثانى فى هذه الايام وجميع المدارس شرقية وغربية يعلمون علوما متعددة فى أوقات منتظمه ونجاحها ظاهر فخلط العلوم لا يضر بطريقة التعليم وهذه هى طريقة ظاهرة النجاح ولو ان المسلمين فى جميع الاقطار قاموا باعمال مثل هذه في التعليم لارتقى الاسلام في أقل من نصف قرن ولكن مادام الحال على هذا المنوال بقى الانحطاط إذ المتعلمون ماتخرجوا فى صغرهم الا على أيدى هؤلاء الجهال الذين يقرأون مالا

يعقلون فيشيب الانسان المتعلم ولم يتفكر يوما فى حالة الأمم الاسلامية ولاحرية له ولاذنب عليه وانما الذنب على طريقة التعليم في الصغر التى ضربت عليه بالذلة والمسكنة

فها نحن الآن ندعو الى نسخ هذه الطريقة وان تؤلف كتب غير هذه التى بايدينا فى جميع الفنون وتعلم جميع العلوم كما ذكره الغزالى في الاحياء ويرشد الناس الى الصناعات حتى نصل الى المدنية الصحيحة ولقد ينجع كلامنا الا ن اكثر من زمان ابن خلدون فاننا أحيط بنا من كل جانب وذقنا جزاء مافرطنا فى الكتاب وقيل ذوقوا ماكنتم تكسبون ولنترك ماوجدنا عليه آباءنا ولا نكون كالذين قيل لهم (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدن ولقد صار قراء القرآن فى هذا الزمان تضرب بهم الامثال فى سوء الاخلاق والفقر اذهم مجردون عن كل دين ودنيا في الغالب الامن قيض الله له من يدخله الجامع الازهر فقد يرقي الى طبقة العلماء ولكن يبقى محكوما بعادة التدريس المضره ولقد دار الحديث بينى وبين أحد مشايخي الجامع الازهر اثناء تأليف هذا الكتاب فقال

بلغنى انكم تلومون العلماء على ترك العلوم الطبيعية والتاريخية والفلكيه وغيرها فقلت له نعم فقال اليست الطبيعة كفراً ألا تتذكر انهم نصوا على ذلك وأنت حضرت فى الازهر عندنا هذا الكلام فقلت نعم ولكن علمت ان هذا ليس له وجود إلا فى الورق وتحققت بعد ذلك من كلام أكابر علمائنا رحمهم الله تعالى كالغزالى وغيره انها أعظم طريق للتوحيد بل صرح القرآن بان معرفة الكون من طبيعة وفلك وغيرهما هى الطريقة المثلى للوصول للخالق بل العالم هو الذى يعرف تلك العلوم مع الحذو بها حذو الدين وسردت له أدلة من هذا القبيل وقلت له لقد الفت في هذا الموضوع نفسه كتباً وأوردت له منها اشياء مما في الذاكرة فرأيت بوارق السرور تلمع فى جبينه واستبشر فسرنى ذلك وعلمت ان الامة تحتاج الى من يرشدون العلماء الى مابه صلاح الخلق ولقد وجدت نفسي مغرمة بهذا العمل مع علمى بقصور باعى ولكن أودى مافى عنقى من الأمانة لادافع بها عن نفسي يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ثم قال انهم يذمون طريقة التعليم فهل توافق على ذلك قلت نعم فقال وكيف ذلك اليس التعليم عندنا يعلم فهم العبارات

الصعبة فقلت له لم نخلق لذلك فهو ضياع للحياة فى فهم اصطلاح بعض الأدميين وهم هؤلاء المعربون مع البعد عن المقصود الاصلى ولاذكرك ياسيدى بعبارة منك فى الدرس ألم تقل لنا (من اتبع الحواشي ماحواشى) فقال نعم فقلت وهل تركت الحاشية فقال لا فقلت له وما المانع من اتباع الحق فسكت فقلت له أجيب انا ان العادة جرت ان الطلبة لا يتعلمون الا على شيخ يأتى لهم بالغرائب فاذا تركتم الحاشية ووجدوا غيركم يقرؤها ذهبوا اليه فقال نعم فتذكرت قول ابن خلدون ان العادة استحكمت ولقد آن للمسلمين العدول عن هذه الطريقة المشؤومة وكل من سعي فى ازالتها فله اجر نبى اذيكون مجددا لهذه الامة التى تنكست اعلام مجدها ودك سور مدنيتها ولننقل من كلام ابن خلدون ما استحسناه في الكلام على التاليف وكثرتها واختصاراتها ووجه الصواب فى تعليم العلوم قال رحمه الله تعالى فصل فى ان كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم ان مما اضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم

له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون مرتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكى بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه على أنه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهى كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الامر بدون ذلك وكان التعليم سهلا ومأخذه قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التى لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن

الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب فى ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضى عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه الا فى القليل النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة الا لسيبويه وابن جنى واهل طبقتهما لعظم ملكته وما احاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغل بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والا فالظاهر ان المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذى هو آلة من الالات ووسيلة فكيف يكون فى المقصود الذى هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

﴿ فصل ﴾

(فى ان كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم)

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء فى العلوم يؤلفون بها ويدونون منها برنامجا مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وادلتها باختصار فى الالفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا الي الكتب الامهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأصوله وابن مالك في العربية والخونجى فى المنطق وامثالهم وهو فساد فى التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لابد فيه تخليطا على المبتدى بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتى ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان الالفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصه فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعلم في تلك المختصرات اذا تم على سداده

ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة مايقع في تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة واذا كثر التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿ فصل ﴾

(فى وجه الصواب فى تعلم العلوم وطريق افادته)

اعلم ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيداً إذا كان بالتدريج شيئاً فشيئاً وقليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول مايرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم الا أنها جزئية وضعيفة وغايته انها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين من

تلك الرتبة الى اعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ماهنالك من الخلاف ووجوهه الى ان ينتهى الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شب فلا يترك عويصا ولا فهما ولا متعلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض فى اقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ويخلطون عليه ويلقون له من غايات الفنون في مباديها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا ويكون المتعلم أول الامر عاجزاً عن الفهم بالجملة الا فى الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى استيعاب الذى فوقه حتى

تتم الملكة فى الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن
واذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات وهو حينئذ عاجز عن
الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب
ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله
وتمادى فى هجرانه وانما أتى ذلك عن سوء التعليم ولا ينبغي
للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعليم
منه بحسب طاقته وعلي نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان اومنتهيا
ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من اوله الى آخره
ويحصل أغراضه ويستوفى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره لان
المتعلم اذا حصل ملكة ما فى علم من العلوم استعد بها لقبول
مابقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق
حتى يستوفي على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن
الفهم وادركه الكلال وانطمس فكره ويئس عن التحصيل وهجر
العلم والتعليم والله يهدى من يشاء وكذلك ينبغي لك ان لا
تطول على المتعلم الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها
لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض
فيعسر حصول ملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره

حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا واقرب صيغة لان الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره واذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم مالم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم ان لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعليم ماهو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب اه

ولقد مشى على هذه الطريقة فى الاختصار والتعليم مدرسوا المدارس الاميرية فى بلادنا المصرية فألفوا كتب العربية تباعا كتابا بعد الآخر واتبعوا قول ابن خلدون رحمه الله تعالى فالاول كتاب بسيط جدا والثانى عبارة عن الكتاب الاول مزيدا فيه عبارات أخري وهكذا الثالث عن الثانى مع زيادة عبارات والرابع فى فن البلاغة ونجحت نجاحا باهرا فها هى مصر الآن فيها مدارس الجمعيات الخيرية حسنة النظام وتعليمها

علوم العربية وتأليف كتبها أتي بالمقصود ألا فليم التعليم فى الكتاتيب على ذلك النمط الاول وليسر التعليم فى العلوم كلها على النسق الثانى واول الغيث قطر ثم يسكب ولعمرك ليست هذه العلوم مقصودة لذاتها فعلوم العربية والقراءآت بل والتفسير والحديث انما يراد بها الاستطلاع على العلوم التى بها الحياة الحقيقية فى الدنيا والآخرة من العلوم التى هى غذاء والتى هى دواء جسما وعقلا كما أوضحناه سابقا ولقد جعل الغزالى رحمه الله تعالى علوم العربية كلها قشورا وجعل التفسير اسفل القشرة مما يلى اللب بل جعل المفسر كالقارىء غاية الامر انه أرقى منه اذ هو أقرب الى العلوم اما حافظ الروايات وقارىء علوم البلاغة فانما هو فى القشر البحت وكذلك عالم اللغة فالمدار انما هو على نفس العلوم

ويجدر بنا ان نذكر هنا مقالاتنا التى عنوناها سابقا (المقالات الاصمعية)

﴿ المقالات الاصمعية ﴾

(المقالة الاولى)

الترقى فى الازهر

الارتقاء سنة طبيعية في الكائنات من ادناها الى اعلاها حتى يشمل الامكنة والازمنة والجمادات والناميات والنواميس نفسها . نرى الامم فى ارتقائها وتمدينها تكون آخرتها خيراً من أولاها وشبابها خيرا من طفوليتها فاذا ذهبت وخلفتها أخرى ارتقت عنها في ظواهر الاحوال

عرج على شمال المسكونة وجنوبها فى قطبيها فهل تجد هناك الا أدني الحيوان اذ لاتصلح للسكنى فان ارتقيت الى أواسط المعمورة حيث لاتفرط البرودة رأيت الحيوان والنبات والانسان على تمام النمو فهاهنا ارتقاء في المكان وان نظرت الى العناصر وجدت بعضها أرقي من بعض وتدخل فى تركيب النبات وبعضه أرقى من بعض وهكذا عالم الحى الذى ينتهى بالانسان وبالجملة فسنة الترقى هى سنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا »

وكلما خمدت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدلت فى الحضيض ارسل الله لها من يوقظها من غفلتها فان هبت للعمل

ارتقت والا فلتنذرها بالزوال من الوجود

هاهي الامم ارتقت حولنا في جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة وهاهم اغلب المسلمين في بقاع الارض ليس لهم نصيب من الترقى الا كسراب بقيعة فياليت شعرى ما الذي اصاب جسم هذه الامة وأى مكروب من مكروبات الاجتماع فتك بجسمها وما الذى دهى الاسلام ؟ لعمرى ان الاسباب لكثيرة ومن أهمها وأعمها الجهل بالحد الفاصل بين علوم الدين والدنيا حتى وقفنا الآن في حيرة لا يدرى عقلاؤنا ما قسم الدنيا وما قسم الدين فكان هذا هو العائق الاعظم عن تحصيل مراد الحياة والترقي فيها حتى انك ترى الجامع الازهر اكبر كلية اسلامية يعتقد كثير من كبار الامة وعقلائها ان اهله لو عرفوا غير العلوم الاحد عشر لاضمحل الدين وتقلص ظله وها هنا يحسن السؤال أهؤلاء العقلاء معذورون واذا اتبعوا خطوات كثير من اؤلئك الزعماء في ذلك فهل ينجيهم عند الله نقول ان هذا الداء عضال تمكن من جسم الامة فلن يخرج الا بقوة علمية وتأثير صحيح فوجب على من نظر بعين ارتسم على شبكتها علم تخطيط البلدان وما سطره أكابر علماء الاسلام ان يشرحه

لعقلاء الامة ويظهر ما فى بطون الدفاتر مما سطره الاقدمون
ليطلع عليه عقلاؤنا وكبراؤنا ليحكموا بين عقل قديم راجح وجهل
حادث فاضح ولينظروا في أمتهم وشؤونها وسنبين لعقلائنا ما
نعلمه من آراء أكابر علماء الاسلام ولا نقصر فيما يجب علينا
فان هذا الزمان هو الذى يجب فيه نشر العلم ولتكن ابحاثنا هكذا

كليات الاسلام وابن خلدون

الغزالى والعلوم فى الازهر

الازهر وابن رشد

الكليات والترقى

الواقفون والعلماء

ونحو ذلك من المباحث ولنبين ما يجب علينا تلقاء أمتنا
حتى نكون قد ارضينا ضميرنا وديننا ولكي يحاسب كل انسان
نفسه وينظر بعقله بين اقوال السادة الكبراء من علماء الاسلام
فيما يجب على رجال الدين من العلوم ولا يخضع لبسيط حرم
لذيذ العلم ووقف عند طرف قصير من الدين واتبع خطوات
الخبط فى طرق التعليم وليتبين ذلك كله فى مقالاتنا وهذا ان
شاء الله تشرح به صدور الكبراء وأهل الذكاء ومحبو الاصلاح

﴿ المقالة الثانية ﴾

(كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الازهر)

يا قوم أرى الامم تنظر في شؤن الحياة حقيرها وجليلها كبيرها وصغيرها وقد ذهلت عما يصيب الازهر الشريف فما أدرى أفي جسم الامة شلل أصاب اعضاءها فلا تحس أم وقر في آذانها فلا تسمع أم تخبط خبط عشواء فى ليل بهيم وجود الحياة عدم وصحتها مرض والداء عضال شقينا به أزمانا طويلة وأعصراً وحقبا وكأنها دنت ساعة الرحيل وعذاب الهرم الشائن وتوديع أيام الدنيا وقيام ساعة الوعيد والانذار بالويل والنشور

يرون كليات العالم تقدمت وطرق التعليم ارتقت وسبلها تزينت بالانوار وابتهجت والطرق فى كليتنا العظمى في هرمها خالفت المعقول والمنقول والاوائل والاواخر وترى الناس سكارى وما هم بسكاري حيارى وما هم بحيارى ولكن عذاب التقليد والجهل شديد . يا قوم ايجمل في دين المروءة ان يتربع الطالب في الازهر عشرين سنة مثلا فى كتب طالت فقصرت وضخمت فاعتلت فيقرأ المتن والشرح والحاشية والتقرير ثم شرحا آخر وحاشيته وتقريرا وهلم جرا. وربما كان على الكتاب عشرون

كتابا وعلى القاعدة عشرون قولا وهناك تكون الدهشة والحيرة في حفظ المشاغبات والمناقضات والسباب والشتائم والقذف بلغة انحطت درجتها وضاعت بلاغتها وذهبت ثمرتها ففى النحو يحفظ قول « ابن جنى وابن عصفور والكسائى وسيبويه والفراء وغيرهم من الائمة » والسجاعى والرضى ويس والصبان وغيرهم من المؤلفين وهكذا في كل فن حتى اذا وصل الى تفسير القرآن فانما يقرؤه للبركة لا للفهم واليقين مكتفيا بما رزىء به الفؤاد من تلك المشاغبات مقتنعا بما عنده من العلم بل « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » نعم هذا داء أعيا العلامة ابن خلدون دواؤه كما قدمنا وقال ان المرض استحكم والشلل عم الاعصاب فهيهات هيهات أن ينجع الدواء . أحيل القارىء على المقالة التي ذكرناها عن ابن خلدون كيف أبان القول وحذر وأنذر وأوجب نسخ هذه الطرق باقرب منها ووضع التعلم على ثلاث درجات لا غير فى كافة الفنون مبتدىء ومتوسط ومنته مع مراعاة احوال الزمان والمكان

ومن العجيب ان الغزالى رحمه الله قال كقوله (وبين الرجلين أربع قرون وقد مضى الثانى وله نحو خمسة قرون)

ياقوم قد حق القول علينا قد مضي اسلافنا وذهلوا عما انذر به هذان المصلحان وجهلوا أو تجاهلوا حفظا للمراكز وصونا للمقامات وسترا على الجهل فاستحكمت العادة بعدهم وتأصلت فينا فاصبح رجالنا وعقلاؤنا ونوابنا لا يدرون ما يقولون ثم هم بعد ذلك يرجعون الى سلالة تعلمت من أخرى صموا آذانهم عن النداء ياقوم رعاكم الله هلا قرأتم ففهمتم ماسطره ابن خلدون مما ذكرناه آنفا فان الرجل اسمى نظرا مما تعظمون وأرقى عقلا وأحكم رأيا ممن تعتقدون الم يقع ما انذر به من خمسة قرون الم تكلل المدافع رؤس جبالنا وتتوج قلاعنا باكاليل من نار ونحن راصخون صامتون صابرون « انا لله وانا اليه راجعون » هل صواعق المدافع ونيران بارودها ورعد مقذوفاتها الا اثر من آثار العلم وهل تفريق الجامعة والتصديق بالخزافات والتواكل والتخاذل الا أثر من آثار الجهل حتى قبضت هولندا الغربية الصغيرة على جاوة الشرقية الكبيرة واذاقتهم العذاب الهون بما كانوا يكسبون. ياقوم هداكم الله ان ابيتم الا التقليد فاقرؤا ما كتبناه عن ابن خلدون وان حكمتم العقل فما لكم لا تنظرون. واياكم والرضوخ لقول اقوام عيونهم فى غطاء عن الذكرى فهم

لا يبصرون (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وان رأيتم ان الامر ضاع والداء استحكم وعز استئصاله فلم لا تنشؤن كلية تحيون بها مجدا هدم ودينا عفا ودنيا مضت انحن اصبحنا أقل أهل الارض قاطبة أيكون ديننا اشرف الأديان ونحن اكسل الأمم حتى ترقى اليابانى والأوروبى والامريكي ارتقى المثلث وعابد الشمس وبقى الموحد يرسف فى قيود الذل والنكال (فأن اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) هاهى صواعق نيران المدافع وكسف القلل النازلة من سماء المدنية الى أرض الجهالة « فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين »

﴿ المقالة الثالثة ﴾

(نظام الازهر)

الازهر أجل مدرسة اسلامية منها نبغ كثير من الفضلاء والعلماء على مر الدهور والاجيال وقد سار على شاكلتها مدارس اخرى في مساجد امهات القرى كرشيد ودمياط وغيرها فوجب علينا النظر فيها ومن أعجب العجب ان تتعاقب النذر

ويتوالى الارشاد والناس صامتون لا يبدون حراكا . هذا النظام قد ندد عليه ابن خلدون واكابر حكماء الاسلام بقى الى الآن أول حركة للطالب أن يحفظ القرآن حفظاً بلا فهم فاذا أتمه وهو فى الغالب ابن ١٥ سنة انتظم في سلك تلك المدرسة الجامعة وهو لا يعرف من الدين الا اسمه ولا من القرآن الا رسمه ناشدتكم الله ياقوم أليس يضيع زمنه بلا علم ولا تعلم أليس التلميذ فى المدارس قد يأخذ البكالوريا وسنه ١٥ سنة فيكون حفظ القرآن وحده بلا معنى كالابتدائية والتجهيزية أليس من الصواب الرجوع الى ماقاله ابن خلدون ولا ريب أن طريقته تشبه طريقة مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ومدرسة القبه لمولانا العباس

﴿ رأى الكاتب الاصمعي ﴾

الذى أراه ان تجعل[1] له مدرسة ابتدائية تحت نظر الازهر وتدار بادارته وتلك المدرسة يدخلها من عرفوا مبادئ القراءة والكتابة فى الكتاتيب ثم يقرؤن النحو والانشاء والحساب وعلوم الاشياء ممزوجة بمبادىء التوحيد وعلوم الاخلاق

---

١ بعد ظهور هذه المقالة قام بهذا العمل العلامة الشيخ محمد شاكر فنحمد الله ونشكره

وبالجملة تكون على مقتضى نظام المدارس الخيرية مع حفظ
القرآن وفهم معناه بوجه بسيط كما هو الحال في مدرسة القبة
التي هي حسنة كبرى من حسنات مولانا العباس حتى اذا أتم
الطالب سنين معدودة امتحن فاذا نال الشهادة انتظم فى سلك
الطلبة الذين يخوضون في غايات العلوم ولعلك يا أخي تقول ان
الازهر ليس عنده استعداد لانشاء مدرسة . قلنا لم لا يجعل قسم
خاص يكون فيه الدرس على هذا النمط حتي يكون القرآن معروفاً
لفظاً ومعنى فان قلت ان القديم يبقى على قدمه أقول هذا هو
الانحطاط بعينه واذا كانت الامة تشكو من القضاء الشرعى
وانحطاطه وتدعو بالويل والثبور مع انتشار الخرافات بين الخاصة
والعامة ألم يكن ذلك من تلك التربية الضعيفة وكيف يبقى الطالب
١٥ سنة أو نحوها وهو لم يدر فى الدنيا شيئاً ثم يتعلم بعد ذلك
أليست الملكات قد رسخت عنده وتعسر اقتلاعها أليس إبقاؤه
تلك المدة بين يدى معلم جاهل كافياً لاذهاب الفطنة من رأسه
وخروجه من الحياة صفر اليدين أليست العلوم تبقى بعد ذلك
سطحية اذ المؤثر على المرء مايسمعه فى أول حياته ويتلقاه فى مبدإ
صباه وهل أتاك نبأ التدريس بعد ذلك وهو لعمرك نبأ عظيم

لا يدخل العلم فى الاذهان الا من وراء حجب الجدال العنيف

يبتدىء الطالب وهو لا يحسن قراءة سطرين ولا فهم جملتين ولا اعراب كلمتين وأول مايبدأ إذ ذاك بالبسملة واعرابها وان لها تسعة أوجه ويقال بسم الله الرحمنِ الرحمنَ الرحمنُ وان هذه الاوجه الثلاثة مع أوجه الرحيم الثلاثة يضربها فى بعضها تبلغ تسعة ثم يقال له هذا هو النعت المقطوع ففى حال النصب يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره امدح الرحمن أمدح فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة ظاهرة فى آخره والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنا والرحمن منصوب وعلامة نصبه فتحة ظاهرة فى آخره وهذا بعض اعراب وجه من الاوجه التسعة ويجرى الباقي على مقتضاه فيكون اعراب الاوجه التسعة يشغل كراسة بتمامها ثم يحفظ هذا النظم ليعلم ان وجهين منها ممنوعان وليكون ضابطا وقانونا

ان ينصب الرحمن او يرتفعا	فالجر فى الرحيم قطعا منعا
وان يجر فاجز فى الثاني	ثلاثة الاوجه خذ بياني
فهذه تضمنت تسعا منع	وجهان منها فادر هذا واستمع

ومن المدهشات ان علم الفقه تقرأ عباداته ومعاملاته من

البيع والشراء والقرض وغيرها تعبدا ويبقى الطالب ما بين العشرة الى الخمس عشرة سنة وهو يتعلمها ثم يجلس على منصة الاحكام فيضل فيها بعد أن ضاع الزمان ومات شطر من عمره وهـذا التلميذ يدخل مدرسة الحقوق ويقرأ لغتين فيها ويلم باطراف القوانين والاحكام ثم يكر كرة على اللاتينية فيتعلمها ليعرف كيف يفهم القانون الرومانى كل ذلك في أربع سنين وكيف يرى ذلك القاضي الاهلى نفسه ارفع مقاما من ذلك العالم الديني أليس هذا كله من جراء طريقة التعليم ورداءتها أقول هذا وأنا أعلم أنه لن يقدر هذا القول حق قدره الا علماء الامة وأكابرها والمأمول من اولياء الامور أن ينظروا في هذه المدرسة وينقذوا طلبتها وطلبة مدارس أخرى ربما بلغت ١٥ الفا من الضياع واذا كان نظام التعليم يبقي على ماهو عليه الآن فلا غرابة اذا كان القاضى والمفتى المتخرجان يقضيان ويفتيان بما نرى ونسمع كل يوم وكيف يجوز السكوت على هذه الوصمة وقد احاطت بنا الافرنج من كل جانب واحدقت بنـا الاعين تزلقنا بابصارها فمها سهونا اولهونا فدوسنا بالقدم و سوقنا الى العدم اسرع من لمح البصر سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

﴿ المقالة الرابعة ﴾

(الغزالى والعلوم فى الازهر)

ذكرنا فيما سبق ماقاله علماؤنا رحمهم الله تعالى ومايوجبه العقل والنقل في طريقة التعليم وتغييرها واتباع احسنها والآن نبحث فى العلوم الواجب على الامة معرفتها والاستبصار بها فاني علمت ان كثيرا من عقلائنا يخدعهم قول القائلين ان علوم الدين اذا صحبت غيرها اضر ذلك بها موهمين الناس ان علوم الدين الاسلامى قاصرة على مايقولون ولا شاهد على ما يقولون

من لى بان يقرأ العقلاء ماسطره الغزالى فى الجزء الاول من الاحيا من الحط على العلماء وذمه الاقتصار على فنون محدودة وترك الطب الذى يعتبره علماء الشريعة حجة في الفتاوى وبين الاسباب الداعية للتوغل فى الفقه وأبان ان ذلك للدنيا وحدها لا للدين وقال ما نصه (اعلم ان الغرض لا يتميز عن غيره الا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالاضافة الى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم الى شرعية وغير شرعية واعنى بالشرعية ما استفيد من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل اليه كالحساب والتجربة مثل الطب والسماع مثل اللغة.

فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ما هو مذموم والى ما هو مباح فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم الى ما هو فرض كفاية والى ماهو فضيلة وليس بفريضة أما فرض الكفاية فهو كل علم لايستغنى عنه في قوام امور الدنيا كالطب اذ هو ضرورى في حاجة بقاء الابدان وكالحساب فانه ضرورى في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها وهذه هى العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج اهل البلد واذاقام بهاواحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين فلايتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات فان اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم وعرضوا انفسهم الى الهلاك فان الذى انزل الداء انزل الدواء وارشد الى استعماله واعد الاسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله واما ما يعد فضيلة لافريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج واما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات

وعلم الشعبذة والتليسات واما المباح فالعلم بالاشعار التى لا سخف فيها وتواريخ الاخبار وما يجرى مجراه) ثم قال بعد كلام طويل مانصه (فان قلت لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا — فاعلم ان الله عز وجل اخرج آدم من التراب واخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق فاخرجهم من الاصلاب الى الارحام ومنها الى الدنيا ثم الى القبر ثم الى العرض ثم الى الجنة او الى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زادا للميعاد ليتناول منها مايصلح للتزود فلو تناولها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة الى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان الى قانون يسوسهم به وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطها لينتظم باستقامتهم امورهم في الدنيا ولعمري انه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة فان الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين اصل والسلطان حارس وما لا اصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط الا

بالسلطان وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه وكما أن
سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الاولى
بل هو معين على مالا يتم الدين الا به فكذلك معرفة طريق
السياسة فمعلوم ان الحج لايتم الا ببذرقة تحرس من العرب في
الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق الى الحج شيء ثان
والقيام بالحراسة التى لا يتم الحج الا بها شيء ثالث ومعرفة
طرق الحراسة وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة
طرق السياسة والحراسة) ثم قال رحمه الله (ولو سألت الفقيه
عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من
التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج الى شيء منها
وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فلا
يزال يتعب فيها ليلا ونهارا فى حفظه ودرسه ويغفل عما هو
مهم نفسه فى الدين واذا روجع فيه قال اشتغلت لانه علم الدين
وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه والفطن
يعلم انه لو كان غرضه أداء الامر في فرض الكفاية لقدم عليه
فرض العين بل لقدم عليه كثيرا من فروض الكفايات وكم من
بلدة ليس فيها طبيب من اهل الذمة ولايجوز قبول شهاداتهم

فيما يتعلق بالاطباء من احكام الفقه ثم لا نرى احدا يشتغل به ويتهافتون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة واهمال مالا قائم به هل لهذا سبب الا ان الطب ليس يتيسر الوصول به الى تولى الاوقاف والوصايا وحيازة مال الايتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء فالله المستعان واليه الملاذ فى ان يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان

﴿ المقالة الخامسة ﴾

قال رحمه الله (لا ينبغي للطالب ان يدع فنا من فنونه المحمودة ولا نوعا من من أنواعه الا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه والا اشتغل بالاهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم كثيرة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك من

عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ماجهلوا « قال تعالى واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » قال الشاعر

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد الى الله تعالى او معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد والمقصود والقوام بها حفظة كحفاظ الرباط والثغور ولكل واحد مرتبة وله بحسب درجته أجر فى الآخرة) انتهى كلامه بالحرف الواحد ثم نقول عجباً كيف يدعى قوم انهم عرفوا التوحيد وهم يجهلون ماذرا الله في الكائنات أم كيف يقرأون القرآن وهم عن آيات الله فى السموات والارض معرضون (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) من لى بان يقف عقلاء الامة على مابين أيدى القوم الآن من عبارات مشوشة مشؤومة وماسطره المتقدمون هذا أعظم كتاب بين ظهر انينا (جمع الجوامع) وكم يدندنون ويطنطنون بقولهم « شكر المنعم واجب »وكثيراً ماجعلت هذه العبارة امتحانا للطالب فى علم الاصول حتي يقرر عالما فياليت شعرى ما الذى يستفيده القارىء من تلك العبارات والمجادلات والمناقضات والخلاف

بين أهل السنة والمعتزلة وبعد هذا وذاك تقول احدى الحواشى لم يرد فى علم الفقه ان شكر المنعم واجب . . .

دعنا من هذا الخطب الجليل المدلهم المظيم وانظر الشكر فى الجزء الرابع من الاحياء وكيف فصله وقسمه وتأمل كيف ذكر سعادة الانسان فى دنياه ودينه وكيف فصل السعادات تقسيما عجز عنه فطاحل علماء الغرب وها هو العلامة جون لبك الانجليزي احد أعاظم الانجليز الآن الذى يشار اليه بالبنان بين أمته وجميع علماء أوروبا قد ألف كتابا فى سعادة الحياة وترجم الى اكثر اللغات واذا قارناه مع ضخامته وحسن تركيبه وترصيعه وما حوي من حكم وامثال وجمال لانجده قسم السعاده وفصلها ورتب اقسامها واستوفاها كما فعل الغزالى فى باب الشكر مع الوجازة فليراجعه من أراد ولينظر ويقارن بين عالم شرقى مضي له تسعة قرون وعالم غربى وليتأمل فلسفة الفريقين وحكمة الرجلين فى باب السعادة (الذى جعله الغزالى استطرادا فى باب الشكر كما قدمنا) وكيف ادخل رحمه الله جميع اقسام العلوم والمعارف وأحوال الدنيا والآخرة فيها ثم يكر كرة على جمع الجوامع ويقرأ شكر المنعم فيه فبماذا ياقوم تحكمون قال علماؤنا

علوم العربية كلها من علوم الدنيا يقرؤها المسلم واليهودي والنصراني والمجوسي وعابد الشمس وكل صاحب دين ونحلة ولكن يتوقف عليها معرفة الكتاب والسنة فعلم الطبيعة ومعرفة ما خلق الله في الارض والسماء مما يتوقف عليها معرفة الله وجماله وحكمته في خلقه وان أبيت ياصاح الا الافصاح فاقرأ باب التفكر في الاحياء فهل تري الا نظرة في علم الطبيعيات التى حرم منها طلبة العلم وتعلمها اصغر تلميذ في مدارس أوروبا

هاهم ياقوم أهل الغرب قاطبة وتبعهم يابان الشرق يدرسون من كل علم طرفا أولا حتى اذا نالوه ووصلوا غايته الوسطى (الشهادة الثانوية) رأيت كل واحد اختارفنا للتضلع فيه وصار ركنا فى الامة لهذا الفن يا قوم أليس هذا ما قاله الغزالى من نحو تسع قرون . ياقوم كنا ملوكاً على الاسرة فاصبحنا اذنابا للتقليد والجهل فهل أنتم منتهون ... أحيل القارئ على تفسير الرازى لينظر كيف ذكر فيه من كل فن من الطبيعيات والرياضيات والالهيات أتقول بعد هذا ان هذه العلوم ليست من الدين . يا قوم مالنا أصبحنا ننكر الضروريات وعميت علينا السبل . ياقوم أن فؤادى لينفطر الآن على ما أصاب جسم الامة وما دهى

رجالها وهذا مقدورى وغاية وسعى أخرج من حد الكتمان
وهل يجوز بعد هذا أن ينكر من تربوا تربية ناقصة حتى اذا
مروا على حكمة من حكم الله أو عجيبة من عجائبه قالوا هذا
ليس من الدين . العلوم شجرة أصلها ثابت في الافئدة فروعها
كل علم ثمرتها الاعمال وأصل العلوم معرفة الله تعالى وجماله
ولا سبيل الى ذلك الا بالعلوم الطبيعية التى جعلها الله أول
واجب على الانسان لمعرفته كما في مئات فى الآيات وأقوال
اكابر العلماء وسنبين ذلك في المقال الآتى من كلام ابن رشد
صبحاً . أليس الصبح بقريب

المقالة السادسة

(الازهر وابن رشد)

ذكرنا فى سابق قولنا طرفا من كلام ابن خلدون والغزالى
فى رداءة التعليم والقصور فى العلوم وها هو ابن رشد رحمه الله
قال (ان فعل الفلسفة ليس شيئاً اكثر من النظر فى الموجودات
واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعنى من جهة ما هى
مصنوعاته فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها

وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها أ تم كانت المعرفة بالصانع أتم
وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك
فبين ان مايدل عليه هذا الاسم اما واجب بالشرع واما مندوب
اليه فاما ان الشرع دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب
معرفتها به فذلك بين في غير ما آيه من كتاب الله تبارك وتعالى
مثل قوله (فاعتبروا يا أولى الابصار) وهذا نص على وجوب
استعمال القياس العقلى أو العقلى والشرعي معا ومثل قوله تعالى
(أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وماخلق الله من
شيء) وهذا بالحث على النظر فى جميع الموجودات واعلم انه
ممن خصه الله تعالى بهذا العلم وشرفه ابراهيم عليه السلام فقال
تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض الآية
وقال تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء
كيف رفعت) وقال (ويتفكرون في خلق السموات والارض)
الى غير ذلك من الآيات التى لاتحصى كثرة اه ثم قال في موضع
آخر (اعلم ان الذى قصده الشرع من معرفة العالم هو انه
مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له وانه لم يوجد عن الاتفاق
من نفسه فالطريق التي يسلك الشرع بالناس فى تقرير هذا الاصل

ليس هو طريق الاشعرية فانا قد بينا ان تلك الطرق ليست من
الطرق اليقينية الخاصة بالعلماء ولا هي من الطرق العامة المشتركة
بالجميع وهي الطرق البسيطة اعني بالبسيطة القليلة المقدمات التى
نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها وأما البينات التي
تكون بالمقاييس المركبة الطويلة التى تنبنى على اصول متفننة فليس
يستعملها الشرع في تعليم الجمهور فهل من سلك بالجمهور غير هذا
النوع من الطرق اعنى البسيطة وتأول ذلك على الشرع فقد جهل
مقصده وزاغ عن الطريقة وكذلك ايضاً لا يعرف الشرع بامثال
هذه المقاييس من الامور الا ما كان له مثال فى الشاهد وما
كانت الحاجة الى تعريف الجمهور به وكيدة مثل ذلك باقرب
الاشياء شبها به كالحال فى أحوال المعاد وما لم تكن لهم به حاجة
الى معرفته فى هذا الجنس عرفوا انه ليس من علمهم كما قال
تعالى فى الروح واذ قد تقرر لنا في هذا الاصل فواجب ان
تكون الطريقة التى سلكها الشرع فى تعليم الجمهور حدوث
العالم من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع وواجب ان
كان حدوثه ليس له مثال في الشاهد أن يكون الشرع استعمل
فى تمثيل ذلك حدوث الاشياء المشاهدة فاما الطريق التى سلكها

الشرع فى تعليم الجمهور ان العالم مصنوع لله تبارك وتعالى
فانه اذا تؤملت الايات التى تضمنت هذا المعنى وجدت
تلك الطرق هى طريق العناية وهى احدى الطرق التى قلنا انها
الدالة على وجود الخالق تعالى وذلك انه كما ان الانسان اذا نظر
الى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ووضع ما
موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس
والغاية المطلوبة حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل وبغير
ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم
على القطع ان لذلك الشيء صانعا صنعه ولذلك وافق شكله
ووضعه وقدره تلك المنفعة وانه ليس يمكن ان يكون اجتماع
تلك الاشياء لوجود المنفعة بالاتفاق مثال ذلك انه اذا رأى
انسان حجرا موجودا على الارض ووجد شكله بصفة يتأتى
منها الجلوس ووجد ايضا وضعه كذلك وقدره علم ان ذلك
الحجر انما صنعه صانع وهو الذى وضعه كذلك وقدره فى ذلك
المكان واما متى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس فانه
يقطع ان وقوعه في ذلك المكان ووجوده بصفة ماهى بالاتفاق
ومن غير ان يجعله هذا لك فاعل كذلك الامر فى العالم كله فانه

اذا نظر الانسان الى مافيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هى سبب الازمنة الاربعة وسبب الليل والنهار وسبب الامطار والمياه والرياح وسبب عمارة أجزاء الارض ووجود الناس وسائر الحيوانات البرية وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية والهواء للحيونات الطائرة ولو انه اختل شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى ههنا علم بالقطع أنه ليس يمكن ان تكون هذه الموافقة التي فى جميع اجزاء العالم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق بل ذلك من قاصد قصده ومريد اراده هو الله عز وجل وعلم على القطع ان العالم مصنوع وذلك انه يعلم ضرورة انه لم يمكن ان توجد فيه هذه الموافقة لوكان وجوده عن غير صانع بل عن الاتفاق فاما ان هذا النوع من الدليل قطعي وانه بسيط فظاهر من هذا الذى كتبناه وذلك ان مبناه على اصلين معترف بهما عند الجميع احدهما ان العالم بجميع اجزائه يوجد موافقا لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التى ههنا والاصل الثانى ان كل ما يوجد موافقا فى كل جميع اجزائه لفعل واحد ومسدد نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة فينتج عن هذين الاصلين بالطبع ان العالم

مصنوع وانه له صانع وذلك ان دلالة العناية تدل على الامرين معا ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع واما ان هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التى يذكر فيها بدء الخلق فمنها قوله تعالى الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا الى قوله (وجنات الفافا) فان هذه الآية اذا تؤملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان وذلك انه ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الابيض والاسود وهو ان الارض خلقت يتأتى لنا المقام عليها وانها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير شكلها أو في موضع آخر غير هذا الذى هى فيه او بقدر غير هذا القدر ما أمكن ان توجد فيها ولان نخلق عليها وهـذا كله محصور في قوله تعالى « لم نجعل الارض مهادا » وذلك ان المهاد يجمع الموافقة فى الشكل والسكون والوضع وزائدا الى هذا معنى الوثارة واللين فما أعجب هذا الاعجاز وأفضل هذه السعادة واغرب هذا الجمع وذلك انه قد جمع فى لفظ مهاد جميع مافى الارض من موافقتها لكون الانسان عليها وذلك شيء قد تبين على التمام للعلماء فى

ترتيب من الكلام طويل وقدر من الزمان غير يسير والله يختص برحمته من يشاء واما قوله تعالى «والجبال أوتادا» فانه نبه بذلك على المنفعة الموجودة في سكون الارض من قبل الجبال فانه لو قدرت الارض اصغر مما هي كان كانت دون الجبال لتزعزعت من حركات باقى الاسطقسات اعنى الماء والهواء ولتزلزلت وخرجت من موضعها ولو كان ذلك كذلك لهلك الحيوان ضرورة فاذا موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم تعرض بالاتفاق وانما عرضت عن قصد قاصد وارادة مريد فهي ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة له على الصفة التى قدرها لوجود ماعليها من الموجودات ثم نبه أيضاً على موافقة وجود الليل والنهار للحيوان فقال تعالى « وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » يريد ان الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات ههنا من حرارة الشمس وذلك انه لولا غيبة الشمس بالليل لهلكت الموجودات التى جعل الله حياتها بالشمس وهو الحيوان والنبات فلما كان اللباس قد يقى من الحر مع انه سترة وكان الليل يوجد فيه هذان المعنيان سماه الله لباساً وهذا من ابدع الاستعارة وفي الليل أيضاً منفعة اخرى

للحيوان وهو ان نومه يكون فيه مستغرقا لما كان ذهاب الضوء الذى يحرك الحواس الى البدن الذى هو اليقظة ولذلك قال تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) أى مستغرقا من قبل ظلمة الليل ثم قال تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا » فعبر بلفظ البنيان عن معنى الاتقان الموجود فيها والنظام والترتيب وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة التى لا تفتر عنها ولا يلحقها من قبلها ملال ولا تخاف ان تخر كما تخر السقوف والمبانى العالية الى هذه الاشارة بقوله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) وهذا كله تنبيه منه على موافقتها في أعدادها واشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الارض وما حولها حتى انه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة لفسد ما على وجه الارض فضلا عن ان تقف كلها وقد زعم قوم أن النفخ في الصور الذى هو سبب الصعقة وقوف الفلك ثم نبه على منفعة الشمس الخاصة وموافقتها لوجود ما على الارض فقال تعالى « وجعلنا سراجا وهاجا » وانما سماها سراجا لان الاصل هو الظلمة والضوء طارىء على ظلمة الليل ولولا السراج لم ينتفع الانسان بحاسة بصره بالليل وكذلك لولا الشمس لم ينتفع

الحيوان بحاسة بصره اصلا وانما نبه على هذه المنفعة للشمس فقط دون سائر منافعها لانها اشرف منافعها وأظهرها ثم نبه تعالى على العناية المذكورة في نزول المطر وانه انما ينزل بمكان النبات والحيوان وان نزول المطر بقدر محدود وفي أوقات محدوده لنبات الزرع ليس يمكن يعرض عن الاتفاق بل سبب ذلك العناية بما ههنا فقال تعالى « وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا والآيات التي في القرآن فى التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى « الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله انبتكم من الارض نباتا» ومثل قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات ونفصل ما نبهت عليه من العناية التى تدل على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة وليس ذلك قصدنا فى هذا الكتاب ولعلنا ان مد الله فى الاجل ووقع لنا فراغ ان نكتب في العناية التى نبه عليها الكتاب العزيز وينبغي ان تعلم ان هذا النوع من الاستدلال في غاية المضادة للاستدلال الذى زعمت الاشعرية انه الطريق الى معرفة الله سبحانه وذلك انهم

زعموا ان دلالة الموجودات على الله تبارك وتعالى ليس من أجل حكمة فيها تقتضى العناية ولكن من قبل الجواز أي من قبل ما يظهر فى جميع الموجودات أنه جائز في العقل أن يكون بهذه الصفة أو ضدها فانه ان كان هذا الجواز على السواء فليس ههنا حكمة ولا توجد ههنا موافقة اصلا بين الانسان وبين اجزاء العالم وذلك انه ان كان يمكن على زعمهم أن تكون الموجودات على غير ماهى عليه كوجودها على ماهى عليه فليس ههنا موافقة بين الانسان وبين الموجودات التي امتن عليه الله بخلقها وأمره بشكره عليها فان هذا الرأى الذى يلزمه أن يكون امكان خلق الانسان جزء من هذا العالم كامكان خلقه في الخلاء مثلا الذى يرون أنه موجود بل والانسان عنده يمكن أن يكون بشكل آخر وخلقة اخرى ويوجد عنه فعل الانسان وقد يمكن عندهم أن يكون جزء من عالم اخر مخالف بالحد والشرح لهذا العالم فلا تكون نعمة ههنا يمتن بها على الانسان لان ماليس بضرورى ولا من جهة الافضل في وجود الانسان فالانسان مستغن عنه وماهو مستغن عنه فليس وجوده بانعام عليه وهذا كله خلاف مافى فطر الناس وبالجملة فكما ان من انكر وجود المسببات مرتبة

على الاسباب فى الامور الصناعية أو لم يدركها فهمه فليس عنده علم بالصناعة ولا الصانع كذلك من جحد وجود ترتيب المسببات على الاسباب في هذا العالم فقد جحد الحكيم تعالى الله عن ذلك. علواً كبيراً وقولهم ان الله أجرى العادة بهذه الاسباب وانه ليس لها تأثير في المسببات باذنه قول بعيد جداً عن مقتضى الحكمة بل هو معطل لها لان المسببات ان كان يمكن أن توجد من غير هذه الاسباب على حد ما يمكن أن توجد بهذه الاسباب فأى حكمة فى وجودها عن هذه الاسباب وذلك ان وجود المسببات عن الاسباب لا يخلو من ثلاثة أوجه إما أن يكون وجود الاسباب لمكان المسببات من الاضطرار مثل كون الانسان متغذيا وإما أن يكون من أجل الافضل أعنى لتكون المسببات بذلك أفضل وأتم مثل كون الانسان له عينان وإما أن يكون ذلك لا من جهة الافضل ولا من الاضطرار فيكون وجود المسببات عن الاسباب بالاتفاق وبغير قصد فلا تكون هنالك حكمة أصلا ولا تدل على صانع اصلا بل انما تدل على اتفاق وذلك انه ان كان مثلا ليس شكل يد الانسان ولا عدد أصابعها ولا مقدارها ضروريا ولا من جهة الافضل فى الامساك الذي

هو فعلها وفى احتوائها على جميع الاشياء المختلفة الشكل وموافقتها لامساك آلات جميع الصنائع فوجود افعال اليد الذى هو عن شكلها وعدد اجزائها ومقدارها هو بالاتفاق ولو كان ذلك كذلك لكان لا فرق بين ان يخص الانسان باليد أو الحافر أو بغير ذلك مما يخص حيوانا من الشكل الموافق لفعله وبالجملة متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن ههنا شيء يرد به على القائلين بالاتفاق أعنى الذين يقولون لاصانع ههنا وان جميع ما حدث فى هـذا العالم انما هو عن الاسباب المادية لان أحد الجائزين هو احق ان يقع عن الاتفاق منه ان يقع عن فاعل مختار وذلك انه إذا قال الاشعرى ان وجود أحد الجائزين او الجائزات هو دال على ان ههنا مخصصاً فاعلا كان لأولئك ان يقولوا ان وجود الموجودات على احد الجائزين او الجائزات هو عن الاتفاق لان الارادة انما تفعل لمكان سبب من الاسباب والذي يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق اذ كنا نرى اشياء كثيرة تحدث بهذه الصفة مثل مايعرض للاستقساط ان تمتزج امتزاجا بالاتفاق فيحدث عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود آخر فتكون على هذه جميع الموجودات حادثة عن الاتفاق أما نحن

فلما كنا نقول انه واجب ان يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن
ان يوجد اتقن منه ولا أتم منه وان الامتزاجات محدودة مقدرة
والموجودات الحادثة عنها واجبة وان هذا دائما لا يختل لم يمكن
ان يوجد ذلك عن الاتفاق لان مايوجد عن الاتفاق هو أقل
ضرورة والى هذا الاشارة بقوله تعالى صنع الله الذى اتقن كل
شيء واى اتقان يكون ليت شعرى فى الموجودات ان كانت
على الجواز لان الجائز ليس هو اولى بالشيء من ضده والى
هذا الاشارة بقوله تعالى ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت
فارجع البصر هل ترى من فطور واى تفاوت اعظم من ان
تكون الاشياء كلها يمكن ان توجد على صفة أخرى فوجدت
على هذه ولعل تلك الصفة المعدومة افضل من الموجودة فمن
زعم مثلا ان الحركه الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية
لم يكن فى ذلك فرق فى صنعة العالم فقد ابطل الحكمة وهو كمن
زعم انه لو كان اليمين من الحيوان شمالا والشمال يمينا لم يكن فى
ذلك فرق فى صنعة الحيوان فان احد الجائزين كما يمكن ان
يقال فيه انما وجد على أحد الجائزين من فاعل مختار كذلك
ممكن ان يقال انه انما وجد على أحد الجائزين بالاتفاق اذ كنا

نرى كثيراً من الجائزات توجد على الجائزين عن فاعليها بالاتفاق وانت لتتبين ان الناس باجمعهم يرون ان المصنوعات الخسيسة هي التي يرى الناس فيها انه كان يمكن ان تكون على غير ما صنعت عليه حتى انه ربما أدت الخساسة الواقعة في كثير من المصنوعات التي بهذه الصفة ان يظن انها حدثت عن الاتفاق وانهم يرون ان المصنوعات الشريفة هي التي يرون فيها انه ليس يمكن ان تكون على هيئة أتم وافضل من الهيئة التي جعلها عليها صانعها فاذا هذا الرأي من آراء المتكلمين هو مضاد للحكمة والشريعة ومعنى ما قلناه من ان القول بالجواز هو اقرب الى نفي الصانع عن ان يدل على وجوده مع انه ينفي الحكمة عنه وانه متى لم يعقل ان ههنا أواسط بين المبادىء والغايات في المصنوعات تترتب عليها وجود الغايات لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب واذا لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة ان لهذه الموجودات فاعلا مريداً عالما لان الترتيب والنظام وبناء المسببات على الاسباب هو الذي يدل على انها صدرت عن علم وحكمة واما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن أن يكون عن فاعل غير حكيم عن الاتفاق عنه مثل أن يقع حجر على

الارض عن الثقل فيه فيسقط على جهة منه وعلى موضع دون
موضع أو على وضع دون وضع فان هذا القول يلزم عنه ضرورة
اما ابطال وجود الفاعل على الاطلاق وإما ابطال وجود فاعل
حكيم عالم تعالى الله وتقدست أسماؤه عن ذلك واما الذى قاد
المتكلمين من الاشعرية الى هذا القول فالهروب من القول بفعل
القوى الطبيعية التى ركبها الله في الموجودات التي ههنا كما ركب
فيها النفوس وغير ذلك من الاسباب المؤثرة فهربوا من القول
بالاسباب لئلا يدخل عليهم القول بان ههنا أسبابا فاعلة غير الله
وهيهات لا فاعل ههنا الا الله اذا كان مخترع الاسباب وكونها
أسبابا مؤثرة هو باذنه وحفظه لوجودها وسنبين هذا المعنى بيانا
اكثر فى مسألة القضاء والقدر وأيضاً فانهم خافوا أن يدخل
عليهم من القول بالاسباب الطبيعية أن يكون العالم صادراً عن
سبب طبيعى ولو علموا أن الطبيعة مصنوعة وانه لا شيء أدل
على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة فى الاحكام لعلموا
أن القائل بنفي الطبيعة قد أسقط جزءاً عظيما من موجودات
الاستدلال على وجود الصانع العالم بجحده جزءا من موجودات
الله وذلك أن من جحد جنساً من المخلوقات الموجودات فقد

جحد فعلا من أفعال الخالق سبحانه ويقرب هذا ممن جحد صفة من صفاته فلما كان نظر هؤلاء القوم مأخوذاً من بادىء الرأى وهو الظنون التى تخطر للانسان من أول نظره وكان يظهر فى بادىء الرأى ان اسم الارادة إنما يطلق على من يقدر أن يفعل الشيء وضده رأوا انهم ان لم يصلوا الى أن الموجودات جائزة لم يقدروا ان يقولوا بوجود فاعل مريد فقالوا ان الموجودات كلها جائزة ليثبتوا من ذلك ان المبدأ الفاعل مريد كأنهم لم يروا الترتيب الذى في الامور الصناعية ضروريا وهو مع ذلك صادر عن فاعل مريد وهو الصانع وهؤلاء القوم غفلوا عما يدخل عليهم من هذا القول من نفى الحكمة عن الصانع أو دخول السبب الاتفاقى فى الموجودات فان الاشياء التى تفعلها الارادة لا لمكان شيء من الاشياء أعنى لمكان غاية من الغايات فهى عبث ومنسوبه الى الاتفاق ولو علموا كما قلنا انه يجب من جهة النظام الموجود في أفعال الطبيعة ان تكون موجودة عن صانع عالم والا كان النظام بالاتفاق لما احتاجوا أن ينكروا أفعال الطبيعة فينكروا جنداً من جنود الله التي سخرها الله تعالى لايجاد كثير من موجودات باذنه ولحفظها وذلك ان

الله تبارك وتعالى أوجد موجودات باسباب سخرها لها من خارج وهي الاجسام السماوية وباسباب أوجدها في ذرات تلك الموجودات وهي النفوس والقوى الطبيعية حتى انحفظ بذلك وجود الموجودات وتمت الحكمة فمن أظلم ممن أبطل الحكمة وافترى على الله الكذب فهذا مقدار ما عرض من التغيير فى هذه الشريعة في هذا المعنى وفى غيره من المعاني التي بيناها قبل ونبينها فيما يأتى ان شاء الله تعالى فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التى نصبها الله لعباده ليعرفوا منها ان العالم مخلوق له ومصنوع هى مايظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التى فيها وبخاصة بالانسان وهى طريقة نسبتها في الظهور الى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس واما الطريق التي سلك بالجمهور تصور هذا المعنى فهو التمثيل بالشاهد وان كان ليس له مثال فى الشاهد اذ ليس يمكن للجمهور أن يتصوروا كنه ماليس له مثال فى الشاهد فأخبر تعالى ان العالم وقع خلقه اياه فى زمان وان خلقه من شيء اذا كان لا يعرف فى الشاهد مكون الا بهذه الصفة فقال سبحانه مخبراً عن حالته قبل كون العالم وكان عرشه على الماء وقال تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض

فى ستة أيام) وقال « ثم استوى الى السماء وهى دخان » الى
سائر الآيات التى في الكتاب العزيز فى هذا المعنى فيجب أن
لا يتأول شيء من هذا للجمهور ولا يتعرض لتنزيله على غير
هذا التمثيل فانه من غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية فاما
ان يقال لهم ان عقيدة الشرع فى العالم هى انه محدث وانة خلق
من غير شىء وفي غير زمان فذلك شىء لا يمكن أن يتصوره
العلماء فضلا عن الجمهور فينبغي كما قلنا أن لا يعدل فى الشرع
عن التصور الذى وضعه للجمهور ولا يصرح لهم بغير ذلك فان
هذا النوع من التمثيل فى خلق العالم هو الموجود في القرآن وفي
التوراة وفى سائر الكتب المنزلة ومن العجب الذى فى هذا
المعنى أن التمثيل الذى جاء فى الشرع في خلق العالم يطابق معنى
الحدوث الذى فى الشاهد اطلق ولكن الشرع لم يصرح فيه بهذا
اللفظ وذلك تنبيه منه للعلماء على أن حدوث العالم ليس هو مثل
الحدوث الذى في الشاهد .

وانما اطلق عليه لفظ الخلق ولفظ الفطور وهذه الالفاظ
تصلح لتصور المعنيين اعنى لتصور الحدوث الذى في الشاهد
وتصور الحدوث لذى أدى اليه البرهان عند العلماء في الغائب

فاذا استعمال لفظ الحدوث او القدم بدعة في الشرع وموقع
في شبهة عظيمة تفسد عقائد الجمهور وبخاصة الجدليين منهم
ولذلك عرضت اشد حيرة تكون واعظم شبهة للمتكلمين من
اهل ملتنا اعنى الاشعرية وذلك انهم لما صرحوا ان الله مريد
بارادة قديمة وهذا بدعة كما قلنا ووصفوا ان العالم محدث قيل
لهم كيف يكون مراد حادث عن ارادة قديمة فقالوا ان الارادة
القديمة تعلقت بايجاده في وقت مخصوص وهو الوقت الذى وجد
فيه فقيل لهم ان كانت نسبة الفاعل المريد الى المحدث في وقت
عدمه هى بعينها نسبته اليه فى وقت ايجاده فالمحدث لم يكن وجوده
في وقت وجوده اولى منه فى غيره اذا لم يعلق به فى وقت
الوجود فعل انتفى عنه فى وقت العدم وان كانت مختلفة فهنالك
ارادة حادثة ضرورة والاوجب ان يكون مفعول محدث عن
فعل قديم فان مايلزم من ذلك فى الفعل يلزم في الارادة وذلك
انه يقال لهم اذا حضر الوقت وقت وجوده فوجد هل وجد
بفعل قديم او بفعل محدث فان قالوا بفعل قديم فقد جوزوا وجود
المحدث بفعل قديم وان قالوا بفعل محدث لزمهم أن يكون
هنالك ارادة محدثة فان قالوا الارادة هى نفس الفعل فقد قالوا

محالا فان الارادة هي سبب الفعل فى المراد ولو كان المريد اذا
أراد شيئا ما فى وقت ما وجد ذلك الشيء عند حضور وقته
من غير فعل منه بالارادة المتقدمة لكان ذلك الشيء موجودا
من غير فاعل وايضاً فقد يظن انه ان كان واجبا ان يكون عن
الارادة الحادثة مراد حادث فقد يجب ان يكون عن الارادة
القديمة مراد قديم ولا كان مراد الارادة القديمة والحادثة واحدا
وذلك مستحيل فهذه الشبه كلها وانما اثارها فى الاسلام اهل الكلام
بتصريحهم فى الشرع بما لم يأذن به الله فانه ليس في الشرع انه
سبحانه وتعالى مريد بارادة حادثة ولا قديمة فلا هم فى هذه
الاشياء اتبعوا ظواهر الشرع فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع
الظاهر ولا هم ايضاً لحقوا بمرتبة اهل اليقين فكانوا ممن سعادته
في علوم اليقين ولذلك ليسوا من العلماء ولا من جمهور المؤمنين
المصدقين وانما هم من الذين في قلوبهم زيغ وفي قلوبهم مرض
فانهم يقولون بالنطق الخارج اشياء يخالفها النطق الباطن منهم
وسبب ذلك العصبية والمحبة وقد يكون الاعتياد لامثال هذه
الاقاويل سببا للانخلاع عن المعقولات كما نرى يعرض للذين
مهروا بطريق الاشعرية وارتاضوا بها من الصبا فهؤلاء لاشك

محجوبون بحجاب العادة والمنشأ فهذا الذى ذكرناه من امر هذه المسألة كاف بحسب غرضنا) اه كلام ابن رشد فترى بهذا أنه قد انحى على رداءة تعليم التوحيد وفصل مايدرس الآن في الازهر منه تفصيلا واخذ يشرح العقائد واحدة واحدة وقال ان هذا غير ما شرحه القرآن وما طلبه الرسول واقتضاه الدين واشار بتغيير هذه الطرائق بطرق أخري تطابق كتاب الله الذى طلب النظر في العوالم ومعرفة الحكمة والا فكل ما بيننا الآن انما هي فضالات من حثالات اليونان القديمة المحشوة فى الكتب المنافية لشريعتنا ومن العجب انك ترى الكتب تحارب أعداء ماتوا ليس لهم وجود وما مثل هؤلاء فى محاربتهم لليونان وجدالهم فى الكتب وذمهم على الالسنة الا كمثل قوم من الخوارج الآن يحاربون معاوية واليزيد وغيرهما ويتركون كل ما أحاط بنا من كل جانب كانه كتب علينا ان نذر مصالحنا وندب مامضى وليت شعرى هذه أوروبا وأمريكا أخذ اهلوهما بحظ وافر من العلم واهتدوا بهدى علمائهم وحكمائهم وهذه الامة مضى لها قرون طويلة واعمار وهي تنبذ الحكماء وتبغض المصلحين . هاهم نبذوا ما أشار به الغزالى وما فسره ابن رشد

وما أنذر به ابن خلدون وكل أمة هذا شأنها حق عليها ماذكر
الله عن اليهود (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم
ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) نادى ابن رشد بالاصلاح فطرده
الاندلسيون الى أوروبا فأزال الخرافات والضلالات من انفس
امتلأت من ترهات الاحبار والرهبان واطلقها من أغلال
الاوهام فرعت فى ارض جنة الحكمة وشربت سلسبيلها فانظر
كيف تدلت الاندلس الى حضيض الجهالة فمزقت كل ممزق
وتفرق أهلها أيدى سبا وكيف ثم كيف سارت أوروبا من يومئذ
في سبيل الرقى المادى والادبى وكان ما كان من انتشار العلم
والتعليم واكتشاف الارض الجديدة كامريكا والاقيانوسية كما
يشهد بذلك كريستوف كولمب نفسه اذ قال انى علمت ان فى
الارض قسما آخر من تعليمات ابن رشد ثم تغلب الاسبانيون على
المسلمين واجلوهم وأوسعوهم قتلا وسبياً واسراً أليس ذلك عبرة
للباقين من الامم الاسلامية أيظن قوم انهم علماء وهم لم يدرسوا
ما سطرته يد القدرة فى اكناف البسيطة من سطور الحكمة
وآثار العظمة ومن سمع قوله تعالى (ألم تر ان الله أنزل من
السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد

بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب
والانعام مختلف ألوانه كذلك) عرف ان العلماء هم الذين يعرفون
علوم الطبيعيات من النبات والحيوان والانسان واختلاف
الالوان اذ اعقبه بقوله (انما يخشى الله من عباده العلماء) هل
ضل الرازى فى تفسيره واهتدى البسطاء هاهو الرازى شرح
عند كل آية ما يناسبها من الحكم المودعة فى الطبيعة وجمال
الالوهية اللهم انا نضرع اليك ان ينظر عقلاء الامة وحكماؤها
فى مستقبل بلادهم وأمتهم . هل من العقل والحكمة ان ينبذ
الرازى وابن خلدون وابن رشد والغزالى وأحزابهم ونصغى
الى قوم اسفل منهم بدرجات باعترافهم انفسهم وقولهم هؤلاء
أرقى منا عقلا وأرفع شأنا وأعلى كعبا ونحن قوم ضعفاء
فيالله وياللجهل والعار ويا ضيعة الاسلام والمسلمين وياحسرتا
على هذه الامة ذهبت ريحها

معاشر الاغنياء والعقلاء ها أنا قصصت عليكم ما يخرجنى
من التبعة والاثم والكتمان إن اريد الا إصلاح ما استطعت
وما توفيقى الا بالله فهل أنتم مستمعون وان عجزتم عن اصلاح
الازهر وظل سائرا نابذا سنة الترقى فلماذا لا تنشؤون الكليات

والا بقى التعليم منحطاً أبد الآبدين ودهر الداهرين (أفلم يروا الى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) وهاهي كسف المدافع لم تبق ولم تذر فى أقطار البلاد وما هي الا نتيجة العقول المتفقة والاراء المهذبة والعلوم المدونة فما الماديات الا نتائج للعقليات فعلية المدافع والبنادق ترجمان عن عقول منيرة وحكم صافية فاذا لم تستنر العقول بالحكم احترقت الاجسام بالكسف والقلل اذ العالم فى ترق مستمر فمن حاد عنه كان نصيبه الذهاب من الوجود وسنذكر فى المقال بعد هذا ناموس الترقى من القرآن ونقابله باعمالنا الآن عبرة لمن اعتبر

﴿ المقالة الثامنة ﴾

(كليات الاسلام والترقي)

هل درى أولئك الذين ينبذون معرفة ما فطره الله في الكائنات وما سطره على صفحات الطبائع في الارض والسماء ان الترقي سنة فى الحياة وان القرآن هو اول مقرر لمبادئه حاث عليه قد بينه على طرق شتى تارة بتعاقب الاديان وطوراً بالطبيعيات

وآونة بالاقوال وكثيرا بالقصص وسنة الماضين

(١) الاديان . تعاقبت الاديان وناسب كل زمانه ومكانه فنسخ ماقبله فكانها سلسلة يتبع بعضها بعضاً وكان آخرها نزولا هذا الدين الذى سمح بالترقي لكل فرد وعمل وندد على من وقفوا على ما خطه رهبانهم وحرره احبارهم وتحكمت به قسيسوهم وأفهم ان ذلك داع للانحطاط والتدلى والذهول عن الترقى فقال (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا) ثم قال يريدون ليطفؤا نور الله المنبعث الى العقول بفطرتها وبوحي اخر ما انزل واطفاؤه بالافترا من الاحبار والرهبان الداعى الى انعكاس الرجاء والوقوف امام ترقيها (والله متم نوره ولو كره الكافرون) فالترقى محتم على العالم ومن وقف أو رجع خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

الناس في الدنيا مسافرون الى الكمال متوجهون الى العلى كوكب ساير في طريق فيه المدلهمات مشملات والمخاوف محيطات من كل جانب فاي راكب توقف وسط الطريق عن المسير أو قفل راجعا تناوشته السباع وانتاشته الذئاب وهلك

من الجوع والعرى وظما الهواجر ونار السمير ولكن الركبان مأمورون أن يسيروا مسوقون بقوة قاهرة وسلطة قوية مضروبون بيد من حديد مكسوة بالين من الحرير واذا كان الترقي هو سنة الله وهو الفطرة فمن خالفها فقد ضل وغوى واهلك نفسه بوادى الخسران وهلاك الفرد احرى من هلاك الجماعة ومن العيب ان تقف الجماعة لواحد أو ينبذوا مقرهم ويتبعوا هذا الكاسل

ولما لم يعلم الناس ذلك بعقولهم انزلت الكتب السماوية لايقاظهم فلما غفلوا ارسل الصواعق النارية عليهم ليعظهم بالعمل بعد العظة بالقول (والله يؤتى ملكه من يشاء)

رأينا رقي الامم حولنا ووقفنا نحن وتركنا مدارسنا الكليات فى امهات مدن القطر وبقى القديم على قدمه وبيننا العقلاء والاذكياء فما لهم لايقرؤن وما بالهم لايتكلمون وما للعامة لا يسألون ايخرج التلميذ من مدارس الاجانب بعد الخامسة عشر عارفا اربع لغات مع نحو عشرة علوم ونحن في ذلك السن لا يعلم متعلمنا الا كلمات لا يعقل معناها ثم يقضى حياته فى لغة لا يقدر أن يحرر بها خطابا هان على الاملس ما لاقى الدبر تقف

التلميذ فى اول امره على اقوال العلماء في اوجه البسملة واعرابها وكون الباء حرف جر زائد او اصلى والنعت مقطوع او غير مقطوع رموز لا يفهمها الا بعد سنين فاين سنة الترقي

(٢) الطبيعيات . وتارة ترى ناموس الترقى فى الكتاب بضرب امثال طبيعية مما يشاهده الناس من الماء والمعادن يعلوها عند نزول الاول وجريانه وسبك الثاني وغليانه زبد فاذا تمايزا ذهب الزبد جفاء وبقى الماء والحلى نافعا للناس هذا هو المثل المضروب فى الكتاب (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال

(٣) القول . هل قوله « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » الا نفثة من نفثات ناموس الترقى وهل حسن القول الا بمعناه وهل هو الا انتخاب الاحسن واختيار الاجمل فيتبع وها هو مشاهد محسوس ان البشرى تابعة لمن سلك مسلكا راجحا (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

(٤) وهل ذكر عاد وثمود وقصص نوح وغيره الا مذكرات لناموس الترقي وهل قوم نوح لما طغوا ونبذوا ما وعظوا به فأغرقوا الا عبرة للامم ان يهلكوا كما هلك أولئك لما تتابع الانذار فيهم حينا بعد حين قرونا وعلم انهم لن ينجموا وليس فيهم قابلية ذهبوا من الوجود حتى قيل (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفارا) وملخصه الا يبقى الا الاصلح للوجود وهو عينه ناموس الترقي

(٥) علم الله ان ستنام اعيننا وقلوبنا ونخبط خبط عشواء فننسخ آيات واحاديث بغيرها كما هو رأى كثير من العلماء كانه يقول النسخ فى كل شيء على شريطة ان يكون الثانى اصلح وهنا انا نسخت اية بأية وحديثا بحديث فوجب عليكم ان تتبعونى وتنظروا ما يصلح من المنافع والعلوم في كل زمان ومكان وما كان هذا الا كمالا وشرفا

فياقوم ها هو القرآن وقصصه والامم واخبارها والطبائع والشرائع كلها داعية للتغيير والنسخ ومناسبة الزمان والمكان فلماذا يادعاة الانسانية ورجال الامة يبقى القديم فى الكليات

على قدمه ولا تنظرون في امرها ولئن نسيتم من الأزهر اصلاحه وعجزتم وتركتموه هكذا فناشدتكم الله لماذا لا تنشؤن الكليات لتعوضكم ما فقدتموه . ياقوم لم تضنون بالاموال وها نحن نرى الياباني يجود بروحه لسد مدخل بورارثر والانجليزى بالانفاق على مدرسة غوردون في السودان والروسى يخرج من ماله لوطنه وما لنا والامم القاصية هاهم اخواننا القبط بين ظهرانينا نحو نصف مليون وهم نصف عشرنا كيف يجمعون في جلسة واحدة لمدرسة صنائعهم اربعين الفا من الاصفر الرنان وهل اصبحنا اقل اهل الارض قاطبة نبذنا الاقربون والابعدون حولوا نظركم عن المشرق والمغرب وولوها شطر اسلافكم الماضين وآبائكم الاقدمين ماذا فعلوا جادوا بالمال والرجال فبقى ذكرهم وان غابت اشخاصهم خرج ابو بكر يوما من ماله كله وعمر من نصفه فوقفا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا هذا القول فقال عليه الصلاة والسلام « بينكما فى الفضل ما بين كلمتيكما فبماذا تجيبون وعلى ماذا تقدمون . لقد رأيت سلطانا من سلاطين الاسلام في جزائر المحيط قد اخرج من دياره وامواله وأولاده وبساتينه لا يملك شروى نقير أخرجه

الفرنساويون فماذا افادت الاموال يافوم لئن لم تنفقوا طوعا وتنشئوا الكايات لحفظ جامعتكم لبث الصنائع والعلوم الافرنجية ليذهبن ما بقي من آثار مجدنا ولا تظنوا ان الاحتلال شيء مذكور فى جانب احتلال الصناعة وانتشار مدارس الاجانب وتقدم تجاراتهم ولئن تركنا الامور على هذا لتقفلن دور وتذهب أموال وثروات ولا تغرنكم اللذات . (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره)

﴿ المقالة الثامنة ﴾

(الواقفون والعلماء)

الناس في الدنيا درجات بعضها فوق بعض فمن كان علمه أدوم نفعا واتقن صنعا وارقى للمدنية كان اقرب زلفي لله واكثر ثناء من الناس فبقدر ما تدوم المنافع والثمرات تبقى الذكرى والشكران ويتجدد الاجر والثواب والاعمال هي الميزان المعنوى تقاس بها فضائل العمال وهذه هي المضاعفة (مثل الذين ينفقون

أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) أعلى الانفاق نشر الحكمة بين الناس وارفع الناشرين لها مقاما الانبياء فعلى قدر أممهم والتابعين لهم تكون منزلتهم فى القرب من ربهم وارتفاع شأنهم فى الدنيا والآخرة يليهم الحكماء فالعلماء ومعيارهم فى التفضيل ظهور الثمرات فى تابعيهم كثرة وقلة وبالجملة ففضل الرجل على مقدار ظهور امره فى الناس كفضل الشمس على القمر والقمر على السيارات فكما ان مقادير تلك الكواكب متفاوتة بتفاوت اضوائها فهكذا العلماء يتفاوتون بتفاوت هداياتهم فى الامم ولذلك يفضل النبي الحكيم والحكيم العالم والعالم العابد قال عليه الصلاة والسلام (فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أمتى) ثم التفاوت بين الملوك يجرى على هذه النسبة فمن أراد المقايسة بين عالم وملك فلينظر لمقدار أثرهما في اصلاح العالم فمهما كان الملك أكثر تأثيرا فى سياسة الامة من العالم فهو افضل منه بتلك النسبة ومهما كان العالم أكثر هداية في الحال والاستقبال فهو أرقى من الملك بنسبة ذلك من الملك وبالجملة فالاعمال زرع والمنافع العامة فى الامة ثمراتها والعمال

زارعون وعلى هذه القاعدة يجري الواقفون والمصالحون فمن وقف لارباب التكايا والمساجد وللكتاتيب الصغيرة والاضرحة فلتقس نتائج افعاله بهؤلاء ومن عزز علمه وعقله وفهم حكمة الله في خلقه علم ان ثمرة العلماء ارقي فان العالم يهتدى بعلمه خلق كثير ويتسلسل الامر فيكونون كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة فالواحد على الاقل يهدى سبعة والسبعة قد يهدى كل واحد مائة وكل واحد من المائة قد يهدى آلافا وتزكو الامة ويتضاعف عدد الهداة والمهديين وتعم الحضارة والعمران وترتقي الامة فهذه نسب درجاتهم عند ربهم يوم القيامة (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما) فالمضاعفة قد رأيتها والاجر العظيم يكون على وفقها (جزاء وفاقا) وقال الغزالى (الافضل أن يكون المتصدق عليه من اهل العلم خاصة فان ذلك اعانة له على العلم والعلم اشرف العبادات مهما صحت فيه النيات وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه اهل العلم فقيل له لو عممت فقال انى لا اعرف بعد مقام النبوة افضل من مقام العلماء فاذا اشتغل احدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقدر على التعلم فتفريغهم للعلم افضل ومن

اراد ان يظهر له ذلك رأى العيان فليتأمل الامم الراقية كيف
تبذل الاغنياء اموالهم في سبيل المنافع العامة وكيف أثمرت ذكر
احسانهم فى الدنيا ورقى أممهم فيها والجزاء للمؤمن يكون على
هذه النسبة فوا أسفاً على اغنياء الاسلام نبذوا المرشدين فضلوا
في طريق الانفاق والوقف فترى هممهم على قدر عقولهم وتعليمهم
فاغلب الاوقاف للامور القاصر نفعها ولعمرى ان بين العالم
والعابد كما بين النبي وأدنى رجل فهكذا فلتكن النسبة بين الواقف
للاول والواقف للثانى هذه أموال المسلمين تنهال جزافاً على
التكايا فما الذى افاد المسلمين منها الا ضحك الافرنج على أمور
تنكى وتبكي وتؤلم العقلاء

من ذا الذى كان يظن ان تصل هذه الجامعة لدرجة تحت
الصفر يعلوها ثلج ركام فيموت علماؤها ويحي جهالها حتى دك
شامخ مجدها وباذخ سعدها

ياقوم رعاكم الله هل اصبحنا اقل الامم ادراكا وفهما هل
فقدنا رشدنا حتى احتجنا لقيم علينا أيدرك الداء اليونان والطليان
والانكليز والالمان والفرنساويون والامريكان واليابان والهنود
فيتبرعون بالمال للكليات ونبقى نحن فى حضيض الجهل . مات

رجل ألمانى وترك سبعة ملايين فأوقفت ابنته نصف هذا المبلغ لعلوم الطبيعة التي يظن المسلم أنها تنافي دينه الان . هذا القول فهل من سميع هذا الارشاد فهل من مجيب

قام سسل رودس الانكليزى فأوقف ماله كله على المنافع العامة لا لامته خاصة بل لها وللامم كلها وللسلام العام

انفقوا ياقوم اموالكم الان واحيوا كليات القطر في الازهر والمساجد لتحملوهم على قراءة العلوم كلها وان أبى العلماء ووقفوا في مدار واحد وعلى نمط مخصوص فدعوهم وشأنهم واوقفوا لمدارس كليات بشروط تناسب الزمان والمكان ألا فلتنفقوا فقد سبقكم الامم . انفقوا اوقفوا قبل ان تذهب ريحكم وتزول البقية الباقية من الامة فقد غلبتم على الزراعة والصناعة والتجارة (يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقكم الله من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) ان لم تحدوا على الكليات وتعميم التعليم الان فما تمضي سنون قلائل الا ويقفل باب الاصلاح وينادى من قبل السماء فيقال (انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين) (الصيف ضيعت اللبن) (سبق السيف العذل) ياقوم أيجمل ان يتخطى الانجليز جزائرهم التى

هى في بحر الظلمات بعيدا عن المعمورة تكتنفها الامواج فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ووراءها لجج لا آخر لهاولا منتهى الا في الشرق تسعى لانشاء مدرسة غوردون فى البلاد السودانية وتدفع مائة الف جنيه ونحن نأبى ان نصرف مثل هذا المبلغ على ابنائنا فتباً لقوم لا يفهمون وتعسا لنا اذا تمادينا في الضلال . هذه ثمرات الاعمال ظهرت في الامم حولكم مصداقا لكتابكم فياقوم لم قصرت هممم الواقفين ولاى شيء قصرت اراداتهم على الامور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . هل كتب علينا الشقاء فمن ذا الذى يضع الحجر الثانى بعد الاول الذي وضعه (المحسن الكبير الذي علمنا انه سعى في انشاء كلية) ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا وينفقه الحكمة العامة في الامم ورقيها فيضع الحجر الثانى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون) وليس الصالح هو ذاك المنتكس على الرأس في أعماله واقواله فى التكايا كلا ثم كلا انما الصالح هو ذاك الذي يصلح لعمارة الارض ويعرف حكمة ربه فيضعها في موضعها . الانتكاس فى الفهم جر الى نوم الغفلة والجهالة حتى انك لترى

الاوقاف القديمة كلها واجمة الى أمور قاصرة على ثمرات طفيفة فكانت النتيجة ما نحن فيه الآن . فهل لنا من رجل يقولها آنا ليشجع غيره ويبنوا الكليات ويعمموا العلم (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما)

﴿ المقالة التاسعة ﴾

(خطاب لوجهاء الامة)

أدعو بقولي الآن وجوه الامة وعقلاءها واغنياءها دعوة مخلص في قوله ناظر لمستقبل امته كيف وجهتم التفاتكم الى شؤن الحياة صغيرها وكبيرها وعظيمها وحقيرها وقديمها وحديثها حتى شملت العناية المراحيض وبيوت الخلاء وتركتم كليتكم العظمى وهى الجامع الازهر تندب حظها وتشكو زمانها وتنادى بالويل والثبور مدوا أيديكم رعاكم الله الى اصلاحها فان أبي القائمون بها وغلبوكم على أمركم فما لكم لا تسعون في انشاء كلية اسلامية تكون ملجأ لبني العظماء يتعلمون فيها ويتخرجون

وقد درسوا انواع العلوم ياقوم مالى أرى الحركة بطيئة والنوم طويلا والنفوس في حجاب والعقول فى غفلة وهل أنا كم نبأ اليابان وقد قامت من غفلتها فى سنين معدودة وهل يسبقنا الهنديون ونحن لانبدى ولا نعيد اللهم انا نضرع اليك ان تهدى سراتنا واغنياءنا سواء السبيل

من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط

ألا نفوس أبيات لها همم ألا كريم على الخيرات معوان

هل من عظيم من العظماء يقوم فيمد يده بما يدونه له التاريخ فى الاصلاح ومستقبل الزمن فيقتدي به الباقون والامل عظيم فى الاسرة الخديوية وعباسها العظيم وكم من سامع هذا القول يناجى نفسه ومن أنا حتى أجدد مجدا عفا وربما ذهبت فينام نومة لا قيامة بعدها

ولو درى ذلك ما تومي اليه قطرتان في السحاب تناجتا بلسان يفهمه العلماء المتبصرون ويجهله المقلدون الغافلون

قالت احداهما للاخرى (وقد رأت زراعا فى حقله واضعا رأسه على كفه نادما حزينا كئيبا) انى أرثى لهذا الفلاح ولقد

احترق فوادى وانضنى جسمى حتى احسبني استحلت دمعة باك بعد قطر ساق فقالت الثانية ماأنت أيتها المسكينة ومثلك لايملك للرجل نفعا ولا ضرا ولو قطرت من السماء ونزلت لم تفن عودا من القمح فضلا عن الحقل كله وما هى الا لحظة تبقين فيها على ورقة ثم تنشفك الرياح أطرق كرى ان النعام في القرى

فقالت الاولى ان الوجود خير من العدم ووجودى في الحقل ينعش فواد صاحبه فقهقهت الثانية ضحكا وقالت ما اقبح الحزن بعد الفرح والبكاء بعد الضحك فقالت الاولى ان لى في ذلك ثلاث خصال الاولى ان أدخل السرور على قلب صاحب الحقل الثانية أن أؤدى ماعلى من الخدمة الصادقة وأظهر ما كمن فى من الفضل الثالثة أن تقتدى القطرات الاخري وبها يسقي الحقل ويتم الامر وما كادت تتم قولها حتى سقطت على ساق من نبات القمح فتبعتها الثانية وغيرها وهلم جرا فروى الحقل ونما القمح وما مثل القطرتين المتناظرتين الا كرجلين أحدهما يطلب الاصلاح والآخر ييأس منه وهذه فى الحقيقة طريقة الانبياء والحكماء ألم تر كيف يقول الله لرسوله (فذكر

انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) على انه لا يأس من روح الله فقد دلت الحوادث على ان من سعى فى امر باخلاص ناله كله أو بعضه وهذا سر التوكل على الله وهو الاعتماد على النفس في العمل مع توجيه الهمة لمدبر العالم كله وبه يصرح (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والمراد بالايمان ايقان النفس بان ماتعمل حق وعسى أن نسمع مجيباً لندائنا يرفع صوته لتحي الامة ليحى الوطن لترتق الصناعة والزراعة والتجارة

من ذا الذي يضع الحجر الثانى في بناء هيكل مستقبل الاسلام فأما الحجر الاول فقد وضعه المحسن الكبير وانى احذركم ذهاب الامر من أيدينا فى كافة شؤن الحياة أو نذل الى الابد

ولا يقيم على ضيم يراد به　　　الا الأذلال غير الحي والوتد
فذا على الخسف مربوط برمة　　　وذا يشبح فلا يرثى له أحد

فان سمعتم النداء فهذه الحياة الطيبة والا فالذل أولا والدمار آخرا (قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكافين ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ مقالة العاشرة ﴾

(العالم مدرسة كبرى والله سيدها والناس الطالبون)

انتبذت من القاهرة مكاناً قصياً يوماً مع أخ من اصدقائى وتنزهنا في فلاة ذات أشجار وأنهار ومزارع وحقول وقد ضربت السماء علينا قبة زرقاء تحجبها اخرى من السحاب الملون بالسواد فى موضع والبياض فى آخر والنسيم يلعب بالاغصان وهو عليل فأخذنا نجوب أطراف الغيضة ونتمشى في جوانبها وقد خلا لنا فسيح الجو وعرفنا نعمة سكون الضوضاء والجلبة خارج القاهرة وتذكرنا حال الجنة وانها لا لغو فيها ولا تأثيم لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما فاهتاجت نفوسنا لمحاسن جمال الطبيعة وتأملنا فيما حولنا اذا بجماعات من النمل واخرى من النحل وغيرها من الطيور فصفا الفكر الى تذكر ما عرفناه وماكاد قلبي يذكر الا وقد فاجأني صاحبي بقوله نحن عرفنا في المدرسة اتقان هذه الحيوانات في غدوها ورواحها ومستقرها ومستودعها واني لاذكر ما قرأته آنفاً عن النمل وأنها تهندس مساكنها بأعمدة منتظمة وترضع أولادها وتغسلها لتنظفها

وتأخذ الاسرى تحت سيطرتها وتقتني حشرات كالانعام عندنا لتمص لبنها بخراطيمها وتزرع الارز بهندسة عجيبة في حقولها وهكذا النحل يشاهد لبعضه اسفاط (مقاطف) على مؤخر أرجله ليضع فيها مادة الشمع ويخبز منها لاولاده وغير ذلك واني أشعر بلذة عند تذكر هذه المعلومات ويا ليت شعرى مافائدة هذه اللذة وهل دراستها ترقى المدنية أم هي من المسليات للانسان كالآت الملاهى فقلت ان الشيء كلما كان نفعه أعظم كانت اللذة به اكبر فبمقدار اللذة به يكون نفعه وهذه السماء ذات نجوم باقدار متباينة واحجام واضواء وحساب مختلفات يتكون منها علم الفلك وهذا العالم الطبيعي ذو صنائع متقنة مما ذكرت وما لم تذكر كل هذه من علويات وسفليات تذكرة للناس وميزان لهم فأي امة اخذت حظها من العلوم واقتدت بملك الملوك فى معرفة مخلوقاته كانوا هم خلفاءه في الارض وسيطروا على الامم وكل قوم ضلوا فهم هذه وفرحوا بما عندهم من العلم حاق بهم ماكانوا يستهزؤن قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه)

فما العالم الا مدرسة وما الناس الا متعلمون والله بيده

الميزان يرفع ويخفض فمن رآهم تأملوا صنعته وقلدوها فى الاحكام والاتقان وسابقوا كل حيوان فى عمله والفلك في حسابه فازوا بالسبق فى الدنيا ومن نكصوا على اعقابهم عوقبوا بالحرمان والخذلان يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولوا الالباب

ولعمري كيف تكون الامة خليفة فى الارض اذا لم يقم كل جماعة منها بصناعة اوعلم كما ان كل امة من الحيوان اختصت بصناعة اوعلم وكيف يمكن التوغل في ذلك لا بالمدارس الكلية الكبرى وهل يمكن فى بلادنا الا ببذل المال من ذوى الثروة الواسعة وقد اصبحت بلادنا مزدحم الامم جميعا فى التجارة والصناعة والزراعة وتلك لعمرك يتضاءل في جانبها المزاحمة الادارية فاذا لم يقم الوطنيون بمدارس كلية فلا بد من تغلب العناصر الاجنبية على الثروة وينقرض العنصر الوطنى على تمادى الزمان كالامريكان الاصليين واليه الاشارة بقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) وقد خربت كثير من بلاد الاسلام

وغيرها قديماً وحديثاً كاسبانيا وأهل امريكا الاصليين (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون)

﴿ دعوة عامة للناشئين ﴾

(الى جمال العالم والعلوم)

أيها الناشئون هلموا الى كمال النفس الناطقة بالعلوم والعرفان وزينوها بالنظر والفكر وحلوها بعقود راق منظرها وحسن نظمها من مناظر الافلاك البديعة والطبائع المتقنة وعجائبها البهيجة وغرائبها المدهشة قف في الفضاء والليل ساكن الحركات هادىء الانفاس وحدق بصرك الى قبة تراها أينما حللت او ارتحلت مرصعة بالدرارى اللامعة المشرقة في جوانبها كانها سمرت فيها رقشها مبدعها بما لا يصل اليه امكان الانسان في كل زمان ولو ان صانعاً سقف منزله بقبة مزرقة اللون وزينها بالمصابيح الجميلة وراعى بينها مسافات بالنسب الهندسية والابعاد الحكمية التي بين الكواكب فيما يوازيها من قبة السماء ثم وضع هذا أملس خاليا من الفطور بريئاً من الشقوق ناهجا نهج ملك الملوك لكان سقفه أعجوبة الاعاجيب وخلابة الفطن اللبيب ولو

خطر هذا الخاطر لاحد المهندسين لهرعت اليه الناس افواجا من كل حدب ينسلون ولتنافسوا فى سقوفه

ولو تأملت النجوم لرأيت اشكالا هندسية ما بين مثلث ومربع ودائرة وخط مستقيم وآخر منكسر وأخرى حيوانية فهذا كاسد وهذا عقرب وهذا حمل الخ . . وتراها ما بين احمر وأبيض وصغير وكبير وان عددتها تجدها ثلاثة آلاف بالعين العاديه وان اخذت صورتها (بالآلة المصورة) الفتوغرافية بلغت مائة مليون وهناك ما اعجز الناس بابصارهم وآلاتهم واختراعهم عن معرفته مصداقا لقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون والله واسع عليم) فاذا راقك هذا المنظر ترى النفس قد اشرقت وابتهجت وفرحت بما لاحظت من جمال هى به أحرى وتقرأ فى سطور تلك النجوم كلمات العبر وآيات الحكم تعبر عن صانع قادر وحكيم عظيم وتدخل اذ ذاك فى عداد من ذكر الله بقوله (ان فى خلق السموت والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقتنا هذا باطلا)

فاذا شاقتك نفسك الى مرتبة العلماء والسادة الحكماء

ولم تمتع باول مراتب الجمال ولم تستطع صبرا على مبدأ الكمال
فعرج على علم الفلك وشاهد ذلك الجمال بالبصيرة بعد البصر
وادخل جنة العلوم والعرفان في هذه الدنيا تقدك الى الجنة
الاخرى (جنة عرضها السموات والارض) فانظر نتيجة التقويم
واقرأ ما سطره علماء حسابها من تلك الرقوم الدالة على سير
الشمس والقمر والكواكب سنة فسنة تعلم ان منظرها الجميل
وراءه ما هو اجمل منه وأبهي وان الظاهر عنوان الباطن فكما
جمل منظرها بالعيون حارت في حسابها الدقيق العقول وترى
نظاما متقنا غفل عنه الجاهلون ووصل اليه العارفون فان رغبت
مع هذا ان تعرف براهينها وابعادها ونسب بعضها الى بعض
فهناك البهاء وتخرج من زمرة من عيرهم الله بقوله (ما اشهدتهم
خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم) وتدخل في عداد
من مدحهم وأثنى عليهم فقال (شهد الله ان لا اله الا هو
والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم)

ولعمري كيف يحسب الانسان نفسه شهد الابداع
وجمال العالم واتقانه ولم يطالع فن الفلك أو لم يلم بشيء من مبادئه
يعرف به مقصوده وما أكثر الدعوى في بلاد الشرق وما

أعم الجهل به اللهم امنح أمتنا رجالا صادقين يحولون وجهة الشبان الى نهج العلوم والمعارف وسلوك سبل الترقى فى الحياة وان شئت فاقرأ قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) ثم اتبعه بذم من اعرضوا عن هذا النظر فقال (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)

ولعلك بما تلونا عليك من المقال والآيات شاقتك نفسك لهذا العلم

فاعلم ان الفلك يبحث عن حساب الكواكب واقدارها وسرعة حركاتها والمسافات التى بينها ومقادير ابعادها عنا وغير ذلك اما حسابها فقد تكفل به فن التقويم ولكن المقصود لنا ان نلاحظ ما فيه من الجمال وقد الفتنا قراء كتبنا الى ذلك فى ميزان الجواهر وجواهر العلوم وفي نظام العالم وانما المقصود واما اقدارها فانك اذا علمت ان الشمس مقدار الارض مليونا

و٢٨٠ مرة ثم ان الشعري اليمانية قدر الشمس الف مرة وان
هناك ما هو اعظم واختفى عنا لبعده العظم حتى يرى لنا في
الليل البهيم كأنه سحاب ابيض ولعل لتلك الكواكب سيارات
وتوابع فانك تقضى العجب من ذلك وتعلم ان هناك مالاعين
رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اما سرعة حركاتها
فاعلم ان حركة قلة المدفع لاتزيد عن عشرة اميال في الدقيقة
وسرعة الارض فى حركتها اليومية ١٦ ميلافى الدقيقة وفى
الحركة السنويه الف ميل وفى الحركة العمومية للنظام الشمسى
٣٠٠ ميل كما نقله العلامة اللورد افيرى مع ان الزهرة اسرع
منها وعطادر اذ يبلغ الاخير تقريبا من الفي ميل فى الدقيقة اى
كسرعة قلة المدفع مائتى مرة اما ابعادها عنافاعلم ان النور يقطع
في الثانية الواحدة (١٨٠٠٠٠) ميل وضوء الشمس يصل الينا
فى ٨ دقائق و١٨ ثانية والشعرى اليمانية تبعد عنا مليون مره
بعد الشمس والنجمة القطبية تبعد عنا بمقدار وصول ضوئها لنا
في ٥٠ سنة فانظر إذا حولت السنين الى شهور والشهور الى
ايام والايام الى ساعات والساعات الى دقائق والدقائق الى ثوان
والثانية مقدار ١٨٠٠٠٠ ميل فكيف يتصور الخلق عظمته

اذ ذاك وهم يعلمون انه لو قذفت قلة المدفع وصارت فى الجو من الارض من زمن ابينا آدم الى الآن ما وصلت الى ذلك الكوكب وكم من نجوم غابت عن العيون لبعدها فلا ترى باقوى النظارات واما بعد الكواكب عنا وبعد بعضها عن بعض فاعلم ان علماءنا رحمهم الله قالوا اذا قدرنا قطر الارض ثمانية كان قطر الهواء تسعا وقطر القمر اثنى عشر وقطر فلك عطارد ١٣ وقطر فلك الزهرة ١٦ وقطر فلك الشمس ١٨ وقطر فلك المريخ ١/٢ ٢١ وقطر فلك المشترى ٢٤ وقطر فلك زحل ٣/٧ ٢٧ فهى هكذا

الارض	الهواء	القمر	عطارد	زهرة	شمس
٨	٩	١٢	١٣	١٦	١٨

مريخ	مشترى	زحل
١/٢ ٢١	٢٤	٣/٧ ٢٧

وقالوا ان هناك نسبة شريفة بين الارض والقمر وبينها وبين الهواء والزهرة والشمس والمشترى اذ فلك القمر مثل فلك الارض مرة ونصفا والهواء مرة وثمنا والزهرة مرتين والشمس مرتين وربعا والمشترى ٣ مرات اما الثلاثة الباقية وهى عطارد والمريخ وزحل فليست نسبتها محمودة (اذ المحمود مثل النصف والربع والثمن) فقيل عنها انها نحوس هذا ماقاله علماؤنا

رحمهم الله جارين على مذاهب اليونان ناهجين مناهج النسب المعربة عن النحوس والسعود ولاذكر لك مارسمه الافرنج لتطلع على اراء الشرق والغرب فى النجوم وتتأمل كيف اتحدت الوجهة واختلفت النتيجة ولتعلم ان جميع العقلاء يرمون الى غرض المعرفة سواء اوصلوا الى النتيجة ام لا وجميعهم حكماء ذكر العلامة (افبري) فى كتابه جمال الطبيعه نقلا عن العلامة (يود) قانونا سموه (قانون يود) ذلك القانون لم يتم انضاجه ولم تكمل تجربته فلا يزال محل نظر وفكر ذلك ان كل كوكب يبعد عن الشمع ضعف ما قبله مع زياده ثابتة ما عدا الاول ايضاحه انا اذا فرضنا ان عطارد بعده عن الشمس أربعة فبعد الزهرة سبعة والارض عشرة والمريخ ستة عشر وفي بعد ثمانية وعشرين متسع عظيم ومنطقة مشغولة بكواكب اخرى يعبرون عنها (زون) تبلغ نحو ٣٠٠ محطة باخرى صغيرة كانها ذرات لا تكاد تميز اكتشفها العلامة (بيزى) فى اول يناير سنة ١٨٠١ أى من نحو قرن وكلها كواكب سيارة صغرى ومن اجل مكتشفات هذا العصر واخرها في المسافة العظمى بين المريخ والمشترى وبعد ذلك المريخ ٥٢ وزحل ١٠٠ هذا هو

القانون الذى رسمه (يود) واكمله (بيزي) يريك ان بعد كل كوكب سيار عن الشمس مضاعف لما قبله بزيادة وهو تقريب وها انا اريتك قول الشرقيين والغربيين لتعلم ان كل امرىء عاشق للوقوف على اسرار الخليقة مائل الى أن يشهد نظام الله المتقن ليكون من اولى العلم ولتكمل النفس الناطقة بذلك الحساب البديع وكما ان نتائج حساب الكواكب فى سيرها والعناصر فى امتزاجها والمركبات فى قانونها يحدث نظام الجسم بصورته فيغذيه ويهدى الحواس بالنور وسائر المحسوسات فهكذا نفس قانونها وحسابها ونظامها يحيي العقول ويطلعها على عالم الجمال والحكمة المستمدة من اشراق الذات الاقدس الذى له الرمز بقول الله تعالى (الله نور السموات والارض) فافهم

ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول اذا علمت ان بعد عطارد عن الشمس ٣٦ مليونا ميلا امكنك بقانون (يود) ان تعلم مقدار بعد أى كوكب سيار عنها هكذا ـ ٤ ـ ٧ ـ ١٠ ـ ١٦ ـ ٢٧ ـ ٥٢ ـ ١٠٠

﴿ العالم السفلى ﴾

وليس العالم السفلى كما يراه العامة مبعثرا مشوش الترتيب بل هو محكم منظم عجيب واذا اتبعت مارسمناه في هذا الكتاب وقرأت ماسطرناه في كتابنا (العقد الثمين في آراء العرب ومذهب دروين) الذى مضى فى هذا الكتاب لعجبت كيف اتسق خلق الجماد والمعدن والنبات والحيوان والانسان وصارت هذه كلها سلسلة واحدة أخذ بعضها بحجز بعض فترى الجماد تتلوه المعادن من قصدير ورصاص ونحاس وحديد وفضة وذهب يرتقى عنها النبات اصغر فصغيرا فكبيرا فاكبر حتى تصل النخل ثم الصلة التى بينه وبين الحيوان وتدخل فى عالم منظم من هوام فى البر والبحر لحشرات فحيوان بحرى فطيور فجوارح فبهائم فانعام فوحوش فسباع وهكذا حتى يصل الى انسان نازل التربية فآخر فاضل حتى يصل الى الانبياء فالملائكة الكرام واريد ان تلاحظ جمال العالم ملاحظة دقيقة وتقف على ماسطره علماء الافرنج وتلاحظ الترتيب العجيب وتقرأ قوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع

البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) ومن ذا الذى
يعد نفسه فى مصاف العلماء وهو لم يشهد الابداع ببصيرته وكيف
يظن انه من أولى العلم مالم ير هذا الترتيب العجيب والخلق الجميل
الذى يعرب ابداعه عن القسط والعدل ولعمرى من ذا يدعي
أن بينه وبين رب العزة في العطف مرتبة واحدة فى قوله (شهد
الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط) وهو
لم يشهد بنفسه قيام الله بالقسط والعدل فى ابداعه ولم يلاحظ
هذا الاتقان البديع ويا سبحان الله كان مبدع الكون الهم النوع
البشرى من آدم فمن دونه أن يبحث أولهم وآخرهم عن ترتيب
الكائنات كانه نقش على الواح بصائرهم وكتب فى مكنون نفوسهم
ان ربكم حكيم في صنعه مبدع في نقشه فترى العرب وضعوا
له الجدول الدال على ابعاد الكواكب الذي رأيت فى العلويات
ولاحظوا السعود والنحوس والافرنج وضعوا آخر وحسبوه
من واحد الى مائة فيها وهكذا ترتيب الكائنات العضوية والعنصرية
سائر بنسق واحد كنسق الكواكب وهو عند العرب أمر
شائع في كتبهم أما الافرنج فلم يوقظهم له الا (دروين) مع ما
فى سيره من النتائج المخالفة واعلم انك اذا لاحظت هذا العالم

السفلي ونقشه وابداعه وصوره واشكاله وعجائبه وغرائبه من النبات والحيوان ولاحظت ما خط على جلودها وصورها دخلت في عداد من اثنى عليهم الله فقال (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء) فانظر كيف خص خشية الله بمن عرف هذه العلوم بدليل ذكرهم بعد هذه العجائب واعلم ان هذا الفكر كان شائعا فى الاعصر الاول زمن دولة العباسيين وفي قرون اخرى قليلة ولما انقطع سند كثير من العلوم ظن الناس ان الفقه والآلات كافية فى هذا الوصف مع ان ادنى التفاتة الى تاريخ اسلافنا رحمهم الله تعالى والى معنى هذه الآية وغيرها يريك ان خشية الله مختصة بمن عرف هذه العلوم التي رسمناها لك فى كتبنا وامثالها من عجائب صنعه عز وجل وهذه المرتبة لاتنال الا بعد العمل بالشريعة والتخلق بها بقدر الامكان ومقدمته الفقه فلما ضعفت مدنيتنا وقفنا فى مبدأ الطريق هذا وكيف تخشى النفوس الانسانية من لاتعرف ابداعه ولا اعماله ولا آثاره. الرقى في الحياة الدنيا

مداره على هذه العلوم وكيف ترتقي أمة وهى تجهل ماحولها وما يحيط بها ولقدأنذر الله امة هذا شأنها وهددها واوعدها فقال (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وان عسىأن يكون قداقترب اجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) فياحسرة على بلاد الاسلام وشبان الشرق وأبناء العرب جاء القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم وينادى فى الاف من الآيات بالعلوم الطبيعية والفلكية والنظر فى الامم وفي كل شيء واوعدهم وهددهم فجاء من صدهم عنها من ذوى القصور فاصبحوا وقد صدق عليهم (وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اللهم انى دعوتهم بما اودعته فيما كتبت اجابة لدعوتك وحبافيك ورغبةاليك وشوقا لذاتك وانذرت وحذرت معذرة اليك وان عسى ان يعلموا فضل الامم الراقية فى الحياة الدنيا ونكون فىالآخرة مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ذلك الفضل من الله

ولنذكر الآن مقالاتنا الرازية وهما ٩

المقالة الاولى

(هذه العلوم فأين الرقي)

تساءل الاصحاب فيما بينهم آسفين حزنا وأنا بينهم صامت لاسمع مايقولون . قالوا ياويلتنا مالنا لانرى رجالا نمدهم من الاخيار الانزرا ولاحكماء نابغين ولا مرشدين ولا مصلحين الاركزا . بلادناوالحمدلله غنية.مصر محط رجال الشرق والغرب فيناجم غفير ادمغتهم ملأى باللغات العربية والفرنسوية والانجليزية والالمانية من مقتصد وسابق وأيديهم ملآى بالكتب وشوارعهم بالمدارس يتناولون الفنون أنواعا ويزاولون الصناعات تباعا

هل نالنا مانال القدماء من يونان ورومان ومصريين من اختصاص طائفة بشرف التعلم! أم انقضت علينا صاعقة محكمة التفتيش تنقب على القلوب الواعية والانفس الراقية (كما كانت فى أوروبا) حكمة حار فيها الفطن . خلت المثلات وتعاقبت النذر واعتاص الجواب فهل من مجيب

قال قائل . حوادث الايام وصروف الدهر وكوارث الزمان وأرزاء الهون والهوان واستبداد الملوك السالفين وظلم

الظالمين من صناجقة المماليك البرية والبحرية من التركمان وتأله القاطميين وغيرهم من الفاتحين المستبدين . فقال الآخر لكل من الامم نصيب وافر من الظلم وهذه أوروبا خلقوا عبيداً للاشراف غنما لهم طعمة هنيئة بلا ثمن ومع ذلك لم يعقهم عن الاشراف على المدنية والرقى فيها ولم نسمع قط ان احدا من آبائنا الاولين سيم خسف الاستعباد ولا ضرب عليهم الرق ولا بيع مع الارض والماشية كما بيع الافرنسي والسكسونى والجرمانى وغيرهم ثم التفت الى وقال ماذا ترى ؟ فقلت لا تعليم اليوم ولو صح ما عاقتنا شبا الظبات ولا زحزحتنا قلل المدافع وما مثل العلوم في الامم الا كمثل النار تتقد فاذا غشيها الوقود زاد لهيبها والتهب سعيرها وتطاير شررها وأرعد زفيرها فتشخص لها الابصار وتحدق بها الانظار

أو مثله كمثل الماء يسيل فيجول في كل واد اذ لا يصده سد العرم ولا الحجر الصلد ولا الترب ولا الطين وكل شيء

نعم عندنا تعليم مبدؤه جسماني. أسه الالفاظ بناؤه الاعراب سقفه التفيهق والثرثرة زخرفه النكت الأدبية غايته خبز سميذ وعجل حنيذ وشرب النبيذ وثوب من باريز

فويل لامة كانت علومهم قشورا ودارهم بورا وآمرهم مأموراً . وبعبارة اجلى وأوضح.للعلم غايتان عليا وسفلى جسمية وعقلية كما أن للانسان جزءين جسما وروحا يحمل الاول الثانى ويسيطر الثانى على الاول فهكذا العلم له غايتان تحمل الاولى الثانية وتسيطر الثانية على الاولى

فاذا أردت بالعلم اكمال عقلك وشغل فؤادك بما جل وحلا فلا ريب تنال بالاولى مايقيم جسمك فاما ان اردت حظ الجسم نابذاً حظ العقل والفهم نبذ النواة فلن تصل اليه أمد الدهر (وأن ليس للانسان الا ماسعى.من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب)

وسأتلو على مسامعك قصصا يوضح المقام ويزيل الابهام فيما سترى ان شاء الله تعالى

﴿ المقالة الثانية ﴾

(هذى العلوم فأين الرقي)

هل لك أن تستوضح ما قررته لك أمس من أن الامم اذا كانت وجهة علومها جثمانية محضة ـ زالت الصلة بينها وبين مبدعها وتدهورت فى مهاوي الخسران وباءت بالنكال ولأقص لك قصصا يوضح ما انبهم ويحل ما استعقد

كان فى الامم الغابرة عالم يسمى بلعام نبغ بين اخدانه فاستظهر العلوم العقلية والنقلية وصار يشار اليه باطراف البنان وسارت بذكره الركبان واذا دعا ربه أجاب

وكان النبي موسى عليه الصلاة والسلام مرسلا اذ ذاك فسار فى جيش من بنى اسرائيل الى أرض بلعام فأجمع القوم أمرهم أن يستظهروا ببلعام فأبى لعلمه ان النبي من عند الله فاحتالوا على زوجته بالمال فغووها فأضلته فأتبع هواه فانقلب علمه جهلا فاتبعه الشيطان فأخذ يفكر فى الحيل والدهاء والمكر وأساليب الخبث السياسى فانسلخ من الكمال فكان من الغاوين. والخلاصة أنه حول العلم الذى ضاء به قلبه الى دهاء ومكر لينال به اشباع

بطنه وسد عوز شهواته فكان من الخاسرين وكان قبل ذلك مجاب الدعوة فأقفل بابه بعدها وحرم بهجة العلم ورونقه وأنذر بالحرمان والطرد وذلك مثال لكل عالم فى الارض لا يريد بالعلم الا أن يكون آلة

والمثل الا وضح انك اذا احضرت كلبا لدى ملك عظيم وألبسته بزة نضرة وتاجا مرصعا وأجلسته في تخث الوزراء واوقفت الجند حرساً والاشراف خدما والحكام حشما ثم رأى عظما معروقا أو لحما متروكا على سدة الباب جرى مسرعا اليها شرها تاركا ما كان معظما حامله موقر الابسه مجملا نائله

فهذا هو حال الكلب ان حملت عليه بالعصا لهث فأخرج لسانه مندلعا وان تركته لم يزل على حاله جشما لا يعرف المشقة من الراحة ولا الجحيم من النعيم

بل ذلك مثل كل متعلم نال امنيته من العلم ثم سولت له نفسه ان ذلك لشهوة النفوس فحسب وصد النفس عن جنتها ونعيمها من الارتواء من انهاره وورود حياضه وسلسبيله وأشجاره واقتطاف ازهاره وجنى ثماره ذلك هو العائق عن الوصول الى المدنية كما وصلت الامم المحيطة بنا من كل جانب فاذا شئت ان

تقرأ هذه المعانى والقصص ونتائجه في القرآن فاقرأ قوله تعالى في سورة الاعراف

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) اشارة الى بلعام وكل من تعلم علما ما حتى الجغرافيا والاشياء (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) اشارة الى اتخاذ العلم آلة فحسب مع نبذ رقى النفس والعقل به ثم أوضحه فقال (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه) ثم أوضحه بمثل الكلب فقال فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) وأبان ان تلك المثلات انما هى غواش من الحجب النورية أو سرادقات من العلم تضم فيها اسراراً من الحكمة فلم يدعها عند حد التمثيل بل صرح واوضح فقال (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وجهلوا نفوسهم وغرتهم الامانى فباءوا بغضب الكسل على غضب الجهل . ثم أبان ان الغرض من القصص آثارها ومن المثلات علومها وفهمها ومن النار نورها ومن القصص مغزاها ومقصودها وأن الجامدين على أحاديثها والمنكبين على اعرابها وبيانها والغافلين عنها ساء مثلهم فتسربت اليهم التعاسة والشقاء فقال (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا

القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون) ثم أخذ يشرح صفات رجال الامم المنحطة وعقلائها وذوى النفوذ فيها وانهم يقنعون بجسوم العلوم دون ارواحها أو المبانى دون المعاني أو يسمعون القصص فيتخذونها سلوة واذا رأوا حكمة ردوها للشهوات فقلوبهم غلف وآذانهم صم وأعينهم في غطاء فقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون)

(ميزان وبرهان)

اذا شئت ان تسبر أمتك بهذا المسبار فانظر خواصها فان الفيتهم متكالبين على الرسوم لذاتها والوظائف رابضين قانعين بما أوتوا من الرزق متكالبين عليه وشغلوا القوة العاقلة بهذا وحده فبشرها بالحياة الحيوانية والاستعباد الادبي وبضدها تتميز الاشياء

كيف السبيل

انما السبيل لذلك أن تؤلف الرسائل المشوقة للعلم الحائمة

عليه كالاحاديث المحببة فيه حتى يرغب لذاته كقوله عليه الصلاة والسلام (ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب) وقوله عليه الصلاة والسلام (من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا الى الجنة) اه

﴿ المقالة الثالثة ﴾

(مقدمة الكلام فى)

(أحوال الدول فى قصص فرعون وموسي عليه السلام)

الانسان في حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم فاما مكبا على وجهه أو سويا على صراط مستقيم كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الابوان أو الاقربون أو الاخدان والاصحاب والعشيرة والقبيلة والمربى مع ملاحظة الامزجة وهؤلاء يهدونه احد النجدين اما الخير أو الشر . وبمقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء والتاريخ مثل واضح يتمثل به الانسان سيره فى نفسه واهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الاصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الاذنان ولاجرم انه يسد عوز الحكيم

اذا عقل في سيرته الشخصية والمنزلية أما سيرة المدن وتقلبها فمرجعها الى مرآة اوسع واعظم ألا وهى تواريخ الامم الغابرة فهى المنظار المعظم تدرس بها الاخلاق فى شكل بهيج جميل

لعمرك ليس كل تاريخ يغنى (وما كل مصقول الحديد يمانى) فقد يستسمن ذوالورم وينفخ فى غير ضرم يسرد المؤرخ حكايات الاولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر الا فى آثار واحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر له الحوادث برونق بهج ونوائجها ظاهرة واضحة خيرا أو شرا فيخرج القارىء من بساتينها مقتطفا من رياضها ازهارا وجانياً من اشجارها اثمارا ولقد ذكر العلماء ان درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلافائدة وضياع وقت وحياة نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لاسيما المصريين وقد كان فرعون يقول (أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون)

ذلك تذكرة للكاتب والقارىء لانا نعلم انه لم يكن ليجعل حكاية يسلى بها القارىء نفسه كما يشعر به قارىء رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو تعالى يقول (لقد كان في

قصصهم عبرة لاولى الالباب) والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارىء التأريخ حال غيره الى نفسه. ويعبر به على سفن الالفاظ الى جلجلانه ويقول تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ويقول جل وعز (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام (ما تحت الشمس من جديد) ويقول علماء العصر (التاريخ يعيد نفسه)

غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوي ورضاء بالقشور وابتعادا عن أسرار البلاغة

جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الامثال والمواعظ ولكل مثل مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها واحوال العرب عامة تنطق بها

فمن اجهل ممن جمد على الالفاظ دون معناها اوالمعانى دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام (شيبتنى هود واخواتها) وترى كثيراً من الادباء اذا ازمع هداية انسان ذكر له قصصاً تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون اشد تأثيرا من وقع الحسام وتثير فى القلب حمية واقداما أو خيفة واحجاماً فزال

المراء ورفع الغطاء ان الخبر فى مغزاه كالسهم في مرماه فلنبدأ
بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشى الامم فى قصص فرعون
وموس عليه السلام

﴿ المقالة الرابعة ﴾

أشرنا في المقال السابق الى ان تاريخ مصر امس بالمصريين
وانفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم الا انهم كانوا فى
ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبي الله ادريس المسمى بهرمس
ويسمى المثلث لانه كان طبيبا ومهندسا والهيا وورد انه اول
من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن في
النواويس تحت الاحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا
في ذلك التوحيد وبنوا الهيا كل العظيمة آثاراً لجلاله ونظروا
فيها حسن ولطف دلالا على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الاثر
وتراخى الزمن وبقى التوحيد سراً مكتوما عند حملة الدين
وحرموا العامة منه فارسل النبي موسي عليه الصلاة والسلام
فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجع في الخاصة وهم القليل
وآمن بنوا اسرائيل وبقى المصريون في عمايتهم وجهلهم مع

فرعونهم (فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين)
فاغرق فرعون وجنوده واما بقية الشعب فاجتاحتهم جائحة
الحبشان بعد الاسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الاشوريين
واحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قمبيز فلعمرك ما سدد
سهمه عليهم فاصماهم واقصد القلب الا بقوس من شعائر دينهم
عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قمبيز بين
الجيشين فتحرج المصرى عن قتالها فاصابها وأصابه قمبيز فملك
وقتل وسبي وغزا وارسل الجيوش وقتل العجل المعبود واغضب
المصريين وكان ما كان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدونى وبعده
البطالسة فالرومان الذين استباحوا ماحرمه الظالمون فقتلوا
الابرياء وانتهكوا الحرمات وغالت الامة غولهم وجاء عمر مهيمن
عليهم بجناح الرحمة واسدل ستارا من العدل وحرسه بجند من
الايمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة
ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر ابن الخطاب عليه فجاء نوراً على
نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوصمه بما
وصم امام الصحابة رضى الله عنهم في قضية ابنه وابن القبطي اذ

ضرب الثانى الاول بحضرمن الصحابة فى المدينة حتى قال القبطي
قد شفيت نفسي

كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل يا عمرو فينا ولكن جئت فى الزمن الاخير

فأكثرهم أبيدَ بيدِ الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روي عن ادريس النبي عليه السلام

يامصر يامصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب رجالك وآمالك وتبقي اخبارك فى أحجارك

والكتاب اوضح هذا فقال فى فرعون (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسي الكتاب لعلهم يهتدون)

العبرة فى هذا ان الامم لهاباب ترتقي فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لابد لها من اصلاح فاما ان تتعظ الامة بالمرشدين الناصحين والا فلا مناص لها من السير على نهج فرعون وقومه

بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الامم المصبية المهينة الفاتكة وان الامة اذا ظلت عاكفة على عجول جهالتها فهى دابة كل راكب خادمة كل سيد طفلة كل مرب زوجة كل بعل وكما لم ينفع المصريين ان انجلت عنهم دول الاحباش والاشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم غدا عليهم جبار فهكذا ياقوم فليكن حالنا اليوم فمادمنا جهلاء فنحن سنكون ابد الدهر طعمة الآكلين فريسة القابضين ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيس والالمان فليس لنا في ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله انما ينزلها للمحسنين عملا (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون) ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ان المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسي عليه الصلاة والسلام ماسحقتهم الامم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض فانظر كيف كان عاقبة الجامدين

أما اهل مصر الحاضرون فما غشيهم ما غشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها وهم

وان نسوا انسابهم فيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة فى عرب البادية المصرية وتقل في الفلاحين وتضعف في أهل الامصار والمدن الكبار الا فى أناس ارجعها لهم التعليم ان صح فلا حكم عليهم كما حكم على الامة التى قبلهم ولا أرى أن يسام الحاضرون بالغابرين

هـذه أمة عربية فتحت منذ قرون وتتابعت فى هذه الديار زمراً زمراً زمن الامويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى وان ما فى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم فاذا قيل مصر بقيث فى الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكما علينا كيف وقد كان من العرب انفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسرع الرقي في أقرب الازمنة متى تعلموا وسنذكر بعد هذا كيف تولد الامة وهى جنين وكيف تشب وهى طفلة لعوب

﴿ المقالة الخامسة ﴾

(فى انشاء الامم)

سبق القول انا سنبسط شرح احوال الامم آن تدرجها وهى اجنة في البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وان ذلك سنة لامحيص عنها للامم اعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكالانسان طفل فشاب فشيخ فميت وكالسنة ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه اما بالحركات فى الافلاك او بالولادة فى العناصر الزوجان من الانسان مهما حاولا ان يتناسيا النسل فلا مناص منه للجمهور شاؤا أم ابوا فهكذا الامم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها مما تحت سيطرتها ولكم حاولت الامم القاهرة ان تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلا تلبث ان تتمزق كل ممزق بايدى الامم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون

وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون) وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وماكان من تمزق الرومان بايدى الفاتكين من الامم الوحشية اذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على امرهم فى اعصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر (وتلك الايام نداولها بين الناس) هـذا وليس رقى الامم بلا موجب فللرقى اسباب وللتدلى اسباب ولقد فصلنا القول فى اسباب السقوط فلنشرح الآن اسباب الرقي من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام اذهما اقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدمنا انها ذكرت فى في الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصاً ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهـد بالغائب ويعتبروا بالامم السالفـة (هو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقد استخلصنا اسباب الرقى اذا هى عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ومتى قام

الناس بما عليهم منحهم الله ماعنده من الهبات والمنح العشرة

الاول ان تمنح الامة رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه فاخلصوا في اعمالهم لاممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الاعمال لذاتها لارياء ولاسمعة بحيث يكون ذلك كانه خاصة فيهم هبة لهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتي شعيب عليه السلام في سقي الغنم اذ (قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير) فرفع الحجر عن البئر فسقى لهما ثم تولى الى الظل) وكان ماكان من زواجه باحدى الابنتين ورعيه الغنم ١٠ سنين وكما اقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكيه وقد ابى القوم ان يضيفوهما وما كان ذلك الا عملا اريد به فضل العمل لذاته لااجر ولا شكور

(٢) حسن السياسة مع الامم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الامة المغلوبة بما في الامكان واجتذابها اليها بما جمل من العلم والمعرفة كما وقع للنبي موسى عليه الصلاة والسلام اذخوطب (اذهب انت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري اذهبا الى فرعون انه طغي فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر اويخشى الى ان قال (فارسل معنا بني اسرائيل ولاتعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام

على من اتبع الهدى) فجمع بين الارشاد واللين في القول أو الشفاعة فى قومه وهذا واجب شرعاً على كل من أوتي حكمة فى القول وجاها وعلماوقدرةان يتذرع بها الى الأمم المسيطرة على امته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى فى علو شأن أمته لهذا نزل القرآن لا تغنيا أو اعرابا فحسب أوتاريخاً ومن اعطاه الله حكمة اوجاها فانتبذ من أهله مكانا قصياعاكفاعلى شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفاً حكمة عامة الاديان

(٣) القوة العلمية واقناع الخاصة بما يلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد يشير الى الاول قوله تعالى فى موسى (قال فمن ربكما ياموسي قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيهاسبلاوانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتي) فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والانفس الراقية وهى تشير الى مايعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء وثم تلقفت عصاه افك السحرة واخرج يده فاذا هى بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضاً لدى السحرة

(٤) الانفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الذمار وخوف

العار بأزالة المنكرات جهاراً واستئصالها ليلاً ونهاراً عند القدرة كما قتل موسي القبطى الظالم للاسرائيلى فوكزه موسي فقضى عليه) وان ندم بعد ذلك وهكذا ان اذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فراسة بنور النبوة والعلم انه سيضل به الوالدان فهذه اشارت وملامح براد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح فهذه اشجار هذا زهرها وثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٥) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتي هى احسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وهكذا ام موسى وضعته فى التابوت لنجاته (فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى أنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)

(٦) الثبات على المبدأ والصبر امد العمر الم تر كيف خرج قوم موسي من البحر سالمين ونجوا من الغرق (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا آلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون الخ) هذا

في العلم وفي المحاربة قالوا له (اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون قال رب انى لا أملك الا نفسي وأخي) وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلنهم ولو وحدي

وليس قصدنا من هذا الا الثبات على المبادىء الشريفة وانتهاج خطة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فمتى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعاذل أو ناقم

٧ اشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وان لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بنى اسرائيل فى القرآن بهذه العبارة (وانى فضلتكم على العالمين) تذكرة لهم في زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لامة تقرأه وهى ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخزى كيف وهذه الامة عموماً وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الارض مدنوا العالم منا الامويون والعباسيون والفاطميون وما الطولونيون والاخشيدون الا موالى آبائنا وما المماليك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد الا من موالى اسلافنا ولقد أدركت القوم فى القرى ايان لقومة أظفارى وهم يفخرون بقرى الضيف وضرب السيف

وينشدون الاشعار الحماسية وماعهد اكتساح التتار بمائتى ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون ببعيد

ولعمرى لان تمتلئ النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب أقداما خير من أن نراها ذليلة منكسة الاعلام مرتاعة الافئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى

٨ تربية الناشئة على مبادى جديدة تصلح للرقى والتربص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا كما وقع لبنى اسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا فى أرض التيه اربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبابرة (قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين)

(٩) الفرار بالاهل والعشيرة والامة من حال ترديهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وان ذلك يسهل متى اراد الانسان وهو أبو العجب الم تر الى موسى عليه السلام كيف مر ببنى اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(١٠) ازدواج اللين والشدة وقد كان للاولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام هذه العشرة متى ظهرت في افراد من الامة منحهم الله هبات وافرة وهى عشرة سنذكرها فى مقال آت ان شاء الله تعالى

﴿ المقالة السادسة ﴾

قلنا فيما سبق ان الامم تحيا برجال يجمعون عشر خصال اخلاص العمل لامتهم والحنو والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم وما من أمة من أمم الشرق الا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخلصوا لبلادهم فى العمل رغبة فى حسن الاثر والاحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا فى العلم او الثواب الجميل والشوق الى مبدع الكون وتقليده فى صنع الجميل بلا طلب اجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع انواع الوسائل المرقية للامم ودفع الاذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن ولو اذاقهم الفاتحون كاس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام فلا أمة تفعل ما فعلت الفراعنة

فى بنى اسرائيل ومع هذا فلم يترك موسى عليه السلام فرصة
قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما
عارضه الاقربون والادنون واشعار النفوس بمكانتها وشرفها
فلا ينبغى ان تصغى الامة الى من يصغرها في عينها ولقد قال
ابن خلدون رحمه الله ان هؤلاء الذين يسكنون الخيام في البادية
هم ملوك الاعصر الغابرة وهم يجهلون اصلهم وتاريخهم وأنا
أقول أننا قبائل نزحنا الى هذه البلاد واقاليم السودان واستوطناها
وتغلبنا عليها من آماد واجيال قريبة العهد لا تقتضى بان يضرب
علينا الذل والمسكنة ولا يقال في مصر (وهى لمن غلب) فانما
كان هذا المثل مضروبا لامة خلت (تلك امة قد خلت لها
ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون)
وتربية النشء على المبادىء القويمة والعزة ومزج الشدة باللين
والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو اخلاقا اوملكا
الخ هذا ملخص ما ذكرناه امس ونقول هذه العشرة تتبعها
العشرة الاخرى التى قلنا انها هبات من الله وهى تساوقها بلا
ترتيب ولا تعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم
واحسانا

(١) الالهام وذلك يكشف الغطاء عن القول فتنظر لهم وجوه المنافع ومساوى المضار فان النفوس اذا جاوزت هذه العقبات او بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول الى الحكمة فأدركوا حالهم ومآلهم واليه الاشارة بقوله تعالى (واوحينا الى أم موسى) وهذا وان كان بلا كسب ففيه أشارة الى مانحن فيه (٢) اجابة الدعاء والنصر (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) (٣) شد الازر وتقوية الافئدة بالاخوان والانصار (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) (٤ و ٥) النصر والنجاة من الضر (ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين)

(٦) الهداية الى الطريقة المثلى (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم (٧) حسن السمعة والذكر والصيت (وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين

(٨) القربى من الله تعالى (وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا (٩) التمكن من الخلافة في الارض (ونريد

ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

(انقلاب الاعداء اصدقاء محبين ألم ترالى حديث رجل من آل فرعون (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله) الآيات فكان نتيجة صبر موسي عليه السلام على الدعوة ان قام رجل من اعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك ان في هذا لبلاغاً للامم المهضومة الحقوق ان من اعطى فصاحة او جاها او حكمة وعلما وجب عليه وجوبا عينيا ان يقوم فيناضل عن أمته بماله او جاهه أو قلمه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الامر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادي مواليا وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقي أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ولما جاهد بنو اسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفاً وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر في التلاشي اذ ذاك ودوختهم الامم المغيرة الفاتحة

من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)

﴿ المقالة السابعة ﴾

دع بنى اسرائيل وأخبارهم والمصريين وآثارهم وسر بنا رويداً الى ساحل البحر والرياح عاصفة والامواج مصطفة متتابعة كتائب ذات عجيج وزئير تسير جحافلها على سطح الماء تستلم صم الحصا وتلتزم أركان الشاطئ ذهبية الاصيل وما أمامنا الا الماء والسماء والهواء يزجي السحاب نيمور موراً ويثير الامواج فتبنى طوداً وتحفر سرباً وغوراً

قف بنا ننظر غروب الشمس في هذا البحر وكيف اقتنصها وهو ذرة صغيرة بالنسبة لها . وأطلق لنفسك سراحها لتجول في عالمها وعاطها كؤوس العلم في رياض الفكر علها تروى صداها وتشم شذاها فتسير فى الارض سيرة وتدور فى الفلك دورة

قف وفكر فالعلم غذاء والتاريخ والعمران دواء . أيتها النفس فيم تفكرين وأى مذهب تذهبين !! هذا البحر المحيط

أمامك والشمس تنظر اليه باسمة وقد آذنت بالرحيل مودعة تشير بطرف العين وراحة السحاب « السلام على العالم » « السلام على العالم »

نظر الشعراء . ماذا تنظرين أيتها النفس . أتنظرين نظرة الشعراء علماء الخيال الناظرين للجبال يتخيلون تيجان الماس مكاللة جند الامواج ويسمعون انغام الموسيقى الناتجة من هبوب الرياح فيناجون الارواح العالية فتنزل عليهم وحى المعانى الجميلة فيصوغون من صفاء الماء ولطافة الهواء وزرقة السماء وذهب الاصيل صوراً تنعكس في خيالهم عن عالم المشاهدة فتسمعها شعرا كالدر ونثرا كالجوهر . فان تصور صورة الصبا قال :

يأيها الرشأ المكحول ناظره ... بالسحر حسبك قد فتنت أحشائي
ان انغماسك في التيار حقق ان ... الشمس تغرب فى عين من الماء

وان رجع وأناب وذكر الشيخوخة قال

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها حمراء صافيــة ... وغروبها صفراء كالورس

نظر الكيماوى ماذا تنظرين أيتها النفس ؟ أتنظرين الى ما أحاط بالكرة الارضية من الماء والملح ممتزجين فتجزئ ذراته وترجعيه الى أصله وتحلليه الى عناصره فلا يرى هناك

الا مواد حارة هوائية طائرة واخرى باردة تطاردها فى الهواء والاولى هى الاكسجين والثانية هى الادروجين . ومن عجب ان يكون هذا الماء من مادتين هوائيتين لطيفتين لا يراهما الراؤون ولا يتخيلهما الحادسون تضادتا طباعا واتفقتا لطافة أولاهما محيية بحرارتها وثانيتهما مميتة ببرودتها فكونتا هذا الشكل البهيج للعالم . طالما قرأنا فى الحديث أن البحر نار فى نار فلا نذوق له طعما ولا ندرك له فهما فظهر الامر فى المكتشفات الحديثة أن الماء ثمانية اتساعه المادة المحرقة (الاكسجين) وذلك فى الوزن فقط . وفي حديث آخر تحت البحر نار فظهر أنها تلك الكرة النارية المخلوقة قبل الارض وقودها المعادن والكبريت والزئبق مداخنها جبال النار (البراكين) فائدتها اعداد المعادن للآلات والصناعة والزينة لمن بعدنا من الامم ويا ليت شعري كيف تكون من الحار والبارد هذا الجوهر اللطيف وهو الماء فاخرج به جنات وأعناب وفاكهة وحيوان وانسان وسمع وبصر وعقل وحكمة

نظر المؤرخ أم تنظرين الى سطح هذا البحر العظيم وما تحمله الجوارى المنشآت فيه كالاعلام كأنها مدن بنيت آساسها

العلم صنعا والماء وضعاً طيرها البخار فى البحار وكلها البرق فى
اسلاكه والاثير فى خفائه وغيابته كأنها وقد جالت في البحار
(ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) عجباً هذه السفن
الذاهبة الآتية للتجارة والربح والحرب والسلم . ارجعي أيتها
النفس الى القرون الماضية والامم الغابرة والدول البائدة فكم
لهم من غدوات وروحات هناك ترين سفن الفينيقيين وجوبهم
هذا البحر ، والفرس وقمبيزهم الظلوم ، حمله هذا الموج لخضد
الشوكات النافذة وقلم الاظفار الخادشة وأنزل الملوك والفراعنة
عن عروشها . وكأنك بالاسكندر المحبب فى رعاياه يجوب
العباب ويقطع الصعاب وهو يهد شامخات الصروح ويبنى المدن
ويشيدها . وترين البطالسة وترفهم والرومان وغلبهم والامويين
وفتوحهم والعباسيين وعلومهم وامم الترك وما وراء ذلك من دول
وملوك وأساطيل وجنود الاسبان (ومايعلم جنود ربك الا هو
وما هى الا ذكرى للبشر) مروا سراعا وولو اتباعا وقلبوا اوجه
اليابسة كما قلب هذا الهواء لطيف الماء فهاج الناس وماجوا كما يموج
هذا الموج ثم تولت دولهم وذهبت ايامهم كأن لم يغنوا بالامس

أين الملوك التى كانت محجبة   من دونها تضرب الاستار والكلل

نظر الطبيعي ام تأملين الاضواء وتركيبها وجمالها وكيف كانت سبعة الوان تمازجت واتحدت وصورت شكلا بهجاً نضر اللون في الاودية والجبال والبساتين والاشجار والماء واظهرت محاسن الصور الانسانية . ولولا الضوء ماكان اللون وظل العالم سواداً في سواد ثم نكر كرة عليه فنقول . اهذا الضوء عرض كالالوان والطعوم والروائح تابع لغيره لا استقلال له كبياض الابيض وجمال الجميل أم هو جوهر كالاجسام يأخذ مقداراً من الفراغ ولو اخترنا العرضية ونبذنا الجوهرية فكيف ينتقل من الكواكب الينا ولا استقلال للأعراض فكيف حركتها ونقلها وكيف جاءنا ضوء الشمس في نحو (٨) ثمان دقائق مع انه كالبياض لا حركة له الا بجسمه واذا رسمناه جوهرا وقدرناه جسما فما الذى اذهبه من العالم اذا توارت الشمس بالحجاب وضربت عليها القباب وهل تذهب الثمرة بذهاب الشجرة أم الولد بموت أبيه ؟ كلا !!!

فني أيتها النفس في حيرتك فاذا لم يكن عرضاً ولا جوهراً فلا وجود له ! كيف هذا ونحن نشاهده بعيوننا بل لا حياة لنا الا به . لا . انما الضوء حركات في الاثير وموج كامواج الصوت

في الهواء هذا آخر ماوصل اليه عقل الانسان

ام تنظرين نظرة الفلكي للشمس وانها لا تزيد على مقدار دائرة صغيرة في نظر العين ولكن العقل اكبرها فنظرها العرب واليونان فاوصلوها ببراهينهم الى ٥٠ او ٦٠ ضعفاً قدر الارض واوصلها علماء العصر الحاضر الى مليون و ٣٠٠ الف مرة مقدار الأرض ... ما أعجب الانسان وأبدعه ارى بعيني هذه الشمس صغيرة فكبرها العقل فتتضاءل العين وعلومها ومعارفها وتضمحل هي وما عليها وتذل المخترقات لعظمتها امام العقل

﴿ نظر الحكم ﴾

عجبا لك ايتها الشمس. كيف صغرت ايها الكوكب العظيم في العيون وما الذى انزلك من سماء عظمتك وانت سيد الكواكب السيارة حولك عطارد والزهرة والمشترى وزحل وانت انت الملك العظيم انت الهيكل الكبير عبدك الاولون وسجد لك الفراعنة الاقدمون جلست على عرش عظمتك في سماء جلالتك بما منحك منشئك ومبدعك من القوة والعظمة فياليت شعرى كيف حركتك العيون وانت في سكون وكيف صغرتك

الظنون وانت ذو الشؤون لا لا انا لا أعجب منك أنت إنما
العجب من نفسي اذ النفوس الانسانية اعظم منك وأجمل وأبهى
وابهر فانها بما لها من السلطان عليك والقهر والعظمة بما أوحى
اليها من سماء العرفان وما اودع فيها من الحكم والحواس استنزلتك
من سماء عظمتك واغرقتك فى البحر فتركتك كالدينار ملقى
فى الماء فوسعك البحر وانت عظيم وادركتك العين وانت كبير
حتى وقف الاسكندر المقدونى على شاطىء بحر الظلمات وهو
جزء صغير من المحيط ورأى الشمس تغرب فيه وما البحر
وماؤه فى جانب ما في العالم من الاجرام والكواكب الكبيرة
الاجزاء حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين
حمئة ممزوجة بالطين او حامية حارة . أأنت ايتها الشمس ذلك
الذى يرسم الليل والنهار بمقدار ويكون الشهور والايام أم انت
التى تدورين كالرحا على القطبين فتجعلين نصف السنة ليلة واحدة
ونصفها الآخر يوما واحداً ثم تتناقص الايام والليالي الى شهور
فشهرين فشهر فأسبوع فايام معتادة على قرب المناطق وبعدها
كما رسم فى أيام المسيخ الدجال وكان ذلك من أعاجيب النبوة
ومرموزاتها المستورة عن النفوس الضعيفة والعقول الخامدة ؟

﴿ ثمرة هذا النظر ﴾

أراك ايتها النفس تلمحين من خلال مسطور الواح العالم نوراً وتكتبين على الخيال منه سطوراً وقفت موقف الشاعر واوقدت النار للتحليل الكيماوى وأمررت الضوء فى البلور والمنشور مع الطبيعي وتأملت معه في سبعة الالوان فى قوس قزح وقطرت الماء وكررت راجعة الى غابر الدهور مع التاريخي ونظرت الشمس ومارسمه الاقدمون انها لاحارة لاباردة ولا رطبة ولا يابسة وانما الضوء والحرارة بالانعكاس على الارض وما قال به العصريون انها حارة وتركبت من العناصر الارضية

فيقول الاولون بانها باقية ابد الآبدين ودهر الداهرين وكذبهم الاخرون من العرب والافرنج وانها ستمحى من صحيفة الوجود كالانسان وهذا سيرك مع علماء الفلك ثم سبرت الحكمة فى العقول والابصار واختلاف مقادير الاشياء باختلاف درجاتها وعطفت على المفسرين في قصص الاسكندر وانثنيت مع الفقهاء في تقدير الايام اذا زادت عن المعتاد

وهل حظ عقولنا من هذا الجمال البديع الا ان نتعالى

بنفوسنا عن الدنايا ونخطو الى جلائل الاعمال مع عظام الرجال فلتكن النفوس الكبيرة شموس الامم وبحار الحكم يصدر عندها سحاب الطلاب والسائلين ويرد اليها جداول المدح وانهار الثناء من الشاكرين . لعمرك ما العلوم على تباين اشكالها وتمايز اوضاعها وتكثر فروعها الا كمال للعقول تستعد بها الى العروج الى سماء المدنية وترقى الامة . عقل يحلل الماء ويطيره فى الهواء ويحلل الضوء ويحكم ويتصرف أولى بالاحاطة والشمول وانارة السبل والعقول

على نفسه فليبك من ضاع عمره　　وليس له منها نصيب ولا سهم

﴿ المقالة الثامنة ﴾

(يأجوج ومأجوج)

يأجوج ومأجوج امتان ذكرتا فى القرآن الشريف فى سورة الكهف وسورة الانبياء قال تعالى قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض» وقال في سورة الانبياء « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق الآية » فلنجعل هاتين الآيتين موضوع

بحثنا ضاربين صفحا عن وجوه التفسير التى ليس لها مساس به ولنحصره فى خمسة مباحث .

المبحث الاول فى معنى لفظ يأجوج ومأجوج واصلهم وجغرافية بلادهم .

المبحث الثانى فى افسادهم فى الارض ويستلزم ذكر تاريخهم

المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج وذكر خروجهم وتعيين زمنه ومايشهد له من الاحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك .

المبحث الرابع في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين .

المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق .

المبحث الاول — أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح مأخوذان من أجيج النار وهوضوءها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم وذكر بعض المدققين فى البحث عن تأصيلهم ان اصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له ترك وهو نفس الذى سماه ابو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا ان المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج وهم كانوا

يشغلون الجزء الشمالى من آسيا تمتد بلادهم من التيبت والصين الى المحيط المنجمد الشمالى وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان كما فى فاكهة الخلفاء وابن مسكويه في تهذيب الاخلاق وفي رسائل اخوان الصفافقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج ومأجوج

المبحث الثانى — الكلام على افسادهم فى الارض . وقد ذكر المؤرخون ومنهم الافرنج ان هذه الامم كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الامم المجاورة لها فكم أفسدوا وقلبوا الامم قلبا قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميرا وجعلوا عاليه أسفله فهم مفسدون في الارض بنص القرآن وشهادة التاريخ فقد ذكروا ان منهم الامم المتوحشة والسيول الجارفة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت الى أوروبا في قديم العهد فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التى كانت مقر الانبياء وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الامم قديما قبل نزول القرآن وكذلك ورد ذكرهم في القرآن كما تقدم وفى بعض الاحاديث ايضاثم انهم لم يزالوا في حدود بلادهم لايتجاوزونها بعد زمن النبوة الى ان ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء

من تلك الامم المتوحشة الرحالة اذ ظهر منهم رجل يسمى
تموجين لقب نفسه جنكيزخان وقال مؤرخو الافرنج ان معناه
بلغة المغول ملك العالم ولقد ملك من بعده مشارق الارض ومغاربها
اذ أعد نفسه فاتحا لكل العالم وكان خروجه هو وقومه من الهضبات
المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى فى أوائل القرن
السابع من الهجرة فانه بعد ان جمع أمة التتار تحت حكمه اخضع
الصين الشمالية اولا ثم ذهب الى بلاد الاسلام فاخضع السلطان
قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن ارسلان بن محمد من
الملوك السلجوقية ملك خوارزم لاسباب سنذكرها وكان يمتد
ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين
مدافعة الابطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئا وسقطت الدولة بعد
حرب مكثت عشر سنين ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات
والفظائع مالم يسمع مثله فى تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة
ولا صبي ولا صبية فقتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش
أنواعا ولقد حسبوا القتلى فى مدينة خوارزم وحدها فلحق كل
واحد من جموع جنكيزخان التى لا تحصي عدآ اربعة وعشرون
قتيلا واحرقوا المدينة وهدموا اسوارها وأجروا بها الدماء انهارا

فضلا عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما وفتكوا باهل نيسابور
وافنوهم عن آخرهم حتى الاطفال والحيوانات كالقطط والكلاب
وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى فى واقعة مرو فكانوا مليونا
وثلاثمائة وثلاثين الفا هذا ما امكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة
بل قطرة من بحر فظائعهم راجع دائرة المعارف وابن خلدون
وفاكهة الخلفاء وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التى سنذكرها
فلقد اخضعوا بلاد الهند ومات جنكيز خان بعد قفوله من
غزوها ولما ملك بعده ابنه اقطاى اغار ابن اخيه المدعو باتو
على الروس سنة ٦٢٢ ودمروا بلونيا وبلاد المجر وأحرقوا
وخربوا ومات اقطاى فقام مقامه جالوك فحارب ملك الروم
وألجأه الى دفع الجزية ثم مات جالوك وقام مقامه ابن اخيه
منجو فكلف اخويه كيلاى وهولاكو ان يستمروا في طريق
الفتح فيتجه الاول الى بلاد الصين والثانى الى الممالك الاسلامية
وقد فعل كل منهما ما أمر به فاخضع كيلاى بلاد الصين
وزحف هولاكو على الممالك الاسلامية ومقر الخلافة العباسية
وكان الخليفة اذ ذاك المستعصم بالله فاراد أن يدخل الى هؤلاء
الباغين من طريق المداولات فلم يفلح واخذت بغداد عنوة

فى أواسط القرن السابع من الهجرة واسلمت للسلب والنهب سبعة ايام سالت فيها الدماء أنهرا وهو أمر معلوم مشهور وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم وهذا الخليفة بعد ما احضر لتسليم ما لديه من الكنوز التى لا تحصي وقد ورثها عن اجداده ذبح وعلقت جثته فى ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها اربع ممالك منفصلة فاختصت اسرة كبلاى بالصين والمغول وملك جافاتاى أخو افطاى لتركستان وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطئ نهر فلجا وصارت الروسيا تدفع الجزية اليها زمنا طويلا وانضمت بلاد الفرس الى هولاكو الذي دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول الى بلاد الشام

المبحث الثالث — قوله تعالى « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج » أى فتحت جهتهم على احد تفسيرين ولقد فتحت تلك الجهة فى أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا فى التاريخ وخرج جنكيز خان وجنوده وملكوا مشارق الارض

ومغاربها كما أوضحنا وقد ورد فى بعض الاحاديث مايشير الى
ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (اتركوا الترك ما تركوكم فان
اول من يسلب أمتى ملكهم بنو قنطورا) أى الترك مع ملاحظة
ما ذكرناه فى التاريخ انه لم يسلب الامة الاسلامية ملكها الا
هؤلاء وقدورد ايضا فى حديث يأجوج ومأجوج انه مقدمتهم
تكون فى الشام وساقتهم بخراسان فهذه اشارة الى سيرهم
واتجاههم وطريق ومنتهى ملكهم اذلم يتجاوزوا الشام الى مصر
ولا افريقيا وقد ورد ايضا ان يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة
ولا المدينة ولا بيت المقدس ومن العجيب ان جنكيزخان وقومه
وذريته طافوا الارض شرقا وغربا ولم نعثر فيما اطلعنا عليه انهم
دخلوا احد الاماكن الثلاثة فما اجلها من معجزة ظاهرة ثم ان
جنكيزخان هو المراد بحديث (يخرج في آخر الزمان رجل
يسمى امير العصب اصحابه محسورون محقرون مقصون عن
ابواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق
يورثهم الله مشارق الارض ومغاربها » وقد حمله بعض العلماء
قديما على جنكيزخان المذكور وسبب خروجه وحصده الارواح
ان سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التاريخ قتل رسل جنكيزخان

والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم واغار على اطراف بلاده فاغتاظ جنكيزخان وكتب اليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه مامعناه .

كيف تجرأتم على اصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى وهل ورد فى دينكم اوجاز في اعتقادكم ويقينكم ان تريقوا دم الابرياء اوتستحلوا اموال الاتقياء أوتعادوا من لاعاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم اتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة اوماجاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم ان تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم وما اخبركم مخبر وكم ويلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم (اتركوا الترك ماتركوكم) وكيف تؤذون الجبار..وتسيئون الجوار ونبيكم قد اوصى به مع انكم ماذقتم طعم شهده اوصابه ولا بلوتم شدائد اوصافه واوصابه (الا ان الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل ان ينهض داعى الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر مابطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج . وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولابد ان الخالق القديم

والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآشار عدله فى بريته فان به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوه فلترون من جزاء افعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان وانظر كيف كان صريحا بجميع مايراد من هذه المقالة باوفي بيان وهذا مصداق مارواه البخارى بسنده عن ام حبيبة بنت ابى سفيان عن زينب ابنة جحش. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هـذا وحلق باصبعه الابهام والتى تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يارسول الله انهلك وفينا الصالحون فقال نعم اذا كثر الخبث . ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ الى القرن السابع من الهجرة حتي فتح عن آخره وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب ان هؤلاء الاقوام كانوا غوغاء ولارؤساء لهم.

وصار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد فى المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التى لم تعلم الا بافتتاح المسلمين ماجاورها من بلاد خوارزم وهذه من أجل المعجزات

ثم انه كان بين بلاد جنكيز خان ومملكة خوارزم مملكة تسمى انذار كانها حد فاصل بين الدولتين اوسد بين الامتين فغزاهم الملك السلجوقي واستعبد اجنادهم فارتفع الحاجز بين الامتين فسرت السراير.. وابتهجت القلوب بهذا الفتح وكان اذ ذلك في نيسابور عالمان فاضلان فاقاما العزاء على الاسلام وبكيا حتى ارويا الارض بدموعهما فسئلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله فقالا وانتم تعدون هذا الشر فتحاً وتتصورون هذا الفساد صلحاً وانما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج » ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين (ولتعلمن نبأه بعد حين) فهذا تصريح من هذين العالمين بما اردناه ونص في فحواه ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه وظهر التتر وافنوا المسلمين وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرحلون من منازلهم قراراً وكذلك اهل اوروبا .

المبحث الرابع قوله تعالى (من كل حدب ينسلون) الحدب

ما ارتفع من الارض وينسلون اى يسرعون في النزول من الآكام والتلال المرتفعة وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم جنكيزخان المتقدمين فانهم باجماع مؤرخى العرب والافرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطي وحدبها كما ذكرنا

المبحث الخامس قوله تعالى واقترب الوعد الحق اى القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى . «ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً» في مساق قصة يأجوج ومأجوج ان خروجهم قرب الساعة ولكن هذا لا يدلنا على انه لا فاصل بينه وبين الساعة الا ترى قوله تعالى «اقتربت الساعة وانشق القمر» وقوله صلى الله عليه وسلم «بعثت انا والساعة كهاتين» واشار بالسبابة والوسطى ومع ذلك فقد مضى نيف وثلثماية والف سنة فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فكلاهما اقتراب. ورب قائل يقول أين الاقتراب فى الموضعين قلنا معلوم ان ما مضى من الزمان لا يتناوله الاحصاء وما بقى من عمر الارض الطبيعى قدره يسير جدا بالنسبة لذلك ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بعداً ويعده الله الباقى الدائم قرباً قال تعالى «انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» فآلاف السنين لا تنافى القرب مهما

امتدت وطالت بنسبتها الى الزمن كله اذ من البديهى ان الآلاف لاتذكر في جانب الملايين ولذلك ورد فى حديث ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج وهذا دليل على ان الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل واما صفاتهم المشهورة فى القصص وبعض الآثار فكثير منها لا أصل له اوضعيف الرواية وليؤول الصحيح منها ان خالف حقيقة هذه الامم على قاعدة وجوب تأويل الدليل النقلى ليوافق العقلى الذى قطع ببرهانه فاذا صح ان الارض اكتشفت بتمامها وان الربع الشمالى لم يبق فيه احتمال لوجود أمة مجهولة وجب المصير الى ماقلناه في هذا المبحث أو نحوه هذا ما عن لى الآن وهذا ماكنت اجبت به عن سؤال الاديب الهندى فى حينه من أمد غير بعيد في مجلة الهلال في آخر القرن التاسع عشر

ثم قارنت بين حديث البخارى المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام (ويل للعرب من شر قد اقترب قد فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج الخ) فبما ذكرناه مع اضطرابه وخوفه

الشديد وبين كلام علماء الجغرافيا فى نحو القرن الثالث والرابع فزاد يقينى بما كتبت ورأيت هذه البلاد كانت معروفة عندهم باسم يأجوج ومأجوج وزاد استغرابى جداً لمعجزة ظاهرة واضحة قد خفى رسمها عنا وكيف نحقق هذا القول فى الخارج وجاء مصداقاً للقرآن والحديث فالحق والحق أقول أن هذا النبي والكتاب المنزل عليه لما يدهش العقول وكيف رأينا تلك الجهة تسمى باسم يأجوج ومأجوج فى كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه ولكنه اجمال لايشفى غليلا ولا يؤخذ حجة لاجماله ولقد فصل فى رسائل قديمة الفت فى نحو القرن الثالث والرابع وذكر فيها أن امة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالى الى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الامم جميعاً وكانوا فاتحين للعالم كله فكانوا أشبه بأهل اوروبا الآن فكأنهم اخلفوهم فى عملهم وفتوحاتهم وسيطرتهم على العالم ومن المقرر ان بينهم نسباً ورحما فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن فى قبضة الصين بل هم الجزء

العظيم منهم وهاهي منشوريا تتجاذبها الروسيا والصين وبلادهم تبلغ فى العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت وتلك البلاد تسكن الاقليم الرابع والخامس والسادس والسابع من الاقاليم التى اعتبرها الاقدمون هي الحدود المعروفة لاقسام الارض وهي مبنية على مقادير العرض الذى لايتغير بتغير الايام والامم وتداول السنين مما اختطه الملوك الاقدمون والحكماء الغابرون والانبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الارض وغابت عنهم امريكا والاقيانوسية لبعد المواصلة وشقة السفر وحيلولة الجبال والبحار وذلك مثل الاسكندر الرومي اليونانى وتبع الحميرى وافريدون النطى وازد شيربن بايكان الفارسي وسيدنا سليمان بن داوود عليهما السلام الاسرائيلى وغيرهم ولما عثرت على هذا علمت علماً يقيناً اننا معاشر المسلمين الآن والدولة الاسلامية اما في حال الهرم وهى وقت نسيان كل معقول ومنقول وأما اطفال ولدهم شيخ كبير فهم يحثون على آثاره . . فيا عجباً كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضا وطولا ونحن لانعلم منها شيئاً وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الامر ويحصل فى الوجود ونجهله نحن

ولعمرى أنها لمعجزة ظاهرة واضحة ولقد كان الاقدمون يجعلون علم الجغرافيا مما يجب النظر اليه فى الكون مثل قوله تعالى (وفي الارض آيات للموقنين . قل انظروا ماذا فى السموات والارض أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء) بل لو لم يكن للنبي معجزة سوى هذه التى ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد وانى لاعجب من ان النبى صلى الله عليه وسلم يقول ويل للعرب من شر قد اقترب الخ ثم ان هؤلاء أزالوا دولة العرب وانتهت الدولة العباسية بقتل المعتصم آخر ملوكها وبقى خليفة رسمى فى مصر وعند قرب الالف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الاسلام شذر مذر وما حفظه الا الدولة العثمانية بعد العرب وأما اولئك التتار فهم كونوا أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيا فكما ورثوا أرضهم وديارهم ورثوا دينهم وهذه المسئلة وان كانت بسيطة فعلاقتها بعلم العمران أمر عظيم جداً والحق ان علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط الساعة وسماها العلماء الاشراط الصغرى اذ الكبرى بخراب الارض كلها والصغرى بادة امة او امم فاذا جاءت الطامة الكبرى زالت

الامم من الوجود

ولقد اوضح الرسول الصادق اموراً كثيرة لايسع المقام ذكرها الآن ولنقصر عنان القلم في ماذكرناه عبرة وتذكرة

﴿ المقالة التاسعة ﴾

(حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى)

ياقوم ألم يأت لنا أن ننظر فيما حولنا من الكائنات (افلم ينظروا الى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والارض) ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب)ياقوم نرى كل يوم خبراً جديداً ساراً بانشاء مدرسة كذا وتبرع بكذا ووقف فلانماية فدان على المدارس وثلاثماية وهكذا ثم نبحث فلا نجد الا اموراً تافهة لاترجى أي دولة في المدنية عجباً والف عجب قامت النهضة فى بلادنا وظهر لاغنيائها ان الفضل والفخر في البذل وانتشار الصيت ولكن قصرت تبرعاتهم على الامور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . عار على امة يبلغ أهلها نحو عشرة الملايين ولا يكون فيهم مدرسة جامعة للعلوم مازجة

لمصالح الدين والدنيا مدخلة فى غضون ذلك ان هـذه العلوم لآبائنا الاولين حاث عليها القرآن الشريف بكثير من الآيات وكذا الاحاديث ونذكر أيضاً تلك الآيات ولا نقتصر على نحو (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فالقرآن مملوء بذلك بل اكثره فيه . اليس من المحزن ان يظهر فينا محسن كبير ومحسن صغير وسيظهر (اظن) محسنون على تمادى الازمان ولا يجدون من يفهمهم ان مدرسة عليا (بشرائط مخصوصة) تجعل مصر فتاة في ريعان شبابها الا يجمل بنا وقد عجز مصلحو الازهر عن القاء ما يفرض الدين علينا من الخلال الجميلة والاستعداد للطوارىء ان ننشيء مدرسة جامعة تكون ملجأ للسورى والبغدادي والتركى والهندى والجاوى والمراكشى والجزائرى والتونسي مع شرائط مخصوصه كما فعل سيسل رودس الانجليزى . زار العلامة المستر دوارد براون الانجليزى مصر وتحادث مع عقلاء المصريين في أمور شتى وتكلم فى مسألة مدرسة يراد انشاؤها بهمة احد الاغنياء وما الذي يجب بالنسبة لها فقال لكاتب هذه الاسطر ان فلانا اوجب ان تدرس فيها لغة أجنبية فما تقول ؟ فقلت أما انا فان اهتمامى راجع الى الكليات لا الجزئيات والذى اعتقده ان مؤسسي

هذه المدارس جهلاء لا يعرفون من العلوم الا مباديها ولا تجمعهم جامعة الا مع من لم يدرسوا من احوال المدينة شيئاً ولا تاريخ اسلافنا الاولين كيف لا وهم لم يزيدوا شيئاً على ماهو حاصل فالازهر والمدارس الاسلامية في المساجد وكتاتيب نظارة المعارف ومدرسة دار العلوم تغني عن مثل هذا وانما اقول كان يجب ان تجعل مدرسة تعلم فيها العلوم العالية وبجعل هؤلاء صلة بين المسلمين عامة ان امكن . ياقوم اني ليحزنني ان يكثر عددنا ولا نجد من رجال العلم من يحدثهم بشأن مدرسة جامعة هل قل المحققون من العلماء نعم نعم والنفر القليل منهم محسودون هل تخطي العلم الشرق وذهب الى الغرب . هل كانت ثمرة القرآن محرمة علينا . هل ختم على قلوبنا وسمعنا وابصارنا . هل رفع القرآن فنعذر فى الجهل . نحن امة حق عليها القول (وقال الرسول يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) جهلنا الاشياء ولم نحط علما بما بين ايدينا فضلا عما عداه فحق علينا القول (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) والآية شاملة لكل مالم يحط بعلمه ثم هدد بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الحوادث متشابهة والايام

متتالية والادوار متتابعة كان الامراء فى دولة الجراكسة لبساطتهم وعدم اهتمامهم بالاسلام عموماً يقصرون انظارهم على وقف تكية ومسجد وكتاب والآن ترقى العمل الى مدرسة صغيرة الم يأن لنا ان نصل الى الدور الثالث فنقلد المعز الفاطمى في بنا ازهره . انى يا قوم ليسرنى ان تبنى مدرسة يجعل فيها على الاقل قسم تعلم فيه العلوم العالية لا كالنورمال ومدرسة دار العلوم بل يوسع فيها اكثر من ذلك ولنا فى همة الواقفين وحبهم للخير وغيرتهم الوطنية وصداقتهم الدينية وحميتهم الملية خير نصير.وهنا نذكر شيئاً لا يجوز لنا اغفاله وهو ان نذكر افاضل رؤساء الجمعيات الاسلامية ان يلفتوا انظارهم لموضوع مهم ألا وهو ان يدرس فى السنين الاولى نباتات وحيوانات البلاد درساً طبياً زراعياً توحيديا فيذكر ان الفجل مثلا يدر البول ويطرد حصاة الكبد ورمالها ويسكن آلامها وانه يثير شهوة الطعام وانه يحدث انتفاخات غازية وان البقدونس يدر البول نافع لامراض الكلى وان الشعير ماؤه ملطف مبرد مغذ مدر للبول وان البصل يصدع الرأس ورائحته تورث عداوة الاصدقاء ولذلك كان اكله مكروها في الشرع ولكنه يصلح

السائل المنوى ويقتل بعض المكروبات ويصلح الهضم ونحو ذلك مماهو مشهور عند الاطباء ثم يقال لهم تأملوا حكمة الخالق وصنعه وكيف صور وخلق وقدر واعطى كل شى خلقه ثم هدى (وفى الارض ايات للموقنين ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وانبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) وهكذا مما لا يحصى . ويذكرون مثلا النحل وكيف يبنى بيوته ويشرب من الازهار وكيف يأتى لنا بالعسل وكيف سخر الله هذا الحيوان الضعيف نافعا للانسان وكيف نفع الانسان بالعسل الناتج منه وما منافعه الطبية وهكذا وانه ذكر فى القران الشريف ويعلمون حسن الملاحظة كما في العنكبوت وكيف هندس وبنى بيتا محكما اقفله من الداخل واحترس من الاعداء لعمرى ان هذا الشكل يشوق التلاميذ لفهم جميع العلوم ولا يخرجون من سنتهم الاولى الا وقد درسوا ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض فانتفعوا ونفعوا . وانى أكرر القول ان رؤساء الجمعيات مسؤلون بين يدى الله تعالى وبين يدى النوع الانسانى عن هذا الامر وهل يليق ان يعلم الانكليز والفرنساويون ابنائهم فى الكتب

الصغيرة تلك العجائب الكونية ونحرم نحن منها . . . نعم نحن نخالفهم في شكل التعليم فيجب علينا ان نجعل للاحاديث والقرآن وكلام علمائنا الحظ الاوفر عند الكلام على كل علم والاضاع شكل هذه الامة ومزقت كل ممزق كأهل سبا مزقوا تمزيقا جسمانيا فهكذا نحن نمزق تمزيقا عقليا فيصبح هذا درويشا وذاك ابله وهكذا وكان تذكر دودة القطن وكيف وضع الله ابا دقيق ملونا بلون جميل وكيف يموت الذكر بعد اللقاح وكيف تموت الانثى عقب ترتيب البيض ووضعه وضعا متقنا هندسيا وكيف علمت هذه الهندسة وكيف تكون الشرنقة معرضة للتقلبات الجوية وهي سالمة منها بحيث تقاوم مالا تقاومه كثير من الحصون والبيوت العظيمة الانسانية اليس ذلك لحكمة باهرة وعظة ظاهرة (ان ربك هو الخلاق العليم) ويذكر كيف يعرف الورق الذي عليه الدود وكيف يحترس منه فينزع وهكذا . فيخرج التلميذ من المدرسة وهو رجل المستقبل وقد عرف ربه ووحده وعرف دينه ودنياه . ودرس قطنه وخلصه من الهلاك وعرف الصحة والمرض والداء والدواء وقد صار رجلا عظيما كبيراً وقد انذرت وحذرت وكررت مرارا ولئن سالت خاصة المسلمين وعامتهم

وعلماءهم وجهلاءهم عن سبب انحطاط هذه الامة لاجابوك بلسان واحد هي المعاصي هي المعاصي ثم تسألهم عن تعدادها فلا يجيبونك الا بالغيبة والنميمة والازبكية وما شاكل ذلك ويقرؤن (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا) فترى هذا الجواب منطبقا تماما على الآيات القرآنية وهذا حق وصدق يطابق القرآن والوجدان ولكن هل تفسير المعصية بما ذكر كاف كلا ثم كلا . هذه المعاصى المذكورة هى الظاهرة وهناك اخرى باطنة تربو على هذه فى العقاب الآف مرة كالامراض القلبية والاخلاق السيئة والجهل العظيم بل اكبر معاصي المسلمين الآن الجهل قبح الله الجهل قبحه . نادى القرآن على الجاهلين وعيرهم ووبخهم وانذرهم بخراب مدنهم فقصرناها على امور قليلة وفاتنا العلم بما حولنا من الكائنات والمواليد الثلاثة حتى جهلنا النبات المحيط والحيوان والانسان فلم ننتفع بالاولين ولم ننج من خطر الاخير (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الجهل بالنبات والحيوان اورث الامراض وهلاك الزرع لكل ذنب عقاب يخصه فليس عقاب اعضاء الجسم الانسانى

اكل الدودة للقطن كلا . وانما هو عقاب الجهل والتفريط وعدم البحث من اهلها بالعلوم والمعارف (ولعذاب الآخرة اشد وابقى) العلوم كلها والصنائع فرض كفاية على المسلمين عامة اقرأ كتب الائمة الاربعة تر صدق هذه القضية يعذب المسلمون اميرهم وصعلوكهم وكبيرهم وصغيرهم على تفريطهم في العلوم والصناعات من القدوم والمسمار الى الكهرباء والبخار ومن السكين والسيف الى المكسيم والدم دم واكبر صواعق العذاب تنزل على اغنيائها اذا لم ينفقوا وعلمائها اذا لم ينذروا فيحق العذاب على الامة فى الدنيا فيجعل عاليها سافلها واعزة اهلها اذلة ويختم على الافواه فلا تنطق الا بما يوافق اهواء القابضين على الازمة ويسامون فى الاخرة عذاب النار (قل ما اسالكم عليه من اجر وما انا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين).

﴿ باب المسائل العامة ﴾

حكم النسخ فى آيات القرآن والاحاديث وما مناسبته لهذه الاحوال التى نحن عليها وما حكمته بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين ان يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم واحوالهم

لقد علمت ايها المطلع على كتابنا هذا ما طبع عليه هذا الكون من التغيير والتبديل والنسخ فترى الليل نسخ النهار والنهار نسخ الليل وتعاقب الفصول بالحر والبرد والرطوبة واليبوسة وبها يحصل خروج النبات ونمو الحيوان والانسان وكلها فى تغير دائم ونسخ مستمر وما من شمس الا وسيأتى لها أجل مسمى تمحي فيه من الوجود وهكذا الاقمار والسيارات والثوابت وذوات الاذناب وهكذا قرر علماء الفلك والطبيعة (كل يجرى لاجل مسمى) وهكذا كانت جميع المولدات على سطح الكرة الارضية كلما غرب نجم اشرق نجم ويموت الحيوان ويعقبه الآخر وهكذا انواعها فكم من انواع عثر عليها فى طبقات الارض انقطع وجودها الآن بالمرة وكم حيوان يتمتع بنسيم الهواء وروح الحياة ولم يكن من قبل شيئا مذكورا وهكذا سطح الارض فكم من عامر أضحى غامرا وغامر اضحى عامراً وجبل صار بحرا وبحر صار جبلا على هذا تطابقت آراء العلماء في كافة انحاء المعمورة واليه الرمز بحكاية الخضر عليه السلام انه رأي أرضا قفراء وبعد (٥٠٠) سنة رآها مدينة زاهرة وبعد ٥٠٠ سنة أخرى رآها بحرا وبعد مثلها شاهدها مدينة زاهرة. وماذكر الحكماء هذا الا رمزاً

لحال الارض على حسب ما طبعت عليه وما نظمها به مبدعها
وهذا كله نسخ حقيقي فى الطبائع الكونية والكائنات العلوية
والسفلية ولما كان هذا فعل صانع الكون وهو الحكيم في صنعه
(كل يوم هو في شأن) فلا بد أن يكون حكيما فى قوله وما
أنزل على رسله اذ الحكيم في قوله حكيم فى فعله ولذلك تراه
يغير الشرائع بتغير الزمان اذ لا جرم ان تغير الزمان وتتابع
الاجيال يحدث تغيرا فى الاخلاق وتباينا فى الطباع فيكون
بلا ريب للناس شرائع توافق المشارب على حسب ما يقتضيه
الزمان والمكان المتغيران فانزل آدم وشيثا ونوحا وابراهيم وموسى
وعيسي ابن مريم وجاء كل شرع يناسب اهل زمانه وكانت
هذه الديانات كلها كسلسلة واحدة تتصل كل حلقة منها بالحلقة
الاخرى والمتأخر يلهم بعض المتقدم ويزيد عليه بوحي من الله
وإلهام وتعليم وارشاد فتكون الشريعة متصلة بماقبلها من وجه
منفصلة من أوجه أخر وكلما جاء شرع كان أرقي مما قبله
واوفق منه بنوع الانسان وكانها سلسلة ترقى شخص فيكون
جنينا فطفلا فشابا فكهلا وهكذا أو سلسلة ترقى حيوان من
الحيوانات المكركسوبية الصغيرة وتزيد شيئا فشيئا الى

الحيوانات العالية كالانسان الذى يليه الملك فهكذا الديانات يظهر انها ابتدأت من الابسط الى البسيط الى المركب وهلم جرا فشريعة ابراهيم للتوحيد وموسي للتوحيد والامور العملية وشريعة عيسى أفرطت فى العلمية وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالعلمية والعملية بلا افراط ولا تفريط فدين الاسلام في الديانات كالانسان في الحيوانات ولذلك كان النبي خاتما والخاتم بالفتح ما ينقش به صور كثيرة وخاتم بكسر التاء أى آخر الديانات ولذلك ترى العلوم عمت الكرة الارضية وكثرت المواصلات وعم النشر وكل آخذ بما يلائمه من كفر وايمان ولا بد أن يأتى يوم تظهر فيه الديانات محقها ومبطلها لعموم البشر وبسرعة المواصلات فلا لزوم اذن لانبياء يبعثون ويرسلون اذ الكتاب موجود وها هى رسل البريد غير ممتنعة التوصيل الى جميع الاقطار وما اهل الكرة الارضية الا كاهل بيت واحد يتحادثون. وهذا هو سر قوله خاتم النبيين ولم يحصل هذا بعد نبي من الانبياء قط نعم هذه هى المعجزة العجيبة . ثم لنرجع الى ما نحن فيه فنقول

جاءت الشريعة الاسلامية ونزل الوحي بآيات وجاء

الرسول صلى الله عليه وسلم بأخرى نزل بها الوحى وسميت سنة وحديثا ثم ترى الآية تنسخها آية والحديث ينسخه حديث فعلمنا ان ناظم هذا الكون جعل نظامه واحدا فكانه يقول ها انا أغير خلقي بيدى (كل يوم هو في شأن) والا كان الوقوف على نظام واحد قصوراً في الحكمة وجورا في الطبيعة وظلما فى الحكم فلا بد من التغيير وكل يوم لنا شان فى افعالنا وليست الاقوال تخالف الافعال في سيرها فهذه الديانات كل دين منها يوافق ما قبله في بعض ويخالفه فى بعض على مقتضى الحكمة ونواميسنا فهكذا انزلنا القرآن وجعلناه كالشرائع قد تنسخ الآية الآية والحديث الحديث لتقلدونا في نظام مدنيتكم مما لا يخالف آياتنا وسنتنا فنأتى بالحكم لما يوافق المصالح ثم نرفعه ونأتى بآخر لتغير الاحوال (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ولما كان هذا السن يوافق سن نواميس الكون كما ذكرنا اعقبه بقوله (ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير) واذا كان كذلك فوقوفه عند شيء دون شيء هو الجور والظلم فى المادة ومثلها الاحكام التى نستبدلها بخير منها أو مثلها (ألم نعلم أن الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولى

ولا نصير) وقد آن ان نذكر جملا من الناسخ والمنسوخ لتعلم ان الله أراد ان ينبة أن أمة الاسلام التى انحط مجدها آن ان تغير نظام مدنيتها وتؤلف كتبا وتنشيء صنائع وتنسخ ماكانت تصنعه من قبل نسخا بلطف فتؤلف كتب قد حوت من علوم الامة والعلوم الحديثة لتبقى وحدتها بالاصل وتترقى مدنيتها وتساكن الامم المحيطة بها بالجديد كما اتفقت الشرائع السماوية في التوحيد (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) (وما أرسلنا من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) فانظر كيف اتفقت الامم والديانات على نقطتين أصليتين وهما التوحيد ومكارم الاخلاق واختلفوا فى أمور عملية فهكذا ترى فيما سيأتى فنسخ الآية بآية أخري قد اشترك كتافي العدل وموافقة الامة واختلفتا فى الكيفية والهيئة وقد يكون النسخ تدريجيا كتحريم الخمر فهكذا كتب العلوم ونظام المدنية يجب على علماء المسلمين وحكامهم ان يأخذوا فى تغييرها مع ملاحظة القديم والحديث ولتكن الهيئة الاجتماعية قسمين قسم يحافظ على القديم وآخر يولع بالحديث فتتوازن القوتان ويدوم الترقي وحفظ كيان الامة كما حفظت أمم الانبياء وترقت

شعوبهم وكما نرى في دولة انكلترا من المحافظة تارة والحرية أخرى
وماجاء الشرع الاسلامى بالنسخ الاليرشدنا الي كثرة التروي
والتفكر وان ننظر فى القديم والحديث وقد أرشدنا القرآن
الى ذلك فقال (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسـنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب)
ولعمري ان الامة التى تقلد الشريعة الاسـلامية فى ناسخها
ومنسوخها وتجرى على منوالها هي التى استمعت القول فاتبعت
احسنه وهم الذين هداهم الله وهم أولو الالباب سواء كان في
نظام دينهم أم دنياهم ولا يظن غِرٌّ انى أريد تغيير النظام مع
مخالفة الدين كلا وانما الدين قواعد كلية تحتها فروع كثيرة فهى
كمسئلة حسابية كثيرة الحل أو كحبة انبتت سبع سنابل في كل
سنبلة مائة حبة ولذلك كثرت المذاهب وكانت كلها صحيحة عجبا
لجاهل يظن منافاة النسخ في الشريعة لها وهو فى الحقيقة نظام
لايجوز ان يهمل بل لا بد منه لكل عمل وعليه فلينظر علماء
الاسلام والحكام فى علوم الاحكام وليأخذوا ملخصا من المذاهب
المشهورة وغير المشهورة ويجعلوها قانونا تجرى عليه الاحكام
ويغيروها بقوانين أخرى مما يوافق مشارب علماء الاسلام

اذا رأى أهل ناحية من نواحي الاسلام انها اليق بهم واذا لم
يعرفوا هذا فليبشروا بان تضرب عليهم الذلة والمسكنة وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل له من ربه الوحى
بالآية ثم يأتى وحى آخر باية أخرى فينسخها كذلك وكلاهما
من عندالله يوافق الامة فهكذا يجب على علماء الاسلام وحكامهم
ان ينظروا مايصلح للامة زمانا ومكانا وان يأخذوا من اقوال علماء
الامة التى لانهاية لها في الكثرة ما يليق بهم زمانا ومكانا ليوافقوا
مصالح بلادهم اذ الشريعة دواء واحوال الامم تعتريها الامراض
فان لم يوافق الدواء الداء هلك المريض وهكذا هلكت الامة
باستعمال ما لا ينطبق على حالها ومع ان الدين الاسلامى فيه
جميع العقاقير التى تنطبق على عامة امراض الامم وحاجاتهم
ولقد جعل من مبنى اصوله ان المشقة تجلب التيسير وان المضطر
يأكل الميتة وغير ذلك مماهومذكور مسطر في الكتب ولعمرك
لم يعطنا الله عقولنا الا لنعمل بها ونتصرف على مقتضاها بشرط
ان يكون لها رئيس وهو الدين فالعقل لقوى الانسان الشهوانية
والغضبية كالدين لعقول افراد الامة ومتى تركت عقولها ولم
تطبق احكام دينها على مصالحها واتكل اهل مصر على كلام

البغداديين وهم على الحجازيين وهم على الفرس ضاعت الامة وماتت بمرض الجهل وكانوا من الذين يستمعون القول فيتبعون ما يصادفهم منه ولم يتبعوا أحسنه اذ لم يفرقوا بين الاحسن والحسن حتى يختاروا ما ينفعهم ولقد هلكت أمة خالفت سنة ربها في كتابها من النظر للمصالح وتطبيق العلم عليها فمن الناسخ والمنسوخ (١) انه فرضت الصلاة بالتوجه لبيت المقدس ثم أمروا بالتوجه للكعبة (٢) وقد اخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الخندق حتى كفي الله المؤمنين القتال فدعا بلالا فأذن واقام الصلاة فصلى الصلوات الاربع بهيأتها كما كان يصليها فى اوقاتها فنسخ ذلك التأخير بقوله فان خفتم فرجالا او ركبانا وصارت صلاة الخوف مفصلة فى السنة(٣) وكان حد الزانيات الحبس والاذى بقوله (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا ونسخ بما ورد عن عبادة ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد

مائة والرجم ثم جاء نسخ الجلد عمن زنى من الثيبين يرجم ماغر
بلا جلد له (٤) ورد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما جعل
الامام ليؤتم به فاذا صلى قائما فصلوا قياما واذا ركع فاركعوا
واذا رفع فارفعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك
الحمد واذا صلى جالساً فصلوا جلوساً اجمعون فنسخ ذلك بما
ورد انه صلى الله عليه وسلم خرج فى مرضه فاتى ابا بكر وهو
قائم يصلي بالناس فاستأخر ابو بكر فاشار اليه رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان كما انت فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم
الى جنب ابي بكر فكان ابو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى
الله عليه وسلم وكان الناس يصلون بصلاة ابى بكر قال الشافعي
وبه تأخذو ورد التصريح في رواية عائشة بان ابا بكر والناس
قيام والنبي عليه الصلاة والسلام جالس فى هذه الصلاة (٥)
وفرض الله على العشرين ان يقاوموا مائتين وعلى المائة ان يغلبوا
الفا ولما علم ان فى القوم ضعفا جعل الواحد منهم باثنين فقال
(خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا الآيه) (٦) نزل يا أيها
المزمل قم الليل الا قليلا نصفه اوانقص منه قليلا اوزد عليه ورتل
القرآن ترتيلا فعلم فرض قيام النصف أوالزيادة عليه أو النقص

عنه ثم نسخ بقوله فى السورة بعينها (ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا مايتسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما يتسر منه واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا) فوجب بهذا النص ماتيسر من القرآن فى الصلاة فى الليل ثم نسخ هذا الوجواب ايضا بقوله (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسي ان يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل له حديث طلحة ابن عبيد الله قال جاء عرابى من اهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فاذا هو يسأل عن الاسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم خمس صلوات فى اليوم والليلة فقال هل على غيرها فقال لا الا ان تطوع فادبر الرجل وهو يقول والله لا ازيد على هذا شيئا ولا انقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افلح ان صدق وروي عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خمس صلوات كتبهن الله على خلقه فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا

بحقهن كان له عند الله عهد ان يدخله الجنة

(٧) ورد وجوب الوصية للوالدين والاقربين بآية (كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين) وللزوجة بقوله (والذين يتوفون منكم ويذرون زواجا وصية لازواجهم الآية) فبهاتين الآيتين وجبت الوصية للوالدين والاقربين وللزوجة ثم نسخ هذا الحكم بآيات الميراث فبين فيها ميرات الوالدين والاقربين والزوج من الزوجة والزوجة من الزوج وامتنعت الوصية ميراثى ذكر وبقيت سنة فى الاقربين الوارثين فالاباعد واختصت بالثلث فلقد اعتق اعرابى فى مرض موته ستة مما ليك فاجاب صلى الله عليه وسلم عتق اثنين لانهما الثلث ولم يجز الباقى وجعل التصرف في المرض كالوصية

(٨) ومن عجائب النسخ ولطائفه مسئلة تحريم الخمر ولا ريب ان فيها نفعا من وجه وضرا من وجه آخر فهى من وجه نعمة ومن وجه آخر نقمة فذكرت من الوجه الاول فى مقام الامتنان جريا على ما يعلمون واخذا لهم بما نفعلون ومجاراة لافهامهم واستدراجا لعقولهم فقال تعالى فى تعداد النعم (ومن ثمرات النخيل

والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون) جعله في مقام الامتنان

ولما كان كل شيء في العالم له نفع وضر وكان التحريم والتحليل يرجع الى غلبة احدهما على الآخر فتى غلب الضر حرم ورد قوله تعالى بعد ذلك (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما) فابان هنا بالحجة الاجمالية ان الضر اكثر من النفع ومتى كان كذلك فالعقول السليمة تتركه ولذلك روى ان الصحابة انقسموا بعدها قسمين فشربها قوم لنفعها وغادرها اخرون لضرها فاستعدوا اذن لقبول التحريم نصا فجاء قوله تعالى (ياءيها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) فحرمت عليهم في وقت الصلاة

فتركوها في الصلاة وشربوها خارجها ولما قبلوا ذلك وفهموه استعدوا للتحريم فجاء قوله تعالى (ياءيها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون)

فتامل كيف جعل التحريم تدريجا ولم يذكره مرة الا
مقرونا بذكر سببه معه ذكر فى التحريم المطلق سبب تحريمه
من العداوة والبغضاء اللذين هما بعض خبائثه لظهورهما بين الناس
وشيوعهما في الشاربين حين الاسكار وفيما قبله ذكر العلم بما
يقال فى الصلاة وهكذا

(٩) ولما لاحظت هذا السيدة عائشة رضى الله عنها وعلمت
ان كل شيء ينزل لمناسبة الاحوال قالت لو علم رسول الله ما
احدثه النساء بعده لمنعهن الخروج الى المساجد فكانها قارنت
منفعة العبادة بمضرة الفتن فرأت المضرة زادت فى زمان هذا
القول وكانت انقص في زمان النبوة لما علمت ان الوحى كان
ينزل لمقتضيات الاحوال والحكم

فهذه ثمانية النبذ من الناسخ والمنسوب عرفت بها منع الله
في شرعه وانه مطابق لقوله — الا ترى ان هذا الكون كله
جار على نواميس وضعها مبدعها وقد علمت أن احوالها متغيرة
في امور جزئية تتغير دائما مع حفظ النظام العمومي ولما كانت
افعال العباد جزءا من ذلك الكون ومن فعل مبدعه (والله خلقكم
وما تعملون) وكان لهم نوع اختيار خلق لهم عقولا وانزل لهم

وحيا فتراهم يستحسنون بعقولهم كل نظام يوافق الحالات الموافقة
لازمانهم وهكذا الوحي جاء بهذا التغيير للتنبيه على انكم ملزمون
بحسن الفهم والتبصر ووزن الضر والنفع بميزان العقل فتغيرون
الجزئيات من زمن الى زمن ومن مكان الى مكان مع حفظ
القواعد العمومية الشرعية كما تتغير النظامات الكونية الجزئية
مع حفظ النظام العمومى والقواعد والنواميس العامة — الا
ترون ان البحر قد ينقلب برا والبر بحرا والنظام ثابت فهكذا
يجب ان تفعلوا كذلك فيما لا يخل بالشرع السماوى فيا ايها المسلمون
اخوانى ها هو فعل الله فى ملكه وكلامه فى تنزيله وفعل نبيه
صلى الله عليه وسلم ونظام الدول الحالية جار على تلك النواميس
بعينها كانهم درسوا (يقلب الله الليل والنهار) وكانهم فهموا
(يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) اتدرون ما الذى
يفهمه الحكماء من هذه الحال يقرأون على صفحات الوجود
خطابا من مديره يقول هذه العبارة (ايها المسلمون ان لم تغيروا
نظام مدنيتكم التى شب الدهر وقد هدمت فلابد من ان اسلط
عليكم من يغيرها وانتم ساهون لاهون فان لم تأتوا طوعا اخذناكم
قهرا ولسنا نترك سنة التغيير وهى من اجل نواميس الكون

لجهلكم (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) الم تعلموا
ان فعلنا كله ونظامنا جميعه لا يبقى على حال واحد الا فى العموم
وتغير الجزئيات فالى كم تذهبون فلا تزدجرون والى متى تقرأون
ولا تفهمون الم تقرأوا (وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان
كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما
نرسل بالآيات الا تخويفا) اعطيت صالحا آية الناقة لقوم ثمود
فكذبوا وظلموا ثم اعطيت موسى آية العصا اذ انقلبت حية
فآمنوا به ثم امنوا بالعجل حين رأوا له خوارا اذ من آمن بالعصا
حين انقلبت ثعبانا فهو احرى ان يؤمن بعجل يخور وهو مصنوع
من ذهب اذ هو اجمل من الحية وارق جسما ونفعا وهذه
الآيات المجسمة لا نرسل بها الا تخويفا للامم اذ لا تفيد اليقين
وهذه الامم التى ارسلت فيها تلك الرسل ليس عندهم استعداد
لفهم الحقائق العقلية لغلظ طباعهم وبلادة عقولهم فاعطيناهم من
الآيات ما يناسبها وان كانوا يرتدون بسرعة لضعف الايمان
بالمشاهدات المحسوسة والمعجزات المشاهدة التى لا نرسل بها
الا تخويفا والتخويف ادنى الدرجات فى الارشاد ويليه الترغيب
فالاقناع فالحجة ولذلك جعلنا كم امة وسطا معجزتكم هو القرآن

تفهمون حججه فتكون هى المعجزة التي هى ارقي من المعجزات المشاهدة بالبصر اذ هذه انما هى بالبصيرة ولذلك لما طلب كفار مكة معجزات محسوسة (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتى بالله والملائكة قبيلا او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرءه) فلنا لنبيكم (قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولاً لان هذا نبي وليس كاولئك الانبياء الذين اتوا بمعجزات محسوسة لاتثبت فلذلك كانت تلك الامم تضل سريعا واما نبيكم فانه آخر الانبياء فوجب ان تكون معجزته عقلية ثابتة مدى الازمان ولذلك قال فى آية اخرى (وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات الا تخويفا) هذا هو الذى يقوله الحكماء فى لمحادث الوجود واشارات الوحي ونتابع الديانات ويعلموا ان الله ارانا التدريج فى المعجزات والترقى فيها من المحسوس الى المعقول شيئا فشيئا حسب ترقى عقول الامم المتتابعة فكل امة جاء لها نبي تكون

معجزاته على مقدار استعدادهم — ولا جرم ان التعليم يكون بالحجة فالوعظ فالجدل فالتهديد والتخويف فالهلاك فمعجزات الانبياء الاولين كانت للمرتبتين المتاخرتين ولذلك كان يعقب هذا هلاكهم كما في قوم عاد وثمود والذين من قبلهم ومن بعدهم فقد جاءت شرائعهم ولم تدم اما نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء بالثلاثة الاولى غالبا لان شريعته دائمة الى آخر الزمان ولن تدوم الا بالحجة والبرهان الذى هو القول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة فهكذا فليكن نظام المدنية الاسلامية لتطابق فعل الخالق في الكون والديانات ونفس ديننا القويم

ولعلك تقول ما الذى تريد بهذا التغيير — أتريد ان تحلل الحرام وتحرم الحلال أقول كلا فانه كفر ومناف للشريعة التى تمدح بها وانما أقول اعلم ان هذا الدين اصبح محجوباً عن أهله بغواش غشيته وجهل طمس على القلوب ان هذا القرآن الذى هو أساس الدين أصبح الناس فى غطاء عن فهمه حتى انطبق علينا الآن معنى هذه الآية (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) وها هو الآن والحق يقال اننا لا نستطيع سمع القرآن ولا فهمه لدواع تبدت وامور حدثت

فأحدثت تقلب القلوب والابصار فترى العالم اذا قرأ التفسير يجعل جلّ عنايته فى تطبيقه على النحو والصرف ولو التفت ذهنه الى المعنى لم يجد مساعداً من نفسه للتلاوة لما ركز في نفسه من الصغر واعتاد عليه ان يقرأ ولا يفهم بقصد الثواب كما يقرأ العامه وغوغاء الناس (كأنهم لا يعقلون) . ومما زاد الامة بلاء وجهلاً انه ركز فى عقولهم تقليداً ان الاحكام الفقهيه هى ثمرات القرآن مع انها ثمرة نحو (١٥٠) آيه لا غير ونحو (١٥٠) حديث وبقية القرآن وهو ينوف عن ستة آلاف آيه مابين عظة واعتبار وأمثال وقصص الامم وسياساتها ومنذرات هلاكها ونظام الكون وحكمه لينظروا فيه فيفقهوا لم خلقوا وما هى نظام المدن ويعيشوا عيشة الاحرار فالاقتصار على جزء من ثلاثين من الدين وترك الباقي اماتة للعقول واضعاف للهمم وزاد الطين بلة ما تلقفه الاصاغر عن الاكابر ان المدار على فهم تلك الشراح والحواشي المعماة نعم صدقوا فانها تشحذ الاذهان ولكن فى امور عرضيه لاجوهريه ويا حبذا لو كانت هذه القوى فى نفس القرآن والحديث والعلوم الكونيه والصنائع البشريه والنظامات والسياسات فتصبح معالم المدنيه واضحة

وأعلامها منشورة على ارجاء الاسلام ولقد زادهم بهذا عشقا أحاديث جاءت فى فضائل السور موضوعة لجلب الرزق وصرف الضر مما جعل القوم يقرأون غاضين الطرف عن المعنى مع انه انما جاء للذكر والانقاظ قال تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب) فتأمل كيف جعل نتائج البركات هى تدبر العقلاء وتذكر خواصهم لمعانيه ولقد شغل كثير من القراء بان يجعل القراءة وسيلة الى قضاء الحوائج وأما المعنى فانه مهجور حتى يحق لنا ان يقول الرسول نبينا عليه عليه الصلاة والسلام ما قصه الله (وقال الرسول يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اذ الالفاظ وحدها ليست مقصودة فتى هجر المعنى فسيان الالفاظ وعدمها عند التحقيق. نعم نحن لا ننكر ان القراءة بلا معنى لها فوائد وثمرات وثواب ولكن تكون كما قال الله تعالى (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) فمن ترك الأعلى وهو المعانى هنا واستبدلها بالادنى وهو مجرد التبرك مع الغباوة في الفهم فقد استبدل الادنى بالاعلى بل الجواد الذي يوضع عليه الاكاف ويحمل حمل الحمار فيه نفع ولكن ساء مثلا القوم الجاهلون ويكفى هذ

مقتاً وغضباً وتقريعاً وذما قول الله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

فتأمل هذا المثال لتعلم كيف جعل من قرأ الالفاظ بدون معنى كالحمار يحمل الكتب وهو لا يقرؤها لانه غير عاقل ثم لم يقتصر على ذلك بل قال بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله

ثم انظر كيف ذكر الحمار هنا وذكر الكلب فى مسئلة بلعام بن باعورا الذى علم ولم يعمل اذ الكلب أقرب الى الفهم من الحمار ولكنه لا يرجع عن طبعه ويجرى على شهواته ولا ينفعه معاشرة للانسان وذوقه فضرب الحمار مثلا للجاهل والكلب مثلا للعالم غير العامل فما أرق هذا التعبير وما الطفه

ولقد سألنى شاب من ذوى الفهم قائلا أهذه العتاقة التى يقرأها الناس تنفع الميت فقلت له اعلم ان احاديث كثيرة وضعت لمثل هذه الأمور وولع بها الناس وانظر كتاب الاتقان في علوم القرآن وماذكره الشيخ السيوطي هناك من أولئك المتصوفين الذين وضعوا هذه الأحاديث قائلين نحن قصدنا بها صرف الناس عن الفقه الذى شغلهم الى القرآن

ولقد أرادوا خيراً لصلاحهم فوقعوا في خطاء بجهلهم إذ أصبح الناس يأخذون القرآن لمجرد لفظه لا معناه فيكررون سورة قل هو الله احد مائة الف مره وهم لم يفهموا حكمة عالية ولا علماً نعم فى هذا ثواب كما قلنا ولكن أين الثريا وأين الثرى . فقال لى لقد ثبطت همتى عن اكمال عتاقة بالصمديه فقلت له هل أدلك على عتاقة تنجيك من عذاب اليم فقال بسرور نعم فقلت امسك المصحف واقرأ الجزء الأخير من القرآن أى من سورة النباء الى الفاتحة وافهم معناه بتفسير سهل وكرره مراراً مع استعمال المعنى حتى يرتسم في ذهنك ثم هب ثواب ذلك الى الميت فذلك خير من القراءة بلا معنى ويكون نوراً لك ولقريبك فى الدارين فرأيته سر بهذا سروراً ظاهراً وانشرح قلبه وشرع في العمل. ولقد جاء بعض أهل العلم وقال ذكر القرآن وبركته في مجلس فقال بعض العلماء الحاضرين كيف تنكر البركة والله تعالى يقول كتاب انزلناه اليك مبارك وكان القائل اكبرهم مقاماً واعظمهم قدراً فصفق له الحاضرون وطربوا

فقلت له قال بعدها ليدبروا آياته وليتذكرو أولوا الالباب مع ظنهم ان البركة انما تكون بالتمائم والرقى وهذه العادة زادت

رسوخا بكتب الروحانيات فقد ادخلت كثيراً من الآيات في علوم الطلاسم وحساب الجمل ونحو ذلك مما دخل به الصابئون علينا وجعلوا يس تقرأ أربعين مره مع شروط وأحوال ليست هي المقصودة بالذات من انزال القرآن

وكما اقتصر القراء على الفاظ القرآن تراه اكثر مايقرأ على الاموات وفي الطرقات كانه قيل ان القرآن يقرأ على الاموات الذين لايفهمون فنحن وهم سيان حتى ان العامة يحملون قوله عليه الصلاة والسلام — اقرا وا على موتاكم يس على القراءة على القبور مع ان مراده عليه الصلاة والسلام القراءة على المحتضر ليتذكر ما فيها من الحكم والعجائب ويتفكر في خالقه فيموت موحداً . وعلى هذا اصار القرآن حرفة للارتزاق ولما انغلق معناه على الافهام اصبح لا يسمع الا بصوت حسن اذ هو المقصود لا معناه فانا لله

ولقد سرى الوقوف على الالفاظ والظواهر في كل شيء فترى قواعد العلوم العربية معتنى بها واذا قرأ متعلم قصيدة وطالبته بفهمها او حلها عجز وانما يأخذ في الاعراب ويضيع زمانه ويخرج صفر اليدين وبالجملة فالالفاظ هي التي لها السوق الرائج

السوق الرابح حتى انك تري الحريرى جل مقاماته كانها كتاب غريب اللغة لا يفيد الامة كيف تكون الافكار

ومما يقرب من هذا ان الشعراء كان جل قصدهم مدح الملوك ولم يعولوا على القصائد التى ترفع الهمم الا قليلا وماالانشاء والشعر الا ما خرج من وجدان القلب فيؤثر على القارىء والسامع كما كان مؤثراً على المتكلم كما ترى في تأليف الجاحظ فى الادب والسكاكي في العلوم العربية والغزالى فى الاحياء اما هذه الحواشي والشراح والمتون فهى مغلقة صعبة يجب استبدالها باخرى اسهل منها لفهم القواعد ثم يتعمق فى البحث لا سيما فى العلوم العالية فهذا الذي ذكرته في الكتب وفهم القرآن من اجل ما يجب ان يغير ومن ذلك الصنائع والعلوم المهجورة التى هى غذاء الامة فلم تترك هذه ولا ريب ان علوم الدين دواء فلم نقتصر على قشر الدواء مع غفلتنا عن لبه (ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين)

ولما صعبت الكتب فهما وتعاصت العبارات اصبحت ترى اهل العلم يظنون ان الانسان متى قدر على فهم العبارات فقد اضحى عالماً مع ان القدرة على فهم العبارات شيء والفهم

والتضلع من جميع العلوم النافعة شيء آخر حتى كان يتخيل
للانسان ان العرب الجاهلية يفهمون العلوم اقرب من غيرهم
بسرعة فائقة مع ان اللغة شيء والعلوم شيء آخر وما اللغات
الا طرق لتوصيل المعاني الى الاذهان ويا ليت شعري كيف تصبح
الكتب التي هي معبرة عن احكام القرآن والحديث اصعب
منهما بكثير مع ان الاصعب لا يفسر الاسهل بل الامر بالعكس
والاعجب من هذا ان المؤلفين يتنافسون في تصعيب العبارات
حتى استغلقت العلوم ولم يظهر من معانى القرآن واشاراته
في الكتب الا كما ظهر من جرم الفلك على جسم السمك فاذا
قرأت حديثا او آية وجدتهما في غاية السهولة واذا قرأت عبارات
المؤلفين وجدتها على الضد من ذلك . ولما تمادى اهل العلوم
على هذا الفكر وتوارثوه ظنوا ان صعوبة العبارة هى اعظم ما
يقصده القاصدون فتراهم يتركون الحديث لسهولته ولا تلتفت
اذهانهم الى ما فيه من حسن الاسلوب وذوق المعنى اذ ليس
مما طبعوا عليه من جمدر العبارات بل ربما ظنوا المؤلفين اكثر
تدقيقاً واقدر وان كانوا يتحاشون النطق بذلك فبهذا ترا كم
السديين اهل العلم والقرآن والحديث وان حضروهما مراراً ولم

يبحثوا الا على العبارات المستصعبة ونبذوا كل سهل وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

ولما تمادوا فى هذا احبوا ان يعموا الحكم فى جميع احوال الدين فقالوا أن القرآن لا يفهم ولا يفسر الا بعد المشقة وعليه حرمت جميع الطبقات من فهمه مع انه تعالى يقول (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) .

ويا ليت شعرى كيف تقرأ الجغرافية وتفهم باللغة الانكليزية والفرنساوية فى المدارس الاميرية ويصعب القرآن ويتعاصي عن الفهم ام كيف تكون اللغة الفرنساوية والانكليزية اسهل من اللغة العربية التى جاء القرآن اسهل منهما حتي قال (ولقد يسرنا القران للذكر) بهذا وامثاله ضاع الاسلام وتفرق ايدى سبا وذهبت الدولة يا قوم رعاكم الله اليس النصارى يقرءون انجيلهم ويفهمونه فيأخذون المعنى من العبارات بلغاتهم فتهذب الاخلاق وتنمو العقول اليس القرآن احق بذلك .

نعم ان فى القرآن اشارات لعلوم كثيرة مثلا قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) لا تفهم حق الفهم الا بعلم الفلك ولكن هل هذا يمنع فهمها على طريق الاجمال حتى تحث

القارىء على تعلم هذا العلم. ومن العجيب ان كثيرا من اهل العلم الى الآن يظنون ان مثل هذا العلم لا لزوم له فان قيل له ان هذا يحث عليه القرآن تراه يتلعثم في الجواب ولعمرى ان القوم فى اطوارهم جميعها متناقضون متشاكون افمن هذا الحديث يعجبون ويضحكون ولا يبكون وهم ساجدون

ومما يزيد العين بكى والقلب حزنا ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يذكرون الا مقرونين بالتواضع المفرط وأما تلك الحروب والشهامة العربية فلا ذكر لها الا عند تدريسها بعد ان تمكن صبغة الضعف فى النفس ويذهب منها رونق الشجاعة وعلو النفس واحترامها واعتبار الحياة اعتباراً حقيقياً مع ان هذا الدين ما جاء الا بالتوسط فى كل شيء (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (وكذلك جعلناكم امة وسطا) فاين نحن من هذه المعالى والاخلاق والحكم والنصائح وعلو النفس وليس لهذا دواء الا إن يذكر النبي صلى الله عليه وسلم دائماً هو وأصحابه بصفة الحماسه وعلو النفس والمحافظة على الامة واننا نقتدى به في اعلائها وتشريفها

والا دهي من هذا كله والامرّ انه دخل على علمائها

وثبت فى اذهان كل متعلم ان النظر في شؤون الامة من الفضول وانه ليس على الانسان الا شخصه مع ان شرف الانسان فى الدنيا والآخره موقوف على نفعه العام لقومه والذى أراه ان هذه الدسيسة بثت في الامة أيام تفرقها بعد صدر الدولة العباسية ورأى الملوك ان العلماء بنصائحهم يفسدون عليهم ملكهم فتحاشي العلماء عن النصائح وانزووا فى الزوايا والمساجد والتكايا واضحوا لا تري الا أجسامهم وتركوا الأمر في يد الحكام يديرونه كيف شاؤا ومن آثار هذا انك ترى الخطب المؤلفة فى تلك الازمان التى لم تزل معمولاً بها الى الآن مقتصرة على ذكر الجنة والنار ويتركون كل مابه اعلاء الامة واتحاد كلمتها فياقوم الى متي هذا الانحطاط الم يأن لنا ان نغير هذه الخطب وهؤلاء الخطباء وتستبدلهم بقوم عالمين يعلمون ما يقولون انما الخطباء قوم لهم شعور يقولون مابه يشعرون

أصل الخطب انما تكون للامراء والملوك يسوقون الناس الى مابه صلاحهم فى الحياة الدنيا والدين فيسعدون فى الدارين ويقولون (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

هذا اجمال ما يجب تغييره ونسخه من الامة على التدريج كما جاء النسخ فى الآيات والاحاديث والشرائع السماويه مع بقاء العدل والتوحيد وهذه كلها تنسخ مع المحافظة على آداب الدين وحفظ نظامه

﴿ محاورات لطيفة فى الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه وسبيل ارتقاعه[1] ﴾

اجتمع رجال من ذوي الفضل يوما فى عالم العجائب وكنت أسمع ما يقولون فنقلت مادار بينهم وكان فيهم الحكيم والشجاع والمجتهد والواعظ والمحتسب والمقتصد والعالم والصوفي والمتبحر فى العلوم والصانع والتاجر والغنى والاخلاقى والصائغ والسائح والرياضي اذ الامة كالجسم فلتمثل الامة الاسلامية به والحكيم رأسه (١) والشجاع بأسه (٢) والمجتهد فكره (٣) والواعظ لسانه (٤) والمحتسب سمعه وبصره (٥) والمقتصد اعتداله (٦)

---

١ تنبيه هذا الكتاب ألف من نحو سبعة سنين أى سنه ١٩٠١ ولقدكنا ازمعنا اذ ذاك ان نلخص ام القرى ونضمنها هذه المحاورات التى تراها الآن وبعد ان لخصنا شذرات منها رأينا العدول عنها لاسباب لامحل لذكرها وقصدنا الى مباحث أخري هى أهم وأولى فاثبتنا ذلك النزر اليسير منها والكثير الذي وضمناه ليكون تذكرة لاولى الالباب اه مؤلف

والعالم عظمه (٧) والعامة لحمه (٨) والصوفية دهنه (٩) والاديب المتبحر فى العلوم والصنائع قلبه (١٠) والتاجر عروقه (١١) والغنى معدته (١٢) والاخلاقى جماله (١٣) والصانع يداه (١٤) والسائح (١٥) رجلاه وبعضهم قرأ مقالات في الجرائد والكتب الحديثة ولما رأيتهم جالسين وقد اخذ كل مكانه خيل لى هيئة الامة الاسلامية مجتمعة وقلت فى نفسي ياليت شعرى ماالذى يتفاوضون فيه وجال فكرى قبل ان يتكلموا فى حال الامة الاسلامية وقلت على بعض اني اخاف ان يقبل بعضهم يتلاومون وذلك انه جرت عادة الله فى خلقه ان كل اسرة او امة دلك شاخ مجدها وذهب عزها تلاوم اعضاؤها وتقاطع رؤساؤها وكل منهم يحمل الاخر تبعته وهذه سنة الله فى الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا وذلك عام فى حال الحياة وبعد الموت ومنه ما نص الله بقوله حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت اولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ولما تلوت هذه الاية فى ضميرى قلت وهذه وان كانت في الآخرة فهى

حاصل نظيرها في الدنيا عند كل اجتماع على غير كمال ونظام اذ للامة موتتان موتة ادبية عند الانحطاط في الدنيا وموته جسمانية عند انتقالهم الى الدار الآخرة فاذا ذهب مجدها فى الدنيا فهذا هو المسمى عذاب الخزى في الحياة الدنيا واذا ماتوا ردوا الى عذاب اليم وفى كل من الموتتين يتلاومون كاصحاب الجنة الذين اقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فاصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون الا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم الم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا ان كنا طاغين وهكذا الرؤساء والمرءوسون وهكذا آيات كثيرات في الجدال والملاومة بين الرؤساء والمرءوسين والذين اتبعوا وان كلا يبرأ من الآخر ويود عذابه حتي رد عليهم بقوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون وهكذا نرى كثيراً من الآيات ذاكرة هذه المحاورات بين الفريقين

ولقد علمت علم اليقين ان الكون متشابه وان احوال الدارين متشابهة ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمي وأضل سبيلا وما الاخرى الا نتيجة الدنيا او ثمرتها والثمرة تكون على حسب الشجرة ولذلك ترى هذه المجادلات والمحاورات جارية بين علماء الاسلام وحكامهم وعامتهم ان لم يكن علانية فهو سر يجرى على القلوب ولا يظهر على الشفاه وهكذا افراد كل امة وكل جيل من الناس عند وقوعهم فى عذاب ناشىء عن تقصير منهم يلوم بعضهم بعضا مع انهم في الحقيقة متضامنون فلذلك يشتركون فى العذاب فى الدارين . ومن العجب ان الله تعالى ذكر ان أعضاء الانسان تشهد عليه يوم القيامه وقد قلنا ان الامة كالجسم فانظر كيف تري انها تشبهه فى ذلك فترى كلا من رجال الامة بعد انحلالها يحمل التبعة على سواه مع ان الجميع مسؤول فينختم على فم الرؤساء اذ لا وجود لهم بعد انحلالها وينطق أعضاؤها بما فعلوا من الشرور التى أوجبت الهلاك فمن العجيب ان هذا مع ذكره لاعضاء الجسم الواحد يوم القيامة تراه بعينه حاصلا للامة حين انحطاطها ليتحقق معنى قوله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم أحد الا كنفس واحدة) وقد علمت ان النفس

الواحدة تشهد عليها أعضاؤها اذا ماتت فهكذا الامة اذا خمدت أنفاس حياتها نطقت أعضاؤها المتفرقون المتشاكسون المتنافرون فتأمل فى التشابه بين هذا العالم وموافقته لحسن النظام العام فى السموات والارض وسيره على أحسن نظام ونسق بديع وبينما أنا تائه في بحر عميق من هذه السوانح العجيبه وقد ظننت ان هؤلاء الاعضاء سيجرون على هذه القاعده اذ رأيت منهم أمراً عجيبا وأروني مالم أر وعلمت منهم اننا امة لم تزل حية ولم يمت والحمد لله جسمها نعم رأيت منهم بعض التلاوم ولكن لتلافي مافرط وظهر لى من كلامهم ان في المستقبل أملا وطيداً وان من اصولهم التى بنوا عليها (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم * (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) فنسخت شمس أملهم ظلام يأسى وهاك ما سمعته منهم ونقلته عنهم

لما انعقد المجلس قام الحكيم وقال مقتطفاً بعض اقواله من ام القري يجب على كل منا ان يصرح برأيه ولا يخاف في الحق لومة لائم ولا يخاف انتقاداً وليس من يبدى رأيا ملزما به بل قد يبديه من لا يعتقده لينظر الجماعة هل يستحسنون وله ان يرجع عنه اذا شاء لانها خطرات وآراء تعرض للبحث والانتقاد والاستدلال

كلكم تعلمون أيها الاخوان ان مسئلة انحطاط الاسلام بنت الف سنة او تزيد واذا استحكم وطال عليه الامد استحق مزيد عناية فى البحث عن الدواء ووصف العلاج الوافي واعلموا ان هذه المسئلة اجل من ان يقوم بها انسان واحد وكيف يقوم الواحد بما بناه الالوف الملايين اذن لا بد من رجال وجمعيات ينظرون ويتفكرون وقد جرت سنة الكون ان العمل يحتاج الى زمان مناسب له اذ كل شيء بمقدار فالنخل لكثرة منافعها وجزيل خيراتها لا تثمر الا اذا مرت عليها سنون بخلاف الحشائش والنباتات المعروشات والممتدات كالبطيخ والقثاء فانها تمتد سريعاً وتفنى سريعاً وعلى هذه القاعده ليس ينفع هذه الامة مجرد عصبيات تفور فتفور سريعاً او جمعيات غير ثابتة تقوم فتسقط أو ثورات حضريه حمقاء لا تلبث ان ينقلب بها الزمان ويحطها الحدثان وانما لا بد من التناسب بين الشيء ومقدماته . وهذا الإسلام تفرق شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض من قرون فقاموا آمنين مطمئنين وكانت الامم المجاورة لهم أحط منهم فاخذوا يجارونهم حتى ساووهم فى القرن التاسع من الهجرة ثم ازدادوا عليهم في هذه الاربعة قرون بمراحل

وأخذوا المسلمين من كل جانب فهب من كل جهة جماعه واستيقظوا لما حلّ بهم وحاق بهم من المكروه فاخذوا يصفون الحال الحاضرة واعراضها بوجه عام وصفاً بديعاً يفيد التأثير ثم سبب الخلل النازل والجهل الشامل مع الاجمال والتلميح مع ان المقام يأبى الا التشريح والتفصيل ثم أخذوا ينذرون قومهم ويصفون هول المطلع وسوء المنقلب فى هذه النوازل ثم يلقون التبعة على الامراء والعلماء والعقلاء والكافة لتقاعد الجميع عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ومع كل هذا لم يحصل نتيجة معهم الى الآن وقد آن استثمار تلك الاقوال ولا ييئسنكم ما ترون من انحلال جمعياتنا الشرقيه سريعا فان هذه الجمعيات الصغيره مقدمات للجمعيات الكبيره الثابتة والشرق مشرق العظائم ولا تيأسوا من روح الله فانه ما أضر هذه الامة فى هذه الايام الا اليأس ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

وما مثل الجمعيات المنحلة في الشرق الا كمثل الارهاص للنبوة فترى الارهاص للانبياء منبئات عما سيجرى على أيديهم فتستعد النفوس للتلقي عنهم

ولا يغرنكم الكلمة المشهوره ان الامة اذا سقطت وكسرت

لا نرجع شابة فهذه القاعدة لا ثبات لها وها نحن نري الطليان واليونان والامريكان واليابان كل هؤلاء استرجعوا مجدهم بعد ان فقدوا معدات الحياة وسقطوا فى الهوة فاستعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين .

وليس بيننا وبين غيرنا فرق الا فى العلم والاخلاق وامد العلم عشرون عاما والاخلاق أربعون . وهوءلاء قوم موسى لم يرجعوا لمجدهم بعد خروجهم من مصر الا بعد الاربعين استعلموا فيها الاخلاق وعلا شأنهم

فهلموا للبحث عن داء هذه الامة ودوائها ولا يغرنكم اختلاف المذاهب فاننا كلنا تابعون للسنة والقرآن والمجتهد المصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد ولم تنقطع هذه الامة الا يتفرقها مذاهب وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون مع تركهم مقاصد ذلك الاصل وهو الدين الجامع لجميع المذاهب الموجب لاتحادهم وتصالحهم ضد كل من ناداهم وعاداهم . ولتعلموا ان ظواهر الاسباب تبشر بنيل المأمول وحسن المستقبل فان الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الوحى ونزل جبريل بالقرآن وتجم في هذه الآية رجال في أقطار متعددة يعد الواحد منهم بألف

ثم قال انی جبت البلاد شرقا وغربا وعرفت آهل الملل وجبت الهند والصين وبلاد أوروبا وآسيا وأمريكا وافريقيا فوجدت ان المسلمين أينما كانوا أحط من غيرهم صناعة ونشاطاً وانتظاما فی أمورهم الخاصة والعامة والدينية والسياسية حتی انك لتری بيتين متجاورين احدهما فيه مسلمون والآخر فيه غيرهم فيظهر لك الفرق بينهما في لمح البصر فياليت شعري ما السبب الذی دعا لذلك حتی قال بعض السواس ان الاسلام والتمدين لا يجتمعان ومع هذا تری المسلمين فی كل بلدة محافظين كل المحافظة علی أمهات الاخلاق من الشيم والرفعة والكرم وحسن الاخلاق والعفة والامانة وليس ينحط عنهم فی النشاط وجميع الاعمال الا اهل الديانات المتشددة المغالية فی التشديد كالصائبين حول دجلة الذين يضيعون اوقاتهم منغمسين فی الماء تعبداً وكالكنغو من الزنوج وكالبوذية من الهنود المعتقدين ان كل مصائبهم حتی الموت الطبيعی من السحر فهؤلاء أكثر فتوراً من المسلمين ويلحق بهؤلاء الدهريون والطبيعيون الذين يدينون في نفوسهم الی قوة عظيمة وسموها الدهر والطبيعة ويقولون نحن اشقی الناس لما يرون من مستقبل مظلم وحياة رديئة

فالناس كما قال علماء الاخلاق لهم نوع دين ولا يصح ان نسمى انساناً لا دين له بالمرة وهذه اوضحت معنى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يؤفكون) وهذا آثار اخذ العهود على البشر بالتوحيد والايمان فالفطرة عليه اشترك فيها الناس ثم ان الدين الصحيح ان عمل به ساق الى نظام ونجاح في الدارين وقد يدخل الفساد على عقول اهله فلا يفهمون معناه كما هو فينقصون أو يزيدون عليه شيئاً او يجمعون بينهما فان كان الاول فقد ينجحون فى الدنيا ويكونون ناقصي الدين وان كان الآخران فسدت المدنية وخسروا الدنيا والآخرة

وكل دين باطل قد ينشأ عنه فاسد بزيادة او بها مع نقص عنه وهاتان توجبان خسران الحياتين أما اذا نشأ فاسد مع النقص فقد يرون مدنيـة زاهرة اذاهم نظروا بالعقل فى احوالهم المعاشية وبنوا على اساس علم العمران فى الاعمال وهكذا اذا بقى كما هو باطلا فتلخص ان الصحيح يقود الى العمران بنفسه والباطل لا يعطل عن المدنية وهكذا الفاسدان منهما بنقص اذ لا تعطيل فى اعمال الحياة أما الفاسدان بزيادة أو بهامع نقص فانه بهما تتشوش أعمال الحياة فلا دنيا ولا دين

وهذه الاسلامية محجة بيضاء قامت بها هذه الامة الف وثلاثمائة سنة مع ما طرأ من النقص فى الفهم تارة والزيادة فى الخرافات اخري ومع ذلك حفظت الى هذا الزمان وما ذلك الا لقوة المتانة فى اصولها

فالمسلمون ليسوا الآن أحط اهل الديانات جميعا ولا ارفعهم وانما هم ارفع من كثير منهم ولقد عرفنا ان دينهم صحيح فياليت شعرى ما الذى طرأ على الافكار حتى شوشها وعلى القلوب حتى فرقها فهذا هو الذى يجب البحث عنه

فقال العالم الذى اراه أنه طرأ عليه بعض قواعد اعتقادية واخرى اخلاقية كمسئلة الجبر والتزهيد فى الدنيا والحث على اماتة المطالب وترك المفاخر والزينة وعظائم الامور ولعمرى ان الاولى بعد كل تحوير وتهذيب جعلت الامة قدرية باطناً مختارة ظاهراً والثانية منافية لما كان عليه الصدر والسلف الصالح من اعتلائهم قمم المجد والشرف في المطالب ولهذا لو نفى سيدنا عمر بن الخطاب أبا ذر الغفارى الى الربذة

فقال السياسى ما نزل دين من السماء الا وجاء مضاداً للطبيعة البشرية فاذا رآها مالت لجهة عدل هو الى الاخرى

ليقف الانسان في الوسط ويكون على الصراط المستقيم وهاك مسئلتا القضاء والقدر والتزهيد لم يختص بهما الاسلام بل هما في كل دين لتسلى العاجز ولا ييأس الطالب بالاولى ويقف شره الطبيعة حينئذ في الوسط بالثانية لان الديانات ادوية بها يرجع الى الصحة ولا صحة الا بالتوسط وبهاتين العقيدتين تكون الاعمال من الانسان بنشاط وتتقدم المدنية والحضارة اذ كل يسعى بلاقنوط فيوجه همته الى نفع أمته أو لا يرى ان كل الاديان على اعتقاد القدر خيره وشره من الله او خيره منه وشره من الشيطان أو من النفس ولكن قتل الانسان ما أكفره فانه لا يلبث ان يعكس القضية فان جاء له خير افتخر وشمخ بانفه وقال هو من عندي وان جاء له الشر نسبه لله ولذلك لا ينسب البشر امراً الى القدر الا عند الجهل بسببه ستراً لجهلهم او عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشر ستراً للعجز . ولما غلب اخيراً على المسلمين جهل اسباب المسببات الكونية والعجز عن كل عمل التجأوا الى القدر والتزهد تمويها لاتدينا . والمشاق والعظائم التي اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم لنيل الغنى والرئاسة والفخار فضلا

عن الثواب كفاية برهان مع ان الامة كانت زاهدة فملا لا كالزهد الذي تدعيه الا ن كذبا ورياء

فليس القصد من التزهد التعطيل والفقر بل توجيه الهمم الى النفع العام الذي عليه يبنى الاسلام اما اذا تعطلت الاعمال فلا اسلام ولا ايمان . والسعى في النفع العام هو المعبر عنه بالجهاد الذى يشمل جميع الاعمال العامة لا خصوص جهاد الكفار كما تظنه العامة والجهاد يكون لاعزاز الجامعة الاسلامية اولا والجامعة البشرية ثانياً اذ الامة الراقية دينا وعلما ومدنية يجب عليها رعاية الامم المنحطة كالاب يربى اولاده ومثل الامم المنحطة كالطفل يتربى بين ابويه حتى يصير مشابها لهما . ثم قال والذى أراه أن سبب هذا الفتور العام تحول مجرى السياسة العام فانها كانت بعد زمن الوحى نيابية اشتراكية أى (ديمقراطية) تماما في زمن الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الاساسية بعدهم بسبب الحروب والانقسامات بين أكابر الامة ثم صارت أشبه بالمطلقة وذلك ان الاحكام لم تكن مدونة فى زمن الخلفاء بل كانوا مجتهدين بما وقر فى صدورهم ولما تفرق الصحابة فى البلاد قيدوا الاحكام في زمن الامويين ومن بعدهم

فتشعب الخلاف وبنى على تشعب السياسات فأصبح بأس
الامة بينها شديداً وقلوبهم شتى واصبحت الامة جندية محضة
وسارت فى تيار المحاربات الداخلية والخارجية وآل الامر الى
ان صارت أمة جندية صفة واخلاقا بعيدة عن الكسب بالوجوه
الطبيعية ثم قد كانت تصادف فى سيرها فترات قليلة يقف
فيها دولاب الحرب فتترقى العلوم والمعارف ثم تذهب فى تيار
حرب آخر ولا زالت تعثر تارة وتقوم اخرى الى ان سبقنا
الامم من حولنا بان صارت الجنديه عندهم صناعة ذات قواعد
مقررة مفقودة عندنا وذلك من نحو قرنين تقريباً فكانت اولا
داخليه وخارجية للمدافعة تارة والفتوحات أخري ثم صارت
للمدافعة فحسب ثم صارت فى القرنين الاخيرين داخلية لاغير
وتركت المدافعة لجهلنا بالصناعة الحربية واصبح بأسنا بيننا
شديدا نعيش بالتحايل على الكسب من وجوه الطبيعيه وهذا
أجل ما يميت النشاط ويولد الخمول

فقال الاديب: ان غيرنا من الامم قد وجدوا فى انقسامات
سياسية وتباينات مذهبيه وحكومات مطلقة وفى حروب مستمرة
ولم يشملهم الفتور بوجه عام كجرمانيا ثم قال والذى أراه ان

هذا الفتور العام انما جاء من تأصل الجهل في غالب الحكام المترقين الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا حتى بلغ جهل هؤلاء الى منزله أحط من منزلة العجاوات التى لها طبائع ونواميس فمنها ما تحمى ذمارها وتمنع عن حدودها وتدافع عما استحفظت عليه وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس يخربون بيوتهم بايديهم وهم لا يشعرون ومنهم البعض ضالون على علم وهم الذين يشتكون ويبكون حتى يظن انهم مغلوبون على أمرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسى مع انهم وأيم الحق يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم يظهرون رغبة الاصلاح وهم يبطنون الاصرار على ما هم عليه من افساد دينهم ودنياهم وهدم مبانى مجدهم واذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لا يقر صاحبه لفاضل بفضله لانه داء الغرور ولا يجارى حازماً فى مضمار وقد سرى من الامراء الى العلماء الى الكافة فلا يرجي معه شفاء فاجابه الشجاع الحر وقال :

من هم الحكام اليسوا منا ونحن منهم فما الحاكم الا فرد من القوم ترأس عليهم وطبعه من طباعهم ولذلك ورد كما تكونوا يولى عليكم فلو لم نكن نحن مرضى فمن أين يأتى المرض لامرائنا

والحكام أبناء الامة تدربوا فى حجرها والابن يرث غالباً صفات أبيه فتحميل التبعة على الامراء وحدهم غير سديد

ثم قال والذى أراه ان سبب هذا الفتور العام هو فقدنا الحريه وما أدرانا ما الحرية هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه

والحرية هى ان يكون الانسان مختاراً في قوله وفعله ومن فروع الحريه تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات والمباحثات العلميه . ومنها العدالة باسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال

ومنها الأمن على الدين والارواح والامن على الشرف والاعراض والأمن على العلم واستثماره فالحرية هى روح الدين ولا يمكن ان يقوم بدونها وكيف يقوم الدين بدون النصيحة المتوقفة على الحريه وقد روى البخارى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدين النصيحة لله ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وروى البخارى أيضاً ان صحابياً قال :

أتيت النبي صلى الله عليه وسلم قلت ابايعك على الاسلام

فشرط علىّ والنصح لكل مؤمن مسلم فالنصيحة مما تجب المبايعة
عليه وانها من اصول الدين العليا الكليه وهـذا النصح لا يتم
الا بالحريه ومما يحسن ذكره فى فروع الحريه قول سيدنا حسان
بن ثابت الشاعر الصحابى

وما الدين الا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فانظر كيف حصر الدين فى اقامة الشرائع وتأمين الناس
ولعمرك ان الحرية بفقدها يعم الكسل افراد الامة ويتمادى فيهم
ويرثه عنهم ابناؤهم لما يرون من ذهاب آراء سديده وأموال
واعراض ونفوس وشرف ومقتنياب فتقبض الايدى عن العمل
والارجل عن السعى والقلوب عن الامل والافكار عن التفكر
والاستنباط وعليه تتدهور الامم تدهوراً فى أسفل سافلين .
أجابه الفاضل المحتسب ان هذا الداء وهو نزع الحرية من
الافراد غير عام مع عموم الفتور وكيف ينتج العام عما ليس
بعام هذا مما لا يمكن

والذى أراه فى سبب عدم التنور اننا كنا خير امة أخرجت
للناس تأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعبد الله وحده أى نتذلل
ونخضع له أمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون

على الاثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وقد يظن ان أصعب هذه الامور النهى عن المنكر مع ان ازالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فباللسان فان لم يكن فبالقلب وهذه المرتبة الثالثة متيسرة وذلك بالاعراض عن الخائن والفاسق والفاجر وعدم تجنب مجاملته ومعاملته ولاشك ان ايتاء هذا الواجب الدينى كاف للردع . ولا يتصور العجز عنه مع انه أعظم ما يقوم الممالك قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) وقال (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واؤلئك هم المفلحون) وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومنكم سوء العذاب) وبالجملة فترك هذه الخصله منذر بانقراض الامم التاركة له من الوجود ولقد كان الإمر بالمعروف والنهى عن المنكر في زمن الصحابة والخلفاء الراشدين صادرين من كل مسلم ومسلمة وكانت معيشتهم بسيطة فخلف من بعدهم خلف توسعوا في الحاجيات والكماليات فشغلوا بنفوسهم فاقاموا محتسبين ثم زاد تفرق الدولة تفرقاً عظيما فبطل الاحتساب كما بطل التناصح

العام فاصبح بأسنا بيننا شديداً وأصبح الاكتساب مقام الاحتساب وصارت الامة أشبه بالجنديه المحضه .

فقال الحكيم ان هذا يصلح ان يكون سبباً من جملة الاسباب ولكنه لا يكفي وحده لايراث ما نحن فيه من الفتور والذى أراه ان أعظم مادها هذه الامة وأوقعها في فتورها اعتقادها ان الساعة على وشك القيام كأنهم ظنوا انها تقوم علينا وحدنا وتترك الامم مع ان علم الساعة عند الله .

فقاطع الفتى الحكيم قائلا : هذه المسئلة تجول في اذهان عامة الناس وخاصتهم ولم يوضحها لنا أحد ولم يكشف عنها حجاب الخفاء ولذاك أصبح كثير من مريدى الاصلاح يثنون غرائمهم عما قصدوا لا سيما انا نسمع كثيراً من أهل العلم يقول فيها قولا اجمالياً وان هذه علامات صغرى وهناك علامات كبرى قد آن وقتها مع ان هذا شيء مضي عليه الف سنة ونيف وثلثمائة وهذا أورث القوم فتوراً عظيما مع اننا نري نشاط الامم وتسابقهم الى الخيرات ونظام المدنية فارجوك بلسان الاخوان ان توضح لنا هذا الاشكال فقد غمض معناه وأبهم على الجميع فاننا نراك من المحسنين المحققين

فقال الحكيم. من الحكم العجيبة هذه العقيدة عقيدة قرب قيام الساعة مع الجهل .... وهكذا القضاوالقدر وزمان الموت فكل هـذه انبهمت على الناس مع علمهم بها ليدوم الخوف والرجاء وجميع أعمال الانسان في الحياة دائرة على محورين هما الخوف والرجاء كالأكل والتزوج فألم الجوع سائق ولذة الطعام قائدة وهكذا الم الشهوة للتزوج سائق ولذة التزوج قائد وهكذا جميع أعمال الانسان لا بد لهـا من لذة مطلوبة والم منفور عنه حتى يعمل الاعمال بنظام فلولا خوف الفقر ورجاء الغنى ماباع التاجر ولا اشتري وهكذا الملوك والأمراء كل يخاف الزوال ويرجو المزيد وهذه سياسة لابد منها .

ولما علم مدير الكون ان لنا أرواحا ستبقى بعد خلاصها من الابدان وبعد خروج الامم من أسر الطبيعة أراد ان يعلمنا بلذة الجنان وخوف النيران لنعمل للرجاء ونتقي للخوف ومع هذا العلم أبهم الوقت ليتمكن الرجاء والخوف ولو علمنا الوقت بعينه لغلب اليأس على الناس فلم يكن هناك رجاء البته ولو ترك اعلامنا بالمرة لم يبق هناك خوف قط فهذى هى الطريقة الوسطى التي تدعو الى قيام الأمم وافرادها وترقيها الى أوج الفلاح والعلا

والسعادة وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمر على حقيقته هو واصحابه والصدر الاول من الامة فاسس دولة وشيد ملكا عظيماً وبنى عليه من بعده من الخلفاء الراشدين وبنو أمية وصدر العباسيين ثم خلف من بعدهم خلف وملوك ودول صغيرة استبدوا بالملك وعزلوا العلماء جانباً عن تنبيه الأمة لما ينفعها وتدهورت الافهام كلما تدهورت الأمة (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعاً) فلم يكن ظهور البرق فى السماء ليعتقد الانسان انه سيحرقه وان المطر سيملأ الفضاء بدون رجاء نفع والا كان البرق عذابا واجباً وانما جاء للخوف مع رجاء ان ينزل المطر فيحيي الارض بعد موتها فجاء البرق للخوف والرجاء معاً وما مثل يوم القيامة الى كمثل البرق فاذا قصر على الخوف دون الرجاء احدث اليأس والقنوط فاذا تغير ما في النفوس من الامل ولم يبق الا القنوط انحطت الأمة (انا عند ظن عبدي بى) ونرى ان أمتنا غلب على عامتها وكثير من خاصتها هذا اليأس لاعتقادهم ان قرب الساعة زاد جداً حتى انه ليس للاسلام قائمة تقوم مع انه ورب الكعبة لا بد

من بقائه الى آخر الدنيا بحيث تقوم القيامة على مسلمين وغيرهم كما ورد فى حديث البخارى عن معاوية بن أبى سفيان وهو يخطب على المنبر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وانما انا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الامة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) فهذا نص فى بقاء هذه الامة

ومن المبكيات ان الامة كلما تقهقرت اعتقدت اشتداد القرب مع ان هذا لا يخطر فى بال السواس الذين شيدوا مدنهم وحصنوا بلادهم ورفعوا أعلام المدينة

ثم سكت الحكيم فقال له أحدهم أشبع لنا هذا الموضوع فانه جدير بالبحث فقال قسم العلماء اشراط الساعة الى قسمين صغرى وكبرى وقالوا أن الصغرى تأتى مقدمة للكبرى وايضاحه ان هذه الامم على سطح الكرة الارضيه يتلو بعضها بعضاً وكلما ذهبت امة اتبعتها اخري (ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما انشأكم من ذرية قوم آخرين انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وكما أن الشخص الواحد ينذر بالهلاك وهو الشيب والهرم والامراض المتنوعة فكل هذه تنذره بالاستعداد

للرحيل (وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) ويجيء البرق ليستعد الناس للمطر فهكذا الامم لكل امة عند ارادة خرابها نذير ينذر بانقراضها وتلاشيها من الوجود أو دخولها في عناصر امة اخرى وجميع الامم على سطح الكرة الارضية ينقرضون ويذهبون من الوجود وتمزق الارض كل ممزق باجماع الشرعيين والفلكيين والطبيعيين وجميع علماء الارض قاطبة فى هذا العصر من الافرنج والشرقيين. ونذير الامة عند انقراضها حلول الامراض فيها أى أمراض الاجتماع وداء الشقاق (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) ذلك امور

(١) عموم الترف فيها وتطاولهم فى البنيان حتى يعم الطبقة السفلى من الامة

(٢) اختلاط الانساب وان يتزوج الشريف وضيعة النسب فمتى تمادوا عليه حصل الانقسام وذهب التناسب واستحكم الشقاق

(٣) ظهور الزنا وانتشاره جداً فمتى طال أمده كثر قتل الاجنة فذهبت الامة من الوجود

(٤) قلة العلم وظهور الجهل فيتولى الجهلاء الرئاسة فيظلمون الناس فتضيع الامة

(٥) شرب الخمر وكثرته والادمان عليه فانه كما قاله علماء العصر الحاضر سبب لتلاشى الامم الشرقية ولذلك قال هنري في كتاب خواطر وسوانح انه الطريقة الوحيدة في ابادة الشرقيين فهى حرب حقيقة معنويه

(٦) ان يكثر الرجل من النساء عنده كما كان عند الشيخ المهدى السودانى والتعايشى

(٧) ان يتولى أحكام الناس الذين لا قدرة لهم على ضبط الملك من لا عصبة لهم ولا قوة ولا بأس ولا شجاعة ولا علم فهذا من أعظم النذر فكل امة غلبت عليها هذه الصفات أو اغلبها غلبت على أمرها ودخلت فى جسم امة اخرى وحكمها الاقوى منها فانقرضت من الوجود حقيقة كما في عاد وثمود والذين من قبلهم وبعدهم ولو حكما كما فى الامم التى احتلتها امم اخري وتسلطوا عليها (وان من قرية الانحن مهلكوها قبل يوم القيامة وهذا كعاد وثمود ومن قبلهم وبعدهم (أو معذبوها عذابا شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) وهذا كالامم الباقية فى حكم غيرها وهذه هى التى عملت عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم ويخرجون من الاستعباد الى الحرية

فهذه الصفات السبع التى ذكرناها علامات لانقراض الامة واضمحلالها وهى بلا ريب علامات أجمع عليها جميع العمرانيين الشرقيين والاوروبيين وما من نبي أو حكيم أو سياسى الا وانذر قومه وأعظم الناس الحكماء وأجل منهم الانبياء وأعظمهم نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الذى ظهر وبرع فى علوم العمران فان هذه الاسباب السبع ذكرت فى الاحاديث مفرقة فاشار ألاول والثانى في حديث البخارى وهو سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان والساعة وهذا نصه عن أبي هريرة قال كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا للناس فأتاه رجل فقال له ما الايمان قال الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال الاسلام ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاه وتؤدى الزكاه المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها باعلم من السائل وسأخبرك عن اشراطها اذا ولدت الامة ربها (أى سيدها) واذا تطاول رعاة الابل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن الا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عنده

علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الارحام ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم اه

فقوله اذا ولدت الامة ربها اشارة الى ماحدثه بنو العباس وملوك الاسلام قاطبة وامراؤهم وأغنياؤهم من اتخاذ نساء السبيء المباحات لهم شرعاً وخرج منهن أولاد صاروا ملوكا وامراء سادة على هؤلاء النساء وغيرهن فلما تمادى الامر على ذلك زالت العصبية وذلك حاصل في بلاد المغرب والشام وجميع أقطار الاسلام الا جزيرة العرب فانهم ما زال بينهم النسب محفوظاً الى الآن. فالقصد من هذه العباره ترك الجنسيه وعدم الرابطة القوميه فانها من امهات النذر للانقراض اذ الرابطة تكون بالجنسيه والدين واللغة والوطن والصفات المشتركه والجنسيه من أقواها.

وقوله واذا تطاول رعاة الابل الخ فالقصد منه عموم الترف في الامة فتنقطع الاعمال وتكثر الجبايات ويجتنبون الحرب كما حصل فى أمة الرومان ودولة العرب (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها) . فقلدهم العامة فتطاولوا فى البنيان وزخرفوا منازلهم وشيدوا قصورهم واكثروا من المعاصي (فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ثم اشار الى ان هذا عام بقوله

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) والذنوب هنا كل ما يخل باصلاح الامة كعموم الترف والزنا وغيرها من الامور السبعة المذكورة واشار للثالث والرابع والخامس في حديث البخارى عن انس قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من اشراط الساعة ان يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا) وليس رفع العلم الا ما ورد فى حديث البخارى أيضاً يسنده الى عبد الله بن عمرو الدبن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا .

فمن هذا تبين معنى رفع العلم ولا يظن اخواننا ان علم الفقه وحده كاف فى نظام الامة فلقد سمعت من مشائخنا انهم يقولون ان قضاة هذا العصر قضاة ضرورة وذلك لانهم لم يستوفوا شروط القضاء الشرعى ومن لنا بقضاة كعلى رضي الله تعالى عنه وشريح ومن بعدهم فهذا اعتراف بان القضاء عندنا اصبح ركنه مهدداً وهو تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك لما

ضعفنا فى غالب الاقطار عن ضبط العامة اغتالتنا الامم واصبحنا معرضين لاخطار كثيرة وانتزعت بلاد وخربت أمم ودخلت أخرى فى جسم غيرها من الامم ولقد حل بنا ماحل بعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وذلك فى بلاد الأندلس اجلوا عن بلادهم واهلكوا . وهكذا الامم الاخرى اصبحت فى الاختلال فاخذها الاحتلال جزاء وفاقا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فانه عز وجل يحب البقاء والسعادة لا الشقاء والدمار فان لم تصلح الامة بنفسها ارسل لها من يصلحها وما كان الله ليضيع العباد فيريح الضالة باحدى أمرين أما الهلاك من الوجود او تحكمها أمة أخرى وهذا هو سر هذا الوجود . ومن اسباب هذا الجهل ان اهل العلم يظنون ان المدار على تعلم قواعد العلوم العربية والاصول وان تحصل للانسان ملكة الفهم في العلوم الشرعية وبها يصلح ان يكون قاضياً مع انه قد أضاع حياته فيما لا يكفيه ولا يغنيه فترك فهم القرآن والحديث وتهذيب النفس فاصبح من الضالين المضلين فالاقتدار على الفهم شيء والفهم شيء آخر والعمل هو النتيجه فاذا ترك هذا كله لم يبق الا علم الفتاوى وهو لا يهذب النفوس

وانما جعل سلاحاً لاصلاح منازعات العامة واشار الى السادس والثالث والرابع بحديث البخارى : قال انس الا احدثكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اشراط الساعة ان يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء وتقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد. وهذا نراه حاصلا فى كل أمة كثرت حروبها حتى قربت من الاضمحلال فى كثير من امراء الشرق الذين يكثرون من الترف وهو علامة على الاضمحلال ودمار الامة واشار الى السابع في حديث البخاري بسنده عن ابى هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء اعرابي قال متى الساعة فمضي رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعضهم سمع ماقال فكره ماقال وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال اين اراه السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول قال فاذا اضيعت الامانة فانتظر الساعة قال كيف اضاعتها قال اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة . ولما اتم الحكيم كلامه قال له التاجر انانسمع في هذه الاحاديث التى تقصها علينا ذكر الساعة ولقد حصل لنا ريب فى هذا فان الساعة هى القيامة وأين

القيامة واين خراب امة مخصوصة نحن علمنا من هذا التقرير
الذي أوضحته لنا ان هذه الأمور توجب دمار الأمم وخرابها
لا خراب الكرة الارضية كلها إذ هي أمور ترجع الى صلاح
العمران وفساده واذا فسدت أمة لم يلزم منها فساد أمة أخرى
بل الذي دلت عليه التواريخ وجميع التجارب والعلوم انه كلما
هلكت أمة احدث الله بعدها أخرى كما انه كلما هلك انسان
اخلفه آخر في الوجود ليدوم العمران مع أننا نسمع عن اشراط
الساعة عن كل نبي من الانبياء فلقد اشكل علينا الامر وزاد
اشكاله فازل الريب عن قلوبنا فقد قرب ان نصل الى فهم هذا
الموضوع من حسن بيانك فان نظرنا لا يضاحك وجدنا هذه
منذرات بخراب الامة التي تقع فيها فقط وان نظرنا لالفاظ
الاحاديث وجدناها تذكر الساعة مع ان الامم كلها لا تمحى من
الوجود الا اذا جاءلها نذير عام وهو المعبر عنه بالاشتراط الكبرى
كان تطلع الشمس من مغربها وهذا بلا ريب عند اختلال سير
الشمس واضطرابها في سيرها بحصول تصادم او نحوه من
الامور السماوية التي يعلمها الله تعالى ويجهلها العلماء كافة وبعد
ان تأخذ الارض زخرفها وتتزين وتظن أهلها انهم قادرون

عليها ولا يبقى حرب فى الارض ويظهر جميع اهل الارض بمظهر
الجمال في الاخلاق والآداب وذلك عند ظهور عيسى كما في
الحديث ويزول الضلال والدجل من الارض ولا يبقى سوى
السلام وهذه الاشراط لا وجود لها الآن البته فان المدنية التى
تراها الآن ملأت الكرة الارضية ظلماً وحربا فأين الهدى
وأين السلم وما البهتان والزور الا من الامم الحاضرة الذين هم
اساس كل ظلم وعتوفا وضح لنا هذا الموضوع تنزل الثواب الجميل
فقال الحكيم. ان اشراط الساعة ذكرت على لسان كل نبي ينذرون
قومهم بها وكلهم كانوا يأتون بالقسمين فلنقدر ان الامم التى
قدر الله وجودها على سطح الكرة الارضية من آدم الى خراب
الارض ألف أمة مثلاً فاذا قدرنا الامم التى مضت من قبلنا
تسعمائة وخمسين وبقى الآن ٥٠ ونحن لا نعلمها فكلما هلكت أمة
من الخمسين الباقين وهم بلا ريب أقل من التسع مائة والخمسين
انذرت بانقراض الدنيا إذ هذه الأمة واحدة من الخمسين الباقية
فكلما غرب نجم واحدة قربت القيامة بمقدارها ولذلك سميت
السبعة العلامات الصغرى وذلك انها تنذر بامرين بهلاك أمة
عاجلا وبقرب الساعة فبعد ان كانت بقى عليها خمسون أمة يبقى

٤٩ تسعة واربعون . فهنا أمران هلاك لجزء من الناس وانذار لقرب خراب الارض كلها فاذا بقيت الدنيا بعد هلاك أمة آلافاً مؤلفة من السنين فيقال ان علامات انقراضها من اشراط الساعة فاذا تتابعت الامم واحدة بعد الاخرى حتي جاء أمر الله جاءت العلامات الكبرى وتحطمت الارض والسماء وانقلب هذا الوضع الذى نراه. وفائدة هذا الانذار ان الامة قد يكون بها رمق الحياة فتستعد للرجوع ويخلفهم اقوام يجددون مجداً جديداً ويسابقون الناس وربما فاقوا آباءهم الاولين وها نحن نرى الآن اليابان والطليان والامريكان واليونان استرجعوا مجدهم بعد خروجهم من الاستعباد وهكذا بنوا اسرائيل ارجعوا مجدهم لما استكملوا العلم والاخلاق فى أربعين سنة حتى مات الجيل الجبان واخلفه أهل الشجاعة والبأس (قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا يأس على القوم الفاسقين) وهذا هو الدواء الذى تستعمله الامم لرجوع مجدها وعظمتها . ولعمرك لم يقصه الله فى القرآن الا ليرينا كيف نسترجع مجدها القديم

وأما الاحتجاج بقرب الساعة فجهل عظيم فانه من تدلى الفهم الدال على تفاقم الخطب ولذلك قال العزيزي فى شرح الجامع

الصغير نقلا عن بعض العلماء حديث (الدنيا سبعة آلاف وأنا في سابعها ألفا) مامعناه انه حديث مكذوب لا أصل له بل هو قلق التركيب سخيف العبارة سنده فيه وضاع .

أظن ان هذه الفكرة جاءت من أمة اليهود التي شاع فيها هذا الكلام تسلية عما فاتهم من الملك ولما ضعف المسلمون ورثوا هذا الكلام عنهم وهذه طبيعة في النوع الانساني كلما ضعف عن شيء أحب التسلي كما يتسلى العاجزون بالقضاء والقدر والبطالون بلعب الطاولة والنرد والسكر يسلون نفسهم عما أصابهم من هموم الدنيا واحزانها غاية الامر ان هذا سكر ظاهر وذلك خفي يأخذ بالعقول عن النظر في الشؤون وكما يتسلى العاجزون عن الفتك بالعدو بتمني زوال النعم والحسد وما يفتكون الا بانفسهم وما يشعرون فالامة التي تتكل على قيام الساعة تدل بذلك على دنو اجلها وموتها وهلاكها ما لم يتداركها حكماء علماء ويأخذوا بيديها من وهدة الضيق والهلاك

ومن طبق هذا على أحوال الامم جميعها رآها مطابقة تمام المطابقة وهذه الامة العربية لما شاعت هذه الأمور السبعة فيها الى القرن التاسع من الهجرة ابتدأ الدمار فيها تنبيهاً من الله لاهلها

ليأخذوا حذرهم ويرحبوا مجدهم وقد ورد في الحديث ان فتح
القسطنطنيه من اشراط الساعة وقد جاء مصداقه حين فتح
احد الاسبانيين بلاد الاندلس وقتلوا أهلها وسبوهم فأخذوا وهم
لا يشعرون ولما ذهبت تلك الدولة شرع الافرنج فى احتلال
الجهات الأخري وامتلاكها من الغرب والهند وغيرها (وان
من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً
شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) فقوله مهلكوها كخراب
للاندلس وقوله او معذبوها عذاباً سديداً كالبلاد التى أهلكها
اوملكها غيرهم كالغرب والهند ومصر والجاوه وكل على حسب
جريمته في الابتعاد عن نظام البلاد وادارتها المعبر عنها بالنواميس
الشرعية والقوانين السياسية المطابقة لها وليس هذا كله مانعا
من الترقى مرة أخرى بل جرت سنة الله ان الأيام يداولها
الله بين الناس (وتلك الايام نداولها بين الناس) وهذا الدين
لا يزول من الارض بل آية أمة اضاعته حملته أخرى تقدر على
حمله (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي
الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين
يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله

يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ولما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية وكان سلمان الفارسي جالساً قال مشيراً اليه هم قوم هذا وقد ظهر هذا فان الفرس هم الذين ابرزوا علوم الاسلام واغلب حملة العلم منهم كما قرره العلامة ابن خلدون ها نحن ان لم نقم بهذا الدين فربما يأتى المستر والمسيو الانكليزى والفرنساوى فيسلم فيغلبون على أمرنا ونحن الآن فينا بقية من رمق الحياة فهلموا للعمل وثقوا بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) ويرجع مجدكم وربما فقتم الاولين وهنا يظهر سر التوكل على الله تعالى فلما سمع القوم منه ذلك قالوا :

لقد شفيت قلوبنا والحمد لله الذى جعل فى الاسلام رجلاً حكيما مثلك يبين للناس مانزل اليهم واكثر فيه من امثالك

فقال المجتهد ان بيان أخينا الحكيم الفاضل كافٍ شافٍ فى هذا الموضوع ولقد بدا لى فهم انتخبته من فحوى كلامه ومرامي اغراضه وذلك ان القيامة قسمان صغرى وكبرى فاذا مات انسان فهي قيامة صغرى له والقيامة الكبرى هى عند خراب الارض وبين موت الشخص وخراب الارض يموت أنفس كثيرون وكلما ماتت نفس قربت الساعة الكبرى بمقدارها

اذ النفوس الانسانية معدودة محدودة وما مثل النفوس بالنسبة للأرض الا كمثل الانفاس بالنسبة للنفس الواحدة فكلما تنفس الانسان مرة ذهب من حياته جزء وقرب موته بمقدار ذلك النفس فاذا ذهب نفس آخر ازداد القرب وهكذا اذا مات شخص ممن قدر وجودهم على سطح الكرة الارضية قربت القيامة بمقداره وهكذا كلما هلكت امة دلت على قرب الساعة أو اشتداد قربها وعلى ذلك نفهم قوله تعالى في عيسى وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها وقوله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين وقوله (أنا النذير العريان) وكان اذا ذكر الساعة أو خطب يظهر الغضب فى وجهه عليه الصلاة والسلام وقد ورد فى حديث ان جماعة جاءوا الى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن الساعة فقال (اذا مات هذا فقد قامت قيامتكم) وأشار الى أصغرهم فيفهم منه أنها اسم جنس وهذا هو الذى فهم من الاحاديث وهو المطابق للاخبار ولكن هذا غير مايفهم عامة الامة في هذا الزمان. ولقد كان النبيون ينذرون بالامرين الاشراط الصغرى والكبرى وكان اكثر عنايتهم بالصغرى لانها هى المهمة القريبة وعلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ويل للعرب من شر قد

اقترب ماذا أنزل الليلة من الفتن لقد فتح الليله من سد يأجوج ومأجوج كذا وحلق بالسبابة والوسطى) مشيراً الى فتح مسئلة التتار وذلك ان الاسلام كان آخذاً فى الانتشار ولما انتشر جهة فارس وخراسان قربوا من بلاد التتار وهم يأجوج ومأجوج فعبر عن مقدمات فتح السد بفتحه كما يقال الصحة مفتاح المرض والشباب مفتاح الشيب والحياة مقدمة الموت اذ كل من التوالى نتايج فهكذا ظهور التتار وهم يأجوج ومأجوج نتائج اتساع الفتوحات ومناخمة بلادهم لبلاد التتار وانظروا كيف ظهر أثر هذا الكلام بعد ٦٠٠ سنة وخرجوا ودوخوا الاسلام كما اوضحناه في هذا الكتاب

ثم ان كلام الانبياء عام لايخص امة بعينها فمتى حق القول على امة هلكت واضمحلت وقد تكون لها بقية فترجع كما كانت ولذلك كانوا يعلمون العلامات الصغرى والكبرى لان أحوالهم عمومية وكان الكون كله أمامهم ينظرونه بمنظار الكشف فيعبرون عنه بما يوحي اليهم والوحي أمر سماوى عمومي فاذا جاء للامة أخذ كل بما يناسب قواه العقلية فاذا أراد الله هلاك امة فهمت أن القيامة ستقوم عليهم وقفت حركتها واذا أراد

اعزازها كان هذا سبباً في نشاطها وعلمت أن هذه المنذرات يقصد بها الاخذ في أسباب السعادة مرة ثانية أو تكون عقولهم ارتقت ويقارنونها بقوله تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

والامة اذا يئست من روح الله عدت كافرة ولكنه كفر دون كفر لان هذا يوجب عذاب الدنيا والكفر الآخر يوجب عذاب الآخرة فقال آخر .

هذا السبب لا يصح أن يكون سبباً لاحداث هذا الفتور العام فى الامة اذ فكرة قرب الساعة كما قلنا شائعة في جميع الامم فلم تختص بامة دون امة على أن فهمها على غير وجهها جاء من انتكاس القرائح والافهام على الرأي الناشيء من الخمول العظيم المستولى على الكافة وهذا ما نبحث عنه والذى أراه يصلح أن يكون سبباً عاماً انقطاع سلسلة الولاء فى الامة بين الحاضرين والماضين فلم تتطلع الانفس لمجدها القديم وذلك أن غيرنا من الامم اذا مات عظيم من عظمائهم نصبوا له التماثيل والفوا الكتب في تقريظه وذكر اعماله ونشروا أخباره حتى يعرفه الناشئون فى المدارس والمنازل وعلى ألسنة الناس في المجالس حتى ينسج

الناشئون على منواله ويتبعونه اقتداء بما فعل لما يتولد من روح
النشاط وحب التقليد فاذا جاؤا عند تمثاله وقفوا أمامه لم يروا
شخصاً أمامهم الا تذكرة لجميع أعماله فى حياته. ويتمثل لهم ان
هذا الهيكل رمز لتلك السجايا الحميدة والصفات العديدة الجميلة
فيشب الناشئون على سير الآباء ومحبتهم والاقتداء بهم ويحبون
أوطانهم أما نحن فان عظماءنا وهم الاولياء والملوك والعلماء لا نقرأ
فى سير الكثير منهم الا الكرامات وخوارق العادات ونترك
كل عمل جليل عملوه مما ينفع الامة حتى اذا وقفنا عند الاضرحة
لم نعمل بما صرح به علماؤنا من اننا نقف معتبرين فى أحوال
دنيانا وآخرتنا ونقارن بيننا وبين صاحب ذلك الضريح. وكيف
كانت حياته ونفعه للناس واقتداؤه بالانبياء ونطلب له الرحمة
مكافأة على احسانه (فهل جزاء الاحسان الا الاحسان) ونقتدي
فى أفعالنا (فبهداهم اقتداه) وعلى ذلك تخطينا كل الاعمال الشريفة
ووقعنا فى هاوية لا مرد لها الا اذا عقلنا وفهمنا كتاب الله على وجهته

ولذلك لا نرى انتشار سيرة سيدنا عمر وعثمان وعلى وغيرهم
من اكابر الصحابة ولا التابعين ولا الملوك العادلين من العباسيين
والامويين وانما المنتشر على الالسنة بين العامة والخاصة بعض

كرامات للأولياء والصالحين والاقتصار عليها مع ترك ذكر الاعمال العظيمة لنفع الامة وهذه قصة سيدنا الحسين وعلى ومعاويه نراها شائعة ولا تذكر فضائلهم الا تبعا وانما المذكور في الغالب المشاجرة التي أمر العلماء الا تذكر وكان الواجب أن تنشر فضائلهم بين الامة ليقتدى الناس بهداهم . ونرى أن المؤرخين يجمعون الحوادث من حيث هى بقطع النظر عن تأثيرها فى النفوس وانما يأتون بكل ماسمعوا مع ان التاريخ حدث في الامم للاعتبار والاقتداء ولم نجد منهم من ألف تاريخاً بقصد النفع والتأثير على الافئدة والنفوس بفضائل الاعمال العمومية فيرون التاريخ من حيث مصدره لا من حيث نفعه وتأثيره مع أن الامم الغربية عرفت تأثير ذلك فبحثوا عن سير جهالهم ولخصوا الحوادث تلخيصاً يولد في الناشئة رغبة صالحة . ولعمرى أن الناشئة متى سمعوا قصص أسلافهم مشحونة بالحرب والضرب والقتال والخداع قلدوهم في اعمالهم وعلى ذلك نرى قصة ابى زيد الهلالى والزناتى خليفه وعنترة العبسي وعبلة شائعة بين عامتنا . فياليت شعرى كيف يفلح قوم شاعت هذه القصص الجاهلية بينهم حتى اننا نرى العامة فى القرى والامصار عندنا بالبلاد

المصرية مولعين بهاتين القصتين شبانهم وشيوخهم وصغارهم وكبارهم فانا لله وانا اليه راجعون .

وما قصص الغابرين من الامة مع الحاضرين الا كسلسلة اتصل اولها بآخرها فاذا قطع ذكرهم انقطعت السلسلة من الاذهان فتدهورت الامة وضلت تائهة حتي تأخذها امة اخرى وتلحمها وتحفظ انسابها واشعارها وتاريخها وتنسي سلسلة قومها

واقد عرف الانكليز ذلك فجعلوا قومهم قسمين محافظين واحرار فالمحافظون يدرسون الماضي ويبقون كل قديم على قدمه ليبقى نظام الامة متصلا كما كان أولا ويتصل اولها بآخرها وتبقى رابطتها قوية والاحرار يأتون لكل جديد فيمزجونه بالقديم فيأتون بكل اختراع حادث علماً منهم انهم ان انقطع نسبهم عن الامم المجاورة لهم فى المعمورة تألبوا عليهم وغلبوهم في الصنائع والمعاملات فأخذوهم فكل أمة تركت مجدها القديم أو لم تنظر للجديد ولم تجار جيرانها هبطت وانحلت واختلت فبالاول تذهب قوتها وجيشها وبالثانى تنقض عليها الامم وتنقطع عن سابقتها فتتدهور فى الهاوية وبئس المصير فوجب علينا ان نسلك الطريقتين ونعمل بالامرين ونقرأ سير الاولين منا ونؤلف

تأليفاً نافعاً مؤثراً وان نجارى الامم حولنا ونستعين بالله ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)

فقال الاديب اننا نري في الامة جزءاً صالحا من شعائر القومية وارتباط السلسله ولكنه يحتاج الى اصلاح وتمليح فلا يصلح هذا ان يكون سبباً بل هو من العوارض والذى أراه يصلح سبباً عاماً جهلنا بأساليب الروايات وهي من الفنون الجميلة أضاعته الامـة وحفظه الغربيون والفنون الجميلة كلها مشوقة للنفوس الى مايراد منها والخياليات والروايات أعظم ما يقود الامم للترقى والنجاح وما تركنا هذا الا لجهلنا بمقصود القرآن والحديث فاننا أقصرنا افكارنا واضعنا اعمارنا فى استنباط الاحكام الفقهيه التى بها نعبد وبها نحكم بين الناس مع ان كلا من العبادة الفقهية والاحكام بين الناس انما هي ظواهر ومقدمات ولها نتائج ونهايات فالعبادات لتفريغ النفوس عن الشواغل الى المعبود وهذا هو المقصود واذا لم يحصل فهى قاصرة وهكذا الاحكام بين الناس ماشرعت الا لفساد الاخلاق والمنازعات بين الافراد وأرقى منها تهذيب اخلاقهم التى لايحتاج معها الى تلك الاحكام ولا ريب ان فن الخياليات والروايات كما قيل يسوق النفوس

بالوعظ الى الخالق يشووقها الى الكمال والآداب التى هى الثمرة المطلوبة فلا يكون هناك دعاوى ولا بينات فهذا الفن يوصل للقرب من الخالق والخلق وهما نتائج جميع الديانات اذ الكون مؤسس على الحب وهو أرقى من الخوف والعبادات والاحكام السلطانيه أقرب الى الخوف وصلاح النفوس وكمالها بالحب وهما النهاية والحب اقوم الامرين وافضل الطريقين واعدل الحكمين.

ولهاتين الغايتين جاء القرآن بقصص الانبياء والصالحين والملوك والفراعنة والجبابره وذكرها فيه اكثر من ذكر الاحكام والعبادات اشارة الى ماقلناه والروايات اما على السنة الحيوانات او الجمادات أو الانسان وهذه الاخيرة تارة عن رجال معروفين وتارة عن مجهولين والاولى اما ان تكون حقيقيه او غير حقيقيه ومن الحقيقيه قصص القرآن ومن غير الحقيقيه مقامات الحريرى وبعض فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ومما جمع بينهما الف ليله وليله ومما جاء على السنة الحيوانات كتاب كليله ودمنه وكثير من الكتب توضع على هيئة محاورة بين الجمادات ولكل وجهة هو موليها فما وضع على السنة الحيوانات والجمادات اسلم عاقبة وانفع مما وضع على لسان الانسان بدون اصل لالتباس الحق

بالباطل ولذلك كثر الخلط في التاريخ بشيوع الف ليله وليلة
ونحوه من كتب الروايات ماعلمنا ومالم نعلم فلكونها على السنة
الانسان اشتبه الحق بالباطل وفسدت العقول بعلم التاريخ لما
يوردون عن هارون الرشيد وخلفاء العباسيين مما لا يجوز
فاقتدى بهم كثير من امراء الاندلس والشرق فضاعت الدول
الاسلاميه ولم يكن مثل هذا من كتاب كليله ودمنه الذى وصفه
الهنود وترجمه الفرس فالعرب يوصفه على السنة الحيوانات ولا
خلط فيه فمثل روايانا جعلت لترقية العقول ولكنه نعم السير على
بئس العير اماقصص القرآن فقد جاءت حكاية عن الانبياء ولم
يكن فيها الا الحث على كمال النفوس الانسانيه

ولعمرى ان الناظر فيها يعجب جداً من اقتناص مارق
وراق من تواريخ اولئك الانبياء مما يلائم التوحيد وتهذيب
الاخلاق والعدل وحسن النظام مع ان حياة كل منهم فيها أمور
متفرقه لا تحصر فواعجباً لحسن هذا النظام البديع المبهج الجميل
ولقد عرف من نزل عليه الناموس مغزى تلك القصص وهو
الاعتبار فاباح الروايات على اختلاف انواعها وقال عليه الصلاة
والسلام حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج فالمقصود من

الحكايات مصادرها لا مواردها لان فى النفوس البشريه ميلاً
الى الكمال والمحاسن بفطرتها وتلك الاقاصيص المرويه عن بنى
اسرائيل التى كان يحدثهم بها في اغلب الليالى ولم يجعل عليهم
حرجاً فيها اذ هى تحرك ما فى النفوس من التحسين والتقبيح
بالفطرة واباح عليه الصلاة والسلام للامة ان تأخذ الروايات
من حيث هي حكم ومواعظ بقطع النظر عن مواردها وانما المعتبر
مضاربها كما قاله علماء البيان من انها جميعها استعارات تمثيليه وقال
تعالى ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار ولهذا شحنت كتب
التفسير بروايات بني اسرائيل وكان الصدر الاول يعرفون ماقلنا
نخلف من بعدهم خلف غيروا مابأنفسهم من العلم فتغيرت
الاوضاع فظنوا ما نقل عن سليمان وايوب ويوسف مما ذكر
خارج القرآن في الروايات اموراً محققه فضل البعض فيها والبعض
كذبها وقال لاأصل لها ثم خلف آخرون وصاروا يقولون ان
الامة العربيه قوم يجمعون الخرافات ويؤلفون المقتربات وهذه
كلها من الانتكاس على الرأس واتيان البيوت من غير ابوابها
حتى زاد بعضهم فى الطين بلة ورجع الى قصص القرآن وأخذ
يطبقها على التاريخ وتارة يثبت واخري ينفي .

ولعمرى ان قصص القرآن لم يكن القصد منها ان تأتى لتراجم على التاريخ وانما القصد نتائجها والنظر في عجائبها والانتفاع بها وأما النظر الى أصل القضية فهو جهل وشك وان كانت نفسها حقيقه ومتى عدل بالشيء عن قصده كان ضره اكثر من نفعه فساء مثلا القوم الجاهلون ولقد أشار عليه السلام الى ذلك بقوله لا تضربوا القرآن بعضه ببعض .

النظر في الروايات أمر طبيعى فى البشر هو مبنى قوامهم وعليه يدور رحا مجدهم فمهما عرفت الامة ان القصد منها غاياتها فهى بخير ومهما رجعت الى أصلها فهى ضالة وشاهدنا على ذلك ما كان من الصدر الاول من المسلمين فانا لم نسمع منهم غير الفهم والتفهم والتعقل وها هى امة الافرنج الآن لا يزالون يؤلفون الروايات وهم يعلمون انها خياليه ولعلها اذا مضت فترة من الزمن يأتى قوم آخرون فلا يفهمون ويقولون انهم مخرفون كما جاء متأخروا الاسلام فظنوا ان اسلافهم مخرفون فى كتاب الف ليله وليله وغيره

ومن جهلنا بالقصد من قصص القرآن ان الكثير من المتعلمين اصبحوا لا يلوون على الاعتبار بها ولا تذكرها بل

علماء الفقه انفسهم والمحدثون لم نرهم يستيقظون قط اليها لظنهم ان الفقه هو المقصود والمهم من القرآن فضيعنا جزءاً عظيما من ديننا

وبعض الناظرين فى تلك القصص يقول مالنا نراها مكررة وهلا ذكرت مرة واحدة ساء ما يفهمون أو ما علموا ان القصة تذكر تارة تفصيلاً واخرى اجمالاً واخري بين ذلك بحسب المقامات واختلاف الاحوال وتباين الاغراض فيستشهد في كل مقام بحسبه بحال من احوال صاحب القصة ولتوضح هذا الاجمال بقصة ابراهيم اذ ذكرت في سورة الانعام لمجرد الاستدلال على الله تعالى

فذكر ذم الاصنام ثم البرهان بافول الكواكب والقمر والشمس على مدبر الكون كله وفى سورة الانبياء ذكر محاورة بينه وبين قومه فى الاصنام وتكسيرها وادخالهم له في النار ونجاته منها ونعم الله عليه بعد ذلك فقال

ولقد آتيت ابراهيم رشده الآيات .

وذكرها في سورة الشعراء فشرح كيفية دعائه فقال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم فذكر محاورة بسيطة في الاصنام ثم شرع يصف الخالق وتدبيره فقال الذي خلقنى فهو

يهديني والذى هو الى ان قال رب هب لى حكماً والحقنى بالصالحين وضمن دعاءه ذكر الجنة والنار والتعريض بقومه انهم غاوون

فنى المرة الاولى أرانا الحجج العقليه وفى الثانيه كيف يكون أنعام الله على من نصب نفسه لنفع الامة وكيف يؤيده متى صدق فى نيته ولذلك صدرها بقوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين فاشار الى ان الخالق متى علم من عبد صدق نيته في نفع امة نجاه من الاعتداء ونصره وفي الثالثه أرانا كيف يكون الاخلاص لمدبر الكون وكيف يكون الدعاء والتعريض فى الكلام لجاب الخصوم ومقامنا هذا لايسع تفصيل القصص وانتم ايها السادة خلاصة من الامة فمثلكم من يكتفي بالقليل عن الكثير وجميع قصص القرآن على هذا النمط على ان فى تكرارها فوائد تعلم الامة كيف تؤلف الكتب ومثل القصة فى القرآن كمثل كتب تؤلف فى موضوع والنفس كثيرة السآمة فلا تكاد تثبت على حالة واحده فاذا قرأت القصة فى موضوعين او مواضع في كتابين أو كتب كان لها أشوق وأثبت ولقد نعلم ان الامم الغربية والشرقيه يحيلون على المؤلفات فى تأليفاتهم فينشط القراء لها وهى من أجمل الحيل في التعلم

ولما غفلنا عن تلك القصص هدمنا كثيراً من بنيان مجدنا وسبقنا اليه الغربيون وتفرقنا شيعاً وذاق بعضنا بأس بعض ولو عقلنا بعضها لم نتفرق ومن لنا بحكيم يجمعنا على كلمة واحده ويقص علينا موضعاً واتفاقاً من قصة ابراهيم وهو قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات الى قوله تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانو يعملون فان هذه الآيات تعلمنا كيف تجتمع الامة وهى متفرقة فقد ذكر فيها اخلاص ابراهيم واسماعيل فى بناء البيت ودعائهما وانه لما مات وصى بنيه وذكر ان من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يأمر بالنصرانيه ومنهم من يأمر باليهودية وتغالى بعضهم فادعي ان أولاد ابراهيم كانوا يهوداً أو نصارى فامرهم بالرجوع الى ملة ابراهيم وهو أصل هذا الدين وهو التوحيد بالبرهان وان النصرانيه واليهودية أشبه بالفروع من الاصل وبينهما فرق في الاعمال والاحكام لا في التوحيد والاعمال والاحكام تتغيرن بتغير الزمان وقد ذهب الزمان المناسبة له تلك الاحكام فبطلت ببطلانه فلنرجع الى أصل دين ابراهيم وهو التوحيد ولا جرم ان كل امة من الامم راضية عنه فالمرجع اليه أولي من الشقاق والانقسام .

هذا هو مغزى تلك الآيات .

ولعمر الله انها لم توضع فى القرآن لمجرد سرد حكاية وانما علم الله اننا سنقع فى هذا الانقسام فذكرها ليأتى قوم حكماء فيقلدون سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ويجددون شريعته التى مزقتها الخلافات وصاروا فرقاً شتي ويقولون ان علماء الامة كانبياء بنى اسرائيل ومثلهم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم كمثل اؤلئك الانبياء لابراهيم وكلهم مصدق بربه ونبيه وكتابه فوجب ان نترك والمنافسة فى أمر الصحابة والخلفاء لان هذا ليس من الدين في شيء وانما هى امور عارضة ليس لها دخل البتة ونتحد فى الامر العام وهو الخالق والقرآن والنبي وكل يعمل على شاكلته ولا ندخل الاشخاص والتشيع فى ديننا ونقول لمن يتعرض لاحد الائمة رضوان الله عليهم من آل البيت أو غيرهم من العلماء واكابر الامة . تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ويترك كل واحد التعصب لمذهبه فمثل الحكيم منا كمثل النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء كالانبياء وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كابراهيم ودعوة نبينا التابعى الانم بتوحيد العقيدة مع الامر باحترام جميع الانبياء كدعوة

حكيمنا باتباع القرآن والخالق والنبي ونبذ الشقاق واحترام كل مذهب بدون تعصب لاحدهم من آل البيت أو غيرهم وتعظيم كل عظيم من عظماء الامة فيقول آمنا بما انزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد فلم هذا الشقاق

ولقد علمت ان قصص ابراهيم جاءت لامور كثيره

(١) برهان التوحيد (٢) كيفية المحاجه وبيان صنع الله بمن صبر على الجهاد (٣) كيفية الدعوى وادخال النصيحه فى قالب الدعاء (٤) كيف تجتمع العناصر المختلفه من الديانات المتفرقه وغير ذلك مما لم نذكره واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لوحدة الدين مع اختلاف الانبياء فما بالك بمن يدعو لاتحاد أجزاء دين واحد فهو أسهل ولذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك الآفاق ككسرى وقيصر وغيرهما ومما كتبه الى هرقل عظيم الروم . ويا أهل الكتاب تعالو الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ومما يشير الى ان هذه الطريقه قوله تعالى ملة أبيكم ابرهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا كأننا مأمورون بالدعوة لاصل

الدين عند الانشقاق كما دعا صلى الله عليه وسلم اتباع الانبياء
له عند اختلاف الديانات

﴿ مقاصد علم التاريخ ﴾

ومما يفيده تلك القصص من حيث الاسلوب ان يكون تأليف علم التاريخ لمقاصد وغايات ينتحلها المؤلفون كما يفعل مؤلفو الامم الاخرى فانا ما رأينا قصة فى القرآن ذكرت الا لغاية مطلوبة اختلفت طرقها واتحدت وجهتها وعندي ان هذا أعظم معجزة اذ كيف يستخلص من قصص كثيرة متفرقة متباينة نبذا مخصوصة لمعان متقاربة تنحصر في الله والرسل والمحاجات وتهذيب الاخلاق والبعث والحشر والميعاد من الثواب والعقاب فعلينا ان نتحرى هذه الطرق ونسلك عند تأليفنا مسلك الارشاد لا الاخبار واذا كان المقصود من القصص الحث على الفضائل والعقائد فمن قارنها بالتاريخ فقد رجع بها عن أصلها وضل سواء السبيل ومثل من يقرأ هذه القصص يرجعها الى التاريخ الاصلى كمثل من يقرأ القرآن والتفسير ويطبقه على النحو والصرف وعلوم البلاغة مقتصراً على ذلك فهؤلاء قوم ماعلموا المقصود

منه بل خرجوا به عن موضوعه وأتوا البيوت من غير ابوابها فلم يفلحوا فباب القرآن ليس هو التعمق في العلوم العربية ونحوها ولا التطبيق على التاريخ ساء مثلا القوم الغافلون ولسنا بهذا نذم هذه العلوم فاننا ما عرفنا الا بها وانما قلنا ان المقصود وراءها لا هي فمن وقف عليها فهو الضال سواء السبيل .

وبالجملة ففن الروايات فن جميل جهله المسلمون فى كتابهم فجهلوا ثمرته وغفلوا عن افهام اسلافهم فيه وضلوا ما فى كتب التفسير من تلك الروايات عن الانبياء ظناً منهم انها حقيقيه مع انها خياليه وليس الحقيقى الا ماجاء به لفظ القرآن منها فحسب وقد كان رسول الله صلى عليه وسلم يحدث بهذا الحديث الليل كله لعلمه ان القصد ثمرة الحديث لا هو وفرق بين ما يراد لنفسه وما يراد لغيره وان هذه كلها استعارات تمثيليه ولقد سبقنا الغربيون اليه وضللناه على هذا أصبح الناس يقرءون سورة يوسف فى القاهره كسماع قصة عشق وما علموا انها مقصودة للعفة والصبر والاحسان الى العشيرة والعفو عن المذنب عند القدرة وحسن السياسة وترك الزنا وحبس النفس عن الشر واكرام الاخوة وعدم مؤاخذتهم وغير ذلك ولقد خصت

قراءة القرآن باوقات الافراح والمآتم وما علموا انها انما تكون لنفوس تحيا حياة طيبة بالفهم والعلم .

﴿ البرهان والتقليد ﴾

فقال السائح هذا أقرب الى الدواء منه الى الداء اذ هو جاء لبيان طريقة الاصلاح ونحن الآن نبحث عن الداء والذى أراه ان هذه الأمة لم تتعمق الا فى مسائل الاولياء والكرامات وخوارق العادات فقال له الصانع أتنكر كرامات الاولياء فقال لا ولكنى اقرر ماخطر بنفسي فيها وما حكمتها فقالوا امض هذا الحديث فقال ان هذا الكون مؤسس على نظام وحكمة علية فائقة ومنها أمر الدين فاية أمة كان فكرها راقياً عرفت دينها بالبرهان وان سقطت افكار افرادها وتفرقت اهواء عقلاءها فانهم لا يعرفونها الا بخوارق العادات وقد ارسل صلى الله عليه وسلم والقرآن أعظم معجز له لانه راجع الى العقل والفكر وهو الباقى لآخر الزمان أما تلك الخوارق فهى فاذا توقف عليها ايمان الامة دل على انحطاط افكارهم ونكوصهم وضعفهم عن فهم دينهم كما نص على ذلك الشعرانى وكان الله لما رأى سرعة شكهم اتى

لهم بتلك الكرامات ليطمئنوا علماً منه بانهم ليسوا مستعدين للتصديق والاذعان بنفوسهم وهذه الاسلامية فى صدرها لم تكن فيها تلك الكرامات الا قليلا مما وقع لعمرو ابي بكر ونحوهما رضي الله عنهما والايمان المبنى على الخوارق وحدها ضعيف كما حققه الغزالى فى قوم موسي اذ ارتدوا حين رأوا عجلا من ذهب جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى وذلك لان عالم الشهادة والحس يكثر فيه الخطأ والغرور وعلى هذا ورد قوله تعالى وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً ولقد علم الناس ناقة صالح وكيف شاهدها قومه فكفروا فأراد الله ان يجعل معجزات نبيه في أفكارهم وعقولهم لا في حسهم الذى يقع فيه الغلط وكان ارسال الآيات الحسية لمجرد الاخذ بحسب الظاهر اوالتخويف ولا ريب ان الخوف لا يدوم الا تماظ والانزجار به إنما الذى يدوم الاعتبار بالعقل والفهم والحكمة والموعظة الحسنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (اناجيلهم فى صدورهم) كسحرة فرعون الذين آمنوا ايمانا ولم تتغير عقيدتهم بعد بخلاف قوم موسى وبالجملة فأمتنا الآن محتاج الى زيادة

نور فى الايمان وتثبت في العقيدة وفهم للقرآن كما كنا زمن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم اجمعين وينبنى على ذلك علو الفكر فيسمو من البسائط الى المركبات ويعلمون انّ التوحيد ليس امراً بسيطاً فاذا بقى التوحيد فى القلب ولم يصل للعمل فهو ناقص وما الدين الا قول واعتقاد وعمل فاذا اعتقدنا ولم نقل أو قلنا ولم نفعل فنحن لم نزل فى البسائط ولم نخرج منها الى المركبات ونبقى عبرة للامم وأول الدين امر بسيط ونهايته سياسة

﴿ العلوم الرياضيه والطبيعيه ﴾

فقال العالم المتبحر فى العلوم ان هذا يصلح ان يكون من الاسباب الداعيه لموت الشعور اذ الناس تبقى أفكارهم منحصرة في امور جزئية ولا ينظرون للكليات ولكنه لا يكفى وحده لعموم هذا الفتور.

والذى يصلح أن يكون سبباً في عموم هذا الفتور أهمالنا العلوم الرياضية والطبيعية مع أنها أصبحت لازمة للحياة لزوم الجسد للروح وأصبحنا نحتاج اليها في أصغر الصنائع وادقها واكبرها وأعظمها وليس احتياج الخياط لها أقل من مسيس

حاجة مدير الكهرباء والبخار فى سير القطار وليس لزومها للماديات باقل من لزومها للعقليات .

وهاهو القرآن الكريم يقص علينا قصص الامم الغابرة تارة ويذكر حكم الكون اخرى وهذه العلوم قد أبانت فى الاكتشافات الحديثة ما يدهش الحكماء من أعاجيب الخلقة وبدائع الحكمة فى الطبيعة والكيمياء وما فيها من مقادير معينة في المركبات وتناسب المقادير تناسباً عجيباً حتى انها سارية بقوانين لاتتعداها فاتضح بها قوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار وقوله وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وقوله وهو أسرع الحاسبين وقوله ان الله سريع الحساب وقوله والذى خلق كل شيء فقدره تقديراً وقوله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقوله انا كل شيء خلقناه بقدر وقوله الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وقوله والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وقوله وأنزلنا من السماء ماء بقدر وقوله وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وقوله الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل

شيء علما وقوله وكفى بنا حاسبين وقوله أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وقوله شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو في السموات أو فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وهذه الآيات كثيرة يطول شرحها منتشرة فى القرآن كأنها جواهر منتثرة فلنقتصر على ما ذكرنا وكفانا هذا الاجمال فقال له الاديب .

﴿ ايضاح فى العلوم الطبيعيه ﴾

أيها الفاضل أفض فى هذا الموضوع وفصل الكلام تفصيلا فان الاخوان كلهم آذان صاغية وانى طالما كنت اقرأ فى كتب الاقدمين أن جميع الموجودات وضعت بمقادير هندسية وحسابية وكنت أراهم يسمونها نسباً تأليفيه ويقولون انها افضل النسب لجمعها بين الهندسية والحسابية وهذه العلوم المكتشفة حديثا قد أوضحت الاشياء ايضاحاً تاما وأنت بها خبير فاوضح المقام وغرابته . فانه من ملحقات البحث فى الاسلامية وما آل اليه أمرها وعلاقة هذه العلوم بها فان المسلمين اذا علموا أنها

تفسر القرآن وتجعل معناه ظاهراً في الطبيعيات نشطت عقولهم من عقال الجهل الى حرية العلم

فقال ان العالم مركب من اجسام كثيرة وعناصر متباينة تزيد عن سبعين عنصراً وهذه العناصر هي التي وصل اليها الاستكشاف الآن وقدكان الاقدمون يعتبرون البسائط أربعة فقط وهي الماء والتراب والهواء والنار فأصبح ما كان بسيطاً عندهم مركباً عند الغربيين والمراد بالعنصر ما لا يمكن تحليله الى جسمين آخرين وهذه العناصر منقسمة الى قسمين معادن وغير معادن تسمى أيضاً فلزات والمعادن أجسام صلبة كلها الا الزئبق وهي موصلة للحرارة والكهربائية بحيث أن الكهربائية والحرارة اذا وصلت اليها أسرعت فيها كما تسرع النار الاشتعال في الحطب وهي تلمع متى صقلت كما هو مشاهد في النحاس والحديد والذهب والفضة والخارصين والرصاص وغيرها حتى أن الاقدمين كانوا يتخذون المراءات من الحديد فيصقلونها حتى تصير كالزجاج .

والعناصر التي ليست معدنية وتسمى لافلزية تكون على الاحوال الثلاثة للمادة وهي الغازية والسيولة والصلابة كالهواء وكالماء وكالاحجار ومنها عنصر يسمى الاكسوجين وآخر يسمى

الادورجين وهما يتكون منهما الماء ومتى حلل بالآلات انفرد
كل عنصر بنفسه كما يحلل الماء الى اكسوجين وادروجين ومن
عجيب الاتقان ان كل عنصر له هيئة مخصوصة فالاكسوجين
الذى هو أحد ركنى الماء جسم كثير الوجود فى الكون داخل
فى الهواء والماء والصخور والاحجار فاذا انفصل منها صار جسما
غازياً كالهواء عديم اللون والطعم والرائحة يقبل السيولة بضغطه
ضغطاً عظيما أو تبريده تبريدا شديداً وهو أثقل من الهواء قليل
الذوبان فى الماء وليس الاشتعال الذى نراه في غاز الاستصباح
والبترول والزيت الا من اتحاد عناصر هذه الاجسام واذا اتحد
معه الاودورجين صار ماء طهورا والاودورجين اسم مشتق
من كلمتين يونانيتين معناهما المولد للماء وجوده على حالة الانفراد
نارد جداً ولكنه كثير الوجود فى الكون على حالة الاتحاد فى
الماء والمواد العضوية الحوانية والنباتية وهو غاز يسيل بضغطه
ضغطا قوياً وبتبريده تبريداً شديداً وهو أخف الاجسام المعروفة
يلتهب بلهيب باهت قليل النور شديد الحرارة واذا وضع فيه
جسم متقد ناراً ينطفىء بسرعة فهذا الغاز غير صالح للاحتراق
ولا للتنفس فاذا وضع فيه حيوان مات مختنقاً لعدم وجود

اكسوجين معه وهذه الصفات بلا ريب تخالف صفات
الاكسوجين وذلك انه اذا وضع فيه سلك من حديد ملتف لفاً
حلزونياً وفي طرفه قطعة من الصوفان منقده فان السلك يلتهب
وينتشر منه قطع صغيرة وصلت حرارتها الى درجة الاحمرار
وهذا الاحتراق حاد جداً يدوم بدوام الاكسوجين

وبالجملة فالاكسوجين والادروجين مختلفا الصفة فالاول
يحرق والثاني يطفي والاول حار جداً والثاني بارد جداً والاول
يتجه عند تحليله الى القطب الموجب فتكون كهربائيته سالبة والثاني
الى القطب السالب فتكون كهربائيته موجبة فان الاجسام
المكهربة تطلب اضدادها دائماً

فتأملوا ايها الاخوان كيف وضع صانع هذا الكون هذين
الجسمين مع بعضها وهما متنافران متضادان في الصفات فكونا
شيئاً واحداً آخذاً صفات متوسطة وهي الماء الذي جعله الله
حياة كل حي وما أشبه هذا التركيب بتركيب نوع الحيوان من
ذكر وأنثى وباتحادها دام الوجود

وماذكرت هذا الا مثالاً واحداً لتعلموا ان كل جسم في
الكون سار على هذا النسق افراداً وتركيباً واختلافا وائتلافا.

ولاذكر لكم كيف اتحد هذان الجسمان وما مقاديرهما وكيف
ظهر هذا السر ووافق المعقول المنقول لتقيسوا عليه جميع المقادير
فى الكمياء فان جميع التراكيب فى الكيمياء تنقاد لقانونين القانون
الاول قانون (المقادير المحدودة) وهوان نسبة مقادير الاجسام
المركبة لبعضها تكون ثابتة لاتتغير وبعبارة أخرى ان اتحاد
الاجسام ببعضهما يكون بمقادير محدودة ثابتة فى كل حركة.

القانون الثانى قانون النسب المتصاعقة ويسمى قانون دِالتون
وهو (اذا اتحد جسمان ببعضهما وتكون عنهما عدة مركبات
فلو بقيت كمية احدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب
مضاعفة بسيطة).

ولنوضح القانون الاول فى مثالنا وهو الماء فنقول.

ان الماء مركب من ذرة واحدة من الاكسوجين وذرتين
من الادوروچين فاذا حللنا الماء نجد الذرات الداخلة فى تركيبه
من الاكسوچين نصف الذرات الداخلة فيه من الادروچين
فاى مقدار من المـاء حللناه وجدناه هكذا الثلث في الحجم
اكسوجين والثلثان اودروچين وفى لوزن نجد ان ذرة الاكسوجين
(الذرة عندهم هى أصغر جزء وصل اليه العنصر) قـدر ذرة

الاودروجين ست عشرة مرة والذرة الواحدة من الاكسوجين معها ذرتان من الادروجين وحينئذ يكون نسبة الاكسوجين الى الادروجين كنسبة ثمانية الى واحد

وحينئذ يقال

١ : ٨ : : ٢ : ١٦ : : ٣ : ٢٤ : : ٤ : ٣٢ : : ٥ : ٤٠ وهكذا الى ما لا يتناهى من مياه الارض جميعها وهذه نسبة هندسية وبالنظر لمقادير احدهما وحده تكون نسبة عدديه فكأن العنصرين لم يتحدا الا على نسبة عدديه ونسبة هندسيه معاً وهذه القاعده كما قلنا سارية في الماء كله

وهذا بعض الحساب والميزان وغيرهما الذى ذكره الله فى القرآن حتى ان الماء لو دخل فيه ذرة من الاودروچين مثلا زائدة عن هذه النسبة فانه لا يقبله كما يشاهد فى العمليات الكيماويه فى تحليل المواد وبهذه نفهم قوله تعالى (يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو فى الارض يأت بها الله)

فانظروا كيف عبر بالذرة التى عبر بها الكيماويون وفهموا ان جميع الذرات فى الصخر وجميع الاجسام لا يمكن ان تختل عن

مقاديرها المعينة ثم أعقبه بقوله (ان الله لطيف خبير) مشيراً الى اللطف في التدبير ومعرفة بواطن الاشياء فهذا وأمثاله يفهم آيات القران. وقال تعالى (وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين وقال وماتكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين فتأملوا كيف ظهر وزن الذرة المذكورة وكأن الناس أصبحوا بهذه العلوم يشاهدون هذا الحساب المتقن الذى هو كتاب مبين وانما قال ولا أصغر من ذلك ولا اكبر مع ان الذرة لم يمكنهم تحليلها الى أقل منها لان علماء الغرب لا يزالون يقولون ان الذرة تقبل التحليل الذى لم تصل اليه .

فهذا هو الميزان السارى فى الكون كله وبهذا وأمثاله نفهم قول قدمائنا ان الحب سار في الموجودات كلها وقولهم ان بين الكائنات نسبة محفوظة وهذه النسب بعينها كنسب الحروف السواكن والمتحركات فى علم الشعر وعلم الموسيقى فانهما من واد واحد كالمقادير الكيماويه فان بحر الوافر مثلا وزنه مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن نسبة عدد

الاسباب فيه الى الاوتاد كنسبة ١٠ الى ٦ وفي نصفه كنسبة ٥ الى ٣ فهى نسبة هندسية منفصلة وما فيه من العلل والزحافات فهى كمرض في جسم الحيوان

واذا نسبنا الاسباب لبعضها والاوتاد كذلك كانت نسبة عددية . ٣ : ٦ : ٩ : ١٢ وهكذا اوه الى ١٠ الى ١٥ الى ٢٠ وهكذا أى فى شطر وشطرين وثلاثة وهكذا ونسبه السواكن الى المتحركات كنسبة ٦ الى ١٣ فنقول الشطر فيه ستة حروف سواكن و١٣ حرفاً متحركا وتقول ٦ : ١٣ : : ١٢ : ٢٦ : : ٢٤ : ٥٢ فهى هندسية واذا نسبنا السواكن الى بعضها والمتحركات كذلك كانت نسبة عدديه وهكذا جميع أوزان الشعر .

فيظهر ان مقادير الكيمياء هندسية حسابية كمقادير أوزان الشعر ومثلها الموسيقى أيضاً واكتفينا عن الكلام فيها بالشعر لأنهما من أوزان متقاربة جداً موضوعة على هذه النسب المحدده وما اشبه هذه المقادير المتناسبة بمقادير حساب الكواكب الجارية فانها كلها تجرى بحساب متقن .

وكل هذا الكون جار على مثل هذه النواميس . وكم من عاقل ينظر فى ميزان القبان ولا يعلم انه موضوع بنسبة هندسية

حسابية عرفها أهل تلك الصناعة حتى ان نسبة الذراع القصير الى الذراع الطويل كنسبة الرمانة الى مايوزن معادلا لها وهكذا السفينتان العائمتان على وجه الماء نسبة وزن احداهما الي وزن الأخرى كنسبة الفراغ الذى شغلته احداهما فى الماء الى الفراغ الذى شغلته الأخرى أو كنسبة وزن الماء الذى ازاحته احداهما الى الذي ازاحته الأخرى وهكذا الحجر النازل والنسبة التربيعية التى يتوالي تضعيفها بقانون محدود كلما نزل الحجر فكل هذه تعرفنا ما ذكر من الآيات وقوله تعالى والسماء رفعها ووضع الميزان .

فها نحن من هذه العلوم اصبحنا نعرف معنى هذا الميزان الذى سرى فى الكون كانه مشاهد بالبصر من شدة وضوحه وهذا هو القسط والوزن والحق

ولما كان فن الكيمياء مبنياً على نسب هندسية وحسابية وضعوا معادلات كمعادلات الجبر حتى اصبح معنى هذه الآيات محسوساً وحق علينا قوله تعالى .

(وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

وانى أعوذ بالله ان نقول ان قلوبنا غلف كما قال اليهود

لصاحب شرعنا لحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس انهم كانوا خاسرين ولقد عرف علماء الغرب ان جميع هذه الذرات المكونة منها العوالم متحركة دائما حركة سريعة كحركات الكواكب وهذا غامض جداً على من لم يقرأ علوم الطبيعة واذا كانت كلها متحركة وهى على تلك النسب المذكورة فحركاتها موسيقية طبعاً وتكون اصواتها لذيذة اذا صفت النفوس وخلصت من عالمنا الذى نحن فيه وبهذا عرفنا معنى قول فيثاغورث ان العالم مركب من موسيقي وهناك تفسير آخر لهذا القول وهو ان الموسيقى لا يقصد بها الا النسب المحدودة المذكورة آنفا وانما ذكرت الموسيقي لانها اظهر منها واسهل واوضح وأما المركبات العنصرية فهي صعبة الفهم على غير المتعلمين واذ فرغنا من ذكر القانون الاول فلنبين الثانى وهو قانون النسب المتضاعفة ومثاله اتحاد الاوزوت بالاكسوجين فانه يكون خمس مركبات الاول يحتوى على ١٤ من الاوزوت و١٦ من الاكسوجين والثاني على ١٤ من الاوزوت و١٦×٢ من الاكسوجين والثالث على ١٤ من الاوزوت و١٦×٣ والرابع على ١٤ من الاوزوت و١٦×٤ من الاكسوجين والخامس على

١٤ من الاوزوت و١٦×٥ من الاكسوجين فنسبة مقادير الاوزوت لبعضها المساواة ونسبة مقادير الاكسوجين لبعضها عددية لانه يزيد ١٦ دائما ونسبة مقادير الاوزوت في كل واحد من المركبات الى الاكسوجين تكون هندسية ولا اكتف بهذا القدر فانى اطنبت فيه لما ارى من تخاذل عقلائنا وخاصتنا وعامتنا في العلوم وظنهم انها تخالف الشريعة مع انها هى سرها وخلاصتها اذ بهذه المقادير والنسب المحفوظة ذقنا الطعم وشممنا الريح وسمعنا الصوت وابصرنا الكون ولمسنا النعومة مثلا فما كان على النسبة الجميلة قبلته تلك الحواس وما ليس عليها لا تقبله فالسمع انما يلتذ بما كان على تلك النسبة في الشعر وبقية الحواس لا يلذ لها الا ما كان بتلك المقادير المتناسبة في تركيب المركبات (ان ربك هو الخلاق العليم) وليس القبول وعدمه الا الحب او البغض ومنه ثبت ان العشق سار فى الكون كله وانه تابع للحساب والهندسة بل اضحى المسلمون محتاجين الى الحكمة العقلية التى كادت تجعل الغربيين ادرى منا بكل حسى حتى ديننا كاستدلالهم بالمقايسة على ان نبينا صلى الله عليه وسلم افضل العالمين عقلا واخلاقاً وكاثباتهم بالمقابلة ان ديننا اسمى الديانات حكمة ومزية

وعندى انه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون فى هذا الفتور
والامل بعناية الله تعالى بعد زمان قصير او طويل ان
يلتفتوا لهذه العلوم النافعة فيستعيدوا نشأتهم بل يجلبوا الى
دينهم العالم المتمدين لان نور المعارف بقدر ابعاده العقلاء عن
دياناتهم يقربهم من الاسلامية لان الدين المملوء بالخرافات والعقل
المتنور لا يجتمعان فى دماغ واحد ثم ان تبعة التقصير تشمل علماء
الأمة المتقدمين والمتأخرين وهؤلاء الذين عاصروا الاوروباويين
اكثر اثما وأشد عذاباً بتقصيرهم واقتصارهم على تدريس شيء
من اللغة والفقه وقطع من المنطق مظلمة ملتبسة غير مستعملة
وشيء من الحساب إكمالا للفرائض والمواريث تدريسا غير
مرتب قلما يفيد فهؤلاء العلماء المتأخرون هم المسئولون يوم القيامة
عن هذه الامة وضياعها ووقوعها فى شرك الردى والهوان لتركهم
البحث في الاحوال الحاضرة والعلوم النافعة في هذا العصر .
وكما شمل التأخر علماءنا شمل الوعاظ والزهاد فالاولون مقتصرون
على حكايات الزهاد من صحيح وموضوع ورواية كرامة الانجاب
والاقطاب والنقباء والابدال وعلى بعض الاناشيد في الحفلات
والترنمات ولا ننس خطباءنا واقتصارهم على تكرار عبارات في

الدعاء للغزاة والمجاهدين وتمداد فضائل العبادات وبالاجمال فابتمادنا عن العلوم النافعة وانحيازنا فى جانب عظيم من الجهل هو الذي جعلنا أحط الأمم ولو بقينا على هذا خمسين سنة بعدت النسبة بيننا وبين جيراننا كبعدها بين الانسان الحيوان والنتيجة ان ناموس الارتقاء هو الذى سبب هذا الفتور العام كما قال تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

فقال المجتهد هذا يعد سببا فى الانحطاط ولكنه لا يكفى وحده لهذا الانحطاط العام وفقد الاحساس الملى والاخلاق الفاضلة والذى أراه يصلح سببا لذلك اننا كنا قادة للامم سادة هداة فاغتررنا ونمنا آمنين مطمئنين وتنبه غيرنا ونحن لا نشعر وسبقونا ونحن لا ندرى حتى اذا تيقظنا من كهفنا رأينا الشوط بعيدا فيئسنا من المباراة واليأس أعظم مسقط للامم قال تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فما أخرنا الا يأسنا من المباراة واللحاق للامم الراقية واليأس فى الحقيقة كفر بالمواهب التى أفرغها الله عزّ وجل فى الوجود وجهل به واى كفر اطم واعم من جهل الوجود وماحواه فقال السائح هذه شكاية حال ولا تفى بالغرض ولا توضح السبب.

وما المسلمون بالابعدين كأهل الصين ولا المتوحشين العريقين فى التوحش كاهل امريكا الاصليين .

والذى عندى انا فقدنا الهداة المرشدين والاكابر المصاحين فلم نجد أميراً يدخل الامة فى حكمه آخذا بخطام الرغبة أو سائقا بسوط الرهبة ولا حكيما معترفا بفضله ولا تربية متحدة المبادئ فيشيب الولدان ويشبون وهم بها متحدون ولا جمعيات منتظمة تسعى للخير ولذلك حل فينا الفتور والى الله ترجع الامور فقال التاجر ان ماذكرته من الآمر المطاع والحكيم المتبع لا يكونان في الامم المنحطة الا اتفاقا واما الرأى العام والجمعيات فلا يفقدان الا بفقد الاحساس العام وهذا ما نتساءل عنه .

ثم قال والذى أراه أن الداء العام هو فقد المال والفقر الآخذ بالزمام فالفقر هو السبب الاكبر فى جهلنا وفساد أخلاقنا وتشتت آرائنا حتى في ديننا وفقد احساسنا وهكذا من كل ما حلّ بنا

هذه فطرنا لا نقص فيها عن غيرنا وعددنا كثير وبلادنا متواصلة وأرضنا خصبة ومعادننا غنية وشرعنا قويم ونخارنا قديم فلا ينقصنا من الامم الحيه غير القوة الماليه التى أصبحت

لا تحصل الا بالمال الطائل فوقعنا في مشكل الدور فنحن نحتاج للعلوم وهى لا تحصل الا بالمال والمال لا يكون الا بالعلوم وهذا الدور ان لم نهتد لحله دخلنا في قانون فناء الضعيف في جانب القوى من قانون الارتقاء

﴿ تنازع البقاء ﴾

فقال الفقيه اشرح لنا تنازع البقاء واقص فيه أيها الفاضل فانك مفوار فى البحث فقال . اعلموا اخوانى ان هذا الكون مؤسس على ان الاقوى يغلب الأضعف وليس هذا خاصاً بالانسان بل هذا حكم سار في النبات والحيوان والصنائع فالنبات الاقوى يغلب الأضعف متى تجاورا فمتى زرعت بذور من أنواع مختلفة منه ونمت في تربة واحدة ثم حصدت معاً وزرعت كرة اخرى وهكذا مراراً لا يبقى منها الا أقواها وأوفقها للارض واكثرها تحملا للحوادث الجويه ولو تنازع نباتان فى قفر لما بقى الا أقواهما على احتمال القيظ كما لا يفوز بالبقاء في زمن القحط الا من كان أشد صبراً على الجوع كما ذكره بن خلدون . وأما الحيوانات المتفردة بالبقاء المنازعة لغيرها فامثلتهما كثيرة اذ رأوا

ان الخيل والبقر الوحشية التى تسرح قطعانا لا يحصى عددها في سهول أمريكا الجنوبيه الواسعة انما أصلها عدد قليل أتاها من اوروبا يوم غزوة الاسبانيول وقد قدر بعضهم عدد الخيل الوحشية في سهول بلادها الواسعه بنحو ثلاثة ملايين ثم النباتات والحيوانات التى ادخلت من اوروبا الى استراليا المكتشفة حديثاً قد تكاثرت حتى كادت تغطى الارض هناك وفازت فى الارض بالبقاء ولا يخفى ان الذى يفوز بالبقاء على ماسواه انما هو ما تميز بصفات جسديه أو عقليه تجعل له هذا الفوز . وهذه الصفات كثيرة جداً فقد تكون فى الاقدام او القوة أو كبر القد أو صغره أو وسائط الهجوم والدفاع أو الجمال أو السرعة أو الصبر على الجوع أو حسن الكساء أو الحيلة أو حسن التدبير فى تحصيل القوت او الحكمة فى اتقاء الشر وبعض الحيوان يفيده لونه كالجمل الابيض والدب الابيض اللذين يقطنان فى الجهات القطبيه المغطاة بالثلج دائما وكذلك الذباب الاخضر الذى يعيش على أوراق النبات وبعضها بفروه الذى يتلبد اذا أقبل الشتاء وبعضها بسرعته في الهرب أو شدته فى القتال .

ثم لتعلموا أيها الاخوان ان التنازع انما يكون بين الانواع

الاقرب بعضها الى بعض لاشتراكها فى المتنازع عليه ويقل كلما ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد وكلما كانت الصورة قديمة ضعفت عن مقاومة اخصامها الاحداث لاتخاذ الاحداث في التنازع صوراتناسب التغييرات الحاصلة فى أحوال الحياة فتجعلها أقوى وكل صورة غلبت لا تعود أبداً اذ لا تعود قادرة على الثبات في التنازع واذا أردت مثالا زيادة عما تقدم فهناك بلاد هولاندا الجديده (استراليا) فان هذا القسم لانعزاله عن العالم مرة واحدة وعن كل منازعة بقيت نباتاته وحيواناته متأخرة جداً فاعلى حيواناته رتبة ذى الجراب الذى عاش في اوروبا فى الدور الثانى وتلاشي لتغلب أنواع اخرى عليه أقوى واكمل وانما بقي مثل هذا الحيوان فى استراليا الى يومنا هذا ولم يضمحل لعدم وجود منازع شديد البأس ولكن من يوم دخلها الانكليز اخذ كل ما فيها فى التلاشي حتى كاد يضمحل لعدم صبره على منازعة ما أدخلوه معهم ولم يسمع قط ضد ذلك فلم يسمع ان حيوانات ونباتات استراليا امكنها ان تتأصل فى اوروبا .

فمن هذه الامثله التى رأيتها فى كتاب لويز بخز الالمانى المترجم الى اللغة العربيه تعلمون أيها الاخوان كيف تغلبت نباتات

اوروبا وحيواناتها على نبات وحيوان قارتى استراليا وأمريكا ولم يمكن تلك الحيوانات والنباتات ان تقف أمام هذه التي دخلت عليها

﴿ غلبة الرجال ﴾

وليست الغلبة خاصة بنوع الحيوان والنبات بل سرت الى نوع الانسان فاصبح الاوربي هو العنصر الوحيد فى أمريكا. أما أهلها الاصليون فاصبحوا آلافاً معدودة بعد ان كانوا ملايين فانقرض جلهم ودخل بعضهم فى العنصر الاقوى وتناسلوا وهكذا أصبح العنصر الاسود فى استراليا يقل أمام الجيش الجارف من اوروبا وهكذا أهل جنوب افريقيا كل ذلك جار على الناموس العام من فناء الاضعف فى الاقوى

كما فنى المسلمون السابقون فى الامم التتاريه الآتين لهم من الجنوب ففرقوهم شذر مذر واحتلوا بلادهم واخربوها وملكوا ديارهم واموالهم واعتنقوا دينهم وصاروا هم اغلب المسلمين اليوم فى الهند والصين ومنهم تكونت اغلب امم اوروبا الآن فقد تكاثر دخولهم اليها حين اختلطوا بالمسلمين وحاربوهم في القرن السابع من الهجرة واغتالوا الروسيا وقد تغلبوا من

قبل ذلك مراراً عليها قبل زمن النبوة فنهم هذا العنصر كما اثبتناه في كتابنا هذا

فهم بقايا يأجوج ومأجوج الذين كانوا من كل حدب ينسلون

﴿ غلبة الآلات والصنائع ﴾

ومن العجيب ان الغلبة لم تقتصر على الحيوانات والنباتات والانسان بل سرت ايضاً الى الآلات فها نحن نشاهد فى بلادنا كيف غلب وابورهم طواحيننا وسواقينا ونواعيرنا وشادوفنا تلك الآلات القديمه الضعيفه وكيف تقاوم هذا السيل الجارف وكيف يسامى الخبيث الطيب وكيف يقف الضعيف امام القوى ام كيف يقوى الضار على مقاومة النافع قال تعالى واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض وقال تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقال تعالى قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث وهكذا غلب وابور حرثهم محراثنا

بل مخض اللبن واخراج الزبد منه وتربية الخيل والبهائم كل ذلك تقدموا فيه تقدماً باهراً ولا دليل أقوى من العيان وما عليكم الا ان تنظروا نظرة واحدة تروا الامر واضحا

جلياً فى مراعينا وبيوتنا وأحوالنا المعاشية كلها وفى الزراعة وتربية المواشى وهكذا غلبت منسوجاتهم وخبزهم وطحنهم منسوجاتنا ومطبوخنا ومخبوزنا واضحي تجارهم أقوى من تجارنا ومربيهم أقوى من مربيتنا وسياويهم أقدر من سياوينا وسواسهم أقدر من سواسنا ورؤساء دينهم أقوى تأثيرا على النفوس في دينهم من رؤساء ديننا فى نفوسنا وجمعياتهم المؤلفة ثابتة لها نتائج مهمه دينيه وسياسيه وتجاريه وصناعيه حتى جمالهم ارقى من جمالنا فغلبوا ذاتاًوصفة وتجارة ورئاسة وجمعية ان في ذلك لعبرة لمن يري وما سبقونا الى ذلك حتى تقدموا فى الصفات النفيسة كالصدق والامانة وغيرها بل متدينهم أصدق من متديننا في دينه كما اخبرنا به غير واحد ممن جابوا تلك الاقطار

فهذا ياقوم معنى فناء الضعيف فى جانب القوى وهذه سنة في الكون سارية فيه لاتتجاوزه. فكل امة تمسكت بالقديم جداً من الاعمال ولم تحسنه ولم تبادر الى الاعمال دخل الجديد عليه فاباده

وهذا مصداق قوله تعالى كل يوم هو فى شأن فاية امت وقفت على قديمها ولم تعبأ بما طرأ ولم تغير الاساليب حسب الزمان اهلكها الله وهذا هو النسر فى أمره تعالى بالسير فى

الارض لنعلم ان الكون متغير دائما

والسير فى الارض يهدى الانسان الى كل ما حدث وعندي أن السير فى الارض الآن ومعرفة الصنائع الحديثة فرض وتركهما اثم كبير بل هو آضر على الامه من كل معصية هذا هو اجمال مانعلمه من الكلام على فناء الضعيف فى جانب القوى وناموس الارتقاء وهذا وان لم يكن من موضوعنا الآن ولكن شرحته اجابة لطلب حضرة الفاضل الفقيه .

ولنرجع الى مبحثنا الاصلى في أن السبب فى ضعف الامة هو فقرها وهو أصل كل تأخر ماديا وأدبيا فقد سبقونا فى كل ماسمعتم من الصنائع والتجارات والزراعات بالمال والغنى وهما حاصلان بالعلم والعلم متوقف على المال فمن لنا بحل هذا الدور المشكل حتى نسير على صراط مستقيم

فأجابه الفاضل الفقيه فقال أن المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لم يعوزهم المال للتدرج فى العلوم حتى للسياحات البحرية الى الجهات القطبية لان فريضة الزكاة على مالكي النصاب والكفارات جاعلة لفقراء الامة وبعض المصاريف العمومية نصيبا غير قليل فى مال الاغنياء بحيث اذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة امنوا

الفقر. وعاشوا عيشة الاشتراك العمومى الذي يسمى لامثاله كثيرون من الجمعيات كطائفة السوسيالست (الاجتماعيون) والنيهليست (المدميون) وهم يريدون اعدام البشر لانه أصبح في نظرهم شروراً وقبائح نجب أبادته والكومونولست (الاشتراكيون) فكل هؤلاء يسعون لغرض واحد وهو الاشتراك العمومي فى المال وهم وان اختلفت أغراضهم ظاهراً فباطنهم ارادة ذلك وهذه الجمعيات مكونة من ملايين يريدون التساوي أو التقارب فى الاموال وملوكهم وأغنياؤهم احبوا الاختصاص والشرع الاسلامي جاء طريقاً وسطاً بين هذا وذاك (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً

فتعطيل الزكاة والكفارات أوجب بعض هذا الفتور المبحوث عنه كما أوجب ترك الزكاة فقد ثمرات عظيمة بين المسلمين وهي أن يعرف المسلم مقدار دخله وخرجه عند الحصاد أو حولان الحول فى السوائم فتعلمه كيف يقتصد وبالجملة فليس المسلمون فقراء وانما هم لم يحسنوا التصرف فى المال.

﴿ الاجتماعات ﴾

والذى أراه يصلح سبباً حقيقيا لهذا الفتور العام جهل المسلمين بما فرض الله عليهم من الاجتماعات الدينية التى هى أساس كل مفاوضه سياسيه فعدموا حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطباؤهم ووعاظهم الوعظ والارشاد والتعرض للشؤون العامة كما ان علماءهم صاروا يسترون جهلهم بجعلهم التحدث في الامور العامة والخوض فيها من اللغو الذى لايجوز وربما اعتبروه من التجسس أو السعي بالفساد فترى ذلك من الخاصة والعلماء الى العامة والجهلاء . وصار كل واحد لا يهمه الا حظ نفسه وحفظ حياته في يومه كانه خلق امة واحدة ويموت غداً جاهلا ان له على الجامعة الاسلامية والجامعة البشرية حقوقا وان لهما عليه مثلها ذاهلا عن ان مدنى بالطبع لا يعيش الا بالاشتراك ناسيا اوامر الكتاب والسنة

ولما مضت قرون وتوالت عصور على الامة وهى بتلك الحال تأصل فقد الاحساس فى الافراد وتبعثرت الجامعة تبعثراً لم يبق معه اصلاح

والعجب من شريعة هذا شأنها من الحكمة قررت اجتماعات متكررة وجعلتها فرضا دينيا لازما ومضي زمان طويل فنسوا المقصود منها . ولعمري ان هذه الامة محتاجة الى رجال مجددين للنهضة مقررين ومشوقين الى علوم القرآن في قلوب الناشئة الحديثة ليشوقوهم الى المعالى والشرف والاجتماع ونحن الآن كما ذكر الله ولا تكونوا كالذين اتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قست قلوبنا وما قسوتها الا من عدم معرفة الحكمة في المشروع لنعمل للغرض المطلوب

اما الغربيون المعاصرون لنا فلما لم يكن لديهم من الدين اجتماعات كافية استدعوا طرقا واحتالوا بحيل للاجتماعات استرعاء للاسماع بوسائل شتى. فيخصصون اياما لذكرى مهمات لاعمال لاعاظم رجالهم الماضين لينسج على منوالهم الحاضرون ويعدون في مدنهم ساحات ومنتديات ليسهل الاجتماع ويكثر القاء الخطب وابداء المظاهرات.

ويكثرون من المنتزهات الزاهية العمومية ويجرون فيها الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات

ومنها اعدادهم فى التشخيص اماكن بقصد اراءة العبر واسترعاء الاسماع للحكم او لوقائع واستسهلوا ما تضمنته الخلاعة المتخذة شباكا لمقاصد الجمع ويعتبرون نفعها اكثر من ضررها ويعتنون غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريخهم المليه المفصلة المدمجة بالعلل والاسباب تمكينا لحب الجنسية

ويحرصون على حفظ العاديات المنبهة وادخار الاثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر . ويقيمون النصب المذكرة بما نصبت له من مهمات الوقائع القديمة وينشرون في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية وينشدون الاغانى الوطنية المبهجة للشعب الى الحمية الوطنية فهذه عشرة أنواع من أهم اجتماعات الغربيين جعلوها شباكا للاجتماعات وأما المسلمون فلهم من الاجتماعات ما يغنيهم عن مثل هذه وترانا فى مصر لم نصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فقد اصبحت أماكن اجتماعنا للفجور والفسق لاغير والابرة الخديوية بات ضررها اكثر من نفعها وهذه تواريخنا مصمتة مقفله ولقد حفظنا الآثار العربية ولكن ليس في القوم شعور بانها آثار ابائهم الاولين. واقمنا تمثال المرحوم ابراهيم باشا ولكن ما ذكرنا الا بوقوع

بأسنا بيننا وان قلوبنا شتى. أما الجرائد فعندنا منها جملة صالحة والاغانى الوطنية قليلة

وبالجملة فنحن أضعنا ثمرة الاجتماعات الدينية وقلدنا في اجتماعات الغربيين ولم نصن الاول ولم نعرف الثانى فخسرنا الصفقتين ورجعنا بخفي حنين

فاجابه الحكيم ان هذابا لدواء أشبه منه بالداء وهو المبحوث عنه

ثم قال والذى أراه أوجب هذا الفتور العام اننا فقدنا الحكماء المسيطرين على العلماء والعامة وذلك انه ما من امة من الامم الا وجرت العادة ان يكون فيها حكماء يرشدون العلماء فالامراء فالعامة وهم الوارثون حقاً للانبياء وهم المسمون باهل الحل والعقد وهم الذين كانت تنعقد بهم الامامة وأمر صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم فقال (وشاورهم فى الامر) وشاورهم أول خلفائه الراشدين رضي الله عنهم واقتدى به الثانى حتى ترك أمر الخلافة لهم وهكذا كان معاوية وتبعه خلفاء بنى امية فكانوا يتبعون مشورة سراة المؤمنين لا سيما بنى امية وهكذا صدر دولة العباسيين كانوا مذعنين لسيطرة رؤساء بنى هاشم ولما

استبدوا بالرأى ولم يكن أمرهم شورى بينهم ذهب الملك منهم وتفرقوا أيدى سبا .

وهكذا كل فرع من فروع الاسلام بل هى حال كل فرد من نوع الانسان يستقيم أمره بالاستشارة ويعوج ويضل بالاستبداد

وما مثل أهل الحل والعقد في المسلمين الا كمثل الاشراف ومجالس النواب في الحكومات المقيدة ومقام الاسرة الملوكيه التي لها حق السيطرة على الملوك في الحكومات المطلقه كالروسيا والصين ومقام شيوخ الانخاذ في امراء العشائر الغربية فاولئك الامراء ليس لهم من الامر غير تنفيذ مايبرمه الشيوخ وبالجملة ففقد الحكماء في الملة الاسلاميه هو السبب الاعظم فى هذا الفتور

والمسلمون من حيث الحكماء الان ينقسمون ثلاثة اقسام فيهم حكماء ينصحون وهى الصين وقسم فيه حكماء مسيطرون وهى فارس وقسم ليس فيه حكماء أو فيه وهم متروكون وهى بقية البلاد ماعدا القليل منها كبعض من نبغوا في مصر .

فاجابه السائح قائلاً

ان فقد الحكماء لا يصلح سبباً عاما وهذه الصين كم فيها

من الحكماء وهم لا يخافون سطوة الجبارين ومع ذلك لا تزال ترى الفتور شاملا لهم

والذى أراه يصلح سببا عاما أمران ترك امور كثيرة فى الدين وزيادات بدع فيه فالزيادة والنقص هما اللذان أوجبا هذا الفتور العام .

الم تروا ان اخراج الزكاة واعداد القوة ما استطعنا صارتا منبوذتين الآن اليس غلاة الصوفيه وجهلاؤهم اخترعوا اناشيد لم ينزل بها سلطان واعتنوا بما زادوه وتهاونوا بالفروض الاصليه فلم يوفوها حقها ثم صار التشديد حتما لازما وأصبح المؤمن يلتبس عليه كثير من امور دينه ويضل فى الفروع الكثيره فاجابه العالم قائلا وما للدين والانحطاط في شؤون الحياة الدنيا فاذا حصل تشديد في الدين أو تنويع فى طرق العبادات أو بدع مستحدثه فكيف تؤثر على شؤون الحياة الدنيا مع ان الدين غير الدنيا وكيف يعقل ذلك وهوءلاء معاصرونا من الغربيين بالغوا فى هـذا حتى ظن بعض حكمائهم ان مدنيتهم لم يستقم أمرها الا بعد عزل الدين عن شؤون الحياة الدنيا .

فقال السائح

اعلموا ان سير نوع الانسان فى اعمال الحياة الدنيا كله تعاريج وضرر وآلام ونصب اذ الحياة جارية على تنازع البقاء والاضرار بالغير ومحبة النفس وحب الغلبة مع مرّ العيش وكدر الحياة وهذه كلها آلام عظيمة فلا بد لهامن ناموس يخفف وطأتها ولا يكون ذلك الا الاعتقاد بامر عام شريف يعم سكان سطح الكرة كلها كما ان الانسانية مشتركة بينهم وهكذا المادة تتنوع الى صور كثيره وهى فى الحقيقة واحده فهكذا نوع الانسان مهما تنوعت أصنافه فلا بد له من اعتقاد واحد يلم شعثه وهو الاعتقاد بقوة غالبة عالية تتصرف فى الكائنات بنظام محدود يعبر عنها الجاهل بلفظ (الطبيعه) والمهتدى الراشد بلفظ (الله)

وكما ان كل قوم اشتركوا فى المعيشة لا بد لهم من قانون يجمعهم ودستور يشملهم حتى يرجعوا اليه عند التنازع يناسب أحوالهم المعاشيه وكل فرد من أفراد ذلك الشعب لا بد ان يجرى على مقتضاه والا كان وحشياً منفورا منه .

فهكذا كل امة مع الامم المجاورة لها على سطح الكرة الارضية لا بد من عموم أمر بينهم يجمعهم كلهم يكون أعم مما اشترك فيه الافراد وأبسط الا وهو الاعتقاد بالغالب القاهر

المتصرف فى العالم على أبدع نظام والا كانت شريرة متوحشة تنفر منها جيرانها .

ثم ان هـذا الاعتقاد لا بد منه للافراد والامم ليخفف مرارة الحياة ويدفع الناس الى التساوى والانصاف فى الحقوق والرجوع الى الحق والا هلكوا أو ضلوا وصارت الحياة اشق شيء (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون) وكلام الله حق وصدق لا مبدل لكلماته فكل فرد وامة اعرضت عن ذكر ربها ضلت سواء السبيل فى الحياة الدنيا وساءت عقباها

واذا دققنا فى حال جميع الديانات التي ينزل بها الرسل الكرام نجدها فى مبدأ امرها بسيطة سهلة تقود الى الخير فاذا تمادى الزمان دخلها كثير من الشرك الخفى والتشديد وهما مطية الدمار والخراب فاما ان تبقى على ما هى عليه فتصير الى الخراب والدمار واما ان يرسل الله لها حكماء يهدون الناس

ويجددون ما اندرس ويجترفون ما ابتدع فترجع الى مجدها وسابق عزها فاذا لم يتداركها هلكت أو اندمجت فى امة اخرى

وذلك كما حصل فى كنعان وبنى اسرائيل فقدكانت تتوالى فيهم الرسل المنذرون والمبشرون كما قصه الله فى القرآن فترجع مدنيتهم زاهية زاهرة

وكماحصل في عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم . فانهم بادوا بالاهلاك العام.

وبالجملة فقدوضح ان الامم كماانه يجمعها نوع واحدوهو الانسان جمعها فكر واحد فى الدين وهو مدبر الكون المعبر عنه بالعبارات المختلفه وكما انهم أصناف مختلفون فمنهم الساميون والحاميون والياقيثيون فهكذا تنوعت طرق الديانات باختلاف الانبياء والازمان والامكنة فتطابق الخلق والامر (الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين)

واعلم ان الايمان بالله والملائكة واليوم الآخر والروح والنفس من أعظم داع لنمو المدنية وتقدم الحضارة اذ هذه مع غموضها على العقول كلف العقلاء بمعرفتها بالبراهين وهى صعبة المرام جداً فكأنهم الزموا ان يدرسوا هذا العالم درساً صحيحاً

ويخرجوا من الماديات الى المجردات وهذا لا يتسنى لهم الا بعد
فحص الكون من علويات وسفليات وينتفعون بذلك في دنياهم
فانظروا كيف كانت علوم التوحيد مبدأ للترقى في المدنية
والحضارة داعية الى التقدم السريع في الماديات والادبيات بل
مثل البحث عن المجردات كمثل بحث علماء المتقدمين عن علم
الكيمياء ليصنعوا منه الذهب فكان القليل منهم يصل الى
المطلوب والكثير يعثرون على أشياء كثيرة نافعة في الطب
والزراعة والبيطرة وغيرها أيها الاخوان ماذا ترون فى هذه
العجائب فلولا بحث الاقدمين عن الذهب ما وصل المتأخرون
الى هذه العلوم الناجمة عن علم الكيمياء واليه الرمز بحكاية آدم
وشيث في كلام الاقدمين وانه علمه الكيمياء فمن هنا عرفنا
كيف كان البحث بالبراهين العقلية فى الله واليوم الآخر هو
السبب الوحيد فى ترقى الافكار وتمدين الامم واثارة الخواطر
وقيام الناس من رقدة الجهالة ولذلك لا نرى امة إلا ودرست
الرياضيات ثم الطبيعيات واعقبت ذلك كله بالالهيات وأدخلت
فيها الملائكة والارواح واعقبت ذلك كله بالسياسة والاخلاق
فتأملوا كيف احتاج نوع الانسان فى تمدينه الى الايمان

بالمجردات ليرتبط بعضه ببعض أولا ويبحث عن الحقائق ثانيا ولقد حملوا العلوم جميعها أنواعا واصنافا متفرقة مختلفة المشارب والاذواق وكل علم يبحث عن شيء مخصوص من هذا العالم وكل علم تحته فروع ترجع اليه وهذه العلوم يرجعونها الى أصل واحد وهي الالهيات عند اليونان والتوحيد عند المسلمين واللاهوت عند الاوروباويين كما رجعت الدول لنوع الانسان ورجعت العقائد الى مدبر الكون المحرك له ورجعت العلويات والسفليات لاصل واحد وهي المادة .

والذى يهمنا من ذلك كله ملوك الاسلام وامراؤه ان لم ينسجوا على هذه الحكمة الباهرة فيكون لكل قوم منهم امور خصوصية ومدنية تناسبهم كما هي طبيعة الكون ولكن تكون بينهم جامعة عامة تشمل الامم الاسلامية في جميع الكرة الارضية فيتناقل العلماء الكتب فيترجم المصرى كتب الفارسي والفارسي كتب المصرى وهم جميعا كتب التركى والثلاثة تأليف الهندى وبالعكس وهكذا ويتعارف العلماء بالافكار والآراء ويتزاورون وهذه اللغة العربية هي السر الوحيد والترجمان العام فان لم يتواصل ملوك الاسلام ونام العلماء ولم يتعارفوا باخوانهم ف

أقطار المسكونة فليبشروا بخراب عام وقيامة تقوم عليهم وحدهم ويخلون الارض لله يورثها من يشاء من عباده قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدهم ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم)

وهذا العذاب ليس خاصاً بالآخرة بل هو في الدنيا وكفى بما فيه المسلمون عذابا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم منه شيئا.

وكل فرد من أفراد علماء الاسلام وملوكهم مطالب بهذا التواصل فان ابوا فجزاؤهم ما حل بنا اليوم فليجتهد العلماء فى التواصل وليتحدوا على التعاون والا عوقب كل فرد بالاثم وحده فاذا فعلوا ذلك فقد ساروا على الناموس الالهى في الكون ونهجوا منهج القرآن المطابق تمام المطابقة للحكمة الالهيه وهذه هى حدود الله (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)

فتكون امم الاسلام راجعة لاصل واحد وهو التواصل بين الملوك والعلماء بوجه عام فيكون الهندي مع الصينى مع المصرى كالالمانى مع الفرنساوى مع الانكليزى كرجوع العقائد والعلوم والاجسام وامم نوع الانسان واسرات المملكه وفروع الشجرة وأوراقها الى اعتقاد واحد وعلم الالهيات والعنصر البسيط وهو

الاثير والانسان ورب المنزل والملك المدبر العام والشجرة فان هـذا الملك كله متشابه يشبه بعضه بعضا والوحدة هي السر السارى فيه فيقدر ظهورها يتم وبقدر اختفائها يكون نقصه.

وها أنا أيها الاخوان أوضحت هذا المقام وهو حكمة الايمان بما غاب عنا من الاله وملائكته والى هذا المبحث أشار الله فى أول مرة من الكتاب المبين وهى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون.

فانظروا اخوانى كيف كانت آية في القرآن من حيث التلاوة نهاية ما تصل اليه المدنية في كل امة.

فالايمان بالله والمجردات أول العلوم ومنتهاها ومبدؤها ونهايتها (هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)

لا غنى للمدنية عنه وان تظاهر قوم بضد هذا امام المسلمين السياسيين فذلك ليرجعوكم الى التفرق وهم متحدون فليتدبر المسلمون ان كانوا يعقلون.

فقال الحكيم ان هذا من أهم الاسباب وبواعث الانحطاط ولكنه وحده ليس سبباً لكل ما نحن فيه من هذا السقوط السبب الوحيد فى ذلك قصر نظر الافراد وضعف الهمم والبعد عن المفاخر والتزهد عن المطالب والانقباض عن المكاسب والرضي بالذل والهوان

من يهن يسهل الهوان عليه ما بجرح بميت ايلام

فالامم اذا هانت ونبذت شرف النفس لم يقدموا على عمل واستكبروا كل ما يرونه وأعظموا الامور التى يشاهدونها وعجزوا عجزاً صراحا واضحوا في انحطاط وخمود وفى الحديث القدسى أنا عند ظن عبدى بى وفي التنزيل (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وفى الحديث ألنبوى ومن أراد الخير يعطه ومن توق الشر يوقه فكل من كان اقدم على الامور وأقل تهيباً فاز بالمرغوب وسعد فى الدنيا ويشير لذلك قصة زكريا ومريم وانه رآها تأكل فاكهة الشتاء صيفاً وبالعكس فتمنى ان يكون له ولد له صفات كصفاتها وكان في المحراب فجاءته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب كما كان وقت دخوله على مريم فبشر بيحيي مصدقا بكلمة من الله وهى أيضاً صدقت بكلمات ربها

(وسيداً) ومريم سيدة نساء العالمين (وحصوراً) لا يأتى لنساء وهى أيضاً كذلك لا يقربها الرجال (ونبياً من الصالحين) وهى كانت من الصالحين وقيل بنبوتها فانظروا كيف جاء المتمنى حين صوره في نفسه جازماً به وبالجملة فمعرفة أفراد الامة اقدار أنفسهم وشرفهم هو الذى يعلى شأنهم ولا يصل بالامة اوج المعالى سوى تثبيت هذه الفكرة فى أذهانهم ولذلك لما كان بنو اسرائيل مستعبدين بين المصريين وأسل الله سيدنا موسى لهم فاول فكرة بثها فيهم انهم أفضل العالمين فقال (وانى فضلتكم على العالمين) ولما لم تكن هذه الفكرة كافية وحدها بل لا بد من العمل التابع أردف هذا بان أضلهم في التيه حتى باد الجيل المستعبد المتمرن على الذل والانقياد وجاء آخرون تربوا على شظف العيش فى مدة الاربعين التى مضت فى التيه فامكنهم فتح قرية الجبارين. فهذه سنة الله فى الامم التى يريد ارتقاءها وما من امة حية الا وتجد هذه الفكرة منبثة فيهم ويرون ان سواهم أحق بأن يكونوا عبيداً لهم الا ترى ان أمة انكلترا ذكر في قانونهم ان الدم الانكليزى اشرف الدماء فلا يراق الا لاشرف المطالب. وقام بسمارك فى المانيا خطيباً وقال نحن الالمانيين لا نخشى الا

الله وجاء فى القرآن قوله تعالى . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وقال كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون .

فاذن يجب على علماء الامة وشعرائها ان يوقدوا فى نفوس افرادها نار الغيرة وشرف النفس

فأجابه العالم قائلاً ان المتعلم الذى قرأ علوم الاسلام يرى من اساتذته ومحادثتهم ومحاورتهم في تقطيب جباههم ماينفره ويصغر فى عينه كل أمة من الامم عند ذكر أمتنا فنحن من هذا الوجه آمنون ولم يبق علينا الا ان يعرف الشبان وجوه المطالب وتترقى فيهم ملكة الاستعلاء وها هو القرآن بين أيدينا فيه آيات لكل خلق من اخلاق الانسانية كالكرم والشجاعة والمحبة والاحتراس من الاعداء والاعتقاد وطلب التفكر وحوز العلوم والجهاد والصلاة والصيام والحج والزكاة والمبايعات وغير ذلك.

فلو ان كل فريق من الناس كالشجعان فى الحروب والاطباء في المستشفيات والاغنياء حفظوا آيات فى النوع الذى هم بصدده

لكان ذلك داعياً للاقدام على الاعمال فيقرأ المجاهد وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم والغنى وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والطبيب كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين والعالم المتفكر قل انظروا ماذا في السموات والارض وهكذا مما لا يحتمله المقام

ولقد ألف الشيخ الغزالى كتابا فى بعض ذلك سماه علوم القرآن وذكر نحو ٧٠٠ آية فى تهذيب الاخلاق ومثلها في النظر فى ملكوت السموات والارض

ولقد علمت ان أهل أوربا نهجوا هذا المنهج فذكروا آيات من كل نوع من هذا على حدته ليقف كل قوم علي ماهم بصدده.

ولقد سمعت ممن اثق به أن احد مدرسى مدرسة الطب بمصر قال له عند ذكر أمراض العيون ان أهل مصر لا يلزم لهم قانون صحة قانونهم كتابهم. ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) حكيم باشا اذ الوضوء فى الاوقات الخمس والمحافظة على النظافة في هذا الدين تنبذ جميع الامراض بالكلية وتستأصلها منهم ولكن عدم المحافظة على ذلك هو الذى اوجب الامراض

ومن العجيب ان الله يأمر بالنظافة لاجل الصلاة وقد

أراد ان تكون صحة لنا جهلناها وعرفها الغربيون وما جاء ذلك الا من معرفة كل قوم الآيات الدالة على ماهم بصدده وهكذا قال بنتام الانكليزي ان المحافظة على نظام الدين الاسلامي توجب عدم ارتكاب الذنوب بالكلية وهذا أيضاً لاطلاعه على الآيات الدالة على النظافة كما هو مقرر ان النظافة سبب للصحة الجسمية ولقلة الذنوب والرذائل فلله شريعة سمحاء جهلها الاقربون وعرفها الابعدون

ومع هذا فيجب على كل طائفة ان تتعلم القدر الضرورى المشترك بين الجميع . كآيات العبادات بانواعها ويكون ذلك بفهم وعلم وبعقل لا كالقراءات الآن ويمنع الحكام قراءة القرآن فى الاماكن التى لا تليق وعلى المقابر ويعظمونه ويجلونه ثم يلقى في اذهان القارئين وجوب فهم المعنى ويعرفون قوله عليه الصلاة والسلام اقرأ القرآن مانهاك فان لم ينهك فلست تقرأه وهكذا حتى تشب الامة على مبادىء الدين .

﴿ خاتمة ﴾

وحينئذ قام فاضل من فضلاء الجمع وقال ياقوم انى تأملت مادار بينكم فألفيته جمع شتات المسائل وخلاصة الاسباب ونموذج الرقى وظواهر الاصلاح وبهجة السعادات ونظام الحكومات فلتدرسوا العلوم وتنشئوا الصناعات ولتبشروا بالنجاح ولا تفرطوا فى صغير او كبير مما أفضتم في شرحه اليوم واصبروا على الاعمال صبر أولى العزم يايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه والتابعين

(تم الجزء الثانى من كتاب نظام العالم والامم وهو نهاية الكتاب)

﴿ تقريظ ﴾

وردت للمؤلف قصيدتان غراوان مرتبتان على مقتضى رويهما واول اسمى منشئيهما الفاضلين

الاولى مدبجة بقلم الأديب الفاضل العلامة الشيخ حسين والى من أجلاء علماء الازهر الشريف فاستحسنا نشرها لاشتمالها على أقسام الكتاب التسعة ولصدورها من صديق للمؤلف حميم قال حفظه الله

اذا قيل من أذكى فؤادا	وأدرى بالحقائق في الرجال
وأصغى جوهراً وأعز نفسا	أقول الجوهرى ولا أبالى
تزكت نفسه فعلت علوا	فجاءتها الحقائق بامتثال
على جثمانها غلبت فكانت	لهـا أحكامها لا للخيالـ
رأى بالجسم مبدأ كل شيء	وبالنفس اجتلى غيب المـآل
وحظ النفس عند الجسم نزر	وعند تغلب حظ الكمالـ
وان الله برهن للبرايا	بآيات تدوم على التوالى
ولكن عميت زمنا لامر	وصار قريبها صعب المنال
وغشى وجهها مركوم سحب	فصاروا فى ظلام أو ضلال
وظنوا الشمس اذ زالت اتاها	من الرحمن تكوير الزوال
وما علموا بأن الشأو ناء	وان الشمس صاحبة انتقال

فأن هى لم تكن طلعت بشرق   تكن طلعت بغرب غير آل
لها الطوران فى الدنيا جميعاً   كما الخصمين كانا فى سجال
بدت بالغرب دهراً فاستبانوا   اعاديهم ففازوا فى القتال
فلما أثروا فينا انتبهنا   وأودى الضعف بالاسل الطوال
وليس لنا من الضوء المزجى   سوى سم الخياط لدى النضال
أصاب الجوهرى به فأنمى   كما ينمى المصيد لدى الحبال
هو النظارة الكبرى تريه الا   أمور بعينها لا بالمثال
فادرك وحده الغرب ابتغاء   فعقل الغرب منه فى عقال
ولولا آية فيه لشرق   لدام مجهلا فى شر حال
كأن الله آثره فأضحى   وما وافت بمشبهه الليالى
درى سر الكتاب وكان غيبا   فباح بسره قبل السؤال
وبوح السر اقبح ما نراه   اذا لم يلف فى شرف الخصال
فشوق نفس كل نحو علم   فكان مقاله فوق المقال
وقد أبدى بحسبان كمينا   يوصل سافلا منها لعال
وفكر فى السموات افتكارا   وجاوز شمسهن مع الهلال
تبين ماحوى الافلاك مما   جرى جهة اتصال وانفصال
وبعد تبين الارضين حتى   تبدت فى عوالمها الثقال
ارته جمادها فرآه حيا   يسبح ربه بفصيح قال
ارته نباتها نضراً بهيجاً   تزين بالنظام وبالجمال
ارته اعجم الحيوان يزرى   بذى نطق عن العرب العوالى

ارته حقيقة الانسان فيهـا عجائب فوق أعداد الرمال
ارته النفس فى شرف خطير وأمرا آتيا من ذى الجلال
ارته سياسة الامم الأوانى وراء سياسة الامم الخوالى
ارته عجائب العمران طراً وشرعة ربهـا بين الموالى
فهذى تسع آيات كموسى ولكن نفعها بادى اقتبال
تكفلها كتاب منه سام منظمة كعقد منه خال
الا يا جوهرى رعاك مولى ارادك للمعارف والمعالى
فأن وتفق الانام وأنت منهم فأن المسك بعض دم الغزال

القصيدة الثانية لسعادة الفاضل يحيي بك قدري مأمور ادارة أوقاف الحلمية نظمها من بحر المتدارك (الخبب) وأهداها للمؤلف فشكرنا له وآثرنا نشرها لعذوبة ألفاظها ورونق اسلوبها ولصلة المودة بينهما قال حفظه الله

ان رمت الفلسفة العليا   لبنى الاسلام والامم
أوشئت الحكمة مستقيا   من غيث العلم المنسجم
بادر لجواهر قد نسقت   في شعر يزهو بالحكم
يهدى الحيران ويرشده   لنظام الكون المنبهم
فيه التطبيق على حكم   من محكم تنزيل الحكم
فيه الآيات تعلمنا   مافي الملكوت من العظم
فيه التفصيل يشوقنا   لجمال الصنع المنتظم
صنع الافلاك وانجمها   كنظام الشمس المبتسم
وثلاث مواليد وجدت   في الارض بخلق من سدم
وسياسات وتدابير   جاءت كالنور على علم
قرنت بمسائله تحف   عن أهل العلم ذوى القلم
زانته براهين سطعت   كشفت عن سر مكتتم
قد صيغ الرشد باسطره   كنجوم ضاءت في الظلم
فالفضل لمنش عنونه   بنظام العالم والامم

﴿ فهرست ﴾

(الجزء الثانى من نظام العالم والامم)

٣ الباب السادس الكلام على الانسان
٤ الطائفة الاولى — البحث فى ظواهر جسم الانسان
٦ الطائفة الثانية يبحثون فى مقاييس اعضاء الجسم الانساني
٩ الطائفة الثالثة يبحثون عن تشريح الجسم الانساني وعجائبه
١٠ تشبيه جسم الانسان بالساعة
١٢و١٣ العمود الفقرى واعصاب الحس والحركة
١٦ وضع الجسم بهيئة حكومة منظمة
١٨ معنى قول القدماء الصفراء والدم والبلغم والسوداء
٢٠ مقارنة حيرة علماء الفلك باندهاش علماء التشريح
٢١ ترتيب الأعضاء الباطنة فى جسم الانسان
٢٤ الرئة ٢٥ الدورة الدموية
٤٠ أعضاء التوليد
٤٩ ابداع غريب وحسن وضع وترتيب فى الكبد والرئة والحواس
٥٩ المرتبة الرابعة علماء الفلسفة العالية ــ علم النفس
٦٥ المحسوسات ٦٧ المذوقات ــ المشمومات
٦٨ المسموعات
٧٠ المبصرات
٧٧ شرح رؤية العين ٨٣ الحس المشترك
٨٥ المخيلة والمصورة ٩٠ محاورة أبليس وادريس

٩٣ القوة العاقلة ٩٩ اقسام العلماء
١٠٠ اقسام العلوم الارادة والاختيار
١٠٢ السعادة والاختيار ١٠٣ حكمة تامة ونظام عجيب
١٠٧ ابداع العقل والمنطق والخط
١١٠ ضرب مثل لحال النفس مع الجسم
١١٤ قوى الانسان كلها ترجع الى نفس واحدة
١١٦ برهان ان النفس وقواها واحدة
١١٧ المادة والنفس
١١٨ المادة والنفس والعقل والملائكة
١٢٥ أراء الناس فى النفس
١٣٢ عموم الوحدة فى الموجودات
١٣٦ الباب الثامن نظام الامم
١٤٠ تصير الامة كلها جسماً واحداً وكيف تقارن بالجسم الانسانى
١٤٤ تأثير الاعتقاد فى الامم
١٤٦ الموضوع الرابع مابه نظام الدنيا والدين
١٥١ الموضوع الخامس مآل أهل المدينة الفاضلة بعد الموت
١٥٧ « السادس الامة تضارع العالم كله فى نظامه
١٦٢ « السابع مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا
١٦٥ « الثامن الترقي سنة العالم شرحها القرآن قبل دروين ١٢ قرنا
١٧٠ « التاسع اقسام أهل المدينة الجاهلة واعمالهم
١٧٤ « العاشر آراء أهل المدن الجاهلة
١٧٧ « الحادى عشر فى انماء الثروة ــ الثانى عشر فى الخشوع

١٧٩ « الثالث عشر اعتقادهم فى العدل
١٨٠ « الرابع عشر المدن ذات الروح او الجسد والروح ثم الضالة والفاسقة

﴿ الباب التاسع ﴾

١٨٨ أمة الاسلام ونظامها ومايجب على أهلها ان يتخذوه فى هذه الايام
١٩١ السعادة والاختيار والعمل والتوكل
١٩٤ العمل والتوكل
٢٠٣ توزيع الاعمال على الافراد وماحكم الشرع فى فروض الكفايات
٢٠٥ باب العلم رأي الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه
٢١٣ انعلوم التي يجب تحصيلها والصناعات
٢٢٨ طرق التعليم وما يجب على المسلمين ان يصنعوه
٢٤٠ فصل فى ان كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم
٢٤١ فصل فى وجه الصواب فى تعلم العلوم وطريق افادته

﴿ المقالات الاصمعية ﴾

٢٤٦ المقالة الاولى الترقي فى الازهر
٢٤٩ « الثانية كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الازهر
٢٥٢ « الثالثة نظام الازهر
٢٥٧ « الرابعة الغزالى والعلوم فى الازهر
٢٦١ « الخامسة قول الغزالي ينبغي لطالب العلم ان لايدع فنا من الفنون
٢٦٥ « السادسة الازهر وابن رشد
٢٨٨ « السابعة كليات الاسلام والترقي

٢٩٤ « الثامنة الوافقون والعلماء
٣٠٠ « التاسعة خطاب لوجهاء الامة
٣٠٤ « العاشرة العالم مدرسة كبرى والله سيدها والناس طالبون
٣٠٧ دعوة عامة للمنشىء
٣١٥ العالم السفلى

﴿ المقالات الرازية ﴾

٣١٩ المقالة الاولى هذه العلوم فاين الرقي
٣٢٢ المقالة الثانية « « «
٣٢٦ « الثالثة احوال الدول فى قصص فرعون وموسى عليه السلام
٣٢٩ « الرابعة فى بنى اسرائيل والمصريين
٣٣٤ « الخامسة فى انشاء الامم
٣٤١ « السادسة فى احوال بنى اسرائيل وملكهم
٣٤٥ « السابعة نظرة فى البحر الابيض المتوسط
٣٥٣ « الثامنة يأجوج ومأجوج
٣٦٨ « التاسعة حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى
٣٧٥ باب المسائل القامة
٤٠٣ محاورات لطيفة فى الاسلام ونظامه واسباب انحطاطه
وسبيل ارتفاعه

﴿ جدول الخطأ والصواب ﴾

صحيفة	سطر	غلط	صواب
٦	١٢	لهؤلاء	كهؤلاء
١٠	١	طنيه	ظنيه
١١	١٤	ينظرنا	بنظرنا
١٥	٤	معه	منه
١٦	٢	المسقط	المقسط
١٦	١٦	أيضا	..
٢٣	١٥	فبمالله	فالله
٢٣	١٦	من	فمن
٢٧	١٥	الجهة السورياةة	الجهة الشريانيه
٢٨	٩	او ينزل	وينزل
٢٨	١٣	او يترقى	ويترقى
٢٩	١٢	لاعن انسان	عن الانسان
٢٩	١٧	والحامل	عن الحامل
٣٢	٨	ان العلم	انه بالعلم
٥١	٨	هى	وهى
٥٨	١٥	تراقبنا	ترقينا
٦٢	١١	فى ملكوت	الى ملكوت
٦٣	١٢	الشاكلة	المشكلة
٦٤	٧	شافك	شاقك

صحيفه	سطر	غلط	صواب
٦٤	١٣	لصورها	بصورها
٦٨	٢	سابقناها	سابقتاها
٦٨	٢	فكأنما	فأنما
٧٠	٤	لعلف	لطيف
٨٠	٨	لكنا	كنا
٨٩	١١	يأن	بان
١١٤	٣	علنها	هى عنها
١١٤	٤	مقادره	مقاديره
١٤٤	١٢	للأدارة	للأرادة
٢١٤	١٦	فتأكل	فتأمل
١٢٠	٨	يسمه	يسميه
١٢١	٣	وعلى	على
١٢١	٥	كراة	كرات
١٢٢	٥	اوحضه	ادحضه
١٢٢	٦	توضت	او حضت
١٢٢	١٥	فى اصل	فأصل
١٢٣	١٤	ينمص	يغمض
١٢٤	١٧	ذلك	فلك
١٢٥	٤	ذلك	فلك
١٢٥	٨	ارفع	اومع
١٢٥	٩	ادمعها	اومعها

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٢٦	١٣	القضبان	الغضبان
١٢٧	٣	فأخروجها	فأخرجوها
١٢٧	٥	فى من	من
١٢٥	٨	سمين	سجين
١٢٨	١٤	مفهومان	مفهومتان
١٤٠	١٥	مس الجمع	من حيث الجمع
١٤٣	١٦	والصفيرة	والضغيره
١٤٣	١٧	فهم المعدة	فهم كالممدة
١٥٣	١٤	فارحين	فرحين
١٥٤	١١	صورة	سوره
١٥٧	٩	الى قشورها	الا قشورها
١٦٩	٧	النظرة	النظر
١٦٩	١٢	والغرينيه	الغربية
١٧٢	١٥	الاسخاص	الاشخاص
١٧٥	١٢	ونيلهم	نيلهم
١٧٥	١٤	استضانها	استعنا بها
١٩٤	٦	الموضوع الخامس عشر	. . .
١٩٧	٣	وقال	قال
٢٠٧	١٧	بدنا	ومن زاد
٢١٠	١٢	أحد العقلاء من أمته	احد من العقلاء
٢١١	١	وعددها	وعدوها

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢١٢	١	الأئمة	...
٢١٢	٣	فيجب	يجب
٢١٤	١	ليحوذ	ليحوز
٢١٩	٦	اسمها	اسها
٢٢٠	٨	اذا	اد
٢٢١	٨	داخلين	وجعلهم داخلين
٢٢٢	٢	وتمليه	وتحليه
٢٢٢	٥	والحيوان	الحيوان
٢٢٣	٦	لبقي	نبقي
٢٢٣	٧	حصره	حسره
٢٢٥	١٧	الجامع	بالجامع
٢٣٧	١	اخرج	به اخرج
٢٣٧	٧	فى الأيات	الأيات
٢٣٨	١	أم	اتم
٢٤٢	١١	توجد	نوجد
٢٤٢	١٢	ولأن	ولا ان
٢٤٢	١٢	لم نجعل	الم نجعل
٢٧٣	٥	يمكن	....
٢٨٤	٧	وانما	انما
٢٨٨	٦	فقلية	فغلبه
٢٨٨	١١	الثامنة	السابعة

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢٩٠	١٣	والازكياء	والاذكياء
٢٩٠	١٧	بالرهان	بالبرهان
٢٩١	١٤	نفقة من نفقات	نفثه من نفثات
٢٩١	١٥	هل	....
٢٩٤	١٠	التاسعة	الثامنة
٢٩٦	٣	عزر	غزر
٢٩٨	٩	فلتنفقوا	تنقوا
٢٩٩	٤	ماشا	مائتى
٣٠٢	١٥	القطرتان	القطرتين
٣٠٣	١٢	كافة	عامه
٣٠٦	٦	اذ	اذا
٣٠٦	٨	لابالمدارس	الا بالمدارس
٣١١	٩	افيرى	افبرى
٣١٣	٩	الشمع	الشمس
٣٢[illegible]	٩	وايان	وايان
٣٢٧	٧	واحول	واحوال
٣٢[illegible]	٣	وموسى	وموسى
٣٣٠	١٢	عمر مهيمن	عمر ومهيمنا
٣٣٢	٤	يعل	بعل
٣٣٣	١١	بقيت	يقيت
٣٣٥	٥	وذقت	وذاقت

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٣٥٩	١٥	يورمهم	يوزنهم
٣٦٥	١٤	تفاتحين	كفاتحين
٣٦٦	١٠	النط	النبط
٣٦٧	١٧	بادة	بأبادة
٣٧٦	١٤	كافة	....
٣٧٧	١٧	المكركسكوبيه	المكرسكوبيه
٣٧٨	١٠	وبسرعة	بسرعة
٣٧٩	١	بأخرى	بأحاديث
٣٨٠	٢	ينبة	ينبه
٣٨٢	١٠	ومع	مع
٣٨٤	١	برحم ماعز	برحم ماعز
٣٨٤	٣	ليؤثم	ليأثم
٣٨٤	١١	تأخذ	نأخذ
٣٨٤	١٤	السفا	العماً
٣٨٥	١٠	عرابى	اعرابى
٣٨٦	٥	فبها تلين	فبهاتين
٣٨٦	٦	وحيث	وجبت
٣٨٦	٤٨	ميراثى ذكر	....
٣٨٨	١٢	والمنسوب	والمنسوخ
٣٩٨	٦	الجاحظز	الجاحظ
٤٠٠	٣	يعموا	يعمموا

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٤٠٠	١٠	أسهل منها حتى	بها
٤٠٤	٨	على بعض	. . . .
٤٠٤	٨	بعضهم	بعضهم على بعض
٤٠٥	٦	ولايستسنون	ولايستثنون
٤٠٨	٥	الملايين	والملايين
٤١٠	٤	عبادة	عبادة
٤١٠	١٤	ناداهم	ناواهم
٤١٣	١٤	نو نفي	نفي
٤٢٦	٨	من	ممن
٤٢٧	٦	فأشار	فاشار الى
٤٢٩	٨	الابن	ابن
٤٣٢	١٤	صغريها	مغربها
٤٣٢	١٧	تظن	يظن
٤٣٦	١	ويرحبوا	ويرجعوا
٤٣٦	٨	للأندلس	الاندلس
٤٤٢	١١	جهالهم	رجالهم
٤٤٣	٦	تلحمها	تلحقها
٤٤٦	٧	يوصفه	. . . .
٤٩٢	١١	ولكن	و . . .
٤٩٣	٣	بعدهم	بعد
٤٩٤	٦	فى اول	فى اول سورة
٤٩٤	١١	كانت	كانت أول


Bibliotheca Alexandrina
05573679